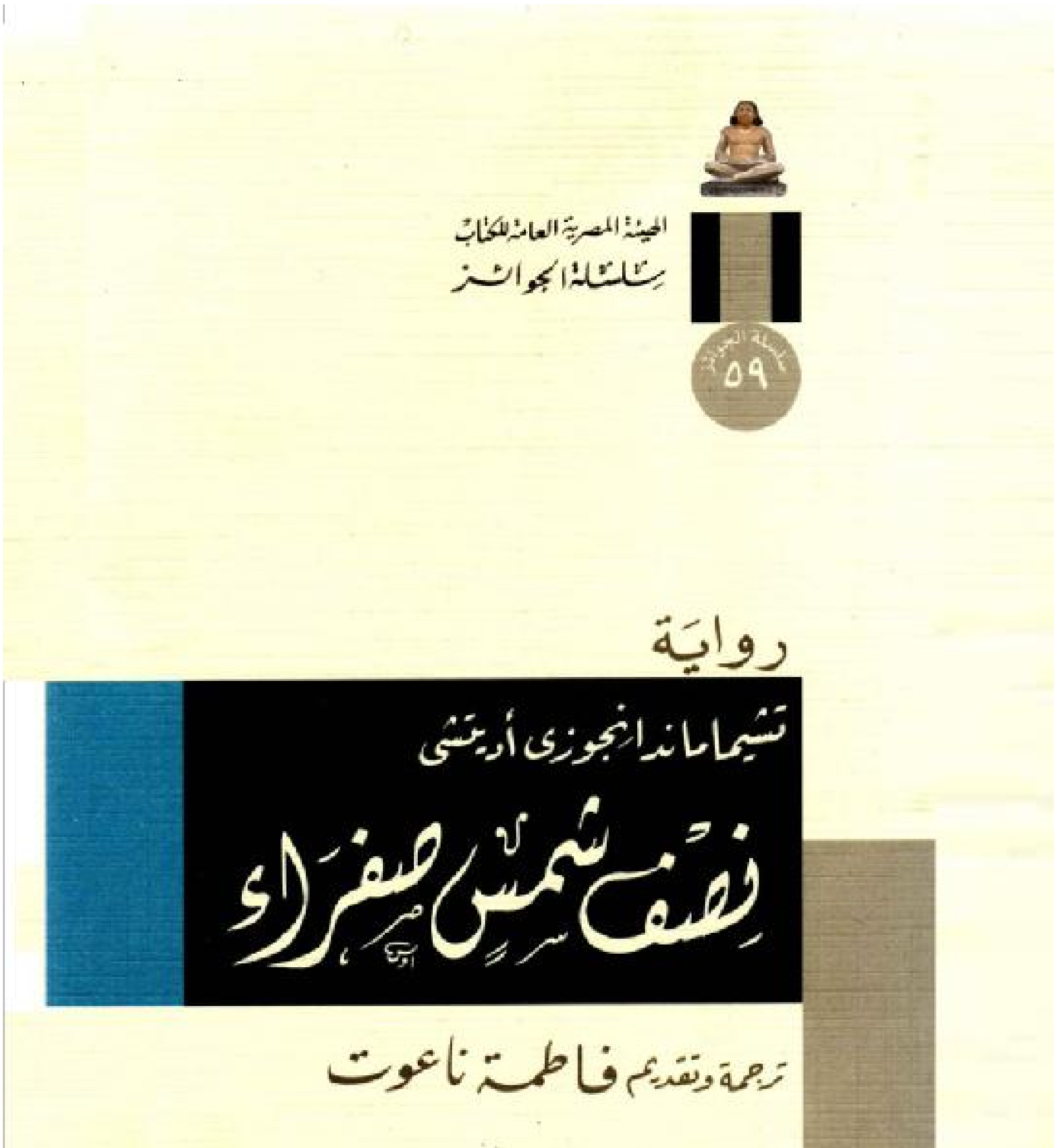
الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز
سلسلة الجوائز ٥٩
رواية
تشيماماندا انجوزي أديتشي
نصف شمس صفراء
ترجمة وتقديم فاطمة ناعوت

نصفُ شمسٍ صفراء

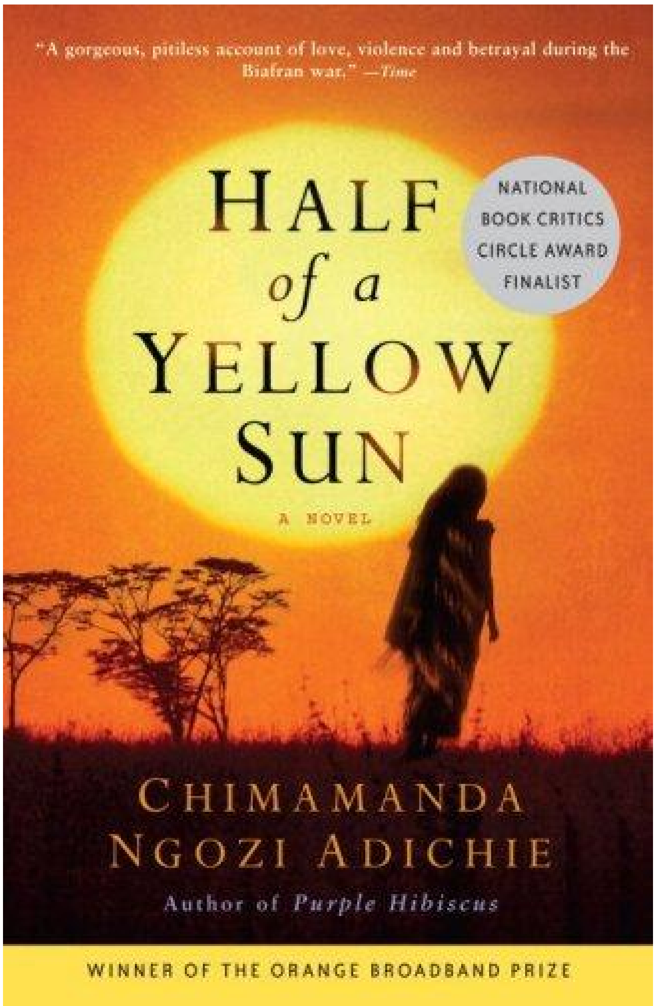

Arabic translation of

Half of a Yellow Sun

by

Chimamanda Ngozi Adichie

Ttanslated by: **Fatima Naoot**

الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب

سلسلة: (الجوائز) 2010

رئيس مجلس الإدارة	أ . د . محمـــد صابـــر عرب
رئيس التحرير	د . ســــهـــير المصــــادفــــة
مدير التحرير	الســـــمــــــاح عبــــد الله
سكرتير التحرير	وردة عـــبـــد الحــــليــــم
التصميم الجرافيكي	د . مـــــدحـــــت مـــتـــولــــي
الإخراج الفني	صـــبــــــري عـــبـد الـــواحـــد
	عـــلـــــي أبــــو الـــخـــيـــر

أديتشي، تشيماماندا نجوزي.
نصف شمس صفراء/ رواية تشيماماندا نجوزي أديتشي؛ ترجمة وتقديم: فاطمة ناعوت.
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2009.
608 ص؛ 24 سم.- (جوائز)
تدمك 3 215 421 977 978
1- القصص الأفريقية.
(أ) ناعوت، فاطمة (مترجم)
(ب)- العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب 23136/ 2009
I.S.B.N- 978- 977- 421- 215- 3
ديوي3، 896

نصفُ شمسٍ صفراء

رواية

للكاتبة النيجيرية

تشيماماندا نِجوزي أديتشي

ترجمة وتقديم

فاطمة ناعوت

تقدمة

خلال السبعة وعشرين عامًا التي قضاها نلسون مانديلا في السجن، كان يقتلُ الوقتَ بقراءة الأدب النيجيريّ ذي الطبيعة شديدة الخصوصية والثراء والعجائبية. حتى أنه وصفَ متعتَه بقراءة رواية "الأشياءُ تتداعَى" Things Fall Apart للنيجيري "شينوا آشيبي"، الذي لُقِّبَ بـ "أبو الأدب الأفريقيّ الحديث"، قائلاً: "برفقته تتهاوَى جدرانُ المعتقل". وقد راهنَ آشيبي على روائية نيجيرية شابة، لافتة الموهبة بحق، اسمُها تشيماندا نجوزي آديتشي، من مواليد نيجيريا 1977. قال عنها آشيبي: "آديتشي جاءتْ مكتملةً"، وهي شهادة كبرى من أديبٍ ذائع الصيت عالميًّا. استطاعت تشيماندا، عبر روايتين بالإنجليزية، حصْدَ قلوبِ ملايين القراء من أرجاء العالم، وكذا حَصْدَ العديد من الجوائز الأدبية الرفيعة. روايتها الأولى "الخُبّيزة الأرجوانية" 2003، فازت بجائزة "الكومنولث" لأفضل كتابٍ أولَ لكاتب 2004، ثم صدرتْ روايتُها الثانية، التي نقدِّمُها بالعربية هنا، "تصفُ شمسٍ صفراء"، “Half of a Yellow Sun” عام 2007، لتفوز بجائزة "الأورانج" البريطانية، وتبيع ملايين النسخ.

تقع أحداثُ الرواية قبلَ، وأثناء، وبعد، الحربِ الأهلية النيجيرية-البيافرية، التي تُعرَف عالميًّا بحرب بيافرا، وأزهقت أكثرَ من مليون روحٍ بشرية. وهي نزاعٌ أهليٌّ مُسلَّح استمر من 1967 حتى 1970، في محاولة من ولايات الجنوب الشرقيّ النيجيري الاستقلال عن الدولة الاتحادية في نيجريا، وإعلان جمهورية بيافرا، التي اتخذت من رمز "تصفِ شمسٍ صفراء" شعارًا لها وعَلَمًا مستقلاً يكافحون من أجل رفعه فوق أرضهم. ولذلك أهدت تشيماندا روايتَها لجديها اللذين قضيا في الحرب، وإلى جدتيها وأبويها الذين حكوا لها أهوالَ الحرب، ثم أخيرًا "للحب" الذي تطمحُ في أن يسود العالم.

في هذا قالت آديتشي: " جَدي لأمي، وجَدي لأبي، كلاهما كان رجلاً رائعًا، كلاهما وُلد في بدايات القرن العشرين في أرض قبيلة الإيبو التابعة للحكم البريطانيّ، كلاهما قرر أن يعلِّم أبناءه، كلاهما كان خفيفَ الظِّلّ، وكلاهما كان ذا كبرياء. علمتُ كلَّ هذا عبر القصص التي حُكيَت لي. قبل مولدي بثمان سنوات، قُتل جداي في بيافرا كلاجئيْن بعدما فرّا من مسقط رأسيهما التي سقطت تحت سُلطة الحشود الفيدرالية. وكبرتُ أنا في ظلال بيافرا.

كبرتُ وأنا أسمع قصصًا عن: "قبل الحرب"، و"بعد الحرب"؛ كأنما الحرب بشكل أو بآخر قد قسمتْ ذاكرةَ عائلتي نصفين. وهفوتُ دائمًا للكتابة عن بيافرا- ليس وحسب لأمجِّدَ جَديَّ، بل أيضًا لأمجِّدَ الذاكرةَ الجمعية للأمة بأسرها. كتابة "نصفُ شمس صفراء" كانت بمثابة إعادة رسم شيء لم أره، على أنني حملتُ ميراثَه. كما أنها، كما آمُل، ضريبتي للحبِّ: ذلك الشيء الساحر اللا منطقي الذي يربط بين الناس، والذي يجعلنا آدميين."

حاول سكان إقليم بيافرا، على مدى سنواتٍ ثلاث، الانفصالَ عن نيجيريا وتكوين دولة مستقلة خاصة بعرقية الإيبو. لكن تلك الجمهورية الانفصالية لم تحصل إلا على اعتراف عدد قليل من الدول هي: تنزانيا، الجابون، هايتي، كوت ديفوار، وزامبيا. وقد دعمت إسرائيلُ الانفصاليين بإمدادهم بالأسلحة سوفييتية-الصنع التي استولت عليها من العرب، وكذلك دعمت البرتغالُ الانفصاليين نكايةً في نيجيريا التي كانت من قبل قد دعمت استقلال المستعمرات البرتغالية في أفريقيا.

الجميلُ واللافت، فنيًّا، في هذه الرواية الفاتنة، أنها، وبالرغم من كونها رواية سياسية، وتطرحُ فترةً دامية زاخرة بالمذابح والانتهاكات الإنسانية، على مدى صفحات طوال (540 صفحة)، إلا أن الكاتبةَ نجحت في انتزاعها من الجفاف السياسيّ والبرود الأيديولوجي بأن تناولتها من وجهة النظر الاجتماعية والإنسانية. والأجملُ أن كلَّ أحداث الرواية تقريبًا جاءت على لسان صبيٍّ صغيرٍ خادمٍ أسودَ، ومن خلال عينيه اللتين تريان ما يجري، وتحاولان أن تفهما ما الذي يحدث في العالم، ولِمَا. خلال تلك الرواية بوسع القارئ، غير الأفريقي، أن يتلصّصَ على ذلك العالم شديد الخصوصية لمجتمع القارة السوداء؛ من أساطيرَ وطقوسٍ وغرائبيات. حتى أن الكاتبة طعّمتْ روايتَها، الإنجليزية، بالعديد من الجُمَل المكتوبة بالدارجة المحكية الإيبوية، التي يتحدث بها سكّانُ بيافرا من قبائل الأيبو Igbo. (ميّزنا الكلماتِ الأفريقيةَ بالحرف *المائل*).

الصبيُّ الصغير الأسود آجوو، تأخذه العمّةُ ليعملَ خادمًا عند البروفيسور النيجيريّ أودينيبو، أستاذ الرياضيات بجامعة نسوكا. وفي بيت البروفيسور سوف يتنصّتُ الصبيُّ على السيد وزائريه من زملائه الأكاديميين يتحدثون حول المجازر والانتهاكات وحُلم الاستقلال. وتمرُّ الأيامُ ويكبر الصبيُّ يومًا فيومًا، فيكبر وعيه بالعالم، ويكبر معه وعيُنا، نحن القراء، بالقضية التي

حملها شعبٌ يحلم بالحرية والاستقلال. احتفتِ الكاتبةُ بالأشياء الصغيرة التي تصنع الحياة اليومية للمواطن الأفريقي، سواء القرويّ الأُميّ البسيط، أو البرجوازيّ المتعلِّم من أبناء الطبقة الوسطى، وكذلك طبقة الانفتاحيين الأثرياء من جامعي المال. وعبر تلك اليوميات تُسرِّب الكاتبةُ في مكر فنيٍّ رفيع، وفي غفلةٍ من القارئ، مفرداتِ قضيتها السياسية والاجتماعية الكبرى: صراع ثنائيات الثراء والفقر، الجوع والتخمة، العلم والجهل، وهنا ملمحُ موهبة آديتشي وسرّ فتنة طرحها السرديّ.

والجميل أيضًا، مضمونيًّا، هو أن الكاتبة لم تقع في ثنائية الأبيض والأسود، الخير والشر، النقاء والتلوّث، كما فعل العديد من الكتّاب الكلاسيكيين. فقد جعلت أبطالها الطيبين يرتكبون خطايا عابرة، كما جعلت الأشرارَ يأتون أعمالاً رفيعة ونبيلة. وهنا ملمح واقعيّ، لكنه لم يتكرس إلا في الكتابة ما-بعد-الحداثية، التي فضّتِ النزاعَ بين الأبيض والأسود واحتفت بملايين الدرجات من الرماديات بينهما.

ومثلما طرحتِ الروايةُ دماء الجثث في المجازر والانتهاكات وتفاصيل اغتصاب الفتيات، طرحت كذلك رفاهَ الحب والأسرة والصداقة ودفء المشاعر وحميمية العلاقات الجسدية بين العشّاق، مثلما طرحت الأحلامَ والرهاناتِ بين التحقّق والإخفاق، كلُّ هذا وأكثر عبر يومياتِ الأفارقة، سواء في المدينة لاجوس، أو في القرى الصغيرة الفقيرة النائية، أو في لندن، حيث يذهب أثرياءُ نيجيريا للدراسة والتسوّق.

خمسةُ أشخاص وطفلة صغيرة هم شخوص العمل الرئيسيون. قصةُ حبٍّ رفيعة نشأت بين بروفيسور أودينيبو، الذي سيتخذ لقبَ "السيد" طوالَ الحكي؛ بما أن الراويةَ الناطقَ هو آجوو الخادمُ الصغير، وبين أولانا الشابة النيجيرية المثقفة. وبعد زواجهما لن يُقدَّر لها أن تنجبَ، وفي ذات الوقت سيقع أودينيبو في نزوة عابرة مع خادمة والدته، بترتيبِ دبرته الوالدة، بتوسُّل طقوس السِّحْر الأفريقيّ، لكي تُفرّقَ بين ابنها وبين حبيبته المثقفة، لأنها تؤمن، عبر موروثها الشعبيّ، "أن المثقفاتِ عواهرُ جَدِباتٌ كأراضٍ بور لا يصلحن للزواج والأمومة". تُسفرُ تلك النزوةُ عن مولد طفلة، سوف تموت أمها فور ولادتها؛ وتربيها أولانا، واهبةً إياها اسم "بيبي" بمعنى "طفلة"، بالإنجليزية. وبظنّي أن هنا رمزًا ودّتِ الكاتبةُ أن تطرحه بعدم تعيين اسم محدّد للطفلة. وكأنها الأملُ والحلمُ الذي يتبناه شعبٌ يائس للحصول على هُوية تخصُّه. سوى أن هذه الهوية خرجت عرجاءَ لا اسمَ

نهائيًّا لها، حيث لحظةُ الحبِّ التي صنعتها لم تكن سويةً، ليس فقط لأنها ولدَت سِفاحًا، ولكن الأهم لأنها لم تكن نتاجَ حبٍّ بين الأبوين. فالأبُ مأخوذٌ مسلوبُ الإرادة مسحورٌ بنباتٍ مشعوذٍ، والأمُّ مُرغمةٌ مقهورةٌ مدفوعةٌ لما لا تريد بسبب قلّة الحيلة والعوزَ الماديّ والجهل. في حين أولانا، التي تمثّل المبادئ والثقافة والشباب والجمال، سوف تحتضنُ الطفلةَ وتربيها كابنتها.

من جانب آخر سنتتبع خيطًا مختلفًا يخص توأم أولانا. اسمُها كاينين، لكنها نقيضُ توأمتها. شرسةٌ ساخرةٌ لا تؤمنُ بالثورة ولا بالقضية البيافرية. سيدةُ أعمال تُدير شركاتها وتسعى لجني الأموال. على أنها في الأخير سوف تناضلُ في سبيل القضية مثل بقية شعبها. تقع في هوى صحفيٍّ وباحث بريطانيّ، هو ريتشارد تشرشل، الذي تبنّى قضية بيافرا كأنه أحد أبنائها. وكتب مخطوطة كتاب وضع له عنوان "العالم كان صامتًا ونحن نموت"، يحملُ إدانةً لكلِّ العالم الذي وقف يتفرج، صامتًا، على المذابح التي صنعها النيجيريون المسلمون من قبائل الهاوسا في البيافريين الانفصاليين. وفي الفصل الأخير من الرواية، سيكتشف فجأةً أن تلك القضية لا تخصُّه، وأنه ليس جزءًا من "نحن" في عنوان كتابه؛ هو غريب عنهم بشعره الناعم وعينيه الزرقاوين، حتى وإن أحبَّ كاينين السوداء ذات الشعر الجعد. ولذلك سنكتشف مع السطر الأخير من الرواية، أن الذي سوف يكتب هذا الكتاب، ليس إلا آجوو، الخادم الأسود الصغير، الذي كبُر الآن، مع الحرب، وكبرت معه أحلامه ومراراته، بعدما شهِد تقتيل أفراد أسرته واغتصاب شقيقته وتشويه أطفال قريته. وسوف يهدي كتابه: "إلى سيدي، رَجُلي الطيب!" وهي الجملة التي كان البروفيسور أودينيبو يناديه بها منذ كان طفلا: "أهلا بك يا رَجُلي الطيب!"

فاطمة ناعوت

القاهرة يونيو 2009

نصفُ شمسٍ صفراء

شيماماندا نِجوزي أديتشي

ترجمة فاطمة ناعوت

الجزء الأول

بدايات الستينيات

(1)

"هذا السيدُ تقريبًا مجنونٌ؛ أمضى سنواتٍ كثيرةً من عمره فيما وراء البحار في قراءة الكتب، يتحدثُ إلى نفسه في مكتبه، ولا يردُّ التحايا، كما أن شَعرَه غزيرٌ جدًّا." قالت عمةُ آجوو هذا التعريف بصوت خفيض فيما يسيران في الدرب. "لكنه رجلٌ فاضل،" أضافت. "ومادمتَ تعملُ بجدٍّ، فسوف تأكل جدًّا، حتى أنك سوف تأكلُ اللحمَ كلَّ يوم." توقفت لكي تبصق؛ فغادر اللعابُ فمَها بصوت يشبه الامتصاص ثم استقرَّ فوق العشب.

لم يكن آجوو ليصدقَ أن أيَّ إنسانٍ، ولا حتى هذا السيد الذي هو على وشك المعيشة معه، يأكل اللحمَ كل يوم. لكنه لم يجادل عمّته، لأنه كان مزدحمًا بالأفكار والترقّب، مشغولاً بمحاولة تصوّر حياته المقبلة بعيدًا عن القرية. كانا قد مشيا لبرهة حتى الآن، منذ أن نزلا من اللوري في مرآب السيارات، وشمسُ الظهيرة تحرق ظهر رقبته. لم يكن قد شاهد مثل تلك الشوارع التي بدت للعيان بعدما تجاوزا بوابات الجامعة، شوارعُ أسفلتية ناعمةٌ جدًّا حدَّ أن تاق خدُّه إلى مسّها. لن يكون بوسعه أبدًا أن يصفَ لشقيقته آنيوليكا كيف أن الأكواخَ هنا مطليةٌ بلون السماء وتقف متجاورةً مثل سادةٍ نبلاء متأنقي المظهر، ولا كيف أن سياجَ الأشجار بينها مشذبةٌ ومقصوصةٌ باستقامة عند قممها فبدت مثل طاولات مغطاة بأوراق الشجر.

كانت العمةُ تمشي أسرع، خُفُّها يطقطقُ سلاب-سلاب[1] فيتردد صداه في الشارع الساكن. تساءل آجوو ما إذا كانت هي، أيضًا، تشعرُ بالقطران الذي يزداد سخونةً تحت القدم، من خلال نعليها الرقيقين. مرّا بعلامة، *شارع أوديم*، فنطق آجوو: "*شارع*"، كما اعتاد أن يفعل كلما شاهد كلمة إنجليزية غير طويلة. شمَّ رائحةً ذكيّة تُدوِّخ، وهما يدخلان المجاورةَ السكنية، فعرف أن الرائحةَ تفوحُ من تلك الزهور البيضاء التي تتدلى كعناقيدَ من شجيراتِ المدخل. شجيراتٌ تشبه تِلالاً نحيلةً. مروجٌ تتلألأ بالخضرة. وفراشاتٌ ترفُّ في الأعلى.

"أخبرتُ السيدَ أنكَ تتعلم بسرعة، *أوسيزو-أوسيزو*،" قالت عمته. أومأ آجوو مُجاملاً رغم إنها أخبرته بهذا عدة مرات، مثلما رددت حكاية الحظّ الحسن الذي طرق بابه أخيرًا: قبل أسبوع، حينما كانت تكنسُ الممرَّ في قسم الرياضيات، سمعتِ السيدَ يقول إنه بحاجة إلى خادم صغير يقوم بأعمال النظافة في البيت، وأجابته في الحال أن بوسعها المساعدة، قبل أن تتمكن موظفةُ الآلة الكاتبة أو ساعي مكتبه من عرض إحضار أحد.

"سوف أتعلمُ سريعًا يا عمتي،" قال آجوو. كان يحدّقُ في السيارة بالمرآب؛ ثمة شريحةٌ معدنية تحيط بجسمها الأزرق مثل عقدٍ بهيّ.

---

[1]- Slap-slap تعني "يصفع"، وكأن الكاتبة تقصد أن الخف، الشبشب، يصفق الأرض فيما يدب فوقها. (المترجمة)

"تذكّرْ، العبارة التي ستجيب بها كلما يناديك السيد هي: نعم، *يا صاح*[1]!"

"نعم، يا صاح!" ردّد آجوو.

كانا يقفان أمام الباب الزجاجيّ. تراجع آجوو قليلاً ليمسّ الحائط الأسمنتي، أراد أن يتحقق إلى أي مدى يختلف عن الجدار الطينيّ في كوخ أمه الذي مازالت عليه علامات الأصابع التي عجنته وشكّلته. للحظة عابرة، تمنى لو رجع إلى كوخ أمه، تحت برودة السقيفة المعتمة؛ أو إلى كوخ عمته، الوحيدة في القرية التي تمتلك سقفًا من الحديد المعرّج.

دقّت العمةُ على الزجاج. وكان بوسع آجوو أن يرى الستائر البيضاء وراء الباب. قال صوت بالإنجليزية: "نعم؟ ادخلْ."

خلعا نعليهما قبل الدخول. لم يكن آجوو قد رأى من قبل غرفةً بهذا الاتساع. وبرغم الأرائك البنيّة المرصوصة في نصف دائرة، والمناضد الجانبية فيما بينها، وبرغم الرفوف المكدسة بالكتب، وطاولة المنتصف التي فوقها مزهريةٌ بورودٍ بلاستيكيةٍ حمراءَ وبيضاء، إلا أن مزيدًا من الفراغ كان لا يزال بالغرفة. كان السيد يجلس على مقعد بمرفقين، بقميص داخليّ وبنطلون قصير. لم يكن معتدلاً في جلسته بل مائلٌ، وكتابٌ يغطي وجهَه، كما لو نسي أنه للتوّ قال لشخصين: ادخلا.

"مساء الخير يا صاح،! هذا هو الطفل،" قالت عمة آجوو.

نظر السيدُ إلى أعلى. بشرتُه قاتمةٌ جًّا، مثل قشرة شجرة عجوز، ولمع الشعرُ المغطِي صدرَه وساقيه بظلٍّ أكثرَ قتامةً. خلع نظارته: "الطفل؟".

"الصبيُّ الخادمُ يا صاح."

"أوه، نعم، أحضرتِه. *أنا كبوتاجو يا*[2]." كانت لهجةُ السيد الإيبو[3] لها ملمسُ الريشِ في أذنيْ الصغير آجوو. لهجةٌ إفريقية ملوّنةٌ بظلال من الإنجليزية، لهجةُ تخصُّ رجلاً كثيرًا ما يتحدث الإنجليزية.

"سوف يعمل باجتهاد،" قالتِ العمةُ. "إنه ولدٌ طيب. فقط خبّره عما ينبغي أن يعمل. شكرًا يا صاح!"

نخرَ السيدُ بصوتٍ يشبه الموافقة، وهو يرمق آجوو وعمّته بانطباع يشي بعدم اهتمام، كما لو أن وجودهما قد أنساه شيئًا مهمًّا. ربتت العمة على كتف آجوو، هامسةً بأنْ يُحسنَ السلوك، ثم استدارتْ صوب الباب. بعدما غادرتْ، أعاد السيدُ نظارته وغرق في كتابه، مسترخيًا أكثر في وضعيته المائلة، وساقاه ممددتان إلى الأمام. حتى وهو يقلّبُ الصفحاتِ، كانت عيناه على الكتاب.

---

[1]- Sah، باللغة النيجيرية تعني سيدي، ومقابلها المؤنث Mah، سيدتي. (المترجمة)

[2]- اختارت الكاتبة شيماماندا أن تضع بعض العبارات بلهجة الإيبو النيجيرية، وقد ميزناها *بالخط المائل*. (المترجمة)

1 - نسبة إلى قبيلة الإيبو Igbo. (المترجمة)

وقف آجوو جوار الباب، ينتظر. سقط ضوءُ الشمس داخل الغرفة عبر نوافذها مثل شلالٍ، ومن وقت لآخر، كانت نسمةٌ عذبةٌ ترفعُ الستائرَ. الغرفةُ صامتةٌ إلا من خشخشة صفحات كتاب السيد. وقف آجوو برهةً قبل أن يبدأ في التحرك ببطء أقرب وأقرب من المكتبة، كأنما ليختبئ فيها، وعندئذ، بعد برهة، غطس في الأرض، متوسّدًا حقيبتهَ الورقيةَ التي وضعها بين ركبتيه. نظر إلى السقف، لكَمْ هو عالٍ، لكم هو قاسي البياض! أغلق عينيه وحاول إعادة رسم الغرفة الشاسعة بأثاثها الأجنبيّ الغريب، لكنه لم يقدر. فتح عينيه، واستولى عليه عجبٌ جديد، فنظر حوله ليتأكد أن كلَّ هذا كان حقيقيًّا. وراح يفكر أنه سوف يجلس على هذه الأرائك، وسوف يلمّعُ هذه الأرضية الناعمةَ حدَّ الزلق، وسوف يغسلُ تلك الستائر المخملية الشفيفة.

"كيدو *أفا* جي؟" ما اسمك؟ سأل السيدُ بغتةً، فانتفض آجوو.

"ما اسمك؟" سأل السيدُ مجددًا واعتدلَ في جلسته. فملأ المقعدَ ذا المرفقين، شعرُه الغزيرُ منتصبٌ فوق رأسه، ذراعاه مفتولتان، كتفاه عريضتان؛ كان آجوو يتصوره رجلاً طاعناً في العمر، شخصاً سهلَ الانقياد ضعيفًا، والآن بدأ خوفٌ مفاجئ يغزوه لئلا يروقُ لهذا السيد الممتلئ بقوة الشباب وسطوتهم، سيدٌ كأنما فوق كلِّ احتياج.

"آجوو، صاح."

"آجوو. وجئت من أوبوكبا؟

"من أوبي، صاح."

"قد يكون عمرك أيًّا ما بين الاثني عشر عاماً والثلاثين." قال السيد ثم ضَيّق عينيه وأردف: "ربما في الثالثة عشرة." قالها بالإنجليزية.

"أجل صاح،"

عاد السيدُ إلى كتابه. ووقف آجوو هناك. تصفّح السيدُ عدةَ صفحاتٍ ثم نظر لأعلى. "نجوا، أذهبْ إلى المطبخ؛ بالتأكيد ستجد في الثلاجة شيئًا تأكله."

دخل آجوو المطبخَ بفضول، واضعًا قدمًا ببطء ورافعًا قدمًا. حينما رأى الشيء الأبيض، الذي يماثله طولاً تقريبًا، عرف أنها الثلاجة. عمتُه كانت أخبرته عنها. مخزنٌ بارد، قالت، يحفظ الطعامَ لئلا يفسد. فتحها ولهثَ حينما اندفع الهواءُ البارد وغمرَ وجهه. برتقالٌ، خبزٌ، بيرة، مشروباتٌ خفيفة وعصائرُ: أشياءُ كثيرةٌ في معلّبات وقنانٍ رُصّت فوق أرفف مختلفة و، وفي الأعلى، كانت هناك دجاجةٌ محمّرة تتألق، كاملةٌ إلا من فخذٍ واحد منزوع. مدَّ آجوو يديه ولمسَ الدجاجة. زفرتِ الثلاجةُ بقوة في أذنيه. لمسَ الدجاجةَ مرة أخرى ثم لعقَ أصابعه قبل أن ينزعَ الفخذَ الآخر، وراح يأكله حتى لم يبق في يده إلا شظايا ممصوصةٌ من العظام. بعد ذلك، كسر رغيفًا، وتناول قطعةً كبيرة مما تاق كثيرًا ليتشارك بها مع إخوته، إذا ما حدث وزارهم أحدُ الأقارب وأحضر معه رغيفًا على سبيل الهدية. كان يأكل على عجل قبل أن يدخلَ السيدُ ويغير رأيه. كان قد أنهى طعامه ووقف جوار الحوض، محاولاً أن يتذكر ما قالته

عمته عن كيف يُفتح لكي نحصل على ماء متدفق مثل الينبوع، حينما دخل السيد. يرتدي قميصًا مطبوعًا وبنطالاً. أصابعُ قدميه، التي كانت تتلصص عبر الشبشب الجلديّ، بدت أنثويةً، ربما لأنها شديدة النظافة؛ ذاك أنها تنتمي لقدمين تعودتا أن تكونا داخل حذاء.

"ماذا هناك؟" سأل السيد.

"صاح؟" أشار آجوو إلى الحوض.

جاء السيد وأدار الصنبورَ المعدنيّ. "تفقدْ المنزل ثم ضعْ حقيبتك في أول غرفة بالدهليز. سأذهب لجولة، لكي أصفّي رأسي، *آي نوجو*؟"

"حسنٌ يا صاح." راقبه آجوو وهو يغادرُ الباب الخلفيّ.

لم يكن طويلاً. مشيته سريعة، مفعمةٌ بالطاقة، يشبه إيزياجو، المصارع حاملَ اللقب في قرية آجوو.

أغلق آجوو الصنبور، وفتحه من جديد، ثم أغلقه. فتْحٌ وغلْقٌ وفتحٌ وغلقٌ ثم راح يضحك من سِحْر الماءِ المتدفق والخبز والدجاجة التي ترقد الآن ساكنةً داخل معدته. مشى صوب غرفة المعيشة ثم دخل الدهليز. أكوامٌ من الكتب فوق الأرفف والطاولات في غرف النوم الثلاث، وفوق حرف البانيو، وفوق خزانات الحمّام، وفي المكتبة والمخزن كانت الأكوامُ من الأرضية إلى السقف، الجرائدُ القديمة مكدسةٌ جوار صناديق الكوكاكولا وكراتين البيرة ماركة بريميير. بعضُ الكتبِ مفتوحةٌ ومقلوبٌ وجهها للأسفل، كأنما السيد لم ينه قراءتها وسرعان ما تركها وذهب لكتب أخرى. حاول آجوو قراءة العناوين، لكن أغلبها كان طويلاً جدًّا، صعبًا جدًّا. *الأساليبُ غيرُ القياسية. مسحُ الأراضي الإفريقية. سلسلةُ الوجود العظمي. الغزو النورماندي لانجلترا*. مشى من غرفةٍ إلى غرفة على أطراف أصابعه، لأن قدميه كانتا قذرتين، وما أن فعل هذا حتى تزايد داخله التصميمُ على إرضاء السيد، لكي يبقى في هذا المنزل ذي اللحم والأرضيات الجميلة الباردة. كان يفحص التواليت، يمرر يده على المقعد البلاستيكي الأسود، حينما سمع صوتَ السيد.

"أين أنت يا رَجُلي الطيب؟" قال: *يا رجلي الطيب*، بالإنجليزية.

أسرع آجوو بالخروج إلى غرفة المعيشة. "نعم صاح!"

"ما هو اسمك ثانيةً؟"

"آجوو، صاح."

"أجل، آجوو. انظر هنا، *نيي آنيا*، هل تعرف ما هذا؟"

أشار السيد، فنظر آجوو إلى الصندوق المعدني ذي المسامير المخيفة.

"لا، يا صاح." قال آجوو.

"هذا راديو. جهاز جديد وممتاز. ليس مثل تلك الجراموفونات العتيقة التي عليك أن تديرها وتديرها. يجب أن تكون حريصًا في التعامل معه، حريصًا جدًّا. وألا تسمح للماء أن يمسّه."

"نعم يا صاح."

"سأخرج لألعبَ التنس، وبعدها سأذهب إلى نادي الأساتذة." التقطَ السيدُ بعضَ الكتب من فوق المنضدة. "قد أعودُ متأخرًا؟ لذلك رتّبْ حالك ونَلْ قسطًا من الراحة."

"نعم يا صاح."

بعدما شاهد السيدَ يغادرُ المبني ويختفي عن النظر، ذهب ووقف جوار الراديو وراح يتأمله مليًّا، دون أن يلمسه. ثم راح يزرع المنزل، يطلع وينزل، يمسُّ الكتبَ والستائرَ والأثاث والأطباق، وحينما زحف الظلام أضاء النورَ متعجبًا من معجزة البريق الذي تشعّه اللمبات المدلاة من السقف، وكيف أنها لا تلقي ظلالاً قاتمةً على الجداران مثلما تفعل لمباتُ زيت النخيل في بيته القديم. لابد أن أمه تعدُّ الآن وجبةَ المساء، تسحق الأكبو في الهاون، فتقبض بقوة على ذراع الهاون بكلتا يديها. تشيوكي، الزوجة الصغرى، بالتأكيد تحضّر الآن وعاءَ الحساء وتضبط اتزانه على الأحجار الثلاثة فوق النار. والأطفال لابد رجعوا من النهر يتصايحون ويتعاركون تحت شجرة الفاكهة. آنيوليكا تراقبهم ربما. فهي الطفلةُ الأكبر سنًّا في الأسرة الآن، وبينما يجلسون جميعهم حول النار ليأكلوا، سوف تثور ثائرتُها حين يتعاركَ الأطفالُ الأصغر على شرائح السمك المقدد في الحساء. ستنتظر حتى يؤكل الأكبو كله ثم تُقسّم السمكَ لينال كلُّ طفل قطعةً، وتأخذ القطعة الأكبر لنفسها، كما تفعل دائمًا.

فتح آجوو الثلاجة وأكل المزيد من الخبز والسمك، كان يكدّس الطعامَ في فمه بسرعة وقلبه يدق كما لو كان يركض؛ واستخرج مزيدًا من قطع اللحم وانتزع الأجنحة. دسَّ القطع داخل جيب سرواله قبل أن يذهب إلى غرفة النوم. سوف يحتفظ بها حتى تأتي عمته للزيارة ثم يسألها أن تعطيها لـــ آنيوليكا. وربما سألها أن تعطي بعضها لـــ نيسيناتشي أيضًا. ربما يجعلها هذا تنتبه إليه أخيرًا. لم يكن متأكدًا على أي نحو تمُتُّ نيسيناتشي إليه بصلة القربى، لكنه يعلم أنهما من نفس الـــ *يومانّا*، ومن ثم مستحيلٌ أن يتزوجا. لكنه كان يتمنى أن تتوقف أمه عن الإشارة إلى نيسيناتشي بوصفها شقيقته، مردّدةً أشياءَ من قبيل: "من فضلك خذْ زيتَ النخيل هذا واذهب إلى ماما نيسيناتشي، وإن لم تجدها اتركه لأختك."

نيسيناتشي تكلمه دائمًا بصوت غامض، لا تركز عينيها عليه، كأنما حضوره لا يعنيها. أحيانًا تناديه بـــ تشيجينا، اسم ابن خالته الذي لا يشبهه قط، وحين يقولُ لها: "بل أنا،" كانت تقول: "سامحني، أخي آجوو،" برسمية متناهية بما يشي بأنّ لا رغبةَ لها في المزيد من الحديث. مع هذا كان يحب أن يذهب إلي بيتها في مهام أسرية. كان ذلك فرصةً ليجدها منحنية فوق خشب النار تؤججه، أو تقطع أوراق الأجو من أجل قِدرة حساء أمها، أو حتى فقط تكون جالسة في الخارج تراقب أشقاءها الصغار، ودثارُها متهدل بما يكفيه ليرى قمةَ ثدييها. وقد بدءا في البروز، هذان النهدان الناهدان، وقتها كان يتساءل ما إذا كان ملمسهما هلاميًّا رطبًا أم جافًّا مثل تلك الفاكهة غير الناضجة في شجرة *اليوبو*. كم تمنى لو لم تكن آنيوليكا منبسطة

الصدر هكذا- وتساءل ما الذي أخرّها في الوصول إلى ذلك، رغم أنها ونيسيناتشي من نفس العمر تقريبًا- لكي يتمكن من مسّ نهديها. كانت آنيوليكا بالتأكيد ستصفعُ يده على كل حال، وربما تصفع وجهه أيضًا، لكنه كان سيفعل ذلك بسرعة- يهصره ويجري- وبهذه الطريقة كان سيأخذ على الأقل فكرة ما، ويعرف ما الذي يتوقعه عندما في الأخير يمسُّ نهدي نيسيناتشي.

لكنه كان قلقًا لئلا يُتاح له مَسُّهُما أبدًا، ذاك أن عمَّها قد طلب إليها أن تذهب وتتعلم التجارة في كانو. كان عليها أن ترحل للشمال عند نهاية العام، حينما يبدأ آخرُ أطفال أمها، الذي كان عليها أن تحمله، في تعلّم المشي. أراد آجوو أن يفرح لها مثل بقية أفراد العائلة. ثمة ثروةٌ يمكن أن تُغتنم في الشمال؛ عرف ذلك من الناس الذين طلعوا الشمال للتجارة ثم عادوا إلى الوطن ليهدموا الأكواخَ ويبتنوا محلَّها منازلَ بأسقف حديدية مضلّعة. لكنه خاف أن ينظر إليها أحدُ هؤلاء الرجال ذوي الكروش، ثم أنه يعرفُ شخصًا بوسعه أن يجلب لأبيها نبيذَ النخيل ومن ثم فلن يكون بوسعه أبدًا أن يَمسَّ هذين النهدين. هذان الثديان كانا الصورةَ التي يحفظها في الليالي الكثيرة متمنيًا أن يمسسهما بنفسه، ببطء في البدء ثم بعنف حتى تنطلق أنّةُ عويلٍ تجعله يهرب. كان دائمًا يبدأ بوجهها، خديها الممتلئين وأسنانها ذات اللون العاجي، ثم يذهب في تَخَيّل ذراعيها تعانقانه، وجسدها منصهر في جسده. وفي الأخير سيجعل ثدييها يأخذان شكليهما؛ أحيانًا يكونان جامديْن، يغريانه بعضّهما، وفي أحيان أخرى طريّين جدًّا حتى يخشى أنّ مجردَ تصوّر الهصر قد يؤلمها.

للحظة، قرر أن يفكر بها هذه الليلة. ثم عدَل عن قراره. ليس في أول لياليه في بيت السيد، ليس على هذا السرير الذي لا يشبه أبدا تلك الحصيرةَ المنسوجة يدويًّا من أوراق الرافيا. في الأول، دسَّ يديه في عمق نعومة الفراش النابضة. ثم فحص طبقات الملاءات فوقه، لا يعرف هل ينام فوقها أم يُقصيها جانبًا قبل النوم. أخيرًا ارتقى السرير واستلقى فوق طبقات الملاءات، كوّر جسدَه مثل عقدةٍ ضيّقة.

حلُم بأن السيدَ يناديه- *آجوو، رَجُلي الطيب!*- وحين استيقظَ كان السيدُ يقف عند الباب، يرقبه. ربما لم يكن حُلمًا. تسلل من السرير ورمق في حَيْرةٍ النافذةَ بستائرها المسدلة. هل كان الوقت متأخرًا؟ هل خَدَعه السريرُ الوثيرُ فأغرقَ في النوم؟ كان عادة ما يصحو مع أول صَيحة ديك.

"صباح الخير يا صاح!"

"توجد هنا رائحةُ دجاج محمَّر."

"معذرة صاح."

"أين الدجاجة؟"

تحسّس آجوو بارتباك جيوبَ سرواله وأخرج قطعَ الدجاج.

"هل أهلُك يأكلون أثناء نومهم؟" سأل السيد. كان يلبس شيئًا مثل معطف امرأة ملفوفًا بغير اهتمام حول خصره.

"صاح؟"

"هل كنت ستأكل الدجاج في السرير؟"

"لا يا صاح؟"

"الطعامُ في غرفة الطعام وفي المطبخ."

"نعم، صاح."

استدار السيدُ ومضى. وقف آجوو في منتصف الغرفة يرتعد، ممسكًا ما يزال بقطع الدجاج في يده الممدودة للأمام. تمنى لو لم يكن عليه أن يمرَّ بغرفة الطعام لكي يذهب إلى المطبخ. في الأخير، أعاد الدجاج إلى جيبه، أخذ نفسًا عميقًا، ثم غادر الغرفة. كان السيدُ يجلسُ إلى طاولة الطعام، فنجانُ الشاي موضوعٌ أمامه فوق كومة كتب.

"هل تعرف مَن الذي قتل لومومبا[1]؟" قال السيد وهو يرفع وجهه عن المجلة. "إنهم الأمريكان والبلجيك. وليس لــ كاتانجا[2] علاقةٌ بالأمر."

"نعم يا صاح،" قال آجوو. كان يودُّ أن يستمرَ السيدُ في الحديث، ليكون بوسعه الإنصاتُ إلى الصوت الجهوريّ، وإلى ذلك المزيج الموسيقيّ من جُمَل إيبوية مُطعّمة بكلمات إنجليزية.

"أنتَ خادمي الصغير،" قال السيد. "إذا ما أمرتُك أن تخرجَ وتضربَ بالعصا امرأةً تمشي في الشارع، وأنت من ثم أطعتَ وجرحتها جُرحًا داميًا في ساقها، مَنْ وقتها سيكون المسؤول عن الجُرح، أنتَ أم أنا؟"

حدّقَ آجوو في سيده، وراح يهز رأسه، متسائلاً ما إذا كان السيد يشير إلى قِطع الدجاج بطريقة ملتوية.

"لومومبا كان رئيسَ وزراء الكونغو. هل تعلم أين هي الكونغو؟" سأل السيد.

"لا، صاح."

نهض السيدُ مسرعًا ودخل المكتبة. خوفُ آجوو المرتبكُ جعل جفنيه ترتعدان. هل سيرسله السيدُ إلى بيته لأنه لا يتكلم الإنجليزية جيدًا، ولأنه أخفى الدجاجَ في جيبه طوال الليل، ولأنه لا يعرف تلك الأماكن الغريبة التي ذكرها السيد؟ عاد السيدُ ومعه قطعةٌ كبيرة من الورق فتحها وبسطها على مائدة الطعام، مُزيحًا الكتبَ والمجلات. أشار بقلمه. "هذا هو عالمُنا، مع أن الناس الذين رسموا هذه الخريطةَ قرروا أن يضعوا أرضَهم فوق أرضنا. لا فوقَ ولا تحتَ هناك، كما ترى." أمسك السيدُ الورقة وأعاد لفها بحيث لمس طرفُها الطرفَ الآخر، تاركًا فراغًا فيما بينهما. "عالمنا مستديرٌ كرويّ، لا بدايةَ له ولا نهايةَ. ني *آنيا*، هذه كلها مياه، البحارُ

1- باتريس لومومبا (1925 -1961) مناضل ورئيس وزراء الكونغو. جاهد في سبيل تحرير بلاده من الاحتلال البلجيكي. (المترجمة)

2- Katanga

والمحيطات، وهنا أوروبا وهنا قارتنا، أفريقيا، والكونغو في منتصفها. في أقصى الأعلى هنا توجد نيجيريا، ونسوكا هنا، في الشرق الجنوبيّ؛ حيث نحن الآن." دقَّ بقلمه.

"نعم يا صاح."

"هل ذهبت إلى المدرسة؟"

"حتى الصفِّ الثاني، يا صاح. لكنني أتعلمُ كلَّ شيء بسرعة."

"الصفُّ الثاني؟ منذ متى؟"

"منذ عدة سنوات الآن، يا صاح. لكنني أتعلم كلَّ شيء بسرعة كبيرة!"

"وهل توقفتَ عن المدرسة؟"

"كَسَد محصولُ أبي، يا صاح."

أومأ السيد برأسه ببطء. "ولماذا لم يجد أبوك شخصًا يقترض منه رسومَ مدرستك؟"

"صاح؟"

"كان على أبيك أن يقترض!" زمجر السيدُ، ثم قال بالإنجليزية: "التعليم أوّلُ الأولويات! كيف نقاومُ الاستغلالَ إذا لم نمتلك أدواتِ إدراك الاستغلال؟"

"أجل يا صاح." أومأ آجوو بقوة. كان قد قرر أن يبدو يقظًا بقدر ما يستطيع، بسبب هذا البريق الشرس الذي بدا في عينيْ السيد.

"سوف أُدرجُك في المدرسة الابتدائية،" قال السيد، وهو مازال يدقُّ على قطعة الورق بقلمه.

كانت العمةُ قد أخبرت آجوو أنه إذا خدم جيدًّا لأعوام قليلة، فسوف يرسله السيد إلى مدرسة التجارة حيث يتعلم الآلة الكاتبة والاختزال. ذكرتِ المدرسةَ الابتدائية الخاصة بالأساتذة، لكن فقط لتخبره أنها من أجل أطفال المُعلمين، الذين يلبسون الزي الأزرق والجوارب البيضاء ذات الزخارف الكثيرة المزينة بشرائطَ حتى ليتعجب المرءُ كيف يُهدَرُ كل هذا الوقتُ لزخرفة مجرد جورب.

"نعم يا صاح،" قال. "شكرًا صاح."

"أتوقّع أن تكونَ الأكبرَ عمرًا في فصلك، مفترضٌ أن تكون في الصف الثالث الآن،" قال السيد. "والسبيل الوحيد لتكسب احترامَهم هو أن تكون الأفضل. هل تفهم؟"

"نعم يا صاح."

"اجلسْ يا رَجُلي الطيب."

"اختار آجوو المقعد الأبعد عن السيد، وعلى نحوٍ أخرقَ جلس وقدماه ملتصقان معًا. كان يفضل الوقوف.

"هناك إجابتان على الأشياء التي سوف يعلمونها لك عن وطنك: إجابةٌ حقيقة وإجابةٌ سوف تجيبُ بها لكي تنجح. يجب أن تقرأ الكتب لتتعلم الإجابتين كلتيهما. سوف أعطيك الكتبَ، كتبًا ممتازة." توقف السيدُ ليرتشفَ الشاي. "سوف يعلمونك أن رجلاً أبيضَ يُدعى مانجو بارك

اكتشف نهرَ النيجر. هذا هُراء. فشعبُنا يصطاد من نهر النيجر منذ زمن بعيد قبل أن يولد الجدُّ الأكبرُ لمانجو بارك. لكنْ في الامتحان، اكتبْ أنه كان مانجو بارك."

"نعم يا صاح،" كان آجوو يتمنى لو لم يكن هذا المدعو مانجو بارك قد ضايق السيد هكذا.

"ألا يمكنك أن تقول شيئا آخر؟"

"صاح؟"

"غنِّ لي أغنيةً."

"صاح؟"

"غنّ أغنيةً. ما الأغاني التي تعرفها؟ غنِّ!" خلع السيد نظارته. حاجباه كانا مقطبين، وجادين. راح آجوو يغني أغنيةً قديمة تعلمها في حقل أبيه. قلبه يضربُ صدرَه بشدة فيؤلمه. *"نزوجبو نزوجبو إنييمبا، إيني..."*

في البدء كان يغني بصوت خفيض، لكن السيد راح يدق بقلمه على المنضدة ويقول "أعلى!" فرفع صوتَه، والسيد ما زال يقول "أعلى!" حتى راح يصرخ. وبعدما غنى مراتٍ ومرات لدقائق عدة، سأله السيدُ أن يتوقف. "حسنٌ، حسنٌ،" قال. "هل تستطيع عمل الشاي؟"

"لا، يا صاح. لكنني أتعلم سريعًا،" قال آجوو. كان الغناءُ قد حرّرَ شيئًا داخله، فأصبح يتنفس بسهولة وقلبه ما عاد يضربه. واقتنع أن السيد مجنون.

"آكلُ معظمَ الوقت في نادي هيئة التدريس. ربما يجب أن أجلبَ المزيد من الطعام للبيت بما أنك هنا."

"صاح، بوسعي أن أطهو."

"أتطهو؟"

"أومأ آجوو. كان قد أمضى مساءاتٍ كثيرةً يراقبُ أمَّه وهي تطهو. يشعلُ لها النارَ، أو يؤججُ الجمراتِ حين تخبو. كان يقشّر حبّات البطاطا والمنيهوت ويكسرها، وكم نفخ قشورَ الأرز ونقّاه، التقط السُّوسَ من الفول، وقشَّر البصل، وطحنَ الفلفل الأسود. وحين كانت أمه تمرض بالسعال كان يتمنى أنه يكون هو، وليس آنيوليكا، مَن يطهو. لم يخبر أحدًا بهذا أبدًا، ولا حتى آنيوليكا؛ فقد كانت تقول له إنه قضى وقتًا طويلاً بين نساء يطهون، وقد لن تنمو له لحيةٌ أبدًا لو استمر على ذلك.

"حسنٌ، بوسعك إذن أن تطهو طعامَك،" قال السيد. "اكتبْ قائمةً بما تحتاج إليه."

"حاضر يا صاح."

"قد لا تعرف كيف تذهب إلى السوق، أوَ تعرف؟ سوف أطلب إلى جومو أن يريك."

"جومو، يا صاح؟"

"جومو هو الذي يعتني بالحديقة. يأتي ثلاث مرات في الأسبوع. رجلٌ مرح، شاهدته مرّةً يتحدثُ إلى شجرة حَب الملوك." توقف السيد. "سوف يأتي غدًا، على أية حال."

بعدها، كتب آجوو قائمةً بصنوف الطعام ثم أعطاها السيد. حدّق السيد إلى القائمة برهةً. "خلطٌ عجيب،" قالها بالإنجليزية. "أعتقد أنهم سوف يعلمونك في المدرسة أن تستخدم المزيد من حروف العِلَّة."

لم يحب آجوو ذاك الملمحَ الساخر في وجه السيد. "نحتاجُ بعضَ الخشب يا صاح،" قال.

"خشب؟"

"لكتبك، يا صاح. حتى يمكنني أن أنظّمها."

"آه، نعم، أرفف. أظن بوسعنا أن نثبت المزيدَ من الأرفف في مكان ما، ربما في الدهليز. سوف أتحدث مع أحدهم في الورشة."

"أجل يا صاح."

"أودينيبو. نادِني أودينيبو."

شَخَصَ آجوو فيه بشكٍّ. "صاح؟"

"اسمي ليس صاح. نادني أودينيبو."

"نعم يا صاح."

"سوف يكون اسمي دائما هو أودينيبو. "*سيدي*" كلمة استبدادية. بوسعك أن تغدو غدا السيد."

"نعم يا صاح- أودينيبو."

كان آجوو بالحق يفضل *صاح*، تلك الطاقةُ الهشّة داخل الكلمة، وحينما أتى رجلان من الورشة بعد عدة أيام ليركّبوا الأرففَ في الدهليز، أخبرهم أن عليهما أن ينتظرا *صاح* حتى يعود إلى البيت؛ فهو لم يقدر أن يوقّع على الورقة البيضاء المطبوعة. قال "*صاح*" بفخر.

"إنه صبيٌّ من الخدم القرويين،" قال أحد الرجلين هامسًا، فنظر آجوو إلى وجه الرجل وتمتم يلعنه ويدعو عليه بأن يُصابَ بإسهال حادٍّ مدى الحياة هو وكلُّ ذُريّته. وبينما كان يُرتّب كتبَ السيد وعدَ نفسَه، بصوت عال، أن يتعلم كيف يوقّع نماذج الأوراق.

في الأسابيع التالية، الأسابيع التي فحص فيها كلَّ ركنٍ من أركان البيت، حيث اكتشف أن خلية نحل عشّشت في شجرة الجوز وأن الفراشات كانت تتلاقى في الفناء الأمامي حينما تكون الشمس في أوْجها، كان حريصًا كلَّ الحرص على تعلُّم إيقاع حياة السيد. كلَّ صباح يلتقط جريدتَي *التايمز اليومية* و*الرينيسانس*[1] اللتين يتركهما الموزّعُ خارج الباب، يطويهما ويضعهما على الطاولة جوار شاي السيد وخبزه. ويكون قد غسل السيارة الأوبل ريثما يُنهي السيدُ إفطارَه، وحينما يعود السيد من عمله، وفي أثناء قيلولته، ينظف السيارة مرة أخرى من الغبار قبل أن يمضي السيد إلى ملاعب التنس. يتحرك بسكون تام في الأيام التي يعتكف فيها السيد في المكتبة لساعات. حينما يخطو السيد في الدهليز متكلِّمًا بصوت عال، يجب أن يكون واثقًا أن الماء الساخن جاهزٌ للشاي. يجلو الأرضياتِ يوميًّا. ويمسحُ النوافذَ حتى تتلألأ تحت شمس

---

[1]- Daily Times- عصر النهضة Renaissance

الظهيرة، ويأخذ حذره للشقوق الدقيقة في بانيو الاستحمام، يجلو الأطباقَ الصغيرة التي قُدّمت فيها المكسراتُ لأصدقاء السيد. زائران على الأقل كلَّ يوم في غرفة المعيشة، الفونوغراف يشغّلُ على موسيقى خافتة تشبه الفلوت، خافتة جدًّا لدرجة أن يصلَ صوتُ الحديث والضحك وقرع الكؤوس إلى آجوو في المطبخ أو في الدهليز وهو يكوي ملابس السيد.

كان يودُّ أن يفعلَ المزيد، يودُّ أن يحقق كلَّ سبب يجعلُ السيدَ يُبقيه، لذلك كوى في أحد الأيام جوربَ السيد. لم تكن تبدو مكرمشة، تلك الجوارب السوداء المخططة، لكنه فكر أنها ستبدو مفرودةً أكثر بالكي. هسهست المكواةُ ولمّا رفعها وجد أن نصف الجوربَ قد التصق بها. تجمّد الصبيُّ. كان السيد عند مائدة الطعام، على وشك إنهاء إفطاره، وقد يأتي في أية لحظة الآن ليأخذ جوربه وحذاءه وكذا الملفات على الرفِّ ثم يمضي إلى عمله. أراد آجوو أن يُخفي الجوربَ تحت الكرسي ثم يرتقي الدرج بسرعة ليجلب جوربًا آخر، لكن ساقيه لم تقويا على الحركة. وقف هناك يحمل الجورب المحروق، وهو يعلم أن السيد سوف يضبطه هكذا.

"حرقتَ جوربي، أليس كذلك؟" سأل السيد. "أيها الجاهلُ الغبيّ."

" *الجاهل الغبي*" انسابت من فمه مثل الموسيقى.

"آسف يا صاح، آسف يا صاح!"

"أخبرتُك ألا تنادني بيا سيدي." التقطَ السيدُ الملفَّ من الرف. "لقد تأخرت."

"صاح؟ هل أحضر جوربًا آخر؟" سأل آجوو. لكن السيدَ كان بالفعل قد انتعل الحذاءَ، دون جورب، وأسرع للخارج. سمعه آجوو يديرُ السيارةَ ويتحركُ بعيدًا. شعرَ بصدره ثقيلاً، لم يعرف لماذا كوى الجوربَ، لماذا لم يكوِ ببساطة بدلةَ الصيد السفاري. إنها الأرواح الشريرة. الأرواح الشريرة جعلته يفعل هذا. إنها تختبئ في كل مكان وتترصد. حينما مرِضَ بالحمى، ومرّةً حين سقط من على الشجرة، مسحتْ أمُّه جسمَه بـــ *أوكيوما*، وهي تتمتم: "سوف نهزمُها، لن نجعلَها تنتصر."

خرج إلى الفناء الأمامي، عَبَر الأحجار المرصوصة حول المرج الملوّن. الأرواحُ الشريرة لن تنتصر. لن يدعها تغلبه. كانت هناك بقعةُ أرضٍ مستديرةٌ في منتصف المرج غيرُ مزروعة بالعشب، كأنها جزيرةٌ في بحر أخضر، تنتصب بمنتصفها نخلةٌ نحيلة. لم يكن آجوو قد رأى من قبل نخلةً بهذا القِصَر، ولا واحدة تنتظمُ أوراقُها على هذا النحو المُتقن. لم تبدُ قويةً بما يكفي لحمل الثمار، لا تبدو مفيدةً، مثل معظم النباتات هنا. التقط حجرًا وألقاه في البقعة الخاوية. مساحةٌ كبيرة ومُهدرة. في قريته يَفلحُ الناسُ كلَّ بقعةٍ مهما كانت صغيرة خارج بيوتهم ويزرعون خضروات وأعشابًا مفيدة. لم تحتَج جدتُه إلى زراعة عشبها المفضّل، *آريجبي*، لأنه كان ينمو شيطانيًّا في كل مكان. اعتادتْ أن تقولَ إن *آريجبي* يرقّق قلبَ الرجل. كانت الثانيةَ بين زوجاتٍ ثلاثٍ فلم تكن ذات مكانةٍ مميزة كأن تكون الأولى أو الأخيرة، ولذا

كانت قبل أن تطلب من زوجها أي شيء تطهو له بطاطا متبّلة بعصيدة الآريجبي. ودائما ما كان يأتي بنتائج طيبة. ربما ينفع مع السيد.

تجوّل آجوو للبحث عن الآريجبي. بحثَ بين الزهور الحمراء، وأسفل شجرة الجوز ذات خلايا النحل المعششة في الأغصان، في شجرة الليمون التي تزحفُ على جزعها لأعلى وأسفل جيوشُ النمل الأسود. وشجر الببو التي ثمارُها الناضجة مُنقّطةٌ بثقوب مناقير الطيور. لكن الأرضَ كانت نظيفةً، بلا أعشاب؛ كان جومو يتقن عمله في انتزاع الأعشاب كلها، ولا شيءَ غير مسموح بوجوده كان موجودًا.

في لقائهما الأول، حيًّا آجوو جومو فأومأ الأخيرُ برأسه واستمر في العمل دون كلمة. كان رجلاً صغيرًا ذا جسد جاف وذابل أشعر آجوو أنه بحاجة إلى أن يُروَى أكثر من النباتات التي يدرسها الرجل بمنجله المعدني. أخيرًا، نظر جومو لآجوو، قائلاً: "*آفا* م بو جومو،" كأنما آجوو لا يعرف اسمه. "بعض الناس ينادونني كينياتّا، مثل اسم الرجل العظيم في كينيا. أنا قنّاص."

لم يعرف آجوو بما يجيب لأن جومو كان ينظر مباشرة في عينيه، كأنما يتوقع أن يسمع شيئًا مميزًا من آجوو.

"ما أنواع الحيوانات التي تقتلها؟" سأل آجوو. ابتسم جومو ابتسامة عريضة كأنما كان يتوقع السؤال الذي كان يريد بالضبط، ثم راح يتكلم عن الصيد الذي مارسه. جلس آجوو على الدرجات التي تُفضي إلى الفناء الخلفي ثم بدأ ينصت. منذ اليوم الأول، لم يصدق حكايات جومو- عن معاركه بيديه المجردتين مع نمر وعن قتْله قردًا بطلقة واحدة- لكنه أحب الاستماع إلى تلك الحكايا، وكان يؤجل غسيل ملابس السيد للأيام التي كان جومو يحضر فيها ليجلس في الخارج بينما يعمل جومو. كان جومو يتحرك بخطوات بطيئة محسوبة. تنقيبه الأرض، ريِّه، فلاحته، كلها بدت مليئة بحكمة جليلة. كان ينظر لأعلى في منتصف تشذيبه السياج ويقول: "هذا لحمٌ طيب،" ثم يمضي صوب حقيبته المصنوعة من جلد الماعز المعلقة خلف دراجته لينقّب عن منجنيقه. مرّة، ضرب يمامةً كانت تقف على شجيرة جوز بحجر صغير، ثم لفها في أوراق الشجر، ووضعها في حقيبته.

"لا تذهب إلى تلك الحقيبة إلا حينما أكون موجودًا،" أخبر آجوو. "فربما تجد رأسَ آدميٍّ بها."

ضحك آجوو لكنه لم يكن يشك كليّة في كلام جومو. تمنى كثيرًا لو أن جومو يأتي للعمل اليوم. كان جومو أفضل شخص يمكنه سؤاله بالفعل عن الآريجبي، ليسأله النصيحة عن كيف يسترضي السيد.

خرج من البيت، إلى الشارع، وتفقد النباتات على جانبي الطريق حتى رأى أوراق شجر مشعثة جوار جذر صنوبرة. لم يكن قد شمّ شيئًا حريفًا يشبه حدّة رائحة الآريجبي في الطعام

الذي أحضره السيد معه من نادي هيئة التدريس؛ سوف يطهو به لحمًا بالخضروات ويقدمه للسيد مع بعض الأرز، وبعد ذلك يقرأ تميمته. *"أرجوك لا تُعيدني إلى البيت يا صاح، سوف أعمل المزيد لأعوِّضَ الجوربَ المحترق. سوف أكسب مالاً لأدفع ثمنه."* لا يعرف حقيقةً ما العمل الذي بوسعه أن يعمله ليكسب ثمن الجورب، لكنه خطط أن يخبر السيد بهذا على أية حال.

إذا رقّق الآريجبي قلب السيد، فسوف يزرع المزيد من هذا العشب في الفناء الخلفي. سوف يخبر السيد أن بوسعه الاعتناء بالحديقة حتى بداية المدرسة، بما أن المديرة قد أخبرت السيد أنه لا يمكنه أن يلتحق في منتصف العام. ربما كان قد أسرف في الأمل. ما الجدوى من التفكير في حديقة من الأعشاب إذا ما سأله السيد أن يرحل، إذا لم يسامحه السيد بشأن الجورب المحترق؟ دخل المطبخ سريعًا، ووضع الآريجبي فوق طاولة العمل، وأحضر بعض الأرز.

بعد ساعات، شعرَ باضطرابٍ في مَعِدَتِه حين سمعَ سيارةَ السيد: صوتُ انسحاق الحصى ثم طنينُ الموتور قبل أن تتوقف في الجراج. وقف جوار إناء الخضر، يُقلِّب دائريًّا، قابضًا على المغرفة بنفس قوة التشنجات في معدته. هل سيطلب منه السيدُ الرحيل قبل أن يتمكن من إطعامه؟ وبمَ سيخبرُ أسرته؟

"مساء الخير يا صاح- أودينيبو،" قال، حتى قبل أن يدخل السيدُ المطبخ.

"أجل، أجل،" قال السيد. كان يحمل مجموعةً من الكتب فوق صدره بيدٍ، وبالأخرى يمسك حقيبته. اندفع آجوو لحمْل الكتب. "صاح؟ هل تأكل؟" سأله بالإنجليزية.

"آكل ماذا؟"

"تقلصات معدة آجوو ازدادت عنفًا. خشي أن تقفز من صدره وهو ينحني ليضع الكتب فوق طاولة الطعام. "خضارٌ باللحم، يا صاح."

"خضارٌ باللحم؟"

"نعم يا صاح. خضارٌ طيب جدًّا، يا صاح."

"سوف أتذوقُ بعضها إذًا."

"أجل يا صاح!"

"نادني أودينيبو!" قالها السيد على نحو خاطفٍ قبل أن يدخل ليأخذ حمّامَ الظهيرة.

بعدما قدم آجوو الطعام، وقف جوار باب المطبخ، يراقب السيد وهو يتناول الشوكة الأولى وبها الأرز والخضروات، ثم أخذ ثانيةً، ثم هتف، "ممتاز، يا رَجُلي."

ظهر آجوو من خلف الباب. "صاح؟ أستطيع أن أزرع الأعشاب في حديقة صغيرة. لكي أطهو المزيد من الخضروات مثل هذه."

"حديقة؟" توقف السيد ليرتشف بعض الماء ثم قلب صفحة الجريدة. "لا، لا، لا. الخارج هو إقليم جومو، والداخل هو إقليمك. تقسيم العمالة، يا رجلي الطيب. إذا احتجنا أعشابًا، سوف نسأل جومو أن يعتني بها." أحبَّ آجوو نبرةَ صوت *"تقسيم العمالة، ورجلي الطيب"*، اللتين نُطقتا بالإنجليزية.

"نعم يا صاح،" قال، رغم أنه كان بالفعل قد حدّد أية بقعة ستكون الأفضل لحديقة الأعشاب: بالقرب من "ربع الغلام" حيث لا يذهب السيد أبدًا. لم يستطع أن يستأمن جومو على حديقة الأعشاب وكان سيفلحها بنفسه حينما يكون السيد بالخارج، وبهذه الطريقة، سوف لن ينفد آريجبي أبدًا، عشب الغفران. ليس إلا في المساء حينما اكتشف آجوو أن السيد كان لابد قد نسي أمر الجورب المحترق قبل أن يعود إلى المنزل بكثير.

أدرك آجوو المزيد من الأشياء. لم يكن خادمًا عاديًا؛ ذاك أن خادم جارهم دكتور أوكيكي لم يكن ينام في سرير وفي غرفة، بل على أرضية المطبخ. والولد الخادم في نهاية الشارع الذي يذهب معه آجوو للسوق لا يقرر أبدًا أي طعام سيطهو، هو يطهو ما يؤمَر أن يطهوه. وليس لديهم أسياد أو سيدات يعطونهم كتبًا وهم يقولون: "هذا الكتاب ممتاز، ممتاز وحسب."

لم يفهم آجوو معظم الجُمل في الكتب، لكنه كان يتباهى بقراءتها. كما لم يفهم تمامًا أحاديث السيد وأصدقائه، لكنه كان ينصت على أية حال فسمع أن العالم ينبغي أن يفعل المزيد من أجل السُّود الذين قُتلوا في شاربيفيل[1]، وأن طائرة التجسس التي أُسقطت في روسيا كانت تخدم في السلاح الأمريكيّ، وأن ديجول[2] تصرف على نحو أخرق في الجزائر، وأن الأمم المتحدة لن تقدر أبدًا على التخلص من تشومبي[3] في كاتانجا. أحيانا كان السيد يقف ويرفع كأسه وصوته- "نخب هذا الأمريكي الأسود الذي قاد جامعة المسيسيبي!"، "نخب سيلان[4] وأول امرأة تغدو رئيسة وزراء في العالم!"، "نخب كوبا التي ضربت الأمريكان في أرضهم!"- وكان آجوو يستمتع بقرع قناني البيرة مع الكؤوس، وقرع الكؤوس مع الكؤوس، وقرع القناني مع القناني.

يأتي المزيد من الأصدقاء في عطلات نهاية الأسبوع، وحينما يدخل آجوو ليقدم المشروبات كان السيد يقدمه لهم أحيانًا، بالإنجليزية طبعًا. "آجوو يساعدني في البيت. ولد ذكي جدًّا." ويستمر آجوو في فتح زجاجات البيرة والكوكا بصمت، بينما يشعر أن توهج الزهو يتسرب لأعلى من أطراف أصابع قدميه. كان يحب بالأخص أن يقدمه السيد للأجانب، مثل السيد جونسون، الذي أتى من الكاريبي ويتلعثم في الكلام، أو البروفيسور ليمان، الأمريكي الصارم الذي له عينان خضراوان لاذعتان في مثل لون ورقة شجر طازجة. ارتعب آجوو حين رآه

1- مذبحة شاربيفيللي. حدثت في 21 مارس 1960، في جنوب إفريقيا حينما فتح البوليس النيران على الحشود المحتجة.
2-Charles André Joseph Marie de Gaulle شارل ديجول (1890-1970)، أسس الجمهورية الفرنسية الخامسة وغدا أول رئيسا لها عام 1959.
3- Moïse Kapenda Tshombe، سياسي كونغوي، (1919- 1969).
4- سريلانكا الآن. ظلت تحمل اسم سيلان حتى 1972. (المترجمة)

للمرة الأولى لأنه كان يتصور أن الأرواح الشريرة وحدها هي التي لها عيونٌ في لون العشب الأخضر.

سرعان ما عرف الأصدقاء المعتادين فيحضر لهم مشروباتهم قبل أن يطلب منه السيد أن يفعل. كان هناك د.باتيل، الرجل الهندي الذي يشرب بيرة الجينا الذهبية مخلوطة بالكوكاكولا. يناديه السيد بــ دوك[1]. وحينما يحضر آجوو جوز الكولا كان السيد يقول: "دوك، أنت تعرف أن جوز الكولا لا يفهمُ الإنجليزية،" ثم يمضي في مباركة جوز الكولا بلغة الإيبو. وكان د.باتيل يضحك في كل مرة، بسعادة غامرة، مائلاً للخلف على الأريكة، ومطوِّحًا ساقيه القصيرتين لأعلى كأنما هي نكتةٌ لم يسمعها من قبل. بعد أن يكسر السيدُ جوزةَ الكولا ثم يوزع الصحون الصغيرة، يأخذ د.باتيل نصيبه ويدسه في جيب قميصه؛ لم يره آجوو يأكل واحدة من قبل أبدًا.

كان هناك بروفيسور إيزيكا الطويلُ النحيفُ، بصوت أجش يتكلم كأنه يهمس. دائمًا يخلع نظارته ويمسكها في مواجهة الضوء كي يتأكد أن آجوو قد غسلها جيدًّا. وأحيانًا كان يحضر معه قنينة الجينز، وفي أحيان أخرى كان يطلب الشاي ثم يمضي في فحص إناء السكر وعلبة الحليب، متمتمًا: "قدرات البكتريا فائقةُ القوة."

وكان هناك أوكيوما، الذي كان يأتي أكثر ويمكث مدةً أطول. يبدو الأصغر سنًّا بينهم، يرتدي دائما شورت، وله شعر كثيف بفرق على جانب فيبدو شعره أعلى من شعر السيد. بدا مجعدًا وخشناً عكس شعر السيد، كأنما أوكيوما لا يحب تمشيطه. أوكيوما يشرب الفانتا. وكان في بعض الأمسيات يقرأ أشعاره حاملاً رزمة من الورق، ينظر آجوو عبر باب المطبخ ويرى كل الضيوف ينظرون إليه، ووجوههم نصف مجمدة، كأنما لا يجسرون على التنفس. بعد ذلك يصفق السيد ويقول بصوت عال: "هذا صوتُ جلينا الجديد!"، ويستمر التصفيق حتى يقول أوكيوما بحسم: "هذا يكفي!"

وكانت هناك الآنسة آديبايو، التي تشرب البراندي مثل السيد ولم تكن تشبه ما تخيله آجوو عن نساء الجامعة. كانت العمة قد أخبرته القليل عن نساء الجامعة. تعرف لأنها تعمل عاملةَ نظافة في كلية العلوم أثناء النهار، ونادلةً في نادي أعضاء هيئة التدريس في المساء؛ أيضًا، في بعض الأحيان، كان المحاضرون يدفعون لها مقابل أن تنظف بيوتهم. قالت له إن نساء الجامعة يحتفظن بصور لأيام دراستهن في بريطانيا وأمريكا في براويز فوق الرفوف. في الإفطار يأكلن بيضًا نصفَ مسلوق، حتى أن الصفار يتراقص في الطبق، يضعن باروكات شعر طويل مفرود، ويرتدين فساتين طويلة ماكسي تحتك بكواحلهن. وحكت له مرة عن زوجين في حفل كوكتيل، الرجل في بدلة أنيقة بلون الكريم، والسيدة في فستان أخضر. التفت كل الحضور ليشاهدهما يمشيان يدًا في يدٍ، وفجأة أطاحت الرياح بباروكة السيدة عن رأسها.

[1] - Doc. اختصار دكتور

كانت المرأةُ صلعاء. هن يستخدمن أمشاطًا ساخنة لفرد شعرهن، تقول العمة، لأنهن يردن أن يبدون مثل البيضاوات، رغم إن الأمشاط الساخنة تنتهي بحرق شعرهن تمامًا.

راح آجوو يتخيل المرأة الصلعاء: جميلةٌ لها أنفٌ عالٍ، ليس مثل الأنوف المفلطحة المفطوسة التي اعتاد عليها. تخيل الهدوء، الرقّة، لنوع من النساء لهن عطسة، ضحكة، وطريقة حديث في نعومة ريشة الدجاجة الداخلية الملاصقة للجلد. لكن النساء اللواتي كن يزرن السيد، وأولئك اللواتي شاهدهن في السوبر ماركت والشوارع كن مختلفات. معظمهن يرتدين باروكات (القليلات منهن عقدن شعرهن في ضفائر أو عقصنه بحبال)، لكنهن لم يكن رقيقات. كن صاخبات. وأصخبهن كانت الآنسة آديبايو. لم تكن امرأة إيبو؛ خمن آجوو هذا من اسمها، حتى ولو لم يكن صادفها في السوق مع خادمتها الصغيرة وسمعهما تتحدثان بسرعة وعلى نحو غير مفهوم بلهجة اليوروبا. سألته يومها أن ينتظر كي توصله إلى البيت، لكنه شكرها وقال إنه مازالت أمامه أشياء باقية ليشتريها وسوف يأخذ تاكسي، رغم أنه كان قد أنهى تسوقه. لم يشأ أن يركب سيارتها، كما لم يحب صوتها الذي يعلو على صوت السيد في غرفة المعيشة، مُتحديّةً ومُجادلة. دائمًا ما كان يقاوم رغبته المُلحّة في أن يرفع صوته من وراء باب المطبخ ليقول لها اخرسي، سيما حين كانت تقول للسيد "يا سُفسطائي". لم يكن يعرف ما معنى كلمة *سفسطائي*، لكنه لم يحب أن تنادي السيد هكذا. ولا حتى أحب طريقة نظرها إلى السيد. وحتى حينما يتكلم شخص ما ويكون من المفترض أن تركز عليه النظر، كانت عيناها على السيد. في إحدى ليالي الأحد أسقط أوكيوما كأسه ودخل آجوو لينظف الشظايا التي سقطت على الأرض. أخذ وقتا في التنظيف. كان الحديث أوضح بالنسبة إليه من هنا وكان من اليسير تمييز ما يقوله البروفيسور إيزيكا. من المستحيل تمييز ما يقول من المطبخ.

"في الحقيقة يجب أن يكون لدينا حركةٌ أفريقية موسَّعة للرد على ما يحدث في الجنوب الأمريكيّ" قال البروفيسور إيزيكا.

قاطعه السيد. "تعرف، الحركة الأفريقية، الأفريكانيزم[1]، أصلا فكرة أوروبية."

"أنت تحيدُ عن الموضوع،" قال البروفيسور إيزيكا، وهز رأسه بطريقته المتعالية المعتادة.

"قد تكون فكرةً أوروبية،" قالت ميس آديبايو، "لكنْ في الصورة الأشمل، نحن كلنا من العِرْق نفسه."

"ما هي الصورةُ الأشمل؟" سأل السيد. "الصورةُ الأشمل للرجل الأبيض! ألا ترين أننا لسنا متشابهين تمامًا إلا بالنسبة للعيون البيضاء؟" لاحظ آجوو أن صوت السيد كان يعلو، ومع الجرعة الثالثة من البراندي بدأ يسير بكأسه، يميل للأمام حتى كان يجلس على الحرف الأمامي للمقعد. في عمق الليل، حينما كان السيد في فراشه، كان آجوو يجلس على نفس

---

[1] - Pan-Africanism

المقعد ذي المسندين متخيلاً نفسه يتحدث الإنجليزية بطلاقة، متحدثًا إلى ضيوف خياليين، مستخدمًا كلمات مثل: *التحرير من الاستعمار*، *الحركة الأفريقية*، مُقلِّدًا صوت السيد، ثم يتزحزح ويتزحزح حتى يغدو أيضًا على حافة المقعد.

"بالطبع كلنا متشابهون، جميعنا نقع تحت القمع الأبيض،" قالت الآنسة آديبايو بجفاء. "الحركة الأفريقية هي ببساطة الاستجابةُ الأكثرُ حساسيةً."

"بالطبع، بالطبع، لكن فكرتي هي أن الهويةَ الحقيقية الموثوق بها للأفارقة هي القِبَيلة،" قال السيد. "أنا لست نيجيريًّا لأن رجلاً أبيضَ خلق نيجيريا وأعطاني الهُوية. أنا أسْودُ لأن الرجلَ الأبيض شرّعَ أن يكون *الأسودُ* مختلفًا قدر الإمكان عن *الأبيض* الذي مثله. لكنني من إيبو قبل أن يأتي الرجلُ الأبيض."

زمجر البروفيسور إيزيكا وهز رأسه، وتقاطعت الساقان النحيفتان. "لكنك انتبهت أنك إيبو بسبب الرجل الأبيض. فكرة الحركة الإيبوية ذاتها جاءت فقط من أجل مواجهة السيطرة البيضاء. لابد أن ترى أن القبلية كما هي الآن منتجٌ استعماريّ كشعب وكعِرق." أعاد البروفيسور إيزيكا عقْد ساقيه.

"فكرة حركة الإيبو وُجدت من قَبل الرجل الأبيض بكثير!" هتف السيد. "اذهبوا واسألوا الأكبر سنًّا في قريتكم عن تاريخكم."

"المشكلة هي أن أودينيبو قِبليٌّ ميئوسٌ منه، لابد أن نحافظ عليه هادئًا،" قالت الآنسة آديبايو. ثم فعلتْ ما أفزع آجوو: نهضت ضاحكةً ومشت نحو السيد ثم ضغطت على شفتيه تُغلقهما. ووقفت هناك فيما بدا له وقتًا طويلاً، يدها على فمه. تخيل آجوو لعاب السيد الممزوج بالبراندي يمس أصابعها. تصلّب وهو يلملم شظايا الزجاج. وتمنى لو لم يبقَ السيدُ هكذا يهز رأسه كأنما كان الأمر كله دعابةً كبرى.

أصبحت الآنسة آديبايو بعد ذلك مصدرَ تهديد. بدأت تبدو أكثر فأكثر مثل خفاش الفاكهة، بوجهها الضئيل وبشرتها العَكِرة وفساتينها المطبوعة التي تتماوج حول جسدها مثل الأجنحة. كان آجوو يقدم شرابها آخرَ الضيوف ويقضي دقائقَ طويلةً في تجفيف يديه في فوطة الصحون قبل أن يفتح لها الباب لتدخل. كان قلقًا من أن تتزوج السيد وتُحضِر للبيت خادمتَها التي تتكلم اليوروبا فتدمر حوض أعشابه وتخبره عما يطهو وما لا يطهو. حتى سمع السيد وأوكيوما يتحدثان.

"لا يبدو عليها أنها تود الرجوع لبيتها اليوم،" قال أوكيوما. "*نويوك م*، هل أنت متأكد أنك لا تخطط أن تفعل معها شيئًا؟"

"لا تقل تُرهات."

"إذا فعلتَ لن يعرف أحدٌ في لندن."

"انظرْ، انظر"

"أعلم أنك غيرُ مهتمٍ بها، لكن الذي ما يزال يحيرني هو ما الذي يجذب تلك النساء إليك."

ضحك أوكيوما وارتاح آجوو. لم يكن يريد الآنسة آديبايو - أو أية امرأة- أن تأتي لتتطفل وتزعج حياتهما. في بعض الأمسيات، حينما يكون الزوار قد غادروا بالفعل، كان يجلس على أرضية غرفة المعيشة وينصت إلى السيد. كان السيد يتحدث معظم الوقت عن أشياء لا يفهمها آجوو، كأنما البراندي يجعله ينسى أن آجوو ليس أحد زواره. لكن هذا لا يهم. كل ما كان آجوو يحتاج إليه هو هذا الصوت العميق، النغم في الإنجليزية الممزوجة بالإيبوية، ووميض النظّارات السميكة.

كانت قد مضت أربعة شهور له مع السيد حينما أخبره: "سيدةٌ خاصة سوف تأتي في الويك اند. خاصة جدًّا. لابد أن تتأكد من نظافة البيت. وسوف أطلبُ الطعامَ من النادي."

"لكن يا صاح، بوسعي أن أطهو،" قال آجوو بنبرة حزينة.

"لقد عادت للتو من لندن، يا رجلي الطيب، وهي تُفضل الأرز بطريقة معينة. أرز مقلي، أعتقد، لستُ واثقًا أن بوسعك طهو شيء مناسب." استدار السيدُ ونظر بعيدًا.

"بوسعي عمل هذا يا صاح،" قال آجوو بسرعة، رغم أنه لا يعرف ما هو الأرز المقلي. "دعني أطهو الأرز، واجلبْ الدجاج من النادي."

"مفاوضةٌ بارعة،" قالها السيد بالإنجليزية. "حسنٌ، إذن. أنت تطهو الأرز."

"نعم يا صاح،" قال آجوو. بعد ذلك نظف الغرف ومسح الحمّام جيدًا، كما يفعل دائمًا، لكن السيد نظر وقال إنها لم تكن نظيفةً بما يكفي وخرج واشترى دورقًا آخر من مسحوق "فيم" وسأل، بحدّة، لماذا لم ينظف آجوو الفراغات بين البلاطات. نظفها آجوو ثانية. ظل يكشط الأرض حتى تساقطت قطراتُ العرق على جانبي وجهه، وحتى آلمته ذراعه. وفي أيام السبت وقف له بشيء من العداء بينما كان يطهو. لم يشكُ السيد من عمل آجوو من قبل. كلُّ هذا بسبب هذه المرأة، المرأة التي اعتبرها السيدُ أكثرَ خصوصيةً من أن يطهو لها. لأنها للتوّ عائدة من لندن.

حينما رنّ جرس الباب، تمتم يلعنها في سرّه بأن تتورم معدتها بأكل الغائط. سمع صوتَ السيد يعلو، منشرحًا على نحو طفوليّ، ثم أعقب ذلك صمت طويل، تخيل عناقهما، وجسدها القبيح يضغط جسد السيد. ثم سمع صوتها. ووقف ساكنًا. كان يظن أن إنجليزيةَ السيد لا أحد يضاهيها، لا البروفيسور إيزيكا الذي إنجليزيته بالكاد يسمعها المرء، ولا أوكيوما، الذي نطق الإنجليزية كأنما يتكلم إيبو، بنفس إيقاعها ووقفاتها، ولا باتيال الذي إنجليزيته مثل أغنية خافتة. ولا حتى الرجل الأبيض بروفيسور ليمان، الذي تخرج كلماته من أنفه باندفاع، لا يبدو في جلال السيد. إنجليزية السيد كانت موسيقا، لكن ما كان آجوو يستمع إليه الآن، من هذه المرأة، كان سِحرًا. ها هنا لسانٌ فائقٌ متعال، لغةٌ بيّنةٌ، نوع من الإنجليزية مثل الذي كان يستمع إليه

في راديو السيد، ينساب بدقّة مقطعّة. ذكرّه بتقطيع البطاطا بسكين جديدة حادة، إتقان فائقٌ في كل شريحة.

"آجوو!" نادى السيد. "احضرْ الكوكا!"

خرج آجوو إلى غرفة المعيشة. رائحتها مثل جوز الهند. حياها، وخرجت منه "مساء الخير" مثل همهمة، وعيناه على الأرض.

"كيدو؟" سألتْ.

"أنا بخير يا ماه[1]." ما زال لا ينظر إليها. حينما فتح الزجاجة، ضحكت على شيء قاله السيد. وكان آجوو على وشك صبّ الكولا الباردة في كأسها حينما مسّت يده وقالت: "*رابيوبا*، لا تشغل بالك بذلك."

كانت يدها رطبة بعض الشيء. "نعم، ماه."

"أخبرني سيدك كيف أنك تعتني به جيدًا، يا آجوو،" قالت. كلماتها الإيبو كانت أنعم من إنجليزيتها، وأحبطه كم تخرج الكلماتُ بسهولة من فمها. كان يتمنى أن تتعثر في نطق الإيبو؛ لم يكن يتوقع أن تتجاور إنجليزيةٌ متقنة هكذا مع إيبو متقنة بالقدر نفسه.

"نعم، يا ماه،" تمتم. عيناه كانتا ما تزالان مركزة على الأرض.

"ماذا طهوت لنا، يا رجلي الطيب؟" سأل السيد، كأنما لم يكن يعرف. كان يبدو أنيقًا على نحو مزعج.

"أجهّزُ السفرة الآن، صاح" قالها آجوو بالإنجليزية، ثم تمنى لو كان قد قال: *سوف أجهز السُّفرة حالاً*، لأنها تبدو أفضل، لأنها سوف تؤثر فيها أكثر. بينما كان يجهز المائدة، منع نفسه من اختلاس النظر لغرفة المعيشة، رغم أنه كان يسمع ضحكاتها وصوت السيد، بنبرته المتوترة الجديدة.

في الأخير نظر إليها وهي والسيد يجلسان إلى المائدة، وجهها البيضاوي كان ناعمًا مثل بيضة، له لون شهواني وفير يشبه لون الأرض المبللة بالمطر، عيناها واسعتان ومائلتان وبدت كأنما من المفترض ألا تمشي وألا تتكلم مثل الآخرين؛ يجب أن تكون في صندوق زجاجي مثل ذاك الذي في غرفة المكتبة، حيث الناس بوسعهم أن يبدوا إعجابهم بجسدها الغض ذي الانحناءات، لكنها سوف تبقى محفوظة من تلويث أصابعهم. شعرها طويل؛ كل ضفيرة مدلاة إلى عنقها كانت تنتهي بخصلة مزغبة ناعمة. كانت تبتسم بسهولة؛ أسنانها في نفس بياض عينيها. لم يدر كم مضى من الوقت وهو واقف يحدق فيها حتى قال السيد: "آجوو عادة يطهو أفضل من هذا بكثير. إنه يطهو خضارًا مدهشًا."

"إنه بلا طعم تمامًا، وهذا أفضل من الطعم الرديء، بالطبع،" قالت وابتسمت للسيد قبل أن تستدير لآجوو. "سوف أعلمك كيف تطهو الأرز جيدًا، يا آجوو، دون استخدام كل هذا الزيت."

1- Mah تعني سيدتي بلغتهم

"نعم، ماه،" قال آجوو. كان قد اخترع ما تصور أنه الأرز المقلي، يحمّر الأرز في زيت الفول السوداني، وحداه نصفُ أملٍ أن هذا سوف يجعلهما يسرعان إلى التواليت. الآن، رغم ذلك، يريد أن يطهو وجبة متقنة، أرز الجولوف الشهي، أو خضاره المخصوص مع عشب آريجبي، لكي يريها كيف أنه يطهو جيدًّا. أجّل غسل الصحون حتى لا يطغى صوتُ الماء الجاري على صوتها. حينما قدّم لهما الشاي أخذ وقتًا في ترتيب البسكويت والأطباق لكي يتباطأ وينصتَ إليها، حتى قال السيد: "هكذا كل شيء على ما يرام، يا رجلي الطيب." اسمها أولانا. لكن السيد ذكره مرة واحدة؛ كان معظم الوقت يناديها نكيم، خاصتي[1]. تكلما عن المعركة بين ساردونا ورئيس وزراء المنطقة الغربية، حينئذ ذكر السيد شيئًا حول الانتظار حتى تنتقل إلى نسوكا وأن المدة كلها أسابيع قليلة على كل حال. كتم آجوو أنفاسه لكي يتأكد أنه سمع بوضوح. السيد كان يضحك الآن ويقول: "لكننا سوف نعيش هنا معًا يا نكيم، وتستطيعين الاحتفاظ بشقة حي إلياس أيضًا."

كانت ستنتقل إلى نسوكا. كانت ستعيش في هذا البيت. ابتعد آجوو عن الباب وحملق في الإناء فوق الموقد. حياته سوف تتغير. سوف يتعلم طهو الأرز المقلي وسوف يستخدم زيتًا أقل ويأخذ أوامره منها. شعر بالحزن، لكن حزنه لم يكن كاملاً؛ كان مترقبًا وشغوفًا أيضًا، ثمة إثارة لم يفهمها أبدًا.

هذا المساء، كان يغسل ملابس السيد الكتانية في الفناء الخلفي، جوار شجرة الليمون، حينما رفع رأسه عن حوض الماء والصابون ورآها تقف عند الباب الخلفي تنظر إليه. أول الأمر كان واثقًا أن هذا من تخيلاته الخاصة، لأن الناس الذين يفكر فيهم أكثر يظهرون في خيالاته. طوال الوقت كانت له أحاديث تخيلية مع آنيوليكا، وأيضا بمجرد أن يلمس نفسه في الليل، كانت نيسيناتشي تظهر على نحو خاطف بابتسامة أسطورية على وجهها. لكن أولانّا كانت بالفعل عند الباب. راحت تمشي عبر الفناء صوبه. دثار فقط حول صدرها، وفيما كانت تمشي، تخيلها ثمرة جوز صفراء، جميلةً وناضجة.

"ماه؟ هل تريدين أي شيء؟" سألها. كان يعلم أنه لو وصل إليها ومس وجهها، سيكون ملمسه مثل الزبد، من ذلك النوع الذي يحضره السيد ويفض غلافه الورقي ثم يفرده على الخبز.

"دعني أساعدك في ذلك." وأشارت إلى ملاءة السريرة التي كان يشطفها، وببطء أخرج الملاءة يتقاطر منها الماء. أمسكت طرفًا منها ورجعت للخلف. "لفّ الطرفَ الذي معك بهذه الطريقة،" قالت.

لوى طرفَ الملاءة الذي معه يمينًا بينما هي لوت طرفها ليمينها، ثم نظرا إلى الماء المعصور وهو يتقاطر من الملاءة. كانت الملاءة زلقة.

[1] - My Nkem,

"شكرا، ماه،" قال.

ابتسمت. ابتسامتها جعلته يشعر أنه يزداد طولاً. "أوه، انظرْ، شجرات الببو[1] تلك، ثمراتها تقريبا نضجت. *لوتيكوا*، لا تنسَ أن تقطفها."

ثمة شيء مصقولٌ في صوتها؛ كانت تشبه الحجر الذي يرقد تمامًا تحت الينبوع المتفجر، سنوات وسنوات من الماء المندفع جعلته أملس، والنظر إليها كان يشبه اكتشاف ذلك الحجر، تنظر وأنت تعرف أن القليل جدًّا يشبهه. نظر إليها وهي تعود للداخل.

لم يكن يريد أن يشاركه أيُّ مخلوق في الاعتناء بالسيد، لم يُرد أن يختلَّ توازنُ حياته مع السيد، ومع هذا أصبح من غير المحتمل التفكير في عدم رؤيتها ثانية. فيما بعد، بعد الغداء، مشى على أطراف أصابعه إلى غرفة نوم السيد ووضع أذنه على الباب. كانت تأنُّ بصوت عال، أصواتٌ بدت لا تشبهها، أصواتٌ مُنفلتة ومثيرةٌ تخرج من الحلق. وقف هناك لوقت طويل، حتى سكن الأنين، وبعد ذلك عاد إلى غرفته.

---

[1]- شجر شمال أمريكي، له زهرات أرجوانية وثمار صفراء. Pawpaw (المترجمة)

(2)

راحت أولانّا تومئُ برأسها تناغمًا مع مقطوعة الموسيقا "الحياةُ العليا" في راديو السيارة. يدُها فوق فخذ أودينيبو؛ ترفعها كلما أرادَ أن ينقلَ ذراعَ الحركة، ثم تعيدها ثانيةً، وتضحكُ حين يغيظُها بأنها أفروديت المُحيّرة. بهجةٌ أن تجلسَ إلى جواره، ونوافذُ السيارة مفتوحةٌ والهواءُ مُشبَّعٌ بالغبار مع إيقاعات ريكس لاوسون الحالمة. كان لديه محاضرة سيلقيها خلال ساعتين، لكنه أصرَّ على توصيلها إلى مطار إنيوجو. ورغم أنها ادعّتِ الاعتراض، إلا أنها كانت تودُّه أن يفعل. حينما كانا يسيران عبر الطرق الضيقة التي تخترق هضبة ميليكين، حيث أخدودٌ عميق من جهة، وتلٌّ شديدُ الانحدار من الجهة الأخرى، لم تخبره أنه يقود بسرعة عالية بعض الشيء. ولم تنتظر حتى إلى اللوحة المكتوبة على جانب الطريق بخط اليد في حروف خشنة: أنْ تصلَ متأخرًا أفضلُ من أنْ تصلَ مرحومًا[1].

حين اقتربا من المطار غمرها الإحباطُ من رؤية أجسام الطائرات الملساء وهي تشرعُ لأعلى. صفَّ سيارتَه أسفل المدخل وأحاط الحمّالون بالسيارة ينادون: "صاح؟ مدام؟ هل لديكما حقائب؟" لكن أولانا بالكاد كانت تسمعهم لأنه جذبها نحوه.

"لا أستطيعُ الانتظارَ يا نكيم،" قال وشفتاه تضغطان على شفتيها. مذاقُها مثل مَربّى البرتقال. ودّت أن تخبره أنها أيضًا لا تطيقُ صبرًا للسفر إلى نسوكا، لكنه يعلم ذلك على كل حال، كما أن لسانه كان في فمها، فشعرت بدفء جديد بين ساقيها.

أطلقت سيارةٌ نفيرَها. ونادى حمّالٌ: "ها، هذا المكان للتحميل، أوه! فقط للتحميل."

أخيرًا تركها أودينيبو تمضي ووثب من السيارة ليأخذ حقيبتها من الصندوق، ثم حملها لها حتى شباك التذاكر. "رحلة سعيدة، *إيجي أوما*،" قال.

"قُدْ بحذر،" قالت.

نظرتْ إليه وهو يبتعد، رجلٌ ذو بنية متينة، في بنطال كاكي وقميص قصير الأكمام يبدو مُحمّصًا من فرط الكي. يدفع ساقيه للأمام بثقة متعجرفة: مشيةُ شخصٍ لا يسأل عن الطريق واثقًا من أنه سوف يصل بطريقة ما. بعدما قاد سيارته مبتعدًا، أطرقتْ برأسها وتشممت نفسَها. كانت، على نحو خاطف، قد عطّرت نفسَها في الصباح بعطره "أولد سبايس"[2]، ولم تخبره كيلا يضحك. لن يفهم خرافةَ أن تأخذ نفحةً منه معها. كأنما العطر يقدرُ، لبرهة على الأقل، أن يخمدَ أسئلتها ويجعلها تتشبه قليلاً، يجعلها مطمئنةً قليلاً، وأقل تساؤلاً قليلاً.

---

[1]- بالإنجليزية ثمة طباقٌ في الجملة Better be late, than be THE late . (المترجمة)
[2]- Old Spice عطر رجالي شهير. (ت)

استدارات لبائعة التذاكر وكتبت اسمَها على ورقة صغيرة. "مساء الخير. من فضلك، تذكرة ذهاب فقط إلى لاجوس."

"أوزوبيا؟" أشرق وجهُ موظفة التذاكر ذو البثور بابتسامة واسعة. "ابنة الشيخ أوزوبيا؟"

"نعم."

"أوه! حسناً جدًا، مدام. سأطلب إلى الحمّال أن يأخذك إلى قاعة كبار الزوار." وتلفتتِ الموظفةُ حولها. "إكينّا! أين هذا الولد الأحمق؟ إيكيّنا!"

هزّت أولانا رأسها وابتسمت. "لا، لا داعي لذلك." وابتسمت مجددًا، مؤكدةً أنها لا تود الذهابَ إلى قاعة كبار الزوار.

كانت قاعة الانتظار العامة مزدحمة. جلست أولانا في مواجهة ثلاثة أطفال في ملابسَ رثّة وشباشبَ، كانوا يقهقهون على نحو متقطع بينما أبوهم يرمقهم بنظرات متجهمة. وامرأةٌ عجوز بوجهٍ متغضن كريه، جدتهم، تجلس جوار أولانا، وتقبض على حقيبتها فيما تدمدمُ لنفسها. كان بوسع أولانا شم رائحة عفونة ردائها؛ لابد أنه انتُزع من صندوق ثياب قديم لهذه المناسبة. حينما أعلن صوتٌ عن وصول رحلة الخطوط النيجيرية، قفز الأبُ لأعلى ثم عاد وجلس.

"لابد أنك تنتظرُ شخصًا ما." قالت أولانا بالإيبو.

"نعم، موانّي م، شقيقي قادمٌ من أعالي البحار بعد أربع سنوات من التعلّم هناك. "ثمة نبرةٌ ريفية قوية بلهجته الأويرية.

"إيه!" قالت أولانا. كانت تود أن تسأله من أين شقيقه كان قادمًا وماذا درس، لكنها لم تفعل. ربما هو نفسه لا يعلم.

استدارات الجدة لأولانا. "إنه أولُّ مَن سافرَ للخارج في قريتنا لاجي، وجهزت عشيرتُنا رقصةً من أجله. سوف تقابلنا فرقة الراقصين في إكيديورو." ابتسمتْ بفخر فبدت أسنانُها الصفراء. نبرتها الريفية كانت أقوى؛ ومن العسير استيعاب كل شيء قالته. "صديقاتي يشعرن بالغيرة، لكن هل خطأي أن أبناءهن يمتلكون عقولاً خاوية بينما ابني فاز بمنحة زمالة الأوروبيين البيض؟"

إعلانٌ عن وصول رحلة أخرى فهتف الأبُ: "شيري! إنها رحلته، إنها رحلته!"

نهض الأطفالُ فأمرهم أبوهم أن يجلسوا ثم وقف هو. وقبضتِ الجدةُ على حقيبتها إلى بطنها. شاهدتْ أولانا الطائرةَ تهبط. لمستِ الأرضَ، وبمجرد أن درجتْ في مهبط الطائرات، صرختِ الجدةُ وألقت بحقيبتها.

فزعتْ أولانا. "ماذا هناك؟ ماذا هناك؟"

"ماما!" قال الأب.

"لماذا لا تقف؟" سألتِ الجدةُ، وكلتا يديها معقودتان حول رأسها في يأس. "تشي م!" يا إلهي! ياللمصيبة!" إلى أين ستأخذ ابني الآن؟ هل خدعني الناس؟"

"ماما، سوف تقف،" قالت أولانا. هكذا تفعل الطائرةُ عند الهبوط. التقطتِ الحقيبةَ ووضعتْ يد الحقيبة القديمة المتصلب جلدها في يدها. "سوف تقف،" قالت ثانية.

لم تهدأ المرأةُ حتى توقفتِ الطائرةُ فأرسلت الجدة يدها وتمتمت بشيء حول هؤلاء الحمقى الذين أساءوا تصميم الطائرة. شاهدت أولانا العائلة تسرع نحو بوابة الوصول. وحينما مشت بعد دقائق نحو بوابتها الخاصة، نظرت للخلف ثانية آملةً أن تلمحَ هذا الابن العائد من وراء البحار. لكنها لم تفلح.

كانت رحلتها كثيرة المطبّات. الرجل الجالس جوارها كان يأكل زبد الكولا المُرّة، يمضغ بصوت عال، وحينما استدار لها ليتجاذب الحديث معها، أزاحت ببطء نفسها حتى التصقت بجدار الطائرة.

"يجب وحسب أن أخبرك أنكِ جميلة جدًّا،" قال.

ابتسمتْ وشكرته وأبقت عينيها على جريدتها. سوف يضحك أودينيبو حين تخبره عن هذا الرجل، بالطريقة نفسها التي يضحك بها دائمًا على معجبيها، بثقته المفرطة بالنفس. كان ذلك ما جذبها إليه أول مرة منذ عامين في أحد أيام يونيو في إبادان، ذلك اليوم الممطر الذي تدثر بألوان إنديجو الغسقية رغم أنها كانت الظهيرة. كانت عائدة للوطن من لندن في عطلتها. وكانت على علاقة حقيقية مع محمد. لم تلحظ أودينيبو أول الأمر، واقفًا أمامها في الصف خارج مسرح الجامعة ليشتري تذكرة. كان من الممكن ألا تلحظه أبدًا لو لم يقف وراءها رجلٌ أبيضُ ذو شعر فضي، ولو لم تُشر بائعةُ التذاكر للرجل الأبيض بأن يتقدم للأمام. "دعني أساعدك هنا يا سيدي،" قالت البائعةُ، بتلك النبرة الكوميدية المفتعلة "البيضاء" التي يحب غير المتعلمين افتعالَها.

انزعجت أولانا لكن ليس كثيرًا، لأنها تعلم أن الطابور يتحرك بسرعة في كل حال. لذا اندهشت من الثورة التي اندلعت من رجل يرتدي سفاري بُنيّ ويمسك كتابًا: أودينيبو. مشي للأمام، وأعاد الرجلَ الأبيض للطابور ثم صرخ في بائعة التذاكر. "أيتها الجاهلةُ التعسة! أترين الرجلَ الأبيض أفضلَ من قومك؟ يجب أن تقدمي اعتذارًا لكل شخص يقف في هذا الطابور! فورًا!."

حدقت أولانا فيه، في قوس حاجبيه وراء النظارة، في متانة جيده، وراحتْ تفكر في أقل الطرق إيلامًا لفكّ ارتباطها بمحمد. ربما أدركت أن أودينيبو كان مختلفًا. حتى ولو لم يتكلم، قَصّةُ شعره وحدها أنبأت بذلك، وقوفه في تلك الهالة العالية. لكن شيئًا بهيًّا لا تخطئه العين كان يميزه كذلك؛ لم يكن من هؤلاء الذين يتوسلون الضجيجَ ليثبتوا تطرّفهم. ابتسمت وقالت: "برافو!" وهو يمر من جوارها، وكان هذا هو التصرف الأكثر جرأة في حياتها، المرة الأولى التي تسعى للفت نظر رجل. وقف وقدم نفسَه لها. "اسمي أودينيبو."

"أنا أولانا" قالت. وفيما بعد سوف تخبره أن ثمة سحرًا طقطق في الهـواء، وهـو سـوف يخبرها أن رغبته في تلك اللحظة كانت حادة جدًّا حتى أن ما بين فخذيه قد آلمه.

حينما أحسّتْ أخيرًا بتلك الرغبة، كانت دهشتها لا توصف. لم تكن تعلم أن القـوة الدافعـة عند الرجل يمكن أن تتعطل بالذاكرة، حتى أنها من الممكن أن تتوازن فـي مكـان لا يمكنهـا التفكير به أو تذكّره لكن فقط يمكنها أن تحسَّه. القوة والحدّة لم تَخْبُ بعد سـنتين، ولا خففـت دهشتُها من ثقته بالنفس ومبدئية أخلاقه. لكنها خشيت أن يكون ذلك بسبب أن علاقتهما كانـت تتم على رشفات متقطعة: كانت تراه حينما تعود إلى الوطن في إجازاتها؛ يكتبـان لبعـضهما البعض؛ ويتكلمان في الهاتف. والآن وقد عادت إلى نيجيريا سوف يعيشان معًـا، ولـم تكـن تعرف كيف أمكنه ألا يبدي بعض التردد. كان مُصرّا تمامًا.

نظرت إلى الغيوم خارج نافذتها، تمرقُ سريعًا كثيفةً وضبابية، وبدت لها تلك الغيومُ هـشّةً وقابلةً للكسر.

لم ترغب أولانا في تناول العشاء مع أبويها، خاصة بعدما دعوا الشيخ أوكونجي. لكن أمها دخلت غرفتها ورجتها أن تشاركهم؛ ليس كلَّ يوم يدعوان في بيتهم وزيرًا للمالية، وكان هـذا العشاء مُهمًّا أكثرَ بسبب عقْدِ البناية الذي يريده أبوها. "بيكو، البسي شيئا جميلاً. كاينين سـوف ترتدي أيضًا شيئًا مميزًا،" قالت أمها وأضافت، كأنما ذِكرها أختها التوأم يُشَرعن كلّ شيء.

الآن، تبسط أولانا فوطتها فوق ركبتيها وتبتسم للذي يقدم لها صـحنًا بـه نـصف ثمـرة أفوكادو. زيُّه الأبيضُ كان مُنشًى وكذا بنطاله فبدا كأنما مصنوعٌ من الورق المقوى.

"أشكرك يا ماكسويل،" قالت.

"عفوًا يا خالة،" تمتم ماكسويل، وابتعد بصينيته.

نظرت أولانا إلى الطاولة. أبواها يركزان نظريهما على الشيخ أوكونجي، يومئان بحمـاس وهو يحكي قصةً عن اجتماع حديث مع رئيس الوزراء باليوا. كانت كاينين تنتظـر صـحنَها بتعبيرها العبوس، كأنما تسخر من الأفوكادو. لم يشكر ماكسويل أحدٌ منهم. تمنت أولانـا لـو أنهم فعلوا؛ مجرد شيء بسيط بوسعهم فعله ليعبروا عن تواضعهم مع الناس الذين يخـدمونهم. اقترحت ذلك مرةً؛ فقال أبوها إنه يدفع لهم مرتبات مجزية، وقالت أمهـا إن شـكرهم سـوف يعطيهم مجالاً للتطاول، بينما كاينين، كالعادة، لم تقل شيئًا، فقط تعبيرٌ ضَجِر على وجهها.

"هذا أفضل أفوكادو أتذوقه منذ وقت طويل،" قال الرئيس أوكونجي.

"إنه من أحد مزارعنا،" قالت أمها. "تلك القريبة من آسابا."

"سأجعل الخادم يضع بعضًا منه في حقيبة من أجلك،" قال الأب.

"ممتاز،" قال الشيخ أوكونجي. "أولانا، آمل أن تكوني مستمتعة بصحنك، ايه؟ تحدقين فيـه كأنما هو شيء يعض." ضحك، بقهقهة من القلب، وسرعان ما ضحك أبواها أيضًا.

"إنه لذيذ جدًّا." نظرت أولانا لأعلى. كان ثمة شيء لزج في ابتسامة الشيخ. الأسبوع الماضي، حينما دفع بطاقته عنوة في يدها في نادي إكويي، أقلقتها هذه الابتسامة لأن حركة شفتيه بدت كأنما تملأ فمه باللعاب الذي يهدد بأن يسيل على ذقنه.

"آمل أنكِ فكرت في المجيء ومشاركتنا في الوزارة يا أولانا. نحتاج عقولاً من الطراز الأول مثل عقلك،" قال الشيخ أوكونجي.

"كم شخصا يُمنح وظيفةً من وزير المالية شخصيًّا." قالت أمها، بينما أضاءت ابتسامتها وجهها البيضاوي المتقن ذا البشرة السوداء، وجه شديد التماثل، حتى أن صديقاتها يناديها بـ "الفن".

خفضت أولانا ملعقتها في الصحن. "قررتُ أن أذهب إلى نسوكا. سأرحل خلال أسبوعين."

رأت الطريقة التي ضمَّ بها والدُها شفتيه. وتركت أمُّها يدَها مُعلّقةً في الهواء لبرهة، كأنما الخبر أكثرُ تراجيدية من أن يسمح لها بمواصلة رشِّ الملح. "ظننتُ أنكِ لم تقرري بعد،" قالت أمها.

"لا أستطيع أن أهدر المزيد من الوقت وإلا سوف يعطون المنحة لشخص آخر." قالت أولانا.

"نسوكا؟ هل هذا صحيح؟ هل قررتِ الانتقالَ إلى نسوكا؟" سأل الشيخ أوكونجي.

""نعم قدمتُ طلبًا لوظيفة مدربة في قسم علم النفس وحصلت عليها." قالت أولانا. هي تفضل الأفوكادو عادة دون ملح، لكنه بلا طعم اليوم، مثير للغثيان تقريبًا.

"أوه، إذن سوف تتركينا في لاجوس،" قال الشيخ أوكونجي. بدا وجهه كأنما يذوب، ويُطوَى على نفسه. ثم استدار وسأل، على نحو باشٍّ، "وماذا عنك يا كاينين؟"

نظرتْ كاينين في عينيه تمامًا، بتلك التحديقة الخاوية من أي تعبير، فارغة مسطحة، وعدائية تقريبًا.

" فعلاً ماذا عني؟" رفعت حاجبيها. "أنا أيضًا سوف أضعُ الدرجة التي حصلت عليها حديثًا في مكانها المناسب. سوف أنتقل إلى بورت هاركورت لأتابع أعمال أبي هناك."

تمنت أولانا لو تظل تحتفظ بتلك الإشراقات، اللحظات التي تقدر أن تخمن فيمَ تفكر كاينين. حينما كانتا في المدرسة الابتدائية، كانتا أحيانًا تنظران إلى بعضهما البعض وتضحكان، دون أن تتكلما، لأنهما فكرتا في نفس النكتة. تشكُّ أن كاينين مازالت تمتلك تلك الإشراقات الآن، منذ توقفتا عن الكلام معًا. لم تعودا تتكلمان حول أي شيء.

"إذن كاينين سوف تباشر مصنع الأسمنت؟" سأل الشيخ أوكونجي، ملتفتًا إلى والدها.

"ستشرفُ على كل شيء في الشرق، المصانعُ واستثماراتنا الجديدة في النفط. فلديها عينٌ ممتازة في الأعمال."

"مَن يقول إنك خسرت كونك أبًا لابنتين توأم هو كاذب،" قال الشيخ.

"كاينين ليست فقط مثل ابن ولد، بل بمثابة اثنين،" قال الأب. نظر إلى كاينين فنظرت بعيدًا، كأنما لا يعنيها الفخر في عينيه، وركزت أولانا نظرها في صحنها بسرعة لكيلا يلحظ أحدهما أنها ظلت تتأملهما. كان الصحن أنيقًا، لونه أخضر فاتح، في مثل لون الأفوكادو.

لماذا لا تأتون جميعكم إلى بيتي في عطلة نهاية الأسبوع، إيه؟" سأل الشيخ أوكونجي. "ولو حتى لتختبروا حساء السمك بالفلفل الذي يقدمه طاهيي الخاص. هو من نيمبي؛ ويعرف ماذا يصنع بالسمك الطازج."

قهقه والداها عاليًا. ولم تدرك أولانا ما هو المضحك، لكنها كانت نكتة السيد الوزير.

"يبدو هذا رائعًا،" قال أبوها.

"سيكون لطيفا أن نذهب قبل سفر أولانا إلى نسوكا،" قالت الأم.

شعرت أولانا بتوتر طفيف، شعور بأن بشرتها تشُكُّها. "كنت أودُّ أن أشارككم، لكنني لن أكون هنا هذا الويك اند."

"لن تكوني هنا؟" سأل أبوها. وتساءلت إذا ما كان تعبير عينيها أظهر إحباطَها. وتساءلت أيضًا كيف لأبويها أن يعدا الوزير بشيء يخصها في مقابل عقد. هل وعداه بوضوح، أم ضمنيًّا؟

"خططتُ للذهاب إلى كانو، لرؤية الخال مبيزي والعائلة، وأيضًا محمد،" قالت.

أطبق أبوها على الأفوكادو: "مفهوم."

رشفت أولانا الماء وصمتت.

انتقلوا بعد العشاء إلى البلكون لاحتساء الخمر. كانت أولانا تحبُّ هذا الطقس البعد-عشائي، وكانت تبتعد عن أبويها والضيوف لتقف عند الدرابزين المطل على المصابيح العالية التي تضيء الطريق بالأسفل، مشّعةٌ جدًا حتى أن حمام السباحة يبدو كأنه من الفضة وكذا شجرات الخبيزة والبوجاينفيلا المتسلقة تتمدد مصقولة مشعّةً بألوانها الحمراء والزهرية. في المرة الأولى والوحيدة التي زارها فيها أودينيبو في لاجوس، وقفا يتأملان حوض السباحة في الأسفل، وألقى أودينيبو سدادة قارورة من الفلين وظل يرقبها وهي تغطس في الماء. شرب الكثير من البراندي وحينما قال والدها إن فكرة تشييد جامعة نسوكا سخيفة، لأن نيجيريا لم تكن مستعدة لجامعة أهلية، وإن قبول دعم من جامعة أمريكية- بدلاً من جامعة حقيقية في بريطانيا- هو حماقة صريحة، رفع صوته للرد. ظنت أولانا أنه سيكتشف أن أباها يريد وحسب أن يغيظه ليريه أنه لم يعجب بمحاضِر كبير من نسوكا. ظنت أنه سوف يمرر كلمات أبيها. لكن هذا الصوت علا وعلا وهو يجادل قائلاً إن جامعة نسوكا حرّة من التأثير الاستعماري، وقد غمزته عدة مرات لتشير له بأن يتوقف، ولابد أنه لم يلحظ لأن البلكون كان معتمًا. وفي الأخير رن الهاتف وكان على الحديث أن ينتهي. النظرة في عيون أبويها كانت مزيجًا من الاحترام والحنق، استطاعت أولانا أن تدرك ذلك، لكن هذا لم يمنعهما من إخبارها

أن أودينيبو مجنون ويسيء إليها، وأنه ليس إلا واحدًا من رجال الجامعة المتهورين الذين يتكلمون ويتكلمون حتى يصاب الجميع بالصداع دون أن يفهم أحدٌ شيئًا مما يقولون.

"يا لها من ليلة لطيفة،" قال الوزير من ورائها. استدارات أولانا. ولم تعرف متى دخل أبواها وكاينين وتركوها مع الشيخ وحدها.

"نعم،" قالت.

وقف أمامها الشيخ أوكونجي. كانت بدلته مطعمة بخيوط ذهبية حول العنق. نظرت إلى عنقه، تكسوه حلقاتٌ من الدهن، وتخيلته وهو يفكك الطبقات من حوله عند الاستحمام.

"ماذا عن الغد؟ هناك حفل كوكتيل في فندق إكوي،" قال. "أريدكم جميعًا أن تلتقوا ببعض المغتربين. هم يبحثون عن أرض وأستطيع أن أنسق لهم أن يشتروا من أبيك بخمسة أو ستة أضعاف السعر."

"غدًا عليَّ واجب خيري في كنيسة سانت فينسينت دي بول." اقترب الشيخ أوكونجي. "لا أقدر على إبعادك عن تفكيري." قال، وقد هبَّ رذاذُ الخمر واستقر فوق وجهه.

"معذرة لست أبادلك مشاعرك يا رئيس."

"أنا وحسب لا أقدر على عدم التفكير فيكِ،" قال ثانية. "انظري، ليس عليك العمل في الوزارة. أستطيع أن أجعلك تسافرين، تسافرين حيث تشائين، وسوف أؤثث لك شقة أينما أردتِ." جذبها إليه، ولبرهة لم تفعل أولانا شيئًا، ترنح جسدها نحوه. كانت معتادة على ذلك، أن يتحرش بها رجال يسيرون في سحابة مبللة من عطور مجهولة، يفترضون أنها ملكهم بما أنهم ذوو نفوذ ويجدونها جميلة. دفعته للخلف، أخيرًا، وشعرت بغثيان غامض لأن يديها غطستا في صدره الطري. "توقف عن ذلك يا رئيس."

أغمض عينيه. "أحبك، صدقيني. أنا بالفعل أحبك."

تسللت من حضنه ودلفت للداخل. صوت والديها كان خافتًا من غرفة المعيشة. وقبل أن تصعد إلى الأعلى توقفت لتستنشق الزهور الذابلة في مزهرية فوق طاولة جانبية جوار السلم، كأنما تعرف أن عطرها سوف يخبو. غرفتها كانت ذات سمت غربيّ، الخشبُ بدرجات لون دافئة، الأثاثُ المكسو بالجلد، السجادة الخمرية من الحائط للحائط تحتضن قدميها، الفراغات الواسعة التي جعلت كاينين تسمي غرفتيهما شققًا. نسخة جريدة "حياة لاجوس" كانت ما تزال فوق سريرها؛ التقطتها، ونظرت إلى صورتها مع أمها، في الصفحة الخامسة، وجهاهما كانا يسكوهما الرضا والإعجاب بالنفس، في حفل الكوكتيل الذي أقامه المبعوث السامي البريطاني. كانت أمها تجذبها نحوها بينما المصور يقترب؛ بعد ذلك، بعدما خبا ضوء الفلاش، نادت أولانا المصور ورجته ألا ينشر الصورة. نظر إليها باستغراب. الآن تدرك كم كان سخيفًا أن تطلب ذلك؛ بالطبع لم يكن أبدًا ليفهم عدم الارتياح الذي لازمها بسبب حياة أبويها البراقة.

كانت في سريرها تقرأ حينما طرقت أمُّها الباب ودخلت.

"أوه، تقرأين،" قالت الأم. كانت تحمل لفائفَ من القماش. "مضى الشيخ للتو. وقال إنني يجب أن أحييك."

ودّت أولانا أن تسألها ما إذا كانا قد وعداه بعلاقة معها، لكنها أدركت أنها أبدًا لن تقوى على السؤال. "ما هذه الأشياء؟"

"قبل أن يمضي أمرَ الشيخُ سائقَه أن يجلبها من السيارة. إنها أحدث تصميمات في أوروبا. انظري؟ جميلة جدًا، *آي فوكوا*؟"

تحسست أولانا القماش بين أصابعها. "نعم، جميلة جدًا."

"هل شاهدتِ ما كان يرتديه اليوم؟ أصلية! *إيزيجبو*!" جلست أمها جوارها. "وتعرفين، يقولون إنه لا يلبس الشيء مرتين أبدًا؟ يعطيها لخدمه بمجرد أن يلبسها."

تخيلت أولانا الصناديق الخشبية الخاصة بخدمه الفقراء ممتلئة بالمتنافر من الثياب، الخدم الذين هي واثقة أنهم لا يتقاضون الكثير كل شهر، وهم يمتلكون ملابس من صديريات وبدلات لن يلبسوها مطلقًا. كانت متعبة. الحديث مع أمها أتعبها.

"أي قطعة تريدين، نني؟ سوف أصنع لك ولكاينين تنورة طويلة وبلوزة."

"لا، لا تشغلي بالك يا ماما. اصنعي شيئًا لكِ أنت. أنا لن ألبس أقمشة غالية في نسوكا."

مررت الأم إصبعها على الكومود جوار السرير. "تلك الخادمة لا تنظف الأثاث جيدًا. هل تظن أنني أدفع لها لكي تلعب؟"

وضعت أولانا كتابها جانبًا. أرادت أمها أن تقول شيئًا. تقدر أن تخمن ذلك، الابتسامة الساكنة، الإيماءات الرسمية، كانت مجرد بداية.

"وإذن كيف حال أودينيبو؟" سألت الأم أخيرًا.

"بخير."

تنهدت أمها، بتلك الطريقة المبالغ فيها التي تعني أنها تمنت أن تقول أولانا شيئًا. "هل تعتقدين أن سفرتك إلى نسوكا حركة موفقة؟ موفقة جدًا؟"

"لم أكن واثقة من شيء مثل هذا."

"لكن هل ستكونين مرتاحة هناك؟" نطقت أمها *مرتاحة* بكتفين متخاذلين، وابتسمت أولانا لأن أمها كانت تتصور بيت أودينيبو الجامعي التقليدي، بغرفه الخشنة وأثاثه البسيط وأرضيته العارية من السجاد.

"سأكون بخير،" قالت.

"تستطيعين أن تجدي عملاً هنا في لاجوس وتسافرين لترينه في عطلات نهاية الأسبوع."

"لا أود العمل في لاجوس. أريد العمل في الجامعة، وأريد العيش معه."

نظرت إليها الأمُ برهةً طويلة قليلاً قبل أن تنهض وتقول بصوت منخفض ومجروح: "تصبحين على خير يا ابنتي."

شخصت أولانا في الباب. كانت معتادةً على استنكار أمها؛ وهي على أي حال قد ساهمت في كل قراراتها الكبرى: حينما اختارت الحرمان أسبوعين بدلاً من الاعتذار لمعلمتها لإصرارها أن الدروس في برتينيكا كانت متناقضة؛ حينما شاركت في حركة الطلبة لاستقلال إبادان؛ حينما رفضت الزواج من ابن إجوي أكابو، وفيما بعد، ابن الشيخ أكارو. وما تزال، في كل وقت، ذلك الاستنكار يجعلها تود أن تعتذر، لتصلح الأمر على نحو ما.

كانت نائمة تقريبًا حينما طرقت كاينين الباب. "إذن سوف تمدين ساقيك لهذا الفيل في مقابل عقد بابا؟" قالت كاينين.

جلست أولانا في الفراش، مندهشة. لم تعد تذكر المرة الأخيرة التي دخلت فيها كاينين غرفتها.

"بابا حَرفيا جذبني خارج الفيراندا، حتى نتركك وحدك مع الوزير المهندم،" قالت كاينين. "فهل ستمنحين بابا العقد إذن؟"

"هو لم يقل. لكنه لن يخسر. بابا سوف يعطيه عشرة بالمائة مع هذا."

"العشرة بالمائة هي النسبة الثابتة، لكن الزيادة دائماً مفيدة. بقية المساهمين ربما ليس لديهم ابنة *جميلة*." مطّت كاينين الكلمة حتى بدت كأنها حلوى لزجة جمـ-ـيـ-*ـلـة*. كانت تقلب في نسخة "حياة لاجوس"، روبها الحريري معقود بقوة حول خصرها النحيل. "الميزة في أن تكوني الابنة غير الجميلة هو أن أحدًا لن يستخدمك كطُعْم جنسيّ."

صمتت كاينين لبرهة؛ بدا أنها مركزة انتباهها على مقالة في الجريدة. ثم نظرت لأعلى. "ريتشارد سيذهب إلى نسوكا أيضًا. تلقى منحة، وسوف يقوم بكتابة كتابه هناك."

"أوه، حسنٌ. هذا سيعني أنك ستمضين بعض الوقت في نسوكا؟"

تجاهلت كاينين السؤال. "ريتشارد لا يعرف أي إنسان في نسوكا لذا يمكنك أن تقدميه إلى حبيبك الثوريّ."

ابتسمت أولانا. *"الحبيب الثوريّ"*. الكلمات التي يمكن أن تقولها كاينين بوجه مباشر! "سوف أقدمهما لبعضهما البعض،" قالت. لم تحب أولانا أبدًا أيًّا من أصدقاء كاينين الشباب كما لم ترتح أبدًا إلى أن كاينين كانت تواعد الكثير من الرجال البيض في إنجلترا. يوترها تنازلُهم المُقنّع الطفيف، وشرعيتهم الزائفة. لكنها لم تأخذ نفس رد الفعل تجاه ريتشارد تشرشل حينما دعته كاينين للعشاء. ربما لأنه لم يكن لديه ذلك الشعور بالتفوق، حين يظن الإنجليز أنهم يفهمون الأفارقةَ أكثر مما يفهم الأفارقةُ أنفسهم، وبدلاً من ذلك كان لديه عدم ثقة محببة بنفسه- تقريبًا خجل. أو ربما لأن أبويها تجاهلاه، لم يحتفيا به لأنه لم يكن يعرف أيًّا ممن يستحقون أن يُعرفوا.

"أعتقد أن ريتشارد سوف يعجبه بيت أودينيبو،" قالت أولانا. في المساء يشبه ناديًّا دبلوماسيًّا. أول الأمر كان يدعو أفارقةً لأن الجامعة ملأى بالأجانب، وكان يريد للأفارقة أن

يحظوا بفرصة التشارك الاجتماعيّ فيما بينهم. في البدء كانت لقاءات بايوب BYOB[1]، لكنه الآن يسألهم أن يتشاركوا في دفع بعض المال، ثم يشتري كل أسبوع مشروبات ويلتقون في منزله" توقفت أولانا. كانت كاينين تنظر إليها نظرة باردة، كأنما خرقت قاعدتهما غير المنطوقة وتحاول أن تبدأ ثرثرة كسول.

استدارت كاينين نحو الباب. "متى ترحلين إلى كانو؟"

"غدا." كانت أولانا تود أن تبقى كاينين معها، تجلس على سريرها وتجذب وسادة على حجرها وتتم وتضحك طوال الليل.

"تصحبك السلامة، جي *أوفيوما*. انقلي تحياتي للعمة والعم في آريزي."

"سوف أفعل،" قالت أولانا، رغم أن كاينين كانت بالفعل قد غادرت وأغلقت الباب. أنصتت إلى خطوات كاينين على سجادة الردهة. ها هما الآن تعيشان في البيت نفسه من جديد بعدما عادتا من إنجلترا، وأدركت أولانا اتساع المساحة التي غدت بينهما. كاينين كانت دائمًا الطفلة المنسحبة، المراهقة الشكاءة، الفتاة، التي لأنها أبدا لم تحاول إسعاد والديها، تركت لأولانا هذا الواجب. لكنهما كانتا قريبتين من بعضهما رغم ذلك. اعتادتا أن تكونا صديقتين. وتساءلت متى تغير كل ذلك. قبل ذهابهما إلى إنجلترا، بالتأكيد، بما أنهما لم يكن لهما أبدا الأصدقاء أنفسهم في لندن. ربما كان ذلك أثناء سنوات المدرسة الثانوية في هيثجروف. ربما قبل ذلك حتى. لا شيء حدث- لا شجارات، لا حوادث معينة- كل ما هنالك أنهما انفصلتا، لكنها كانت كاينين التي وضعت نفسها بقوة في مكان قصيّ حتى أنهما لا يمكنهما الاقتراب معًا مجددًا.

اختارت أولانا ألا تطير إلى كانو. كانت تحب الجلوس جوار نافذة القطار لتشاهد الغابات الكثيفة وهي تنزاح جوارها، المسطحات المعشوشبة المنبسطة، الماشية وهي تؤرجح أذيالها بينما يرعاها بدو عاريو الصدور. حين وصلت كانو صدمها مجددًا كم هي مختلفة عن لاجوس، عن نسوكا، عن بلدتها الأم أوموناتشي، كم هو الشمال بوجه عام مختلفٌ عن الجنوب. هنا كانت الرمال ناعمة، رمادية، مُلوَّحة بالشمس، لا تشبه الأرض الحمراء الثقيلة في بلدتها؛ الأشجار مشذبة، لا تشبه الانفجار الأخضر المتدفق الذي يلقي بظلاله على الطريق إلى أوموناتشي. هنا، أميال من الأراضي المنبسطة تمتد وتمتد، تحثُّ العينَ على أن تلقي بمداها أبعد قليلاً، حتى تلتقي بالسماء البيضاء الفضية.

استقلّت تاكسي من محطة القطار وطلبت إلى السائق أن يتوقف عند السوق أولاً، حتى يمكنها أن تسلم على الخال مبيزي .

في طرقات السوق الضيقة، ناورت خطاها بين أولاد صغار يرفعون حمولات ضخمة فوق رؤوسهم، نساء تساوم الباعة، بائعين ينادون. محل التسجيلات كانت تنطلق منه موسيقى حية

1- Bring Your Own Bottle - نظام "احضر شرابك الخاص" (المترجمة)

صاخبة، فأبطأت السير قليلاً كي تدندن مع أغنية بوبي بينسون "سائق التاكسي" قبل أن تسرع إلى كشك الخال. أرففه كانت مرصوصة بالدلاء وأدوات المنزل.

"*أوماليشا*!" قال حينما رآها. هكذا كان يدعو أمها أيضا - **الجميلة**. "كنتِ ببالي. كنت أعلم أنك ستأتين لزيارتنا قريبًا."

"خالي، مساء الخير."

"تعانقا. أراحت أولانا رأسها فوق كتفه؛ فاحت منه رائحة عرق، رائحة هواء السوق المفتوح، رائحة الأواني المنسقة فوق الأرفف الخشبية المغبرة.

كان من الصعب تخيل أن الخال مبيزي وأمها قد كبرا سويًّا، شقيق وشقيقة. ليس فقط بسبب أن وجه الخال ذا البشرة الفاتحة لا يحمل شيئًا من جمال أمها، بل لأن شيئًا من الترابية كان يشوبه. أحيانًا كانت أولانا تتساءل ما إذا كانت ستعجب به كما تفعل إذا لم يكن مختلفًا هكذا عن أمها.

كلما زارته، كان الخالُ يجلس معها في الفناء بعد العشاء ويخبرها بآخر أخبار العائلة: ابنة خالها غير المتزوجة كانت حاملاً، وكان يريدها أن تأتي لتعيش معه ليتجنب مكائد القرية؛ ابن الأخ مات هنا في كانو وكان يبحث عن أرخص الطرق ليعيد الجثمان إلى البلدة. أو كان يحكي لها عن الأحوال السياسية: ما الذي كان ينظمه اتحاد الإيبو، المعارضة، المناقشات. كانوا يعقدون الاجتماعات في هذا الفناء. جلست هناك عدة مرات، ومازالت تتذكر اجتماعًا تكلم فيه رجال ونساء ثائرون حول مدارس الشمال التي لم تقبل أطفال الإيبو. نهض الخال مبيزي ودق الأرض بقدميه. "*ندي آني*! قومي! سوف نبني مدرستنا الخاصة! سوف نجمع أموالاً ونبني مدرسة تخصّنا!" بعد كلمته شاركت أولانا الجمعَ في التصفيق إعلانًا عن موافقتها، هاتفةً: "كلام جميل! هكذا يكون القول!" لكنها كانت قلقة لأن بناء مدرسة شيءٌ عسيرٌ. ربما الأكثر عمليةً هو محاولة إقناع الشماليين بقبول أطفال الإيبو.

لكنْ، الآن، بعد مرور سنوات قليلة، في التاكسي على طريق المطار، كانت تمر بمدرسة الإيبو الأساسية المتحدة. كان وقت الفسحة وفناء المدرسة مليء بالأطفال. الأولاد كانوا يلعبون كرة القدم في فرق مختلفة في الفناء نفسه، لذلك كانت هناك كرات كثيرة تطير في الهواء، وتساءلت أولانا كيف يميز كل فريق كرتَه الخاصة. ثم مجموعات من البنات بالقرب من الطريق يلعبن *أوجا* و*سويل*، يصفقن بإيقاع وهن يحجلن على ساق واحدة ثم على الأخرى. قبل أن يقف التاكسي خارج مجموعة البنايات في سابون جاري، رأت أولانا الخالة إيفيكا جالسة جوار كشكها على جانب الطريق. مسحت الخالة يديها في ثوبها واحتضنت أولانا، ثم رجعت إلى الوراء لتنظر إلى أولانا، ثم احتضنتها من جديد. "أولاناتنا!" [1]

"خالتي! كيدو؟"

---

[1] - Our Olanna أولانا خاصتنا. قول تحببي (ت)

"أنا الآن بخير بعدما رأيتك."

"ألم تعد آريزي بعد من درس الخياطة؟"

"سوف تعود في أية لحظة الآن."

"كيف حالها؟" *أو ما -أجاكوا؟* "هل يسير درس الخياطة جيدًا؟"

"البيت مليء بالباترونات التي قصتها."

"وماذا عن أودينتشيزو وإيكيني؟"

"هما هناك. زارانا الأسبوع الماضي وسألا عنك."

"وكيف تعاملهما ميدوجوري؟ هل هناك تجارة ما؟"

"لم يقولا إنهما يتضوران جوعًا،" قالت الخالة إيفيكا، باستهجان طفيف. فحصت أولانا الوجه الجامد وتمنت، في لحظة شعور بالذنب، أن تكون الخالة إيفيكا أمها. كانت الخالة إيفيكا مثل أمها، على أية حال، بما أن ثدييها هما اللتان أطعمتاها هي وكاينين حينما جفَّ ثديا أمها بعد مولدهما بوقت قصير. كاينين اعتادت أن تقول إن ثديي أمها لم يجفَّا أبدًا، لكنها أعطت طفلتيها لمُرضعة كيلا يتهدل ثدياها.

"تعالي، *آدا آنيا*،" قالت الخالة. "تعالي ندخل." سحبت مصراع الكشك الخشبي لأسفل، لتغطي البضاعة المرصوصة بعناية من علب الكبريت، واللبان، والحلوى، والسجائر، والمنظفات، ثم حملت حقيبة أولانا وقادتها داخل الفناء. كان الكوخ الضيق غير مطلي. والملابس التي ما تزال معلقة لتجف، نشفت، كأنما حمصتها شمس الظهيرة. إطارات سيارات قديمة، تلك التي يلعب بها الأطفال، كانت مكومة تحت شجرة الكيوكا. كانت أولانا تعلم أن الهدوء الساكن للفناء سوف يتبدد حالاً، حينما يعود الأطفال من المدرسة. العائلات سوف تترك الأبواب مشرعة والفيراندات والمطابخ سوف تصطخب بالثرثرة. أسرة الخال مبيزي تسكن في غرفتين. في الأولى كانت هناك أرائك بالية تُدفع في الليل على الجوانب لتجهيز الغرفة لفرش الحصير، أفرغت أولانا الأشياء التي أحضرتها- خبز، أحذية، قوارير زبد- بينما وقفت الخالة إيفيكا تراقبها ويداها خلف ظهرها. "دعي شخصًا آخر يفعل. ربما شخص آخر يفعلها عنك،" قالت الخالة.

"بعد ذلك بدقائق دخلت آريزي البيت فشدت أولانا نفسها لتقف بصلابة حتى لا يوقعها عناق آريزي.

"أختاه! كان يجب أن تُعْلمينا بحضورك! على الأقل كنا مسحنا الفناء على نحو أفضل! آه يا أختاه! *آرو أماكاجي*! تبدين جيدة! ثمة قصص أحكيها لك، أوه!"

كانت آريزي تضحك، فيهتز جسدها الممتلئ، وذراعاها المستديرتان. ضمتها بقوة. شعرت أولانا أن الأمور في موضعها، في الوضع الذي قصدوا أن تكون فيه، وأنهم حتى ولو تعثروا أحيانًا لبرهة، في النهاية سوف يعودون معًا من جديد. لهذا السبب ذهبت إلى كانو: هذا السلام

الصافي. حينما بدأت عينا الخالة إيفيكا تدور في الفناء، عرفت أولانا أنها تبحث عن دجاجة مناسبة. كانت الخالة تذبح واحدة دائمًا حينما تزورهم، حتى ولو كانت آخر ما لديها، تخطر بمهل حول الفناء، ريشها معلّم بلون مرشوش أو ببقعتين من اللون الأحمر لتمييزها عن دجاجات الجيران، المربوط في أجنحتها قصاقيص من القماش بألوان مختلفة. لم تعد أولانا ترفض الدجاج، كما لم تعد تستنكر أن ينام الخال والخالة مبيزي على الحصير، جوار العديد من الأقارب الذين يبدو أنهم يقيمون لديهم، ليتركا لها سريرهما لتنام عليه.

مشت الخالة عَرَضًا نحو دجاجة بُنية، وبسرعة قبضت عليها، ثم ناولتها لآريزي لتذبحها في الفناء الخلفي. جلستا خارج المطبخ حتى تنتهي آريزي من نتفها ونفخت الخالة إيفيكا القشر من الأرز. كانت هناك جارة تطهو الذرة، وكلما كان الماء يفور ينسكب على الموقد فيهسهس اللهب. الأطفال يلعبون في الفناء الآن، يثيرون الغبار الأبيض، ويصرخون. واندلعت معركة تحت شجرة الكيوكا، وسمعت أولانا طفلاً يشتم آخر بالإيبو: "أمك عاهرة!"

بدأت الشمس في السماء تتحول إلى اللون الأحمر، قبل أن تبدأ في الهبوط، حينما عاد الخال مبيزي البيت. نادى على أولانا لتحيي صديقه عبد الملك. كانت قابلت رجل الهاوسا مرة من قبل؛ يبيع الشباشب الجلدية في السوق جوار كشك الخال مبيزي، كانت قد اشترت بعضها وأخذتها إلى إنجلترا لكنها لم ترتد أيًّا منها لأن وقتئذ كان منتصف الشتاء.

"أولاناتنا قد نالت للتو درجة الماجستير. درجة الماجستير في جامعة لندن! ليست يسيرة!" قال الخال مبيزي بفخر.

"برافو،" قال عبد الملك. ثم فتح حقيبته وأخرج زوجًا من الشباشب وحملها لها، تجعد وجهه الصغير بابتسامة، أسنانه مبقعة بجوز الكولا والتبغ وبأشياء أخرى لا تعرفها أولانا، بقع بمختلف

درجات الأصفر والبني. بدا كأنما هو الذي يتلقى هدية؛ بدا عليه ذلك التعبير على الناس الذين يشعرون أن التعليم معجزة، بتلك الثقة الهادئة التي أبدًا لم تكن هناك.

أخذت الشبشب بكلتا يديها. "شكرًا لك، عبد الملك. شكرًا لك."

أشار عبد الملك على القَرعة الناضجة على شجرة الكيوكا وقال: "تعالي إلى بيتنا. زوجتي تطهو حساء الكيوكا جميل جدًّا."

"أوه، سوف آتي، المرة القادمة،" قالت أولانا.

تمتم بمزيد من التهنئات قبل أن يجلس في الفيراندا مع الخال مبيزي، وسطل من قصب السكر أمامهما. قضما ورميا القشر الأخضر الجاف ثم مصَّا عصير اللب الأبيض، يتكلمان بالهاوسا ويضحكان. ويبصقان القصب الممصوص في التراب. جلست أولانا معهما برهة، لكن لهجتهما بالهاوسا كانت سريعة جدًّا، وأصعب من أن تُتابع. تمنت إن كانت أكثر طلاقة في

الهاوسا واليوريوبا، مثل خالها وخالتها وأبناء خالها أيضًا، هو الشيء الذي تقايض بـه لغتيهـا الفرنسية واللاتينية.

في المطبخ، كانت آريزي تقطع الدجاجة والخالة إيفيكا تغسل الأرز. عرضت عليهمـا الشبشب الهدية ولبسته؛ الشرائط الحمراء المطوية جعلت قدميها تبدوان أنحف، وأكثر أنوثة.

"جميل جدًّا،" قالت الخالة. "سوف أشكره."

جلست أولانا على الكرسي القصير وتجنبت النظر إلى بيض الصراصير، كبسولات سوداء ناعمة، محشورة في كل أركان الطاولة. كانت جارة لهم تشعل نـارًا بالأخـشاب فـي أحـد الأركان، ورغم الفتحات المائلة في السقف كان الدخان يملأ المطبخ.

"آي ماكاوا، أسرتها تأكل يوميًّا سمكًا مملحًا،" قالت آريزي، وهي تومئ صـوب جـارتهم بشفتين مضمومتين. "لا أدري ما إذا كان أطفالها التعساء يعرفون حتى طعـم اللحـم." ألقـت آريزا رأسها إلى الوراء وضحكت.

اختلست أولانا النظر للمرأة. كانت من الإيجوا ولم تفهم لهجة آريزي الإيبو. "ربما يحبـون السمك المملح،" قالت.

"*أو دي إيجرو!* يحبونه بالفعل! هل تعرفين كم هو رخيص هذا الشيء؟" كانت آريـزي مـا تزال تضحك وهي تتلفت للمرأة. "إيبيا، أخبرُ أختي الكبرى أن حساءك دائمًا له رائحة شهية."

توقفت المرأة عن النفخ في خشب النار وابتسمت، ابتسامة فاهمة، فتساءلت أولانـا مـا إذا كانت المرأة قد فهمت الإيبو لكنها اختارت أن تساير دعابة آريزي. كانـت لآريـزي نزعـةٌ انفعالية مؤذية لكن مرحة تجعل الناس يغفرون لها.

"إذن يا أختاه سوف تنتقلين إلى نسوكا لتتزوجي أودينيبو؟" سألت آريزي.

"لا أدري عن الزواج بعد. أريد وحسب أن أكون بجواره، وأريد أن أُدرّس."

كانت عينا آريزي المستديرتان حائرتين ومعجبتين. "وحدهن النساء اللواتي قرأن كتبًا كثيرة مثلك يستطعن قول مثل هذا يا أختاه. إذا امرأةٌ مثلي ممن لا يعرفن الكتـب انتظـرت طـويلاً جدًّا، ستنتهي صلاحيتها." توقفت آريزي وهي تزيل البيضة نصف الشفافة الباهتة مـن بطـن الدجاجة. "أريد زوجًا اليوم وغدًا، أوه! زميلاتي كلهن غادرنني وذهبن إلى بيوت الأزواج."

"أنت صغيرة،" قالت أولانا. "يجب أن تركزي على الخياطة الآن."

"هل ستمنحني الخياطة طفلاً؟ حتى لو كنت أكملت المدرسة، كنت سأظل بحاجة إلى طفل."

"لا داعي للعجلة يا آري." تمنت أولانا لو تستطيع زحزحة الكرسي القصير جهة الباب، من أجل بعض الهواء النظيف. لكنها لم تشأ أن تدرك الخالة أو آريزي أو حتى الجارة أن الـدخان يؤذي عينيها وحلقها أو أن مرأى بيض الصراصير يصيبها بالغثيان. ودّت أن تبـدو معتـادة على كل ذلك، على هذه الحياة.

"أعرف أنك ستتزوجين أودينيبو يا أختاه، لكن بأمانة لست واثقة أنني أريـــدك أن تتزوجـــي رجلاً من آبا. رجال الآبا دميمون، *كاي*! فقط لو كان محمد من إيبو، كنت آكل شعري إذا لـــم تتزوجيه. لم أر رجلاً أكثر منه وسامةً."

"أودينيبو ليس دميمًا. للوسامةِ أوجهٌ متعددة،" قالت أولانا.

مثل نسبية دمامة القرود، *اينوي*، قولي له ذلك لكي يشعر بارتيـــاح، إن للوســـامة أوجهًـــا متعددة."

"رجال الآبا ليسوا دميمين،" قالت الخالة إيفيكا. "عشيرتي من هناك على كل حال."

"وهل لا تشبه عشيرتُك القرود؟" قالت آريزي.

"اسمك الكامل هو آريزينديكوانيم، أليس كذلك؟ لقد انحدرتِ من عشيرة أمـــك. لـــذا ربمـــا تشبهين القردَ أيضًا،" تمتمت الخالة.

ضحكت أولانا. "وإذن لماذا تقولين زواج-زواج؟ هل قابلتِ مَن راق لك؟ أم أبحث لك عن أشقاء محمد؟"

"لا، لا!" لوّحت آريزي بيديها في الهواء برعب مازح. "بابا يقتلني لو عرف أنني أنظر إلى رجل من الهاوسا."

"أبوك سوف يقتل جثمانًا، لأنني سأبدأ بقتلك أولاً،" قالت الخالـــة، ونهـــضت بوعـــاء الأرز المغسول.

"هناك شخص يا أختاه،" اقتربت آريزي من أولانا. "لكنني لست واثقة إذا كان انتبـــه إلـــيّ، أوه."

"لماذا تهمسان؟" سألت الخالة إيفيكا.

"هل أتحدثُ إليكِ؟ ألا ترينني أتحدثُ إلى أختي الكبرى؟" سألت آريزي أمَّها. لكنها رفعـــت صوتها كأنما تكمل. "اسمه ناكوانزي وهو من الجوار، من أوجيدي. يعمل في خطوط الـــسكك الحديدية. لكنه لم يخبرني بأي شيء. لا أعرف إن كان يهتم بي بما يكفي."

"إذا كان لا ينظر إليك بما يكفي، فلابد لديه مشكلةٌ في عينيه." قالت الخالة إيفيكا.

"هل رأيتم يا ناس هذه المرأة؟ أليس بوسعي التحدث مع أختي الكبرى فـــي ســـلام؟" أدارت آريزي عينيها، لكن كان واضحًا أنها ابتهجت، وربما استغلت هذه الفرصة لتخبر أمهـــا عـــن ناكوانزي.

في هذه الليلة، وبينما أولانا ترقد على فراش الخال والخالة، نظرت آريـــزي عبـــر ســـتارة رقيقة مُعلّقة على حبل مُدلى من مساميرَ على الحائط. لم يكن الحبل مشدودًا، فكانت الـــستارة مرخيةً من المنتصف. شاهدت حركة علو الصدر وانخفاضه المصاحب لتنفس آريزي وتخيلت ما الذي يحدث؛ أن آريزي وشقيقاها، أودينتشيزو وإيكيني، يرون أبوهم عبر الستارة، يسمعون الصوت الذي ربما يحمل ألمًا مخيفًا لطفل، فيما فخذا أبيهم يتحركان وذراعـــا أمهـــم تقبـــضان

عليهما. لم تسمع أبدًا أبويها وهما يتضاجعان، ولا حتى لمحت أيَّ إشارة أنهما فعلا. لأنها كانت دائمًا مفصولة عنهما بردهات تزداد طولاً وكثافةً للسجاجيد كلما انتقلوا من بيت إلى بيت. حينما انتقلوا إلى بيتهم الحالي، بغرفه العشر، اختار أبواها لأول مرة غرفتي نوم مختلفتين. "أحتاجُ إلى خزانة ثياب بأكملها، سيكون لطيفًا أن يزورَني أبوكِ!" قالت أمها. لكن ضحكة البنات التي أطلقتها أمُّها لم تقنع أولانا. التصنّع في علاقة أبويها كان مخجلاً أكثر حينما تكون هنا في كانو.

كانت النافذة فوقها مشرعة، هواء الليل الساكن محمّل بكثافة بروائح بالوعات الصرف الصحي خلف البيت، حيث يفرغ الناس دلاءَ مراحيضهم. وسرعان وصل مسمعها الثرثرة المكتومة لرجال البلدية الليليين وهم ينظفون البالوعات؛ سقطت في النوم وهي تسمع خربشات معاويلهم فيما يعملون، تحت حجاب الليل.

لم يتحرك الشحاذون خارج بوابات بيت عائلة محمد حين رأوا أولانا، ظلوا جالسين على الأرض، متكئين على حوائط البنايات الطينية. الذباب يجثم فوقهم في أسراب كثيفة، حتى بدت صديرياتهم المهترئة البيضاء مبقعةً بلطخ سوداء. أرادت أولانا أن تضع بعض المال في أوعيتهم ثم قررت ألا تفعل. لو كانت رجلاً كانوا سينادونها ويمدون للأمام أوعية الشحاذة، فتطير سُحبُ الذباب تطنُّ في الهواء.

تعرف عليها أحد البوابين ففتح البوابة. "أهلا مدام."

"شكرا يا سول. كيف حالك؟"

"تذكرين اسمي يا سيدتي!" أشرقَ وجهُه. "شكرا لك سيدتي. أنا بخير يا مدام."

"وأسرتك؟"

"بخير سيدتي، بمشيئة الله."

"هل عاد سيدك من أمريكا؟"

"نعم سيدتي. تفضلي. سوف أرسل من يناديه."

كانت سيارة محمد الاسبور الحمراء مصفوفةً أمام الفناء الرمليّ الممتد، لكن ما جذب انتباه أولانا كان المنزل: تلك البساطةُ الرشيقة للسطح المستوي. جلست في الفيراندا.

"أجمل المفاجآت!"

رفعت بصرها وكان محمد هناك، في صديرية بيضاء، يبتسم لها. كان لشفتيه استدارة شهوانية، الشفة التي قبلتها مرة في تلك الأيام حينما كانت تقضي معظم عطلات نهاية الأسبوع في كانو، تأكل الأرز بأصابعها في بيته، وتشاهده وهو يلعب البولو في نادي الطيران، ويقرأ عليها أشعاره الرديئة التي يكتبها فيها.

"تبدو بخير،" أخبرته وهما يتعانقان. "لم أكن واثقة أنك عدت من أمريكا."

"خططت أن آتي إلى لاجوس لأراك." رجع محمد إلى الوراء ينظر إليها. كان ثمة انحناء في رأسه، وضيق في عينيه، بما يعني أن أملاً خبيئًا مازال لديه.

"سوف أرحل إلى نسوكا،" قالت.

"إذن سوف تصبحين أخيرًا مثقفة وتتزوجين محاضِرك."

"مَن تكلم عن الزواج؟ وكيف حال جانيت؟ هل اسمها جانيت؟ فأنا أخلط بين نسائك الأمريكيات."

رفع محمد أحد حاجبيه، ولم تقاوم إعجابها ببشرته التي في لون الكارميل. كانت دائما تغيظه بكونه أجمل منها.

"ماذا فعلتِ بشعرك؟ سألها. "لا يناسبك هذا مطلقًا. أهكذا يريدك مُحاضر الجامعة، مثل المرأة الشجرة؟"

لمست أولانا شعرها، المضفر حديثًا بحبال سوداء.

"خالتي عملته لي. أحبه هكذا كثيرًا."

"أنا لم أحبه. أفضل باروكاتك." اقترب محمد واحتضنها ثانية. حينما أحست بذراعيه تضيقان حولها، دفعته بعيدًا.

"لن تتركيني أقبلك."

"لا،" قالت، رغم انه لم يكن سؤالاً. "لم تخبرني عن جانيت-جان."

"جان. هذا يعني إذًا أنني لن أراكِ مجددًا حين تسافرين نسوكا."

"بالتأكيد سوف أراك."

"أعرف أن محاضر الجامعة خاصتك مجنون، لذا لن آتي إلى نسوكا." ضحك محمد. جسده الطويل النحيل وأصابعه الفتيلية وشت بهشاشته، برقته. "هل تريدين مشروبًا خفيفًا؟ أم بعض النبيذ؟"

"لديك خمور في هذا البيت؟ لابد أن يخبر أحدهم عمَّك عن ذلك،" قالت أولانا تمازحه.

دق محمد الجرسَ وسأل الخادمَ أن يحضر بعض المشروبات. بعد ذلك، راح يفكر ويحكُّ إبهامَه في سبابتِه. "أحيانًا أشعر أن حياتي ماضيةٌ إلى لا مكان. أسافرُ وأركبُ سياراتٍ مستوردة، وتتبعني النساء. لكن هناك شيئًا مفقودًا، شيء ما ليس مضبوطًا. أتعرفين؟" كانت تنظر إليه؛ وتعرف إلامَ يرمي بذلك. لكن عندما قال: "أتمنى ألا تتغير الأشياء،" شعرت بأن شيئًا ما يمسُّها، يغازلها.

"سوف تجد امرأةً مناسبة،" قالت بلين.

"هراء،" قال، وفيما يجلسان جوار بعضهما يشربان الكوكا، استعاد الألم في وجهه الذي يتعمق فقط حينما تخبره أن عليها أن تنهي الأمر فورًا لأنها لا تريد ألا تكون مخلصة له. كانت تتوقع أن يقاوم، هي تعرف جيدًّا إلى أي مدى يحبها، لكنها صُدمت حينما اخبرها أن

تمضي فورًا وتنام مع أودينييو مادامت لم تتركه: محمد، الذي غالبًا ما كان يمزح قليلاً من كونه سليل مجاهدين مقدسين، التجسيد الكامل للذكورة الصافية. ربما لهذا كانت عاطفتها نحوه ممزوجة بالامتنان، الامتنان الأنانيّ. كان بوسعه أن يجعل انفصالهما أكثر صعوبة عليها؛ كان يقدر أن يتركها لتشعر بتأنيب الضمير كثيرًا.

وضعت كأسها. "هيا نخرج بالسيارة. أكره أن أزور كانو وأجلس فقط لأشاهد الأسمنت القبيح وحوائط السابون جاري. أود أن أرى تمثال الطمي العتيق وأدور من جديد حول حوائط المدينة الجميلة."

"أحيانًا تشبهين الناس البيض، طريقتهم البلهاء في التحديق بالأشياء."

"صحيح؟"

"إنها دعابة. كيف ستتعلمين ألا تأخذي كل شيء بجدية إذا ما عشتِ مع ذلك البروفيسور المجنون؟" نهض محمد. "تعالي، يجب أولاً أن نمر بأمي لتحييها."

حينما تجاوزا بوابة صغيرة في الخلف ثم ولجا الفناء الذي يؤدي إلى غرفة أمه، تذكرت أولانا الذعرَ الذي اعتادت أن تشعر به حينما تأتي هنا. قاعة الاستقبال كانت كما هي، بحوائطها المطلية بالذهب وسجاجيدها الفارسية السميكة والرسومات المحفورة على السقوف المكشوفة. بدت والدة محمد كما هي أيضًا، بحلقٍ في أنفها ووشاح فضي حول رأسها. كانت متأنقة إلى الدرجة التي تجعل أولانا تتساءل ما إذا كانت غير مرتاحة، تأخذ زينتها كل يوم ثم ببساطة تجلس في المنزل. لكن المرأة المسنّة لم يكن لها ذاك التعبير المحافظ، لم تكن تتحدث بحدّة وعيناها مركزتان على مكانٍ ما بين وجه أولانا واللوحة المحفورة باليد. بدلاً من ذلك نهضت واحتضنت أولانا.

"تبدين جميلة جدا يا عزيزتي. لا تجعلي الشمسَ تفسدُ بشرتَك."

"نا جودي، شكرًا لك يا حاجّة،" قالت أولانا، متسائلة كيف للناس أن يديروا زرَّ العاطفة فتحًا وإغلاقًا، أن يربطوا المشاعر أو يحرروها.

"لم أعد تلك المرأةَ من الإيبو التي وددتَ أن تتزوجها فتلطخ بها سلالتَك بدم مُلحد،" قالت أولانا، وهما يركبان سيارة محمد البورش الحمراء. "لذلك أنا الآن صديقة."

"كنت سأتزوجك في كل حال، وهي تعلم ذلك. اختياراتها لم تكن تهم."

ربما ليس في أول الأمر، لكن ماذا عما بعد؟ ماذا بعدما تمرُّ عشر سنوات على زواجنا؟"

"أبواكِ شعرا بالشعور ذاته كما فعلتْ." استدار محمد لينظر إليها. "لماذا نتحدث عن ذلك الآن؟" ثمة لمحةٌ حزينة بعينيه. أو ربما خُيِّل إليها. ربما أرادت هي أن يبدو حزينًا على عدم زواجهما. لم تتمن أن تتزوجه أبدًا، لكنها تستمتع بإمعان النظر في الأشياء التي لم يفعلا ولن يفعلاها.

"أعتذرُ،" قالت. "ليس من شيء تعتذرين عنه." أخذ محمد يدها بيده. أصدرت السيارة صوتًا مزعجًا وهما يتجاوزان البوابات. "غبارٌ كثيف في العادم. هذه السيارات لم تُصمم لمناطقنا."

"كان عليك شراء بيجو قوية."

"نعم، كان يجب أن أفعل."

حدّقت أولانا في الشحاذين وآنيتهم المغطاة بالذباب. كان الهواء مشبعًا برائحة أوراق الشجر الحريفة.

"أنا لا أشبه الشعوب البيضاء،" قالت بهدوء.

رمقها محمد بنظرة. "بالطبع لا تشبهينهم. أنت قوميةٌ وطنية، وقريبًا سوف تتزوجين محاضرك المقاتلَ من أجل الحرية."

تساءلت أولانا ما إذا كان أسلوب محمد يخفي وراءه سخريةً حقيقية. كانت يدها مازالت في يده وتساءلت أيضًا، ما إذا كان يجد صعوبة في قيادة السيارة بيد واحدة.

سافرت أولانا إلى نسوكا في يوم سبت عاصف، وفي اليوم التالي غادر أودينيبو إلى مؤتمر رياضيات في جامعة إبادان. لم يكن ليسافر لو لم يكن المؤتمر متمحورًا حول عمل مُشْرِفه، الرياضيّ الأمريكي الأسود ديفيد بلاكويل.

"إنه أعظمُ عالم رياضيات على قيد الحياة، هو الأعظم،" قال. "لماذا لا تأتين معي، نكيم؟ ليس سوى أسبوع واحد."

قالت أولانا كلا؛ أرادت لنفسها فرصة للاستقرار بينما لا يكون موجودًا، لكي تُطَمْئِنَ مخاوفها في غيابه. أول ما فعلته بعدما مضى هو أن أطاحتْ بالزهور البلاستيكية الحمراء والبيضاء على الطاولة المركزية.

بدا آجوو مذعورًا. "لكن يا ماه، ما زالت بحال جيدة!"

خرجتْ وتبعها للخارج حيث الزنابق الأفريقية زهرية اللون، الريّانة بالماء بفضل جومو، ثم سألت آجوو أن يقطف بعضًا منها. علمته مقدار الماء الذي يوضع في المزهرية. نظر آجوو إلى الزهور وهزَّ رأسَه، كأنما لا يصدقُ حمقَها. "لكنها ميتة، ماه. الأخرى لا تموت."

"نعم، لكن هذه أفضل، *فا ماكالي*،" قالت أولانا.

"أفضل كيف، ماه؟" يرد عليها دائما بالإنجليزية حينما تكلمه بالإيبو، كأنما يرى أن محادثتها له بالإيبو إهانة يجب أن يدافع عن نفسه ضدها بإصراره على التحدث بالإنجليزية.

"أفضلُ وحسب،" قالت، وقد أدركت أنها لا تعرف كيف تشرح له لماذا الزهورُ الطبيعية أجملُ من البلاستيكية. فيما بعد، حينما شاهدتِ الزهورَ البلاستيك في خزينة المطبخ، لم تندهش. احتفظ آجوو بها، بالطريقة نفسها التي يحتفظ بها بكراتين السكر، وفلين الزجاجات، وحتى قشور البطاطا. هذا ينتج بسبب انعدام امتلاك الكثير، تعرفُ ذلك، الفقر يجعلك غير قادر على أن ترمي بالأشياء، حتى غير المفيدة. لذا حينما كانت معه في المطبخ، حدثته عن

ضرورة الاحتفاظ بالأشياء المفيدة وحسب، وتمنت ألا يسألها وكيف تكون الزهورُ الطبيعية مفيدةً إذًا. سألته أن ينظف الخزانات ويفرش الرفوف بجرائد قديمة، وبينما يعمل وقفت على مقربة وسألته عن عائلته. كان من الصعب تصورهم لأنه، بمفرداته القليلة، وصف كل واحد منهم بـ"جيد جدًّا". ذهبت معه إلى السوق، وبعدما اشتريا مستلزمات البيت، اشترت له مشطًا وقميصًا. علمته كيف يطهو الأرز المقلي مع الفلفل الأخضر والجزر المبشور، وطلبت إليه ألا يطهو البقول إلا بعدما تتبرعم، وألا يغمر الأشياء في الزيت، وألا يكون شحيحًا في الملح أيضًا. ورغم أنها لاحظت رائحة جسده منذ رأته للمرة الأولى، إلا أنها تركت بعض الأيام تمر قبل أن تعطيه بودرة معطرة لإبطيه وسألته أن يستخدم ملء غطاءين من الديتول في ماء استحمامه. بدا مبسوطًا حينما شم البودرة، وتساءلت ما إذا كان سيدرك أنه عطر حريمي. تساءلت أيضًا كيف يفكر بها. كانت هناك عاطفة واضحة، لكن شيئًا من التفكير الصامت أيضًا كان في عينيه، كأنما يحمل لها شيئًا. وكانت قلقة.

بدأ أخيرًا يتحدث معها بالإيبو يوم راحت ترتب الصور على الحائط. اندفع برصٌ من وراء الإطار الخشبي لصورة أودينيبو وهو في روب التخرج، فهتف آجوو، "*إجبوكوالا*! لا تقتليه!"

"ماذا؟" استدارت لتنظر إليه في الأسفل من على الكرسي الذي كانت تقف فوقه.

"إذا قتلته سوف تصابين بألم في المعدة،" قال. وجدت لهجته الأوبي مضحكةً، كأنما يبصق الكلمات من فمه.

"بالطبع لن نقتله. دعنا نعلق الصورة على الحائط."

"نعم، ماه،" قال، ثم راح يحكي لها، بالإيبو، كيف أن شقيقته صارعت ألمًا فظيعًا بالمعدة بعد قتلها برصًا.

حينما عاد أودينيبو كان قد قلَّ شعورُ أولانا بأنها زائرة؛ جذبها بقوة، قبّلها، ضغطها إليه.

"يجب أن تأكل أولاً،" قالت.

"أعرف ماذا أريد أن آكل."

ضحكت. شعرت بسعادة طفولية.

"ما الذي حدث هنا؟" سأل أودينيبو وهو ينظر حوله في الغرفة. "كل الكتب على هذا الرف؟"

"كتبُك الأقدم في الغرفة الثانية. أحتاج مساحةً لكتبي.

"*إيزي أكوا*؟ لقد احتللتِ المكان بالفعل، أليس كذلك؟ قال أودينيبو وهو يضحك.

"اذهبْ واستحمْ،" قالت.

"وماذا عن عطر الزهور لدى رَجُلي الطيب؟"

"أعطيته بودرة عطرية. ألم تلحظ رائحة جسده؟"

"إنها رائحة القرويين. كانت رائحتي هكذا حتى غادرت آبا لألتحق بالمدرسة الثانوية. لكن أنّى تعرفين أنت هذه الأشياء!" كانت نبرة إغاظة رقيقة بصوته. لكن يديه لم تكونا رقيقتين. كانتا تفكان أزرار بلوزتها، تحرران نهديها من السوتيان. لم تكن واثقة كم من الوقت مضى، لكنها كانت متورطة في الفراش مع أودينيبو، دافئةً وعارية، حينما طرق آجوو الباب ليقول إن لديهم زوّارًا.

"ألا يمكنهم أن يرحلوا."

"تعالي، يا نكيم،" قال أودينيبو. "لا أطيق صبرًا حتى يقابلوكِ."

"دعنا نمكث هنا قليلاً." مررتْ يدها فوق شعر صدره الأجعد، لكنه قبّلها ونهض يفتش عن ملابسه الداخلية.

ارتدت أولانا ملابسها على غير رغبتها وخرجت إلى غرفة المعيشة.

"أصدقائي، أصدقائي،" هتف أودينيبو، بزهو مبالغ فيه، "وأخيرًا، هذه هي أولانا."

استدارت المرأةُ التي كانت تدير الراديو، وصافحت أولانا. "كيف حالك؟" سألت. رأسها كان ملفوفًا بعمامة برتقالية.

"بخير،" قالت أولانا. "لابد أنكِ لارا آديبايو."

"نعم،" قالت آنسة آديبايو. "لم يخبرنا أنكِ جميلة بشكل غير معقول."

رجعت أولانا خطوة إلى الوراء، مرتبكة للحظة. "سوف أعتبر هذه مجاملة."

"ويا لها من إنجليزية مضبوطة،" تمتمت آنسة آديبايو، بابتسامة آسفة، قبل أن تعود للراديو. كان لها جسدٌ مضغوط، ظهر مستقيم بدا أكثر استقامة في فستانها البرتقالي المطبوع، جسدُ مُحقّقةٍ لا يجرؤ أحد على مُساءلتها.

"اسمي أوكيوما،" قال رجلٌ ذو شعر أشعث غير ممشط. "كنت أظن أن صديقة أودينيبو كائنٌ بشريّ؛ لم يقل لنا أنكِ عروسُ البحر."

ضحكت أولانا، ممتنةً للدفء في تعبير أوكيوما ولطريقته في جذب يدها واحتفاظه بها في يده برهة طويلة قليلاً. بدا د.باتيل خجولاً وهو يقول: "لطيفٌ جدًا أن نراك أخيرًا،" وصافحها بروفيسور إيزيكا وأومأ ببعض ترفّع وهي تخبره أن درجتها العلمية في علم الاجتماع وليس في أحد العلوم المعروفة.

بعدما قدم آجوو المشروبات، رأت أولانا أودينيبو يرفع كأسَه إلى شفتيه وكل ما فكرت فيه هو كيف أن هاتين الشفتين كانتا مثبتتين حول حلمتها قبل دقائق. تحركت على نحو سرِيٍّ حتى يمس باطنُ ذراعِها نهدَها ثم أغلقت عينيها لتستسلم لشكشكة الألم اللذيذ. أحيانًا يعضها أودينيبو بقسوة. تمنت لو غادر الضيوف.

"ألم يسمِّ ذلك المفكرُ الكبير هيجل أفريقيا أرضَ الطفولة؟" سأل البروفيسور إيزيكا، بنبرة عاطفية؟

"ربما أولئك الذين علقوا لافتة "ممنوع دخول الأفارقة والأطفال" على دور السينما في مومباسا قد قرأوا هيجل إذًا،" قال د.باتيل ثم قهقه.

"ليس بوسع أحدٍ أن يأخذَ هيجلَ على محمل الجِّد. هل قرأتَه جيدا؟ إنه مضحك. لكن هيوم وفولتير ولوك لديهم الشعور نفسه عن أفريقيا،" قال أودينيبو. "العظمةُ تتوقف على من أين أنتَ قادم. تمامًا مثلما كان الإسرائيليون يُسألون كيف يشعرون تجاه تجربة إيتشمان[1]، وقال أحدُهم إنه لا يفهم كيف يمكن لأي إنسان في أي زمن أن يرى النازيين عظماء. لكنهم كانوا عظماء، أليس كذلك؟ ومازالوا كذلك!" لوّحَ أودينيبو بيده، كفُّه للأعلى، وتذكّرت أولانا كيف قبضتْ تلك اليدُ على خصرها.

"الذي أخفق الناس في رؤيته هو التالي: إذا اهتمتْ أوروبا بأفريقيا أكثر، لم يكن الهولوكوست اليهوديُّ قد حدث،" قال أودينيبو. "باختصار، الحرب العالمية ما كانت اندلعت!"

"ماذا تقصد؟" سألت آنسة آديبايو. وعلّقت نظارتَها فوق شفتيها.

"كيف تسألين عمّ أعني؟ هو شيء شارحٌ نفسَه، بدايةً من شعب الهيريرو[2]." كان أودينيبو يتزحزح في كرسيه، وعلا صوته، وتساءلت أولانا ما إذا كان يذكر كم كانا صاخبيْن في الفراش، وكيف قال بعد ذلك ضاحكا: "إذا استمررنا هكذا في الليل، ربما نوقظ آجوو من النوم، يالرجلي المسكين."

"ها أنت تناورُ من جديد يا أودينيبو،" قالت الآنسة آديبايو. "أنت تقول إذا لم يقتلِ الرجالُ البيض الهيريرو، لم يكن الهولوكوست اليهودي؟ لا أرى علاقة أبدًا!"

"ألا ترين؟" سأل أودينيبو. لقد بدأوا دراساتهم العنصرية بالهيريرو وانتهوا باليهود. بالطبع هناك علاقة!"

"جدلُك غيرُ منطقيّ على الإطلاق أيها السفسطائي،" قالت الآنسة آديبايو، ثم وضعت ما كان متبقيًا في كأسها جانبًا.

"لكن الحرب الكونية كانت شيئًا سيّئًا وشيئًا طيبًا أيضًا، كما يقول شعبنا." قال أوكيوما. "حاربَ شقيقُ أبي في بورما وعاد مُحمّلا بسؤال مشتعل: كيف لم يخبره أحدٌ من قبل أن الجنس الأبيض ليس خالدًا وأبديًّا؟"

ضحك الجميع. كان ثمة شيء معتاد بالأمر، كأنما اعتادوا على مثل هذه الحوارات ويعرفون متى يضحكون. ضحكت أولانا أيضا وشعرت لوهلةٍ أن ضحكتها بدت مختلفة، أكثر حِدّةً من ضحكاتهم.

في الأسابيع التالية، حينما بدأت تدريس كورس "مدخل علم النفس"، وبعدما انضمت لنادي أعضاء هيئة التدريس ولعبت التنس مع بقية المحاضرين، وبعدما دفعت آجوو إلى السوق وتمشت مع أودينيبو وشاركت في فعاليات كنيسة القديس فينسينت والقديس بولس، كانت قد

---

[1]- **Karl Adolf Eichmann** (March 19, 1906–May 31, 1962), المصمم المعماري للهولوكوست النازي ضد اليهود.

[2]- شعب ينتمي لجماعة البانتو يقطن معظمهم في ناميبيا الآن. (المترجمة)

بدأت في التعود على أصدقاء أودينيبو. كان أودينيبو يغيظها بقوله إن الناس الآن يأتون للزيارة لأنها هنا، وإن كلاً من أوكيوما وباتيل وقعا في غرامها، لأن أوكيوما كان حريصًا على قراءة قصائدَ يصفُ فيها ربّاتٍ كأنهن يشبهنها، وأما د.باتيل فكان يحكي قصصًا كثيرة عن أيامه في ماكيريري، راسمًا نفسَه مثقفًا تام النبالة.

راق د.باتيل لأولانا، لكنها كانت تترقب أكثر زيارة أوكيوما. شعره الأشعث وملابسه المجعدة وقصائده الدراماتيكية كانت تريحها. ولاحظتْ، مبكرًا، أن آراءه كانت تروق أكثر لأودينيبو، قائلاً: "هذا صوتُ جيلنا الجديد!" ولم تعرف ماذا تفعل إزاء تكبُّر بروفيسور إيزيكا الأجش، إزاء ثقته بأنه يعرف أكثر من أي شخص آخر لكنه يفضّل أن يقول القليل. ولا أيضًا كانت متأكدة من الآنسة آديبايو. كان من الأسهل لو أن آديبايو قد أظهرت بعض الغيرة، لكن الأمر بدا وكأن الآنسة آديبايو لا تراها تستحق المنافسة، بأساليبها غير المثقفة، ووجهها الجميل جدًّا وبلكنتها المُقلّدة العنيفة في نطق الإنجليزية. وجدت نفسها تتكلم أكثر حينما تكون الآنسة آديبايو موجودة، تُطلق آراءها بيأس وبرغبة في التأثير - نيكروما كان بالفعل يريد أن يتآمر على إفريقيا كلها، كان تكبّرًا من أمريكا أن تصرَّ على أن يُخرج السوفيتُ صورايخَهم من كوبا بينما صورايخُها الخاصة تبقى في تركيا، مذبحة شاربيفيل كانت وحسب مثالاً دراماتيكيًّا لمئات من السود تقتلهم حكومة جنوب إفريقيا كلَّ يوم - لكنها كانت تشك أن شيئًا من عدم الأصالة في كل أفكارها. وشكّت أن الآنسة آديبايو تعرف ذلك؛ ذاك أنها دائمًا حينما تبدأ في الحديث كانت آديبايو تلتقط جريدةً أو تصبّ كأسًا أخرى أو تذهب إلى التواليت. في الأخير يئست. لن تحب الآنسة آديبايو أبدًا والآنسة آديبايو لن تفكر أبدًا في حبها. ربما خمنت الآنسة آديبايو، من وجهها، أنها كانت تخشى الأشياء، أنها كانت غير واثقة، أنها لم تكن واحدة من هؤلاء الناس، ناس مثل أودينيبو. ناس مثل آديبايو نفسها، التي تقدر أن تنظر إلى شخص في عينيه وتخبره بهدوء أن جماله غير منطقي، التي حتى قدرت أن تستخدم عبارة مثل: *جمال غير منطقي*.

لكن، حينما رقدت في الفراش مع أودينيبو، والساق ملتفة بالساق، أدهشها كيف أن حياتها في نسوكا كانت كأنما غارقةٌ في شبكة من الريش الناعم، حتى في الأيام التي يحبس أودينيبو نفسه في مكتبه لساعات. كل مرة يقترح عليها أن يتزوجا، كانت تقول: لا. كانا سعيدين جدًّا، وغير مستقرين أيضًا، وكانت تريد حماية تلك الرابطة؛ تخاف أن يُسطّحها الزواجُ ويحوّلها إلى مجرد شراكة مملة.

(3)

لم يكن ريتشارد يتكلم سوى القليل في تلك الحفلات التي تأخذه سوزان إليها. حينما كانت تقدّمه، كانت دائمًا تضيف أنه كاتب، وكان دائمًا ما يأمل أن يفترض بقية الضيوف أنه مختلفٌ عن الكتّاب، رغم أنه كان يخشى أن ينظروا داخله ويعرفوا أنه ببساطة يشعر بالغُربة. لكنهم كانوا لطيفين معه؛ هم عادة لطيفون مع أي شخص برفقة سوزان، طالما أن استمرت سوزان في أسرهم بفتنتها، ضحكتها، عينيها الخضراوين اللتين تشعّان في وجه ورَّدته حمرةً كؤوس النبيذ.

لم يمانع ريتشارد أن يقف جانبًا في انتظارها حتى تنوي المغادرة، لم يمانع أن أحدًا من أصدقائها لا يبذل جهدًا ليجتذبه، لا يمانع حتى حين امرأةٌ ثملة باهتة الوجه تشير إليه بوصفه *ولد سوزان الجميل*. لكنه كان ينزعج من تلك الحفلات تامة الاغتراب حيث تغمزه سوزان بمرفقها كي "ينضم إلى الرجال" بينما هي تنضم إلى حلقة من النساء ليقارنّ بين ملاحظاتهن حول المعيشة في نيجيريا. كان يجد صعوبة في التعامل مع الرجال الذين كان معظمهم إنجليز، مدراء ورجال أعمال ما قبل الكولونيالية من مؤسسات جون هولت وكينجزواي وجي بي أوليفانت وشيل آند بي بي وأفريقيا المتحدة. بشرتهم ملوّحة بالحمرة من أثر الشمس والكحول. كانوا يتشاجرون حول طبيعة سياسات نيجيريا القبلية، وحول أن أولئك الرجال لم يكونوا بعد مستعدين للحكم الذاتي رغم كل ذلك. كانوا يتحدثون حول لعبة الكروكيه والزراعة وفرصهم في كادونا. حينما أعرب ريتشارد عن اهتمامه بفن *إيبو-أوكوا*[1]، قالوا إن هذا الفن ليس له بعد سوق كبير، لذلك لم يعبأ بأن يفسر لهم أنه لم يكن مهتمًّا بالمال، إنها جماليات الفن فقط ما اجتذبته. وحينما قال إنه للتو قد وصل إلى لاجوس ويريد أن يؤلف كتابًا نيجيريًّا، ردُّوا عليه بابتسامة مقتضبة ونصيحة: الشعب عبارة عن شحاذين ملاعين، كن مستعدًّا لرائحة أجسادهم وطريقتهم في الوقوف والتحديق فيك بالطرقات، لا تصدق أبدًا قصص الحظ السيئ، لا تُظهر ضعفًا أبدًا تجاه شريحة الخدم. كانت هناك نكتة تصف كل سمة أفريقية. برز الاستعلاءُ الأفريقيّ في عقل ريتشارد: أفريقيٌّ كان يسير مع كلب وجاء رجلٌ إنجليزيّ يسأل: "ماذا تفعل مع هذا القرد؟"، فأجاب الأفريقيُّ: "هذا ليس قردًا، بل كلب"- فقال الإنجليزي: أنا أتحدث إلى الكلب!

---

[1] - Igbo-Ukwu

ضحك ريتشارد على النكات. حاول كذلك ألا ينساق في الأحاديث، وألا يُظهر كم يشعر بالضجر. كان يفضل الحديث إلى النساء، رغم أنه تعلّم ألا يقضي وقتًا طويلاً مع امرأة بعينها، وإلا فسوف تقذف سوزان الحائط بكأس حينما يعودان إلى البيت. ارتبك حين حدث ذلك للمرة الأولى. كان قد تحدث لوقت قصير مع كلوفيس بانكروفت حول حياة شقيقها بوصفه سمسار الحي لسنوات في إنيوجو، وبعد ذلك كانت سوزان صامتة طيلة الطريق إلى البيت في السيارة التي يقودها السائق. ظنّ أنها ربما ناعسة؛ وقد يكون ذلك سببًا في أنها لم تعلّق على فستان بشع ارتدته إحداهن ولا على المشهيات غير المعقولة التي قُدّمَت. لكن حينما عاد إلى بيتها، التقطت كأسًا من الخزانة وقذفته صوب الحائط. "تلك المرأة الصغيرة الفظيعة يا ريتشارد، وهكذا أمام عيني أيضًا؟ هذا بشع جدًّا!" جلست على الأريكة ودفنت وجهها في كفيها حتى قال لها إنه آسف جدًّا، رغم إنه لم يكن متأكدًا عمَّ يعتذر.

كأس آخر تحطم بعد عدة أسابيع. كان قد تكلم مع جوليا مارش، معظم الحديث كان عن بحثها حول غانا، ووقف مُستَلبًا ينصت حتى جاءت سوزان وجذبته من ذراعه. بعد ذلك، وبعد أن تناثرت شظايا الزجاج الحادة، قالت سوزان إنها تعرف أنه لم يقصد مغازلتها، لكن كان يجب أن يفهم أن الناس وقحين بشكل فظيع وأن النميمة هنا بشعة، بشعة جدًّا. اعتذر لها مجددًا وتساءل عم سيفكر فيه الخادم الذي سينظف الزجاج.

بعد ذلك كان العشاء الذي تحدث فيه عن فن النوك مع محاضرة في الجامعة، سيدة رعديدة من يوروبا بدت وكأنها تشعر بالاغتراب مثله. كان قد توقع ردة فعل سوزان وأعد نفسه للاعتذار قبل أن تدخل غرفة المعيشة، من أجل أن ينقذ كأسًا. لكن سوزان كانت كثيرة الكلام وهما في طريق العود للبيت؛ سألته ما إذا كان حديثه مع المرأة ممتعًا، وقالت إنها تأمل أن يكون قد تعلم شيئًا مفيدًا لكتابه. حدّق فيها في عتمة صالون السيارة. لم تكن بحاجة لأن تقول إنه لو كان قد تكلم مع امرأة بريطانية، حتى لو كانت واحدة ممن وضعن الدستور النيجيري! أدرك ببساطة أن السوداوات لم يكنَّ مصدر تهديد لها، لم يكنَّ على قدر المنافسة.

قالت العمةُ إليزابيث إن سوزان ممتلئة حيوية وفتنة، ليس مهمًّا أنها أكبر منه قليلاً، وعاشت في نيجيريا لوقت يسمح لها بأن تطلعه على أماكنها. ريتشارد لم يكن يرغب في أن تتجول به؛ كان في ماضيه قد قام برحلات كثيرة حول العالم. لكن العمة إليزابيث كانت مصرّة. أفريقيا لا تشبه أبدًا الأرجنتين أو الهند. أفريقيا هي نغمة صوت يصدر من رجل يكبح زفرة ارتجافة، وربما كان هذا بسبب أنها لم تكن تريده أن يمضي أبدًا، كانت تريده أن يبقى في لندن ليكتب لجريدة أخبار التاريخ. مازالت تظن أن أحدًا لا يقرأ أبدًا عموده الصغير، رغم إنها تقول إن كل أصدقائها يقرأونه. لكنها كانت تقول: الوظيفةُ لون من العطالة رغم ذلك؛ لم يكن ليحصل عليها لولا أن رئيس التحرير كان أحد أصدقائها القدامى.

لم يحاول ريتشارد أن يشرح للعمة إليزابيث رغبته في رؤية نيجيريا، لكنه قبِل عرض سوزان بأخذه في جولة. أول ما لاحظه حينما وصل لاجوس كان تلألؤ سوزان، جمالها الأنيق، الطريقة التي تتفحصه بها كلّه، مسّها ذراعه وهي تضحك. كانت تتكلم بحسٍّ مسئول حول نيجيريا والنيجيريين. حينما مضت بهم السيارة متجاوزةً الأسواق الصاخبة بالموسيقى التي تدوي من المحال، والأكشاك المنتشرة كيفما اتفق على جوانب الطريق والبائعة الجائلين، والبالوعات المتخمة بالماء العفن الكثيف، قالت: "إن لديهم طاقة مدهشة، بالفعل، لكن يعوزهم الإحساس بالعادات الصحية للأسف." أخبرته أن شعب الهاوسا في الشمال يعتز بكرامته، والإيبو واثقون ومحبون للمال، وقبائل اليوروبا بشوشون حتى ولو كانوا متملقين من الطراز الأول. في مساءات يوم السبت، حينما كانت تشير إلى الحشود من الناس ذوي الملابس الزاهية الذين يرقصون أمام المظلات المضاءة في الشوارع، كانت تقول: "ها أنت ترى. أهل اليوروبا يثقلون كاهلهم بديون ضخمة فقط ليقيموا هذه الحفلات."

ساعدته ليجد شقة صغيرة، وليبتاع سيارة صغيرة، وليحصل على رخصة قيادة، وليذهب إلى متحفيْ لاجوس وإبادن[1]. "يجب أن تقابل جميع أصدقائي،" قالت. في البدء، حينما قدمته ككاتب، ودّ أن يصحح لها: صحفيّ، وليس كاتبًا. لكنه *كان* كاتبًا، على الأقل هو واثق أنه كان يُعتبر كاتبًا، فنانًا، مبدعًا. صحافيته كانت مؤقتة، كانت مهنة يجب أن يعملها حتى يكتب روايةً مهمة.

لذلك ترك سوزان تقدمه بوصفه كاتبًا. يبدو أن ذلك جعل أصدقاءها يتحملونه، على كل حال. جعل ذلك بروفيسور نيكولاس جرين يقترح عليه أن يتقدم لمنحة باحث أجنبيّ في نسوكا، حيث يستطيع أن يكتب تاريخ الجامعة. وقد فعل ذلك ريتشارد، ليس وحسب بسبب مطمح الكتابة في الجامعة، بل لأنه أراد أيضًا أن يكون في الجنوب الشرقيّ، في أرض فن إيبو-أوكوا[2]، أرض الأواني الساحرة المعقودة بالحبال. وهذا، في الأخير، هو ما جعله يأتي إلى نيجيريا.

كانت قد مضت شهور قليلة على بقائه في نيجيريا حينما سألته سوزان إذا ما أراد أن ينتقل للسكنى معها، بما أن بيتها في إكويي واسع، الحدائق كانت جميلة، وفكرتْ أنه سيعمل هناك أفضل كثيرًا من شقته المؤجرة ذات الأرضيات الأسمنتية غير المستوية التي كان مالكها يعوي لأنه يترك النور مضاءً فترات طويلة. لم يشأ ريتشارد أن يقول نعم. لم يكن يريد أن يبقى أكثر في لاجوس. كان يريد أن يتجول أكثر عبر البلد بينما ينتظر عودتها من نسوكا. على أن سوزان كانت قد زخرفت غرفة مكتبها الساحرة من أجله، ومن ثم انتقل إليها. يومًا بعد يوم، كان يجلس على مقعدها الجلدي ويغرق في الكتب وأوراق الأبحاث، ينظر عبر النافذة إلى البستانيين وهم يروون المروج الخضراء، ثم ينكب على الآلة الكاتبة، رغم إنه يدرك أنه يطبع

---

[1]- Lagos. Ibadan

[2]- Igbo- Ukwu

على الآلة وليس يكتب. كانت سوزان حريصة على منحه الهدوء الذي يحتاج إليه، إلا حينما كانت تطل في غرفته وتهمس: "هل تريد بعض الشاي؟" أو "بعض الماء؟" أو "أي غداء مبكّر؟" وكان يجيبها في همس أيضًا، كأنما كتابته قد غدت شيئًا مقدسًا ومن ثم جعلت الغرفة ذاتها مقدسة. لم يخبرها أنه حتى الآن لم يكن قد كتب شيئًا ذا بال، وأن الأفكار في رأسه لم تكن قد تآلفت في شخوص ومكان ومشهد. تخيل أن ذلك قد يؤلمها؛ حيث كتابته قد غدت أفضل هواياتها، وكانت ترجع إلى البيت كل يوم محمّلةً بالكتب والصحف من مكتبة القنصلية البريطانية. كانت ترى كتابه كأنه الوجود الذي هو بالفعل موجودٌ ومن ثم يمكن أن يتحقق. أما هو فقد كان، رغم ذلك، غير متأكد من ماهية وطبيعة موضوع كتابه. لكنه كان ممتنًا لإيمانها به. كان إيمانها بكتابته كأنما يجعل الأمر حقيقيًّا، وكان يظهر امتنانه عن طريق حضور الحفلات التي يكره. وبعد عدة حفلات قرر أن مجرد حضوره لم يكن كافيًا؛ فحاول أيضًا أن يكون مرحًا. إذا ما استطاع أن يقول شيئًا فطِنًا أثناء تقديمه للناس، ربما يعوّض ذلك صمته، والأهم، أن ذلك قد يبهج سوزان. تمرّن لبرهة أمام مرآة الحمام على تعبير مضحك ساخر من الذات وطريقة في تعثّر الاستقبال. "هذا هو ريتشارد تشرشل،" سوف تقول سوزان وهو سوف يصافح الأيادي وينكّت: "للأسف لا علاقة بيني وبين السير ونستون،[1] وإلا لكنتُ أكثر ذكاءً."

كان أصدقاء سوزان يضحكون على ذلك الكلام، وتساءل أكانوا يضحكون شفقةً على محاولته المتلعثمة ليكون خفيف الظل أم ضحكوا على مرح العبارة ذاتها. لكن أحدًا أبدًا لم يقل: "كم هو ظريف!" في نبرة ساخرة، كما فعلت كاينين في اليوم الأول في قاعة الكوكتيل بفندق القصر الفيدرالي. كانت تدخن. وتقدر أن تُخرج حلقات منتظمة من الدخان. كانت تقف في الدائرة نفسها التي يقف بها مع سوزان، رمقها بنظرة وقد ظن أنها عشيقة لأحد السياسيين. هو يفعل ذلك مع الناس الذين يقابلهم، يحاول أن يخمن سببًا لوجودهم هناك، لكي يحدد مَن الذي جاء بصحبة أحدهم. ربما لأنه لم يكن ليتواجد في أيّ من تلك الحفلات إلا بسبب سوزان. لم يعتقد أن كاينين ابنة أحد الأثرياء النيجيريين لأنه لم يكن لديها شيء من التهذّب المحتشم. بدت أكثر كأنها عشيقة: لون طلاء شفتيها الأحمر النحاسي، فستانها الضيق، تدخينها. لكنها لم تكن تبتسم تلك الابتسامة البلاستيكية التي تفعلها العشيقات. لم يكن حتى لديها ذلك الجمال العام الذي يجعله يميل لتصديق الإشاعة التي تقول إن السياسيين النيجيريين يبادلون عشيقاتهم. في الحقيقة لم يكن لديها أي جمال على الإطلاق. لم يلحظ ذلك بالفعل إلا بعدما نظر إليها ثانيةً بينما أحد أصدقاء سوزان يقوم بتقديم الناس. "هذه هي كاينين أوزوبيا، ابنة الشيخ أوزوبيا. كاينين للتو قد حصلت على الماجستير من لندن. كاينين، هذه هي سوزان جرينفيل-بيتس من القنصلية البريطانية، وهذا ريتشارد تشرشل."

"كيف حالك،" قالت سوزان لكاينين، ثم التفتت لتتحدث لضيف آخر.

---

[1]- يشير إلى ونستون تشرشل، رئيس وزراء بريطانيا. (ت)

"هاللو،" قال ريتشارد لكاينين. كانت كاينين صامتة لفترة طويلة، بسيجارة بين شفتيها، وهي تنظر إليه بهدوء، فمرر يده بين شعره ودمدم: "لست أحد أقرباء سير وينستون، من أسف، وإلا لكنتُ أكثر ذكاءً قليلاً."

زفرت قبل أن تقول: "ياللظرف." كانت نحيفة جدًّا وطويلة جدًّا، تقريبًا في نفس طوله، وكانت تحدّق مباشرة في عينيه، بتعبير فولاذي خاوٍ. بشرتها كانت في لون الشوكولاتة البلجيكية. بسط ساقيه باتساع أكثر ثم ضغط على قدميه بقوة، لأنه خاف إن لم يفعل ذلك ربما يجد نفسه يدور ويصطدم بها.

عادت سوزان وجذبته بقوة لكنه لم يود أن يمضي، وحينما فتح فمه، لم يكن يعرف ماذا سيقول: "إنني أتحدث إلى كاينين ولدينا صديق مشترك في لندن. هل أخبرتك عن ويلفريد لاعب كرة القدم؟."

"أوه،" قالت سوزان وهي تبتسم. "يا له من شيء جميل. سوف أترككما معا إذًا. سأعود بعد قليل."

تبادلت القبلات مع زوجين مسنين قبل أن تنضم إلى مجموعة من الضيوف في نهاية القاعة.

"لقد كذبت على زوجتك،" قالت كاينين.

"ليست زوجتي." كان مندهشاً كيف استهتر ووقف معها هكذا. رفعتْ كأسها إلى شفتيها ورشفت. تنفستْ وزفرتْ. بعض الرماد الفضي تناثر على الأرض. كل شيء بدا وكأنه بالتصوير البطيء: قاعة الحفلات بالفندق اتسعت وتمددت والهواء كان يُستنشق ويُزفر في الفضاء الذي بدا لوهلة لا يشغله سوى هو وكاينين وحسب.

"هلا ابتعدتَ من فضلك؟" سألتْ.

أجفل. "ماذا؟"

"هناك مصوّر خلفك حريص على أخذ صورة لي، وتحديدًا صورة للعُقُد في عنقي."

تحرك جانبًا وشاهدها وهي تشخص في الكاميرا. لم تتخذ وضعًا للتصوير لكنها بدت مرتاحة؛ كأنما هي معتادة على تصويرها في الحفلات.

"سوف يظهر العقد في عدد الغد من "حياة لاجوس". أفترض أنه سيكون طريقتي الخاصة لخدمة بلدنا الجديد المستقل. أُعطي المواطنَ النيجيري مثالاً مغريًا، حافزًا للعمل الجاد،" قالت، وهي تعود للخلف لتقف جواره.

"عقدٌ جميل،" قال، رغم إنه بدا مبهرجًا. ودّ أن يمد يده ويمسّه، لكي يرفعه عن عنقها، ثم يتركه يستقر من جديد فوق جيدها المفرّغ. عظمة الترقوة كانت بارزة بحدّة.

"بالطبع هو ليس جميلاً. أبي لديه ذائقة فاحشة فيما يخص الحُليّ،" قالت. "لكنها أمواله. بالمناسبة، أرى شقيقتي ووالديّ يفتشون عني، يجب أن أذهب."

"شقيقتك هنا؟" سأل ريتشارد بسرعة قبل أن تتمكن من الاستدارة لتمضي.

"أجل. نحن توأمتان،" قالت وتوقفت، كأنما كان هذا اكتشافًا مهمًّا. "كاينين وأولانا. اسمها غنائيٌّ يعني: ذهبُ *الآلهة*، بينما اسمي أكثر عملية: *لنرَ ما الذي سيهبنا الربُّ المرة القادمة*."

شاهد ريتشارد الابتسامة التي شدّت فمها للأعلى، ابتسامة تهكمية تخيّل أنها تُخفي وراءها شيئًا، ربما عدم رضا. لم يدر ماذا يقول. شعر أن الوقت يتسرب بعيدًا عنه.

"مَن منكما الأكبر؟" سأل.

"مَن الأكبر؟ يا له من سؤال." قوّست حاجبيها. "لقد أخبروني أنني خرجتُ أولاً."

أرجح ريتشارد كأس النبيذ في يده وتساءل ما إذا كانت قبضته عليه الآخذة في الإحكام يمكن أن تهشمه.

"ها هي شقيقتي هناك،" قالت كاينين. هل أعرّفكما؟ كل الناس يريدون الحديث إليها."

لم يستدر ريتشارد ليشاهد. "أفضّلُ الحديث إليكِ أنتِ،" قال. "إذا لم تمانعي." مرّر يده خلال شعره. كانت تتأمله؛ أحسّ كأنه مراهق بتحديقتها فيه.

"لقد خجلتِ،" قال.

"لقد نعتوني بما هو أسوأ."

ابتسمتْ، بطريقة تعني أنها وجدت *ذلك* طريفًا، وجعله ذلك يشعر بأنه بارع لأنه جعلها تبتسم.

"هل ذهبتَ من قبل إلى سوق بالوجان؟" سألته. "يعرضون شرائح من اللحم فوق الطاولات، والمفترض أنك تمسّ وتحسّ ثم تقرر أيها تريد. شقيقتي وأنا شريحتا لحم. نحن هنا لكي يقرر الجزارُ المناسب، ثم يتمّ الذبح."

"أوه،" قال. بدا هذا شيئًا حميمًا لتخبره به، رغم أنه قيل في نفس النبرة الجافة الساخرة التي بدت طبيعةً فيها. ودّ أن يخبرها بشيء عن نفسه أيضًا، ودّ أن يتبادل معها بذرة الحميمة الصغيرة ذاتها.

"ها هي تأتي الزوجةُ التي أنكرتَها،" دمدمتْ كاينين.

عادت سوزان وزجّت بكأس في يده. "هاك يا حبيبي،" قالت ثم التفتت إلى كاينين قائلة: "كم هو لطيف أن ألتقيكِ."

"كم هو لطيفٌ أن ألتقي *بك*،" قالت كاينين ورفعت كأسها نصف رفعةٍ لسوزان.

قادته سوزان بعيدًا. "إنها ابنة الشيخ أوزوبيا، أحقا هي؟ مهما حصل لها؟ غريبٌ تمامًا؛ أمُّها مذهلة، مذهلة جدًّا. الشيخ أوزوبيا يمتلك نصف لاجوس لكن به ثمة ما يسمى *ثراءً جديدًا*. ليس لديه الكثير من التعليم النظامي، كما ترى، ولا زوجته لديها أيضًا. أظن أن ذلك هو السبب في أنه *ملحوظٌ* جدًا."

عادة ما كان ريتشارد يتسلى بالسيرة الذاتية المختصرة التي تطلقها سوزان، لكن اليوم أزعجته تلك الوسوسة. لم يكن يريد الشمبانيا؛ أظافرها كانت تخز ذراعه. قادته إلى مجموعة من المغتربين وتوقفت لتدردش، وتضحك بصوتٍ عالٍ، ثملةٌ قليلاً. بحث في القاعة عن كاينين. أول الأمر لم يستطع أن يجد الفستان الأحمر وبعد ذلك رآها تقف جوار والدها؛ الشيخ أوزوبيا يبدو ثريًّا، بإشارات يديه المقوستين بدا كأنه يتكلم، بذلته الأجبادا المعقدة بطبقاتها الكثيفة الزرقاء جعلته يبدو أسمن مما هو فعلاً. مسز أوزوبيا كانت في نصف حجمه وترتدي دثارًا وغطاء رأس من نفس القماش الأزرق. أجفل ريتشارد لحظيًّا من إتقان عينيها اللوزيتين، واسعتان في وجه أسود البشرة تخاف النظر إليهما. لم يكن ليخمن أبدًا أنها والدة كاينين، ولا كان بوسعه أن يخمّن أن كاينين وأولانا توءمتان. أولانا كانت تشبه أمَّها، رغم أن جمالها كان أوضح بتلك البشرة الأنعم وتلك الابتسامة العذبة وذلك الجسد الغض ذي الاستدارات الذي يملأ فستانها الأسود. ذلك الجسد الذي تسميه سوزان *أفريكان*. بدت كاينين أكثر نحافة جوار أولانا، تقريبًا أكثر خنوثة، فستانها الطويل الضيق يحدد مؤخرتها الصبيانية. حملق ريتشارد فيها لوقت طويل، آملاً أن تبحث عنه هي أيضًا. بدت منعزلة تنظر إلى الناس في مجموعتها بتعبير مختلف، تعبير متهكم. وأخيرًا نظرت إلى أعلى والتقت عيناها بعينيه فأمالت رأسها ورفعت حاجبيها، كأنما تعرفُ جيدًا أنه كان ينظر إليها. تفادى نظرتها ثم سرعان ما عاود النظر إليها، مقررًا أن يبتسم هذه المرة، لكي يعطي ملمحًا مفيدًا، لكنها كانت أدارت ظهرها. ظل ينظر إليها حتى غادرت مع أبويها وأولانا.

قرأ ريتشارد المقال التالي من مجلة "حياة لاجوس"، وحينما رأى صورتها بحث عن تعبيرها، باحثًا عمّا لم يعرفه. كتب عدة صفحات بتدفق إكتئابيٍّ موّارٍ، ترسم صورًا سردية عن امرأة أبنوسية طويلة بصدر مسطّح. ذهب إلى مكتبة القنصلية البريطانية وبحث عن والدها في جرائد الأعمال. دوّن الأربعة أرقام المجاورة لاسم أوزوبيا في دفتر التليفون. التقط هاتفه عدة مرات ووضع السماعة حينما سمع صوت عاملة التليفون. مارس ما كان يقوله أمام المرآة، الإيماءات التي كان يجب أن يعملها، رغم أنه يعرف أنها لن تراه إذا ما تحدثا في التليفون. كان ينوي أن يرسل لها كارت بوستال أو ربما سلة من الفاكهة. وأخيرًا، تكلّم. لم يبد أنها اندهشت حينما سمعته. أو ربما كان ذلك لأنها بدت هادئة جدًّا، بينما كان قلبه يدق بقوة في صدره.

"هل تودين اللقاء على مشروب؟" سألها.

"نعم. ما رأيك أن نرى فندق زوبيس في الظهيرة؟ هو ملك لأبي، وبوسعنا أن ننال جناحًا خاصًّا."

"نعم، نعم، سوف يكون ذلك جميلاً."

أغلق الخط مصدومًا. لم يكن واثقًا ما إذا كان يجب أن يكون مُثارًا، إذا كان جناح مخصوص كلمة مكشوفة موحية. حينما التقيا في قاعة الفندق، اقتربت منه حتى تمكن من تقبيل خدّها ثم أخذا طريقهما للأعلى، إلى الفيراندا، حيث جلسا ينظران إلى النخيل بالأسفل حول حوض السباحة. كانت الشمسُ مشرقة، والنهارُ مضيئًا. بين الحين والآخر تهبُّ نسمةٌ تهزُّ جريد النخيل، وأمِل ألا يتشعث شعره جدًّا وأن تمنع المظلة فوقهما البقعتين الحمراوتين كالطماطم اللتين تظهران في خدّيه كلما تعرّض للشمس.

"بوسعك أن ترى هيثجروف من هنا،" قالت، وهي تشير. "والمدرسة الثانوية البريطانية السرية فاحشة الغلاء التي درسنا بها، شقيقتي وأنا. رأى والدي أننا أصغر من أن يرسلنا للدراسة بالخارج، لكننا صممنا أن نكون أوروبيتين بقدر الإمكان."

"هل هي تلك البناية ذات البرج؟"

"نعم. المدرسة كلها بنايتان فقط، بالفعل كان القليل جدًّا منا هناك. إنها مدرسة حصرية جدًّا حتى أن الكثير من النيجيريين لا يعرفون بوجودها." نظرت إلى كأسها برهةً. "هل لك أشقاء؟"

"لا. كنتُ طفلاً وحيدًا. مات والداي حينما كنتُ في التاسعة."

"التاسعة!. كنتَ صغيرًا."

كان سعيدًا أنها لم تبد متعاطفة جدًّا، على ذلك النحو الزائف الذي يفعله بعض الناس، كأنما يعرفون أبويه وما هم بعارفيهم.

"كانا معظم الوقت بعيديْن. كانت مربيتي موللي التي ربّتني. وبعد موتهما قُرّرَ أن أعيش مع عمتي في لندن." توقف ريتشارد، مسرورًّا بتلك الحميمة التي بدأت بالكلام عن نفسه، وهو الشيء الذي نادرًّا ما فعل. "ابنا عمومتي مارتين وفرجينيا كانا في مثل عمري لكنهما كانا معقَّديْن جدًّا؛ العمة إليزابيث كانت ذات مقام عالٍ جدًّا، ذاك أنني كنت ابن العمة من قرية تافهة في شروبشاير. بدأت التفكير في الهروب منذ اليوم الأول لوصولي هناك."

"أحقًّا؟"

"عدة مرات. وكانوا يجدونني دائمًا. أحيانًا في بداية الشارع."

"إلى أين كنت تهرب؟"

"ماذا؟"

"إلى أين كنتَ تهرب؟"

فكر ريتشارد برهةً. يعلم أنه كان يهرب من بيت به صور ناس ماتوا منذ زمن طويل على حوائط تزفر أنفاسها عليه. لكنه لم يكن يعرف إلى أين كان يهرب. هل يفكر الأطفال أبدًا في ذلك؟"

""ربما كنت أهرب إلى موللي. لا أعرف."

"أنا أعرف إلى أين أردت أن أهرب. لكنه لم يكن موجودًا، لذلك لم أرحل." قالت كاينين، وهي تميل للخلف في مقعدها.

"وكيف ذلك؟"

أشعلت سيجارة، كأنما لم تسمع سؤاله. جعله صمتها مهزومًا وكان شغوفًا ليكسب من جديد اهتمامها. ودّ أن يخبرها عن الوعاء المربوط بالحبال. لم يكن متأكدًا أين قرأ للمرة الأولى عن فن إيبو-أوكوا، عن الرجل البدائي الذي كان يحفر بئرًا ثم اكتشف سبائك البرونز التي ربما تكون الأولى في أفريقيا، ويعود تاريخها إلى القرن التاسع. لكن كان قد شاهد صورها في *"مجلة المستعمرات"*. برز الوعاء الحبليّ فورًا؛ مرّ بإصبعه على الصورة وتحرّق شوقًا ليمسّ السبيكة المعدنية الناعمة. ودّ أن يشرح كيف أنه فُتِن بعمق بالوعاء لكنه عدل عن رأيه. يجب أن يعطي ذلك وقتًا. شعر براحة عجيبة لهذه الفكرة لأنه اكتشف أن أكثر ما يريده معها، كان الوقت.

"هل جئت إلى نيجيريا لتهرب من شيء ما؟" سألته أخيرًا.

"لا،" قال. "كنتُ دائمًا منعزلاً وتُقتُ دائمًا لرؤية أفريقيا، لذلك استقلت من وظيفتي في الجريدة المتواضعة وحصَّلت قرضًا كريمًا من العمة وها أنا هنا."

"لم أكن لأفكر أنك منعزل."

"لماذا؟"

"لأنك وسيم. الجميلون عادة غير وحيدين." قالت ذلك ببرود كأنما ليست مجاملة، ولذا أمِل ألا تلاحظ كم أحمرّ خجلاً.

"حسنٌ، نعم أنا وسيم،" قال؛ لم يكن بوسعه أن يفكر في شيء آخر يقوله.

"كنت دائمًا وسيمًا."

""منعزلٌ ومستكشفٌ حداثيٌّ للقارة السوداء،" قالت بجفاف.

ضحك. انسكبَ الصوتُ منه، دون تحكم منه، فنظر للأسفل لحوض السباحة الأزرق الصافي وراح يفكر، دون اكتراث، أن تلك الظلال الزرقاء كانت لون الأمل.

تواعدا اليوم التالي على الغداء، واليوم الذي يليه. كل مرة كانت تقوده للجناح ويجلسان في الفيراندا يأكلان الأرز ويحتسيان بيرة باردة. مسّت حافة كأسها بطرف لسانها قبل أن تشرب. أثاره هذا، تلك اللمحة الخاطفة للسان الوردي، والأكثر أنها لم تكن منتبهة لما تفعل. صمتها كان متأملاً، منعزلاً، ومن ثم فقد تواصله معها. ربما ذلك بسبب أنها كانت بعيدة ومنسحبة. وجد نفسه يتكلم بطريقة لم يعتدها، وحينما ينتهي وقتهما معاً وتنهض، عادة لتلحق بأبيها في اجتماع، يجد قدميه مثقلتان بدم متخثر. لم يكن يرغب في الرحيل، لم يكن يتحمل فكرة الرجوع ليمكث في غرفة مكتب سوزان ليكتب وينتظر دقّات سوزان الخافتة على الباب. لم يفهم لماذا لم تشك سوزان في شيء، لماذا لم تنظر إليه ببساطة وتخبره كم يبدو مختلفًا، لماذا

حتى لم تلحظ أنه يرش المزيد من عطر ما بعد الحلاقة هذه الأيام. لم يكن خائنًا لها طبعًا، لكن الإخلاص لا يمكن أن يتعلق بالجنس وحسب. ضحكه مع كاينين، حديثه معها عن العمة إليزابيث، مشاهدة كاينين وهي تدخن، بالتأكيد كانت لونًا من عدم الوفاء؛ كان يشهر بذلك. دقّات قلبه المتسارعة حينما تقبّله كاينين قبلة الفراق كانت نوعًا من عدم الوفاء. يدها القابضة على يده على المائدة كانت عدم وفاء. ولذلك اندهش يوم لم تعطه كاينين قبلة الوداع المعتادة وبدل ذلك ضغطت فمها على فمه مباعدة ما بين شفتيها. لم يسمح لنفسه بأن يأمل في الكثير. ربما لهذا جانبه الانتصاب: انتابه خليط واهن بين الدهشة والرغبة. خلعا ملابسهما سريعًا. التصق جسده العاري بجسدها وسرعان ما كان منهكًا. تحسس زوايا عظام رقبتها ومؤخرتها آملاً أن يعمل جسده مع عقله ليؤدي أداءً أفضل، آملاً أن تتحول رغبته إلى إثارة. لكنه لم يتصلّب. كان بوسعه أن يحسّ بالكتلة الرخوة بين ساقيه.

جلست في الفراش وأشعلت سيجارة.

"أنا آسف،" قال، وحينما هزّت كتفيها ولم تقل شيئًا، تمنى لو لم يعتذر. كان ثمة شيءٌ مقبضٌ في الغرفة المؤثثة بفخامة في الجناح، وهو يرتدي بنطاله الذي كأنما لم يُخلع وهي تشبك سوتيانها. تمنى لو أنه قال شيئًا.

"هل سنلتقي غدًا؟" سأل.

أخرجت الدخان من أنفها، وسألت فيما تشاهده يتلاشى في الهواء: "هذا فظ، أليس كذلك؟"

"هل سنلتقي غدًا؟" سأل ثانيةً.

"سوف أذهب إلى ميناء هاركورت مع أبي لنقابل بعض رجال النفط،" قالت. "لكنني سأعود بعد ظهيرة الأربعاء. يمكننا تناول غداءً متأخرًا."

"نعم، حسنٌ،" قال ريتشارد، وحينما التقيا في قاعة الفندق بعد ذلك بأيام كان قلقًا ألا تأتي. تناولا الغداء وتفرّجا على السابحين بالأسفل.

كانت أكثر حيوية، تدخن أكثر، تتكلم أكثر. حدثته عن الناس الذين التقتهم منذ بدأت تعمل مع والدها، وكيف أنهم جميعًا متشابهون. "الطبقة الصاعدة الجديدة في نيجيريا هي جُماع غير المتعلمين الذين لم يقرأوا شيئًا ويأكلون ما لا يشتهون في مطاعم لبنانية غالية ولديهم أحاديث اجتماعية حول موضوع واحد: "كيف تبدو السيارة الجديدة؟" مرةً ضحكتْ. ومرة أمسكت يده. لكنها لم تسأله عما حدث في الجناح، وتساءل ما إذا كانت تريد أن تمهله وقتًا أو ما إذا كانت قد قررت أنها لم تكن نوع العلاقة التي تريدها معه.

لم يقدر أن يؤهل نفسه للعمل. مرت أيام قبل أن تسأله إذا كان يرغب في الدخول، وشعر كأنما هو ممثل بديل يأمل ألا يظهر الممثل الأصلي، وحينما لا يظهر الممثل الحقيقي فعلاً يُعجزه الخوف، لم يكن مستعدًّا لأضواء خشبة المسرح كما كان يظن. قادته للداخل. وحينما بدأ في رفع فستانها فوق فخذيها، دفعته عنها بهدوء، كأنما كانت تدرك أن سُعاره لم يكن إلا قناعًا

لخوفه. علقت فستانها فوق المقعد. كان مرتعبًا من خذلانها مرة أخرى حتى أن رؤيته نفسه منتصبًا جعله مهتاجًا بفرح، وممتنًّا أنه وحسب استطاع أن يلجها قبل أن يحس بارتعاشة لا إرادية، حتى أنه لم يستطع أن يتوقف. رقدا هناك، هو فوقها، لبرهة، ثم نزل عنها. أراد أن يخبرها أن هذا لم يحدث له من قبل. حياته الجنسية مع سوزان كانت مُرضيةً، رغم روتينيتها.

"أنا آسف جدًّا،" قال.

أشعلت سيجارة، وهي تنظر إليه. "هل تود المجيء للعشاء الليلة؟ والديّ دعيا أشخاصًا قليلين."

لوهلة، كان مصدومًا. ثم قال: "نعم بكل سرور." كان يأمل أن الدعوة تعني شيئًا ما، تعكسُ تحوُّلاً ما في طبيعة العلاقة. لكن، حينما وصل بيت أبويها في إكويي، قدمّته بقولها: "هذا هو ريتشارد تشرشل،" ثم توقفت وقفةً بدت كأنها جرأة حذرة أمام والديها وبقية الضيوف لتتركهم يفكرون عن طبيعة العلاقة. نظر والدها إليه مليًّا وسأله عن عمله.

"كاتب،" قال.

"كاتب؟ نعم،" قال الشيخ أوزوبيا.

تمنى ريتشارد لو لم يقل إنه كاتب لذلك أضاف، كأنما ليصلح قوله بأنه كاتب: "أنا مفتون بالاكتشافات في إيبو-أكوو. سبائك البرونز."

"مممم،" تمتم الشيخ. "هل لديك عائلة لديها أعمال في نيجيريا؟"

"للأسف لا."

ابتسم الشيخ ونظر بعيدًا. لم يقل شيئًا آخر لريتشارد لبقية المساء. ولا فعلت مسز أوزوبيا، التي كانت تمشي في إثر زوجها هنا وهناك، بأسلوبها الملكي، وجمالها المخيف عن قرب. كانت أولانا مختلفة. كانت ابتسامتها حنونًا حينما قدمتهما كاينين، لكن حين تكلَّما معًا، كانت أكثر دفئًا وتساءل ما إذا كان الخفقان في عينيها شفقة، ما إذا كانت قد خمنت كم كان حريصًا أن يقول الشيء المناسب لكنه لم يكن يعرف ما هي تلك الأشياء المناسبة التي عليه قولها. دفئها كان مجاملاً له.

شعر بافتقادها على نحو غريب حينما جلست بعيدًا عنه على الطاولة. كانت السلاطة فقط قد قُدّمت حينما بدأت تتحدث مع الضيوف حول السياسة. عرف ريتشارد أن الحديث كان حول احتياج نيجيريا أن تكون جمهورية وتتوقف عن مناداة الملكة إليزابيث بوصفها رأس الدولة، "ألا توافق يا ريتشارد؟" كأنما رأيه يهم.

"تنحنح وقال: "أوه، تمامًا،" رغم أنه لم يكن متأكدًا ما هو الذي يوافق عليه. شعر بامتنان أنها جذبته للنقاش، وكان مفتونًا بكفاءتها التي بدت نخبوية وبدائية في آن، مثالية أبت أن تخنقها الواقعية. بشرتها كانت تشع. عظمتا وجنتيها كانتا ترتفعان وهي تبتسم. لكنها كانت تفتقر إلى غموض حزن كاينين، الذي يبهجه ويربكه. جلست كاينين جواره وتكلمت قليلاً أثناء

العشاء، مرة سائلة بحدة أحد الخدم أن يغير الكأس الذي بدا غائمًا، ومرّةً مالت لتسأل: "الصوص مثير للغثيان، أليس كذلك؟" كانت غامضة تقريبًا، وهي تنظر، تشرب، تدخن. كان شغوفًا ليعرف فيما تفكر. كان يحس بذلك الألم الجسديّ كلما اشتهاها، وكان يحلم بأن يدخلها، دافعًا بأعمق ما يستطيع، لكي يكتشف شيئًا خبيئًا يعرف أنه أبدًا لم يعرفه. كان ذلك أشبه باحتساء كأس ماء إثر كأس والعطش باق، مع الخوف المتجدد من استحالة إطفاء الظمأ.

كان ريتشارد قلقًا بشأن سوزان. كان يراها، بذقنها الحادة وعينيها الخضراوين، ويقول لنفسه إنه لم يكن عدلاً أن يخدعها، أن يتوارى في غرفة المكتبة حتى تنام، أن يكذب عليها بأنه كان في المكتب أو المتحف أو نادي البولو. هي تستحق أفضل من ذلك. لكن ثمة استقرارًا مطمئنًا في أن يكون معها، أمانًا خاصًّا في همسها وفي غرفة مكتبتها التي على حوائطها اسكتشات بالرصاص من شكسبير. كاينين مختلفة. كان يغادر كاينين ممتلئًا بسعادة ماجنة وإحساس مدوّخ بعدم الأمان. كان يود أن يسألها عما تفكر في الأمور التي لم يناقشاها أبدًا- علاقتهما، المستقبل، سوزان- لكن انعدام ثقته كان يخرسه في كل مرة؛ كان خائفًا من إجاباتها المحتملة.

طرح جانبًا أية مناقشات حتى الصباح حيث صحا وبدأ يفكر في ذلك اليوم في وينتنور، حينما كان يلعب بالخارج وسمع مولي تناديه. "ريتشارد الخارق!" وبدل أن يجيب "حاضر أنا قادم!" ثم يركض نحوها، اختبئ تحت السياج، فكشط ركبتيه. "ريتشارد! ريتشارد!" بدت موللي ثائرةً جدًّا هذه المرة، لكنه ظل جاثمًا في صمت. "ريتشارد، أين أنت يا ديكي؟" توقف أرنبٌ وراح نظر إليه، فتبادل النظر مع الأرنب في ثبات، وفي تلك اللحظات القليلة، كان الأرنب وهو فقط يعلمان أين هو. بعدئذ وثب الأرنب خارجًا فحدّقت موللي تحت الأغصان ورأته. ضربته بعنف. وأمرته أن يبقى في غرفته بقية اليوم. وقالت إنها محبطة جدًّا وإنها سوف تخبر مستر ومسز تشرشل. تلك اللحظات القصيرة جعلت الأمر ذا قيمة، لحظات الهجر الصافية تمامًا، حينما شعر كأنما هو، هو وحده، المتحكم في عالم طفولته. حينما تذكر تلك اللحظات، قرر أنه يجب أن ينهي الأمر مع سوزان. علاقته مع كاينين ربما لن تستمر طويلاً، لكن لحظات اللقاء بها، وهو يعلم أنه غير مثقَل بالأكاذيب والادّعاء، تستحق كل هذا.

قوَّى قرارُه معنوياتِه. لكنه أرجأ إخبار سوزان أسبوعًا آخر، حتى ذلك المساء الذي عادا فيه من حفل حيث شربت عدة كؤوس من النبيذ.

"هل تريد قلنسوة نوم يا حبيبي؟" سألته.

"سوزان، أنا أهتمّ بك كثيرًا،" قال باندفاع. "لكنني لست واثقًا من أن الأمور على ما يرام- ثمة أشياءُ بيننا."

"ماذا تقول؟" سألت سوزان رغم أن نبرتها الخامدة ووجها الجفِل أخبراه أنها تعرف تمامًا ماذا قال.

مرّر يده على شعره.

"مَن هي؟" سألت سوزان.

"ليست امرأة أخرى. أنا فقط أظن أن احتياجاتنا مختلفة." أمِلَ ألا يبدو غير مخلص، لكنها كانت الحقيقة؛ كانا دائمًا يريدان أشياء متباينة، كانا دائمًا يقدِّران أشياء متباينة. ما كان عليه أبدًا الانتقال للسكنى معها.

"أليست كلوفيس بانكروفت، أليس كذلك؟" أذناها كانتا حمراوين. دائما ما تحمرّان بعدما تشرب، لكنه لم يلحظ غرابة ذلك إلا الآن فقط، برزت الأذنان الحمراوان غضبًا في وجهها الشاحب.

"لا، طبعا لا."

صبّت سوزان لنفسها كأسًا ثم جلست على جانب الأريكة. ثمة صمت لبرهة. "أغرمتُ بكَ منذ اللحظة التي رأيتكَ فيها ولم أكن أتخيل أن ذلك سيحدث بالفعل. فكرتُ كم أنت وسيم ورقيق، وكان يجب أن أقرر هناك أنني يجب ألا أتركك تمضي." ضحكت بهدوء، ولاحظ الخطوط الدقيقة حول عينيها.

"سوزان-" قال، ثم توقف، لأنْ لم يكن ثمة ما يُقال. لم يكن يعرف أنها تفكر في هذه الأمور عنه. أدرك الآن كم كانا يتكلمان قليلاً، وكم كانت علاقتهما مثل فيضان ساذج له القليل من مُدخلاتهما، أو على الأقل من مُدخلاته هو. كانت العلاقة قد حدثت.

"الأمر كله مباغتٌ لكَ، أليس كذلك؟" قالت سوزان. مشيتْ ووقفت جواره. كانت قد استعادت هدوءها؛ ذقنها ما عادت ترتعد. "لم تُتح لك الفرصة لتستكشف، بالفعل، لترى المزيد من البلد كما رغبتَ أن تفعل؛ انتقلتَ إلى السكنى هنا وجعلتك تذهب إلى تلك المحافل الشنيعة لتلتقي ببشر لا يهتمون بالكتابة ولا بالفن الأفريقي ولا تلك الأشياء. لابد أن ذلك كان فظيعًا عليك، أنا آسفة بشدة يا ريتشارد، وأنا أتفهم. بالتأكيد لابد أن ترى بقية البلد. هل بوسعي أن أساعد في ذلك؟ لدي أصدقاء في إنيوجو وكاديونا."

أخذ ريتشارد منها الكأس، ووضعه جانبًا، ثم أخذها بين ذراعيه. شعر بحنين طفيف لعطر التفاح المألوف في شامبو شعرها. "لا، سوف أكون على ما يرام،" قال.

لم تكن تظن أن الأمر بالفعل انتهى، كان ذلك واضحًا؛ ظنت أنه سوف يعود فهو لم يقل شيئًا يجعلها تفكر بشكل آخر. حينما فتح الخادم بزيه الأبيض الباب الأمامي لكي يخرج ريتشارد شعر بارتياح خفيف.

"مع السلامة يا صاح،" قال الخادم.

"مع السلامة يا أوكون." وتساءل ريتشارد ما إذا وضع أوكون الغامض أذنيه على الباب يومًا حينما كان هو وسوزان في أحد شجارات تحطيم الكؤوس. كان مرة قد طلب من أوكون أن يعلمه بعض الجمل البسيطة بلهجة الإيفيك، لكن سوزان أوقفت ذلك حينما وجدتهما معًا في

المكتبة، كان أوكون يتململ بينما ريتشارد ينطق الكلمات. نظر أوكون إلى سوزان بامتنان، كأنما قد أنقذته من رجل أبيض مجنون، ثم كانت نبرة سوزان رقيقة وهي تقول إنها تفهم أن ريتشارد لم يكن يعرف كيف تتم الأمور. ليس بوسع المرء أن يعبر خطوطًا معينة. ذكرته النبرة بالعمة إليزابيث، بالآراء الممهورة بالأناقة الإنجليزية المُحبة للذات تلك التي لا تعتذر. ربما لو كان أخبرها عن كاينين، كانت ستستعمل النبرة ذاتها لتخبره أنها تفهم تمامًا احتياجه ليجرب امرأة سوداء.

شاهد ريتشارد أوكون يلوّح له وهو يقود السيارة مبتعدًا. غمرته رغبةٌ مُلّحة في الغناء، إلا أنه لم يكن رجلاً يغني. كل البيوت في شارع جلوفر كانت تشبه بيت سوزان، غالية الثمن، تحتضنها أشجارُ النخيل وبُسُطٌ من العشب الواهن.

في الظهيرة التالية، جلس ريتشارد عاريًا في السرير، ينظر للأسفل إلى كاينين. كان قد أخفق معها مرة أخرى. "أنا آسف. أعتقد أنني مُجهد،" قال.

"ممكن سيجارة؟" سألت. حدّدت الملاءة الحريرية نحافة جسدها العاري ذي الزوايا.

أشعلها لها. جلست في الفراش فسقطت الملاءة، حلماتها البنيتان كانتا تشعان في الغرفة المكيفة بالهواء البارد، نظرت بعيدًا وهي تزفر. "سوف نعطي الأمر وقتًا،" قالت. "وهناك طرقٌ أخرى."

شعر ريتشارد بجيشان سريع من التوتر، تجاه نفسه لكونه رخوًا بلا فائدة، وتجاهها لتلك الابتسامة نصف المتهكمة ولقولها بأن ثمة طرقًا أخرى، كأنما لديه عجز دائم لفعل الأشياء بالطرق التقليدية. يعرف ما بوسعه فعله. يعرف أن بوسعه إرضاءها. كل ما يحتاجه هو الوقت. كان قد بدأ يفكر رغم ذلك في بعض الأعشاب، أعشاب تقوية ذَكرية يذكر أنه قرأ عنها في مكان ما، تلك التي يتناولها رجال الفرقة.

"نسوكا ليست إلا بقعةً صغيرة من الغبار في منتصف الغابة، أرخص أرض يمكنهم الحصول عليها لكي يبنوا عليها الكون،" قالت كاينين. كان هذا مفزعًا، ما أسهل ما تنزلق إلى حوار عادي. "لكن لابد أنها ممتازة لكتابتك، أليس كذلك؟"

"أجل." قال.

"ربما أحببتَها وتود الاستمرار في الإقامة بها."

"ربما." قال ريتشارد وهو تحت الغطاء. "لكنني مسرور أنكِ ستذهبين إلى ميناء هاركورت ولن يكون عليّ أن أجيء كل الطريق إلى لاجوس لرؤيتك."

لم ترد كاينين. ظلت تدخن بهدوء، وعلى مدار لحظة مرعبة تساءل ما إذا كانت سوف تخبره أن كل شيء قد انتهى حينما يترك كلاهما لاجوس، وآنذاك، في ميناء هاركورت سوف تجد لنفسها رجلاً قادرًا على *الأداء الجيد*.

"بيتي سيكون ممتازا لنقضي فيه نهايات الأسبوع،" قالت أخيرا. "إنه وحشيّ. أبي أعطاه لي العام الماضي كجزء من مَهْري، كما أظن، إغراءً لرجل من نوع مناسب لكي يتزوج ابنته غير الجذابة. نهجٌ أوروبيٌّ فظيع حينما تفكر في الأمر، بما أن لا مهور لدينا، فإن لدينا أسعار للعرائس." أطفأت سيجارتها. لم تكن قد أنهتها. "تقول أولانا إنها لا تريد بيتًا. لا تحتاج إليه. توفر المنازل للابنة الدميمة."

"لا تقولي هذا يا كاينين."

"لا تقولي هذا يا كاينين،" قلّدته كاينين. نهضت فأراد أن يجذبها إليه. لكنه لم يفعل؛ لم يثق في جسده ولم يكن يتحمل أن يخيب ظنها من جديد. يظن أحيانًا أنه لا يعرف شيئًا عنها، كأنما لن يقدر أن يصل إليها أبدًا. وفي أحيان أخرى، وهو يرقد جوارها، يشعر باطمئنان كامل أنه لن يحتاج أي شيء آخر.

"بالمناسبة، طلبتُ من أولانا أن تقدّمك لحبيبها المُحاضِر الثوري،" قالت كاينين. خلعت باروكتها، وبشعرها القصير بدا وجهها أصغر سنًّا وحجمًا. "اعتادت أن تواعد أميرًا من الهاوسا، نوعًا من الرجال الدمثين المبهجين، لكنه لم يكن يمتلك أيًّا من هوسها المجنون. هذا الأودينيبو يتصور نفسه المحارب الأكبر من أجل الحرية. هو أستاذ رياضيات لكنه يمضي كل وقته في كتابة المقالات للصحف عن قوانين الاشتراكية النبيلة للأفارقة. أولانا تعشق ذلك. كلاهما لا يدرك أي نكتة مضحكة هذه الاشتراكية بالفعل." وضعت الباروكة على رأسها وبدأت تمشطها؛ سقط الشعرُ المتموّج المفروق من المنتصف، على ذقنها. أحب ريتشارد الخطوط النظيفة في جسدها النحيل، البشرة المصقولة في ذراعها المرفوع.

"يمكن للاشتراكية أن تنجح جدًّا في نيجيريا إذا طُبقت على نحو صحيح، أعتقد هذا،" قال. "إنها بالحق من أجل تحقيق العدالة الاقتصادية، أليست كذلك؟"

شخرت كاينين. "لن تعمل الاشتراكية مطلقًا من أجل الإيبو." توقفت يدها بالفرشاة في الهواء. "أوبينيلو هو اسم يطلقونه على البنات، فهل تعلم ماذا يعني؟ "ليس لها أن تتزوج من رجل فقير". أن تطبع هذا المعنى على طفلة يوم ميلادها فذاك هو الرأسمالية بامتياز."

ضحك ريتشارد، وسرّه أكثر أنها لم تضحك؛ بل ببساطة استأنفت تمشيط شعرها. فكر في المرة القادمة التي سيضحك معها، ثم المرة التي تليها. وجد نفسه دائمًا يفكر في المستقبل، حتى قبل أن ينتهي الحاضر.

نهض وشعر بخجل حين لمحت جسده العاري. ربما كانت دون تعبير فقط لكي تخفي اشمئزازها منه. ارتدى ملابسة الداخلية وزرّر قميصه على عجل.

"تركتُ سوزان،" أفلتت منه العبارة. "أسكن في دار ضيافة برينس-هيل في إكيجا. سوف أجمع بقية أغراضي من عندها قبل أن أسافر إلى نسوكا."

حملقت فيه كاينين، ورأى الدهشة في وجهها وشيئًا آخر لم يتحقق ما هو. هل كان حيرةً؟

" حقًّا لم تكن أبدًا علاقة مناسبة،" قال. لم يشأ أن تظن أنه فعل ذلك لأجلها، لم يردها أن تسأل نفسها أسئلةً حول علاقتهما. ليس الآن.

"سوف تحتاج خادمًا،" قالت.

"ماذا؟"

"صبي لخدمتك في نسوكا. ستحتاج أحدًا يغسل ملابسك وينظف منزلك."

ارتبك للحظة. "صبي خادم؟ بوسعي أن أرتب أموري بنفسي. فقد عشت بمفردي طويلاً."

"سوف أسأل أولانا أن تجد خادمًا،" قالت كاينين. جذبت سيجارة من علبتها، لكنها لم تشعلها. وضعتها على حافة الطاولة واقتربت تعانقه، حضنًا مرتجفًا بذراعيها حوله. كان في غاية الاندهاش أنه لم يعانقها بالمقابل. لم تحتضنه من قبل بمثل هذه الحميمية إلا حينما يكونان في الفراش. بدا أنها لا تعرف ماذا تفعل بالعناق، لأنها ارتدت للخلف سريعًا وأشعلت سيجارتها. كثيرًا ما فكر في هذا الحضن، وفي كل مرة، يتلبسه شعور كأنه حائطٌ يتفتت.

غادر ريتشارد إلى نسوكا بعد أسبوع. قاد سيارته بسرعة متوسطة، يتوقف في الطريق بين الحين والحين ليطالع الخارطة المرسومة باليد التي أعطتها له كاينين. بعدنا عبر نهر النيجر، قرر أن يتوقف عند إيبو-أوكوا. ها هو الآن أخيرًا على أرض الإيبو، ود لو يرى بيت الأواني الحبلية قبل أي شيء آخر. بعض البنايات الأسمنتية انتثرت في القرية فأفسدت اللوحة الجميلة للأكواخ الطميية التي تزدحم على جانبي الطرق الموحلة، الطرق الضيقة، صفَّ سيارته بعيدًا جدًا ثم اتبّع شابًّا يرتدي بنطالاً قصيرًا كاكي اللون بدا أنه يقوم بقيادة الزائرين للمكان. اسمه إميكا أنوزي. كان واحدًا من العمال الذين يقومون بالحفر. فرّج ريتشارد على القناة المستطيلة الواسعة حيث حدث التنقيب، والمعاول والأوعية التي استعملَت لكنس الغبار عن البرونز.

"هل تود الحديث إلى الحفّار الأب؟ سوف أترجم لك." عرض إميكا.

"شكرًا لك." شعر ريتشارد أنه مغمور قليلاً بالاستقبال الدافئ للجيران الذين جاءوا يقولون: "مساء الخير، ننو، أهلاً وسهلاً،" كأنما أبدًا لم يفكروا أنه جاء دون دعوة.

كان با آنوزي يرتدي ملابس قبيحة الشكل ملفوفة حول جسده ومربوطة خلف رقبته. قاده عبر طريق معتم له رائحة الفِطر. ورغم أن ريتشارد كان قد قرأ عن كيف اكتُشِف البرونز، إلا أنه سأل. مسح آنوزي قطعة مخاط كانت عالقة بأنفه قبل أن يخبره القصة. قبل عشرين عامًا كان أخوه يحفر بئرًا حينما خبط معولُه شيئًا معدنيًّا تحوّل ليكون طبقة من الأرض. وسرعان ما وجد عددًا آخر منها فاستخرجهم، غسلهم، ونادى الجيران ليشاهدوا. بدت جيدة النحت ومألوفة على نحو غريب، لكن أحدًا لم يعرف أي شخص صنع شيئًا مثلها. وسرعان ما وصل خبر لمندوب المقاطعة في إنيوجو، فأرسل من يأخذها لقسم الأنتيكات في لاجوس. بعد ذلك، لم يأت أحد ليسأل عن البرونز لمدة، وبنا شقيقه البئر ومضت الحياة. بعد عدة سنوات جاء رجل أبيض من إبادان لينقب عن الآثار. وكانت هناك أحاديث طويلة قبل أن يبدأ العمل

بسبب حظيرة ماعز وحائط بناية كان يجب إزالتها، لكن العمل استمر. ولكن خوفًا من العواصف الرعدية فقد غطُّوا القنوات المائية بشرائح من المشمع فوق عُصِيّ من البامبو. ثم وجدوا مثل هذه الأشياء الجميلة: ثمرات يقطين، أصداف، والكثير من الزخارف التي تضعها النساء للزينة، صور أفاعي، أواني.

"وجدوا أيضًا غرفةً مدفونة، أليس كذلك؟ سأل ريتشارد.

"نعم."

"هل تعتقد أنها كانت تخص الملك؟"

"نظر با آنزور نظرة طويلة مؤلمة وتمتم بكلمة لبرهة، وبدا حزينًا. ضحك إميكا قبل أن يترجم. "يقول الأب إنه يظن أنك كنت من بين الرجال البيض الذين يعرفون شيئًا ما. يقول إن مواطني الإيبو لا يعرفون ما هو الملك. نحن لدينا قساوسة وكبار سن. الغرفة المدفونة ربما تخص أحد الرهبان. لكن الراهب لا يقمع الناس مثل الملك. ذلك أن الرجال البيض يعطوننا ضباطًا يطلق عليهم الحمقى اليوم ملوكًا."

اعتذر ريتشارد. هو يعرف أن الإيبو قيل إنهم عاشوا في قبائل جمهورية لآلاف السنين، لكن إحدى المقالات التي تتكلم عن مكتشفات الإيبو-أكوا اقترحت أنهم ربما قديمًا عرفوا الملوك ثم خلعوهم فيما بعد. فالإيبو على كل حال أناس يخلعون الآلهة الذين يعمرون أطول من فائدتهم. جلس ريتشارد هنالك لبرهة يتخيل حياة الناس القادرين على مثل هذا الجمال، هذا التركيب، في عهد ألفريد الأكبر. ودّ أن يكتب حول هذا، أن يُبدع شيئًا من هذا، لكنه لم يعرف ما هو. ربما رواية تأمليّة يكون بطلَها الرئيسيَّ عالمُ آثار ينقّب عن البرونز سرعان ما يتحول إلى ناظم أناشيد رعوية في الماضي؟

شكر الأبَّ آنوزي واستعد للرحيل. قال الأبُ شيئًا فسأل إميكا: "يسأل البابا: ألن تأخذ صورةً معه؟ كل الرجال البيض الذين أتوا يأخذون صورًا."

غيَّر ريتشارد رأيه. "لا، معذرة. لم أحضر معي كاميرا."

ضحك إميكا. "يسأل البابا أي نوع من الرجال البيض هذا؟ لماذا جاء إلى هنا وماذا يعمل؟"

بينما كان يقود السيارة صوب نسوكا، تساءل ريتشارد أيضًا ما الذي فعله، والأكثر قلقًا ما الذي سوف يكتبه.

كان بيت الجامعة في شارع إيموك المخصص للباحثين والفنانين الزائرين؛ صغيرًا ومتقشفًا، نظر ريتشارد إلى المقعدين ذوي المرفقين في غرفة المعيشة، والسرير المفرد، وخزانات المطبخ الخاوية، فشعر على الفور أنه في بيته. كان المنزل مزودًا بما يلزم من هدوء. حينما زار أولانا وأودينيبو، قالت له: "بالتأكيد أنك تود أن تجعل البيت مأهولاً بعض الشيء،" فقال: "نعم،" رغم أنه أحب الأثاث الفقير. وافق فقط لأن ابتسامة أولانا كانت بمثابة الجائزة، لأنه اهتمامها كان مجاملةً له. أصرّت أن يستأجر البستاني الخاص بهم جومو ليأتيه

مرتين بالأسبوع ويزرع بعض الزهور في الفناء. قدمته لأصدقائهم؛ وأرشدته للسوق؛ وقالت إنها وجدت له خادمًا ممتازًا.

تصوره ريتشارد خادمًا صبيًّا صغيرًا ورشيقًا مثل خادمهم آجوو، لكن هاريسون لم يكن إلا رجلاً ضئيلاً محني الظهر مثل العصا، في منتصف العمر، يرتدي قميصًا أبيض كبير المقاس ينزل تحت ركبتيه. ينحني على نحو مُسرف قبل بداية أي حديث. أخبر ريتشارد بتفاخر غير مخفي أنه عمل سابقًا لدى القس الأيرلندي البابا بيرنارد والبروفيسور الأمريكي لاند. "أنا أصنع أفضل سلاطة شمندر،" قال له في اليوم الأول، ثم اكتشف ريتشارد لاحقًا أنه فخور ليس بالسلاطة وحسب، بل أيضًا بطهو الشمندر، الذي كان عليه أن يشتريه من كشك "الخضراوات الخاصة" لأن معظم النيجيريين لا يأكلونه. أول عشاء قدمه هاريسون كان سمكًا متبّلاً مع سلاطة الشمندر كمقبلات. وكان خضار الشمندر القرمزي مع الأرز في المساء التالي. "هذه من وصفة أمريكية للبطاطا الأمريكية،" قال هاريسون فيما يراقب ريتشارد وهو يأكل. اليوم الثالث كانت هناك سلاطة الشمندر، ثم خضار الشمندر المطهو، كان اليوم أحمر مخيفًا، إلى جوار الدجاج.

"كفى من فضلك يا هاريسون،" قال ريتشارد رافعًا يده. "كفى شمندر."

نظر ريتشارد محبطًا، ثم أشرق وجهه. "لكن يا صاح، إنما أطبخ الطعام كما في بلدك؛ أطبخ لك الطعام الذي اعتدتم أكله وأنتم أطفال. أنا لا أطبخ طعامًا نيجيريًّا على الوصفات الغربية."

"الطعام النيجيري ممتاز جدًّا هاريسون،" قال ريتشارد. لو فقط يعرف هاريسون كم كان يمقت طعام طفولته، السلمون المدخن حاد الطعم المليء بالعظام، العصيدة ذات الطبقة الكثيفة المرعبة فوق السطح مثل بلاطة الطبقة العازلة، لحم البقر المشوي أكثر مما يجب مُحاطًا بالدهون حول حوافه مغمورًا بالصلصة.

"أوكي صاح." بدا هاريسون نَكِدًا.

"بالمناسبة يا هاريسون، هل تعرف أية أعشاب مفيدة للرجال؟" سأل ريتشارد، آملاً أن يبدو سؤاله عَرَضيًّا.

"صاح؟"

"أعشاب." أومأ ريتشارد بغموض.

"خضروات صاح؟ أوه، أنا أصنع أي سلاطة من بلدك بامتياز يا صاح. صنعت للبروفيسور لابند عدة أنواع مختلفة من السلاطة."

"نعم، لكنني أعني خضروات للوهن."

"وهن؟ اذهبْ إلى طبيب المركز الطبي."

"أنا مهتم بالأعشاب الأفريقية يا هاريسون."

"لكن يا صاح، هي سيئة، من الطبيب الساحر. إنها شيطانية."

"بالطبع." قال ريتشارد يائسًا. كان يجب أن يعرف أن هاريسون بكل حُبِّه لما هو ليس نيجيريًّا لم يكن الشخص المناسب ليسأله. سوف يسأل جومو.

انتظر ريتشارد حتى جاء جومو ووقف في النافذة يتأمله وهو يروي الزنابق الجديدة. وضع جومو وعاء الماء جانبًا وبدأ يلتقط ثمرة شجرة المظلة. كانت قد سقطت أثناء الليلة الماضية، ورقدت، بيضاوية وصفراء باهتة، على العشب. اعتاد ريتشارد أن يشتمّ رائحتها المسكرة حين تتحلل، هو العطر الذي سوف يربطه دائمًا بحياته في نسوكا. كان جومو يحمل حقيبته القماش مملوءة بالثمر حينما جاءه ريتشارد.

"أوه، صباح الخير مستر ريتشارد، صاح،" قال، بطريقته المهيبة. "أود أن آخذ الثمار لهاريسون في حال احتياجك لها، صاح. لن آخذهم لنفسي." وضع جومو الحقيبة جانبًا والتقط وعاء الماء.

"لا بأس جومو. لا أريد هذه الثمار،" قال ريتشارد. "بالمناسبة، هل تعرف أية أعشاب مفيدة للرجال؟ للرجال الذين لديهم مشكلة مع... حين يكونون مع امرأة؟"

"أجل صاح." ظل جومو يروي كأنما هو سؤال يسمعه كل يوم.

"تعرف بعض الأعشاب للرجال؟"

"نعم يا صاح."

شعر ريتشارد بوثبة انتصار في معدته. "أود أن أراها يا جومو."

"عانى شقيقي من بعض المشاكل من قبل لأن زوجته الأولى لم تحمل والثانية أيضًا. كانت ورقة شجر واحدة أعطاها إياه ديبيا وبدأ يمضغها. الآن يجعل زوجاته حوامل."

"أوه، حسن جدًّا. هل تقدر أن تجلب لي هذا العشب يا جومو؟"

توقف جومو ونظر إليه، كان وجهه الذابل الحكيم مليء بالشفقة القوية. "إنها لا تنفع مع الرجال البيض يا صاح."

"أوه. لا. أريد أن اكتب عنها."

هز جومو راسه. "اذهب إلى ديبيا وامضغْ العشبةَ هناك أمامه. إنها ليست للكتابة عنها يا صاح." استدار جومو من جديد لسقياه، يتمتم بخفوت.

"مفهوم،" قال ريتشارد، وحينما دخل البيت تأكد أن اكتئابه غير باد؛ مشى شامخًا مُذكّرًا نفسه أنه السيد رغم كل شيء.

كان هاريسون واقفًا عند الباب الخارجي، متظاهرًا بتلميع الزجاج. "هل هناك شيء خطأ في أداء جومو يا صاح؟" سأل وهو يُمنّي النفس.

"كنت أسأل جومو بعض الأسئلة وحسب."

بدا هاريسون كسيفَ الخاطر. كان واضحًا منذ البدء أنه وجومو ليسا على ما يرام، الطاهي والبستانيّ، كلٌّ يرى نفسه أفضل من الآخر. مرة سمع ريتشارد هاريسون يخبر جومو ألا يروي النباتات خارج نافذة المكتبة لأن "صوت الرَّي يزعج السيد وهو يكتب." تعمد هاريسون أن يجعل ريتشارد يسمع ذلك فقالها بصوت عال، وهو يقف قريبًا جدًّا من نافذة المكتبة. خضوعُ هاريسون أسرّ ريتشارد، مثلما فعل اهتمام هاريسون بكتابته؛ أخذ هاريسون على عاتقه تلميع الآلة الكاتبة يوميًّا، حتى ولو لم تكن مغبّرة، ولم يكن ليتخلص من أية صفحات مخطوطة كان يجدها في سلة المهملات. "ألن تستخدم هذه من جديد صاح؟ متأكد؟" كان هاريسون يسأل، ماسكًا بالصفحات المكرمشة بيده، وكان ريتشارد يجيب بنعم، إنه متأكد. تساءل ريتشارد عم كان سيقوله هاريسون إذا ما أخبره ريتشارد أنه غير واثق مما يكتب، أنه كتب مسودة عن منقب آثار ثم طرح الكتابة جانبًا، وأنه كتب عن قصة حب بين رجل إنجليزي وامرأة أفريقية ثم طرحها جانبًا، ثم شرع في الكتابة عن الحياة في مدينة نيجيرية صغيرة. معظم المواد الأخيرة جاءت من زياراته لأولانا وأودينيبو وأصدقائهما. كانوا يقبلونه بينهم بعفوية، لا يعيرونه أي اهتمام خاص، وربما بسبب ذلك شعر براحة جالسًا يستمع فوق الأريكة في قاعة المعيشة.

حينما قدمته أولانا لأودينيبو للمرة الأولى قائلة: "هذا هو صديق كاينين الذي حدثتك عنه، ريتشارد تشرشل،" صافحه أودينيبو بدفء قائلاً: "لم أصبح الوزير الأول للملك من أجل أن أترأس عملية تصفية الحسابات مع الإمبراطورية البريطانية."

استغرق الأمر برهة قبل أن يفهم ريتشارد ويبدأ في الضحك على التشابه التعس مع السير ونستون تشرشل. فيما بعد شاهد أودينيبو يلوّح بنسخة من جريدة "الديلي تايمز"، وهو يهتف: "إنه *الآن* يجب أن نبدأ في تحرير تعليمنا من الاستعمار! ليس غدًا، الآن! نعلمهم تاريخنا!" وبدا له أن هنا رجلاً يثق أن غرابة الأطوار هي شخصيته، رجلاً لم يكن جذَّابًا على نحو خاص على أنه كان قادرًا على جذب الانتباه الأكثر في غرفة مليئة برجال جذابين. راقب ريتشارد أولانا كذلك، وكلما رمقها شعر بتجدد، كأنما غدت أكثر جمالاً في الدقائق القليلة الماضية. شعر بعاطفة غير مبهجة، وهو يرى يد أودينيبو فوق كتفها، وبعدئذ تخيلهما معًا في الفراش. تبادل مع أولانا كلمات قليلة خارج نطاق الحديث العام، لكن قبل رحيله لزيارته لكاينين بيوم في بورت هاركورت، قالت أولانا: "ريتشارد، من فضلك أبلغ كاينين تحيتي."

"سوف أفعل،" قال؛ كانت المرة الأولى التي تَذْكر فيها كاينين.

أخذته كاينين من محطة القطار في سيارتها البيجو 404 وقادت من مركز بورت هاركورت صوب المحيط، إلى منزل منعزل من ثلاثة طوابق به شرفات مكللة بزهور متسلقة لونها أرجواني فاتح. استنشق ريتشارد مُلوحة الهواء بينما تقوده كاينين عبر الغرف الواسعة

ذات الأثاث المتنافر لكن عالي الذوق، منحوتات خشبية، لوحات طبيعة صامتة، تماثيل منحنية. الأرضيات المصقولة كان لها رائحة الخشب.

"كنتُ أتمنى أن يكون أقرب للبحر، ليكون لدينا منظر أجمل. لكنني غيرت ديكورات بابا فأرجو ألا يبدو *ثراءً جديدًا*؟ " سألت كاينين.

ضحك ريتشارد. ليس وحسب لأنها كانت تقلّد سوزان- كان قد أخبرها عما قالت سوزان عن الشيخ أوزوبيا- لكن لأنها قالت *لدينا*. *لدينا* تعني كلاهما معًا؛ لقد ضمته معها. حينما قدمته لخدمها، ثلاثة رجال في زي كاكي اللون، قالت لهم، في تلك الابتسامة الساخرة: "سوف ترون مستر ريتشارد بين الحين والحين."

"أهلاً صاح،" قالوا معًا، وهم واقفون انتباه بينما كاينين تشير لكل واحد قائلة اسمه: إكيدجيدي، نانا، وسيباستين.

" إكيدجيدي هو الوحيد بنصف عقل في رأسه،" قالت كاينين.

ابتسم الرجال الثلاثة، وإن فكر كل منهم على نحو مختلف إلا أنهم طبعًا لم يقولوا شيئًا.

"والآن يا ريتشارد، سوف آخذك في تلك الأراضي." انحنت كاينين انحناءة مازحة ومشت صوب الباب الخلفي حيث البستان البرتقالي.

"طلبت مني أولانا أن أبلغك سلامها،" قال ريتشارد وهو يأخذ يدها في يده.

"وإذن حبيبها الثوريّ قد قبلك ضمن قطيعه. لابد أن نكون ممتنين. فالمعتاد أنه يقبل في بيته فقط المحاضرين السود."

"نعم، أخبرني. قال إن نسوكا مليئة بأناس من جامعات يوسيد، ومحصول السلام، وولاية ميتشجين، وإنه يود إقامة منتدى للمحاضرين النيجيريين القلّة."

"وأهواؤهم الوطنية."

"أعتقد هذا. هو مختلف على نحو طازج."

" مختلف على نحو طازج،" كررت كاينين. توقفت لتسوّي شيئًا في الأرض بنعل صندلها.

"تحبهما، أليس كذلك؟ أولانا وأودينيبو."

ودّ أن ينظر في عينيها، لكي يتبين ماذا تريده أن يقول. أراد أن يقول ما تود سماعه.

"نعم، أحبهما،" قال. يدها كانت رخوة في يده فخاف أن تزيحها بعيدًا. "لقد يسّرا الأمر عليّ لأتعوّد على نسوكا،" أضاف، كأنما يبرر حبه لهما. "لقد استقريت سريعًا. وبالطبع كان هناك هاريسون."

"بالطبع، هاريسون. وكيف حال رجل الشمندر؟"

جذبها ريتشارد إليه مطمئنًا أنها غير منزعجة.

"بخير. هو رجل طيب، بالفعل مسلٍّ جدًّا."

كانا الآن في بستان الفاكهة، داخل النسيج الكثيف لأشجار البرتقال، وشعر ريتشارد باغتراب يتملكه. كانت كايينن تتكلم، تقول شيئًا عن أحد موظفيها، لكن ريتشارد شعر بالتقهقر، عقله ينبسط، ثم يلتف حول نفسه. أشجار البرتقال، وجد كل هذه الأشجار الكثيفة حوله، طنين الذباب فوق رأسه، غزارة اللون الأخضر، كل هذا أعاد إليه ذكرى بيت والديه في وينتتور. كان غريبًا أن يذكّره مثل هذا المكان الاستوائي الرطب، بشمسه التي لوّحت ذراعيه بلون قرمزي خفيف والنحلات التي تشمّس نفسها، أن يذكره بالبيت المتداعي في إنجلترا، الذي كان باردًا حتى في الصيف. شاهد أشجار البلوط العالية والصفصافات خلف البيت، بالحقول حيث اقتفى أثرها بإلحاح، التلال المتموجة المغطاة بالخلنج ونباتات الخريف الكثيفة التي تنبسط لأميال وأميال، المنثورة بالخراف التي ترعى. التلال الزرقاء التي لا تُنسى. شاهد أباه وأمّه يجلسان معه في غرفة نومه، التي رائحتُها رطبة، بينما راح أبوه يقرأ عليهما بعض الشعر:

داخل قلبي ثمة هواءٌ يقتلُ
ومنكَ تهبُّ البلدةُ البعيدة:
ما هي تلك التلال الزرقاءُ التي لا تُنسى،
ما هي تلك الذُرى، ما تلك المزارِعُ التي هناك؟

تلك هي أرضُ الرضا المفقود
أراها تشرق بوضوح،
الطرق الواسعة إلى حيث أذهبُ
ولا أقدرُ أن أرجع.

كان صوت والده دائمًا ما يصير أعمقَ عند عبارة *التلال الزرقاء التي لا تُنسى*، وحينما يغادرا غرفته، وعلى مدى الأسابيع التالية حينما يكونا بالخارج، كان ينظر من نافذته ويشاهد التلال البعيدة وقد اتخذت مسحة لون زرقاء.

كان ريتشارد مذهولاً من حياة كايينن المنشغلة. لقاءاته المقتضبة معها في الفندق في لاجوس، لم تجعله يدرك أن حياتها كانت صاخبة بالعمل، وكانت ستظل صاخبة بالعمل حتى ولو لم يكن بها. كان مزعجًا بغرابة أن يفكر أنه لم يكن شاغل عالمها الأوحد، لكن الأغرب هو كيف أن روتينها قد وصل أقصاه، بعد أسابيع قليلة من وصولها بورت هاركورت. عملها له الأولوية؛ كان مقرَّرًا لها أن تنهض بمصانع أبيها، أن تفعل أفضل مما كان يفعل. في المساءات، يأتي الزوار- رجال الشركات يفاوضون في الصفقات، ورجال الحكومة يفاوضون في الرشاوى، ورجال المصنع يفاوضون في الوظائف- يصفُّون سياراتهم بالقرب من مدخل

البستان. كانت كاينين تحرص على ألا يمكثوا طويلاً، ولم تسأله أن يلتقي بهم لأنها قالت إنه سيجدهم مضجرين، لذلك كان يمكث بالأعلى يقرأ أو يكتب حتى يرحلوا. غالبًا، كان يحاول أن يمنع عقله من القلق بشأن خذلان كاينين هذه الليلة؛ كان جسده ما يزال لا يمكن الوثوق به واكتشف أن التفكير في الإخفاق يجعل احتمال حدوثه أكبر.

كان ذلك أثناء زيارته الثالثة لبورت هاركورت حينما دق الخادم باب غرفة النوم ليعلن: "جاء اللواء مادو يا سيدتي،" وسألت كاينين ريتشارد أن يصاحبها للأسفل.

"مادو صديق قديم وأحب أن تقابله. عاد للتوّ من كورس تمرين للجيش في باكستان،" قالت.

اشتمّ ريتشارد كولونيا الضيف من الردهة، عطر قويّ دسم. كانت ملابسه ملفتة للنظر بالشكل الذي جعل ريتشارد يفكر على الفور أنها بدائية: وجهٌ عريضٌ ماهوجني اللون، شفتان عريضتان، أنفٌ عريضٌ. حينما نهض ليصافح، تقريبًا تقهقر ريتشارد للخلف. كان الرجل ضخمًا. اعتاد ريتشارد أن يكون الرجل الأطول في الأمكنة، الرجل الذي يُنظر إليه للأعلى، لكن ها هو رجل أطول على الأقل بثلاثة بوصات، وبالعرض البادي في كتفيه، وكتلة جسده المتينة الضخمة فقد بدا أطول من ذلك، كأنه سفينة.

"ريتشارد، هذا هو اللواء مادو مادو،" قالت كاينين.

"أهلاً،" قال اللواء. "أخبرتني كاينين عنك،"

"أهلاً،" قال ريتشارد. كان شيئًا حميمًا جدًّا أن تسمع ذلك الفيل الضخم يقول اسم كاينين على هذا النحو بتلك الابتسامة المتسامحة، كأنما يعرف كاينين حق المعرفة، كأنما يعرف ما يجهله ريتشارد، كأنما أيًّا ما أخبرته كاينين عن ريتشارد كان همسًا في أذنيه، ما بين القهقهات السخيفة التي تولد بين الحميمية الجسدية. ثم أيّ نوع من الأسماء كان مادو مادو على كل حال؟ جلس ريتشارد على الأريكة ورفض عرض كاينين للشرب. بدا شاحبًا. تمنى لو قالت كاينين: *هذا حبيبي ريتشارد*.

"وإذن قد التقيت أنت وكاينين في لاجوس؟" سأل اللواء مادو.

"نعم،" قال ريتشارد.

"أخبرتني عنك للمرة الأولى حينما هاتفتها من باكستان قبل شهر."

لم يفكر ريتشارد فيم يقول. لم يعرف أن كاينين تحدثت عن باكستان ولم يذكر أنها ذكرت له شيئًا عن أية صداقة مع رجل عسكري اسمه ولقبه متشابهان. "ومنذ متى تعرفان بعضكما؟" سأل ريتشارد، وعلى الفور تساءل ما إذا بدا فضوليًّا.

"منزل عائلتي في أوموناتشي يجاور منزل أوزوبيا." استدار مادو لكاينين. "أليس يُقال إن أسلافنا كانوا أقاربَ؟ فقط أن أهلك كانوا قد سرقوا أرض أهلي ثم طردناكم منها؟"

"إنهم أهلك الذين سرقوا الأرض،" قالت كاينين وهي تضحك. اندهش ريتشارد من تلك النبرة الخشنة في ضحكتها. وأكثر ما أدهشه هو سلوك مادو بتلك الألفة، طريقته في الغرق في

الأريكة، نهوضه ليقلب صفحات الألبوم في مكتبة الاستريو، مزاحه مع الخدم وهم يقدمون العشاء. شعر ريتشارد أنه متروك جانبًا. تمنى لو أخبرته كاينين أن اللواء مادو سوف يمكث للعشاء. تمنى لو أنها شربت جين أو تونيك مثله بدلاً من الويسكي مع الماء مثل مادو. تمنى لو يتوقف اللواء مادو عن طرح الأسئلة كأنما كان الرجل هو المضيف وريتشارد هو الزائر. كيف تستمتع بنيجيريا؟ أليس هذا الأرزّ لذيذًا؟ كيف يسير كتابك؟ هل أحببت نسوكا؟

استاء ريتشارد من الأسئلة ومن سلوك الرجل المتقن على المائدة.

"لقد تدرّبت في ساندهيرتس،" قال اللواء مادو، "وأكثر ما كرهت كان البرد. "ليس أسوأ من أنهم كانوا يجعلوننا نجري كل صباح في ذلك البرد القارس وليس علينا إلا قميص خفيف وشورت."

"أقدر أن أتخيل لماذا وجدتها باردة،" قال ريتشارد.

"أوه، نعم. أنا واثق أنك سرعان ما ستشعر هنا بحنين إلى وطنك،" قال.

"لا أعتقد ذلك مطلقًا،" قال ريتشارد.

"حسنٌ، البريطانيون قد قرروا أن يتحكموا في الهجرة من الكومنولث، أليس كذلك؟ يريدون أن يبقى الناس في بلادهم. والمفارقة بالطبع هي أننا في الكومنولث لا نستطيع أن نتحكم في هجرة البريطانيين إلى بلادنا."

مضغ أرزه ببطء وفحص قارورة الماء لبرهة، كأنما هي نبيذ يود أن يختبر كرْمها.

"بمجرد وصولي من إنجلترا، أصبحت جزءًا من الفصيل الرابع الذي ذهب إلى الكونغو، تحت لواء الأمم المتحدة. معركتنا لم تسر على ما يرام أبدًا، ورغم ذلك كنت أفضل الكونغو عن الجانب النظير الآمن لإنجلترا. فقط بسبب الطقس." توقف اللواء مادو. "لم تمض بنا الحال على ما يرام مطلقًا في الكونغو. كنا تحت إمرة العقيد البريطاني." رمق ريتشارد ثم استأنف المضغ.

تشنج ريتشارد؛ تصلّبت أصابعه حتى خشي أن تنزلق الشوكة من قبضته فيلحظ هذا الرجال الذي لا يُطاق ما يختلج بداخله.

رن جرس الباب بعد العشاء مباشرة حينما كانوا يجلسون في الفيراندا المضاءة بالقمر، يشربون ويستمعون لموسيقى "الحياة العليا".

"لابد أنه أودودي، طلبت منه أن نلتقي هنا." قال اللواء مادو.

صفع ريتشارد بعوضة مزعجة بالقرب من أذنه. يبدو أن منزل كاينين أصبح مكانًا للقاء الرجل بأصدقائه.

بدا أودودي رجلاً ضئيلاً عادي الشكل ليس به شيء من تلك الغطرسة الماكرة التي لدى اللواء مادو. ثملٌ، تقريبًا مهووس، في طريقته مصافحة ريتشارد، ينتفض لأعلى وأسفل. "هل أنت مساعد كاينين في أعمالها؟ هل تعمل بالنفط؟" سأل.

"لم أقم بالتعريف، أليس كذلك؟" قالت كاينين. "ريتشارد، اللواء أودودو إكيتشي صديق مادو. أودودي، هذا ريتشارد تشرشل."

"أوه،" قال اللواء أودودي، وعيناه تضيقان. صب بعض الويسكي في كأسه، احتساها في رشفة واحدة، وقال شيئًا بالإيبو فردت عليه كاينين، في إنجليزية واضحة باردة: "اختياراتي مَن أحب ليست من شأنك يا أودودي."

تمنى ريتشارد لو يقدر أن يفتح فمه ويوبخ الرجل، لكنه لم يقل شيئًا. شعر كمَّن لا حيلة له، شعر بذلك النوع من الضعف الذي يصاحب المرض، يصاحب الحزن. توقفت الموسيقى فكان بوسعه أن يستمع إلى صوت أمواج البحر البعيدة.

"آسف، أوه! لم أقل إن هذا من شأني!" ضحك اللواء أودودي ومد يده من جديد لقارورة الويسكي.

"مهلاً،" قال اللواء مادو. "بدأت الفوضى مبكرًا."

"الحياة قصيرة يا أخي!" قال اللواء أودودي وهو يصب كأسًا آخر. استدار إلى كاينين. *"آي ماجونو*، تعلمين، ما أقوله هو أن امرأتنا التي تتبع الرجال البيض لها طبيعة محددة، تكون من أسرة فقيرة ولها تركيب جسدي يحبه البيض." توقف ثم تابع، وهو يحاكي ساخرًا اللكنة الإنجليزية: "مؤخراتٌ ساحرة مغرية." وضحك. "سوف يثقب الرجال البيضُ النساءَ في الظلام ويثقبون ويثقبون لكنهم أبدًا لا يتزوجوهن. كيف يقدرون! لن يأخذوهن حتى لأماكن عامة جيدة. لكن النساء سوف يستمررن في نكران ذواتهن ويناضلن من أجل الرجال حتى يحصلن على مبالغ زهيدة لا تكفي إطعام دجاجة. إنه الرقّ الجديد. كما أخبرك، هو الرقّ الجديد. لكنك ابنة رجل مهم، ولذلك ماذا تفعلين معه؟"

نهض اللواء مادو. "آسف يا كاينين. الرجل ليس طبيعيًّا." جذب اللواء أودودي لينهض وقال شيئًا في إيبوية خافتة.

"كان اللواء أودودي يضحك من جديد. "أوكي، أاوكي، لكن دعني آخذ الويسكي. القنينة فرغت تقريبًا. دعني آخذ الويسكي."

لم تقل كاينين شيئًا وأخذ أودودي قنينة الويسكي من على الطاولة. وبعدما رحلا، جلس ريتشارد جوارها وأخذ يدها. شعر كأنه قد اختفى، وكأنما ذلك هو السبب الذي جعل اللواء مادو لم يشمله في الاعتذار. "كان فظيعًا. أنا آسف لما فعله."

"كان ثملاً مسلوب الإرادة لابد أن مادو يشعر بالندم الآن،" قالت كاينين. أشارت إلى الملف على الطاولة وأضافت: "حصلتُ للتو على عقد تمديد الفصيل بأحذية الجيش في كادونا."

"هذا جيد." احتسى ريتشارد القطرة الأخيرة من كأسه ونظر إلى كاينين التي تنظر إلى الملف.

"الرجل المسؤول من إيبو، وقال مادو إنه كان حريصًا على أن يعطي العقد لمواطن إيبو. لذلك كنتُ محظوظة. ولم يطلب سوى عمولة 5%."

"رشوة؟"

"أوه، ألسنا أبرياء."

وتّره تهكمها، كما وترته السرعة التي بها أعفت اللواء مادو من أية مسؤولية عما فعل اللواء أودودي من سلوك حقير. نهض وراح يزرع الفيراندا مشيًا. كانت الحشرات تطنّ حول المصباح الفلوريسنت.

"تعرفين مادو منذ زمن طويل إذًا،" قال أخيرًا. كره أن ينادي الرجل باسمه الأول؛ بما يشي بأن بينهما ودًّا وهو ما لم يكن موجودًا. لكن لم يكن له خيار[1]. وبالطبع لن يدعوه باللواء؛ لأن استخدام اللقب يرفع من شأنه.

نظرت كاينين للأعلى. "للأبد. عائلته وعائلتنا متقاربتان جدًّا. أتذكر مرة، قبل سنوات، حينما ذهبنا إلى أوموناتشي لقضاء الكريسماس، أعطاني سلحفاة. أجمل الهدايا وأغربها التي أخذتها طيلة عمري. فكرت أولانا أن مادو أخطأ بانتزاعه الكائن التعس من بيئته، ولم تتماشَ كثيرًا مع مادو على كل حال. وضعتها في وعاء، وبالطبع فسرعان ما ماتت بعد ذلك." استأنفت تصفُّح الملف.

"هو متزوج، أليس كذلك؟"

"نعم، آداوبي تدرس البكالوريوس في لندن."

"ألهذا ترينه كثيرًا؟" خرج سؤاله أجشَّ، كأنما كان يحتاج أن ينقي حلقه.

لم ترد. ربما لم تسمعه. كان واضحًا أن الملف، العقد الجديد، كان يشغل بالها. نهضت. "سأدون بعض الملاحظات في المكتبة ثم ألحق بك."

تساءل لماذا لم يستطع ببساطة أن يسألها ما إذا كانت ترى مادو جذّابًا وإذا ما تورطت معه عاطفيًّا، أو، وهو الأسوأ، ما تزال متورطة معه. كان خائفًا. ذهب إليها ووضع ذراعيه حولها وضمها بقوة، ودّ أن يحسّ دقّات قلبها. كانت المرة الأولى في حياته التي يشعر بأنه ينتمي لمكان ما.

1. الكتاب: العالم كان صامتًا حينما كُنّا نموت

للمقدمة التمهيدية، سرد قصة المرأة مع ثمرة القرع. جلست على أرضية القطار مهروسة بين الناس الصارخة، الناس الزاعقة، الناس الذين يدعون الله. كانت صامتةً،

[1]- لم يكن له خيار لأن اسم الرجل ولقبه واحد: مادو مادو.

تهدهد ثمرة القرع المغطاة على حجرها بأرجحة رقيقة حتى عبروا نهر النيجر، وبعد ذلك رفعت الغطاء وسألت أولانا والآخرين الذين حولها أن ينظروا للداخل.

تخبره أولانا بهذه الحكاية وهو يدون التفاصيل. تخبره كيف أن بقع الدماء على ثوب المرأة قد اختلط بالنسيج ليتحول إلى بنفسجيّ صدئ. تصف له التصميمات المنحوتة على قرعة السيدة، خطوط منحدرة تقاطع بعضها البعض، وتصف له رأس الطفلة بالداخل: الجدائل التعسة الساقطة فوق الوجه البني القاتم. العينان تامتا البياض، مفتوحتان على الرعب، وفم يصنع اندهاشة صغيرة على شكل O.

بعدما كتب ذلك، ذكر المرأة الألمانية التي هربت من هامبورج بجثث أطفالها المتفحمة محشورة في حقيبة ملابس، والمرأة الرواندية التي وضعت في جيبها قطعًا صغيرة من صغارها المشوهين. لكنه كان حريصًا ألا يرسم توازيات. لغلاف الكتاب، رسم خريطة لنيجيريا وتبع في شكل حرف Y نهريْ النيجر والبينو بالأحمر القاني. واستخدم نفس ظلال الأحمر ليرسم دوائر على حدود بيفاريا في الجنوب الشرقي، حيث توجد منذ ثلاث سنوات.

(4)

نظّف آجوو مائدة الغداء ببطء. أزال الكؤوس أولاً، ثم أوعية الخضار ثم أدوات المائدة من شوك وسكاكين، وبعد ذلك رصّ طبقًا فوق طبق. حتى ولو لم يكن قد تلصص عبر باب المطبخ وهم يأكلون، كان سيعرف مَن جلس أين. كان طبق السيد هو الأكثر انتثارًا للأرز، كأنما كان يأكل وهو مشوّش الذهن فكانت الحبوب تروغ من شوكته. كأس أولانا كان على حافته شكل هلالي من أحمر الشفاة. أوكيوما كان يأكل كل شيء بالملعقة، شوكته وسكينه أُزيحا جانبًا. كان بروفيسور إزيكا قد اشترى بيرته الخاصة، فكانت القنينة البنية أجنبية الشكل جوار صحنه. وتركت الآنسة آديبايو شرائح البصل في صحنها. أما مستر ريتشارد فأبدًا لا يمضغ عظام الدجاج.

في المطبخ، احتفظ آجوو بصحن أولانا على جانب رف الفورمايكا وراح يفرغ الصحون الباقية، وهو يشاهد الأرز، الخضار، السلاطات، والعظام وهي تنزلق في صندوق القمامة. بعض العظام كانت مهشمة تمامًا حتى بدت كالخشب المحلوق. أولانا لا تفعل ذلك، لأنها كانت وحسب تمضغ النهايات برهافة فتبقى العظام على شكلها. جلس آجوو واختار واحدة وأغمض عينيه وراح يمتصها، وهو يتخيل فم أولانا وقد التصق بالعظمة ذاتها.

راح يمتص ببطء، عظمةً إثر عظمة، غير عابئ بخفض صوت امتصاصه. كان وحيدًا. السيد قد غادر للتو إلى نادي الأساتذة رفقة أولانا وبقية الأصدقاء. كان البيت أكثر هدوءًا الآن، حيث يستطيع أن ينفرد بهدوء وبطء بصحون الغداء في الحوض والمائدة البعيدة والمطبخ يسبح في الضوء الساطع لأشعة الشمس. كانت أولانا تسميه وقت *العمل المدرسي*، وحين تكون بالبيت كانت تناديه ليأخذ واجبه إلى غرفة النوم. هي لا تعرف أن واجبه أبدًا لا يأخذ وقتًا طويلاً، وأنه كان يجلس جوار النافذة بعد ذلك ويصارع الجُمل الصعبة في كتب السيد، ناظرًا للأعلى غالبًا ليراقب الفراشات تعلو وتهبط فوق الزهور البيضاء في الفناء الأمامي.

التقط كراسة تدريباته بينما يمتص العظمة الثانية. كان نخاع العظام البارد حرِّيفًا على لسانه. قرأ القصيدة، التي كان قد نقلها بكل عناية من السبورة بخط مسز أوجيوكي، ثم أغمض عينيه وراح يتلوها.

لا أقدر أن أنسى، أنا المحرومُ
من كل مشاهِد البهجة التي يرونها،
تلك التي وعدني الزمّارُ بها،

لأنه كان قد أرشدنا، كما يقول، لأرض البهجة،
لنلحق بالمدينة التي على مقربة،
حيث المياه تتدفق وأشجار الثمار تزدهر،
وحيث تأخذ الأزهار أبهى ألوانها،
وكل شيء كان غريبًا وجديدًا.

فتح عينيه ومرّ بهما على القصيدة ليتأكد أنه لم يغفل شيئًا. تمنى لو لا يتذكر السيد أن يطلب منه تسميعها، لأنه، رغم أنه قد حفظ القصيدة على نحو صحيح، إلا أنه لا يملك إجابة حينما يسأله السيد: *ماذا تعني*؟ أو، ماذا تظن أن القصيدة تقول بالفعل؟ الصور التي في الكتاب الذي أعطته إياه مسز أوجيوكي، التي تصور رجلاً ذا شعر طويل وحوله فئران مسرورة تتبعه، كانت غير مفهومة، وكلما نظر إليها آجوو كلما ازداد يقينًا بأنها ليست إلا نكتة بلا معنى. حتى مسز أوجيوكي بدت لا تعرف ماذا تعني. كان آجوو قد بدأ يحب مسز أوجيوكي لأنها لم تعامله باهتمام خاص، لم تلحظ أنه كان يجلس وحيدًا في الفصل في وقت الفسحة. لكنها لم تلحظ كم تعلّم سريعًا في اليوم الأول تحديدًا حينما أعطته اختبارات شفوية وتحريرية بينما كان السيد ينتظر خارج الغرفة مخنوقة الهواء. "سوف يجتاز الصبيُّ الفصل الدراسي سريعًا، لديه ذلك الذكاء الفطريّ،" أخبرت السيد بعد ذلك، كأنما آجوو لا يقف على مقربة منهما، ثم يصبح "ذكاء فطري" هو التعبير المفضل لدى آجوو.

أغلق دفتر التمرينات. كان قد امتصّ كل العظام، وبدأ يتخيل أن مذاق فم أولانا موجود في فمه حينما بدأ في غسيل الصحون. المرة الأولى التي امتصّ فيها عظام أولانا، قبل أسابيع، كانت بعد أن شاهدها والسيد قبّلها في قاعة المعيشة صباح السبت، الفمان المفتوحان يتضاغطان. باغتته وأثارته فكرة أن رضابها كان في فم السيد. ومازالت تثيره. تمامًا كما أثاره أنينها بالليل؛ لم يكن يحب أن يسمعها، لكنه كان غالبًا يذهب إلى بابهما ويضع أذنه على الخشب البارد وينصت. مثلما كان يفحص ملابسها الداخلية التي تعلقها في الحمّام- كيلوت أسود، سوتيان زلق، بنطلون أبيض.

اندمجتْ بالبيت بيسر. في المساءات، حينما يملأ الضيوف قاعة المعيشة، كان صوتها ينبثق في إتقانه الواضح، وكان يتخيل نفسه وقد أخرج لسانه للآنسة آديبايو قائلاً: "لا تقدرين أن تتكلمي الإنجليزية مثل سيدتي، لذلك اخرسي." يبدو أن ملابسها كانت دائمًا في الخزانة، موسيقاها "الحياةُ العليا" كانت دائمًا تنطلق من المسجل، رائحة جوز الهند التي تنبثق منها كانت تشعُّ في كل غرفة، وسيارتها الإمبالا دائمًا مصفوفة في الجراج. رغم هذا، كان يحنُّ للأيام القديمة مع السيد. يحنُّ للأمسيات التي كان يجلس فيها على أرضية قاعة المعيشة بينما يتكلم

السيد بصوته العميق، والنهارات حين كان يعد فطور السيد، موقنا أن الصوت الوحيد الذي يمكن أن يُسمَع هو صوتاهما.

تغيّر السيد؛ أصبح ينظر إلى أولانا كثيرًا، يلمسها كثيرًا، وحينما يفتح له آجوو الباب كانت عيناه تجولان في قاعة المعيشة تبحثان هل أولانا هناك. بالأمس فقط، أخبر السيد آجوو: "سوف تزورنا أمي هذا الويك إند، لذلك نظّفْ غرفة الضيوف." وقبل أن يتمكن آجوو من قول "نعم صاح،" قالت أولانا: "أظن أن آجوو لابد أن ينتقل إلى مأوى الصِّبية. وبهذه الطريقة سوف يكون لدينا غرفة للضيوف. ربما تمكث الماما مدّة."

"نعم، بالطبع،" قال السيد، بسرعة كبيرة أزعجت آجوو؛ بدا الأمر كأنما يمكن أن يضع السيد رأسه في النار إذا ما طلبت منه أولانا ذلك. بدا كأنها أصبحت هي السيد. لكن آجوو لم يمانع من الانتقال إلى غرفة في مأوى الأولاد، تلك التي كانت خاوية اللهم إلا من بعض الصناديق وخيوط العنكبوت. كان بوسعه أن يخبئ الأشياء التي ادخرها هناك؛ بوسعه أن يجعلها ملكه الخالص. لم يسمع السيد يتكلم عن أمه من قبل، وفيما ينظف غرفة الضيوف فيما بعد، راح يتخيل كيف سيكون شكلها، المرأة التي حمّمت السيد وهو طفل، وأطعمته، ومسحت أنفه الممخّط. كان يشعر برهبة تجاهها، لأنها أنتجت السيد.

انتهى سريعًا من تجهيز صحون الغداء. إذا ما انتهى بنفس السرعة من تجهيز الخضروات للحساء، سيكون بوسعه أن يذهب إلى منزل مستر ريتشارد ليتكلم قليلاً مع هاريسون قبل أن يعود السيد وأولانا. في هذه الأيام، كان يقطع الخضروات بيده بدلاً من تقطيعها شرائح. تحبها أولانا بهذه الطريقة؛ قالت إنها هكذا تحتفظ بالفيتامينات. هو أيضًا بدأ يحب الخضروات هكذا، تمامًا كما أحب طريقتها في تعليمه قلي البيض مع قليل من اللبن، وفي تقطيع لسان الجدي في دوائر أنيقة بدلاً من الشكل البيضاوي غير الرشيق، وأن يطهو على البخار *الموا-موا* في أكواب من الألومنيوم بدلاً من أوراق الموز؟ الآن بعدما تركت معظم مهام الطهو له، كان يحب أن يتلصص من باب المطبخ بين الوقت والآخر، ليرى من الذي يتمتم أكثر بالمجاملة، مَن يحبُّ ماذا، مَن يحتاج مزيدًا من الطعام. د.باتيل يحبّ الدجاج المسلوق مع *أوزيزا*. كذلك مستر ريتشارد، رغم أنه أبدًا لا يأكل جلد الدجاج. ربما بشرةُ الدجاجة الباهتة تذكر مستر ريتشارد ببشرته البيضاء. لم يكن هناك سبب آخر بوسع آجوو أن يفكر فيه؛ فقد كان جلد الدجاج هو ألذ ما فيها. كان مستر ريتشارد دائما ما يقول: "دجاج ممتاز، شكرًا يا آجوو،" حينما كان يدخل آجوو ليجلب مزيدًا من الماء أو لينظف شيئًا. أحيانًا، حينما ينتقل بقية الضيوف لحجرة المعيشة، كان مستر ريتشارد يدخل المطبخ ويسأل آجوو بعض الأسئلة. كانت أسئلة مضحكة. هل أهله لديهم منحوتات أو تماثيل لآلهة؟ هل زار من قبل ضريحًا جوار النهر؟ وكان آجوو مسرورًا جدًّا حين رأى مستر ريتشارد يدوّن إجاباته في كتاب صغير بغلاف جلديّ. قبل عدة أيام، حينما ذكر آجوو ارتجالاً مهرجان *أوري-اوكبا*، تألقت

عينا مستر ريتشارد الزرقاوان وقال إنه يود أن يشاهد المهرجان؛ وسوف يسأل السيد أن يذهب هو وآجوو إلى بلدته.

ضحك آجوو وهو يجلب الخضراوات من الثلاجة. لم يستطع أن يتخيل مستر ريتشارد في مهرجان *أوري-أوكبا*، حيث الــ ممو (قال مستر ريتشارد أنهم في حفل تنكري، أليسوا كذلك، ووافق آجوو، مادامت حفل تنكري تعني الأرواح) يسيرون في موكب عبر القرية، يجلدون الرجال بالسياط، ويتصيدون النساء الصغيرات. المامو أنفسهم قد يضحكون من مرأى الشاحب الغريب وهو يدون في دفتره. لكنه كان مسرورًا أن ذكر المهرجان لمستر ريتشارد، لأن هذا يعني أن ثمة فرصة ليرى نيسيناتشي قبل أن تسافر إلى الشمال. لكي يرى انطباعها حينما تراه يصل البلدة في سيارة رجل أبيض، يقودها الرجل الأبيض نفسه! لا شك سوف تنتبه إليه آنذاك، هو واثق، ولا يطيق صبرًا ليرى انطباع آنيوليكا وأبناء عمومته وأقاربه وهو بقميصه الإنجليزي الجديد، وبمعرفته بالسندوتشات وماء الصنبور الجاري، والبودرة العطرية.

كان آجوو قد انتهى من غسل الخضروات المقطعة حينما سمع جرس الباب. كان ما يزال الوقت مبكرًا على أصدقاء السيد. مشى صوب الباب وهو يجفف يديه في ردائه. لبرهة، سأل نفسه إن كانت العمة بالفعل هي من يقف هناك أم انه كان يتوهم هذا لأنه كان يفكر ببلدته.

"عمتي؟"

"*آجوانيي*،" قالت، "لابد أن تعود إلى البيت. *أوجا جي كوانو*؟ أين سيدك؟"

"أعود للبيت؟"

"أمك مريضة جدًّا."

فحص آجوو الطرحة الملفوفة حول رأس العمة. استطاع أن يرى الأماكن المهترئة، النسيج كان منحولاً. تذكر هذا حين مات أبو ابنة عمته، أرسلت الأسرة كلمة لها في لاجوس تخبرها أن تعود للبيت لأن أباها مريض جدًّا. إذا كنتَ بعيدًا عن الوطن، يخبرونك أن الشخص الميت مريضٌ جدًّا.

"أمك مريضة،" كررت العمة. "تسأل عنك. سوف أخبر السيد أنك سوف تعود غدًا، لذلك هو لن يفكر أننا نطلب الكثير. العديد من الصبيان الخدم لا يذهبون إلى بيوتهم لسنوات، أنت تعلم ذلك."

لم يتحرك آجوو، كان يلف طرف ردائه حول إصبعه. ودّ لو يسأل عمته إن كانت تخبره بالحقيقة، تقول ذلك لو كانت أمه ماتت. لكن فمه لم يقدر أن يركب الكلمات. تذكر مرض أمه الأخير حينما ظلت تسعل وتسعل حتى خرج أبوه قبل الفجر ليحضر ديبيا بينما الزوجة الصغرى، تشيوكي راحت تدلك ظهرها، أخافه هذا.

"السيد ليس هنا،" قال أخيرًا. "لكنه سوف يعود حالاً."

"سوف أنتظر وسوف ألتمس منه أن تعود للبيت."

سبقها على المطبخ، حيث جلست العمة وراحت تراقبه وهو يقطع البطاطا شرائحَ ثم يقطع الشرائحَ مكعبات. كان يعمل بسرعة، كأنه محموم. ضوء الشمس الذي يتسرب من النافذة بدا أكثر سطوعًا مما يكون لما بعد الظهر، مفعمًا بإشعاع مضيء.

"هل أبي بخير؟" سأل آجوو.

"بخير." كان وجه العمة معتمًا، ونبرتها مسطحة: سلوك شخص يحمل المزيد من الأخبار السيئة أكثر مما باح به. لابد أنها تخفي شيئًا. ربما أمه بالفعل قد ماتت؛ ربما والداه كلاهما قد وقعا ميتيْن هذا الصباح. استمر آجوو في تشريح الخضر، في صمت مأساوي، حتى عاد السيد، بقّع التنس ظهره ببقع بيضاء من العرق. كان وحده. تمنى آجوو لو عادت أولانا البيت كذلك لكي يقدر أن ينظر في وجهها وهو يتكلم.

"مرحبًا، صاح،"

"نعم، يا رجلي الطيب." وضع السيد مضربه على طاولة المطبخ. "بعض الماء. خسرتُ كل مبارياتي اليوم."

كان آجوو قد جهز الماء، وقطع الثلج في كأس فوق صحن صغير.

"مساء الخير يا صاح،" حيّته العمة.

"مساء الخير،" قال السيد، وهو ينظر بحَيرة طفيفة، كأنما كان ليس متأكدًا مَن تكون هي. "كيف حالك؟"

قبل أن تتمكن من قول المزيد، قال آجوو: "أمي مريضة يا صاح. من فضلك يا صاح، إذا ذهبت لرؤيتها سوف أعود غدًا."

"ماذا؟"

أعاد آجوو. حدّق السيد فيه ثم في الوعاء فوق الموقد. "هل أنهيت الطهو؟"

"لا يا صاح؟ سوف أنهيه سريعًا سريعًا، قبل أن أذهب. وسوف أجهز المائدة وأرتب كل شيء."

استدار السيد لعمة آجوو. "جيني مي؟ ماذا بأمه؟"

"صاح؟"

"هل أنت صمّاء؟" لكز السيد أذنه كأنما العمة لا تعرف ماذا تعني كلمة صماء. ماذا أصاب أمه؟"

"يا صاح، اشتعل صدرها."

"اشتعل صدرها؟" زمجر السيد. احتسى كل مائه واستدار لآجوو يكلمه بالإنجليزية. "البسْ قميصًا واركب السيارة. قريتك ليست بعيدة. يجب أن نعود في وقت مناسب.

"صاح؟"

"البس قميصًا واركب السيارة!" دوّن السيد كلمة على ورقة صغيرة وتركها على المائدة. "سوف نُحضر أمك إلى هنا وسوف يراها باتيل."

"نعم يا صاح." شعر آجوو أنه مكسور وهو يسير نحو السيارة، جوار عمته والسيد. شعر أن عظامه كانت من القش. الرحلة إلى القرية كانت صامتة تقريبًا. حينما ساروا بالسيارة جوار بعض الحقول المرصوصة بصفوف وصفوف من الذرة مثل شعر مضفور بعناية، قال السيد: "انظرْ؟ هذا ما يجب أن تركز عليه حكومتنا. لو تعلمنا تقنية الري، نقدر أن نطعم هذا البلد بسهولة. نقدر أن نتغلب على الاعتماد على الاستعمار في الاستيراد."

"نعم يا صاح."

"لكن بدلاً من ذلك، كل ما يفعله جهلاء الحكومة هو السرقة والكذب. عدد من تلامذتي انضموا للجماعة التي ذهبت إلى لاجوس هذا الصباح لكي يتظاهروا، كما تعلم."

"نعم يا صاح،" قال آجوو. "لماذا يتظاهرون يا صاح؟"

"إحصاء تعداد السكان،" قال السيد. "الإحصاء في فوضى. كل شخص يزوِّرُ في عدد الناس. وهذا الـــ باليوا لن يفعل شيئًا حيال ذلك، لأنه مشارك في الجريمة معهم جميعًا. لكننا يجب أن نرفع صوتنا."

"نعم يا صاح،" أجاب آجوو، وكان ما بين قلقه على أمه، يشعر بشيء من الفخر لعلمه أن عيني عمته الآن مشدوهتان بالعجب من هذا الحديث العميق بينه وبين السيد. وبالإنجليزية أيضًا. وقفوا في طريق صغير قبل كوخ الأسرة.

"احضرْ أغراض أمك سريعًا،" قال السيد. "لدي زوار أصدقاء من إبادان هذه الليلة."

"حاضر يا صاح!" تكلم آجوو والعمة كلاهما في اللحظة نفسها.

وثب آجوو من السيارة ووقف هناك. دخلت العمة الكوخ، وسرعان ما خرج أبوه، عيناه محاطتان بالحمرة، بدا أكثر انحناءً مما يذكره عنه آجوو. ركع على الأرض الترابية وأمسك بساقي السيد. "شكرًا يا صاح. شكرًا يا صاح."

تراجع السيد للخلف وشاهد آجوو أباه يتمايل، ويقع تقريبًا على ظهره. "انهض، كيوني،" قال السيد.

"خرجت تشيوكي من الكهف. "هذه زوجتي الأخرى يا صاح،" قال أبوه وهو ينهض.

صافحت تشيوكي السيد بكلتا يديها. "شكرًا يا صاح، ديجي!" ركضت للداخل ورجعت بثمرة أناناس زجتها في يد السيد.

"لا، لا،" قال السيد دافعًا عنه الأناناس. "الأناناس المحلي حمضي جدًّا، تحرق فمي."

تجمع أطفال القرية حول السيارة لينظروا داخلها ومرروا أصابعهم المرتعبة فوق جسمها الأزرق. طردهم آجوو بعيدًا. تمنى أن تكون آنيوليكا بالداخل، حتى تذهب معه إلى كوخ أمه، وتمنى أن تأتي نيسيناتشي الآن لتأخذ يده في يدها ثم تخبره برقة أن مرض أمه ليس خطيرًا

على الإطلاق، ثم تقوده إلى منحدر جوار الشلال ثم تفك دثارها وتعطيه نهديها، ترفعهما لأعلى صوبه. الأطفال كانوا يثرثرون بصوت عال. بعض النساء وقفن على مقربة يتهامسن، وأذرعهن معقودة. ظل الأب يسأل السيد أن يأخذ بعض جوز الكولا، نبيذ النخيل، مقعدًا ليجلس، بعض الماء، وظل السيد يقول لا، لا، لا. ود آجوو أن يسكت أبوه. مشى قرب الكوخ ونظر للداخل. التقت عيناه بعيني أمه في الضوء الخافت. بدت ذابلة.

"آجوو،" قالت. "نو، مرحبًا."

"ديجي،" حيَّاها، ثم ظل صامتا، بينما يراقب عمته تساعدها أن تربط دثارها حول خصرها ثم قادتها للخارج.

كان آجوو على وشك أن يساعد أمه لتركب السيارة حينما قال السيد: "ابتعد أنت يا رجلي الطيب." ساعدها السيد لتركب السيارة، سائلاً إياها أن ترقد على المقعد الخلفي، لكي تتمدد بقدر ما تستطيع.

تمنى آجوو فجأة لو أن السيد لا يلمس أمّه، لأن ملابسها كانت تفوح برائحة الشيخوخة، ولأن السيد لا يعلم أن ظهرها يؤلمها وأن بقع البطاطا الحلوة دائما ما تُخضع الفلاحة الفقيرة وأن صدرها بالفعل كان يشتعل حينما تسعل. ماذا يعلم السيد عن أي شيء على كل حال، إذا كان كل ما يفعله هو الهتاف مع أصدقائه وشرب البراندي في الليل؟

"اطمئنْ، سوف نرسل لك خبرًا بعدما يراها الطبيب،" قال السيد لوالد آجوو، ولعمته قبل أن يمضوا بالسيارة.

منع آجوو نفسه من استراق النظر إلى أمه بالخلف، فتح زجاج السيارة حتى يخبط الهواء المندفع عالي الصوت أذنيه فيلهيه. حينما أخيرًا استدار لينظر إليها، قبل أن يصلوا حرم الجامعة، توقف قلبه على مشهد عينيها المغلقتين، شفتيها الرخوتين. لكن صدرها كان يعلو ويهبط. كانت تتنفس. تنهد ببطء وراح يفكر في تلك الأمسيات الباردة حينما ظلت تسعل وتسعل، بينما وقف هو ملتصقًا بحوائط الكوخ الصلبة، يستمع لوالده وتشيوكي يسألها أن تشرب الخليط.

فتحت أولانا الباب، مرتدية المريلة التي عليها بقعة زيت في صدرها. مريلته. قبّلت السيد. "سألت باتيل أن يأتي،" قالت، ثم استدارت نحو أم آجوو. "ماما، كيدو؟"

"أنا بخير،" همست أمه. رمقت الغرفة وبدت منكمشة لمرأى الأرائك، والجراموفون، والستائر.

"سآخذها للداخل،" قالت أولانا. "من فضلك يا آجوو انْهِ ما بالمطبخ وجهز المائدة."

"حاضر يا ماه."

في المطبخ، قلّب آجوو وعاء حساء الفلفل. دوامات الزيت على سطحها، والتوابل الحريفة السابحة فيها، داعبت أنفه، وقطع اللحم تطفو من جانب إلى جانب. لكنه لم يلحظ شيئًا من هذا.

كان يجتهد ليسمع شيئًا. كان منذ وقت طويل، طويل جدًّا ــ منذ أن أخذت أولانا أمه وانضم إليهما د.باتيل. الفلفل جعل عينيه تدمعان. تذكر آخر مرة حين مرضت بالسعال، وصرخت لأنها لم تعد تشعر بساقيها وسألها ديبيا أن تخبر الأرواح الشريرة أن تتركها لحالها. "اخبريهم أنه لم يحن وقتك بعد! *جوا ها كيتا*! خبريهم الآن!" كان ديبيا يحثّها.

"آجوو!" ناداه السيد. كان الضيوف قد حضروا. دخل آجوو قاعة الطعام وكانت يداه تعملان بميكانيكية، يقدم جوز الكولا وفلفل التمساح، يفتح القوارير، يجرف قطع الثلج، يضع أواني حساء الفلفل الساخن. بعد ذلك، جلس في المطبخ وجذب ظفر قدمه وراح يتخيل الذي يجري في غرفة النوم. كان بوسعه أن يسمع صوت السيد من قاعة المعيشة. "لا أحد يقول إن صفات تلك الحكومة اللعينة جيدة، لكن إرسال الجيش ليقتل باسم النظام؟ إن شعب التيف يقعون موتى من أجل لا شيء. لا شيء! إن باليوا فقد عقله!"

لم يعرف آجوو من يكون شعب التيف، لكن سماعه كلمة موتى جعله يرتعد. "لم يحن وقتك،" همس. "ليس وقتك."

"آجوو؟" كانت أولانا عند باب المطبخ.

"طار من فوق المقعد. "ماه؟ ماه؟"

"يجب ألا تقلق عليها. د.باتيل يقول إنها عدوى وسوف تكون بخير."

"أوه!" ارتاح آجوو كثيرًا وخاف أن يطير بعيدًا إذا رافع ساقًا واحدة، "شكرًا لك ماه!"

"ضع بقية الحساء في الثلاجة."

"حاضر يا ماه." رآها آجوو وهي تعود لغرفة المعيشة. تلألأ التطريز على فستانها الضيق وبدت لوهلة مثل جنيّة انبثقت من البحر.

كان الضيوف يضحكون الآن. تلصص آجوو على قاعة المعيشة. كثير منهم لم يعد معتدلاً في جلسته بل مائلون على مقاعدهم، مرحون من الخمر، منهكون من الأفكار. توشك الأمسية أن تنتهي. تلطّف النقاش بالحوار حول التنس والموسيقى؛ ثم بدأوا ينهضون ويقهقهون عاليًا لأشياء غير مضحكة، مثل أن الباب الخارجي لا يفتح وأن خفافيش الليل تطير منخفضة جدًّا. انتظر لتذهب أولانا إلى الحمام والسيد لمكتبه قبل أن يذهب لرؤية أمه، نائمة، ضئيلة مثل طفل في الفراش.

كانت عيناها متألقة في الصباح التالي. "أنا بخير،" قالت. "الدواء الذي أعطانيه الطبيب ممتاز جدًّا. لكن الذي سيقتلني هو الرائحة."

"أية رائحة؟"

"في أفواههم. شممتها حين جاءت سيدتك وسيدك ليراني هذا الصباح وأيضًا حين ذهبت لأريح نفسي."

"أوه. هذا معجون الأسنان. نحن نستعمله لننظف أسناننا." شعر آجوو بالفخر وهو يقول نحن، وبذا تعرف أمه أنه أيضًا يستعمله.

لكنها لم تبد أنها اهتمت، بل مدت أصابعها والتقطت عصا المضغ خاصتها. "وما الخطأ في استخدام *آتو* جيد؟ تلك الرائحة تشعرني بالغثيان. إذا ما مكثت هنا وقتًا أطول لن أقدر أن أحتفظ بطعام في معدتي بسبب تلك الرائحة."

بدت مهتمة، رغم ذلك، حينما أخبرها آجوو أنه سوف يقيم في مأوى الأولاد. بدا هذا كأنه يُمنح بيتٌ خاص، مستقل، كله له. سألته أن يصف لها مأوى الأولاد، ذهلت أنه أكبر من كوخها، وفيما بعد أصرّت أنها غدت متعافية بما يكفي لتساعد في المطبخ. شاهدها وهي تنحني لتمسح الأرض وتذكر كيف كانت تلكز مؤخرة آنيوليكا حين لا تنحني جيدًّا للمسح. "هل أكلت عش الغراب؟ امسحي مثل امرأة! كانت تقول، وكانت آنيوليكا تتذمر قائلة إن المقشة قصيرة جدًّا وليست غلطتها أن الناس بخلاء جدًّا لئلا يشتروا مكنسة أطول. تمنى آجوو فجأة أن تكون آنيوليكا هنا، وكذلك كل الأطفال الصغار، وزوجات أوميوننا النمّامات. تمنى أن تكون كل القرية هنا لكي يشاركهم جلسات السمر تحت ضوء القمر ومعاركهم لكن مع العيش في بيت السيد حيث الماء الجاري من الصنبور وحيث الثلاجة والموقد.

"سوف أعود إلى البيت غدًا،" قالت أمه.

"يجب أن تبقي بعض الأيام وتستريحي."

"سأذهب غدًا. سوف أشكر سيدك وسيدتك حينما يعودان وأخبرهما أنه حان أن أعود. علّ ما فعلاه معي يعود عليهما بالخير."

في الصباح مشى معها آجوو حتى نهاية شارع أوديم. لم يرها من قبل تسير بهذه السرعة، حتى وهي تحمل الحزمتيْن بتوازن فوق رأسها، لم ير وجهها من قبل خاليًا من التجاعيد.

"ابق بخير يا ولدي،" قالت، وزجّت في يده عصا سواك.

في اليوم الذي وصلت فيه والدة السيد من القرية، طبخ آجوو أرزًّا بالفلفل. مزج الأرز الأبيض مع صوص الطماطم، تذوقه، ثم غطاه وهدّأ النار. وخرج. كان جومو قد سند معوله إلى الحائط وجلس على الدرج يأكل المانجو.

"هذا الذي تطبخه له رائحة طيبة،" قال جومو.

"هذا لوالدة سيدي، أرز جولوف مع الدجاج المقلي."

"كان يجب أن أعطيك بعض اللحم الذي معي. سوف تجدها أفضل من الدجاج." أشار جومو إلى الحقيبة المربوطة خلف دراجته. عرض على آجوو الحيوان الصغير ذا الفراء الملفوف بورق الشجر الطازج.

"ليس بوسعي أن أطبخ لحم الشجر هنا!" قال آجوو بالإنجليزية وهو يضحك.

استدار جومو لينظر إليه. "*ديانيا*، تتكلم الآن الإنجليزية تمامًا مثل أطفال المدرسين."

أومأ آجوو، وهو مسرور لسماع تلك المجاملة، وأكثر سعادة لأن جومو لن يخمن أبدًا أن هؤلاء الأطفال ببشرتهم المشبعة بالكريم وإنجليزيتهم السهلة، يكتمون ضحكاتهم حين يسأله مستر أوجيوكي سؤالاً بسبب طريقة نطقه، لشدّ ما كانت لكنته ثقيلة.

"يجب أن يأتي هاريسون ليسمع إنجليزية جيدة من شخص لا يتفاخر بها،" قال جومو. "إنه يظن أنه يعرف كل شيء لمجرد أنه يعيش مع رجل أبيض. *أوني نزوزو*! رجل غبي!"

"رجل شديد الغباء!" قال آجوو. كان يمثل ذلك الحماس حينما اتفق مع هاريسون الأسبوع الماضي على أن جومو أحمق.

"بالأمس أغلق هذا الجدي الصهريج ورفض إعطائي المفتاح،" قال جومو. "قال إنني أبذّر في الماء. هل هو ماؤه؟ والآن لو أن الزرع مات، بمَ سأخبر السيد ريتشارد؟"

"هذا سيء." طقطق آجوو أصابعه ليريه كم الأمر سيء. العراك الأخير بين الرجلين حدث حين أخفى هاريسون آلة جزّ العشب ورفض إخبار جومو عن مكانها حتى يعيد جومو غسيل قميص مستر ريتشارد، الذي كان قد تلوث بمخلفات الطيور. لقد كانت زهور جومو عديمة الفائدة هي التي جذبت الطيور. كان آجوو يدعم الرجلين. أخبر جومو أن هاريسون مخطئ لإخفائه آلة الجز، وفيما بعد أخبر هاريسون أن جومو مخطئ لزراعته الزهور هناك في المدخل، وهو يعلم أنها تجذب الطير. كان آجوو يفضل أسلوب جومو المهيب وحكاياه الزائفة، لكن هاريسون، بإنجليزيته البدائية الرديئة، كان مليئًا بالمعرفة الغامضة عن أشياء أجنبية ومختلفة. ود آجوو أن يتعلم تلك الأشياء، لذلك ربّى صداقته بالرجلين معًا؛ أصبح لهما كالإسفنج، يمتص الكثير ولا يسرّب إلا القليل.

"يومًا ما سوف أجرح هاريسون جرحًا بالغًا، *ماكا تشوكوا*،" قال جومو. كان قد نثر بذور المانجو، امتص لب البرتقالة حتى غدت بيضاء. "شخص ما يدق الباب الرئيسي."

"أوه، لقد جاءت! لابد أنها والدة سيدي." اندفع آجوو للداخل، بالكاد سمع جومو يقول إلى اللقاء.

أم السيد كانت لها ذات البنية المربوعة، والبشرة الداكنة، والطاقة المتأججة مثل ابنها؛ بدت كأنما لن تحتاج خدمة أبدًا لحمل دورق مائها أو تقليب خشب المدفأة. اندهش آجوو لمرأى المرأة الشابة بعينيها المسدلتين جوارها، تحمل الحقائب. قد توقع أن تأتي وحدها. وأمل أن تأتي متأخرةً قليلاً، أيضًا، ريثما يُعمل الأرز.

"مرحبًا، ماما، ننو،" قال. أخذ الحقائب من الشابة. "مرحبًا يا عمة، ننو."

"هل أنت المدعو آجوو؟ كيف حالك؟" قالت والدة السيد، وهي تربت على كتفه.

"بخير يا ماما. هل كانت رحلتك طيبة؟"

"نعم. تشوكوا *دو آني*. قد أرشدنا الله." كانت تنظر إلى الجراموفون. دثارها الأخضر كان معلّقًا بقوة من خصرها وجعل مؤخرتها تبدو مربعة الشكل. لم تلبسه كعادة نساء الجامعة،

اللواتي اعتدن على وضع خرز من المرجان وأقراط ذهبية. كانت تلبسه بالطريقة التي تخيل آجوو أن أمه قد تلبسه بها إن كان لديها رداء مثله: كأنما لم تظن أنها لم تعد فقيرة.

"كيف حالك يا آجوو؟" سألته مجدَّدًا.

"بخير ماما."

"أخبرني ابني كيف تقوم بعملك جيدًا." مدت يدها لتصلح وضع غطاء رأسها الأخضر، المنخفض على رأسها، تقريبًا يغطي حاجبيها.

"نعم يا ماما." نظر آجوو للأرض تواضعًا.

"باركَ الله فيك، الربُّ سوف يحطم العقبات في طريقك. هل تسمعني؟" بدا صوتها مثل السيد، تلك النبرة المزمجرة المتعالية.

"أجل ماما."

"متى يعود ابني؟"

"سوف يعودان في المساء. قالا إنك يجب أن ترتاحي، يا ماما، حينما تأتين. أطبخُ أرزًّا ودجاجًا."

"أرتاح؟" ابتسمت ودخلت المطبخ. شاهدها آجوو تُخرج أطعمةً من حقيبة: سمك مجفف وبطاطا حلوة وتوابل وخبز مر. "ألم آتِ من المزرعة؟ سألتْ. "تلك راحتي. لقد أحضرت بعض المكونات لأحضر حساءً طيبًا لابني. أعرف أنك تجتهد، لكنك لست إلا صبيًّا. وماذا يعرف الصبيُّ عن الطهو الحقيقي؟" ابتسمت بتكلف والتفتت للمرأة الأصغر، التي كانت تقف جوار الباب، طاوية ذراعيها وعيناها مازالتا مسدلتين، كأنما تنتظر الأوامر. "أليس كذلك يا آمالا؟ هل ينتمي صبيٌّ إلى المطبخ؟"

"*كبا*، ماما، كلا،" قالت آمالا. كان لها صوت عالي النبرة.

"أترى آجوو؟ الصبيّ لا ينتمي للمطبخ." قالت أمُّ السيد منتصرةً. كانت تقف جوار الطاولة، وقد انتهت من تقطيع بعض السمك المجفف، واستخرجت العظام الإبرية.

"نعم، ماما." كان آجوو مندهشًا من أنها لم تطلب كأسًا من الماء أو دخلت لتغير ملابسها أولاً. جلس على المقعد منتظرًا أن تخبره بما يفعل. كان هذا ما تريد، بوسعه أن يرى ذلك. كانت تتأمل المطبخ الآن. أمعنت النظر إلى الموقد بفضول، دقت على حلة البخار، نقرت الأواني بإصبعها.

"إيه! ابني يصرف ماله على هذه الأشياء الغالية،" قالت. "ألا ترين يا آمالا؟"

"نعم يا ماما،" قالت آمالا.

"هذه الأشياء تخص سيدتي يا ماما. أحضرت بعض الأشياء من لاجوس،" قال آجوو. لقد أزعجه: افتراضُها أن كل شيء يخص السيد، وإعطاؤها الأوامر في مطبخه، وإغفالها أرز الجولي المتقن بالدجاج الذي صنعه.

لم ترد أمُّ السيد. "آمالا، تعالي وجهزي البطاطا الحلوة،" قالت.

"حاضر ماما." وضعت آمالا البطاطا في الوعاء ثم راحت تنظر مسلوبة الإرادة إلى الموقد.

"آجوو، هدئ النار لها. نحن أبناء القرية لا نعرف إلا نار الخشب!" قالت أم السيد، وهي تضحك.

لم يضحك لا آجوو ولا آمالا. أشعل آجوو الموقد. ألقت الأم قطعة من السمك المجفف في فمه. "ضع بعض الماء ليغلي يا آجوو، ثم قطّع أوراق الأوجو للحساء."

"حاضر يا ماما."

"هل توجد سكين حادة في هذا البيت؟"

"نعم يا ماما."

"استعملها وشرّح الأوجو جيدًا."

"حاضر يا ماما."

جهز آجوو طاولة التقطيع. كان يعلم أنها تراقبه. حينما بدأ في تشريح أوراق القرع الليفية، راحت تعوي: "أوه! أوه! هل هكذا تقطع الأوجو؟ *آلو ميلو*! اجعلهم أصغر! بالطريقة التي تصنعها، نحتاج أن نصنع الحساء بالأوراق كلها."

"حاضر يا ماما." بدأ آجوو في تقطيع الأوراق لشرائح أنحف حتى أنها ستتكسر في الحساء.

"هذا أفضل،" قالت. "كما ترى فالأولاد لا عمل لهم في المطابخ. لا تعرف حتى كيف تقطع الأوجو جيدًا."

ود آجوو أن يقول: بالطبع أقطع الأوجو جيدًا. أنا أصنع العديد من الأشياء في المطبخ أفضل مما تصنعينها أنت، لكنه بدل ذلك قال: "سيدتي وأنا لا نقطع الخضروات، نمزقها بأيدينا لأن الأملاح المعدنية تخرج أفضل هكذا."

"سيدتك؟" توقفت أم السيد. بدت كأنما تريد أن تقول شيئًا لكنها أحجمت. البخار المتصاعد من الإناء ينطلق في الهواء. أرِ آمالا الهاون كي تسحق البطاطا،" قالت أخيرًا.

"حاضر يا ماما." دحرج آجوو الهاون الخشبي من تحت المنضدة وكان يرفعه حينما دخلت أولانا البيت. ظهرت عند باب المطبخ؛ فستانها محبوك عليها بأناقة، ووجهها الباسم مليء بالضياء.

"ماما!" قالت. "مرحبًا، ننو. أنا أولانا. هل أنت بخير؟" اقتربت واحتضنت أم السيد. بسطت ذراعيها حول السيدة العجوز وضمتها بقوة لكن والدة السيد أبقت يديها إلى جانبها ولم تحتضن أولانا بالمقابل.

"نعم، رحلتنا كانت مريحة،" قالت.

"مساء الخير،" قالت آمالا.

"مرحبا." عانقت أولانا آمالا سريعا قبل أن تلتفت لأم السيد. "هل هذه قريبة أودينيبو من البلدة يا ماما؟"

"آمالا تساعدني في أعمال البيت،" قالت الأم. وكانت قد أولت ظهرها لأولانا وبدأت تقلّب الحساء.

"تعالي يا ماما، دعينا نجلس. *بيا نودو آنا*. لا تشغلي بالك بالمطبخ. يجب ن ترتاحي. دعي آجوو يفعل ذلك."

"أود أن أطبخ حساءً مناسبًا لابني."

مرّت برهةُ صمت قبل أن تقول أولانا: "بالطبع يا ماما." كانت لكنتها قد تحولت إلى اللكنة التي يسمعها آجوو في حديث السيد حينما يزوره أبناء عمومته. مشت عبر المطبخ كأنما تود أن تفعل شيئًا يسرّ أم السيد لكنها لم تكن تعرف ماذا تفعل. كشفت غطاء الأرز ثم وضعته. "على الأقل دعيني أساعدك يا ماما. سأذهب لأغير ملابسي."

"سمعت أنك لم ترضعي من ثدي أمك،" قالت والدة السيد.

توقف أولانا. "ماذا؟"

"يقولون إنك لم ترضعي من ثدي أمك." استدارت الأم لتنظر إلى أولانا. "من فضلك اذهبي واخبري هؤلاء الذين أرسلوك أنك لم تجدي ابني. اخبري زملائك السحرة أنك لم تريه."

حدّقت أولانا فيها. ارتفع صوت والدة السيد، كأنما صمت أولانا قد دفعها للصراخ. "هل تسمعينني؟ اخبريهم أنْ ليس من دواء يصنعه أحدهم سوف يأتي بنتيجة مع ابني. لن يتزوج امرأةً غير طبيعية، إلا أن تقتليني أولاً. فقط فوق جثتي!" صفقت الأم بيديها، ثم راحت تتعب وتخبط فمها بيدها كي يعمل صوتها صدى.

"ماما-" قالت أولانا.

"لا تناديني ماما،" قالت والدة السيد. "قلت لك لا تناديني ماما. فقط اتركي ابني. اخبري رفقاءك السحرة أنك لم تجديه!" فتحت الباب الخارجي وخرجت تصرخ. "أيها الجيران! توجد ساحرة ببيت ابني! يا جيران!" كان صوتها ثاقبًا. أراد آجوو أن يُسكتها، أن يدس شريحة خضار في فمها. كان الحساء يحترق.

"ماه؟ هلا بقيتِ في غرفتك؟" سألها، وهو يتحرك صوب أولانا.

بدت أولانا متمالكة نفسها. دفعت ضفيرة خلف أذنها، التقطت حقيبتها من فوق الطاولة، واتجهت صوب الباب الرئيسي. "اخبرْ سيدك أنني ذهبتُ على شقتي،" قالت.

تبعها آجوو وشاهدها وهي تدخل سيارتها وتنطلق بعيدًا. لم تلوّح له. كان الفناء ساكنًا؛ ليس من فراشات تحوّم حول الزهور البيضاء. عاد إلى المطبخ، واندهش أن سمع أم السيد تغني برقّة لحنًا كنائسيًّا: *نيا نيا أويا مو جا-آنا. نا م ميتو أوني أيو يا آكا...*

توقفت عن الغناء ونحنحت حلقها. "أين ذهبت تلك المرأة."

"لا أعرف ماما،" قال آجوو. مشى نحو الحوض وبدأ يرص الصحون النظيفة في الخزانة. كره النكهة القوية جدًّا بحسائها التي تملأ المطبخ؛ أول شيء سيفعله بعدما ترحل هو غسيل كل الستائر لأن الروائح سوف تلتصق بها.

"لهذا أتيتُ. قالوا إنها مسيطرة على ابني،" قالت الأم وهي تقلب الحساء. "لا عجب أن ابني لم يتزوج بينما زملاؤه يحصون كم طفلاً لديهم. لقد استخدمت سحرها لتربطه. سمعت أن أباها جاء من عائلة من المتسولين الكسالى في أوموناتشي حتى حصل على وظيفة جامع ضرائب وبدأ يسرق من الكادحين. الآن افتتح العديد من الأعمال ويتجول عبر لاجوس بوصفه رجلاً مهمًّا. أمه لم تكن أفضل منه. أي نوع من النساء تلك التي تحضر امرأة أخرى لترضع أطفالها بينما هي حيّة وبصحة؟ هل هذا طبيعي، جبو، آمالا؟"

"كلا يا ماما." ركزت آمالا عينيها على الأرض كأنما كانت تتبّع آثارًا عليها.

"سمعت أنها كانت تكبر بينما الخدم هم من يمسحونها بعدما تتبرز. وفوق هذا أرسلها أبواها للجامعة. لماذا؟ التعليم الكثير يهدم المرأة؛ كل واحد يعرف ذلك. إنه يعطي للمرأة رأسًا كبيرًا لتبدأ في إهانة زوجها. أي نوع من الزوجات تكون تلك؟" رفعت والدة السيد طرف ثوبها لتمسح عرقها من على جبهتها. "تلك البنات اللواتي يذهبن إلى الجامعة يتبعن الرجال حتى تفسد أجسادهن. لا أحد يعرف إن كانت ستنجب أطفالاً. هل تعرفين؟ هل يعرف أي أحد؟"

"كلا يا ماما،" قالت آمالا.

"هل يعرف أي أحد يا آجوو؟"

وضع آجوو صحنًا بضجيج وتظاهر بأنه لم يسمعها. جاءت إليه وربتت كتفه.

"لا تقلق، سوف يجد ابني سيدة جيدة ولن يرسلك بعيدًا حينما يتزوج."

ربما موافقة امرأة كهذه قد تجعلها تفرغ شحنتها أسرع ثم تغلق فمها. "نعم يا ماما،" قال.

"أعلم كم يتعب ابني في العمل ليصل إلى ما هو فيه. لن يضيع هذا مع امرأة منحلّة."

"لا، يا ماما."

"لا أعبأ من أين تأتي المرأة التي ستتزوج ابني.. أنا لست مثل تلك الأمهات اللواتي يردن أن يخترن زوجات أبنائهن من قريتهن الصغيرة. لكنني لا أريد امرأة *واوا*، ولا واحدة من تلك النساء آرو أو إيمو، بالطبع؛ لكنتهن غريبة جدًّا، أتعجب مَن اخبرهن أننا جميعًا من نفس شعب الإيبو."

"نعم يا ماما."

"لن أترك هذه الساحرة تسيطر على ابني. لن تنجح. سوف أستشير ديبيا نوافور أغادا حينما أعود البلدة؛ دواء ذلك الرجل شهير في مناطقنا."

توقف آجوو. كان يعرف العديد من الحكايات عن أناس استخدموا أدوية من ديبيا: الزوجة الأولى التي لا تنجب التي ربطت رحم الزوجة الثانية، المرأة التي جعلت ابن جارتها الناجح مجنونًا، الرجل الذي قتل أخاه بسبب عراك على قطعة أرض. ربما سترتبط والدة السيدة رحم أولانا أو تجعلها كسيحة، أو ربما الأكثر رعبًا ستقتلها.

"سوف أرجع ماما. سيدي قد أرسلني إلى كشك في الشارع،" قال آجوو ثم أسرع خارجًا من الباب الخلفي قبل أن تقول أي شيء. كان يجب أن يخبر السيد. ذهب إلى مكتب السيد مرة واحدة، أقلَّته سيارةُ أولانا حينما توقفت لتأخذ شيئًا، لكنه كان واثقًا أنه لن يعرف المكتب. هو جوار حديقة الحيوان وكان فصله قد زار الحديقة مؤخرًا، مشوا في طابور واحد يقوده مستر أوجيوكي، وكان هو في آخر الطابور لأنه الأطول.

عند منعطف شارع مبانيفو، رأي سيارة السيد آتية صوبه. توقفت.

"ليس هذا طريق السوق، أليس كذلك يا رجلي الطيب؟ سأل السيد.

"لا يا صاح، كنت آتيًا لمكتبك."

"هل وصلت أمي؟"

"أجل يا صاح. صاح، شيء حدث."

"ماذا؟"

أخبره آجوو عما حدث في الظهيرة، بسرعة، ساردًا كلمات المرأتين، ثم أنهى كلامه بالشيء الأفظع: "قالت ماما إنها سوف تذهب إلى ديبيا يا صاح."

"ما هذا السخف،" قال السيد. "*نجوا*، اركب السيارة. سوف تعود إلى البيت معي."

صُدم آجوو أن السيد لم يُصدم، لم يدرك ثِقل الموقف، ولذلك أضاف: "لقد كان الأمر سيئًا جدًّا يا صاح. سيءٌ جدًّا. ماما تقريبًا صفعت السيدة."

"ماذا؟ صفعت أولانا؟" سأل السيد.

"كلا يا صاح." توقف آجوو؛ ربما ذهب بعيدًا باقتراحاته. "لكنها بدت كأنما تريد أن تصفع سيدتي."

انبسط وجه السيد. "لم تكن المرأة أبدًا منطقية، في أي مستوى،" قال، بالإنجليزية، وهو يهز رأسه. "اركبْ، هيا نذهب."

لكن آجوو لم يرد أن يركب السيارة. كان يريد أن يستدير السيد نحو شقة أولانا الآن فورًا. لقد انتظمت حياته، أَمِنت، ووالدة السيد يجب أن تتوقف عن لخبطة الأمور؛ الخطوة الأولى هي أن يذهب السيد ويسترضي أولانا.

"اركب السيارة،" قال السيد ثانيةً، وهو يمد يده عبر السيارة ليتأكد أن الباب ليس مقفلاً.

"لكن يا صاح، ظننت أنك ستذهب لرؤية سيدتي."

"اركب أيها الجاهل!"

فتح آجوو الباب وقفز داخلاً، وقاد السيد في اتجاه شارع أوديم.

(5)

نظرت أولانا إلى أودينيبو عبر الزجاج لبرهة قبل أن تفتحَ الباب. أغمضتْ عينيها وهو يدخل، كأنما بذلك تُخفي البهجةَ التي دائما ما يسببها عطرُ أولد سبايس الذي يضعه. كان يرتدي ملابس التنس، الشورت الأبيض الذي كانت دائما تغيظه بأنه ضيق جدًّا على ردفيه.

"كنتُ أتكلم مع أمي وإلا لأتيتُ مبكرا،" قال. ألصق شفتيه بشفتيها وأومأ لملابسها قائلا: "ألن تأتي للنادي؟"

"كنت أطبخ."

أخبرني آجوو بما حدث. أنا آسف جدًّا لأن أمي تصرفتْ معكِ على هذا النحو."

"كان عليَّ أن أرحل... من بيتك." ترنَّحت أولانا. كانت تود أن تقول من *بيتنا*.

"لم يكن عليك ذلك، نكيم. كان يجب أن تتجاهليها." وضع نسخة من مجلة درام على المنضدة وراح يتجول في الغرفة. "قررتُ أن أتحدث إلى د. أوكورو حول إضراب العمّال. من غير المقبول أن يرفض باليوا وندماؤه مطالبهم. غير مقبول نهائيًّا. يجب أن نبدي مساندتنا. يجب ألا نسمح لأنفسنا أن نكون منفصلين."

"والدتك صنعت مشهدًا."

"أنتِ غاضبة." بدا أودينيبو حائرًا. جلس على المقعد ذي المُتكئين، ولأول مرة تلاحظُ المسافات الواسعة بين الأثاث، كم هي شقَّتُها مترامية، كم هي غير مأهولة. أشياؤها كانت في بيته؛ كتبُها المفضلة كانت على أرفف مكتبته. "نكيم، لم أكن أعرف أنكِ ستأخذين الأمر بهذه الجدية. بوسعك أن تري أن أمي لا تعرف ماذا تفعل. ليست إلا امرأةً قروية. تحاول أن تصنع طريقها في عالم جديد بمهارات تناسب سيدة عجوز." نهض أودينيبو واقترب ليأخذها بين ذراعيه، لكن أولانا استدارات ودخلت المطبخ.

"أنتَ لم تتكلم أبدًا عن أمك،" قالت. "لم تطلب مني أبدًا أن آتي إلى آبا معك لزيارتها."

"أوه، توقفي عن هذا نكيم. لكيلا يبدو الأمر أنني أذهب كثيرًا لرؤيتها، ثم أنني سألتك في المرة الماضية لكنك كنت ذاهبةً إلى لاجوس."

مشت صوب الموقد ومررت قطعة إسفنج على السطح الدافئ، مرَّةً ومرة، ظهرهُا إلى أودينيبو. شعرت أنها على نحو ما قد خذلته وخذلت نفسها بأن سمحت لسلوك أمه أن يحبطها. يجب أن تعلو عليه؛ يجب أن تستّخف به بوصفه صادرًا عن امرأة قروية؛ يجب ألا تظلَّ تفكرُ في الكلام الذي كان يجب أن تردَّ به بدلاً من أن تقف خرساءَ في ذلك المطبخ. لكنها كانت محبطة، وزادها إحباطًا تعبيرُ أودينيبو، كأنما لا يصدق أنها لم تكن واسعةَ العقل كما ينبغي وكما كان يظن. جعلها ترى نفسها صغيرةً ونكدية، والأسوأ أنها تشك أنه على حق. دائمًا ما تشك أنه على حق. لوهلة قصيرة تمنت لو تستطيع الابتعاد عنه. ثم تمنت أكثر أن تحبَّه دون أن تحتاجَ إليه. الاحتياجُ إليه يعطيه قوةً دون أن يبذلَ جهدًا؛ الاحتياجُ كان لا إراديًّا منها وهو ما تشعر به تجاهه.

"ماذا تطبخين؟" سأل أودينيبو.

"أرز." رفعت الإسفنجة وطرحتها جانبًا. "ألن تذهبَ للعب التنس؟"

"فكّرتُ أنكِ ربما تودين الذهاب."

"ليس لديّ رغبةٌ." دارت أولانا. "لماذا ترى سلوكَ والدتك مقبولاً مادامت قروية؟ أنا أعرفُ قرويات لا يتصرفن هكذا."

"نكيم، حياة أمي كلها كانت في آبا. هل تعرفين ماذا تعني قريةٌ صغيرة مثل تلك؟ لابد أن تشعر بالتهديد من امرأة متعلمة تعيش مع ابنها. لابد أن تصبحي ساحرةً. تلك هي الطريقة الوحيدة التي بوسعها أن تفهمها. المأساةُ الحقيقية لعالم مستعمَر هي أن الغالبية العظمي من الناس لا يقولون ما إذا كانوا أو لم يكونوا يرغبون في هذا العالم الجديد؛ والأهم هو أن تلك الغالبية لم يُعطوا الأدوات ليفاوضوا هذا العالم الجديد."

"هل تكلمتَ معها بهذا الشأن؟"

"لم تُتَح الفرصةُ. اسمعي، أريد أن ألحق بالدكتور أوكورو في النادي. لنناقش هذا حينما أعود. سوف أبيت هنا الليلة."

توقفت وهي تغسل يديها. ودت لو يطلب منها الذهاب معه إلى بيته، ودت لو عاتب أمَّه أمامَها، من أجلِها. لكن ها هو قرر أن يبقى في شقتها، مثل ولد مرتعب يختبئ من أمه.

"لا،" قالت.

"ماذا؟"

"قلتُ لا." دخلت غرفة المعيشة دون أن تجفف يديها. بدت الشقةُ صغيرة جدًّا.

"ماذا دهاكِ يا أولانا؟"

هزت رأسها. لن تدعه يجعلها تشعر أن ثمة خطأ بها. من حقها أن تكون محبطة، من حقها أن تختار ألا تُتجاهل إهانتُها تحت دعوى الثقافة الرفيعة، وسوف تمارس حقَّها ذاك. "اذهبْ،" أومأت إلى الباب. "اذهبْ والعبْ تنس ولا تأتِ هنا أبدًا."

رأته ينهض ويمضي. صفق الباب بقوة. لم يتعاركا أبدًا؛ لم يفقد صبره أبدًا إزاء اعتراضها أن يكون مع الآخرين. أو ربما الحكاية ببساطة أنه لم يأخذها أبدًا بمأخذ الجد ولم يفكر كثيرا في آرائها. أصابها الدوارُ. جلست وحيدة إلى طاولة طعامها العارية- حتى مفرش مائدتها كانت في بيته- وأكلت الأرز. كان بلا طعم، ليس مثل أرز آجوو. أدارت الراديو. هُيئ لها أنها تسمع خشخشة في السقف. قررت أن تصعد لتزور جارتها إدنا وولر؛ ودت دائمًا أن تتعرف على تلك الأمريكية السوداء الجميلة التي أحيانًا ما أهدتها أطباق البسكويت الأمريكيّ المغلفة بالقماش. لكنها غيرت رأيها عند الباب ولم تخرج. بعدما تركت الأرز المأكول نصفه في المطبخ، تجولت في الشقة، تلتقط الجرائد القديمة ثم تضعها ثانية. أخيرًا راحت للتليفون وانتظرت أن ترد عاملة الهاتف.

"بسرعة أعطيني الرقم، لدي ما أعمله،" قال الصوتُ الكسول الأخنف.

كانت أولانا معتادة على موظفي الهاتف الحمقى غير المهنيين، لكن هذه كانت الأكثر وقاحة على الإطلاق.

"*هابا*، سوف أقطع الخط إذا استمررت في إضاعة وقتي،" قالت الموظفة.

تنهدت أولانا وسردت ببطء رقم كاينين.

بدت كاينين نائمةً حينما رفعت السماعة.

"أولانا، هل حدث شيء؟"

شعرت أولانا بدفقة من الحزن؛ توأمتها تفكر أن شيئًا لابد قد حدث لأنها هاتفتها. "لم يحدث شيء. وددت فقط أن أقول كيدو، لأعرف كيف حالك."

"يا للصدمة." تثاءبت كاينين. "كيف نسوكا؟ كيف حال حبيبك الثوريّ؟"

"أودينيبو بخير. نسوكا بخير."

"ريتشارد مأخوذٌ بها. ويبدو أنه حتى مأخوذ بالثوريّ خاصة."

"لابد أن تأتي للزيارة."

"ريتشارد وأنا نفضل أن نلتقي هنا في بورت هاركورت. ذلك الصندوق الصغير الذي أعطوه له بوصفه منزلاً ليس مناسبًا."

أرادت أولانا أن توضح لكاينين أنها كانت تعني أن تزورها هي، هي وأودينيبو. لكن كاينين بالطبع فهمت ما تعني، على أنها اختارت أن تسيء الفهم.

"سأذهب إلى لندن الشهر القادم، ربما تفكرين أن نذهب معًا." قالت.

"لديّ الكثيرُ لأفعله هنا. ليس لدي إجازات بعد."

"لماذا لم نعد نتكلم يا كاينين؟"
"يا له من سؤال." بدت كاينين مسرورة وتخيلت أولانا ابتسامتها الساخرة تجذب أعلى جانب فمها.
"فقط أود أن أعرف لماذا لم نعد نتكلم،" قالت أولانا. ولم ترد كاينين. طنينٌ منتظم في خط التليفون. كانتا صامتتين حتى شعرت أولانا أن عليها أن تعتذر. "يجب ألا أعطلك،" قالت.
"هل ستحضرين حفل عشاء أبي الأسبوع القادم؟" سألت كاينين.
"لا."
"كان يجب أن أخمن. هذا كثير جدًّا على ثائركِ المتقشف وعليك، أليس كذلك؟"
"يجب ألا أعطلك أكثر،" كررت أولانا ووضعت السماعة. ثم رفعتها ثانية، وكادت تعطي الموظفة رقم أمها لكنها وضعتها من جديد. تمنت أن يكون هناك من تتكئ عليه؛ ثم تمنت أن تكون مختلفة، تكون النوع من الناس الذي لا يحتاج أن يتكئ على أحد، مثل كاينين. جذبت سلك التليفون لتخلعه. أصر والداها أن يركب لها تليفون في شقتها، كأنما لم يسمعا أنها قالت إنها سوف تسكن مع أودينيبو. اعترضت، لكن قليلا، نفس ال "لا" الواهنة التي استقبلت بها ودائعَ البنك المتكررة في حسابها وكذلك السيارة إيمبالا الجديدة ذات الفراش الوثير.
ورغم أنها تعرف أن محمد كان مسافرًا، إلا أنها أعطت رقمه في كانو للموظفة؛ قال الصوت الأخنف: "تتكلمين كثيرًا اليوم!" قبل أن توصلها بالرقم. انتظرت على الخط طويلاً ولا إجابة. صوت الخشخشة يأتي من السقف ثانية. جلست على الأرض الباردة وأمالت رأسها إلى الحائط لترى ما إذا ستصبح أكثر اتزانًا، أقلَّ تصدعًا. زيارةُ أمّ أودينيبو مزقت هوّةً في نسيج أمانها، أفزعتها، انتزعت شيئًا من داخلها. شعرت أنها على بعد خطوة من حيث كان يجب أن تكون. شعرت كأنما تركت لؤلؤها مبعثرًا لأمد طويل وحان الوقت لجمعه ونظمه بدقة من جديد. الفكرة جاءتها ببطء: أرادت أن تحملَ طفلَ أودينيبو. لم يناقشا الأمر من قبل. أخبرته مرة أن ليس لديها هذا الولع الأنثويّ الجنوني بالإنجاب، وأمها تقول إنها غير طبيعية حتى أخبرتها كاينين أنها أيضًا مثلها. ضحك أودينيبو يومها وقال إن الإتيان بطفل في هذا العالم الظالم سلوكٌ بورجوازيٌّ متعجرف. ولم تنس أبدًا هذا التعبير: إنجابُ طفلٍ هو سلوك بورجوازيٌّ متعجرف- يا له من أمر مضحك، يا له ضدٌّ للطبيعة. كأنها لم تفكر من قبل على نحو جديّ أبدًا في إنجاب طفل إلا الآن؛ الحنين في القسم الأسفل من بطنها كان مفاجئًا ومؤلمًا وجديدًا. تريدُ ذلك الثقلَ الصلبَ لطفل، طفله، في جسدها.
رنَّ الجرسُ في ذلك المساء وهي تهمُّ بالخروج من البانيو، فذهبت إلى الباب متدثرة بفوطة. كان أودينيبو حاملا ربطةً من *سيوا* ملفوفةً بورق جرائد؛ كان بوسعها شمُّ التوابل المدخّنة من مكانها.
"أمازلتِ غاضبة؟" سألها.

"نعم."

"البسي وسوف نعود معًا. سوف أتكلم مع أمي."

كانت رائحته براندي. دخل ووضع *سيوا* على المنضدة، لمحت في عينيه الحمراوين تلك الحساسية التي تخبئ نفسَها جيدًا خلف ثقة مفرطة بالنفس. يقدر أن يخاف رغم كل هذا. وضعت وجهها على رقبته وهو يحتضنها وقالت بسرعة: "لا، ليس عليك أن تفعل ذلك. ابقَ هنا."

بعدما رحلت أمه، عادت أولانا إلى بيت أودينيبو. قال آجوو: "معذرة يا ماه" كأنما كان مسئولا عن سلوك الماما. ثم راح يعبث بجيب مريوله ويقول: "رأيتُ قطةً سوداءَ ليلة أمس، بعدما رحلت الماما وآمالا."

"قطةٌ سوداء؟"

"نعم ماه. جوار الجراج." صمت برهةً. "القطةُ السوداء تعني الشر."

"نعم."

"قالت الماما إنها سوف تذهب إلى ديبيا في القرية."

"هل تظن أن ديبيا أرسل لنا القطة السوداء لتعضنا؟" كانت أولانا تضحك.

"لا يا ماه." عقد آجوو ذراعية بيأس. "هذا حدث في قريتي يا ماه. الزوجة الجديدة ذهبت إلى ديبيا وأحضرت دواء لتقتل الزوجة القديمة، وفي الليلة التي سبقت موت الزوجة القديمة جاءت قطة سوداء أمام كوخها."

"وإذن سوف تستخدم الماما دواء ديبيا لتقتلني؟" سألت أولانا.

"هي تريد أن تفرق بينك وبين السيد."

مسّها جلاله. "أنا واثقة أنها قطةُ الجيران يا آجوو، والدة سيدك لن تقدر أن تستخدم أي دواء لتفرق بيننا. لا شيء بوسعه أن يفرق بيننا."

رأته يرجع إلى المطبخ، وهي تفكر فيما قالته. *لا شيء بوسعه أن يفرق بيننا*. لا شكَّ أن دواء أم أودينيبو من ديبيا- والحقيقة كل تلك الشعوذات فوق الطبيعية- لا تعني شيئا لها، لكن القلق عاودها بشأن مستقبلها مع أودينيبو. كان تريد الأمان. تحتاج إلى علامة، إلى قوس قزح، يشير إلى الأمن. كانت قد ارتاحت لاستعادة حياتها السهلة، حياتهما، التدريس والتنس والأصدقاء الذين يملئون قاعة المعيشة. ولأنهم كانوا يأتون في آخر المساء، فقد أدهشها أن الجرس يدق ما بعد ظهر أحد الأيام، بعد أسبوع، حينما كان أودينيبو في المحاضرة. كان ريتشارد.

"مرحبا،" قالت. ودعته للدخول. كان طويلا جدًّا؛ كان عليها أن تلوي رأسها لتنظر إلى وجهه، لترى عينيه الزرقاوين بلون البحر الساكن وشعره الذي يتهدل على جبينه.

"فقط وددت أن أترك هذا لأودينيبو،" قال وهو يناول أولانا كتابًا. كانت تحب طريقته في نطق اسم أودينيبو، ذلك النبر الجاد في الحروف. كان يتجنب عينيها.

"ألن تجلس قليلا؟" سألته.
"أنا متعجل قليلا للأسف. يجب أن ألحق بالقطار."
"ذاهب إلى بورت هاركورت للقاء كاينين؟" تساءلت أولانا لماذا تسأل. كان ذلك واضحًا بما يكفي.
"نعم، أذهب في نهاية كل أسبوع."
"أبلغها سلامي."
"سوف أفعل."
"تكلمتُ إليها الأسبوع الماضي."
"نعم، ذكرت ذلك لي." كان ما يزال واقفًا. رمقها سريعًا ثم نظر بعيدًا، فرأتِ الحمرةَ تتسلل إلى وجهه. كانت قد رأت تلك النظرة عدة مرات ولا تعرف أنه يراها جميلة.
"كيف يمضي كتابك؟" سألته.
"جيد جدًّا. شيء لا يصدق بالفعل، تلك الزخارف جيدة الصنع هي قطع فنية، ومن الواضح أنها كانت مقصودة لتكون فنًّا، لم تكن صدفة أبدًا.... يجب ألا أضجرك."
"لا، أبدًا." ابتسمت أولانا. كانت تحب حياءه. لم تكن تريده أن يمضي بعد. "ألا تريد أن يحضر لك آجوو بعض تشين-تشين؟ إنه رائع؛ صنعه هذا الصباح."
"لا، شكرًا. يجب أن أمضي." لكنه لم يستدر ليمضي. دفع شعره عن وجهه الذي لم يلبث أن سقط من جديد.
"أوكي. حسنٌ، رحلة طيبة."
"شكرا لك." وكان ما يزال واقفًا هناك.
"هل ستقود؟ لا، تذكرت. سوف تأخذ القطار." ضحكتْ ضحكةً خرقاء.
"نعم سوف أستقلُّ القطار."
"رحلة طيبة."
"نعم. حسن إذن."
شاهدته أولانا وهو يمضي، لمدة طويلة حتى غادرت سيارته المجاورة، ظلت واقفة على الباب، تراقب طائرًا بصدر أحمر كالدم، يهبط على العشب.

في الصباح، أيقظها أودينيبو بأن أخذ إصبعها في فمه. فتحت عينيها،؛ كان بوسعها أن ترى ضوء الفجر الدُّخانيّ عبر الستائر.
"لو لا تريدين أن تتزوجيني يا نكيم، إذن هيا ننجب طفلاً،" قال.
كان إصبعها يعوق صوته، لذلك أبعدت يدها وجلست تحدق فيه، صدره العريض، عينيه المنتفختين من النوم، لكي تتأكد أنها سمعت جيدًا.

"هيا ننجبُ طفلاً،" قال ثانية. "بنتٌ صغيرة مثلك تمامًا، وسوف نسميها أوبيانوجو لأنها سوف تكلمنا."

كانت أولانا تريد أن تعطي رائحة زيارة أمه بعض الوقت حتى تتلاشى قبل أن تخبره أنها تريد طفلاً، ولكن ها هو الآن، يخبرها برغبتها قبل أن تقولها. نظرت إليه في حيرة. هذا هو الحب: خيط من المصادفة يجمع الإشارات ليصنع معجزة.

"أو ولدي صغير." قالت أخيرًا.

جذبها أودينيبو لأسفل ورقدا جنبًا إلى جنب، لا يتماسان. كانت تسمع صوت كاو-كاو-كاو المزعج للطيور السوداء التي تأكل النباتات في الحديقة.

"لنقل لآجوو أن يأتينا بالفطور في الفراش،" قال. "أم أن هذا أحدُ آحاد اعترافك؟" كان يبتسم برقة ابتسامة متسامحة، مدت يدها وتتبعت الشعيرات الخفيفة تحت شفته السفلى. كان يحب أن يمازحها حول أنها لا تقوم بالخدمة الاجتماعية الدينية، لأنها تذهب إلى الكنيسة فقط في اجتماعات القديس فينسينت دو بول، حينما تأخذ آجوو معها وتقود عبر الطرق الموحلة جوار القرية لتوزع البطاطا والأرز والملابس القديمة.

"لن أذهب اليوم،" قالت.

"جيد. لأن وراءنا عملا نؤديه."

أغمضت عينيها لأنه كان الآن يباعدُ بين ساقيها وهو يتحرك، ببطء أول الأمر ثم بعنف، همس: "سوف يكون لنا طفلٌ رائع يا نكيم، طفل رائع،" فقالت: "نعم، نعم." وبعد ذلك شعرت بسعادة حينما أدركت أن بعضًا من العرق فوق جسدها كان عرقه، وبعضًا من العرق على جسده كان عرقها. كلَّ مرة، بعدما ينزل من فوقها، كانت تضم ساقيها معًا، تقاطعهما عند كاحليها، ثم تأخذ نفسًا عميقًا، كأنما حركة رئتيها ستُحث عملية الحمل. لكنهما لن ينجبا طفلاً، كانت تعرف. باغتتها الفكرةُ المفاجئة حول جسمها التي من الممكن أن تكون خاطئة، ودثرتها الفكرةُ، بللتها.

(6)

تناول ريتشارد حساءَ الفلفل على مهل. بعدما أخذ بعض قطع الكرشة بالملعقة، رفع الوعاء الزجاجيّ لشفتيه وراح يحتسي الشوربة. سال أنفه، وكان ثمة احتراق لذيذ على لسانه، وكان يعلم أن وجهه أحمر.

"ريتشارد يأكل هذا بكل سهولة،" قال أكيوما، الجالس جواره يراقبه.

"ها! لم أكن أعرف أنا فلفلنا يناسبك يا ريتشارد!" قال أودينيبو، من الناحية الأخرى على المائدة.

"حتى أنا لا أقدر أن أتناول الفلفل،" قال ضيفٌ آخر، غينيّ محاضر في الاقتصاد له اسم دائمًا ما ينساه ريتشارد.

"هذا دليلٌ على أن ريتشارد كان أفريقيا في ماضيه." قالت ميس آديبايو، قبل أن تمسح أنفها في منديل.

ضحك الضيوف. وضحك ريتشارد أيضًا، لكن ليس عاليًا، لأن الكثير من الفلفل كان ما يزال في فمه. مال إلى الوراء في مقعده. "إنه رائع، يطهر الإنسان،" قال.

"قِطع الأصابع جميلة أيضا يا ريتشارد،" قالت أولانا.

"شكرًا كثيرًا أن أحضرتهم." كانت تجلس جوار أودينيبو، ومالت للأمام لكي تبتسم له.

"أعرف أنها أصابع سجق، لكن ما تلك الأشياء؟" كان أودينيبو يشير إلى الصينية التي أحضرها ريتشارد؛ كان هاريسون قد غلف كل شيء بأناقة بورق قصدير فضيّ.

"باذنجان محشو، صح؟" رمقت أولانا ريتشارد.

"نعم، هاريسون لديه كل أنواع الأفكار. يُخرج الحواشي ويملأها بالجبن، على ما أظن، ثم يتبّلها."

"هل تعلم أن الأوربيين يخرجون حواشي المرأة الأفريقية ثم يحشونها ثم يعرضونها في كل أوروبا؟" سأل أودينيبو.

"أودينيبو، نحن نأكل!" قالت الآنسة آديبايو، رغم أنها كانت تكتم ضحكتها.

ضحك بقية الضيوف، إلا أودينيبو. "هو المبدأ نفسه ما يحدث،" قال. "تحشو الطعام، تحشو البشر. إذا لم تحب طعم ما داخل طعام معين، إذًا اتركه في حاله، لا تحشِه بشيء آخر. هذا إهدار للباذنجان في رأيي."

حتى آجوو بدا مسرورًا وهو داخل غرفة الطعام ليرفع الصحون. "مستر ريتشارد، يا صاح؟ هل أضع لك الطعام في الوعاء؟"

"لا، احتفظْ به أو القِه،" قال ريتشارد. هو أبدًا لم يأخذ طعامًا فائضًا؛ ما يأخذه لهاريسون هو مجاملات الضيوف حول كيف كان كلُّ شيء جميلاً، لكنه لا يضيف كيف كانوا يتجاوزون عن خبزه المحمص بالجبن ليتناولوا حساء آجوو بالفلفل وموا-موا بالدجاج المسلوق مع العشب المر.

بدأ الجمعُ يتحرك نحو قاعة المعيشة. وسرعان ما أطفأت أولانا الضوء لأن سطوع الفلوريسنت كان متوهجًا جدًّا، وكان آجوو سيحضر المزيد من الشراب، وكانوا سيتكلمون ويضحكون ويسمعون الموسيقى، والضوء المتسلل من الردهة كان سيملأ الغرفة بالظلال. كان هذا أفضل جزء من أمسياتهم بالنسبة له، رغم أنه كان أحيانًا يتساءل ما إذا كانت أولانا وأودينيبو يتلامسان في العتمة. يجب ألا يفكر فيهما، يعرف، لم يكن من شأنه. لكنه كان يفكر. لاحظ الطريقة التي كان ينظر بها أودينيبو لأولانا في منتصف الجدل، ليس لأنه يحتاجها أن تكون من رأيه، فهو أبدا لا يحتاج أحدًا ليسانده، لكن فقط لكي يتأكد من أنها هناك. رأى أيضًا كيف تغمز أولانا أحيانًا لأودينيبو، مواصليْن الأشياء التي لن يراها أبدًا.

وضع ريتشارد كأس بيرته على طاولة جانبية ثم جلس جوار الآنسة آديبايو وأولانا. لسانه المفلفل كان ما يزال يلسعه. نهضت أولانا لتغير الموسيقى. "مفضلتي "ريكس لاوسون" أولاً قبل بعض موسيقى أوساديبي،" قالت.

"إنه يقلد قليلاً، أليس كذلك، ريكس لاوسون؟" سأل بروفيسور إيزيكا. "أوايفو ودايروا موسيقيان أفضل."

"كلُّ الموسيقى مُقلّدة يا بروفيسور،" قالت أولانا، بنبرة مازحة.

"ريكس لاوسون نيجيريّ حقيقيّ. لم ينشق على قبيلته كالاباري، ويغني بكل لغاتنا الكبرى. هذا أصيل- وبالتأكيد سببٌ كاف لأحبه،" قالت الآنسة آديبايو.

"هذا سبب لكي لا أحبه،" قال أودينيبو. "هذه القومية التي تعني أننا يجب نطمح إلى التشابه التام مع ثقافاتنا الفردية، هي قومية غبية."

"لا تهدر وقتك بسؤال أودينيبو حول موسيقى "الحياة العليا". هو لم يفهمها أبدًا،" قالت أولانا وهي تضحك. هو رجلُ الموسيقى الكلاسيك لكنه يكره أن يقرَّ بذلك علانيةً لأن تلك ذائقةٌ غربية."

"الموسيقى لا وطن لها،" قال بروفيسور إيزيكا.

"لكنها دون شك تتربى في تربة ثقافية، والثقافة تخص البيئة؟" سأل أوكيوما. "ألا نقدر أن نقول إذًا إن أودينيبو يعشق الثقافة الغربية التي أنتجت الموسيقى الكلاسيك؟"

ضحكوا جميعًا، ونظر أودينيبو لأولانا بتلك الطريقة حين يرقق عينيه. وأثارت الآنسة آديبايو من جديد موضوعَ السفير الفرنسيّ. هي بالطبع لا تعتقد أن الفرنسيين من حقهم أن يجربوا

الأسلحة النووية في الجزائر، لكنها لا تفهم لماذا اهتم باليوا كثيرا بالأمر حتى يقطع العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا. بدت حائرة، وهو ما لم يكن طبيعيًّا.

"من الواضح جدًّا أن باليوا فعل ذلك لكي يصرف الانتباه عن اتفاقية الدفاع من بريطانيا،" قال أودينيبو. "وهو يعلم أن تجاهل الفرنسيين سوف يسعد دائمًا أسيادَه البريطانيين. هو مهرجهم الخاص. هم وضعوه هناك، وأخبروه بما يفعل، وهو يفعل، هو بالفعل نموذج برلمان الوزارة الغربية."

"لا نموذج للوزير الغربيّ اليوم،" قال د.باتيل. "وعد أوكيوما بقراءة قصيدة."

"أخبرتكم أن باليوا يفعل ذلك ببساطة لأنه يود أن تحبه شمالُ إفريقيا." قال بروفيسور إيزيكا.

"تحبه شمال إفريقيا؟ هل تظن أنه يعبأ كثيرًا بالأفارقة الآخرين؟ الرجل الأبيض هو السيد الوحيد الذي يعرفه باليوا،" قال أودينيبو. "ألم يقل إن الأفارقة ليسوا مستعدين بعد لحكم أنفسهم في روديسيا؟ لو طلب منه البريطانيون أن يسمي نفسه قردًا مخْصيًّا سوف يفعل."

"أوه، هراء،" قال بروفيسور إيزيكا. "أنت تحيد عن الموضوع."

"أنت ترفض أن ترى الأمور كما هي بالفعل!" انزاح أودينيبو في مقعده. "نحن نعيش في عصر الوحش الأبيض العملاق. إنهم يجردون السود من إنسانيتهم في جنوب أفريقيا وروديسيا، ويبررون ما يحدث في الكونغو، ولن يسمحوا للأمريكان السود أن يصوتوا، لكن الأسوأ من كل هذا هو ما يفعلونه هنا. معاهدة الدفاع أسوأ من التمييز العنصريّ والإقصاء العنصريّ، لكننا لا ندرك ذلك. أنهم يتحكمون فينا من وراء الستار. هذا خطير جدًّا."

مال أوكيوما ناحية ريتشارد. "هذان الاثنان لن يدعاني أقرأ قصيدتي اليوم."

"هما في حال عراك لطيف،" قال ريتشارد؟

"كالعادة،" ضحكت أولانا. "كيف يسير كتابُك بالمناسبة؟"

"أنا منطلق."

"هل هي رواية عن الغربة؟"

"حسنٌ، لا، ليس تمامًا."

"لكنها رواية، أليس كذلك؟"

احتسى ريتشارد بيرته وتساءل كيف سيفكر أوكيوما لو عرف الحقيقة- أنه حتى لا يعرف ما إذا كانت رواية أم لا لأن الصفحات التي كتبها لم تشكل رؤية كاملة.

"أنا مهتم جدًّا بفنِّ إيبو - أوكوا، وأود أن اجعله الجزءَ المحوريّ من الكتاب،" قال.

"وكيف ذلك؟"

"أنا مفتونٌ تمامًا بالبرونزيات منذ قرأت عنها أول مرة. التفاصيلُ ساحرة. شيء لا يُصدّق أن أولئك الناس أتقنوا صناعة هذا الفن المعقد من سبائك الشمع المخلّف أثناء حقبة غزوات الفايكنج. ثمة تركيبٌ مذهل في البرونزيات، مذهلة حقًّا."

"تبدو مندهشًا،" قال أوكيوما.

"ماذا؟"

"تبدو مستغربًا، كأنما لم تتخيل أبدًا أن *تلك الشعوب* قادرةٌ على إنجاز أشياء كهذه."

شَخَصَ ريتشارد في أوكيوما؛ كان ثمة ازدراء في نظرة أوكيوما، تقطيبة خفيفة في حاجبيه قبل أن يقول: "كفى يا أودينيبو ويا بروفيسور! لدي قصيدة تناديكم جميعًا."

امتصّ ريتشارد لسانه. حرقان الفلفل كان لا يُحتمل الآن، ولم يُطق صبرًا لينهي أوكيوما قراءة قصيدته الغريبة- عن الأفارقة بمؤخرات طائشة بسبب التغوّط في الدلاء المعدنية المستوردة- حتى ينهض للانصراف.

"هل مازال من المناسب أن آخذ آجوو في سيارتي إلى بلدته الأسبوع القادم يا أودينيبو؟" سأل.

"رمق أودينيبو أولانا.

"نعم بالطبع،" قالت أولانا. "آمل أن تستمتع بمشاهدة مهرجان *أوري-أوكبا*."

"خذْ كأس بيرة آخر يا ريتشارد،" قال أودينيبو.

"سأسافر في الصباح الباكر إلى بورت هاركورت، لذا يجب أن أنام،" قال ريتشارد، لكن أودينيبو كان قد تحول إلى بروفيسور إيزيكا.

"ماذا عن الساسة الأغبياء في اجتماع البيت الغربيّ الذي اضطر البوليس فيه إلى استخدام الغاز المُسَيِّل للدموع؟ قنابل غاز! بينما جنودهم كانوا يحملون أجسادهم الرخوة إلى سياراتهم! تخيل هذا!"

الفكرةُ التي لم يخطئها أودينيبو بعدما رحل تركت ريتشارد متفجرًا. حينما عاد البيت، فتح هاريسون الباب وانحنى. "مساء الخير يا صاح، هل كان الطعام جيدًا؟"

"نعم، نعم، دعني أذهب للنوم الآن،" انفلت ريتشارد. لم يكن في مزاج يسمح له بما سوف يلي: سيعرض هاريسون أن يعلِّم أيًّا من خدم أصدقائه وصفاته السحرية للكيك الأسبانيّ أو الباذنجان المحشو. ذهب إلى غرفة المكتبة ونثر أوراق مخطوطته فوق الأرض ونظر إليها: صفحات قليلة رواية حول مدينة صغيرة، فصل رواية حول منقب آثار، صفحات قليلة حول وصف سحر البرونزيات. بدأ يكرمش الصفحات، صفحة فصفحة، حتى غدت لديه كومة مشعثة جوار صندوق المهملات، ثم نهض وذهب إلى فراشه وهو يحس بالدم الحار في أذنيه.

لم ينم جيدًا؛ أحس كأنما للتوّ قد وضع رأسه على الوسادة حينما تدفق ضوء الشمس المبهر عبر الستائر وهو يسمع هاريسون يخبط في المطبخ وجومو يحفر في الحديقة. أحس أنه هشٌّ. لم يطق صبرًا لأن ينام جيدًا بينما ذراع كاينين النحيل يضغط جسده.

قدم له هاريسون في إفطاره بيضًا مقليًّا وتوست.

"صاح، رأيت أوراقًا على الأرض في المكتبة؟" قال مُحذِّرًا.

"اتركهم هناك."

"حاضر يا صاح." عقد هاريسون يديه ثم بسطهما. "ستأخذ مخطوطتك؟ هل أوضب أوراقًا أخرى لك؟"

"لا، لن أعمل هذا الويك إند،" قال ريتشارد. الإحباط على وجه هاريسون لم يسرّه كما اعتاد أن يفعل. وتساءل، وهو يركب القطار، عما يفعل هاريسون أثناء الويك إند. ربما يطبخ لنفسه وجبات منتقاة بعناية. يجب ألا يكون سيء الطباع هكذا مع الرجل المسكين؛ لم يكن ذنب هاريسون أن أوكيوما شعر أنه متفضّل. إنها النظرة في عيني أوكيوما هي التي أقلقته جدًّا: الازدراء المتشكك هو الذي جعله يذكر أنه قرأ في مكان ما أن الأفريقيّ والأوروبيّ سوف يظلان أبدا خصمين لا يتصالحان. كان خطأ أوكيوما أن يفترض أنه أحد هؤلاء الإنجليز الذين لا يعطون الأفريقي ميزة الذكاء المتكافئ. ربما بدا أنه مندهش، الآن وهو يفكر في الأمر، لكنه الاندهاش ذاته لو أن هذا الاكتشاف تم في إنجلترا أو أي مكان آخر في العالم.

الباعة الجائلون كانوا ينادون. "اشترِ الفولَ السوداني!" ."اشترِ البرتقال!" "اشترِ الجوز."

أشار ريتشارد لامرأة شابة تحمل صينية من الفول السوداني المسلوق لم يكن بالفعل يريده. أناخت صينيتها فأخذ واحدة، كسرها بين أصابعه، ومضغ الجوزة الداخلية قبل أن يسألها ملء فنجانين. بدت مندهشة أنه يعلم حكاية التذوق أولا، وفكر بمرارة في أوكيوما الذي ربما يُدهش أيضًا. قبل أن يأكل كلَّ حبة، يجربها أولا- مسلوق خفيفًا، قرمزيّ فاتح، ذابل- وحاول ألا يفكر في الصفحات المكرمشة في مكتبته، حتى وصل القطار إلى بورت هاركورت.

"دعانا مادو غدًا إلى العشاء،" قالت كاينين، وهي تقود سيارتها الأمريكية الفارهة من محطة القطار. "زوجته عادت من أسفارها."

"حقًّا؟ لم يتكلم ريتشارد كثيرًا، بل ظل ينظر إلى الباعة الجائلين في الطرقات، يتصايحون، يشيرون، يركضون وراء السيارات لكي يكسبوا قوتهم.

صوت المطر ينقر الزجاج أيقظه في الصباح التالي، كانت كاينين ترقد جواره، عيناها نصف مغمضتين على هذا النحو المخيف الذي يعني أنها غارقة في النوم. نظر إلى بشرتها بلون الشوكولاتة القاتمة التي تلمع، فوضع رأسه بالقرب من وجهها. لم يقبلها، لم يدع وجهه يمسها، لكن بالقرب حتى يشعر برطوبة تنفسها ويشتمّ رائحته المتخثرة قليلا. تمطّا ثم ذهب للنافذة. إنها تمطر بميل هنا في بورت هاركورت حتى أن المياه تضرب الزجاج والحوائط أكثر من السطوح. ربما لأن المحيط قريب جدًّا، لأن الهواء مثقلٌ بالبخر ما يعجّل بسقوط المطر. لوهلة غدا المطر غزيرًا وصوته على الزجاج عاليًا، مثل حصوات تقذف ألواح الزجاج. تمطا ثانية. توقف المطر وصار الزجاج مضببًا. ومن وراءه كانت كاينين تقلب وتلوك شيئًا.

"كاينين؟" قال.

"عيناها كانتا ما تزالان نصف مفتوحتين، وتنفسها ما يزال منتظمًا.

"سأذهب لجولة،" قال رغم انه متأكد أنها لم تسمعه.
بالخارج، كان إكديجدي يقطف البرتقال؛ إزاره ينحسر عن ظهره وهو يهز الثمرة بالعصا.
"صباح الخير يا صاح،" قال.
"كيدو؟" قال ريتشارد. كان مرتاحًا للتدريب على الإيبو مع خدم كاينين، لأنهم كانوا عادة لا يهتمون ما إذا نطق أو لم ينطق على النحو الصحيح.
"بخير يا صاح،"
"جيسي *إيكي*."
"نعم صاح."
مشى ريتشارد حتى نهاية البستان، حيث كان بوسعه أن يرى، خلال كثافة الأشجار، زبد البحر الأبيض. جلس على الأرض. تمنى لو لم يدعُهما اللواء مادو على العشاء؛ لم يكن شغوفًا على الإطلاق للقاء زوجة الرجل. نهض وتمطا ودار حول الفناء الأمامي ونظر إلى النباتات البنفسجية المتسلقة على الحوائط. مشى لبرهة في الطريق الطيني المنبسط الذي يقود إلى المنزل قبل أن يعود. كانت كاينين تقرأ الصحف في الفراش. جلس جوارها فمدت يدها ولمست شعره، تخللت أصابعها فروة رأسه برقّة. "هل أنت على ما يرام؟ كنت مشحونًا بالأمس."
أخبرها ريتشارد عن أوكيوما، ولأنها لم ترد فورًا، أضاف، "أذكر أول مرة قرأت فيها عن فن إيبو-أوكا، في مقال لأستاذ بأكسفورد وصفه بأنه زخارف غريبة على النهج الفابيرجي الأنيق. لم أنس أبدًا هذا- *زخارف غريبة على النهج الفابيرجي الأنيق*- وقعت في هوى هذا الفن من مجرد هذا التعبير.
طوت الجريدة ووضعتها على الكومود. "لماذا اهتممت كثيرًا بما يفكر به أوكيوما؟"
"أحب هذا الفن. كان فظيعًا منه أن يتهمني بعدم الاحترام."
"ومن الخطأ أن تفكر أن الحب لا يترك مجالاً لشيء آخر. من الممكن أن تحب شيئًا وتقلل من شأنه."
انسحب ريتشارد من جوارها. "أنا لا أعرف ماذا أصنع. لا أعرف حتى ماذا أكتب."
"لن تعرف حتى تكتب، أليس كذلك؟" تسللت كاينين من الفراش، ولاحظ ريتشارد بريقًا معدنيًّا في كتفيها النحيلين. "أرى أن لا رغبة لك لأمسية بالخارج. سأكلم مادو وألغي العشاء."
عادت بعدما أنهت مكالمتها وجلست في الفراش، وفي الصمت الذي يفصل بينهما شعر فجأة بالامتنان أن جفافها لم يُشعره بالشفقة على الذات، لم يعطه شيئًا يختبئ خلفه.
"بصقتُ مرة في كأس الماء الخاص بأبي،" قالت. "لم يكن قد أحبطني شيء. فعلت هذا وحسب. كنت في الرابعة عشرة. كنت سأشعر برضا لا يصدق لو كان شربه، لكن أولانا بالطبع جرت وبدلت الماء." تمطت جواره. "الآن تخبرني أنت بشيء فظيع عملته."

كان مُستثارًا ببشرتها النحيلة التي تحتك به، بالسرعة التي بدلت فيها خطط المساء مع اللواء مادو. "لم تكن لديَّ الثقة لفعل أشياء فظيعة،" قال.

"حسن، اخبرني بشيء إذًا."

فكر أن يخبرها عن ذلك اليوم في وينستور حينما اختبئ من موللي وشعر، لأول مرة، بإمكانية أن يشكّل قدره. لكنه لم يفعل. بدلا من ذلك، أخبرها عن والديه، كيف كانا يحدقان في بعضهما البعض حين يتكلمان، وكيف ينسيان أعياد ميلاده، ثم تأتي موللي تصنع تورتة بعد أسابيع وتقول "هابي بيرث داي. لم يعرفا أبدًا متى ولا ماذا أكل؛ كانت موللي تطعمه حين تتذكر. لم يخططا أن ينجباه، ومن أجل ذلك كان يرى نفسه بوصفه فكرة ترد على البال متأخرًا. لكنه كان يفهم حتى وهو صبي أن ذلك لا يعني أنهما لا يحبانه، بل هما ينسيان ذلك لأنهما يحبان بعضهما البعض كثيرا جدًّا. رفعت كاينين حاجبيها، على نحو متهكم، كأنما أسبابه لم تقنعها، ولذلك كان يخاف أحيانا أن يخبرها أنه يحبها كثيرًا جدًّا.

2. الكتاب: كان العالمُ صامتًا حينما كنّا نموت

يناقشُ الجنديُّ التاجر البريطانيّ توبمان جولدي، كيف أجبره، وتزلف له، ثم قتله لكي يسيطر على تجارة زيت النخيل، وكيف، في مؤتمر برلين عام 1884 حينما قسم الأوروبيون أفريقيا، تأكد أن بريطانيا تمتاز عن فرنسا بمحميتين حول نهر النيجر: الشماليّ والجنوبيّ.

البريطانيون كانوا يفضلون الشمالية. الجوُّ الحارُّ هناك كان جافًّا ولطيفًا؛ قبائلُ الهاوسا كانوا دقيقي الملامح وبالتالي أعلى رتبةً من الجنوبيين الزنوج، وكانوا مسلمين وبالتالي متحضرين بما يمكن أن يعتبرهم المرء مواطنين له، إقطاعيين وبالتالي يمكنهم أن يحرِّفوا القانون. كان الأمراء المتعاقبون يجمعون الضرائب لبريطانيا، وبريطانيا، في المقابل، منعت المُبشِّرين المسيحيين من الدخول.

الجنوبُ الرطب، على الجانب الآخر، كان مليئًا بالبعوض والمذاهب والقبائل المنفصلة. كانت اليوريوبا هي الأكبر وتقع في الجنوب الغربيّ. وفي الجنوب الشرقي كان الإيبو يسكنون في تجمعات صغيرة. كانوا طموحين وسهلي التعليم. ولأنهم لم يستسيغوا فكرة الملوك، اخترعت بريطانيا شيوخًا ضباطًا، لأن الحكم غير المباشر يكلف التاجَ أقل. سُمح للمبشرين أن يروّضوا الوثنين، وبذا ازدهرت المسيحية والتعليم. وعام 1914، ضم الحاكمُ العموم الشمالَ والجنوب، واختارت زوجته الاسم. وولدت نيجيريا.

الجزء الثاني

نهايات الستينيات

كان آجوو يرقد فوق حصيرة في كوخ أمه، يحملق في عنكبوت ميت مهروس على الحائط؛ سوائلُ جسمه بقعّت الطميَ بلونٍ أحمرَ داكن. كانت آنيوليكا تعاير فناجين الأكوا بينما نكهة بذور ثمرة الخبز الشهية تملأ هواء الغرفة بكثافة. كانت تتكلم. كانت تتكلم لبرهة، ورأس آجوو تؤلمه. زيارته البيت فجأة طالت عن أسبوع بكثير، ربما بسبب إفرازات معدته الرغوية الغازية التي لا تنتهي بسبب أكله الفاكهة والجوز فقط. طعام أمه ليس مستساغًا. الخضر مطبوخة أكثر مما ينبغي والذرة مكتلة، والحساء كثير الماء، وشرائح البطاطا غليظة لأنها سلقت دون قطعة صغيرة من الزبد. لم يطق صبرًا للعودة إلى نسوكا ليأكل أخيرًا وجبة حقيقية.

"أودُّ طفلاً أولاً، لأنه سوف يثبت قدميّ في بيت أونيكا،" قالت آنيوليكا. مشت لتحضر حقيبة من الرف الخشبي، ولاحظ آجوو ثانيةً تلك الاستدارة الجديدة المريبة في جسدها: ثدياها تملأن بلوزتها، الردفان ترتجان مع كل حركة. أونيكا لابد لمسها. لم يتحمل آجوو التفكير في جسم الرجل القبيح يتحكم في جسد شقيقته. كل هذا حدث سريعًا جدًّا؛ كان ثمة حديث عن طالبي يدها في زيارته الماضية، لكنها كانت تتكلم عن أونيكا على نحو مختلف حتى أنه لم يفكر أنها ستقبل عرضه بسرعة هكذا. الآن حتى أبواه كانا سريعين جدًّا في الكلام عن أونيكا، وظيفة الميكانيكا الجيدة في المدينة، دراجته، سلوكه الحميد، كأنما أصبح بالفعل احد أفراد الأسرة.

لم يذكر أحد طوله البهلواني وأسنانه البارزة التي كأنها لفأر الحقل.

"تعرف، أونيونا من بيت إيزوجوا ولدت طفلةً أولا، فذهب أهل زوجها لرؤية ديبيا ليكتشف لهم لماذا! بالطبع لن يفعل أهل أونيكا ذلك معي، لا يجرئون ، لكنني أريد ولدًا في البداية على كل حال،" قالت آنيوليكا.

نهض آجوو ليجلس. "أنا مللت الحكايات عن أونيكا. لاحظتُ شيئا حينما جاء بالأمس. لابد أن يستحم أكثر، له رائحة الفول المتعفن."

"وأنت، ما هي رائحتك؟" صبت آنيوليكا الأكوا في الكيس وربطته. "من الأفضل أن تذهب قبل أن تتأخر جدًّا."

خرج آجوو إلى الفناء. كانت أمه تسحق شيئا بالهاون وأبوه منحنيًا جوارها يُحمّي سكينًا على الحجر. خدْشُ السطح المعدني مع الصخر يصنع شراراتٍ صغيرةً تبرقُ سريعًا قبل أن تختفي.

"لقد انتهت." رفع آجوو الكيس ليُرِي أمه.

"سلِّم على سيدك وسيدتك،" قالت أمه. "وأشكرهما على كل ما أرسلاه لنا."

"حاضر يا أمي." راح واحتضنها. "ابقي بخير. وسلمي على تشيوكي حينما تعود."
اعتدل أبوه ومسح نصل السكين على راحته قبل أن يصافحه. "ابقَ بخير، *إجي أوما*. سوف نخبرك حينما يخبرنا أهلُ أونيكا أنهم جاهزون ليحضروا نبيذ النخيل. سيكون ذلك خلال شهور قليلة."
"نعم يا أبي." وقف آجوو لبرهة حتى جاء أبناء عمومته وأخواته، الصغار عرايا والأكبر سنا في قمصان أكبر منهم حجمًا، وراحوا يقولون كلمات الوداع ويسردون ما يريدونه أن يحضره لهم في الزيارة القادمة. اشترِ لنا خبزًا! اشتر لنا لحمًا! اشتر لنا سمكًا مقليًا! اشترِ لنا بقولاً!
رافقته آنيوليكا حتى الشارع الرئيسي. رأى وجها مألوفا جوار بستان أشجار أوبي، ورغم أنه لم يكن قد رآها منذ غادرت إلى كانو لتتعلم التجارة قبل أربع سنوات، ألا أنه عرفها على الفور. قد كانت نيسيناتشي.
"آنيوليكا! آجوو! هل هذا أنت؟" كان صوت نيسيناتشي أجشًا كما يتذكره لكنها كانت الآن أطولَ، وبشرتُها كانت أدكنَ بسبب شمس الشمال القاسية.
حينما تعانقا، شعر بصدرها يضغط على صدره.
"بالكاد عرفتكِ، غيرك الشمالُ كثيرا،" قال. وهو يسأل نفسه إن كانت تعمدت أن تلتصق به.
"عدتُ بالأمس مع أبناء عمتي." كانت تبتسم له. لم تبتسم له بهذا الدفء في الماضي. حاجباها البُنيّان كانا مُزجّجين ومُحدّدين بالقلم، أحدهما أسمكُ من الآخر. استدارت لآنيوليكا. "آنيولي، كنتُ في طريقي لرؤيتك. سمعتُ أنك تزوجت!"
"أختاه، هذا ما سمعته أنا أيضًا،" قالت آنيوليكا وضحكتا كلتاهما.
"هل أنتَ عائد إلى نسوكا؟" سألت آجوو.
"نعم لكن سأعودُ قريبًا لحمل نبيذ آنيوليكا."
"كنْ بخير." التقت عينا نيسيناتشي سريعًا بعينيه، بجسارة، قبل أن تمضي لطريقها، وكان يعلم أنه لم يتخيل؛ لقد ضغطت بالفعل نفسها إليه حينما تعانقا. شعر بهزة ضعف في ساقيه. أمسك نفسه عن الاستدارة للخلف لرؤيتها، لكيلا تنظر هي الأخرى للخلف، ولوهلة نسى الرغاوي المزعجة في معدته.
"عيناها لابد تفتحتا في الشمال. لا تستطيع أن تتزوجها، لذلك من الأفضل أن تأخذ منها ما تقدمه لك، قبل أن تتزوج هي،" قالت آنيوليكا.
"هل لاحظتِ؟"
"وكيف ألا ألاحظ؟ هل أبدو مثل نعجة؟"
ضيّق آجوو عينيه ونظر إليها. "هل لمسك أونيكا؟"
"طبعا لمسني."

أبطأ آجوو من خطوته. كان يعلم أن آنيوليكا لابد نامت مع أونيكا لكنه لم يكن يرديها أن تؤكد ذلك. حينما بدأت تشينير، خادمة د. أوكيكي، تتلصص عبر حاجز مأوى الأولاد في العتمة تلصصات سريعة حكى لآنيوليكا في زيارة له لبيتهم وناقشا الأمر. لكنهما لما يناقشا أبدًا حكايتها هي؛ كان دائمًا يفترض أنه لا شيء هناك ليُناقَش. كانت آنيوليكا تسير أمامه، غير عابئة ببطئه المتجهم، فأسرع لها، صامتًا، خطواتهما خفيفة فوق العشب، حيث كانا يصطادان اليعاسيب وهما صغيرين.

"أنا جائع جدًّا،" قال أخيرًا.

"أنتَ حتى لم تأكل البطاطا التي سلقتها الماما."

"نحن نسلق البطاطا بالزبد."

"نحن نسلق البطاطا مع بوه-تاه. انظر إلى فمك. حينما يعيدونك إلى القرية، ماذا ستفعل؟ من أين ستجد بوه-تاه لتسلق بطاطتك؟"

"لن يعيدوني إلى القرية."

نظرت إليه بطرف عينيها، من فوق إلى تحت. "أنت نسيت من أين أتيت، والآن أصبحت أحمق تظن نفسك رجلاً مُهمًّا."

كان السيد في قاعة المعيشة حينما دخل آجوو وحياه.

"كيف حال أهلُك؟ سأل السيد.

"بخير، يا صاح، يرسلون تحياتهم."

"حسن جدًّا."

"شقيقتي آنيوليكا ستتزوج قريبًا."

"جيد." كان السيد مشغولاً بضبط الراديو.

كان بوسع آجوو سماع أولانا والطفلة بيبي يغنيان في الحمّام؟

جسر لندن يسقط، يسقط، يسقط،

جسر لندن يسقط يا سيدتي الجميلة.

كلمة *لندن*، من صوت بيبي الضئيل غير المنتظم بدت مثل كلمة *بون-بون*. كان باب الحمّام مفتوحًا.

"مساء الخير يا ماه،" قال آجوو.

"اوه، آجوو، لم أسمعك وأنت تدخل!" قالت أولانا. كانت منحنية فوق البانيو، تحمِّم بيبي. "مرحبًا، *'نو*. هل أهلك بخير؟"

"نعم ماه. يرسلون لك تحياتهم. أمي تقول إنها عاجزة عن شكرك من أجل الأغطية."
"كيف حال ساقها؟"
"لم تعد تؤلمها. أعطتني آكوا من أجلك."
"أيه! لابد أنها كانت تعرف ما أشتهي الآن." استدارت لتنظر إليه، يداها مغطيتان برغوة الصابون. "تبدو بخير. انظر إلى خديك السمينين!"
"نعم، ماه،" قال آجوو، رغم أنها كانت كذبة. ينقص وزنه دائمًا كلما زار بيته.
"آجوو!" نادت بيبي. "آجوو، تعال وانظرْ!" كانت تضغط البطة البلاستيكية بيدها.
"يا طفلتي، تقدرين أن تحيي آجوو بعد حمّامك،" قالت أولانا؟
"ستتزوج آنيوليكا قريبًا يا سيدتي. قال أبي أن أخبرك أنتِ والسيد. لم يحددا اليوم بعد، لكنهما سيفرحان جدًّا لو أتيتما أنت والسيد."
"آنيوليكا؟ أليست صغيرة قليلاً؟ حوالي السادسة عشرة أو السابعة عشر؟"
"رفيقاتها قد بدأن الزواج."
استدارت أولانا للبانيو. "بالطبع سوف نأتي."
"آجوو!" قالت بيبي ثانية.
"هل أدفئ ثريدَ بيبي، يا ماه؟"
"نعم. ومن فضلك جهّز حليبها."
"حاضر ماه." أبطأ للحظة ثم سألها إذا كان كل شيء مرَّ بخير في الأسبوع الذي قضاه بعيدًا، لكي تخبره أي الأصدقاء حضر، ومَن أحضر ماذا، وما إذا كانوا قد أنهوا الخضروات الذي كان قد وضعه في أوعية في الفريزر.
"سيدك وأنا قررنا أن تأتي آريزي إلى هنا لتنجب طفلها في سبتمبر،" قالت أولانا.
"هذا جيد يا ماه،" قال آجوو. "أتمنى أن يشبه الطفل الخالة آريزي وليس العم نناكوانزي."
ضحكت أولانا. "أتمنى ذلك أيضًا. سنبدأ في تنظيف الغرفة. أريدها أن تكون بلا غبار من أجلها."
"سوف تكون دون غبار ماه، لا تقلقي." آجوو يحب الخالة آريزي. يذكر احتفال حمل-النبيذ الخاص بها في أوموناتشي قبل ثلاث سنوات، كم كانت بضة وممتلئة وكم شرب هو الكثير من نبيذ النخيل حتى كاد يوقع الصغيرة بيبي.
"سأذهب إلى كانو يوم الاثنين لاستقبالها وأخذها للتسوق في لاجوس،" قالت أولانا. "سآخذ بيبي معي. سنحزم الفستان الأزرق الذي صنعته آريزي للطفلة."
"الفستان الزهري أفضل يا ماه، الأزرق ضيق جدًّا."
"هذا صحيح." التقطت أولانا البطة البلاستيكية ثم قذفتها ثانية في البانيو، فصرخت بيبي وغطست في الماء.

"نكيم!" نادى السيد عاليا. *"أو ميجو! لقد حدث!"*
أسرعت أولانا لغرفة المعيشة، ولحقها آجوو.
كان أودينيبو واقفًا جوار الراديو. كان التليفزيون مفتوحًا لكن الصوت مقفل لذا بدا الراقصون كأنما يترنحون ثملين. "حدث انقلاب،" قال السيد، مومئا إلى الراديو. "اللواء نزيوجوا يتكلم من كادونا."
الصوت من الراديو كان مليئًا بالشباب، والحماس، والثقة.

الدستور قد أوقف العمل به والحكومة المحلية والتجمع المنتخَب قد تم حلّه. أيها المواطنون الأعزاء، إن هدف مجلس الثورة هو ترسيخ دولة خالية من الفساد ومن الشقاق والنزاعات. إن أعداءنا هم الساسة المستغلون، المخادعون، الرجال في الوظائف العليا والصغرى الذين يبحثون عن الرشاوى ويطلبون 10 بالمائة، أولئك الذين يرغبون أن تبقى الدولة منقسمة إلى الأبد حتى يبقون فوق كراسيهم الحكومية، القبليون، المحابون لأقاربهم، هؤلاء الذين يجعلون الدولة مستباحة للدوائر الدولية، أولئك قد قوّضوا مجتمعنا.

ركضت أولانا إلى التليفون. "ماذا يحدث في لاجوس؟ هل قالوا ماذا يحدث في لاجوس؟"
"والداك بخير نكيم. المدنيون بخير."
كانت أولانا تدير قرص الأرقام. "عاملة المقسم؟ عاملة المقسم؟" ثم وضعت السماعة ورفعتها مجددًا؟ "إنه لا يعمل."
أخذ السيد السماعة من يدها برفق. "أنا واثق أنهم بخير. سوف تعود الخطوط سريعًا. هذا فقط لدواعي الأمن."
ومن الراديو، أصبح الصوت أكثر حسمًا.

أؤكد لكل الأجانب أن حقوقهم سوف تظن محترمة. نعدُ كل المواطنين المحافظين على القانون بالتحرر من كل أشكال القمع، التحرر من عدم التكافؤ في الفرص، والحرية في العيش والعمل في كل سبل السعي الإنسانيّ. نعدكم أنكم لن تشعروا بالعار أبدًا أن تقولوا إنكم نيجيريون.

"مامي أوللا!" قالت بيبي تنادي من الحمام. "مامي أوللا!"
عاد آجوو للحمام وجفف بيبي بالفوطة ثم حضنها، ونفخ في عنقها من الخلف، ابتسمت ورائحة صابون الأطفال المعطر برائحة الكمثرى تفوح منها.

"كتكوتة!" قال وهو يدغدغها. كانت جدائلها مبتلّة، وأطرافها معقودة في خصلات مموجة، فحملها آجوو وتعجب من جديد لشدة ما تشبه أباها؛ سوف يقول أهله أنه بصق هذه الطفلة من فمه.

"دغدغني أكثر!" قالت بيبي وهي تضحك. وجهها الممتلئ كان مبللاً بالرذاذ.

"كتكوتة صغيرة،" تمتم آجوو، بطريقة منغمة طالما أبهجتها.

ضحكت بيبي، وسمع آجوو من غرفة المعيشة أولانا تقول: "أوه يا ربي، ماذا قال؟ ماذا قال؟"

كان يجهز ثريد بيبي حينما سمع نائب الرئيس يتكلم باقتضاب في الراديو، بدا صوته مجهدًا كأنما بذل جهدًا، يقول: "الحكومة استسلمت للجيش."

جاءت بعد ذلك بعض التصريحات- رئيس الوزراء اختفى، نيجيريا الآن أصبحت حكومة عسكرية فيدرالية، رئيسا الشمال والغرب اختفيا- لكن آجوو لم يكن واثقًا مَن الذي يتكلم ولا من أية محطة، لأن السيد، وهو جالس جوار الراديو، كان يحرك مؤشر القنوات سريعًا، يتوقف، ينصت، يغير، يتوقف. كان قد خلع نظارته وبدا أكثر رهافة بعينيه الغائرتين عميقًا في وجهه. لم يضع نظارته من جديد حتى وصل الضيوف. كانوا اليوم أكثر من المعتاد، فأحضر آجوو مقاعد طاولة السفرة إلى قاعة المعيشة ليُجلسهم جميعا. أصواتهم كانت متحمسة وانفعالية، كل شخص لا يكاد ينتظر حتى ينهي الآخر كلامه.

"هذه نهاية الفساد! هذا ما كنا نحتاج أن يحدث منذ الانقلاب العام،" قال أحد الضيوف. لم يتذكر آجوو اسمه، لكنه اعتاد أن يأكل كل تشين-تشين فور وضعه على السفرة، لذلك كان آجوو يضع الصينية بعيدة عن متناول يده قدر الإمكان. للرجل يدان كبيرتان، القليل من ملء يده وينتهي كل شيء.

"أولئك اللواءات أبطال حقيقيون،" قال أوكيوما ورفع ذراعه.

كان ثمة إثارة في صوتهم حتى وهم يتكلمون عن القتلى.

"قالوا إن ساردونا يختبئ خلف زوجاته."

"يقولون إن وزير المالية بال في بنطاله قبل أن يطلقوا عليه النار."

قهقه بعض الضيوف وكذا فعل آجوو، حتى سمع أولانا تقول: "أنا أعرف أوكونجو. كان صديقًا لوالدي." بدت خامدة.

"أسمتها ال BBC الضربة الإيبو،" قال الضيف آكل تشين-تشين. "ولديهم وجهة نظر. كان معظم القتلى من الشماليين."

"كان الشماليون معظمهم في الحكومة،" همس بروفيسور إيزيكا، وهو يقوّس حاجبيه، كأنه لا يصدق أنه اضطر إلى قول ما هو واضح جدًّا.

"ال BBC يجب أن تسألهم مَن وضع الشماليين في الحكومة ليسيطروا على كل الناس!" قال السيد.

اندهش آجوو أن السيد وبروفيسور إيزيكا بدوا متفقيْن. واندهش أكثر حينما قالت آنسة آديبايو: "أفارقةُ الشمال هؤلاء مجانين أن يسموا هذا إصلاحًا ضدِّ-إلحاديّ" وضحك السيد- ليس ضحكته الساخرة المعتادة- قبل أن يتزحزح إلى حافة الكرسي لكي يتحداها؛ كانت ضحكة استحسان. لقد وافقها.

"لو كان لدينا رجالٌ أكثر من نوعية اللواء نزيوجوا في هذا البلد، ما كنّا فيما نحن فيه الآن،" قال السيد "بالفعل كانت لديه رؤية."

"أليس شيوعيًّا؟" كان هذا البروفيسور ليمان أخضرُ العينين. "لقد ذهب إلى تشيكوزلوفاكيا حينما كان في ساندورست."

"أنتم الأمريكان دائما ما تحدقون تحت أسرَّة الناس بحثًا عن الشيوعيين. ألا تظنون أن الوقت قد حان لننزعج من هذا؟" قال السيد. "ما يهم هو ما سنحرك شعبنا تجاهه؟ لنفترض أن الديموقراطية الرأس-مالية شيءٌ جيد من حيث المبدأ، المهم أن يناسب نوعنا- حينما يعطيك أحدهم ثوبًا يشبه ثوبه، لكنه لا يناسبك وأزراره مخلوعة- وقتها يجب أن ترميه وتصنع ثوبًا يناسب مقاسك. بكل بساطة أنت مضطر لهذا."

"يا لها من بلاغة يا أودينيبو،" قالت آنسة آديبايو. "لا تقدر أن تصنع حالاً نظرية للعسكرية."

شعر آجوو بتحسن؛ هذا هو الجدال الذي تعود عليه.

"بالطبع أقدر. مع رجل مثل اللواء نزيوجوا، أقدر،" قال السيد. "بعض الثلج يا آجوو!"

"الرجل شيوعي،" أصرَّ البروفيسور ليمان. صوته الأخنف أزعج آجوو، أو ربما أن بروفيسور ليمان كان له نفس الشعر الناعم الذي لمستر ريتشارد لكن ليست لديه كبرياؤه الهادئة. تمنى أن يظل مستر ريتشارد يأتي دائمًا. يتذكر بوضوح زيارته الأخيرة، قبل شهور من ميلاد بيبي، لكن الذكريات الأخرى في تلك الأسابيع المضطربة كانت غائمة الآن، وغير مكتملة؛ كان مرتعبًا ألا يتحد السيد بأولانا فيتصدع عالمه لذلك لم يكن ينصت كثيرًا. إنه حتى لم ليعرف أن مستر ريتشارد كان متورطًا في المعركة لو لم يخبره هاريسون بذلك.

"شكرًا لك يا رجلي الطيب." أخذ السيد وعاء الثلج وأسقط بعضًا منه في كأسه.

"نعم صاح،" قال آجوو وهو يراقب أولانا. كان رأسها مسنودًا بيديها المقبوضتين. تمنى حقًّا لو كان يشعر بالأسف على صديقها السياسي الذي قُتل، لكن الساسة لم يكونوا مثل البشر العاديين، كانوا *ساسة*. كان قد قرأ عنهم في عصر *النهضة* وجريدة *الديلي تايمز*- إنهم يدفعون للسفاحين ليضربوا خصومهم، يشترون بيوتًا وأراضي بأموال الحكومة، يشترون أساطيلَ من السيارات الأمريكية الفارهة، يشترون نساء ليملئوا بلوزاتهم بأصوات اقتراع كاذبة ويزعمون أنهم حوامل. كلما أفرغ إناء من الفول المسلوق، كان يفكر في بؤرة الفساد اللزجة للساسة.

تلك الليلة، كان يرقد في غرفته في مأوى الأولاد يحاول أن يركز في عمدة كاستربريدج، لكن الأمر كان صعبًا. تمنى لو تقفز تشينير فوق السياج وتأتي إليه؛ لم يخططا ذلك أبدًا، هي

وحسب تظهر في بعض الأيام ولا تأتي في أخرى. تحرَّق شوقًا لأن تأتي في ليلة الانقلاب المثيرة تلك التي غيرت نظام الأشياء ونبضت بالاحتمالات، وبالتجديد. حينما سمعها تدق على النافذة، أرسل للآلهة حفنة تشكرات.

"تشينير،" قال.

"آجوو،" قالت.

رائحتها بصلٌ بائت. كان الضوء مطفئًا، وعلى ضوء الشعاع النحيل الذي يأتي من المصباح بالخارج رأى نهديها مخروطي الشكل وهي تخلع بلوزتها وتفك الدثار حول خصرها، وترقد على ظهرها. كان ثمة رطوبة في الظلام، في جسديهما المتجاورين، وراح يتخيل أنها نيسيناتشي وأن ساقيها المشدودتين حوله كانتا لنيسيناتشي. كانت صامتة في البدء، ثم حينما بدأت الأرداف تصطك، ويداها تضغط ظهره بقوة قالت نفس الأشياء التي تقولها كل مرة. بدت كأنما أسماء- آبونيا، آبونيا- لكنه لم يكن واثقًا. ربما كانت تتخيله شخصا آخر أيضا، شخصا من قريتها.

نهضت ورحلت بصمتٍ كما جاءت. حينما رآها اليوم التالي عبر السياج، وهي تنشر ملابسها على الحبال، قالت: "آجوو" ولا شيء أكثر؛ لم تبتسم حتى.

(8)

أجّلت أولانا رحلتها إلى كانو بسبب الانقلاب. كانت تنتظر حتى يُعاد فتح المطارات، كان البريد ومكاتب التلغراف قد فُتحت، والحكّام العسكريون قد أعادوا تنظيم المناطق. انتظرت حتى تأكدت أن النظام قد عاد مستتبًا. لكن الإضراب كان بالجوّ. كان الجميع يتحدثون عنه، حتى سائق التاكسي في قبعته البيضاء الذي ركبت معه وطفلتها من المطار حتى بيت آريزي.

"لكن ساردونا لم يُقتل يا سيدتي،" همس. "لقد هرب بمعاونة الله وهو الآن في مكة." ابتسمت أولانا برقة ولم تقل شيئًا لأنها تعرف أن هذا الرجل، بسبحة صلاته الذي يسترق النظر عبر المرآة، يحتاج أن يصدق ذلك. ساردونا، على كل حال، لم يكن رئيس الشمال، لكنه أيضا كان القائد الروحي لهذا الرجل وغيره الكثير من المسلمين مثله.

أخبرت آريزا عن تعليق السائق، فهزت كتفيها وقالت: "لا يوجد شيء لا يقولونه،" ثوب آريزا كان مُدلى لأسفل تحت خصرها، وبلوزتها فضفاضة لكي تستوعب الانتفاخ في بطنها. كانتا جالستين في قاعة المعيشة وصور زفاف آريزي ونناكوانزي على الحائط الزيتي، بينما بيبي تلعب مع الأطفال في البيت. لم تشأ أولانا أن تلمس بيبي أولئك الأطفال في ملابسهم الممزقة، والمخاط الحليبي ينزلق من أنوفهم، لكنها لم تقل هذا؛ أخجلها أنْ تفكر على هذا النحو.

"سوف نأخذ أول طائرة إلى لاجوس يا آري، لذلك تقدرين أن ترتاحي قبل أن نبدأ التسوق. لا أريد أن نفعل أي شيء يكون مُجهِدًا لكِ،" قالت أولانا.

"ها، مجهد! أنا حامل فقط يا أختاه، لستُ مريضة، أوه. أليست امرأة مثلي تلك التي تعمل في الحقل حتى يطلب الجنين أن يخرج؟ وألست أنا الني حاكت ذلك الثوب؟" أشارت آريزي إلى الركن، حيث ماكينتها السينجر على الطاولة بين أكوام من الأقمشة.

"اهتمامي هو بطفلي الروحي الذي بالداخل، ليس بك،" قالت أولانا. رفعت بلوزة آريزي ووضعت وجهها قرب الاستدارة الصلبة لبطن آريزي، بالقرب من البشرة المشدودة، ذلك الطقس الرقيق الذي اعتادت عليه منذ حملت آريزي؛ الذي إذا فعلته باستمرار، تقول آريزي، سوف يتشرب الجنينُ ملامحَها ويغدو شبيهًا لها.

"لا أهتمُّ بالخارج،" قالت آريزي. "لكن يجب أن تشبهك من الداخل. لابد أن يكون لها عقلُك وتعرفُ الكتب."

"أو هو."

"لا، هذه المرة بنت، سوف ترين. نناكوانزي يقول إنه ولد سوف يشبهه، لكنني أخبرته أن الله لن يسمح لابني أن يمتلك هذا الوجه."

ضحكت أولانا. نهضت آريزي وفتحت صندوقًا من المينا وأحضرت بعض المال. "انظري ماذا أرسلتْ لي الأخت كاينين الأسبوع الماضي. قالت لأشتري أشياء للمولود."

"هذا لطيفٌ منها." أدركت أولانا أنها بدت متكلفة، وعرفت أن آريزي كانت ترقبها.

"أنت وكاينين لابد أن تتكلما. ما حدث في الماضي اتركاه في الماضي."

"نحن نتكلم فقط مع من يريدون الكلام معنا،" قالت أولانا. وأرادت أن تغير دفّة الحديث. دائمًا ما تود تغير الموضوع حين تُذكَر كاينين. "من الأفضل أن آخذ الصغيرة لتحيي الخالة إيفيكا." أسرعت لتفتش عن بيبي قبل أن تتمكن آريزي من قول شيء آخر.

غسلت وجه بيبي ويديها عن الرمال العالقة قبل أن يخرجا من البيت ويهبطا إلى الطريق. لم يكن العم مكبازي قد عاد بعد من السوق، فجلستا مع الخالة إيفيكا على المسطبة أمام كشكها، بيبي على حجر أولانا. كان الفناء زاخرًا بثرثرات الجيران وصراخ الأطفال الراكضين حولها تحت شجرة الكوكا. أحدهم كان يشغل موسيقى صاخبة من جراموفون، وسرعان ما بدأت مجموعة من الرجال في الضحك والتزاحم واحدًا فواحدًا، مقلدين الأغنية. ضحكت الخالة إيفيكا أيضًا وصفقت بيديها.

"ما المضحك؟" سألت أولانا.

"تلك أغنية ريكس لاوسون" قالت الخالة.

"ما المضحك بها؟"

"يقول أهلنا إن الكورال يشبه ممي-ممي-ممي، غمغمة الخراف." قهقهت الخالة. "يقولون إن ساردونا يشبه ذلك حينما كان يتوسل إليهم ألا يقتلوه. حينما أطلق الجنود المدفع في بيته، اختبأ خلف زوجاته وغمغم: "ممي، ممي، ممي، من فضلكم لا تقتلوني، ممي، ممي، ممي!"

ضحكت الخالة ثانية، وكذلك ضحكت بيبي، كأنما فهمت.

"أوه." فكرت أولانا في الشيخ أوكينجي وتساءلت ما إذا قيل أيضًا أنه غمغم مثل الخروف قبل أن يموت. نظرت بعيدًا نحو الطريق، حيث يلعب الأطفال بإطارات السيارات، يتسابقون وهُم يدحرجون الإطارات. كانت تتجمع في البعيد عاصفةٌ رملية، وعلا الغبارُ وسقط في سحابة بيضاء.

"ساردونا كان رجلاً شريرًا، *آجو ممادو*،" قالت الخالة إيفيكا. "كان يكرهنا. كان يكره كل مَن لا يخلع حذاءه وينحني أمامه. ألم يكن من منع أطفالنا من الذهاب إلى المدرسة؟"

"ما كان عليهم أن يقتلوه،" قالت أولانا سريعًا. "كان يجب أن يضعون في السجن."

زمجرت الخالة. "يضعونه في أي سجن؟ في هذه النجيريا التي يحكم فيها كل شيء؟" نهضت وبدأت تغلق الكشك. "تعالي، هيا ندخل لأجد للطفلة شيئا تأكله."

كانت أغنية ركس لاوسون تصدح عاليًا في بيت آريزي حينما عادت أولانا. وجدها نناكوانزي مرحة أيضًا. كان له سنّتان أماميتان ضخمتان، وكان عندما يضحك يبدو كأن أسنانه محشورة بألم في فمه الصغير. "ممي، ممي، ممي، العنزة تتوسل ألا تُقتل: ممي، ممي، ممي."

"ليس هذا مضحكًا،" قالت أولانا.

"أختاه، لكنها مضحكة أوه،" قالت آريزي. "بسبب الكثير من الكتب، لم تعودي تعرفين كيف تضحكين."

كان نناكوانزي جالسًا على الأرض عند قدمي آريزي، يدلك بطنها في حركات دائرية رقيقة. كان أقلَّ قلقًا من آريزي حينما تأخرت في الحمل في العام الأول والثاني والثالث من الزواج؛ وحينما أمه تزورهما كثيرًا، كانت تعبث ببطن آريزي وتحثها على الاعتراف كم مرة أجهضت نفسها قبل الزواج، ثم سأل أمه أن تكفَّ عن الزيارة. وسألها أيضًا أن تتوقف عن إحضار تلك المركبات قبيحة الرائحة لتشربها آريزي في جرعات مُرَّة. والآن بعد حمل آريزي، أصبح يعمل وقتًا إضافيًا في السكة الحديدية وسألها أن تكفَّ عن الحياكة.

كان ما يزال يغني الأغنية ويضحك. "العنزة تتوسل ألا تُقتل: ممي، ممي، ممي."

نهضت أولانا. كان نسيم الليل باردًا وغير مريح. "آري، يجب أن تذهبي للنوم، لكي تأخذي راحتك في السفر في الصباح إلى لاجوس."

همّ نناكوانزي بمساعدتها على النهوض، لكنها أزاحته جانبًا. "أخبرتكم يا ناس أنني لست مريضة. أنا حامل وحسب."

كانت أولانا مسرورة أن المنزل في لاجوس فارغ. اتصل والدها ليخبرهم أنهم سافروا. كانت تعلم أنه يريد أن يكون بعيدًا حتى تعود الأشياء لهدوئها، كان حذرا بشأن العشرة بالمائة خاصته وحياته المسرفة وعلاقاته المشبوهة، لكن لا هو ولا أمها يقولان ذلك. قالا إنهم في إجازة. كانت هذه سياستهما أن يتركوا الأشياء غير مُقالة، تماما كما تظاهرا بأنهما لا يلاحظان أنها وكاينين لم تعودا تتكلمان وأنها لا تأتي إلا حينما تتأكد أن كاينين ليست في زيارة.

في تاكسي المطار، علَّمت آريزي بيبي أغنيةً بينما كانت أولانا تشاهد اختلافات لاجوس: اضطراب المرور، الأتوبيسات الصدئة، والكتل البشرية المجهدة التي تنتظرها، البصاصين، الشحاذين يتدحرجون على عجلات خشبية مسطحة، الباعة الجائلين الرثين يدفعون للمارة صواني سواء اشتروا أم لم يشتروا.

توقف التاكسي أمام بيت والديها المسوّر في إيكوي. وتلصص السائق من البوابة. "الوزير الذي قتلوه كان يسكن بالقرب من هنا، *آبي آنتي*؟" سأل. تظاهرت أولانا أنها لم تسمعه وقالت للطفلة: "الآن، انظري ماذا صنعت لفستانك! أسرعي للداخل حتى ننظفه!"

فيما بعد، أخذهم سائق أمها إيبيكي إلى كينجزواي. السوبر ماركت كان يفوح برائحة الطلاء. تنقلت آريزي من جناح إلى جناح، تسجع الكلام، تلمس الأواني البلاستيكية، تلتقط ملابس أطفال، عربة طفل زهرية، عروس بلاستيكية بعينين زرقاوين.

"كل شيء يشع في السوبر ماركت يا أختاه،" قال آريزي وهي تضحك. "لا غبار!"

أمسكت أولانا فستانًا أبيض مطرزًا بشرائط زهرية. "*أو ماكا*. هذا رائع."

"هذا غال جدًّا،" قالت آريزي.

"لم يسألكِ أحد."

جذبت بيبي عروسةً من رفٍّ منخفض فقلبته رأسًا على عقب، فأحدث ضجيجًا.

"لا، بيبي." أخذت أولانا العروسة من بيبي ووضعتها مكانها.

تسوقوا لبرهة أطوال ثم غادروا إلى سوق يابا، حيث اشترت آريزي لنفسها أقمشة. كان شارع تيجوشو مزدحمًا، الأُسر تتجمع حول أواني الطعام، والنسوة تشوي الذرة في أحواض محترقة، والرجال عاريو الصدور يحملون الحقائب إلى عربات نقل بأيد مطبوع عليها حكمة: "لا حال دائمٌ. الله يعلم كل شيء." صف إيبيكي السيارة جوار حامل جرائد. رمقت أولانا الناس الواقفين يقرأون الديلي تايمز فشعرت بقدميها خفيفتين بالزهو. كانوا يقرأون مقالة أودينيبو، هي واثقة؛ كانت مقالته ببساطة أفضل ما هناك. لقد راجعتها بنفسها وخففت من حدة البلاغة بها، حتى تتضح فكرةُ السِّجال، حول أن وحدها الحكومة الوحدوية بوسعها أن تلغي الانقسامات والنزعات الإقليمية.

أخذتْ يد الصغيرة ومشت متجاوزةً الباعة الجائلين الجالسين تحت مظلات ومعهم بطارياتٌ وأقفال وسجائر مرتبة بعناية فوق صوانٍ من الميناء. مدخل السوق الرئيسي كان خاويًا على غير العادة. ثم شاهدت أولانا الزحام. وقف رجل في قميص أصفر في المنتصف، بينما رجلان يصفعانه واحدًا تلوَ الآخر، صفعاتٍ قويةً منتظمة: "لماذا الآن؟ لماذا تتكر؟" والرجل يحدق فيهما، بخواء، ويحني عنقَه خفيفًا بعد كل صفعة. توقفت آريزي.

نادى واحدٌ من الجمهور: "نحن نحصي الإيبو. *أويا*، تقدم وعرّف هُويتك. هل أنتِ أيبو؟"

دمدمت آريزي بصوت خافت: "*آي كوانا أوكوا*،" وكأنما أولانا تفكر في قول أي شيء، ثم هزت رأسها وبدأت تتكلم يوروبا عاليًا وبطلاقة، بينما بدأ الناس عَرَضًا يستديرون ويمضون إلى طريقهم. فقد التجمهرُ اهتمامه بهم. رجل آخر يرتدي سفاري كان يُصفع على مؤخرة رأسه. "أنت إيبو! لا تنكر ذلك! ببساطة قدّم هويتك!"

بدأت الصغيرة في البكاء. "مامي أولـلا! مامي أولـلا!"

حملت أولانا بيبي. ولم تتحدث هي وآريزي حتى عادتا للسيارة. كان إيبيكي مستعدًا وظل ينظر في المرآة الخلفية. "شاهدتُ الناس تجري،" قال.

"ما الذي يحدث؟"

هزت آريزي كتفيها. "تسمع شائعات أنهم يفعلون ذلك في كادونا وزاريا منذ الانقلاب؛ يخرجون في الشوارع بدأوا في ملاحقة الإيبو لأنهم يقولون إن الانقلاب صنعه الإيبو."

"*إيزي أوكوا*؟ حقا؟"

"نعم يا خالة،" قال إيبيكا بسرعة، كأنما كان ينتظر الفرصة ليتكلم. "خالي في إيبوتي ميتا لم يعد ينام في بيته منذ الانقلاب. كل جيرانه من يوروبا، قالوا له إن بعض الرجال جاءوا يبحثون عنه. ينام كلَّ ليلة في بيوت مختلفة، بينما يمارس عمله. وأرسل أطفاله للبلدة."

"*إيزي أوكوا*؟ حقا؟" كررت أولانا. شعرت بخواء. لم تكن تدري أن الأمور وصلت إلى هذا؛ في نسوكا، كانت الحياة معزولة والأخبار كاذبة، تعمل فقط كمادة عنف في أحاديث المساء، كمادة سخط لأودينيبو ومقالاته العنيفة.

"سوف تهدأ الأمور،" قالت آريزي ولمست ذراع أولانا. "لا تقلقي."

أومأت أولانا ونظرت للخارج إلى الكلمة المطبوعة على اللوري القريب: "لا يوجد تليفون للسماء." لم تصدق كم صار سهلاً أن ينكروا من هُم، أن يهزوا أكتافهم لكونهم إيبو.

"سوف تلبس ذلك الفستان الأبيض لتعميدها يا أختاه،" قالت آريزي.

"ماذا يا آري؟"

أشارت آريزي إلى بطنها. "ابنتك الروحية سوف تلبس ذلك الفستان الأبيض في تعميدها. شكرًا كثيرًا يا أختاه."

البريق في عيني آريزي جعل أولانا تبتسم؛ بالتأكيد سوف تهدأ الأمور. دغدغت الصغيرةَ، لكن الصغيرة لم تضحك. نظرت إليها الصغيرةُ بعينين مرتعبتين لم تكونا قد جفتا بعد من الدموع.

(9)

نظر ريتشارد إلى كاينين وهي تقفل سوستة فستانها الأرجواني وتلتفت إليه. غرفةُ الفندق كانت تشع بالضوء، فنظر إليها وإلى انعكاسها في المرآة وراءها.

"*نكي آ كا مما*،" قال. كان أجمل من الفستان الأسود في الفراش، الثوبُ الذي اشترته مبكرًا لحفل أبويها. انحنت في سخرية وجلست لتلبس حذاءها. بدت جميلة أكثر ببودرة الوجه وأحمر الشفاه وسلوكها المسترخي، ليست معقدة كما اعتادت أن تكون مؤخرًا، تطارد العقود مع شركة شيل-بي بي قبل أن تغادر، أزاح ريتشارد بعض الشعر النافر عن وجهها وقبلها من الجبهة، لكي يتجنب إفساد أحمر شفاهها.

كانت هناك بالونات ملونة في قاعة معيشة والديها. الحفل كان جاريًا. الخدم في أسودهم وأبيضهم يمرون هنا وهناك بالصواني والابتسامات المِهنية، أكفُّهم مُعلَّقةٌ عاليًا. تتلألأ الشمبانيا في الكؤوس الطويلة، وثريات السقف تعكس أضواءها فتنعكس على بريق الجواهر في جيد النساء البدينات، وفريق "الحياة العليا" يعزفون في الركن بصخب، بعنف، حتى كان الضيوف يقتربون من بعضهم البعض ليسمعوا بعضهم.

"أرى الكثير من الرجال الكبار في النظام السياسيّ الجديد،" قال ريتشارد.

"أبي لم يضع الوقت في الحصول على الحظوة،" قالت كاينين في أذنه. "هرب حتى تهدأ الأمور، والآن عاد ليصنع أصدقاء جددًا."

مسح ريتشارد بعينيه بقية الغرفة. العقيد مادو يقف بعيدًا، بكتفيه العريضين ووجهه العريض وملامحه العريضة ورأسه التي كانت فوق رؤوس الجميع. كان يتحدث إلى رجل عربي في بذة عشاء ضيقة. ذهبت إليهم كاينين لتقول هاللو بينما ذهب ريتشارد ليبحث عن شراب، لكي يتجنب الحديث إلى مادو وحسب.

جاءت والدة كاينين وقبلته في خده؛ كان يعلم أنها ثملة، وإلا لكانت حيته بالبرود المعتاد: "كيف حالك؟" أما الآن فقد أخبرته أنه يبدو جيدًا وحبسته في ركن غير محظوظ في نهاية القاعة، بحائط خلف ظهره، وتمثال مرعب، شيء يشبه أسدًا يزمجر، إلى جواره.

"أخبرتني كاينين أنك ستعود إلى موطنك لندن قريبًا؟ سألت. بشرتُها الأبنوسية بدت شمعيةً من فرط الماكياج. وثمة عصبية في حركاتها.

"نعم، سأرحل لمدة عشرة أيام."

"فقط عشرة أيام؟" ابتسمت نصفَ ابتسامة. ربما تمنت أن يظل بعيدا لمدة أطول، وبذا تقدر أن تجد شريكًا مناسبًا لابنتها. "لزيارة أهلك؟"

"ابن عمي مارتين سوف يتزوج،" قال ريتشارد.

"أوه، نعم." الصفوف والصفوف من الذهب حول رقبتها أثقلتها وجعلت رأسها يبدو مسترخيًا، كأنما واقعة تحت ضغط ضخم، وبمحاولتها الجهيدة ألا تبدو هكذا، بدا ذلك أكثر وضوحًا. "ربما سوف يكون علينا أن نشرب في لندن إذًا. أخبرتُ زوجي أنني يجب أن نأخذ إجازة قصيرة أخرى. ليس لأن شيئًا ما سوف يحدث، لكن لأن أحدًا غير سعيد بهذا الحكم القضائي الوحدوي الذي تتكلم عنه الحكومة. من الألطف أن نظل بعيدًا حتى تستقر الأمور. ربما نغادر الأسبوع القادم لكننا لن نخبر أحدًا، لذا احتفظْ بالأمر لنفسك." لمستْ كمَّه بعبث، فلمح ريتشارد لمحةً من كاينين عند زاوية فمها. "نحن حتى لن نخبر أصدقاءنا آل آجياس. هل تعرف الشيخ آجياس، صاحب شركة القوارير؟ هم من إيبو، لكنهم إيبو غربيون. سمعت أنهم ينكرون أنهم إيبو. مَن يدري ماذا سيقولون أننا فعلنا؟ من يدري؟ سوف يبيعون بقية الإيبو بقرش ممسوح. قرش ممسوح كما أقول لك. هل تريد مزيدًا من الشراب؟ انتظر هنا وسوف آتيك بكأس آخر. فقط انتظر هنا."

بمجرد أن ترنحت بعيدًا، راح ريتشارد يبحث عن كاينين. وجدها في الفيراندا مع مادو، تقف وتنظر إلى حوض السباحة بالأسفل. رائحة اللحم المشوي كانت تملأ الهواء. نظر إليهما برهةً. رأس مادو كان مائلاً قليلا إلى الناحية التي تتكلم فيها كاينين، بدا جسدُها ضعيفًا جوار هيكله الضخم، وبدوا معا بطريقة ما مناسبين لبعضهما البعض. كلاهما غامق البشرة، أحدهما طويل ونحيل، والآخر طويل وضخم. استدارات كاينين وشاهدته.

"ريتشارد،" قالت.

انضم إليهما، صافح مادو. "كيف حالك مادو؟ *آ نا-إميكوا*؟" سأل وهو حريص على أن يتكلم أولاً. "كيف الحال في الشمال؟"

"لا شيء يُشكى منه،" قال مادو بالإنجليزية.

"ألم تأت مع آداوبي؟" لم يتمن أن يأتي الرجل كثيرًا دون زوجته.

"لا،" قال مادو، وارتشف شرابه؛ بدا واضحًا أنه ما أراد أن يقطع أحدٌ هذا الحديث.

"شاهدتُ أمي تهتم بكَ، يا له من أمر مثير،" قالت كاينين. "مادو وأنا كنا ملازمين لأحمد هناك لبرهة. يريد أن يشتري مستودعات أبي في إكيجا."

"والدك لن يبيعه أي شيء،" أوضح مادو، كأنما كان قراره هو. "هؤلاء السوريون واللبنانيون يمتلكون بالفعل نصف لاجوس، وهم جميعًا نهازو فرص بشكل فظيع في هذه البلد."

"سأبيعُ له لو اختفت رائحة الثوم الفظيعة التي تشعُّ منه،" قالت كاينين.

"ضحك مادو.

دسَّت كاينين يدها في يد ريتشارد. "كنت للتو أخبر مادو أنك تعتقد أن انقلابًا آخر سوف يأتي."

"لن يكون هناك انقلاب ثان." قال مادو.

"كنت ستعرف، أليس كذلك يا مادو؟ كولونيل ورجل مهم مثلك أنت الآن،" مازحته كاينين.

أحكم ريتشارد قبضته على يدها. "ذهبتُ إلى زاريا الأسبوع الماضي، وكان الجميع يتحدث عن انقلاب ثان. حتى راديو كادونا وجريدة نيجيريا الجديدة،" قال بالإيبو.

"وماذا تعرف الصحافة حقًّا؟" كرر مادو بالإنجليزية. دائمًا يفعل ذلك؛ منذ أصبحت إيبوية ريتشارد شبه متقنة، يصر مادو على الرد بالإنجليزية حتى يضطر ريتشارد إلى الرجوع إلى الإنجليزية.

"الصحف تنشر مقالات عن الجهاد، وراديو كادونا ظل يذيع خطب الراحل ساردونا وكان هناك كلام حول كيف الإيبو سوف يستولون على الخدمة المدنية و-"

قاطعه مادو. "لن يكون هناك انقلاب ثان. هناك توتر طفيف بالجيش، لكن دائمًا كان هناك توتر طفيف بالجيش. هل تذوقت لحم العنزة؟ أليس رائعًا؟"

"نعم،" وافق ريتشارد تقريبًا أوتوماتيكيًّا، ثم تمنى لو لم يفعل. الهواء في لاجوس رطبٌ؛ والوقوف جوار مادو بدا خانقًا. جعله الرجل كأنه لا علاقة له بالأمر.

حدث الانقلاب الثاني بعد أسبوع، وكان شعور ريتشارد الأول هو الارتياح. كان يعيد قراءة خطاب مارتين في الحديقة، جالسًا على البقعة التي أخبرته كاينين أن أخدودًا بنفس حجم وشكل مؤخرته قد ظهرت بها.

هل "أن تكون مواطنًا" مازالت تستخدم؟ كنت أعلم دائمًا أنك سوف تفعل! أخبرتني أمي أنك أقلعت عن كتاب الفن القبِلي وإنك سعيد مع هذا، نوع من أدب الرحلات؟ وعن الشر الأوروبي في أفريقيا! أنا شغوف جدًّا أن أسمع عنها أكثر حينما تأتي لندن. خسارة أن تركت العنوان القديم: "سلة الأيادي." هل الأيادي بُترت في أفريقيا أيضًا؟ كنت أظن أن ذلك كان في الهند فقط. لقد خُدعت!

ص173 تخيل ريتشارد ابتسامة مارتين التي كان دائمًا يبتسمها حينما كانا في المدرسة، في تلك السنوات التي أغرقتهما فيها الخالة إليزابيث في النشاطات بإصرارها المهووس بأنه لا مجال للجلوس بخمول: مباريات كريكيت، دروس ملاكمة، تنس، دروس بيانو مع فريشمان. ازدهر مارتين في كل هذا، دائمًا مع تلك البسمة العليا التي تميز البشر الذين ولدوا لينتموا للتفوق.

مد ريتشارد يده ليقطف زهرة تشبه الخشخاش. وتساءل كيف سيكون عرس كاترين؛ خطيبة مارتين مصممة الأزياء. لو فقط تذهب معه كاينين؛ لو أن ليس عليها أن تبقى لتوقِّع العقد

الجديد. كان يريد أن تراها الخالة إليزابيث ومارتن وفرجينيا، لكن أكثر من يريد أن يروه، هو ذلك الرجل الذي أصبحه بعد سنواته هنا: لكي يروا أنه أصبح أغمق لونًا وأكثر سعادة.

جاءه إكيجيدي. "مستر ريتشارد، يا صاح! السيدة تقول أن تأتي. هناك انقلاب آخر،" قال إكيجيدي. بدا مُثارًا.

أسرع ريتشارد للداخل. كان على حق؛ ومادو على خطأ. رطوبة يوليو الحار جعلت شعره لزجًا ملتصقًا برأسه، فمرر يده عبره ومشى. كانت كاينين جالسة على أريكة في غرفة المعيشة، عاقدة ذراعيها، تتأرجح للأمام والخلف. الصوت البريطانيّ في الراديو كان عاليًا فرفعت صوتها وهي تقول: "المسئولون الشماليون استولوا على السلطة. تقول BBC إنهم يقتلون موظفي الإيبو في كادونا. وراديو نيجيريا لا يقول أيَّ شيء." كانت تتكلم بسرعة. وقف وراءها وبدأ يدلك كتفيها، ويفرك عضلاتها الصلبة في حركات دائرية. ومن الراديو كان الصوت البريطاني المتسارع يقول إنه أمر غير اعتياديّ للغاية أن يحدث انقلاب ثان بعد ستة أشهر فقط من اندلاع الأول.

"غيرُ اعتياديّ. غيرُ اعتياديّ حقًّا،" قالت كاينين. مدت يدها، وبحركة مفاجئة عصبية دفعت الراديو عن الطاولة. وقع على السجادة، وتدحرجت البطارية منه. "مادو في كادونا،" قالت، ووضعت وجهها في يديها. "مادو في كادونا."

"كلّ شيء على ما يرام يا حبيبتي،" قال ريتشارد. "اطمئني."

لأول مرة فكر في إمكانية موت مادو. قرر عدم الرجوع إلى نسوكا لبعض الوقت ولم يكن يدري لماذا. هل لأنه يريد بالفعل أن يكون معها حين تسمع بموت مادو؟ في الأيام القليلة التالية، كانت كاينين متوترة وقلقة جدًّا حتى إنه بدأ يقلق بدوره على مادو واستاء من نفسه أن فعل ذلك، ثم استاء من استيائه. لم يكن يجب عليه أن يكون شفوقًا هكذا. ثم أشركته بعد ذلك في قلقها، كأنما مادو كان صديقهما معا وليس فقط صديقها. أخبرته عن الناس الذين هاتفتهم، عن الاستخبارات التي فعلتها لتعرف ما الذي حدث. لا أحد يعرف شيئًا. زوجة مادو لم تسمع شيئًا. وكانت الفوضى تعمُّ لاجوس. ووالداها قد سافرا إلى إنجلترا. العديد من المسئولين في لاجوس قد قُتلوا. عمليات القتل كانت منظمة؛ أخبرته عن الجندي الذي قال إنهم سمعوا صوت حشد موكب الكتائب في ثكنته وبعدما انتظم الجميع في صفوفهم، التقط الشماليون كل جنود الإيبو وأخذوهم بعيدًا ثم أطلقوا النار عليهم.

كانت كاينين ساكنةً وصامتة لكن غير دامعة أبدًا، لذلك في اليوم الذي أخبرته: "سمعتُ شيئًا،" بنشيج في صوتها، كان متأكدًا أنه خبر عن مادو. فكر في كيف سيواسيها، إذا ما كان قادرًا على مواساتها.

"أودودي،" قال كاينين. "لقد قتلوا اللواء أودودي إكيتشي."

"أودودي؟" لقد كان واثقًا أن الأمر متعلقٌ بمادو لدرجة أنه ظل محايدًا لبرهة.

"الجنود الشماليون وضعوه في زنزانة في الثكنات وأطعموه برازه الخاص. وهو أكل برازه."
توقفت كاينين. "ثم ضربوه حتى فقد الوعي ثم ربطوه إلى صليبٍ حديديّ ثم ألقوا به في الزنزانة من جديد. ومات مربوطًا إلى الصليب الحديدي. مات فوق الصليب."
جلس ريتشارد ببطء. كراهته لأودودي- - صاخبٌ، مخمورٌ، يقطرُ النفاقُ من مسامه—تعمّقت فقط في السنوات الماضية. لكن سماعه بميتته تركه صامتًا. فكر ثانيةً، في موت مادو واكتشف أنه لا يعرف كيف سيشعر به؟
"مَن أخبركِ بذلك؟"
"ماريا أوبلي. زوجة أودودي هي ابنة عمها. قالت إنهم يقولون إن لا مسؤل إيبو في الشمال قد فرّ. لكن بعض مواطني أومونانتشي قالوا إنهم سمعوا أن مادو قد فرَّ!. أداوبي لم تسمع أي شيء. كيف استطاع أن يهرب. كيف؟"
"ربما يختبئ في مكان ما."
"كيف؟" سألت مجددًا.

ظهر الكولونيل مادو مرتين في منزل كاينين بعد أسبوعين، ولم يتذكر ريتشارد مَن تقدم نحو مَن أولاً، لكن كاينين ومادو كانا يتعانقان بقوة، وراحت كاينين تمسُّ ذراعي مادو ووجه بحنوٍّ حتى أن ريتشارد أشاح بوجهه بعيدًا. مشى إلى خزانة الشراب وصب بعض الويسكي لمادو وبعض الجين لنفسه.
"شكرًا يا ريتشارد،" قال مادو، لكنه لم يأخذ الكأسَ ووقف ريتشارد هناك، حاملا الكأسين، قبل أن يضعه على الطاولة.
جلست كاينين إلى المائدة أمام مادو. "يقولون إنهم أطلقوا النار عليك في كادونا، ثم قالوا إنهم دفنوك حيًّا في منطقة غابات، ثم قالوا إنك هربت، ثم قالوا إنك في سجن في لاجوس."
لم يقل مادو شيئًا. حدّقت فيه كاينين. أنهى ريتشارد شرابه وصبّ كأسًا أخرى.
"هل تذكرين صديقي إبراهيم؟ من ساندهرست؟" سأل مادو أخيرًا.
أومأت كاينين.
"لقد أنقذ إبراهيم حياتي. أخبرني عن الانقلاب ذلك الصباح. لم يكن متورطًا بشكل مباشر، لكن معظمهم- - المسئولين الشماليين—كانوا يعرفون موعده. أخذني إلى بيت ابن عمه، لكنني لم أفهم بالضبط حتى سأل ابن عمه أن يأخذني إلى الفناء الخلفيّ، حيث يحتفظ بحيواناته المنزلية. ونمتُ في حظيرة الدجاج ليومين."
"لا! *إكوزينا*!"
"وهل تعرفين أن الجنود جاءوا ليفتشوا بيت ابن عمه بحثًا عني؟ الكل يعرف كيف كنا إبراهيم وأنا متقاربين، وقد شكّوا أنه ساعدني على الفرار. ومع هذا لم يفتشوا في حظيرة الدجاج."

توقف الكولونيل مادو، مومئًا وناظرًا إلى البعيد. "لم أكن أعرف إلى أي مدى رديئة هي رائحةُ تغوّط الدجاج حتى نمت هناك ثلاثة أيام. في اليوم الثالث، أرسل لي إبراهيم بعض الثياب والمال مع ولد صغير وسألني أن أرحل فورًا. لبستُ ثيابَ بدويّ ومشيت عبر القرية الصغيرة لأن إبراهيم قال إن جنود سلاح المدفعية قد وضعوا حواجزَ في كل الطرق الرئيسية في كادونا. وكنت محظوظًا إذْ أخذني سائق لوري، رجل إيبو من أوهافيا، إلى كفانخان. ابن عمي يسكن هناك. تعرفين أونيونكو، أليس كذلك؟" لم ينتظر مادو كاينين لتجيب. "هو رئيس محطة السكة الحديد، وأخبرني أن الجنود الشماليين قد أغلقوا جسر ماكوردي. أي أن هذا الجسر قد غدا قبرًا. كانوا يبحثون عن كل سيارة، وأجلّوا قطارات الركّاب لأكثر من ثمان ساعات، وكانوا يطلقون الرصاص على كل الجنود الإيبو الذين يكتشفونهم هناك ويلقون بالجثث من شاهق. معظم الجنود كانوا متنكرين لكنهم كانوا يعرفونهم عن طريق أحذيتهم."

ماذا؟" مالت كاينين للأمام.

"الأحذية الطويلة." أومأ مادو لحذائه. "تعرفين أننا نحن الجنود نلبس أحذيةً طويلة طوال الوقت لذلك كانوا يفحصون قدم كل رجل، وكل رجل إيبو له قدمان نظيفتان وغير متشققتين كانوا يأخذونه بعيدًا ويطلقون عليه الرصاص. ظلت كاينين ناظرة إلى مادو وقتا طويلا بعدما أنهى حديثه. وكان هناك وقت آخر من الصمت جعل ريتشارد غير مرتاح لأنه لم يكن يدري كيف يكون رد فعله، ولا أي تعبير يتخذ.

"مستحيل أن يتعايش الجنود الشماليون مع جنون الإيبو في الثكنات ذاتها بعد ذلك أبدًا. مستحيل،مستحيل،" قال اللواء مادو. كانت هناك نظرة زجاجية في عينيه. "ولا يمكن أن يكون جوون رئيسًا للبلد. لن يقدروا أن يفرضوا جوون علينا كرئيس. ليس هكذا تتم الأمور. هناك آخرون أكبر منه سنًّا وأرشد."

"ما الذي سوف تفعله الآن؟" سألتْ كاينين.

بدا مادو كأنما لم يسمعها. "الكثير منا قد مات،" قال. "الكثير من الرجال الصلبين الجيدين— أودودي، إلوبوتافي، أوكونويزي، أوكافور—وهؤلاء كانوا الرجال الذين آمنوا بنيجيريا دون أن يعبأوا بالقبلية. ورغم كل شيء كان أودودي يتكلم هاوسا أفضل مما يتكلم إيبو، وانظروا كيف ذبحوه." نهض وراح يخطو الغرفة. "المشكلة كانت هي سياسة الاتزان العقائدي. كنتُ جزءا من الاتفاقية لذا أخبرت القيادة العامة المركزية أننا يجب أن نوقف ذلك، وأن هذا يفتت الجيش في استقطابات عديدة، وأنهم يجب أن يتوقفوا عن ترقية الشماليين غير المؤهلين. لكن قيادتنا العامة المركزية قالت لا، قيادتنا العامة البريطانية المركزية." استدار مادو ونظر إلى ريتشارد.

"سأطلب إلى إيكيدجي أن يطهو لك أرزًا مخصوصًا،" قالت كاينين.

هز مادو كتفيه دون اكتراث وحدّق بعيدًا من النافذة.

(10)

جهَّزَ آجوو المائدةَ للعشاء. "لقد انتهيتُ يا صاح،" قال، رغم أنه يعرف أن السيد لن يقرب حساء أوكرو وسيظل يمشي على طول غرفة المعيشة والراديو دائرٌ على أعلى صوت، كما ظلَّ يفعل منذ غادرت ميس آديبايو قبل ساعة. كانت قد طرقت الباب بعنف شديد حتى أن آجوو خاف أن يتهشم الزجاج، وحين فتح الباب دفعته بعيدًا وهي تسأل: "أين سيدك؟ أين سيدك؟"

"سوف أناديه يا ماه،" قال آجوو، لكن آديبايو هرعت إلى غرفة المكتب. سمعها تقول: "هناك مشاكل في الشمال،" فجفَّ حلقُه لأن آديبايو لم تكن من النوع المبالغ أيًّا ما كان يحدث في الشمال لابد أن يكون خطيرًا وأولانا كانت في كانو.

منذ حدث الانقلاب الثاني قبل أسابيع، حينما قُتل الجنود الإيبو، وهو يجاهد أن يفهم ما الذي يحدث، يقرأ الصحف بتركيز أكبر، ينصت باهتمام للسيد وضيوفه. لم تعد الجلسات تنتهي بالضحكات الواثقة، وقاعة المعيشة بدت غالبًا مضببة بغيوم عدم الثقة، بالمعرفة غير المكتملة، كأنما الجميع يعلم أن شيئًا ما سيحدث لكنهم لا يعرفون ما هو. لا أحد منهم كان يتخيل أبدًا أن هذا سوف يحدث، أن إينجو اديو ENBC سوف يقول الآن، بينما آجوو يبسط مفرش المائدة: "لقد تأكدت التقارير الآن أن حوالي خمسمائة من رجال الإيبو قد قتلوا في ميدوجوري."

هراء!" هتف السيد. "هل سمعتَ هذا؟ هل سمعتَ هذا؟"

"نعم يا صاح،" قال آجوو. كان يأمل ألا يوقظ الصوتُ العالي بيبي بالأعلى من غفوة قيلولتها.

"مستحيل!" قال السيد.

"صاح، حساؤك،" قال آجوو.

"خمسمائة رجل قُتلوا. كلام فارغ تمامًا! لا يمكن أن يكون هذا حقيقيًّا."

أخذ آجوو الصحن إلى المطبخ ووضعه في الثلاجة. أصابته رائحة البهارات بالغثيان، كما فعل شكل الحساء، والطعام. لكن بيبي سوف تصحو حالاً وعليه أن يجهز عشاءها. أخرج سلة بطاطس من الخزين وجلس يحدّق فيها، يفكر فيما كان قبل يومين، حينما سافرت أولانا إلى كانو لتتفقد الخالة آريزي، وكيف كان شعرها المضفور مشدودًا إلى بشرة جبينها فجعلها لامعة مصقولة.

دخلت بيبي المطبخَ. "آجوو."

"*آي تيتاجو*؟ هل صحوتِ؟" سأل آجوو، قبل أن يحتضنها. وتساءل ما إذا كان السيد قد رآها وهي تمرُّ عبر قاعة المعيشة. "هل شاهدتِ الكتاكيت في حُلمك؟"

ضحكت بيبي فغطست غمّازتاها في وجنتيها. "نعم!"

هل تحدثتِ معها؟"

"نعم!"

"ماذا قالتْ؟"

لم تعط بيبي الإجابة المعتادة. تحررت من رقبته وتربعت على الأرض. "أين مامي أوللا؟

"مامي أوللا سرعان ما تعود." اختبر آجوو نصلَ السكين. "والآن، ساعديني في تقشير البطاطس. ضعي القشور كلها في السلة، وحين تعود مامي أوللا، سوف نخبرها أنكِ ساعدتِ في الطهو.

بعدما وضع آجوو البطاطس للسلق، أعطاها حمّامًا، ثم رش جسمها ببودرة التلك اللؤلؤية، ثم أخرج لها منامتها الوردية. كانت تلك التي تحبها أولانا، المنامة التي تقول إنها تجعل بيبي تبدو مثل الدُمية. لكن بيبي قالت: "أريد بيجامتي،" فلم يعد آجوو واثقًا أي بيجاما تحبها أولانا أكثر، المنامة أم البيجاما.

سمع طرقةً على الباب الرئيسي. ركض السيد خارجًا من مكتبه. اندفع آجوو إلى الباب وقبض على المقبض أولاً ثم أمسك به، لكي يكون الشخص الذي يفتحه، رغم أنه يعرف أنها لا يمكن أن تكون أولانا. لأن لديها مفتاحها الخاص.

"هل هو أوبيوزو؟" سأل السيد، وهو ينظر إلى واحد من الاثنين الواقفين على الباب. "أوبيوزو؟"

حينما رأى آجوو الرجلين ذوي العيون المفرّغة في ثيابهما القذرة، عرف أن عليه أن يأخذ بيبي بعيدًا، يحجبها. أخذ طعامها إلى غرفة النوم، وأجلسها إلى طاولة اللعب، وأخبرها أن تتظاهر بأنها تأكل مع جيل سانس. وقف جوار الباب الذي يؤدي إلى الردهة وتلصص على قاعة المعيشة. أحد الرجلين كان يتكلم، بينما الآخر يشرب من قنينة الماء، والكأس مهملة على الطاولة.

"رأينا سائق لوري وافق على حملنا،" قال الرجل، وأدرك آجوو فورًا أنه قريب السيد؛ لهجته الآبا كانت ثقيلة، كل f كانت تنطق v.

"ماذا حدث؟" سأل السيد.

وضع الرجل قنينة الماء وقال بهدوء: "كانوا يقتلوننا مثل النمل. هل تعي ما أقول؟ النمل."

"لقد رأت عيوننا الكثير، *آني آفيوجو آنيا*،" قال أوبيوزو. "لقد رأيت عائلة بأكلمها، الأب والأم وثلاثة أطفال، ملقيين على الطريق المؤدي إلى جراج السيارات. فقط ملقيين هناك."

"ماذا عن كانو؟ ماذا يحدث في كانو؟" سأل السيد.

"لقد بدأ الأمر في كانو،" قال الرجل.

أوبيوزو كان يتكلم، قائلاً شيئًا عن النسور والجثث المرمية كالنفايات خارج حوائط المدينة، لكن آجوو لم يعد ينصت. "*لقد بدأ الأمرُ في كانو*" ظلت تدق رأسه. لم يشأ أن يرتب غرفة

الضيوف ويُخرج ملاءات سرير ويدفئ الحساء ويعدّ جاري طازجًا للرجلين. أراد أن يرحلا فورًا. أو، إذا كانا لن يرحلا، ودّ لو يغلقا فميهما القذرين. وود أن يصمت مذيعو الراديو أيضًا، لكن شيئًا من هذا لم يحدث. ظلوا يعيدون أخبار القتل في ميديوجوري حتى أراد آجوو أن يقذف بالراديو من النافذة، وعند الأصيل التالي، حينما غادر الرجلان، جاء صوت جليل من راديو ENBC يسرد وقائع شهود عيان من الشمال: المدرسون ممزقون في زاريا، كنيسة كاثوليكية كاملة أُضرمت فيها النيران، أُجهضت سيدةٌ حامل في كانو. توقف قارئ الأخبار. "بعض الأهالي عائدون الآن. المحظوظون عائدون. محطات القطارات ممتلئة بأهالينا. لو كان لديكم شاي وخبزٌ فائض من فضلكم خذوها إلى المحطات. ساعدوا إخوانكم في محنتهم."

وثب السيد من الأريكة. "اذهبْ يا آجوو،" قال. "خذْ الشاي والخبزَ واذهبْ إلى محطة القطار."

"حاضر يا صاح،" قال آجوو. وقبل أن يجهز الشاي، قلى بعضًا من لسان الحمل لعشاء بيبي.

"وضعت عشاء بيبي في الفرن، يا صاح،" قال.

لم يكن واثقًا من أن السيد قد سمعه وفيما يغادر، كان يخشى أن بيبي قد تجوع وألا يعرف السيد أن عشاءها في الفرن. وظل قلقًا حتى ذهب إلى المحطة. الحصير والدثارات القذرة كانت منثورة في كافة أرجاء المحطة والناس مكومون عليها، الرجال والنساء والأطفال يبكون ويأكلون الخبز ويضمدون الجروح. الباعة الجائلون يسيرون والصواني فوق رؤوسهم. لم يشأ آجوو أن يدخل في هذا السوق الأشعث لكنه قوّى نفسه ومشى صوب رجل جالس على الأرض بخرقة ملطخة حمراء تربط رأسه. كان الذباب يطنُّ في كل مكان.

"هل تريد بعض الخبز؟" سأل آجوو

"نعم يا أخي. *دالوز*. شكرًا لك."

لم ينظر آجوو ليرى إلى أي عمق جرحت السكين رأسه. صبّ الشاي وحمل الخبز؟ لن يتذكر هذا الرجل في الصباح لأنه لم يرد أن يتذكره.

"هل تريد بعض الخبز؟" سأل آجوو رجلاً آخر مجاورًا، كان يجلس مقوّسًا. "*آي شورو*؟"

استدار الرجل. تراجع آجوو وكاد يُسقط الدورق. عين الرجل اليمنى لم تكن هناك، مكانها كتلة حمراء رخوة.

"إنهم الجنود من أنقذونا،" كان الرجل الأول يقول، كأنما أحسّ أنه يجب أن يحكي حكايته مقابل الخبز الذي كان يأكله مغموسًا بالشاي. "أخبرونا أن نركض إلى ثكنات الجيش. هؤلاء المجانين كانوا يتصيدوننا مثل الخراف الهاربة، لكن بمجرد أن دخلنا بوابات الثكنات كنا في أمان."

توقف قطارٌ كسيح، ملئ للغاية حتى أن بعض الناس كانوا معلقين من خارج العربات، قابضين على المزالج الحديدية. شاهد آجوو أناسا مجهدين مغبرين دامين ينزلون، لكنه لم يشارك أولئك الذين اندفعوا للمساعدة. لم يتحمل فكرة أن تكون أولانا ضمن أولئك المنهارين المنهزمين،

ولكنه أيضا لم يتحمل أن يفكر أنها ليست بينهم وأنها مازالت هناك، في مكان ما بالشمال. راقب حتى خلا القطار. لم تكن أولانا هناك. أعطى بقية الخبز للرجل ذي العين الواحدة، واستدار وجرى. لم يتوقف حتى وصل شارع أوديم وتجاوز الغابة ذات الزهور البيضاء.

كانت أولانا جالسة في شرفة محمد، تشرب حليب أرز مثلج، تضحك من القطرات الباردة اللذيذة التي تقطر في حلقها، وتلسع شفتيها، حينما ظهر البواب سائلاً أن يتحدث إلى محمد.

غادر محمد ثم عاد بعد دقائق، حاملاً ما يشبه الكتيب. "هناك شغب،" قال.

"الطلاب أليس كذلك؟" سألت أولانا.

"أعتقدُ أنهم المتدينون. يجب أن تغادري فورًا." قال وهو يتجنَّب عينيها.

"محمد اهدأ."

"يقول سول إنهم يغلقون الطرقات ويبحثون عن الملحدين. تعالي، تعالي." توجه إلى الداخل. فتبعته أولانا. كان قلقًا للغاية. الطلبة المسلمون كانوا يتظاهرون دائمًا لشيء أو لآخر على كل حال، ويتحرشون بالناس الذين يرتدون الملابس الغربية، لكنهم دائمًا سرعان ما يختفون.

دخل محمد غرفة وخرج يحمل طرحةً طويلة.

"البسي هذه، حتى تندمجي وسطهم،" قال.

وضعتها أولانا على رأسها ولفّتها حول عنقها.

"أبدو تمامًا مثل امرأة مسلمة،" قالت مازحة.

لكن محمد بالكاد ابتسم. "هيا نمضي، أعرف طريقًا مختصرة إلى محطة القطار."

"محطة قطار؟ آريزي وأنا لن نغادر قبل الغد يا محمد،" قالت أولانا. وركضت تقريبًا لتلحق به. "سأغادر إلى بيت عمي في سابون جاري."

"أولانا." أدار محمد السيارة؛ ارتجّت وهو يقلع. "سابون جاري ليست آمنة."

"ماذا تعني؟" شدَّتِ الطرحةَ بقوة؛ كان التطريز على حوافها خشنًا وغير مريح على رقبتها.

"قال سول إنهم منظمون جدًّا."

حملقت فيه أولانا، وارتعبت فجأة لمرآه مرتعبًا. "محمد؟"

كان صوته خفيضًا. "يقول إن جثث الإيبو ملقاةٌ في طريق المطار."

أدركت أولانا حينئذ أنها لم تكن مجرد مظاهرة أخرى من الطلبة المتدينين. خنق الخوفُ حلقها. قبضت يديها معًا. "من فضلك دعني أجمع أهلي أولاً،" قالت. "أرجوك."

توجّه محمد صوب سابون جاري. مرّت حافلةٌ، مغبّرة وصفراء؛ بدت مثل حافلات الحملات العسكرية التي يستعملها الساسةُ ليتجولوا بها في القرى ليعطوا القرويين الأرز والمال. كان هناك رجل متعلق في الباب، ينطق بحروف ضاغطة، تزأر كلماته. "الإيبو يجب أن يرحلوا. الكفرة ليرحلوا. ليرحل الأيبو." مد محمد يده وضغط على يدها وظل يمسكها وهو يقود السيارة

مارًّا بين حشود من الشباب على الجانبين، ينشدون، "آرابا، آرابا!" أبطأ وأطلق نفير السيارة عدة مرات في إصرار؛ لوّحوا فاسترد سرعته من جديد.

في سابون جاري، كان الشارع الأول خاليا. رأت أولانا الدخان يتصاعد مثل ظلال رمادية طويلة قبل أن تستنشق رائحة حريق.

"ابقي هنا،" قال محمد، وهو يوقف السيارة خارج بين الخال مبازي. شاهدته وهو يجري للخارج. بدا الشارع غريبًا، غير اعتياديّ؛ بوابة البناية كانت محطمة، ألواح الحديد على الأرض. ثم لاحظت كشك الخالة إيفيكا، أو ما تبقى منه: شرائح من الخشب، أكياس الحبوب مرمية في التراب. فتحت باب السيارة ووثبت للخارج. توقفت لبرهة بسبب الوهج والحرارة، وألسن اللهب تتدلع من السطح، الشظايا والرماد تتطاير في الخواء، قبل أن تجري للداخل. توقفت حين شاهدت الجثث. الخال مبازي ملقًى على وجهه ملتوٍ على نحو بشع، وساقاه مفلطحتان. وثمة شيء لزج أبيض ينزّ من جرح غائر في مؤخرة رأسه. الخالة إيفيكا ترقد في الشرفة. التمزقات في جسدها العاري كانت أصغر، منقّطةً ذراعيها وساقيها مثل شفاه حمراء مفتوحة قليلة.

شعرت أولانا بغثيان رطب في أمعائها قبل أن ينتشر الخدر في جسدها ويتوقف عند قدميها. راح محمد يسحبها، يجذبها، قبضته آلمت ذراعَها. لكنها لم تستطع أن تغادر دون آريزي. آريزي قد تلد في أي وقت. وآريزي كانت بحاجة لأن تكون قريبة من طبيب.

"آريزي،" قالت. "آريزي في الطريق."

كان الدخان يتكاثف من حولها حتى أنها لم تكن واثقة ما إذا كان حشد الرجال الذين يتراكمون في الفناء حقيقيين أم مجرد خيالات دخانية، إلا أن رأت نصال فؤوسهم المعدنية اللامعة وسكاكينهم، وقفاطينهم الملطخة بالدماء التي تخفق حول سيقانهم.

دفعها محمد داخل السيارة ثم دار حولها وركب. "ابقي وجهك لأسفل،" قال.

"لقد صفيّنا الأسرة كلّها. تلك إرادة الله!" هتف أحد الرجال بالهاوسا. كان الرجل مألوفًا. كان عبد الملك. لكز أحد الجثث على الأرض بقدمه ولاحظت أولانا وقتها كم عدد الجثث الراقدة هناك، مثل الدُّمى المصنوعة من القماش.

"من أنتما؟" سأل آخر، وهو يقف أمام السيارة.

فتح محمد الباب، والسيارة مازالت دائرة، وتكلم في هاوسا سريعة ملاطِفة. تنحى الرجل جانبًا. استدارت أولانا لتنظر عن كثب، لترى هل كان بالفعل عبد الملك.

"لا ترفعي وجهك!" قال محمد. أخطأ بصعوبة شجرة كوكا؛ سقط فرع ضخم وسمعت أولانا زمجرة السيارة وهي تسير فوقها. خفضت رأسها. كان عبد الملك. كان قد لكز جثة أخرى، جثة امرأة بلا رأس، وخطا فوقها، وضع ساقه فوقها ثم نزل من عليها، رغم أنه كان هناك مساحة ليمرَّ من جانبها.

"الله لا يسمح بهذا،" قال محمد. كان يرتجف؛ كل جسده كان يرتجف. "لن يغفر لهم الله. ولن يغفر الله لمن جعلهم يفعلون هذا. الله *أبدًا* لن يغفر هذا."

واصلا الطريق وهما في صمت مستعِرٍ، متجاوزيْن رجال شركة في ملابسهم الملطخة بالدماء، متجاوزين نسورًا جاثمةً على جانبي الطرقات، متجاوزين صبِيةً يحملون أجهزة راديو مستلبة من الدور، حتى صفَّ سيارته في محطة القطار ودفع بها في القطار المزدحم.

جلست أولانا على أرضية القطار وركبتاها مشدودتان إلى صدرها ومن حولها ضغط الأجساد الدافئة بالعرق. وخارج القطار، كان الناس مقيدين إلى الحافلات والبعض واقف على الدرجات متعلقين بالقضبان الحديدية. كانت قد سمعت صرخات مكتومة حينما سقط رجل. كان القطار عبارة عن كتلة من الحديد السائب، الطريق كان غير مستوى كأنما قضبان السكة الحديد متقاطعة بسبب الاصطدامات والسرعة، وكان كلما ارتجّ واهتز قُذفت أولانا نحو السيدة المجاورة لها، أو نحو شيء ما على حِجر المرأة، وعاء كبير، قرعة كبيرة. رداء المرأة كان مبقعًا بلطخ تشبه الدماء، لكن أولانا لم تكن واثقة. عيناها كانتا محترقتين. شعرت كأن بهما خليطًا من الفلفل والرمل، تحرق وتلسع جفنيها. كان موجعًا أن تغمضهما، وموجعًا أن تتركهما مفتوحتين. كانت تود أن تمزقهما. بللت أصابعها بلعابها ودعكتهما. كانت تفعل ذلك مع بيبي حينما كانت تُخدش خدشًا بسيطًا. "مامي أوللا!" كانت بيبي تنوح رافعةً ذراعها أو ساقها الموجوعة، وكانت أولانا تبلل إصبعها من فمها وتمسح جرح بيبي. لكن اللعاب كان يزيد احتراق عينيها.

صرخ شابٌّ أمامها ثم وضع يده على رأسه. انحرف القطار واصطدمت أولانا بالقرعة من جديد؛ وأحبت الملمس الصلب للثمرة. مدت يدها للأمام واحتضنت برفق الخطوط المتقاطعة للقرعة. أغلقت عينيها، لأنهما هكذا تحرقانها أقل، وأبقتهما مغلقتين لساعات، ويدها على القرعة، حتى صاح أحدهم بالإيبو: "*آنيا آجافيلا!*" لقد عبرنا نهر النيجر! لقد وصلنا!"

كان البولُ منتشرًا على أرضية القطار. شعرت به أولانا باردًا يغرق فستانها. المرأة صاحبة القرعة لكزتها، ثم أشارت إلى بعض الناس جوارها. "*بيانو*، تعالوا،" قالت. "تعالوا وانظروا."

فتحت القرعة.

"انظروا،" قالت ثانيةً.

نظرت أولانا داخل تجويف الإناء. رأت رأس بنت صغيرة ببشرتها الرمادية وشعرها المضفور وعينيها المقلوبتين وفمها المفتوح. حملقت فيها لبرهة قبل أن تشيح بوجهها بعيدًا. أحدهم صرخ.

أغلقت المرأةُ القرعة. "هل تعلمون،" قالت. "لقد استغرقتُ وقتًا طويلاً لتضفير هذا الشعر؟ كان لها شعرٌ غزير."

كان القطار قد توقف بزمجرة صدئة مخيفة. نزلت أولانا ووقفت بين الحشود المتناكبة. داخت امرأة. صبيان الدراجات البخارية يضربون جوانب الشاحنات وينشدون، "*أويري! إنيوجو!* نسوكا!" كانت تفكر في ضفائر الشعر الراقدة في تجويف القرعة. كانت تتخيل الأم وهي تضفر الشعر، وأصابعها تضع الزيت المُطرّي على الشعر قبل أن تقسّمه إلى خصلات بمشط خشبي.

كان ريتشارد يقرأ كلمةَ كاينين المدونةَ على ورقةٍ حينما هبطتِ الطائرةُ في كانو. كان قد وجد الورقة تلك وهو يبحثُ عن مجلةٍ في حقيبة الأوراق. تمنى لو كان قد عرف طيلةَ الأيام العشرة التي قضاها في لندن أنها موضوعةٌ هناك، تنتظره أن يقرأها.

هل الحبُّ هو *هذا الاحتياجُ المُضِلّلُ لأن تكونَ إلى جواري معظمَ الوقت؟ هل الحبُّ* هو *هذا الأمان الذي أشعرُ به أنا في صمتنا؟ هل* هو *هذا الانتماءُ، هذا الاكتمال؟*

كان يبتسم وهو يقرأ؛ لم تكتب له كاينين مثل هذا الكلام من قبل. بل هو يشكُّ في أنها كتبت له أبدًا أيَّ شيء، باستثناء الكلمة العامة: "*مع حبي، كاينين*"، على كروت أعياد الميلاد. قرأها مرارًا وتكرارًا، مُتريثًا مع كل ضمير "أنا" التي كانت منحنية مفصّلة فبدت كأنها توقيعٌ صافٍ. وفجأةً لم يعد يعبأ بأن الرحلة تأجلت في لندن وأن هذا التوقف في كانو لكي يغير الطائرة قبل أن يذهب إلى لاجوس سوف يؤخره أكثر. ثمة نور عبثي غمره؛ كلُّ الأشياء غدت ممكنة، كلُّ الأشياء أصبحت ممكنة العلاج. نهض وساعد امرأةً كانت جالسةً جواره ليحملَ حقيبتها للأسفل. *هل الحبُّ* هو *هذا الأمانُ الذي أشعر به أنا في صمتنا؟*
"أنتَ طيبٌ جدًّا،" أخبرته المرأةُ في لكنةٍ أيرلندية. كانت الرحلة مليئة بغير النيجيريين. لو كانت كاينين هنا، لكانت بالقطع قالت شيئا مُتهكمًا -- *هنا يمضي الأوروبيون الغزاة*. صافح المضيفةَ عند نهاية المهبط ومشى سريعًا عبر مدرجات المطار؛ وكانت الشمسُ حادةً ولسعةُ حرارةٍ بيضاء جعلته يتخيل أن سوائلَ جسده تتبخر، وتجفُّ، فشعر بارتياح حين دخل المبنى البارد. وقف في طابور المسافرين وأعاد قراءة ورقة كاينين. *هل الحبُّ* هو *هذا الاحتياج المضلّل لأن تكون إلى جواري معظم الوقت؟* سوف يسألها أن تتزوجه حين يعود إلى هاركورت. سوف تقول بادئ الأمر شيئًا مثل: "رجلٌ أبيضُ بلا مالٍ يتحدث. سوف تكون فضيحة لوالديّ." لكنها سوف تقول نعم. يعلم أنها سوف تقول نعم. ثمة شيء اعتراها مؤخرًا، شيء من اللين، الرِّقّة، تلك التي جاءت بهذه الورقة. لم يكن واثقًا أنها سامحته على الحادثة مع أولانا-- لم يتكلما عنها أبدًا—لكن هذه الورقة، هذا الفتحَ الجديد، يعني أنها كانت على استعداد لأن تمرّرها. كان يمسد الورقة في راحته، حينما سأله شابٌّ في ملابسَ رسميةٍ له بشرةٌ شديدةُ السواد: "أيُّ شيء أوضحُه لك يا سيدي؟"
"لا،" قال ريتشارد، وسلّم باسبوره. "أنا ذاهبٌ إلى لاجوس."

"أوكي، حسنٌ يا سيدي! أهلا بك في نيجيريا،" قال الموظف. كان له جسم ضخم ممتلئ بدا قذرًا في زيّه الرسمي.

"هل تعمل هنا؟" سأله ريتشارد.

"نعم يا سيدي. أنا في فترة تدريب. على ديسمبر، سوف أكون موظف رسميًّا جمرك."

"ممتاز،" قال ريتشارد. "ومن أين أنت؟"

"جئتُ من المنطقة الجنوب شرقية، مدينة تدعى أوبسي."

"جارة أونيستاشا الصغيرة."

"تعرف المكان يا سيدي؟"

"أنا أعمل في جامعة نسوكا وسافرتُ في كل أنحاء المنطقة الشرقية. أؤلف كتابًا حول هذه المنطقة. وخطيبتي من أميو ناتشي، ليست بعيدة جدًّا عنك." شعر بفيض من التحقق، وكمْ انزلقت منه بسهولة كلمةُ خطيبتي، إشارةً على بهجة الشغف بزوجته في المستقبل. ابتسم، وبعد ذلك اكتشف أن ابتسامته تهدد بأن تنمو إلى قهقهة وأنه سوف يبدو مهتاجًا أمام الناس. إنها تلك الورقة.

"خطيبتُك يا سيدي؟" بدا الشاب مُستنكرًا.

"نعم. اسمُها كاينين." تكلم ريتشارد ببطء، متأكدًا أنه ينطق المقطع الأخير بملء الفم.

"هل تتكلم الإيبو يا سيدي؟" كان في عيني الرجل احترام مهيب الآن.

"*نواني دي نا مبا*،" قال ريتشارد، بغموض، وهو يرجو ألا يكون قد خلط الكلمات وأن يعني الضميرُ أن شقيقَ المرء قد يأتي من أرض مختلفة.

"*إيه*! تتكلم! *آي نا-آسو إيبو*!" أخذ الرجل يد ريتشارد في يده الرطبة وصافحه بدفء وبدأ يتحدث عن نفسه. كان اسمه نتايمكا.

"أعرفُ أهل أوموناتشي جيدًا، لديهم مشاكل جمّة،" قال. "أهلي نصحوا ابنة عمي ألا تتزوج رجلاً من أوموناتشي، لكنها لم تنصع. كل يوم كانوا يضربونها حتى جمعت أغراضها وعادت إلى بيت أبيها. لكن ليس كل من بأوموناتشي سيئًا. أهل أمي من هناك. ألم تسمع عن أمِّ أمي؟ نوايكي نكويلي؟ لابد أن تكتب عنها في كتابك. كانت خبيرة أعشاب رائعة، وكان لديها أفضل علاج للملاريا. لو كانت تتقاضى من الناس مالاً كثيرًا، لكنتُ الآن أدرسُ الطبَّ بالخارج. لكن أهلي لا يقدرون أن يرسلوني إلى الخارج، والناس في لاجوس يعطون المنحَ الدراسية لأبناء الأهالي الذين يقدرون على إعطائهم رشاوى. من أجل نوايكي نكويلي كنت أريد أن أصبح طبيبًا. لكنني لا أقول إن عملي في الجمارك سيئ. على كل حال يجب أن نخضع لاختبارات لنحصل على الوظيفة، وكثير من الناس يشعرون بالغيرة منا. ومع الوقت سوف أصبح موظفًا رسميًّا، وستكون الحياة أفضل وأقل معاناةً..."

أعلن صوتٌ يتحدث الإنجليزية بلكنة هاوسا رقيقة، أن على المسافرين القادمين على رحلة لندن التوجّه للرحلة المتوجة إلى لاجوس. فارتاح ريتشارد. "كان لطيفًا التحدثُ إليك، جيسي إيكي،" قال.

"نعم يا سيدي، تحياتي إلى كاينين."

استدار ننايمكا ليعود إلى مكتبه. التقط ريتشارد حقيبة أوراقه. انفتح الباب الجانبي بعنف واندفع منه ثلاثة رجال يحملون رشاشات ضخمة. كانوا يلبسون ملابس عسكرية خضراء، وتساءل ريتشارد لماذا يجعل الجنودُ من أنفسهم أضحوكةً وهم يندفعون هكذا، حتى رأى كيف كانت عيونُهم الزجاجية حمراءَ وشرسة.

لوَّح الجنديُّ الأول ببندقيته حوله. *"إينا نياميري*! أين المواطنون الإيبو؟ مَن هنا إيبو؟ أين الكفرة؟"

صرخت امرأة.

"أنت إيبو،" قال الجنديّ الثاني لننايمكا.

"لا، أنا من كاستينا! كاستينا!"

مشى الجندي إليه. "قلْ اللهُ أكبر!"

كانت القاعةُ صامتة. شعر ريتشارد بالعرق البارد يُثقل أهدابه.

"قلْ الله أكبر!" كرّر الجندي.

ركع ننايمكا. رأي ريتشارد الفزعَ يحفر عميقًا داخل وجهه حتى أن وجنتيه تهدمتا ووجهه مُسخ إلى قناع لا شيءَ يشبهه. لن يقول الله أكبر لأن لكنته سوف تطيحُ به. تمنى ريتشارد أن يقول الكلمتين على أي نحو، أن يحاول؛ تمنى شيئًا ما، أيَّ شيء يحدث في هذا السكون الخانق، وكأنما كإجابة على أفكاره، انطلق الرشاشُ وانفجر صدر ننايمكا، تطرطشَ كتلاً حمراء، فأوقع ريتشارد الورقة من يده.

ربض المسافرون وراء المقاعد. ركع الرجال على ركبهم ليخفضوا رؤوسهم إلى الأرض. أحدهم كان يصرخ بالإيبو، "أمي، أوه! أمي، أوه! الربُّ قال لا!" كان ساقي حانة مَن تكلم. مشى نحوه جنديٌّ وأطلق عليه النار ثم توجه إلى قوارير شراب كانت مرصوصة وراءه وأطلق النار. ملأت القاعةَ رائحةُ الويسكي والشامبانيا.

كان هناك المزيد من الجنود الآن، والمزيد من الطلقات، والمزيد من *"نايميري*![1]" و"عربة، عربة!" كان الساقي يتلوى على الأرض وقرقعةٌ متحشرجة تخرج من فمه. جرى الجنودُ إلى ممر المطار ودخلوا الطائرة ثم جذبوا الإيبو الذين كانوا قد صعدوا الطائرة وأوقفوهم صفًّا واحدًا ثم أطلقوا عليهم النار وتركوهم ملقيين هناك، كانت ملابسهم البراقة تضخُّ اللونَ في المدى المغبّر المعتم. عقدَ حرّاسُ الأمن أذرعهم ووقفوا يتفرجون. شعر ريتشارد أنه بلّل

---

[1]- من قبيلة الإيبو.

بنطاله. وطنينٌ مؤلم يخزُ أذنيه. كان تقريبًا قد أضاع رحلته لأنه، وبينما بقية المسافرين راحوا يتحركون نحو الطائرة مترنحين، وقف هو في الجانب يتقيأ.

كانت سوزان ما تزال في روب الحمّام. لم يبد عليها الاندهاش لمّا وجدته قد جاء دون أن يخبرها. "تبدو مرهقًا،" قالت وهي تمسُّ وجنته. شعرها كان باهتًا ومهوّشًا، مربوطًا بفوضى وكاشفًا عن أذنيها الحمراوين.

"جئتُ لتوّي من لندن. الرحلة توقفت في كانو أولاً،" قال.

"صحيح؟" قال سوزان. "وكيف كان زفاف مارتين؟"

جلس ريتشارد على الأريكة ساكنًا؛ لم يعد يذكر شيئًا مما حدث في لندن. لم يبد على سوزان أنها لاحظت أنه لم يتكلم. "قليل من الويسكي مع الكثير من الماء؟" سألت، وهي تصب الشراب بالفعل. "كانو مثيرة، أليس كذلك؟"

"نعم،" قال ريتشارد، رغم أنه كان يريد أن يخبرها كيف أنه كان يشاهد الباعة الجائلين والسيارات والحافلات في شوارع لاجوس المزدحمة بِحَيْرة وارتباك، لأن الحياة ظلت تسير باندفاع هنا على نحو طبيعيّ كما كانت دائمًا، كأنما لا شيء ثمة يحدث في كانو.

"أمرٌ سخيف جدًّا أن يدفع الشماليون للأجانب ضِعف ما يستأجرون به الجنوبيين. لكن الكثير من المال يمكن أن يتحقق هنا. هاتفني نيجل قبل قليل ليخبرني عن صديقه جون، الاسكتلندي البشع. على كل حال، جون طيار مُستأجَر صنع ثروة صغيرة من طيرانه بالأهالي الإيبو سالمين في هذه الأيام القليلة الماضية. قال إن المئات كانوا يُقتلون في زاريا وحدها."

أحس ريتشارد أن جسده كان يتأهب ليفعل شيئًا، ليرتجفَ، ليتداعى. "تعلمين إذًا ما الذي يحدث هناك؟"

"بالطبع أعلم. فقط أرجو ألا يمتد الأمرُ إلى لاجوس. بالفعل لا يقدر المرءُ أن يتنبأ بهذه الأشياء." احتست سوزان شرابها. ولاحظ اللون الرمادي في بشرتها، وقطرات العرق الدقيقة فوق شفتها. "هنا العديد والعديد من الإيبو—حسن، هم بالفعل في كل مكان، أليس كذلك؟ بالتفكير في أنهم عشيرةٌ تعتمد على نفسها ويتحكمون في الأسواق. حقًّا يهوديون جدًّا. وبالتفكير في أنهم نسبيًّا غير متحضرين؛ ولهم مع الأوروبيين لسنوات علاقاتٌ على السواحل. أتذكر أن أحدهم أخبرني حينما بدأت في الاهتمام باستئجار خادم إيبو، لأنه، قبل أن أعرف، كان سيمتلك بيتي والأرض المبنية عليه. مزيدًا من الويسكي؟"

هز ريتشارد رأسه. صبّت سوزان لنفسها مزيدًا من الويسكي ولم تُضف هذه المرة أي ماء. "لم تر شيئًا في مطار كانو، أليس كذلك؟"

"لا،" قال ريتشارد.

"إنهم لن يذهبوا إلى المطار كما أفترض. هذا شيء غير طبيعي، أليس كذلك، كيف لا يستطيع هؤلاء الناس السيطرةَ على كراهيتهم. بالطبع، كلٌّ منّا يكره شخصًا ما، لكنها *السيطرة*. المدنيةُ تعلمنا السيطرة."

أنهت سوزان كأسَها وصبّت آخر. كان صوتُها يعاوده وهو ذاهبٌ إلى الحمّام فضاعف من آلام رأسه المبرحة. فتح الصنبور. صدمه كم يبدو غيرَ مختلفٍ في المرآة، وكيف أن الشعيرات في حاجبيه مازالت ملتصقةً شعثاء وأن عينيه مازالتا كما هما مبقعتين بالزُرقة الزجاجية. كان لابد أن يُمسَخ جراء ما رآه. كان لابد أن يتركَ العارُ ثآليل حمراء على وجهه. شعوره حينما شاهد نتايمكا لم يكن صدمةً بقدر ما كان راحة عظمى أن كاينين لم تكن معه لأنه كان سيبدو عاجزًا عن حمايتها وكانوا سيعرفون أنها إيبو فيطلقون النار عليها. لم يستطع أن ينقذ نتايمكا، لكنه كان يجب أن يفكر في نفسه أولاً، كان لابد أن يموت بموت ذلك الشاب. حملق في نفسه وتساءل ما إذا كان هذا قد حدث بالفعل، إذا ما كان بالفعل قد رأى الرجال يموتون، إذا ما كانت رائحة زجاجات الخمر المتخلفة من شظايا الزجاج وتطايرت لتُدمي الجثثَ البشرية كانت في خياله ليس إلا. لكنه يعلم أن كل ذلك قد حدث بالفعل وتساءل ما إذا كان يتمنى وحسب ألا يكون قد حدث. خفض رأسه في الحوض وشرعَ في البكاء. كان الماء يهسهس وهو يندفع من الصنبور.

3. الكتاب: كان العالمُ صامتًا بينما كنّا نموت

كتب عن المناظر الطبيعية. الحرب العالمية الثانية غيرت ترتيب العالم: سقطت الإمبراطورية، وصوت النخبة النيجيرية، التي غالبًا من الجنوب، كان قد علا.

كان الشمالُ يقظًا: يخفى سيطرة الجنوب الأكثر تعليمًا، ويطمح دائمًا إلى بلد ليس فيه الجنوبيون. لكن كان على بريطانيا أن تحافظ على نيجيريا كما هي، غنيمتها الكبرى، سوقها الضخم، شوكتها التي في عين فرنسا. ولكي يسترضوا الشمال، ثبتوا انتخابات قبل الاستقلال مؤيدين الشمال وكتبوا دستورًا جديدًا يعطي الشمال حقَّ السيطرة على الحكومة المركزية.

أما الجنوب، التواق للاستقلال، فقد قبِل هذا الدستور. مع رحيل بريطانيا سوف يكون هناك الأفضل للجميع: المرتبات "البيضاء" التي أنكرت النيجيريين طويلاً، الترقيات، الوظائف العليا. لم يحدث شيء حيال ضجيج جماعات الأقليات، والمناطق كانت تتناحر بقسوة حتى أن البعض طالَب بحكومات أجنبية منفصلة.

عند استقلال عام 1960، كانت نيجيريا مجموعةً من الشظايا المشبوكة معا بدبوس هشٍّ.

بدأت كوابيسُ أولانا السوداء يوم عودتها من كانو، اليوم الذي خذلتها فيه ساقاها. تحسنت ساقاها حينما نزلت من القطار ولم تحتج أن تمسك القضبان الحديدية الملطخة بالدماء؛ كانتا أفضل حينما وقفت لثلاث ساعات في طريقها لنسوكا بالباص المزدحم حتى أنها لم تستطع أن تهرش ظهرها الذي كان يستحكّها. لكن أمام باب بيت أودينيبو خذلتها ساقاها من جديد. وكذلك مثانتها. كان هناك ذوبان ساقيها، وكان هناك أيضًا بللُ السائل الدافئ الجاري بين فخذيها. اكتشفتها بيبي. كانت بيبي قد مشت صوب الباب الرئيسي لتنظر وهي تسأل آجوو متى ستعود مامي أوللا، ثم صرخت حين رأت الجسد المتكوم عند الدرجات. حملها أودينيبو، حمّمها، ثم جذب بيبي بعيدًا كيلا تحتضنها بقوة. بعدما نامت بيبي، حكَت أولانا لأودينيبو ما رأت. حكت له عن الثياب الغامضة على الجثث التي بلا رؤوس في الفناء، عن الأصابع المنزوعة من يد الخال مبيزي، عن العين المقلوبة للوراء في رأس الطفلة داخل ثمرة القرع، وعن اللون الشاذ للجثث المرمية في الفناء—اللون الرمادي، المسطح، الشاحب، مثل سبورة رخيصة ممحوة.

تلك الليلة، داهمتها أولى كوابيسها: بطانيةٌ سميكة تهبط من أعلى وتستقرُّ فوق وجهها، بقوة، بينما هي تجاهد أن تتنفس. وبعد ذلك، حينما تتركها البطانية، تتحرر، تتنفس جرعة هواء إثر جرعة، تشاهد على النافذة بومًا يحترق، يكشِّر ويومئ لها بريشه المحترق. حاولت أن تصفَ لأودينيبو هذه الكوابيس السوداء. حاولت أيضا أن تخبره عن طعم أقراص الدواء التي أحضرها لها د. باتيل، لزجة مثل لسانها في الصباح.

لكن أودينيبو كان دائمًا يقول: "شش يا نكيم. سوف تكونين على ما يرام." كان يتكلم بعذوبة شديدة. بدا صوته سخيفًا جدًّا، لا يشبهه أبدًا. كان حتى يغني وهو يحمِّمُها في البانيو المليء بالماء المعطر برغوة شامبو الأطفال. ودَّت أن تطلب منه أن يتوقف عن هذا السخف، لكن شفتيها كانتا ثقيلتين. كان الكلام عملاً صعبًا. حينما زارها والداها وكاينين، لم تتكلم كثيرًا؛ كان أودينيبو مَن أخبرهم بما رأت.

في البدء، جلست الأم جوار الأب تومئ بينما أودينيبو يتحدث بهذا الصوت السخيف الناعم. ثم انهارت الأم، راحت ببساطة تنزلق كأنما عظامها تسيل حتى غدت نصف راقدة، نصف جالسة على الأرض. كانت المرة الأولى التي تشاهد فيها أولانا أمها دون ماكياج، دون ذهب مُدَلَّى من أذنيها، وأول مرة ترى أولانا كاينين تبكي منذ كانتا طفلتين. "لستِ بحاجة أن تتكلمي عن هذا، ليس عليكِ هذا،" قالت كاينين، وهي تتشنج، رغم أن أولانا لم تحاول حتى أن تتحدث عن هذا.

راح أبوها يزرعُ الغرفة ذهابًا وإيابًا. سأل أودينيبو مراتٍ ومرات عن أين تعلم باتيل الطبَّ وكيف يزعم أن عدم مقدرة أولانا على الحركة عارضٌ نفسيّ. تكلم عن كم كانوا محبطين أن يضطروا للقيادة طوال الطريق من لاجوس لأن حصار الحكومة الفيدرالية كان يقصد أن تتوقف حركات الملاحة الجوية النيجيرية نحو الجنوب الشرقي. "كنا نريد أن نأتي فورًا، فورًا،" قال، حتى أن أولانا تساءلت إن كان بالفعل يظن أن توقيت مجيئهم سيشكل أي فرق. لكن مجيئهم لم يشكل أي فرق، خصوصًا أن كاينين قد جاءت. هذا لا يعني أن كاينين قد سامحتها بالطبع، لكن مجيئها يعني شيئًا ما.

في الأسابيع التالية، كانت أولانا ترقد في الفراش وتومئ حينما يأتي الأصدقاء والأقارب ليقولوا ندو— للأسف — ثم يهزون رؤوسهم ويهمهمون عن الشرور لدى أولئك المسلمين الهاوسا، هؤلاء الخِراف الشماليين السود، أولئك البقر ذوي المؤخرات القذرة والأقدام المفلطحة المزعجة. كانت كوابيسها السوداء أسوأ في الأيام التي يكون لديها زوار؛ أحيانا تدهمها ثلاثة كوابيس في ضربات متلاحقة ثم تتركها مجهدةً مقطوعةَ النفس، مجهدة جدًّا لدرجة عدم المقدرة على البكاء، لا طاقة لديها إلا بما يكفي لابتلاع الأقراص التي يدسها أودينيبو في فمها. بعض الزوار كان لديهم حواديت يحكونها—آل أوكافور فقدوا ابنًا وأسرته المكونة من أربعة أفراد في زاريا، ابنة آيب لم تعد من كايورا-نامودا، عائلة أونيكاتشي فقدت ثمانية أفراد في كانو. وحكايات أخرى حول كيف كان الأكاديميون البريطانيون يشجعون المذابح ويرسلون الطلاب لتحريض الشباب، حول كيف أن الحشود في مآرب السيارات في لاجوس كانت تصفّر وتسخر قائلة: "اذهبوا يا إيبو، اذهبوا، حتى يصبح *الجاري*[1] أرخص! ارحلوا وتوقفوا عن امتلاك كل البيوت وكل المحال!" لم تحب أولانا سماع تلك الحكايات، كما لم تحب الطريقة الخفية التي كان ضيوفها يرمقون بها ساقيها، كأنما ليكتشفوا الورم الذي سيفسر لماذا لا تقدر على السير.

ثمة أيام كانت تصحو فيها من غفواتها صافية الرأس، مثل اليوم. باب غرفة نومها كان مفتوحًا، وكان بوسعها أن تسمع علوَّ الأصوات وانخفاضها في قاعة المعيشة. لبعض الوقت كان أودينيبو قد سأل أصدقاءهم ألا يأتوا للزيارة. وتوقف عن لعبة التنس أيضًا، كي يبقى بالبيت ولا يضطر آجوو أن يأخذها إلى التواليت. وكانت سعيدة إنهم عادوا للزيارة. وتتابع الأحاديث أحيانًا. علمت أن زمالة نساء الجامعة قد نظمت تبرعات طعام للاجئين، وأن الأسواق والسكك الحديدية ومناجم القصدير في الشمال يقال إنها فارغة الآن لأن الإيبو قد فرّوا، وأن الكولونيل أوجيوكوا يُنظر إليه الآن بوصفه زعيم الإيبو، وأن الناس يتحدثون الآن حول الانفصال وعمل دولة جديدة، سوف تأخذ اسمها من الخليج، خليج بيافرا[2].

1 - [1]نبات يمثل أحد الأطعمة الرئيسية في نيجيريا. (المترجمة)

[2] - Bight of Biafra

كانت ميس آديبايو تتحدث بصوتها العالي. "أقول إن طلابنا يجب أن يتوقفوا عن عمل ضجيج. مطالبة ديفيد هانت بالرحيل ليست مهمة. أعطوا الرجلَ فرصة ولنرَ إن كان السلامُ سيعم."
"ديفيد هانت يظن أننا جميعا بعقول أطفال." كان هذا أوكيوما. "على الرجل أن يعود إلى بلاده. لماذا يأتي ليعلمنا كيف نخمد نارًا، في حين أنه هو ومواطنيه البريطانيين من جمعوا الحطب في المكان الأول؟"
"ربما هم من جمعوا الحطب، لكننا من أشعل الثقاب،" قال أحدهم بصوت غير مألوف، ربما كان بروفيسور آتشارا، محاضر الفيزياء الجديد، الذي عاد من إبادان بعد الانقلاب الثاني.
"حطبٌ أو لا حطب، المهم أن نجد طريقًا لصنع السلام قبل أن تتفاقم الأمور،" قالت ميس آديبايو.
"عن أيّ سلام نبحث؟ جوون نفسه قال إن أسس السلام غير موجودة، ومن ثَم فعن أيٍّ سلام نبحث؟" سأل أودينيبو. تخيلته أولانا على حافة مقعده، يدفع نظارته بعيدًا وهو يتكلم. "الانفصالُ هو الإجابة الوحيدة. إذا ما أراد جوون أن يحافظ على دولته موحدة، كان يجب أن يفعل شيئًا منذ زمن بعيد. لأجل السماء حتى، لم يخرج أحدٌ منهم ليدينَ المذابحَ، وقد مرّت شهور! كأنما كل أهالينا الذين قُتلوا لا قيمة لهم!"
"ألم تسمع ما قاله زيك ذلك اليوم؟ نيجيريا الشرقية تغلي، وتغلي، وسوف تظل تغلي حتى تدين الحكومةُ الفيدرالية المذابحَ،" قال بروفيسور إزيكا، وسرعان ما خبا صوته الأجش.
أصاب أولانا صداع. وأشرقتِ الشمسُ بوهن عبر الستائر التي فتحها آجوو حينما أحضر لها الفطور. أرادت أن تتبول؛ كان تبول كثيرًا هذه الأيام وظلت تنسى أن تسأل دكتور باتيل إذا كان علاجه هو السبب. حدقت في الجرس الموضوع على الطاولة الجانبية، ثم مدت يدها إليه ومررت يدها فوق زره الأسود البلاستيكي، على قاعدته الحمراء، ذاك الذي يعطي نغمة حادة حينما تضغطه. أصر أودينيبو أن يركّبه بنفسه، في البدء، وكانت كلما ضغطت عليه، تطايرت شراراتُ لهب في وصلات الحائط. وأخيرًا أحضر كهربائيًّا، كان يقهقه وهو يعيد تركيب الأسلاك. لم يعد الجرسُ يطلق شرارًا، لكن صوته كان عاليًا جدًّا، وكلما احتاجت أن تذهب إلى التواليت وترنّه، يظل صدى الرنين يتردد في كل أنحاء البيت. جعلت إصبعها تتريث على القاعدة الحمراء، ثم سحبته بعيدًا. لن ترنه. أنزلت ساقيها إلى الأرض. كان الصوت من غرفة المعيشة محدودًا الآن كأنما أحدهم قد أدار الصوتَ الجماعيَّ للناس وخفضه.
ثم سمعت أوكيوما يقول: "آبيوري." بدت الكلمة جميلة، اسم بلدة في غانا، وتخيلت عنقودًا ناعسًا من البيوت على بُسُط ممتدة من الأراضي الخضراء لها رائحةٌ جميلة. آبيوري تَرِد كثيرًا في أحاديثهم: سوف يقول أوكيوما إن جوون يجب أن يتَّبع الاتفاقية التي وقعّها مع أوجيوكوا في آبيوري، أو ربما يقول بروفيسور إيزيكا إن مخالفة جوون بعد آبيوري يعني أنه لم يُرد صالح الإيبو، أو سيصرح أودينيبو قائلا: "نحن نعوّل على آبيوري."

"لكن كيف يقدر جوون أن يراوغ هكذا؟" كان صوت أوكيوما أعلى. "لقد وافق على التحالف في آبيوري، والآن يريد نيجيريا واحدةً بحكومة موحَّدةٍ، لكن الحكومة الموحدة كانت هي عينُها السبب في أنه وأهله قَتلوا الموظفين الإيبو."

وقفت أولانا ووضعت ساقًا للأمام، ثم الأخرى، وترنحت. كان ثمة ضغطٌ عنيفٌ حول كاحليها. كانت تسير. صلادةُ الأرض تحت قدميها كانت عنيفة فشعرت بساقيها كأنما بهما أوعية ترتجف. مشت وتجاوزت رجيدي آن، دميةَ بيبي، الملقاة على الأرض، فتوقفت لبرهة تتأمل العروس المحشوة قبل أن تمشي إلى التواليت.

فيما بعد، دخل أودينيبو ونظر إلى عينيها تلك النظرة الباحثة التي اعتادتها، كأنما يبحث عن دليل على شيء ما. "لم ترنّي الجرس لمدة يا نكيم، ألا تريدين أن تتبولي؟"

"هل مضوا جميعًا؟"

"نعم، ألا تريدين أن تتبولي؟"

"لقد تبولت بالفعل. مشيت."

حدّق أودينيبو فيها.

"لقد مشيت،" قالت أولانا مجددًا. "استعلمت التواليت."

كان هناك شيء لم تره في وجه أودينيبو من قبل، شيء ثمينٌ ومخيف. جلست وفي الحال مد يده وسندها، لكنها أبعدته وخطت خطوات قليلة إلى خزانة الثياب ثم عادت إلى الفراش. جلس أودينيبو وراح ينظر إليها.

أخذت يده ووضعتها على وجهها، وضغطتها إلى صدرها. "مِسّني."

"سوف أخبر باتيل. أريده أن يأتي ويفحصك."

"مسّني." كانت تعلم أنه لا يريد أن يفعل، وأنه لمس نهديها فقط لأنه سوف يفعل ما تريده هي، أي شيء يجعلها أفضل. ضمت عنقه، دسّت أصابعها في شعره الكثيف، وحينما انزلق داخلها، فكرت في بطن آريزي الحامل، كم كان سهلاً أن يُمزّق، البشرة المشدودة المتوترة بالحَبَل. فبدأت في البكاء.

"نكيم، لا تبكي." توقف أودينيبو؛ كان راقدًا جوارها يمسح جبينها. وفيما بعد، حينما أعطاها المزيد من الحبوب وبعض الماء، أخذتها بصعوبة ثم رقدت من جديد وراحت تنتظر السكون الغريب الذي تأتي به الأقراص.

أيقظتها دقات آجوو الرهيفة؛ سوف يفتح الآن البابَ ويدخل حاملاً صينية الطعام التي سوف يضعها جوار علب الأدوية، زجاجة لوكوزيد، وقارورة الجلوكوز. تذكرت الأسبوع الأول بعد عودتها، الأسبوع الذي كان أودينيبو يقفز عاليا إذا ما تحركت حركة طفيفة. كانت تطلب ماء فيفتح أودينيبو باب غرفة النوم ليذهب إلى المطبخ فيكاد يتعثر بآجوو، المتكوم على السجادة

الموضوعة خارج الباب. "رجلي الطيب، ماذا تفعل هنا؟" يسأل، فيجيب آجوو: "أنت لا تعرف أين توجد الأشياءُ بالمطبخ يا صاح،"

أغمضت عينيها الآن وتظاهرت بالنوم. كان واقفًا على مقربة منها يرقبها؛ وكان بوسعها سماع تنفسه.

"حينما تكونين مستعدة يا ماه، الطعامُ ها هنا،" قال. كادت أولانا تضحك؛ هو غالبًا يعرف طيلة الوقت أنها تتظاهر بالنوم حينما يأتيها بالطعام. فتحت عينيها. "ماذا طبخت؟"

"أرز جولووف." رفع غطاء الصحن. "استعملتُ طماطم طازجة من الحديقة."

"هل أكلت بيبي؟"

"نعم يا ماه. تلعب الآن بالخارج مع أطفال د. أوكيكي."

أمسكت أولانا بالشوكة.

"غدًا سوف أصنع لك سلاطة فواكه يا ماه. شجرة البوبو في الخلف بها ثمرة ناضجة. سأعطيها يومًا آخر، ثم أقطفها سريعًا قبل أن تصلها تلك الطيور. وسوف أستعمل البرتقال والحليب."

"جيد."

كان آجوو ما يزال يقف هناك، وكانت تعلم أنه لن يمضي قبل أن تبدأ في الأكل. رفعت الشوكة إلى فمها ببطء، تمضغ مغمضة العينين. كان أفضل ما طهى آجوو، كانت واثقة أنها ، باستثناء هذه الحبوب الطباشيرية، لن تكون قادرة على تذوق أي شيء لمدة طويلة. وأخيرًا، شربت بعض الماء ثم طلبت من آجوو أن يأخذ الصينية بعيدًا.

على طاولتها الجانبية، كان أودينيبو قد وضع ورقة طويلة مطبوع على رأسها: "**نحن، هيئة تدريس الجامعة، نطالب بالانفصال كوسيلة للأمن**" وفي الأسفل توقيعات كثيرة.

"كنت أنتظر أن تستردي قوتك بعض الشيء لتوقعي قبل أن أسلمها إلى مكتب حاكم الولاية في إنيوجو،" كان قد أخبرها.

بعدما غادر آجوو الغرفة، التقطت قلمًا ووقعّت ثم راجعت النص لفحص أية أخطاء. لم يكن هناك أخطاء. لكن ليس على أودينيبو أن يسلم الخطاب لأن الانفصال كان قد أُعلن هذا المساء. جلس على السرير ووضع الراديو على الطاولة الجانبية. كان الاستقبال ساكنًا بعض الشيء، كأنما موجات الراديو فهمت أهمية الخطاب. جاء صوت أوجيوكوا الذي لا تُخطئه أذن؛ صوت ذكوري له ترداد عال، كاريزماتيٌّ، ناعم:

أيها المواطنون والمواطنات، يا مواطنو نيجيريا الشرقية: وعيًا بالسُّلطة العليا لله الأعلى فوق كل الجنس البشري؛ وعيًا بواجبكم نحو ذُريتكم؛ مدركين أنكم لن تكونوا محميين في أرواحكم وفي ممتلكاتكم بواسطة أية حكومة تقوم على غير نيجريا الشرقية، قررنا أن نفصم أية روابط

سياسية أو غير سياسية بينكم وبين الجمهورية الرسمية النيجيرية؛ وقد خولْتم لي التصريح نيابةً عنكم وباسمكم أن تكون نيجيريا الشرقية جمهورية مستقلة مطلقة، بموجب هذا أعلنُ بكل إجلال أن الإقليم والمنطقة المعروفة بنيجيريا الشرقية، بحدودها الجغرافية ومياهها الإقليمية، سوف تكون منذ الآن ولاية مستقلة منفصلة تحت اسم ولقب ***جمهورية بيافرا.***

"هذه هي بدايتنا،" قال أودينيبو. تلك النعومة الزائفة كانت قد غادرت صوته وعاد إلى طبيعته من جديد، جهوريًّا طنّانًا نشطًا. خلع نظارته وأمسك يد الصغيرة بيبي وراح يراقصها ويدور في حلقات بها. ضحكت أولانا وبعد ذلك شعرت كأنما تتابع نصًّا مكتوبًا، كأنما تحمس أودينيبو وإثارته لن ينتجان إلا المزيد من الحماسة. جلست وارتعشت. كانت تريد أن يحدث الانفصال لكنه الآن يبدو أكبر من أن يُتحمّل. كان أودينيبو والصغيرة يدوران في دوائر، يغني أودينيبو *أوف-كي*، أغنيةً كان قد ألّفها—"هذه هي البداية، أوه، نعم بدايتنا، أوه، نعم...."— بينما الصغيرة تضحك بنشوة وفرح. راحت أولانا تراقبهما، وقد تجمَّد عقلها الآن، على بقعة عصير الكاجو في أعلى فستان الصغيرة.

عُقد سباق السيارات في ميدان الحرية، في مركز حرم الجامعة، بينما يهتف المحاضرون والطلاب ويغنون، ومساحةٌ لا نهائية من العناوين والملصقات معلقة بالأعلى.

سوف لن، أبدًا سوف لن نتحرك،
تمامًا مثل شجرة مزروعة جوار الماء،
سوف لن يحركنا أحدٌ،
أوجيوكوا من وراءنا، سوف لن نتحرك أبدًا،
الله من وراءنا، أبدًا سوف لن نتحرك.

كانوا يتمايلون وهم يغنون، وتخيلت أولانا أن أشجار المانجو والجملينا تتمايل أيضًا، في تضامن، في قوس انسيابيّ واحد. بدت الشمسُ مثل كتلة لهب قريبة جدًّا، إلا أن زخّات المطر الفاترة اختلطت بحبات عرقها. حكَّ ذراعَها ذراعُ أودينيبو وهي ترفع شارتها المكتوب عليها: **لا يمكن أن نموت مثل الكلاب.** كانت الصغيرة جالسة على كتفي أودينيبو تلوح بدُميتها المحشوة، والشمسُ متألقة عبر زخات المطر، وأولانا ممتلئة بفرح وافر. آجوو إلى جانبها. شارته تقول: **بارك اللهُ في بيافرا.** كانوا بيافريين. كانت بيافرية. وراءها رجل كان يتكلم عن السوق، كيف كان التجار يرقصون على موسيقى الكونغو ويوزعون أفضل ثمرات المانجو

والجوز. قالت امرأة إنها ستذهب هناك فورًا بعد الرالي لترى ما الذي يمكن أن تحصل عليه مجانًا، فاستدارت إليهم أولانا وضحكت.

تكلم قائدُ الطلاب في المايكروفون فتوقف الغناء. بعض الرجال كانوا يحملون تابوتًا مكتوب عليه بالطباشير الأبيض **نيجيريا**؛ رفعوه عاليًا، يرسمون سمت الجلال على وجوههم. ثم وضعوه على الأرض وخلعوا قمصانهم وبدأوا في حفر حفرة ضحلة بالأرض. حينما وضعوا التابوت في الحفرة، ارتفع هتافٌ من الجمهور وانتشر مثل الموجات، حتى توحدت الهتافات في واحد، حتى شعرت أولانا أن كل الناس هناك قد غدوا شخصًا واحدًا. شخص ما هتف: "أودينيبو!" ثم انتشرت بين الطلبة. "أودينيبو! اخطبْ فينا!"

اعتلى أودينيبو المنصة وهو يلوح بعلم بيافرا: ثلاث شرائح: حمراء، سوداء، خضراء، وفي المنتصف نصفُ شمس صفراء ساطعة.

"بيافرا تولد! سوف نقود أفريقيا السوداء! سوف نحيا في أمان! لن يهاجمنا أحدٌ بعد الآن! أبدًا!"

كان أودينيبو يرفع يده وهو يتكلم، وراحت أولانا تفكر كيف على نحو بشع كانت ذراع الخالة إيفيكا ملتوية، وهي ترقد على الأرض، وكيف سال دمُها كثيفًا حتى بدا مثل الصمغ، ليس أحمر، بل قريبٌ من الأسود. ربما بوسع الخالة إيفيكا أن تشاهد سباق الرالي الآن، وكل الناس هنا، وربما لا تقدر، إذا كان الموت عتمةً ساكنة. هزت أولانا رأسها، لكي تطرد أفكارها، وأخذت الصغيرة من عنق آجوو واحتضنتها بقوة.

بعد الرالي ركبت السيارة مع أودينيبو إلى نادي الأساتذة. تجمَّع الطلابُ في ملعب الهوكي، يحرقون صورًا ورقية لجوون في محرقة متوهجة؛ تموّج الدخان في هواء الليل وامتزج بالضحكات والثرثرة. شاهدتهم أولانا واكتشفت بجيشان عذْب أنهم يشعرون بما تشعر به، وبما يشعر به أودينيبو، كأنما حديد مصهور بدلا من الدم ما يتدفق في شرايينهم، كأنما يقدرون أن يقفوا حفاةً فوق جمر متّقد.

لم يتصور ريتشارد أن يجد بسهولة عائلة ننايميكا، لكنه عندما وصل إلى أبوسي وتوقف عند الكنيسة الإنجيلية ليسأل، أخبره المعلّمُ الكنسي أنهم يسكنون عند منحدر الطريق، في البيت غير المَطليّ المُحاط بالنخيل. والد ننايمكا كان صغير الحجم ألبينو أمهق، له لون النحاس، عيناه في لون البندق راحتا تلمعان بمجرد أن تكلم ريتشارد بالإيبو. كان شديد الاختلاف عن موظف الجمارك الضخم، الأسمر، الذي التقاه ريتشارد في المطار، حتى أنه لوهلة تساءل إن كان قد أخطأ البيت وأن هذا ليس والد ننايمكا. لكن الرجل العجوز باركَ جوز الكولا في صوت شبيه بصوت ننايمكا حتى أن الصوت أخذ ريتشارد من جديد إلى قاعة المطار في ذلك الأصيل الحار وثرثرة ننايمكا المزعجة قبل أن ينفجر الباب ويركض الجنود للداخل.

"الذي منحنا جوز الكولا يمنحنا الحياة. أنت وأهلك سوف تحيون، وأنا وأهلي سوف نحيا. لندعْ النسرَ يُفرخ ولندعْ اليمامة تُفرخُ، فإذا ما حكم أحدهما بألا يُفرخَ الآخرُ سوف لن يكون هذا جيدًا له، فليباركْ الربُّ جوز الكولا هذا باسم المسيح."

"آمين،" قال ريتشارد. وكان بوسعه الآن أن يرى تشابهًا آخر. إيماءاتُ الرجل وهو يكسر جوزة الكولا إلى خمسة فصوص كانت تشبه إيماءات ننايمكا على نحو مخيف، مثل تركيب فمه، ببروز شفته السفلى. انتظر ريتشارد حتى مضغا جوز الكولا، وحتى دخلت والدة ننايمكا، ترتدي السواد، قبل أن يقول: "رأيتُ ابنكما في مطار كانو، يوم الحادث. تكلمنا لبعض الوقت. تكلم عنكما وعن أسرته." توقف ريتشارد وتساءل ما إذا كانا يفضلان أن يسمعا أن ابنهما ظل صامدًا رصين الوجه أمام الموت أم يودان أن يسمعا أنه قاومه، وأنه هاجم الرشاش. "أخبرني أن جدته من أوموناتشي كانت طبيبة أعشاب محترمة ومعروفة على مدى واسع بشفائها الملاريا، وأنه بسببها كان يتمنى أول الأمر أن يصبح طبيبًا."

"نعم هذا صحيح،" قالت والدة ننايمكا.

"قال كلمات طيبة عن عائلته،" قال ريتشارد. وكان يختار كلماته الإيبو بعناية.

"بالطبع كان ليقول كلمات طيبة عن عائلته." رمق والد ننايمكا ريتشارد بنظرة طويلة كأنه لم يفهم لماذا يقول ريتشارد ما يعرفانه جيدًا.

تحرك ريتشارد على أريكته. "هل أقمتهم جنازًا؟" سأل، ثم تمنى لو لم يفعل.

"نعم، قال والد ننايمكا؛ وركز بصره على الوعاء الخزفي الذي يحمل آخر فصٍّ من جوز الكولا. "انتظرنا أن يعود من الشمال لكنه لم يعد، لذا أقمنا جنازًا. ودفنا تابوتًا فارغًا."

"لم يكن فارغًا،" قالت الأم. "ألم نضع في التابوت ذلك الكتاب القديم الذي اعتاد قراءته عن اختبار الخدمة المدنية؟"

جلسوا في صمت. ذرّات الغبار تسبح في حزمة من أشعة الشمس تدخل عبر النافذة.

"لابد أن تأخذ معك آخر فص من جوز الكولا،" قال والد نتايمكا.

"شكرًا لك." دسَّ ريتشارد الفصَّ في جيبه.

"هل أرسلُ الأطفالَ إلى السيارة؟" سألت والدة نتايمكا. كان من الصعب تحديد شبهها، بالطرحة السوداء التي تغطي كامل شعرها ومعظم جبهتها.

"السيارة؟" سأل ريتشارد.

"نعم، ألم تأتنا بأشياء؟"

هز ريتشارد رأسه. كان لابد أن يحضر بطاطا ومشروبات. كانت هذه في النهاية زيارة عزاء، وهو يعرف كيف تتم الأمور هنا. كان قد أخذ نفسه عاليًا، بظنّه أن الزيارة وحدها تكفي، وأنه سيكون الملاكَ الشهم الذي يأتي لهما بالساعات الأخيرة في حياة ابنهما، وأنه بذلك سوف يهدئ روعهما وحزنهما ويبرئ ذمّته. لكنه بالنسبة لهما كان كأيٍّ شخص عادي جاء ليدفع واجب العزاء. زيارته لم تُحدث فرقًا في الحقيقة الوحيدة التي تهم: أن ابنهما قد رحل.

نهض ليغادر، وهو يعلم أن لا شيء تغير فيه أيضًا؛ كان يشعر بنفس الشعور منذ عاد من كانو. كان دائمًا ما يتمنى لو أنه فقد عقله، أو أن ذاكرته تجمدت، لكن بدلا من ذلك كان كل شيء واضحًا على نحو فظيع وكان عليه وحسب أن يغمض عينيه ليرى الجثث الميتة حديثًا على أرضية المطار وليستدعي نبرات الصراخ. بقا عقله صافيًا. صافيًا بما يكفي ليكتب ردودًا هادئة على رسائل الخالة إليزابيث المسعورة ليخبرها أنه بخير ولا يخطط للعودة إلى إنجلترا، ثم يرجوها أن تتوقف عن إرسال بريد جوي بورق رخيص مع قصاصات جرائد بمقالات عن برامج نيجيرية معلمة بدوائر قلم رصاص. كانت المقالات تزعجه. "أحقاد قبَلية عتيقة،" كتبت صحيفة هيرالد[1]، أنها كانت السبب في تلك المذابح. جريدة التايم[2] عنونت صفحتها: "الإنسان يجب أن يضرب بشدة، " وهو تعبير مطبوع على جانب لوري نيجيري، لكن المحرر أخذ كلمة "يضرب" حرفيًّا وراح يفسر أن النيجيريين يميلون بطبيعتهم إلى العنف حتى أنهم يكتبون عنه كضرورة للمسافرين في اللوري. وأرسل ريتشارد رسالة مهذبة توضيحية للتايم. بلغة إنجليزية نيجيرية، كتب أن "يضرب بشدة" تعني "يأكل". كانت الأوبزيرفر[3] أكثر براعة قليلاً حين كتبت أن نيجيريا لو نجت من مذابح الإيبو فسوف تنجو من كل شيء آخر. لكن كان هناك خواء في كافة الأصعدة، وصدى من اللاواقعية. لذلك بدأ ريتشارد في كتابة مقال طويل حول المذابح. جلس إلى مائدة الطعام في بيت كاينين وراح يكتب على أوراق طويلة غير مسطرة. كان قد أحضر هاريسون إلى بورت هاركورت، وبينما كان يكتب كان يسمع هاريسون يتحدث إلى إكديجدي وسيباستين. "ألا تعرف كيف تخبز كعكة الشوكولاتة الألمانية؟" ضاحكًا بصوت يشبه صوت الدجاج. "ألا تعرف ما هو فتات الرواند؟" قهقهة سخرية أخرى.

---

[1] - Herald
[2] - Time
[3] - Observer

بدأ ريتشارد بالكتابة عن مشكلة اللاجئين، كنتيجة للمذابح، عن التجار الذين هربوا من أسواق الشمال، عن المحاضرين الذين تركوا حرم الجامعة، عن المستخدمين المدنيين الذين فروا من وظائفهم في الوزارات. وكان يكافح لينهي الفقرات.

من الضروري أن نتذكر أن المرة الأولى التي بدأت فيها مذابح الإيبو، كانوا يُذبحون، حتى على مدى أصغر مما حدث مؤخرًا، كانت عام 1945. كانت المذبحة قد اندلعت من قِبل الحكومة الاستعمارية البريطانية حينما لامت الإيبو على المظاهرة الأهلية، وحظرت الصحف الإيبو المطبوعة، وشجعت بوجه عام المشاعر المعادية للإيبو. إن فكرة القتل الأخير كمحصلة الكراهية القديمة طويلة الزمن من ثم مضللة. القبائل الشمالية والجنوبية كان بينها تواصل طويل، يعود على الأقل إلى القرن التاسع، ذاك أن بعض الزخارف الفاتنة اكتشفت في مواقع إيبو-أوكوا المؤكدة تاريخيًّا. لا شك أن هذه الجماعات قد قاومت الحروب وهجمات العبيد فيما بينها، لكنهم لم يقيموا المذابح على هذا النحو البشع. لو كان هذا كراهية، فهي حديثة العهد جدًّا. وقد حدثت ببساطة بسبب سياسات قانون التقسيم غير الرسمي الذي مارسته الحكومة البريطانية الاستعمارية. تلك السياسات تلاعبت على التباينات بين القبائل وكرست أن الوحدة لا محل لها ولن تحدث، ومن ثم يسهل حكم مثل هذه الدولة الواسعة.

حينما أعطى كاينين المقالة قرأتها جيدًا وعيناها مضيقتان، ثم أخبرته فيما بعد، "شرسة جدًّا."
لم يكن واثقًا ماذا تعني "شرسة جدًّا"، وما إذا كانت قد أعجبتها.
كان راغبًا بيأس في استحسانها. كان متحسسًا من برود المشاعر الذي عاود بعد رجوعها من زيارة أولانا في نسوكا. كانت قد علقت صورة لأقاربها المغتالين—آريزي ضاحكة في ثوب عرسها، الخال مبيزي متحمسًا في بذلته الضيقة جوار الخالة الجليلة إيفيكا في ثوب مطبوع—لكنها قالت أقل القليل عنهم ولا شيء حول أولانا. كانت تنسحب إلى الصمت في منتصف أي حوار، وحينما تفعل ذلك كان يدعها لحالها؛ أحيانًا كان يحسدها على مقدرتها على التحوّل جراء ما حدث.
"ماذا ترين بشأنها؟" سألها، وقبل أن تتمكن من الإجابة، سألها عما بالفعل يريده: "هل أعجبتك؟ كيف تشعرين تجاهها؟"
"أظن أنها رسمية جدًّا ومتعجرفة،" قالت. "لكن ما أشعر تجاهها هو الفخر. أشعر بالفخر."
أرسلها إلى جريدة هيرالد. حينما تسلم ردًّا بعد أسبوعين، مزقه بعد قراءته. الصحافة العالمية كانت ببساطة قد تشبعت بحكايات العنف في أفريقيا، وهذه المقالة كانت على وجه خاص متحذلقة وبلا طعم، هكذا كتب المحرر المختص، لكن ربما كتب ريتشارد مقالاً عن الملاك

البشري؟ هل يتمتمون بأية تعاويذ وهم يمارسون القتل، على سبيل المثال؟ هل يأكلون الأجزاء البشرية كما يفعلون في الكونغو؟ هل ثمة طريقة بالفعل لمحاولة فهم عقول هؤلاء البشر؟

طرح ريتشارد المقالة جانبًا. أرعبه أنه ينام جيدًا في الليل، وأنه ما يزال ينال الهدوء برائحة أوراق البرتقال وسكون لون البحر الفيروزي، ذاك أنه كان ذا حس مرهف.

"أمضي في حياتي. الحياة كما هي،" أخبر كاينين. كان يجب أن يكون لي ردة فعل؛ الأشياء يجب أن تبدو مختلفة."

"لا يمكنك أن تكتب مخطوطًا في رأسك ثم تجبر نفسك على إتباعها. يجب أن تترك نفسك لتكون كما هي يا ريتشارد،" قالت بهدوء.

لكنه لم يقدر أن يترك نفسه لتكون على طبيعتها. لم يقدر أن يصدق أن الحياة كانت كما هي لدى الناس الآخرين الذين شاهدوا المذابح بعيونهم. ثم أحس بارتعاب أكبر لفكرة أنه ربما لم يكن إلا مختلس نظر. لم يكن خائفًا على حياته الخاصة، لذلك أضحت المجازر خارجية، خارج ذاته؛ كان يراقبها عبر عدسة منفصلة كونه يعلم أنه آمن. لكن هذا لا يمكن أن يكون؛ فكاينين لم تكن آمنة لو أنها كانت هناك.

بدأ في الكتابة عن ننايمكا والرائحة اللاذعة للخمر في اختلاطه بالدم البشري الطازج في قاعة المطار تلك حيث رقد الساقي بوجه مشفوط، لكنه توقف لأن الكلمات كانت مضحكة. كانت ميلودرامية أكثر مما ينبغي. بدت تمامًا مثل المقالات في الصحف الأجنبية، كأنما هذا القتل لم يحدث، وإن كان قد حدث، فإنه لم يحدث على هذا النحو. صدى اللا واقعية يُثقل كل كلمة؛ هو يتذكر ما حدث في ذلك المطار بوضوح تام، لكن ليكتب عنه يجب أن يعيد تخيّله، ولم يكن واثقًا أنه قادر عل ذلك.

يوم إعلان الانفصال، جلس مع كاينين في الشرفة ينصتان إلى صوت أوجيوكوا في الراديو وبعد ذلك أخذها بين ذراعيه. أول الأمر ظن أنهما كليهما يرتعشان، إلى أن رجع إلى الوراء ونظر إلى وجهها فاكتشف أنها ساكنة تمامًا. هو وحده كان يرتجف.

"استقلالٌ سعيد،" أخبرها.

"استقلال،" قالت قبل أن تضيف: "استقلالٌ سعيد."

ود أن يسألها أن تتزوجه. كانت تلك بداية جديدة، بلد جديد، بلدهما الجديدة. ليس وحسب لأن هذا الانفصال كان عادلاً، بالنظر إلى أن جميع الإيبو قد تحملوا، بل بسبب الاحتمالات التي يمكن أن تحملها بيافرا له. يود أن يكون بيافريًّا ذلك أنه لم يقدر أبدًا أن يكون نيجيريًّا-- هو هنا منذ البداية؛ هو شارك في الميلاد. هو منتمٍ. قال لكاينين تزوجيني في رأسه عدة مرات لكنه لم يقلها علنًا. في اليوم التالي عاد إلى نسوكا مع هاريسون.

- - - -

كان ريتشارد يحبُّ فيليس أوكافور. يحبُّ الحيويةَ في تسريحة باروكتها، التشدقَ في لهجتها المسيسيبية، تمامًا كما يحبُّ إطارَ نظارتها الصارم المناقض دفءَ عينيها. منذ توقف عن الذهاب إلى منزل أودينيبو، كان غالبًا ما يقضي الأمسيات معها ومع زوجها نانيلوجو. وكأنما تعرف أنه يفتقد الحياة الاجتماعية، فكانت تصر أن تدعوه إلى مسرح الفنون، ومحاضرات عامة، وتدعوه أن يلعب ماتش اسكواش. لذلك حينما دعته إلى حضور ندوة: "في حالة الحرب"، التي نظمتها جماعة النساء في الجامعة، رحّبَ بالدعوة. تنظيمها كان فكرة طيبة بالطبع، على أنه لم يكن ثمة حرب. فالنيجيريون سوف يتركون بيافرا تتشكّل؛ لم يكونوا ليحاربوا مواطنين دكّتهم المجازر بالفعل. كانوا سعداء للتخلص من الإيبو على كل حال. كان ريتشارد واثقًا من ذلك. لكنه كان أقلَّ ثقة حول ماذا سيفعل إن صادف أولانا في الندوة. من السهل تفاديها على البعد، في أربعة سنوات كان قد صادفها أربع مرات فقط، لم يذهب أبدًا إلى ملاعب التنس أو إلى نادي الأساتذة، ولم يعد يتسوق من المحل الشرقي.

وقف إلى جوار فيليس عند مدخل قاعة المحاضرة وراح يمسح القاعة بعينيه. كانت أولانا جالسة في الصف الأمامي وطفلةٌ على ركبتيها. جمالها الوافر بدا مألوفًا جدًّا، وكذلك بدا فستانُها الأزرق بلونه الريشيّ، كأنه كان قد رآها حديثًا. نظر بعيدًا ولم يتمالك نفسه من الشعور بالراحة أن أودينيبو لم يكن هناك. كانت القاعة مليئة. وحديثُ النساء على المنصة يكرر نفسه مرارًا وتكرارًا. "لفوا شهاداتكن في حقائب عازلة للماء وكن على ثقة أن تكون أول شيء تأخذوه معكن حال الرحيل. لفوا شهاداتكن في حقائب عازلة للماء...."

تكلم المزيد من الناس. ثم انتهى الأمر. كان الناس يندمجون يتكلمون يضحكون ويتبادلون أوراق "في حال الحرب" . يعلم ريتشارد أن أولانا قريبة منه، تتحدث مع رجل ملتحٍ يعلّم الموسيقى. استدار، عَرَضًا، لكي ينسحب بعيدًا، وكان قريبًا من الباب حينما ظهرت جواره.

"هاللو ريتشارد. كيدو؟"

"بخير،" قال. بشرة وجهه بدت منقبضة. "وأنتِ؟"

"نحن بخير،" قالت أولانا. بشفتيها بريقٌ ورديٌّ. لم يكن ريتشارد قد استخدم ضمير الجمع في سؤاله عنها. ولم يكن واثقًا ما إذا كانت تعني نفسها والطفلة، أم هي وأودينيبو، أم ربما كانت "نحن" تعني اقتراح أنه قد عمَّ السلام فيما كان قد حدث بينهما وما سببه ذلك في علاقتها مع كاينين.

"صغيرتي، هلا قدمت التحية؟" سألت أولانا، وهي تنظر لأسفل إلى بيبي، التي كانت يدها قابضة على يد أولانا.

"مساء الخير،" قالت الصغيرة بصوت عال.

انحنى ريتشارد ومسَّ وجنة الصغيرة. ثمة هدوءٌ في محياها جعلها تبدو أكبر سنًّا وأكثر فطنةً مما لطفلة في الرابعة. "مرحبًا يا صغيرة."

"كيف حال كاينين؟" سألت أولانا.

تجنب ريتشارد عينيها، وهو غير متأكد من تعبيره كيف يجب أن يكون. "هي بخير."

"وكتابُك يسير على ما يرام؟"

"نعم، شكرًا لكِ."

"أمازال يحمل عنوان "سلة الأيادي"؟"

سَرَّه أنها لم تنس. "لا." توقف وحاول ألا يتذكر الذي حدث للمخطوطة، واللهبَ الذي لابد التهمتها بسرعة. "عنوانه "في زمن أواني الحبال."

"عنوانٌ مثير،" همهمت أولانا. "أرجو ألا تكونَ هناك حربٌ، لكن الندوة كانت مفيدة جدًّا، أليس كذلك؟"

"نعم."

جاءت فيليس وحيّت أولانا، ثم جذبت ذراع ريتشارد. "يقولون إن أوجيوكوا سيأتي! أوجيوكوا قادم!" كان هناك صوت صيحات مرتفعة خارج القاعة.

"أوجيوكوا؟" سأل ريتشارد.

"نعم، نعم!" كانت فيليس سائرة صوب الباب. "هل تعلم أنه ذهب إلى حرم جامعة إنيوجو فجأة قبل عدة أيام؟ يبدو أن الدور علينا!"

تبعها ريتشارد للخارج. انضموا إلى جماعة المحاضرين الواقفين جوار تمثال أسد؛ وكانت أولانا قد اختفت.

"هو في المكتبة الآن،" قال أحدهم.

"لا، إنه في مبنى المجلس."

"لا، إنه يود أن يخطب في الطلبة. هو في مبنى الإدارة."

بعض الناس كانوا بالفعل يسرعون الخطو نحو مبنى الإدارة، فذهبت فيليس وريتشارد بدورهما. كانا قريبين من شجيرات المظلات التي تحدد مسار السيارات حينما رأى ريتشارد الرجل ذا اللحية، يسرع الخطو عبر الممر في زيٍّ عسكري بحزام شديد الأناقة. تزاحم بعض الصحفيين خلفه، يحملون أجهزة تسجيل. والطلبة، كثيرون جدًّا حتى أن ريتشارد تساءل كيف احتشدوا سريعًا هكذا، بدأوا في الإنشاد. "القوة! القوةّ!" نزل أوجيوكوا الدرج ثم وقف فوق بعض مكعبات الأسمنت على العشب الأخضر. رفع يديه. كل شيء فيه كان يشع، لحيته المشذبة، ساعة يده، كتفاه العريضان.

"جئتُ لأسألكم سؤالا،" قال. صوته الأكسفورديّ كان ناعمًا على نحو مدهش؛ لم يكن به تلك الخشبية التي في صوته بالراديو وشابَه شيء من المسرحية، صوت محسوب بدقة. "ماذا سنفعل؟ هل نظل صامتين ونجعلهم يدفعوننا من جديد داخل نيجيريا؟ هل نتجاهل الآلاف من إخوتنا وأخواتنا الذين قُتلوا في الشمال؟"

"لا! لا!" كان الطلاب يملئون الفناء الواسع، ينسكبون في المرج الأخضر وفي مسار السيارات. والعديد من المحاضرين قد صفوا سياراتهم في الطريق وانضموا إلى الجمهور.
"القوة! القوة!"
رفع أوجيوكوا يديه من جديد فتوقف الإنشاد. "لو أعلنوا الحرب،" قال. "فأود أن أقول لكم الآن إنها ستكون حربًا طويلة. حربًا طويلة وممتدة. هل أنتم مستعدون؟ هل نحن مستعدون؟"
"نعم! نعم! يا أوجيوكوا، *نـي آنـي إبي*! أعطنا السلاح! *إيو دي آني نوبي*! ثمة غضبٌ في صدورنا!"
كان النشيد الآن ثابتًا— أعطنا السلاح، ثمة غضب في صدورنا، أعطنا السلاح. وكان الإيقاع متهورًا. رمق ريتشارد فيليس، تدفع قبضتها في الهواء وهي تهتف، ونظر لبرهة حوله لكل الحشد المتحمس، قبل أن يبدأ هو الآخر في التلويح والهتاف. "أوجيوكوا، أعطنا السلاح، أوجيوكوا، *نـي آنـي إبي*!"
أشعل أوجيوكوا سيجارة ثم ألقاها فوق العشب. توهجت للحظة، قبل أن يصل إليها ويسحقها تحت حذائه الطويل الأسود اللامع. "حتى العشب سوف يقاتل من أجل بيافرا،" قال.

أخبر ريتشارد كاينين كيف فتنه أوجيوكوا رغم أن الرجل به مظاهر صلع مبكر وشابته بعض المسرحة الغامضة وكان يلبس خاتمًا مبهرجًا. وأخبرها عن الندوة. وتساءل هل يخبرها أنه قابل أولانا. كانا يجلسان في الشرفة. كاينين تقشر برتقالة بالسكين، وتُسقط القشرة الرقيقة في طبق على الأرض.
"رأيتُ أولانا،" قال.
"صحيح؟"
"في الندوة. قلنا هاللو وسألتْ عنك."
"حسن." انزلقت البرتقالة من يدها، أو ربما هي أسقطتها، لأنها تركتها هناك على أرضية الشرفة الرخامية.
"أنا آسف،" قال ريتشارد. "ظننت أن يجب أن أذكر أنني رأيتها."
التقط البرتقالة وناولها إياها لكنها لم تأخذها. نهضت ومشت إلى الدرابزين.
"الحرب آتية،" قالت. "سوف تُجنّ بورت هاركورت."
كانت تنظر نحو المدى البعيد، كأنما بالفعل قادرةٌ أن ترى المدينة بسعار حفلاتها الباهظة وتزاوجها المسعور وسياراتها المسرعة. مبكرًا في ذلك الأصيل، جاءت ريتشارد شابةٌ أنيقة في محطة القطار وأخذت يده. "تعال إلى شقتي. لم أفعلها من قبل مع أي رجل من قبل، لكنني أريد أن أجرب كل شيء الآن، أوه!" قالت وهي تضحك، رغم أن الرغبة المهتاجة في عينيها كانت جادة بما يكفي. انتزع يده ومشى بعيدًا، وهو حزين بالتفكير في النهاية التي ستؤول إليها

مع رجل غريب آخر في الفراش. كأن الناس في هذه المدينة ذات الصنوبرات العالية يريدون أن يجمعوا كل ما يقدرون عليه قبل أن تجردهم الحربُ من الاختيارات.

نهض ريتشارد ووقف إلى جوار كاينين.

"لن تكون هناك حرب،" قال.

"كيف سألتكَ عني؟"

"قالت كيف حال كاينين؟"

"وأنت قلت إنني بخير؟"

"نعم."

لم تقل شيئًا آخر حول هذا الأمر؛ ولم يتوقع هو أن تفعل.

نزل آجوو من السيارة ودار إلى صندوقها. وضع كيس السمك المجفف فوق حقيبة الجاري الأكبر، ثم رفعهما معا فوق رأسه، وتبع السيد صاعدًا الدَّرج المكسور ثم داخل المبنى المعتم الذي كان مكتبَ اتحاد المدينة. جاء مستر أوفوكو لاستقبالهما. "خذْ الحقيبتين إلى المخزن،" أخبر آجوو، مشيرًا بإصبعه كأنما آجوو لا يعرف المكان بعد كل هذه الزيارات ليأتي بالطعام إلى اللاجئين. كان المخزن فارغًا إلا من حقيبة أرز في الركن؛ يسعى فيها السوس.

"كيف الأمور؟ *آ نا -ايميكوا*؟" سأل السيد.

دعك مستر أوفوكو يديه معًا. له وجه حزين لرجل يرفض ببساطة أو يُواسَى. "لم يعد يتبرع أحدٌ هذه الأيام. ظل هؤلاء يأتون إلى هنا يسألون عن الطعام، ثم بدأوا يسألون عن وظائف. كما تعلم، لقد أتوا من الشمال دون أي شيء. لا شيء."

"أعلم أنهم أتوا دون شيء يا صديقي! لا تحاضِر عليّ!" تحرك السيد حركة خاطفة.

تحرك مستر أوفوكو للوراء. "أنا فقط أقول إن الوضع خطير. في البدء كان أهلنا يندفعون للتبرع بالطعام، لكنهم الآن قد نسوا. سوف تحل كارثةٌ إذا اندلعت حرب."

"الحربُ لن تقوم."

"إذن لماذا يستمر جوون في محاصرتنا؟"

تجاهَل السيدُ السؤالَ واستدار ليغادر. وتبعه آجوو.

"بالتأكيد يستمر الناس في التبرع بالطعام. لابد أن هذا الشخص الغبي يأخذ الطعام لأسرته،" قال السيد وهو يدير السيارة.

"نعم يا صاح،" قال آجوو. "وحتى بطنه كبيرة جدًّا."

"هذا الجاهل جوون تعهد بقدر بائس ضئيل لأكثر من مليوني لاجئ. هل يظن أن الذين قُتلوا بعضُ الدجاجات، وأن من عادوا للوطن هم أقاربُ هؤلاء الدجاجات؟"

"لا يا صاح." نظر آجوو خارج النافذة. كان يحزنه مجيئه هنا ليأتي بالسمك والجاري للناس الذين كانوا يطعمون أنفسهم في الشمال، كذلك سماعُه أسبوعًا بعد أسبوع السيد يقول الكلام نفسه. مد يده وعدل الحبل المتدلي من مرآة السيارة. كانت الشريحة البلاستيكية المدلاة منها مرسوم عليها نصف شمس صفراء على خلفية سوداء.

فيما بعد، وهو جالس على درجات الفناء الخلفي يقرأ "أوراق بيكويك"[1]، يتوقف كل حين ليفكر وليتأمل ورقات الذُّرة النحيلة وهي تهسهس مع حفيف النسيم، لم يندهش لسماع صوت السيد يرتفع من قاعة المعيشة. كان السيدُ عصبيَّ المزاج في أيام مثل هذه.

---

[1]- Pickwick Papers أولى روايات تشارلز ديكنز

"وماذا عن زملائنا في الجامعة في إبادان وزاريا ولاجوس؟ من الذي يعلو صوته بهذا الشأن؟ لقد ظلوا صامتين حينما كان المغتربون البيض يشجعون المشاغبين على قتل الإيبو. كان من الممكن أن تكوني واحدة منهم إذا حدث وكنت متواجدة على أرض الإيبو! فأي قدر من التعاطف لديكِ؟" صرخ السيد.

"لا تتجاسر وتقول ليس لديّ تعاطفقولي إن الانفصال لم يكن الطريق الوحيد للأمن لا يعني أن لا تعاطفًا لدي!" كانت تلك ميس آديبايو.

"هل مات ابن عمك؟ هل مات عمك؟ سوف تعودين لأهالك في لاجوس الأسبوع القادم ولن يتحرش بك أحد وأنت في يوريوبا. أليسوا أهلك الذين يقتلون الإيبو؟ أليست مجموعة من وزرائكم من يذهبون إلى الشمال ليشكروا الأمراء لأنهم صفحوا عن اليويوب. إذن ماذا تقولين. ما هو رأيك بهذا الصدد؟"

"أنت تهينني يا أودينيبو."

"الحقيقةُ غدت إهانة."

كان هناك صمت ثم صرير الباب الرئيسي وهو يُفتح ثم يصفق. غادرت ميس آديبايو. نهض آجوو حينما سمع صوت أولانا. "ليس هذا مقبولاً يا أودينيبو! أنت مَدين لها باعتذار!"

أرعبه أن يسمعها تصرخ لأنها نادرًا ما تفعل، وكانت المرة الأخيرة التي سمعها فيها تصرخ كانت في تلك الأسابيع العصيبة قبل مولد بيبي، حينما توقف مستر ريتشارد عن الزيارة وبدا كل شيء على حافة الغرق. لوهلة لم يسمع آجوو شيئًا—ربما أولانا أيضًا قد خرجت— وبعدها سمع أوكيوما يقرأ. كان آجوو يعرف القصيدة: ***إذا رفضت الشمسُ أن تشرقَ، سوف نجعلها تشرقُ***. أول مرة قراها أوكيوما كان هو اليوم الذي تغير فيه اسم جريدة ***الرنيسانس***[1] إلى اسم ***الشمس البيافرية***، كان آجوو ينصت وتتقوى معنوياته حين يصل إلى بيته المفضّل في القصيدة: ***الأواني الخزفية المحروقة في نار الحماسة الغيور، سوف تُبرّد أقدامنا ونحن نصعد***. والآن، تركته القصيدةُ دامعَ العينين. جعلته يحنّ إلى تلك الأيام حين كان أوكيوما يقرأ قصائده عن الناس الذين يصيب مؤخراتهم طفحٌ جلدي بعد التغوّط في الآنية المستوردة، الأيام التي كانت الآنسة آديبايو والسيد يصرخان لكنهما لا ينهيان الأمسية إلا وقد خمدت ثورتها، الأيام حينما كان لا يزال يقدم الحساء. الآن لا يقدم إلا جوز الكولا.

غادر أوكيوما بعد قليل وسمع صوت أولانا يعلو من جديد. "يجب عليك يا أودينيبو. أنت مدين لها باعتذار!"

"ليس السؤال حول هل مدين لها أنا باعتذار أم لا. السؤال هو هل قلتُ الحقيقة أم لا،" قال السيد. قالت أولانا شيئًا لم يسمعه آجوو فتكلم السيد بنبرة أهدأ: "حسنا يا نكيم، سوف أعتذر."

دخلت أولانا المطبخ. "سوف نخرج،" قالت. "تعالَ وأغلقْ الباب."

---

[1]- Renaissance : عصر النهضة

"حاضر يا ماه."

بعدما غادرا في سيارة السيد، سمع آجوو دقًّا على الباب الخلفي فذهب ليستطلع.

"تشينير!" قال بدهشة. لم تأت مبكرًا هكذا من قبل، وليس للبيت الرئيسي أيضًا.

"أنا وسيدتي والأطفال مغادرون غدًا في الصباح إلى القرية. أتيتُ لأقول لك ابقَ بخير. *كا او دي.*"

لم يسمعها آجوو تتحدث كثيرًا من قبل. ولم يعرف ماذا يقول. نظرا لبعضهما البعض لبرهة.

"ابقي بخير،" قال. شاهدها وهي تسيرُ صوب السياج الذي يفصل بين البيتين ثم انزلقت تحته. لن تظهر من جديد عند بابه في الليل وترقد على ظهرها وتفتح ساقيها في سكون، على الأقل ليس لبعض الوقت. شعر بثقل قاهر في رأسه. كانت التغيرات تتدافع ضده، تُثقل كاهله، ولم يكن لديه ما يفعله ليبطئ تدافعها.

جلس وراح ينظر إلى غلاف "أوراق بيكويك"، ثمة هدوء صاف بالفناء الخلفي، في الموجات الرقيقة لشجر المانجو وفي رائحة الكاجو التي تشبه النبيذ. ناقض هذا ما يراه حوله. الأقل والأقل من الضيوف يزورون الآن، وفي الأمسيات كانت شوارع الحرم الجامعي شبحية، مغطاة بالضوء اللؤلؤي للصمت والخواء. المحل الشرقي كان قد أُغلق. سيدة تشينير كانت واحدة من كثير من عائلات حرم الجامعة التي رحلت؛ كان الصبيان الخدم يشترون كراتين كبيرة من السوق ثم تغادر السياراتُ البيوتَ وصناديقُها الخلفيةُ مثقلةٌ بالحمولات الضخمة. لكن أولانا والسيد لم يحزما حقيبة واحدة. كانا يقولان إن الحرب لن تأتي وإن الناس مرتعبون وحسب. يعرف آجوو أن تلك العائلات قد أُخبرت أن بوسعها أن ترسل النساءَ والأطفال إلى بلداتهم الأم، لكن الرجال بوسعهم أن يمكثوا، لأن الرجال إذا غادروا فإن ذلك يعني أنهم مرتعبون في حين لم يكن هناك ما يدعوا إلى الخوف. "لا سببَ للحذر" هو ما كان السيد يقوله دائمًا. "لا داعي للخوف." بروفيسور أوزوماكا الذي يسكن أمام د. أوكيكي كان قد أعيد ثلاث مرات بواسطة صناديد واقفين على بوابات الحرم. ثم تركوه يمر في اليوم الثالث بعدما أقسم لهم أنه سوف يعود، وأنه فقط يوصِّل أسرته للبلدة لأن زوجته خائفةٌ جدًّا.

"*آجوويانـي*!"

نظر آجوو إلى أعلى فرأى عمته آتية نحوه من الفناء الأمامي. نهض.

"عمتي! مرحبًا."

"كنت أدق على الباب الرئيسي."

"آسف. لم أسمع."

"هل أنت وحدك بالبيت؟ أين سيدك؟"

"خرجوا. أخذوا الصغيرة معهم." فحص آجوو وجهها. "عمتي، هل أنت بخير؟"

ابتسمت. "بخير، *أو دي مما*. أحملُ رسالةً من والدك. السبت القادم سوف يقيمون احتفال حمل النبيذ لزفاف آنيوليكا."

"السبت القادم؟"

"من الأفضل إقامته الآن، قبل أن تأتي الحرب، إذا ما كانت الحرب آتية."

"هذا صحيح." نظر آجوو بعيدًا، نحو شجرة الليمون. "إذن آنيوليكا بالفعل ستتزوج."

"هل كنت تتصور أنك ستتزوج شقيقتك؟"

"الله يمنع."

مدت العمى يدها وقرصت ذراعه. "انظرْ إليك، غدوتَ رجلاً. *إيه*! خلال سنوات قليلة سيأتي دورك."

ابتسم آجوو. "إنها أنت وأمي مَن ستجدان شخصًا طيبًا حينما يأتي الوقت يا عمة،" قال برصانة زائفة. لم يكن هناك سبب ليخبرها أن أولانا أخبرته إنهما سيرسلانه إلى الجامعة بعدما يُنهي المدرسةَ الثانوية. لن يتزوج قبل أن يصبح مثل السيد، قبل أن يمضي عدة سنوات في قراءة الكتب.

"سأمضي،" قالت العمة.

"ألا تشربين بعض الماء؟"

"لا أستطيع أن أمكث. *ناجوان*، دعني أمضي. حيي سيدك وانقلْ له رسالتي."

حتى قبل أن تغادر العمة، بدأ آجوو يفكر في وصوله للحفل. هذه المرة سوف يحضن نيسيناتشي عاريةً ويعصرها بين ذراعيه. كوخ العم إيز مكانٌ جيد ليأخذها فيه، أو ربما حتى الجرف الهادئ جوار الشلال، طالما لن يزعجهما الأولاد الصغار. كان يرجو ألا تظل ساكنةً مثل تشينير؛ تمنى أن يسمع الأصوات نفسها التي سمعها من أولانا حينما كان يضع أذنه على باب غرفة النوم.

ذلك المساء، وبينما كان يطهو الغداء، أعلن صوت هادئ في الراديو أن نيجيريا قد تباشر عملاً بوليسيًّا لكي تعيد الثورة إلى بيافرا.

كان آجوو مع أولانا في المطبخ، يقشر البصل، ويراقب حركة كتف أولانا وهي تقلب الحساء على الموقد. جعله البصل يشعر أنه نقي، كأنما الدموع التي يسببها البصل تأخذ معها التلوث وتخرج. كان بوسعه أن يسمع صوت الصغيرة عاليًا من غرفة المعيشة، وهي تلعب مع السيد. لم يُرِد أن يأتي أحدهما إلى المطبخ الآن. قد يدمران السِّحرَ الذي يحسّه، لسعة البصل اللذيذة في عينيه، البريق في بشرة أولانا. كانت تتكلم عن الشماليين في أونتشا الذين قتلوا في غارات انتقامية. أحب طريقة خروج "غارات انتقامية" من فمها.

"هذا خطأ كبير،" قالت. "خطأ جدًّا. لكن فخامته[1] قد أدار الأمر جيدًا؛ يعلم اللهُ كم يبلغ عدد القتلى لو أنه لم يُعد إرسال الجنود الشماليين إلى الشمال."

"أوجيوكوا رجل عظيم."

"نعم، بالفعل، لكننا جميعًا بوسعنا أن نفعل الأشياء نفسها مع بعضنا البعض، بالفعل."

"لا، يا مه. نحن لسنا مثل الناس الهاوسا. القتل الانتقامي حدث لأنهم دفعونا إليه." خرجت "القتل الانتقامي" قريبة الصوت من صوتها، كان واثقًا من ذلك.

هزت أولانا رأسها لكنها لم تقل شيئًا لبرهة. "بعد احتفال حمل النبيذ الخاص بشقيقتك، سوف نذهب إلى آبا لقضاء بعض الوقت هناك بما أن الحرم الجامعي خاو،" قالت أخيرًا. "بوسعكَ أن تمكثَ عند أهلك إذا أردت. سوف نأتي إليك بعدما نعود؛ لن نغيب أكثر من شهر، على أقصى تقدير. جنودنا سوف يُرجعون النيجيريين في أسبوع أو أسبوعين."

"سوف آتي معك ومع السيد يا ماه،"

ابتسمت أولانا، كأنما أرادت أن يقول ذلك. "هذا الحساء لا يزداد كثافة أبدًا،" تمتمت. ثم أخبرته عن المرة الأولى التي طهت فيها حساء وهي بنت صغيرة، وكيف كانت تحرق قاع الوعاء فتحوله إلى فحم قرمزي ولم يحدث أن خرج الحساء شهيًّا أبدًا. كان مأسورًا بصوت أولانا ولذلك لم يسمع صوت—بوم- بوم- بوم— من مكان بعيد خارج النافذة، حتى توقفت عن التقليب ونظرت لأعلى.

"ما هذا؟" سألت. "هل سمعت ذلك يا آجوو؟ ما هذا؟"

ألقت المغرفة وجرت إلى غرفة المعيشة. تبعها آجوو. كان السيد واقفًا جوار النافذة، حاملاً علمًا مطويًّا لشمس بيافرا.

"ما هذا يا أودينيبو؟" سألت أولانا وحملت الصغيرةَ. "أودينيبو!"

"إنهم يتقدمون،" قال السيد بهدوء. "أظن أننا يجب أن نخطط للرحيل اليوم."

ثم سمع آجوو بوق السيارة العالي بالخارج. وفجأة كان خائفًا من أن يذهب إلى الباب، ولا حتى أن يذهب إلى النافذة ويختلس النظر.

فتح السيد الباب. وقفت السيارة موريس مينور الخضراء بعنف حتى أن أحد الإطارات خرج عن مسار الطريق، واصطدم بصفوف التوليب التي تحدد المرج؛ وحينما خرج الرجل من السيارة، ذهل آجوو لما رآه لا يرتدي إلا قميصًا داخليًّا وبنطالاً. وشبشب حمام أيضًا!

"اِجلوا عن المنطقة الآن! الآن فورًا! أنا ذاهبٌ إلى كل المنازل التي ما تزال مأهولة. اِجلوا الآن!"

بعدما اندفع عائدًا إلى سيارته وغادر مُطلِقًا بوقَها دون توقف، تعرف عليه آجوو: كان الذي يشرب بيرته مع الفانتا.

---

[1] - His Excellency- يقصد بها فخامة الرئيس- رئيس بيلفرا

"خذي بعض الأشياء القليلة يا نكيم،" قال السيد. "سأفحص الماء في السيارة. آجوو، أغلقْ كلَّ شيء بسرعة! لا تنس نُزُل الأولاد."

"جيني؟ أية أشياء؟" سألت أولانا. "ماذا سوف آخذ؟"

بدأت الصغيرة في البكاء. وكان هناك صوتٌ من جديد، بوم- بوم- بوم، أقرب وأعلى.

"لن يكون لوقت طويل، سنعود قريبًا. فقط خذي أشياء قليلة، ثيابًا." أومأ السيد بغموض قبل أن ينتشل مفاتيح السيارة من على الرف.

"مازلتُ أطهو،" قالت أولانا.

"ضعيه في السيارة،" قال السيد.

بدت أولانا مذهولة؛ لفّت وعاء الحساء في فوطة الصحون وأخذتها للسيارة. راح آجوو يركض هنا وهناك يجمع أشياء في حقائب: ملابس الصغيرة ولعبها، بسكويت من الثلاجة، ملابسه، ملابس السيد، عباءات أولانا وفساتينها. كان يتمنى لو يعرف ماذا يأخذ. كان يتمنى لو لم يكن الصوت قريبًا جدًّا. دسَّ الحقائب في مقعد السيارة الخلفي وأسرع عائدًا البيت ليغلق الأبواب والنوافذ. كان السيد يطلق البوق بالخارج. وقف في منتصف قاعة المعيشة، يشعر بالدوار. كان بحاجة إلى أن يتبول. جرى إلى المطبخ وأطفأ الموقد. كان السيد يصرخ باسمه. أخذ ألبومات الصور من على الرف، ألبومات الصور الثلاثة التي تحرص أولانا أن تكون معًا، وجرى خارجًا إلى السيارة. لم يكد يغلق بابها حتى انطلق السيد. شوارع الحرم الجامعي كانت مخيفة؛ ساكنة وخاوية.

عند البوابات، كان الجنود البيافريون يلوحون للسيارات. بدوا مميزين في زيّهم الكاكي، وأحذيتهم الطويلة المصقولة، ونصف الشمس الصفراء التي تسطع على أكمامهم. تمنى آجوو أن يكون أحدهم. لوّح السيد وقال: "حسنًا ما تفعلون!"

الغبار يدثر كل شيء، مثل بطانية بنيّة شفافة. الطريق الرئيسي كان مكتظًا؛ النساء بصناديقَ فوق رؤوسهن وأطفالٌ مربوطون إلى ظهورهن، أطفالٌ حفاةٌ يحملون لفافات من الثياب أو البطاطا أو صناديق، والرجال يسحبون دراجات. وتعجب آجوو لماذا يحملون مشاعل كيروسين رغم أنها لم تظلم بعد. وشاهد طفلاً يتعثر ويسقط والأم تنحني وتجذبه لأعلى، وراح يفكر في بيته، في أبناء عمومته الصغار وفي والديه وفي آنيوليكا. كانوا آمنين. ليس عليهم الهرب لأن بلدتهم كانت نائية جدًّا. هذا يعني فقط أنه لن يشهد آنيوليكا وهي تتزوج، أنه لن يحضن نيسيناتشي بين ذراعيه كما خطّط. لكن ربما سيعود قريبًا. الحرب ستمتد فقط بما يكفي للجيش البيافري أن يحرق النيجيريين ويرسلوهم إلى العالم الآخر. وقتها سوف يتذوق حلوة نيسيناتشي، ويحضن هذا اللحم الناعم.

قاد السيد ببطء بسبب الزحام وحواجز الطرقات، وأبطأ حينما وصلوا هضاب ميليكن. اللوري أمامهم مكتوب عليه "لا أحد يعلم الغد". وهي تصعد المنحدر المائل، قفز شاب منها وراح

يجري على جانب الطريق، حاملاً كتلة خشبية، مستعدًا لوضعها وراء الإطار الخلفيّ إذا ما انحدر اللوري للوراء.

حينما وصلوا أخيرًا إلى آبا، كان وقت الغسق، زجاج السيارة كان مغطى بغلالة بنية من الغبار، وكانت الصغيرة نائمة.

اندهش ريتشارد حينما سمع إعلان الحكومة الفيدرالية "حركة بوليسية لتنظيم الثورة". لم تندهش كاينين.

"إنه النفط،" قالت. "لا يمكن أن يتركونا بسهولة نمضي بكل هذا البترول. لكن الحرب سوف تكون قصيرة. قال مادو إن أوجيوكوا لديه خطط كبيرة. اقترح عليّ أن أتبرع ببعض العملة الأجنبية لثكنات الحرب، حتى إذا ما انتهى الأمر أحصلُ على أي عقود قدمتها."

حدق ريتشارد فيها. يبدو أنها لم تفهم أنه لا يقدر أن يستوعب قيام حرب على إطلاقها، قصيرة أم لا.

"من الأفضل أن تنقل كل أشيائك إلى بورت هاركورت حتى يرجع النيجيريون،" قالت كاينين. كانت تتصفح الجريدة وتحرك رأسها على موسيقى البيتلز في الاستريو لتبدي الأمر طبيعيًّا، أن الحرب نتيجة حتمية للأحداث وأن نقله أشياءه من نسوكا عملٌ سهل كما يبدو.

"نعم بالطبع،" قال.

أخذه سائقها. انبثقت نقاط التفتيش الحدودية في كل مكان، الإطارات ولوائح المسامير موضوعة في عرض الطريق، رجال ونساء في قمصان كاكي واقفون على الجانبين يحلمون نظرة لا تعبير فيها. أول اثنين كانا سهلين. "إلى أين أنتم ذاهبون؟" سألا ثم لوّحا للسيارة أن تمر. لكن جوار إينيوجو، أغلق الدفاع المدني الطريق بجذوع الأشجار وبراميل قديمة صدئة. توقف السائق.

"عدْ للخلف! استدرْ وعدْ!" حدّقَ رجلٌ عبر زجاج السيارة؛ كان يحمل قطعة طويلة من الخشب منحوتة بدقة لتبدو مثل بندقية. "استدر للخلف وعد!"

"مساء الخير،" قال ريتشارد. "أنا أعمل في جامعة نسوكا وفي طريقي إلى هناك. خادمي هناك. يجب أن أحضر مخطوطتي وبعض الأغراض الشخصية."

"استدرْ وعد يا صاح. سوف نطرد الهمجيين قريبًا."

:لكن مخطوطتي وأوراقي وخادمي هناك. كما ترى، لم آخذ أي شيء. لم أكن أعرف."

"استدر للخلف وعد يا صاح. هذا أمرٌ منا. ليس آمنًا. لكن قريبًا، حينما نطرد الهمجيين، تستطيع أن تعود."

"لكن يجب أن تفهم." انحني ريتشارد للأمام.

ضاقت عينا الرجل، فيما راحت العين الواسعة المطبوعة على قميصه تحت كلمة "الحذر" تتسع. "هل أنت واثق أنك لست عميلاً للحكومة النيجيرية. إنكم أنتم أيها البيض من سمحتم لجوون أن يقتل النساء والأطفال الأبرياء."

"*أبو م أوني بيافرا*،" قال ريتشارد.

ضحك الرجل، ولم يعرف ريتشارد أضحكةُ سرور أم ضحكةُ كدر. "إيه، رجل أبيض هو الذي يقول إنه بيافري! أين تعلمت أن تتكلم لغتنا؟"

"من زوجتي."

"أوكي، صاح. لا تقلق على أغراضك في نسوكا. سوف تُفتح الطريق خلال أيام قليلة."

استدار السائق، وبينما راح يقود عائدًا الطريق الذي كان قطعه، راح ريتشارد ينظر للطريق المغلق وراءهما حتى اختفى ولم يعد يراه. فكر كيف انزلقت تلك الكلمات الإيبو ببساطة من فمه. "أنا بيافري." لا يعرف لماذا، لكن تمنى ألا يخبر السائقُ كاينين أنه قال ذلك. وتمنى أيضًا ألا يخبرها أنه أشار إليها بوصفها زوجته.

اتصلت سوزان بعد ذلك بعدة أيام. كان ذلك في الصباح المتأخر وكانت كاينين في أحد مصانعها.

"لم أكن أعرف أن لديك رقم هاتف كاينين،" قال ريتشارد. وضحكت سوزان.

"سمعت أنهم أخلو نسوكا وفكرت أنك يجب أن تكون معها. وإذن كيف حالك؟ هل أنت على ما يرام؟"

"لم تواجك مشاكل في الإجلاء، أليس كذلك؟" سألت سوزان. "أنت بخير؟"

"نعم أنا بخير." مسّه اهتمامُها.

"حسن. إذًا ما هي خططك؟"

"سأبقى هنا للوقت الحالي."

"ليس هذا آمنًا يا ريتشارد. لن أبقى هنا أكثر من أسبوع آخر. هؤلاء الناس أبدًا لا يحاربون حروبًا مدنية، أليس كذلك؟ أكثر كثيرًا من أن نطلق عليها حربًا مدنية." توقفت سوزان. "هاتفتُ القنصليةَ البريطانية في إنيوجو ولم أصدق أن أهلنا هناك مازالوا يلعبون بولو مائي ويقيمون حفلات كوكتيل في الفندق الرئاسيّ! ثمة حرب تعسة قادمة."

"سوف تنتهي قريبًا."

"تنتهي، ها! نيجل مغادرٌ خلال يومين. لا شيء سوف ينتهي؛ سوف تندلع الحرب لسنوات. انظر ما الذي حدث في الكونغو. هؤلاء الناس ليس لديهم حسٌّ بالسلام. سوف يقتلون حتى يسقط الرجل الأخير—"

أنهى ريتشارد المكالمة بينما سوزان ما زالت تتكلم، مندهشًا من الوقاحة. هناك جزء داخله كان يتمنى أن يساعدها، يقذف بعيدًا زجاجات الخمر في شقتها ويمحو جنون الارتياب الذي أرعب حياتها. ربما من الأفضل أن تغادر. تمنى أن تجد السعادة، مع نيجل أو مع أحد سواه. كان ما يزال مشغولاً بالتفكير في سوزان، نصفُه يتمنى ألا تتكلم ثانية ونصف يرجو أن تتكلم،

حينما عادت كاينين. قبّلت وجنتيه، شفتيه، ذقنه. "هل قضيتَ اليوم قلقًا بشأن هاريسون و"في زمن أواني الحبال"؟" سألتْ.

"بالطبع لا،" قال، رغم أن كليهما يعرف أنه كذبة.

"هاريسون سيكون بخير. لابد أنه حزم أغراضه ورجع إلى قريته."

"لابد أن فعل،" قال ريتشارد.

"ربما أخذ المخطوطةَ معه."

"نعم." تذكر ريتشارد كيف أنها دمرت مخطوطته الحقيقية الأولى، "سلة الأيادي،" وكيف قادته إلى حديقة الفاكهة، إلى رزمة من الأوراق تحت شجرته المفضلة، وجهها طوال الوقت بلا تعبير؛ وكيف أنه فيما بعد لم يشعر بالعتاب ولا الغضب بل بالأمل.

"هناك سباق رالي آخر في المدينة اليوم؛ على الأقل ألف إنسان يمشون، والعديد من السيارات مغطاة بأوراق الشجر الخضراء،" قال. "أتمنى أن يبقوا في الحقول بدلاً من سد الطرق الرئيسية. لقد تبرعتُ بالمال بالفعل ولا أريد أن أظل محتجزة في الشمس الحارقة فقط لأُساهم في طموح أوجيوكوا."

"إنه من أجل الواجب يا كاينين وليس من أجل رجل."

"نعم، واجب الاغتصاب الحميد. هل تعلم أن سائقي التاكسي لم يعودوا يتقاضون أجرة من الجنود؟ يغضبون حينما يعرض جندي أن يدفع الأجرة. قال مادو إن هناك جماعة من النساء في الثكنات كل يومين، من كل أنحاء قرى الجدول، يُحضرن البطاطا والبقول والفاكهة للجنود. هم بشر لا شيء لديهم أساسًا."

"هذا ليس ابتزازًا. إنه واجب."

"الواجب بالفعل." هزت كاينين رأسها لكنها بدت مسرورة. "أخبرني مادو اليوم أن الجيش لا شيء لديه، لا شيء مطلقًا. كانوا يظنون أن أوجيوكوا لديه أكوام من الأسلحة مخبأة في مكان ما، من خلال طريقة كلامه: "لا قوة في أفريقيا السوداء بوسعها هزيمتنا!" لذلك ذهب مادو وبعض المسؤولين العائدين من الشمال ليخبروه أنه لا يوجد سلاح، لا تعبئة ولا ناقلات جنود، وأن رجالنا يتمرنون ببنادق خشبية، من أجل خاطر السماء! كانوا يريدون أن يفك أسر أكوام الأسلحة. لكنه استدار وقال إنهم يتآمرون من أجل انقلاب عليه. من الواضح أنه لا سلاح لدي أبدًا وكان يخطط لهزيمة نيجيريا بقبضتي يديه." رفعت قبضتها وابتسمت. "لكني أظن أنه جذاب للغاية: تلك اللحية وحدها."

لم يقل ريتشارد شيئًا. تساءل، على نحو خاطف، إن كان عليه أن يربّي لحية.

اتكأت أولانا على درابزين الشرفة في منزل أودينيبو في آبا، ناظرةً إلى الفناء. بالقرب من البوابة، كانت بيبي راكعة على ركبتيها تلعب في الرمل بينما يراقبها آجوو. الريح تجعل أوراق شجر الجوافة تخشخش. فتن جزءُ الشجر أولانا، الطريقة التي تتباين فيها ألوانه وبقعه، طمي خفيف يتباين لونيًّا مع شرائح أقتم لونا. تشبه جدًّا بشرة أطفال القرية المصابين بمرض تبقع الجلد. كثيرٌ من أولئك الأطفال توقفوا ليقولوا: ننو نو، مرحبًا،" في اليوم الذي وصلوا فيه من نسوكا، وجاء أيضا آباؤهم وأعمامهم وعماتهم، يحملون الأماني الطيبة، يتحرقون شوقًا للنميمة حول الإجلاء. شعرت أولانا بالتوق إليهم؛ ترحيبهم جعلها تشعر بالحماية. دفؤها امتد حتى نحو والدة أودينيبو. تتساءل لماذا لم تعد تجذب الصغيرة بعيدة عن الجدة التي أنكرتها منذ المولد وكيف هي نفسها لم تُشِح عن حضن الأم. لكن كان هناك شَرَك نصفُ مكتمل في كل ما قد حدث— وهي تطهو الطعام مع آجوو في المطبخ، المغادرة المتعجلة حتى أنها قلقلت أن يكون الفرن قد تُرك مشتعلاً، الحشود على الطريق، صوتُ القذائف-- لذلك تقبلت عناقَ الأمِّ بترحاب ودون تخوف، بل وعانقتها بدورها. عادا الآن ليكونوا مواطنتين، تأتي الأمُّ كل حين لترى بيبي، عبر البوابة الخشبية في الحائط الطمي التي تفصل بين منزلها ومنزل أودينيبو. أحيانًا تدلف الصغيرة لتزورها وتركض وراء النعاج التي ترعى في فنائها. لم تكن أولانا واثقة من مدى نظافة السمك المقدد أو اللحم المدخن الذي ترجع الصغيرة وهي تمضغه، لكنها حاولت ألا تهتم، كما حاولت أن تخمد امتعاضها؛ فعاطفة الأم تجاه الصغيرة كان دائما نصف مطهو، بنصف قلب، وكان الأمر متأخرا جدًّا بالنسبة لأولانا لأن تشعر سوى بالامتعاض.

كانت الصغيرة تضحك على شيء قاله آجوو؛ ضحكتها عالية النبرة جعلت أولانا تبتسم. كانت الصغيرة تحب المكوث هناك؛ حيث الحياة هناك أبطأ إيقاعًا وأبسط. ولأنهم كانوا قد تركوا خلفهم في نسوكا الموقد والمحمصة وإناء الضغط والتوابل المستوردة، كانت وجباتهم أكثر بساطة أيضًا، وكان لآجوو المتسع من الوقت ليلاعب الصغيرة.

"مامي أوللا!" هتفت البنت. "تعالي وشوفي!"

لوّحت أولانا. "صغيرتي، إنه وقت حمّامك المسائي."

شاهدت خطوط أشجار المانجو في الفناء المجاور؛ بعضها كانت تتدلى منه ثمرات المانجو الثقيلة مثل أقراط الأذن. وكانت الشمس تهبط. والدجاجات تنقنق وتطير على شجيرات جوز الكولا، حيث ستنام. كانت تسمع بعض القرويين يتبادلون التحايا، في نفس نبرة النساء في جماعات الحياكة. كانت قد انضمت إليهم قبل أسبوعين، في قاعة البلدة، وهن يحكن الصديريات والفوطات من أجل الجنود. شعرت عليهن أول الأمر بالمرارة، لأنها لما بدأت

تحكي عن الأشياء التي تركتها وراءها في نسوكا— كتبها، البيانو، ملابسها، خزفها، باروكاتها، ماكينتها سينجر، التليفزيون—تجاهلنها ثم بدأن يتكلمن عن أشياء أخرى. الآن بدأت تفهم أن لا أحد يتكلم عما تركه وراءه. بدلاً من ذلك كن يتحدثن عن مجهودهم في "النصر-في-الحرب". تبرع مدرس بدراجته للجنود، إسكافيون يصنعون أحذية الجنود مجانًا، والفلاحون يتبرعون بثمرات البطاطا. "النصر-في- الحرب".. كان من الصعب على أولانا أن تتصور الحرب قائمة الآن، الرصاصات تسقط على الأرض الترابية الحمراء في نسوكا بينما ناقلات الجنود البيافرية تدفع الهمجيين للوراء. وكان من الصعب أيضًا تخيُّل أيّ شيء صريح دون أن تموهه ذكرياتٌ عن آريزي والخالة إيفيكا والخال مبيزي، التي لا تبدو مثل حياة عيشت بالفعل في وقت سابق.

ركلت بعيدًا شبشبها ومشت حافيةً عبر الفناء الأمامي إلى حيث الكوخ الرملي الخاص بالصغيرة. "جميل جدًّا يا صغيرتي. ربما يظل قائمًا حتى الغد، إذا لم تأت النعاج إلى الفناء في الصباح. الآن، وقت الحمام."

"لا، مامي أوللا!"

"أظن أن آجوو سوف يحملك الآن." رمقت أولانا آجوو.

"لا!"

رفع آجوو الصغيرة وركض بها نحو البيت. سقط شبشب بيبي فتوقفا ليلتقطاه، وبيبي تصرخ "لا!" وتضحك في آن. تساءلت أولانا كيف ستتقبل بيبي رحليهم إلى أوميوهيا الأسبوع التالي، التي تبعد ثلاث ساعات، حيث تم اختيار أودينيبو للخدمة البشرية في المديرية. كان يرجو أن يعمل في مديرية الأبحاث والإنتاج، لكن كان هناك كثيرون مؤهّلون جدًّا والقليل من الوظائف المناسبة لهم؛ حتى هي أخبروها أن لا وظيفة لها في المديرية. كانت ستدرِّس في مدرسة ابتدائية، هو جهدها الخاص في "النصر-في-الحرب". لم يكن بها نغمة خاصة: "النصر-في-الحرب"، "النصرُ-في-الحرب". تمنت أن يجد لهم بروفيسور آتشارا مسكنًا قريبًا من مساكن أساتذة الجامعة الآخرين حتى تجد بيبي أطفالاً مناسبين لها لتلعب معهم.

جلست على أحد المقاعد الخشبية المنخفضة المائلة جدًّا حتى أنها كان عليها الانحناء كي تريح ظهرها. كانت مقاعد لم ترها أولانا إلا في القرية، صنعها نجارو القرية الذين يرفعون لافتات في أركان الطرق الترابية مكتوب عليها بخطأ إملائي دائما "**تجار Carpenter**" هكذا" capinter، capinta، carpenter. لا تقدر أن تجلس على هذه المقاعد؛ إنها تفترض نمطًا من الراحة بعد حياة شاقة لكسب العيش، للانحناء في المساء في الهواء الصحو بعد يوم من العمل في الحقل. ربما تفترض أيضًا حياة الضجر.

كان المساء، والخفافيش تطير عاتيةً بصخب حينما عاد أودينيبو إلى البيت. كان دائمًا بالخارج أثناء النهار، يحضر اجتماعًا في أثر اجتماع، كلها تدور حول كيف يمكن أن تشارك آبا في

جهود "النصر-في –الحرب"، كيف تلعب آبا دورًا رئيسًا في تأسيس ولاية بيافرا؛ كانت أحيانًا ترى رجالاً عائدين من الاجتماعات حاملين بنادق زائفة من الخشب المحفور. شاهدت أودينيبو يمشي عبر الشرفة، ثقةٌ متعجرفة في خطوته. هو رجلُها. أحيانًا وهي تنظر إليه كانت تشعر بسيطرة الشعور بالفخر.

"كادو؟" سأل وهو يميل ليقبّل شفتيها. فحص وجهها بعناية، كأنما عليه أن يفعل ذلك ليتأكد أنها بخير. اعتاد أن يفعل ذلك منذ عادت من كادو. كثيرًا ما أخبرها أن *التجربة* قد غيرتها وجعلتها أكثر روحانية. كان يستخدم كلمة مجزرة حين يتكلم مع أصدقائه، لكنه لا يستخدمها معها أبدًا. كان كأنما ما حدث في كادو كان مجزرةً لكن ما شاهدتْه هي كان تجربة.

"أنا بخير،" قالت. "ألم تعد مبكرًا قليلاً؟"

"انتهينا مبكرًا لأن هناك اجتماعًا عامًا غدًا في الميدان."

"لماذا؟" سألت أولانا.

" قرر الكبار أن الوقت قد حان. هناك كل أنواع الإشاعات السخيفة حول إخلاء آبا قريبا. بعض الجهلاء يقولون إن ناقلات الجنود الفيدرالية قد دخلت أوكا!" ضحك أودينيبو وجلس جوار أولانا. "هل ستأتين؟"

"إلى الاجتماع؟" هي حتى لم تأبه به. "أنا لست من آبا."

"بوسعك أن تكوني، إذا تزوجتني. لابد أن تكوني."

نظرت إليه. "نحن بخير كما نحن."

"نحن في حرب وأمي سوف تقرر ماذا ستفعل بجثماني لو حدث أي شيء لي. يجب أن تقرري أنت ذلك."

"توقفْ، لن يحدث لك شيء."

"بالطبع لن يحدث لي شيء. أنا فقط أريدك أن تتزوجيني. بالفعل يجب أن نتزوج. لم يعد الأمر يهم. لم يهم أبدًا."

شاهدت أولانا دبورًا يطير بسرعة حول العش الإسفنجي المخبأ في ركن الحائط. كان الأمر يهمها، قرار ألا تتزوج، الاحتياج أن تحافظ على ما حققاه بتدثيره في شال من الاختلاق. لكن الإطار القديم الذي يناسب مُثُلَها كان قد ذهب الآن حيث آريزي والخالة إيفيكا والخال مبيزي سوف يبقون دائمًا وجوها مجمدة في ألبومها. الآن تسقط الرصاصات في نسوكا. "يجب أن تأخذ نبيذًا إلى أبي إذن،" قالت.

"هل هذه نعم؟"

انقض خفاشٌ الآن فخفضت أولانا رأسها. "نعم إنها نعم،" قالت.

في الصباح، سمعت منادي البلدة يمشي جوار البيت، يدق على أوجين[1] ضخم. "سوف يعقد اجتماع لكل مواطني آبا غدًا في الرابعة بعد الظهر في ميدان آميزي!" جوم-جوم-جوم. "سوف يُعقد اجتماعٌ غدًا لكلّ أهالي آبا في الرابعة من ظهر الغد في ميدان آميزي!" جوم-جوم-جوم. "آبا قالت إن كل رجل وكل امرأة يجب أن يحضروا!" جوم-جوم-جوم. "إذا لم تحضر سوف آبا تُغرّمك!"

"أتساءلُ كم هي الغرامات باهظة." قالت أولانا وهي تشاهد أودينيبو يرتدي ثيابه. هز كتفيه. كان لديه فقط قميصان وبنطالان عبأهما آجوو بسرعة، فابتسمت، وهي تفكر ماذا كان يرتدي كل صباح.

كانا قد جلسا لتناول الفطور حينما وصلت لاند روفر[2] سيارةُ أبويها البنايةَ.

"يا لحسن الحظ،" قال أودينيبو. "سوف أخبر أباك الآن فورًا. يمكننا أن نقيم الزفاف هنا الأسبوع القادم." كان يبتسم. ثمة شيء صبياني يخايله منذ قالت نعم في الشرفة، شيء بدائيٌّ مرح تمنت أن تشعر به أيضًا.

"تعلم أن الأمور لا تتم هكذا،" قالت. "عليك أن تذهب إلى أوموناتشي مع أهلك وتتم الأمر كما يجب."

"بالطبع أعلم. كنت أمزح وحسب."

مشت أولانا صوب الباب، تتساءل لماذا حضر والداها. جاءوا من أسبوع فقط، على كل حال، ولم تكن جاهزة تمامًا لمحاضرة أحادية من أمها المهيِّجة للأعصاب بينما يقف أبوها جوارها وهو يومئ بالموافقة: من فضلك تعالي وابقي معنا في أوموناتشي؛ يجب أن تترك كاينين بورت هاركورت حتى نعلم هل هذه الحرب قادمة أم ذاهبة؛ تلك الخادمة اليوريوبية التي تركناها في لاجوس سوف تسلب البيت؛ أنا أخبرك، يجب بالفعل أن ننسق عودة كل السيارات. صفّت لاند روفر تحت شجرة جوز الكولا، وصعدت أمها. كانت وحدها. شعرت أولانا ببعض الراحة أن أباها لم يأت. من الأسهل التعامل مع واحد فقط في المرة.

"مرحبًا ماما، ننو،" قالت أولانا وهي تعانقها. "هل كل شيء بخير؟"

هزت الأم كتفيها بما يعني "بين بين". كانت ترتدي عباءة حريرية حمراء وبلوزة وردية وحذاؤها كان مسطحًا، أسود لامعًا. "بخير." نظرت الأمُّ حولها، بنفس الطريقة التي نظرت بها حولها على نحو سري المرة الماضية قبل أن تدس في يد أولانا مظروفًا به مال.

"أين هو؟"

"أودينيبو بالداخل، يأكل."

---

[1] - **Ogene- جرس معدني من ابتكار الإيبو في نيجيريا. مخروطي الشكل ومفرغ من الداخل. هو الآلة الموسيقية الرئيسية في الأوركسترا النيجيري**

[2] - ماركة سيارة Land Rover

مشت الأم نحو الفيراندا وانحنت على العمود. فتحت حقيبتها، أومأت لأولانا لكي تنظر للداخل. كانت مليئة ببريق إشعاعات الجواهر، عقود، وذهب بأحجار كريمة غالية.

"آه! آه! ماما، لماذا كل هذا؟"

"أحملها معي في كل مكان أذهب إليه الآن. ماساتي داخل سوتياني." كانت أمها تهمس. "نني، لا أحد يعرف ما الذي سيحدث. سمعنا أن أوموناتشي على وشك السقوط وأن الفيدراليين قريبون جدًّا."

"الهمجيون ليسوا قريبين. ناقلات جنودنا تعيدهم حول نسوكا."

"لكن كم يستغرقون من وقت حتى يخرجوهم؟"

لم ترق لأولانا التكشيرة النكدة في وجه أمها، الطريقة التي تخفض أمها بها صوتها كأنما هكذا تُقصي أودينيبو. لن تخبر أمها أنهما قد قررا الزواج. ليس بعد.

"على كل حال،" قالت أمها، "والدك وأنا أنهينا خططنا. دفعنا لشخص ما سوف يأخذنا إلى الكاميرون ومن هناك نأخذ طريقنا إلى لندن. سوف نستخدم جوازي سفرنا النيجيريين؛ لكيلا يسبب لنا الكاميرونيون متاعب. ليس سهلا لكنه سيتم. دفعنا نفقات أربعة مقاعد." ربتت أمها على غطاء رأسها كأنما لتتأكد أنه ما يزال هناك.

"ذهب والدك إلى بورت هاركورت ليخبر كاينين."

شعرت أولانا بالشفقة على الأسى في عيني أمها. تعلم أمُّها أنها لن تهرب معهما إلى إنجلترا، وأن كاينين لن تفعل ذلك أيضًا. لكنها كانت تحاول، أن تفعل هذا الجهدَ المحزن المخلص ذا المعنى.

"تعلمين أنني لن آتي،" قالت برقّة، وهي تحاول أن تقترب لتمسَّ بشرةَ أمها المُتقنة. "لكنك أنتِ وأبي يجب أن تذهبا، إذا كان ذلك سيشعركما بالأمان. سوف أبقى مع أودينيبو وبيبي. سنكون بخير. سوف نذهب إلى أوميوهيا خلال أسابيع قليلة ليباشر أودينيبو عمله في المديرية." توقفت أولانا. ودت أن تقول لوالدتها إنهما سوف يتمان زواجهما في أوميوهيا لكنها بدل ذلك قالت: "بمجرد أن تتماثل نسوكا، سوف نعود."

"لكن ماذا لو لم تتماثل نسوكا؟ ماذا لو أن الحرب راحت تمتد وتمتد؟"

"لن يحدث ذلك."

"كيف أقدر أن أترك طفلتَيْ وأهرب للأمان؟"

لكن أولانا تعرف أنها تقدر وأنها ستفعل. "سوف نكون بخير يا ماما."

جففت الأم عينيها براحة يدها، رغم أنه لم تكن هناك دموع، قبل أن تُخرج مظروفًا من حقيبتها. "هذا خطاب من محمد. شخص ما أحضره من أوموناتشي. من الواضح أنه سمع أن نسوكا قد أُجليت وظن أنك جئت إلى أوموناتشي. آسفة، كان يجب أن أفتحه، لكي أتأكد أن لا شيء خطيرًا به."

"لا شيء خطيرًا؟" سألت أولانا. "يجني؟ ما الذي تعنين يا أمي؟"
"مَن يدري؟ أليس هو العدو الآن؟"
هزت أولانا رأسها. كانت مسرورة أن أمها ستسافر ولن يكون عليها أن تتعامل معها حتى تنتهي الحرب. كانت تود أن تنتظر حتى تغادر أمها لتقرأ الخطاب، كيلا تظل تبحث أمها في وجهها عن تعبير، لكنها لم تقدر أن تقاوم سحب أول ورقة فورًا. خط محمد كان يشبهه— عريق وطويل، ذو أناقة مزهرة. كان يريد أن يعرف أنها بخير. كتب لها أرقام تليفونات لتتصل به إذا ما احتاجت مساعدة. كان يعتقد أن الحرب لا معنى لها وسوف وتمنى أن تنتهي سريعًا. وأنه يحبها.
"شكرًا للسماء أنكِ لم تتزوجيه،" قالت أمها، وهي تراها تطوي الخطاب؟ "هل تتصورين الوضع الذي تكونين به الآن؟ *أو دي إجوا*!"
لم تقل أولانا شيئًا. وغادرت أمها بعد قليل؛ لم ترغب أن تدخل وترى أودينيبو. "بوسعك أن تغيري رأيك، ننـي، الأربعة مقاعد مدفوعة الأجر،" قالت وهي تصعد السيارة، وتقبض بقوة على حقيبة المجوهرات. لوّحت لها أولانا حتى تجاوزت لاند روفر بوابات المجاورة السكنية.

أدهشها عدد الرجال والنساء المجتمعين في الميدان من أجل الاجتماع، محتشدين حول شجرة يودالا العتيقة. كان قد أخبرها أودينيبو كيف أنهم، وهم أطفال، هو والآخرون، كانوا يُرسَلون ليكنسوا ميدان القرية في الصباح، بدلاً من أن يقضوا معظم الوقت يتعاركون حول ثمار شجرة يودالا المتساقطة. لم يكن بوسعهم أن يتسلقوا الشجرة أو يقطفوا ثمارها لأن ذلك كان محظورًا، ذاك أن شجرة يودالا كانت تنتمي للأرواح. نظرت للشجرة في الأعلى بينما الكبار يخطبون في الحشود وراحت تتخيل أودينيبو وهو صبي، ينظر إليها كما تفعل هي الآن، محاولاً أن يرى حدود الروح الظلالية. هل كان مفعمًا بالطاقة مثل بيبي؟ محتملٌ، ربما أكثر من بيبي.
"*آبا كيونيو*!" قال *ديبيا نوافر آجبادا*، الرجل الذي يقال إن طبَّه هو الأقوى في تلك المناطق.
"ياه!" قال الجميع.
"*آبا كويزيونو*!"
"*ياه*!"
"آبا لم تُهزم من أحد أبدًا. أقول إن آبا لم تُهزَم أبدًا." كان صوته قويًّا. لم يكن لديه إلا بعض الخصلات مثل كرات القطن في رأسه. وكانت عصاه تهتز وهو يدفعها بقوة في الأرض. "نحن لا نبحث عن المعارك، لكن حينما تبحث عنا معارككم، سوف نسحقكم. لقد حاربنا أوكيولو وأوكبو وقضينا عليهم. لم يخبرني والدي أبدًا عن حرب خسرناها، ولم يخبره أبوه أيضًا. لن نهرب من أرضنا أبدًا. آباؤنا يحرِّمون ذلك. لن نهرب أبدًا من أراضينا!"

هلل الجمهورُ وهتف. وكذا فعلت أولانا. تذكرت مسابقات الرالي التنافسية في الجامعة قبل الاستقلال، الحركات الجماعية دائما تجعلها تشعر بالحماس، فكرة أن يجتمع كل هؤلاء الناس في لحظة صغيرة من الزمن ويتوحدوا على فكرة واحدة.

أخبرت أودينيبو عن خطاب محمد وهما عائدين من ميدان القرية بعد الاجتماع. "لابد أنه محبط جدًّا بعد كل هذا. لا أتخيل كيف يشعر."

"كيف تقولين هذا؟" قال أودينيبو.

أبطأت خطوتها واستدارت له، فزعةً. "ماذا في الأمر؟"

"ماذا في الأمر هو ما تقولينه أن مسلمًا ملعونًا رجلَ هاوسا يكون محبطًا! هو ضالعٌ في الجريمة، ضالعٌ تماما في كل ما حدث لأهلنا، فكيف تقولين إنه محبط؟"

"هل تمزح؟"

"هل أمزح؟ كيف تبدين هكذا بعد أن رأيت ما فعلوه في كانو؟ هل تتخيلين ماذا يمكن أن يكون قد حدث لآريزي؟ لقد اغتصبوا نساءَ حواملَ قبل أن يمزقوهن إربًا!"

تراجعت أولانا. تعثرت في حجرة في الطريق. لم تتصور أن يُهين آريزي هكذا، يُرخّص ذكرى آريزي من أجل أن يحقق وجهة نظر في جدل عقيم. جمّد الغضبُ دواخلها. بدأت تسير بسرعة، تجاوزت أودينيبو ولما وصلت البيت رقدت في غرفة الضيوف ولم تندهش حينما انقض عليها الكابوس الأسود. كافحت لتطرده عنها، لتتنفس، وأخيرًا نامت في الفراش مجهدةً. لم تتكلم مع أودينيبو اليوم التالي. ولا الذي يليه. لكن، حينما جاء ابن عم أمها الخال أوسيتا عائدًا من أوموناتشي ليخبرها أنها مستدعاة لحضور اجتماع في مجاورة جدها، لم تخبر أودينيبو عن ذلك. ببساطة طلبت من آجوو أن يجهز بيبي، وبعدما غادر أودينيبو لاجتماع، قادت سيارتها معهما في سيارته.

فكرت في الطريقة التي قال بها أودينيبو: "أنا آسف، أنا أسف،" وهو على حافة نفاد الصبر، كأنما يشعر بشرعية أن تغفر له. يجب أن يفهم أنها إذا قدرت أن تكون متسامحة حول ما حدث عند ميلاد بيبي، ستقدر أن تكون متسامحة حول أي شيء آخر. لقد ساءها هذا. ربما لهذا لم تخبره أنها ذاهبة إلى أوموناتشي. وربما لأنها تعرف لماذا تم استدعاؤها إلى أوموناتشي ولم ترد أن تتكلم حول هذا مع أودينيبو.

قادت السيارة عبر الطرق الترابية المتعرجة المحددة بالأعشاب العالية وفكرت كيف كان الأمر مسليًّا، أن القرويين يقدرون أن يخبروك بشيء مثل "أوموناتشي تستدعيك"، كأنما أوموناتشي إنسانٌ بدل أن تكون بلدة. كانت تمطر. كانت الطرق كالمستنقعات. لمحت بيت أبويها الضخم ذا الثلاثة طوابق وهي تتجاوزه بسيارتها، لابد أنهما في الكاميرون الآن، أو ربما وصلا لندن أو باريس، يقرآن الصحف ليعرفا ماذا يحدث في الوطن. صفت السيارة أمام بيت الجد، جوار سياج القش. هبطت إطارات السيارة جراء الطرق الوعرة. بعدما نزل آجوو وبيبي من

السيارة، جلست لبرهة تتأمل قطرات المطر تنحدر على زجاج السيارة. كان صدرها ضيقًا واحتاجت بعض الوقت لتتنفس ببطء لكي تحرره، لكي تحرر نفسها حتى تقدر أن تجيب عن الأسئلة التي سيطرحها عليها كبارُ العائلة في الاجتماع. سوف يكونون لطفاء، رسميين، كل المجتمعين في غرفة المعيشة العتيقة: أعمامها الكبار، وآباء أعمامها، وزوجاتهم، بعض بنات العم، وربما طفل مربوط إلى ظهر أحداهن.

سوف تتكلم بصوت واضح وتنظر إلى أسفل حيث خطوط الطباشير البيضاء على كامل الأرضية، بعضها باهت بفعل السنوات، بعضها خطوط بسيطة مستقيمة، بعضها واسع ومنحنٍ، في حين بعضها حروف واضحة. وهي طفلة، كانت تشاهد جدها يقدم لضيوفه قطعة من نزو، وكانت تتبع كل حركة يأتيها الرجال وهم يرسمون الأرضية والنساء وهن يلطخن وجوههن بها، وأحيانًا حتى يقضمنها. مرة، حينما خرج جدُّها، مضغت أولانا قطعة من الطباشير أيضًا ومازالت تتذكر مذاقها البوتاسيّ الرديء.

جدها، نويكي أوديني، سوف يقود الاجتماع لو كان ما يزال حيًّا. لكن نوافور إيسايا سوف يقود؛ فهو الآن الأكبرُ سنًّا في أوميونا. سوف يقول: "الآخرون قد عادوا وظلت عيوننا على الطريق انتظارًا لابننا مبيزي وزوجتنا إيفيكا وابنتنا آريزي وأيضًا نسيبنا أوجيدي. انتظرنا وانتظرنا لكننا لم نرهم. مرت شهور وتعبت عيوننا من التركيز على الطريق. سألناكِ أن تأتي اليوم وتخبرينا بما تعلمين. أيوما نتشي تسأل عن أطفالها الذين لم يرجعوا من الشمال. لقد كنتِ هناك يا ابنتي. الذي ستخبريننا به سوف نخبر به أوموناتشي."

هذا تقريبًا ما حدث فعلاً. الشيء الوحيد الذي لم تتوقعه أولانا كان هو الصوت العالي لشقيقة الخالة إيفيكا، ماما دوزي. امرأة شرسة، يقال إنها ضربت بابا دوزي مرة، بعدما ترك ابنهما المريض وخرج ليقابل عشيقته. وكانت ماما دوزي هي الأخرى بعيدة تجني حصار بطاطا الكوكو في آجو. كاد الطفل يموت. وقيل إن ماما دوزي هددت أن تقطع قضيب بابا دوزي أولاً قبل أن تخنقه لو أن الطفل قد مات.

"لا تكذبي يا أولانا أوزوبيا، *آي سيكوانا آسي*!" صرخت ماما دوزي. "يصيبك جدري دجاجاتي إن أنتِ كذبتِ. مَن أخبرك أنها كانت جثة أختي التي رأيتها؟ من أخبرك؟ لا تكذبي هنا. سوف ترديكِ الكوليرا صريعةً."

قادها ابنها دوزي بعيدًا. صار طويلاً، دوزي، منذ رأته أولانا لآخر مرة قبل عامين. كان يمسك أمه بقوة ورأتها وهي تحاول أن تدفعه بعيدًا عنها، كأنما لتوسعِ أولانا ضربًا، وأولانا تمنت أن تتخلص منه. ودت لو تضربها ماما دوزي وتصفعها إذا ما كان هذا سوف يجعل ماما دوزي أفضل حالاً، لو كان ذلك يحول كل ما أخبرته لأعضاء العائلة الممتدة المجتمعة توًّا إلى كذبة. تمنت لو أن أودينتشيزو وإيكني يصرخان فيها أيضًا، ويسألونها حول كونها حية بدلا من أن تكون ميتة مثل شقيقتهم وآبائهم وأزواج شقيقاتهم. تمنت لو أنهم لا يجلسون هناك،

هادئين، ينظرون لأسفل مثلما يفعل الرجال في العزاء عادة ثم يخبرونها فيما بعد أنهم سعداء أنها لم تر جثة آريزي: كلهم يعلمون ماذا يفعل هؤلاء الوحوش في امرأة حبلى.

قطع أودينتشيزو ورقة كبيرة من نبات إيدي وأعطاها لها لتستخدمها كمظلة مؤقتة. لكن أولانا لم تضعها فوق رأسها حيث أسرعت إلى سيارتها. أخذت وقتها في فتح الباب وتركت المطر يهطل على شعرها المضفور وعلى عينيها ووجنتيها. صدمها كيف طُوي الاجتماع سريعًا، كم مرَّ قصيرًا الوقتُ الذي استغرقته لتؤكد موت أربعة من عائلتها. لقد أعطت هؤلاء المتبقين الحق في الحزن والحداد وارتداء الأسود واستقبال المعزين الذين سوف يأتون ليقولوا: "ندو نيو." أعطيتهم الحق ليتحركوا بعد العزاء ويحتسبون أن آريزي وزوجها وأبويها قد ذهبوا إلى الأبد. الثقل الكبير لأربعة جنازات صامتة أثقل رأسها، الجنازات التي لا تعتمد على جثث مادية بل على كلماتها هي. وقد تساءلت ما إذا كانت مخطئة، ما إذا كانت قد تخيلت جثثًا ملقية على التراب، جثثًا كثيرة جدًّا في الفناء يجعلها تذكرها تشعر بطعم الملح يندفع إلى فمها. حينما فتحت أخيرًا باب السيارة واندفع فيها آجوو وبيبي، جلست دون حراك لبرهة، منتبهة أن آجوو كان ينظر إليها باهتمام وأن بيبي تقريبًا قد نامت.

"هل تريدين أن أجلب لك ماء لتشربي؟" سأل آجوو.

هزت أولانا رأسها. بالطبع هو يعلم أنها لا تريد ماء. فقط كان يريدها أن تخرج من غشوتها لتدير السيارة وتعود بهم إلى آبا.

كان آجوو أول من شاهد الناس يحتشدون في الطريق الترابيّ الذي يقطع آبا. كانوا يسحبون النعاج، يحملون البطاطا والصناديق على رؤوسهم، والدجاج والحصر الملفوفة تحت أذرعهم، ومصابيح الكيروسين في أياديهم. الأطفال يحملون أحواضًا صغيرة أو يسحبون أطفالاً أصغر سنًّا. رآهم آجوو يمرون، بعضهم صامت، وبعضهم يتكلمون بصوت عال؛ والكثير منهم، كان واثق، لا يعرفون إلى أين هم ذاهبون.

عاد السيد في المساء مبكرًا من اجتماع. "سوف نغادر إلى أوميوا غدًا،" قال. "كان لابد أن نذهب إلى أوميوا في كل حال. نحن وحسب سنرحل مبكرين أسبوعًا أو أسبوعين." كان يتكلم بسرعة كبيرة، ناظرًا إلى نقطة في البعيد. وتساءل آجوو ما إذا كان ذلك لأنه لا يريد أن يعترف أن بلدته على وشك السقوط، أو لأن أولانا لم تكن تتحدث معه. لم يكن آجوو يعرف ما الذي حدث بينهما، لكن أيًّا ما كان قد حدث، فقد حدث بعد اجتماع ميدان القرية. كانت أولانا قد عادت وهي في صمت غريب. تتكلم بميكانيكية ولا تضحك. جعلته يتخذ أي قرارات بشأن الطعام وبشأن بيبي. تمضي معظم وقتها على الكرسي الخشبيّ المائل في الشرفة. مرّة رآها تمشي إلى شجرة الجوافة وتحتضن جزعها، وقال لنفسه أن يذهب وبجذبها بعيدًا، قبل أن يراها الجيران ويقولون إنها جُنّت. لكنها لم تمكث طويلاً. استدارات بهدوء وعادت وجلست في الفيراندا.

كانت تبدو مثلما هي هادئة الآن. "من فضلك اجمعْ ثيابنا وطعامنا للغد يا آجوو."

"حاضر يا ماه."

جمع أغراضهم سريعًا— لم يكن لديهم الكثير على كل حال، لم يكن مثل نسوكا حيث كان يتجمد أمام اختيارات كثيرة جدًّا حتى أنه يأخذ أقلَّ القليل. وضعها في السيارة مبكرًا في الصباح التالي ثم دار حول البيت ليتأكد أنه لم ينس شيئًا. كان أولانا قد جمعت الألبومات بالفعل. حمّمت بيبي. ووقفوا جوار السيارة منتظرين حتى فحص السيدُ الزيتَ والماء. في الطريق، كان الناس يسيرون في جماعات.

زمجرت البوابةُ الخشبية في الحائط الطمي خلف المنزل وهي تفتح ليدخل آنيكوينا المجاورةَ السكنية. كان ابن عم السيد. لم يحب آجوو الالتواءة الماكرة في شفتيه؛ دائما ما كان يأتي في أوقات الوجبات ثم يقول "أوه! أوه!" في اندهاشة مبالغة حينما تسأله أولانا أن يشاركهم في "مسّ أياديهم لأفواههم.[1]" كان يبدو الآن متجهمًا. وراءه كانت والدةُ السيد.

"نحن جاهزون للذهاب يا أودينيبو، ووالدتك ترفض أن تجمع أشياءها وتأتي،" قال آنيكوينا.

أغلق السيد غطاءَ المحرك. "ماما، أظن أننا اتفقنا أن تأتي إلى آوكي."

[1]- تعبير في اللغة النيجيرية يعني مشاركة جماعة في الطعام. (المترجمة)

"*إيكوازيكوانانو نوفو*!" لا تقل هذا! لقد أخبرتني أننا يجب أن نهرب وأنه من الأفضل أن أذهب إلى آوكي. لكن هل سمعت موافقتي؟ هل قلت لكَ "*أوه*"؟"

"هل تريدين إذاً المجيء معنا إلى أوميوهيا؟" سأل السيد.

نظرت الماما إلى السيارة الممتلئة. "لكن لماذا تهربون؟ إلى أين تهربون؟ هل تسمعون أية مدافع؟"

"الناس يهربون إلى آباجانا وأوكبو."

"ألم تسمع ديبيانا يخبرنا أن آبا لم تُغزَ أبدا؟ إلى مَن أهرب من بيتي؟ *آلو ميلو*! هل تعلم أن أباك يلعننا الآن؟"

"ماما، لا يمكنك أن تظلي هنا. لن يبقى أحد في آبا."

رفعت رأسها ونظرت إلى الأعلى بتركيز كأنما البحث عن ثمرة ناضجة في شجرة الكولا أكثر أهميةً مما يقوله السيد.

فتحت أولانا باب السيارة وطلبت إلى بيبي أن تركب في الخلف.

"الأخبار ليست جيدة. جنود الهاوسا يقتربون،" قال آنيكوينا. "سأرحل إلى أوكي. اخبرونا حين تصلون إلى أوميوهيا." استدار ومشى بعيدًا.

"ماما،" صرخ السيد. "اذهبي واحضري أشياءك الآن!"

ظلت الماما تنظر إلى الأعلى نحو شجرة جوز الكولا. "سوف أبقى وأرعى البيت. بعدما تهربون جميعًا، سوف تعودون. وسأكون هنا منتظرة. مَن أجل من أهرب من بيتي يا جبو؟"

"ربما سيكون من الأفضل أن تتحدث إليها بلطف بدل أن ترفع صوتك،" قالت أولانا بالإنجليزية. بدت رسمية تمامًا، كلماتٌ قصيرة ومختصرة. لم يسمعها آجوو تتحدث إلى السيد بهذه الطريقة، ما عدا في الشهور التي سبقت ميلاد بيبي.

كانت الماما تنظر إليهم في تشكك، كأنما هي واثقة أن أولانا قد أهانتها للتو بالإنجليزية.

"ماما ألن تأتي معنا؟" سأل السيد. "بيكو، من فضلك تعالي معنا."

"اعطني مفتاح بيتك. ربما أحتاج شيئًا من هناك."

"من فضلك تعالي معنا."

"اعطني المفتاح."

حملق السيد فيها بصمت ثم ناولها حزمة من المفاتيح. "من فضلك تعالي معنا،" قال ثانيةً، لكنها لم ترد وربطت المفاتيح في حرف عباءتها.

ركب السيد السيارة. وفيما يسير مبتعدًا، ظل يلتفت للخلف ليرى أمه، ربما ليرى ما إذا كانت ستغير رأيها وتسرع خلف آنيكوينا أو تلوح له ليقف. لكنها لم تفعل. ظلت واقفة هناك، لا تلوح. شاهدها آجوو أيضًا، حتى انحنوا داخل الطريق الترابيّ. كيف ستقدر أن تبقى هناك

وحيدة تمامًا، غير محاطة بأقارب؟ إذا ما كان كل الناس في آبا يغادرون، كيف ستأكل بما أن لا أسواق ستفتح؟

مست أولانا كتف السيد. "سوف تكون بخير. ناقلات الجنود الفيدرالية لن تمكث طويلاً في آبا إذا ما نجحوا."

"نعم،" قال السيد. مال وقبل شفتيها، فشعر آجوو بارتياح فرح أنهما عادا يتكلمان بطبيعية من جديد. وكانت حشود اللاجئين في الوراء تزداد نحافة.

وجد لنا بروفيسور آتشارا بيتًا في أوميوهيا،" قال السيد، صوته كان عاليًا جدًّا، مبتهجًا جدًّا. "بعض قدامى الأصدقاء هناك بالفعل، وكل شيء سرعان ما يعود إلى طبيعته. كل شيء سيكون طبيعيا تمامًا!"

ولأن أولانا ظلت صامتة، قال آجوو: "نعم يا صاح."

لم يكن هناك شيء طبيعي بالبيت. أزعج آجوو السقفُ القشُّ والحوائطُ المصدعةُ غيرُ المطلية، لكن لا شيء مثل حفرة المرحاض الكهفي بالخارج بغطائه الزنكيّ الصدئ الذي يُسحب عليه لكي يُبقي الذباب بعيدًا. روّع بيبي. أول مرة تستخدمه حملها آجوو باستقامة بينما راحت أولانا تتملقها. راحت بيبي تصرخ وتصرخ. بكت أكثر في الأيام التالية، كأنما أدركت أيضًا أن البيت لا يليق بالسيد، وأن المجاورة كانت قبيحة بعشبها الناشف وبناياتها الأسمنتية المتراصة في الزوايا، وأن بيوت الجيران كانت ملاصقة جدًّا، ملاصقة جدًّا وتفوح بروائح طهوهم المليء بالدهون وصوت بكاء الأطفال. كان آجوو واثقًا أن بروفيسور آتشارا قد خدع السيد وأجّر له البيت؛ كان هناك شيء ماكر مخادع في عينيه البارزتين. فضلا ًعن أن بيته الخاص على الطريق كان كبيرًا ومطليًّا بألوان برّاقة.

"ليس هذا بيتًا جيدًّا يا ماه،" قال آجوو.

ضحكت أولانا. "انظروا ماذا يقول. ألا تعرف أن الناس يتشاركون البيوت الآن؟ إنه العَوَز. وها لدينا غرفتان للنوم ومطبخ وغرفة معيشة وغرفة طعام. نحن محظوظون إذ نعرف مواطنًا من أوميوهيا."

لم يقل آجوو شيئا آخر. تمنى لو لم تكن راضيةً جدًّا هكذا.

"قررنا أن يكون الزفاف الشهر القادم،" أخبره أودينيبو بعد أيام قليلة. سيكون محدودًا جدًّا وحفل الاستقبال سيكون هنا."

زُعِر آجوو. زفافهما، طالما تخيله مُتقنًا، بيت نسوكا مزدانًا بمظاهر الاحتفال، أغطية المائدة المنشاة مصطفةً بالصحون. كان من الأفضل الانتظار حتى تضع الحرب أوزارها، بدلاً من عقد زواجهما في هذا البيت ذي الغرف النكدة والمطبخ العفن.

حتى السيد لم يبد مهتمًّا بالبيت. كان يعود من المديرية في المساء ويجلس بالخارج، راضيًا يستمع إلى راديو بيافرا وال BBC، كأنما الأرضية غير مليئة بالطمي في شقوقها، كأنما المقعد الخشبي القاسي يشبه الأريكة المنجدة بالمساند الناعمة مثلما في نسوكا. بدأ الأصدقاء يتوافدون بمرور الأسابيع. وأحيانًا يذهب معهم السيد إلى بار الشمس المشرقة على الطريق. وفي أحيان أخرى كان السيد يجلس معهم في الشرفة يتكلمون. زياراتهم جعلت آجوو يتأمل كم أن البيت مُهان. لم يعد يقدم لهم حساء الفلفل أو مشروبات، لكنه ظل ينصت لارتفاع أصواتهم وانخفاضها، ضحكاتهم، غنائهم، صراخ السيد. بدأت الحياة تأخذ شكلها كما كانت في نسوكا بعد الانفصال؛ بدأ الأمل يتحرك مرة أخرى.

أحب آجوو الضابط جوليوس، الذي كان يرتدي رداءً مُذهبًا بطول الركبة. كان مقاولاً عسكريًّا يُحضر كراتين بيرة غينيا الذهبية وقوارير من الويسكي وايت هورس وأحيانًا نفطًا في صفائح سوداء، كان أيضا الضابط جوليوس من اقترح أن يضع السيد فوق سيارته أكوامًا من سعف النخيل للتمويه وطلاء السياج بفحم القار.

"من المستبعد جدًّا أن تأتي غارات جوية، لكن الحذر يجب أن يكون كلمة السر لنا!" قال السيد، وهو يحمل الغصن في يده. بعض القار نزّ على الحواف فأفسد اللون الأزرق، وفيما بعد، بعدما دخل السيد، راح آجوو ينظف بعناية حتى غطت الكتل السوداء الكشافات الأمامية فقط.

بروفيسور إيكوينيوجو كان الضيف المفضل لدى آجوو. كان عضوًا في جماعة العلوم. ظفر سبابته كان طويلاً وحادًّا حتى بدا مثل خنجر نحيل، وكان يداعبه وهو يتكلم عما صنعه هو وزملاؤه: ألغام أرضية قوية التأثير تدعى أوبيونيو، زيت فرامل من زيت جوز الهند، مواتير سيارة من بقايا المعادن، سيارات مصفحة، قنابل يدوية. كان الباقون يحيونه عندما يقول إعلانًا ما وكان آجوو يهتف أيضًا، من على مقعده القصير في المطبخ. وقد سبّب إعلان بروفيسور إيكوينيو عن أول صاروخ بيافري التصفيقَ الأكثر دويًّا.

"لقد أطلقناه هذه الظهيرة، هذه الظهيرة تحديدًا" قال، وهو يداعب ظفرَه. "صاروخنا مَحليّ الصنع. يا عشيرتي، نحن بالفعل على الطريق."

"نحن دولة العباقرة!" قال الضابط جوليوس ليس لأحد بعينه. "بيافرا هي أرض العباقرة!"

"أرض العباقرة،" كررت أولانا، ووجهها على تلك الحال العذبة بين الابتسام والضحك.

سرعان ما تحول التصفيق إلى غناء.

تضاااا -منٌ إلى الأبد!

تضاااا -منٌ إلى الأبد!

جمهوريتنا *سوف تنتصر!*

أنشد آجوو معهم، وتمنى من جديد أن ينضم إلى "حلف الدفاع المدني" أو إلى الميليشيا التي ستمشط الغابات بحثًا عن النيجيريين المختبئين بها. كانت تقارير الحرب هي بقعة الضوء في يومه، هي الطبول الأوسع طَرْقًا، الصوت الفاتن الذي يقول:

اليقظة الأبدية هي ثمن الحرية! هنا راديو بيافرا! هذا تقرير الحرب اليومي

بعد الأخبار المبهجة-- ناقلات الجنود البيافرية تطارد آخر بقايا العدو، ارتفاع عدد الضحايا النيجيريين، انتهاء عمليات التطهير-- كان دائما ما يحلم بالانضمام للجيش. كان يود أن يكون مثل أولئك المجندين الذين يتمرنون في المعسكر-- بينما أقاربهم ومن يتمنون لهم النصر يقفون على الخطوط الجانبية يهتفون-- وهؤلاء ذوو العيون البراقة، في زيهم العسكري الجسور المقوّى بالنشاء، بينما تسطع على أكمامهم نصفُ شمس صفراء.

كان يتوق للعب دور ما، فعل ما. النصر-في-الحرب. ولذلك حينما جاءت الأخبار عبر الراديو أن بيافرا قد استولت على منطقة الغرب الأوسط وأن ناقلات الجنود البيافرية تترجل نحو لاجوس، انتابه شعورٌ غريب هو مزيجٌ من الراحة وخيبة الرجاء. النصر كان حليفهم وكان توّاقًا للعودة إلى البيت في شارع أوديم، لكي يكون قريبًا من عائلته، لكي يرى نيسيناتشي. على أن الحرب كانت فيما يبدو قد وضعت أوزارها مبكرًا جدًّا وهو لم يشارك. أحضر الضابطُ جوليوس قنينةَ ويسكي، وغنّى الضيوفُ وهتفوا ثملين عن بيافرا العظمى، وعن غباء النيجيريين، وعن حمق مذيعي الأخبار هؤلاء في راديو BBC.

"انظروا إلى أفواههم الإنجليزية القذرة. "حركة بيافرية مدهشة بالفعل"!"

"إنهم مندهشون لأن الحرب التي أذاقها هارولد ويلسن للمسلمين رعاة الغنم لم تقتلنا بسرعة كما كانوا يأملون!"

"إنها روسيا من يجب أن تلومها، وليس بريطانيا."

"بالقطع بريطانيا. أولادنا جلبوا لنا بعض فوارغ الرصاص من قسم نسوكا للتحليل. كل واحدة كان مكتوبًا عليها "المخزنُ الحربيّ بالمملكة المتحدة"."

"وقد ظللنا نصطدم باللكنة البريطانية في رسائل الراديو خاصتهم أيضًا."

"بريطانيا و روسيا إذًا. الزواج غير المقدس لن يتم."

ارتفعت الأصوات أعلى وأعلى، فتوقف آجوو عن الاستماع. نهض وخرج إلى خلف البيت وجلس على تلّة الكتل الأسمنتية جوار البيت. بعض الأولاد من فرقة الأطفال البيافرية كانوا يتمرنون في الشارع، بعصوات تشبه البنادق، يعملون قفزة الضفدع، ينادون بعضهم البعض بـــ "كابتن!" و"رفيق!" بأصوات عالية.

بائعة جوالة تضع صينية على رأسها تمهلت وهي تمر. "اشترِ *جاري*! اشترِ *جاري*!"

توقفت حينما نادت عليها امرأة شابة في البيت المقابل. تساومتا لبرهة ثم هتفت المرأة الشابة: "إذا أردتِ أن تسرقي الناس، إذًا اسرقيهم. لكن لا تقولي إنك تبيعين جاري بهذا السعر."
استهجنت البائعةُ ومشت.
كان آجوو يعرف المرأة الشابة. كان قد لاحظها للمرة الأولى بسبب إتقان استدارة مؤخرتها، كيف تتلوى بإيقاع من جانب إلى جانب وهي تمشي. اسمها إيبيرتشي. كان قد سمع الجيران يتكلمون عنها؛ الحكاية كانت أن أبويها كانا قد أعطياها لضابط عسكري زائر، كما يعطي أحدٌ ضيفَه جوزة كولا. طرقا بابَه في الليل، فتحاه ثم برفق دفعاها. وفي الصباح التالي، شكر الضابط المبتسم أبويها المبتسمين بينما إيبيرتشي تقف على جنب.
شاهدها آجوو وهي تدخل بيتها وهو يتساءل كيف تشعر إزاء أن توهب لغريب وماذا قد حدث بعدما دُفعت إلى غرفته ومن الذي يُلام أكثر، أبواها أم الضابط. لم يُرِد أن يفكر كثيرًا في اللوم رغم ذلك، لأن ذلك سيذكره بالسيد وأولانا أثناء تلك الفترة في الأسابيع التي سبقت ميلاد بيبي، الأسابيع التي يفضل أن ينساها.

وجد السيد مظلة مطر في يوم الزفاف. وصل الرجل العجوز مبكرًا وحفر حفرة ضحلة خلف البيت، أشعل النار فيها، ثم جلس إلى الدخان الأزرق يطعم النارَ أوراقَ الشجر الجافة.
"لن تسقط أمطار، لا شيء سوف يحدث حتى انتهاء حفل الزفاف،" قال، حينما أحضر له آجوو صحن الأرز واللحم. اشتمّ آجوو رائحة الجين اللاذع في تنفسه. استدار وعاد للداخل حتى لا يتخلل الدخانُ قميصَه المكويّ بعناية. كان ابنا عم أولانا أودينتشيزو وإيكيني جالسين في الشرفة في ملابسهما العسكرية. المصوّر يعبث بالكاميرا. بعض الضيوف كانوا في قاعة المعيشة، يتكلمون ويضحكون، منتظرين أولانا، وبين الحين والآخر كان أحدهم يمشي ويضع شيئًا في كومة الهدايا—إناءً، مقعدًا، مروحةً كهربائية.
طرق آجوو الباب ثم فتحه.
"بروفيسور آشارا جاهز ليأخذك إلى الكنيسة يا ماه،" قال.
"أوكي." نظرت أولانا بعيدًا عن المرآة. "أين بيبي؟ لم تذهب للعب، أليس كذلك؟ لا أريد أي اتساخ على ذلك الفستان."
"هي في غرفة المعيشة."
كانت أولانا تجلس أمام المرآة المنحنية. شعرها مرفوع لأعلى، حتى بدا كاملاً وجهُها المُشِّعُ الناعمُ المتقن. لم يرها آجوو بهذا الجمال من قبل، ومع هذا كان ثمة تردد حزين في طريقتها وهي تربت على القبعة العاجية الوردية الموضوعة على جانب رأسها لتتأكد أن الدبابيس مشبوكة جيدًا.

"سوف نقيم طقس "حمل النبيذ" لاحقًا، حينما يسترد جنودنا أوموناتشي،" قال، كأنما آجوو لا يعلم.

"نعم يا ماه."

"أرسلتُ رسالةً إلى كاينين في بورت هاركورت. لن تأتي، لكنني كنت أود أن تأتي."

توقف آجوو. "إنهم ينتظرون يا ماه."

نهضت أولانا ونظرت إلى نفسها. مررت يدها على جانبي فستانها العاجي الوردي، الذي يتوهج عند الخصر ويقف تحت الركبة تمامًا. "الغرز ليست مستوية أبدًا. كان بوسع آريزي صنعه أفضل."

لم يقل آجوو شيئًا. لو فقط أمكنه أن يمد يده ويصارع شفتيها لكي يُزيل هذه البسمة الحزينة من وجهها. لو فقط كان الأمر بهذه البساطة.

طرق بروفيسور آشارا على الباب الموارب. "أولانا؟ جاهزة؟ يقولون إن أودينيبو وجوليوس في الكنيسة بالفعل."

"أنا جاهزة؛ تفضل،" قالت أولانا. "هل أحضرت الزهور؟"

ناولها باقة الزهور البلاستيكية الملونة. ابتعدت أولانا. "ما هذا؟ أريد زهورًا طبيعية، *إيميكا*."

"لكن لا أحد يزرع زهرًا في أوميونيا. الناس هنا يزرعون ما يمكن أكله،" قال بروفيسور آشارا وهو يضحك.

"لن أحمل زهورًا إذًا،" قالت أولانا.

للحظة تردد، لم يعرف كلاهما ماذا يفعل بالزهور البلاستيكية: حملتها أولانا بيد نصف ممدودة بينما مسّها بروفيسور آشارا لكنه لم يمسكها. وأخيرًا أخذها وقال: "لنرَ إذا كان يمكننا أن نجد شيئًا آخر،" ثم غادر الغرفة.

كان الزفاف بسيطًا. أولانا لا تحمل زهورًا. وكنيسة سانت سيباستين الكاثوليكية صغيرة وممتلئة لنصفها فقط بالأصدقاء الذين حضروا. لم ينتبه آجوو كثيرا مَن الذي حضر، لأنه كان يحدق في مفرش المذبح الأبيض الرث، وراح يتخيل أنه يتزوج. في الأول كانت عروسه هي أولانا ثم تحولت إلى نيسيناتشي ثم إلى إيبيرتشي بمؤخرتها المستديرة المتقنة، جميعهن في نفس الفستان العاجيّ الورديّ والقبعة الصغيرة بنفس اللونين.

كان ظهور أوكيوما عائدًا إلى البيت، ما أخرج آجوو من عالمه التخيلي. لم يكن أوكيوما يشبه ما يتذكره آجوو عنه: الشعر الأشعث والقميص المكرمش اللذان لشاعر كانا قد ذهبا. زيه العسكري الأنيق المحبوك جعله يبدو أكثر استقامة، ونحولاً، والكُمّان كان عليهما صورة جمجمة وعظمتان جوار نصف الشمس الصفراء. عانقه السيد وأولانا عدة مرات. ود آجوو أن يعانقه أيضًا، لأن وجه أوكيوما الضاحك أعاد الماضي بكل قوته حتى أن آجوو شعر وكأن الغرفة تتموّه عبر دخان مظلة المطر فتبدو كأنها غرفة المعيشة في شارع أوديم.

أحضر أوكيوما ابن عمه الطويل النحيف د.نوالا.
"إنه طبيب ضابط في مستشفى ألباتروس،" قال أوكيوما وهو يقدمه. ظل د. نوالا يحدق في أولانا بإعجاب مفضوح مزعج حتى أن آجوو ود أن يقول له أن يبعد عن أولانا عينيه الضُّفدعتين، سواء كان طبيبًا ضابطًا أم لم يكن. كان آجوو يشعر أنه غير ضالع تمامًا لكن مسؤول عن سعادة أولانا. وبينما السيد وأولانا كانا يرقصان بالخارج، محاطين بالأصدقاء المصفقين، راح يفكر، *إنهما ينتميان إليَّ*. كان مثل ختم استقرار، زواجُهما، لأنه طالما كانا متزوجين، سيظل عالمه معهما آمنًا. رقصا جسدًا بجسد لبرهة إلى أن غيّر الضابطُ جوليوس موسيقى القاعة إلى موسيقى "الحياة العُليا"، فتباعدا وأمسكا الأيادي ونظر كل منهما إلى وجه الآخر، متحركين على نغمة أغنية ريكس لاوسون الجديدة، "أهلاً بيافرا، أرضَ الحرية." بكعبيها العاليين كانت أولانا أطول من السيد. كانت تبتسم وتُشعُّ وتضحك. وحينما بدأ أوكيوما نخبَه، مسحت عينيها وأخبرت المصور الواقف خلف حامل الكاميرا الثلاثي الأرجل: "انتظرْ، انتظرْ، لا تصورْ الآن."
سمع آجوو الصوت قبيل تقطيعهما التورتة في غرفة المعيشة، صوت الزئير الخاطف واك-واك-واك في السماء. في البدء بدا مثل الرعد، ثم تراجع للحظة ثم عاد ثانيةً، أعلى وأسرع. من مكان مجاور ما، بدأت الدجاجاتُ تزعق بشراسة.
قال أحدهم: "طائرة العدو! غارة جوية!"
"إلى الخارج!" صرخ السيد، لكن بعض الضيوف جروا داخل غرفة النوم، يصرخون، يا يسوع! يا يسوع!"
كانت الأصوات أعلى الآن، فوق الرؤوس.
كانوا يركضون- السيد وأولانا حاملين بيبي، وآجوو، وبعض الضيوف— إلى رقعة الخضرة جوار البيت ورقدوا على بطونهم. نظر آجوو إلى أعلى وشاهد الطائرات، تنقضُّ أسفل السماء الزرقاء مثلما يفعل طائران فوق فريسة. تدفقت مئات من الرصاصات المنتثرة قبل أن تتدحرج كراتٍ سوداءَ من الأسفل، كأنما الطائرات تضع بيضًا ضخمًا. كان الانفجار الأول مدويًّا حتى أن أذنيْ آجوو طنّتا بقوة فارتجف جسده على طول الأرض المهتزة. صرخت امرأة من بيت مقابل لأجل فستان أولانا. "اخلعيه! اخلعي ذلك الفستان! سوف يروننا ويجعلوننا هدف القذف!" انتزع أوكيوما قميصه العسكري، والأزرار تطير منه، ودثر به أولانا. بدأت بيبي تبكي. وضع السيد يده برفق على فمها، كأنما سوف يسمعها الطيارون. تلا ذلك الانفجارُ الثاني وبعد ذلك الثالث والرابع والخامس، إلى أن شعر آجوو ببلل البول الدافئ في بنطاله وهو مقتنع أن القذائف لن تنتهي أبدًا؛ سوف تستمر في السقوط حتى يتدمر كل شيء ويموت كل الناس. لم يتحرك أحد أو يتكلم لمدة طويلة، حتى نهض الضابط جولويس وهو يقول: "لقد ذهبوا."
"الطائرات منخفضة جدًّا،" قال ولد مبتهجًا. "لقد رأيت الطيار!"

كان السيد وأولانا أول من مشى في الطريق. بدا أوكيوما ضئيلاً وهو يرتدي صديرته الداخلية وبنطاله. جلست أولانا على الأرض حاملة بيبي، متدثرة بالقميص العسكري حول فستان زفافها. نهض آجوو واتجه إلى الطريق. سمع د. نوالا يقول لأولانا: "دعيني أساعدك على النهوض. سوف التراب يوسخ فستانك."

كان الدخان يتصاعد من مجاورة سكنية قريبة من محطة طحن الذرة على بعد شارع. كان منزلان قد انهارا إلى حطام حجارة وتراب وبعض الرجال يحفرون بجنون بين قطع الأسمنت قائلين: "هل سمعتم تلك الصرخة؟ هل سمعت؟" بينما غيوم من غبار فضيّ يغطي أجسامهم حتى بدو مثل أشباح بلا أطراف بعيون واسعة.

"الطفلُ حيٌّ، أنا سمعت الصرخة، سمعتها،" قال أحدهم. تجمع الرجال والنساء للمساعدة والتحديق، بعضهم راح يحفر في الحجارة أيضًا، والباقون يقفون ينظرون، بينما آخرون يزعقون ويطرقون أصابعهم. كانت هناك سيارة تحترق؛ جوارها جثة امرأة، ملابسها محترقة، مِزَقٌ من الورديّ على بشرتها السمراء، وحينما غطاها أحدهم بجوال ممزق، ظل آجوو قادرًا على رؤية الساقين المتخشبتين المتفحمتين. كانت السماء ملبّدة. فامتزجت رائحة البلل للمطر القادم برائحة دخان الحرائق. اشترك السيد أوكيوما في عمليات التنقيب في الركام. "لقد سمعتُ الطفل،" قال أحدهم ثانية. "سمعتُ الطفل."

استدار آجوو ليغادر. كان الصندل الأنيق ملقى على الطريق فالتقطه ونظر إلى شرائح الجلد، وإلى الكعب الغليظ الوتدي، قبل أن يتركه حيث كان. راح يتخيل المرأة الأنيقة الشابة التي كانت ترتديه، ثم خلعته لتهرب للأمان. وتساءل أين الفردة الأخرى.

حينما عاد السيد إلى البيت، كان آجوو جالسًا على أرضية غرفة المعيشة، ظهره إلى الحائط. وكانت أولانا تلقط قطعة كيك في صحن صغير. كانت ما تزال مرتدية فستان العرس؛ وقميص أوكيوما مطويٌّ بعناية فوق المقعد. غادر الضيوف جميعًا في بطء، قائلين أقلَّ القليل، وجوههم مُظلّلة بالشعور بالذنب، كأنما كانوا خجلين أن سمحوا للغارة الجوية بأن تُفسدَ العرس.

صبَّ السيد لنفسه كأسًا من نبيذ النخيل. "هل استمعت للأخبار؟"

"لا،" قالت أولانا.

"فقد جنودنا كلَّ المناطق التي استولوا عليها في الغرب الأوسط وانتهت المسيرة إلى لاجوس. تقول نيجيريا الآن إنها الحرب، ولم تعد مجرد عملية بوليسية." هز رأسه. "لقد خرّبونا."

"هل تود بعض الكيك؟" سألت أولانا. كانت الكعكة موضوعة على المائدة في المنتصف، كاملة إلا من الشريحة النحيلة التي أخذتها.

"ليس الآن." شرب نبيذه وصب كأسًا آخر. "سوف نبني مخبأ تحسَّبًا لغارة أخرى." كانت نبرتُه طبيعية، هادئة، كأنما الغارة كانت شيئًا حميدًا، كأنما لم تكن موتًا قريبًا جدًّا لدقائق خلت. استدار لآجوو. "هل تعرف ما هو المخبأ يا رَجُلي الطيب؟"

"نعم يا صاح،" قال آجوو. "مثل الذي كان لدى هتلر."

"حسنٌ، نعم، أظن ذلك."

"لكن يا صاح كان الناس يقولون إن المخابئ هي قبور جماعية،" قال آجوو.

"كلام فارغ تمامًا. المخابئ أكثر أمنًا من الرقاد في رقعة العشب."

بالخارج، كان الظلام قد هبط والسماء تضاء كلَّ حين بالبرق. قفزت أولانا فجأة من مقعدها وصرخت. "أين بيبي؟ كي بيبي؟" وبدأت تجري داخل غرفة النوم.

"نكيم!" ذهب السيد وراءها.

"ألا تسمع؟ ألا تسمعهم يقذفوننا من جديد؟"

"إنه الرعد." احتضن السيد أولانا من الخلف وجذبها. "إنه الرعد فقط. ما منعته مظلة المطر يتساقط الآن. إنه الرعد وحسب."

احتضنها لبرهة أطول، حتى، أخيرًا، جلست أولانا واقتطعت شريحة كعك أخرى.

4. الكتاب: كان العالمُ صامتًا حينما كنّا نموت.

هو يجادل أن نيجيريا لم يكن لديها اقتصاد حتى الاستقلال. الوضع الاستعماري كان فاشيًّا، دكتاتوريًّا وحشيًّا أُنشئ لصالح بريطانيا. ما كان يتضمنه الاقتصاد عام 1960 كانت الأسواق الخام الكامنة، البشر، الروح العالية، وبعض المال من تسويق السلع المتبقية مما أخذته بريطانيا لتبني اقتصاد ما بعد الحرب. وكان هناك النفط المُكتشف حديثًا. لكن قادة نيجيريا الجدد كانوا متفائلين جدًّا، طموحين جدًّا بشأن أن المشاريع المتطورة سوف تكسب ثقة الناس، ساذجين جدًّا في قبول القروض الأجنبية المستغلة، شغوفين جدًّا بتقليد البريطانيين في تولّي المناصب الكبرى والمستشفيات الفخمة والرواتب الضخمة التي تنكّرت للنيجيريين طويلاً. يشير إلى المشاكل المعقدة التي تواجه الدولة الجديدة لكنه يركز على مذابح 1966. الأسباب الظاهرية— الانتقام من أجل "انقلاب الإيبو"، الاعتراض على الحكم الوحودي الذي سيجعل الشماليين يخسرون خدماتهم المدنية—لا يهم. ولا أهمية لأعداد القتلى المتفاوتة: ثلاثة آلاف.

عشرة آلاف. خمسون ألفًا. الذي يهم هو المذابح روّعت الإيبو ووحدتهم. الذي يهم هو أن المذابح صنعت من النيجيريين السابقين بيافريين متحمسين.

الجزءُ الثالث

بداياتُ الستينيات

جلس آجوو على الدَّرج الذي يؤدي إلى الفناء الخلفيّ. قطراتُ المطر كانت تنزلق على أوراق الشجر، والهواءُ مشبَّعٌ برائحة التربة الرطبة، وكان يتحدث مع هاريسون حول رحلته الوشيكة مع مستر ريتشارد.

"*توفيا*! لا أعرفُ لماذا يريد سيدي أن يرى مهرجان الشياطين في قريتك،" قال هاريسون. كان جالسًا أسفل بدرجات قليلة. وكان بوسع آجوو أن يشاهد الرقعة الصلعاء في منتصف رأسه.

"ربما يريد مستر ريتشارد أن يكتب عن الشيطان،" قال آجوو. بالطبع لم يكن *أوري-أوكبا* مهرجانًا شيطانيًّا، لكنه لن يعارض هاريسون. كان يريد أن يكون هاريسون في مزاج جيد حتى يسأله عن غاز الدموع. كانا صامتين لبرهة، يراقبون النسور تحوّم فوق الرؤوس؛ كان الجيران قد ذبحوا دجاجة.

"آه، ثمراتُ الليمون تلك بدأت تنضج." أومأ هاريسون نحو الشجرة. "أستخدمُ هذه الحبّات الطازجة في صناعة كعكة السكر والبيض،" أضاف بالإنجليزية.

"ما هي ميه-*رانج*؟" سأل آجوو. سوف يروق هذا السؤال لهاريسون.

"ألا تعرف ما هي؟" ضحك هاريسون. "إنها أكلة أمريكية. سوف أصنعها لسيدي ليحضرها هنا حينما تعود سيدتُك من لندن. أعلم أنها ستحبها."

استدار هاريسون ليرمق آجوو. كان قد وضع جريدة قبل الجلوس على الدرجة، فتجعدت وهو يتزحزح. "حتى أنتَ ستحبها."

"نعم،" قال آجوو، رغم أنه قد أقسم أنه لن يأكل طعام هاريسون بعدما مرَّ ببيت مستر ريتشارد وشاهد هاريسون يقلب شرائح قشور برتقال في إناء الصوص. كان سينزعج أقل لو أن هاريسون قد طبخ البرتقالة نفسها، لكن أن يطهو بالقشور فكأنما نطهو جلد النعجة بالفروة بدلا من طهو اللحم.

"أنا أيضًا أستخدم الليمون لصنع الكعك؛ الليمون جيد جدًّا للجسم،" قال هاريسون. "طعام الشعوب البيضاء يجعلك صحيحًا، ليس مثل كل هذا الهراء الذي يأكله أهلنا."

"نعم هذا صحيح." نقَّى صوتَه. يجب أن يسأل هاريسون عن غاز الدموع الآن، لكن بدل ذلك قال، "دعني أُريك غرفتي الجديدة في نُزل الأولاد."

"أوكي." نهض هاريسون.

حينما دخلا غرفة آجوو، أشار إلى السقف، المرسوم بالأبيض والأسود. "صنعتُها بنفسي،" قال. ظلَّ يحملُ شمعةً هناك لساعات، يحرك لهب الشمعة على طول السقف، يتوقف كل حين ليحرك الطاولة التي يقف فوقها.

"*أوه ماكا*، لطيفة جدًّا." نظر هاريسون إلى السرير الضيق في الركن، وإلى الطاولة والكرسي، والقمصان المعلقة على مسامير مثبتة بالحائط، والحذاء المرتب على الأرض بعناية. "هل هذا الحذاء جديد؟"

"اشترته لي سيدتي من باتا."

مسّ هاريسون كوم الجرائد على المنضدة. "هل تقرأ كل هذا؟" سأل بالإنجليزية.

"نعم،" كان آجوو قد احتفظ بها من سلة المهملات؛ سجلّات *الرياضيات* كانت غير قابلة للفهم، لكنه على الأقل قد قرأ، وإن لم يفهم، بعض صفحات من *نظرة عامة على المجتمع*.

كانت قد بدأت تمطر من جديد. والطقطقة على السطح الزنكيّ عاليةٌ وتزداد علوًّا وهما يقفان تحت المظلة بالخارج يشاهدان قطرات المطر تسقط من السطح في خطوط متوازية.

لوّح آجوو بذراعه— كان يحب هواء المطر البارد، لكنه لا يحب البعوض المحوّم حوله. وأخيرًا سأل السؤال: "هل تعرف كيف أحصلُ على غاز الدموع؟"

"غاز الدموع؟ لماذا تسأل؟"

"قرأت عنه في صحيفة سيدي، وأريد أن أرى كيف يبدو." لن يخبر هاريسون أنه في الحقيقة سمع عن غاز الدموع حينما تكلم السيد مع أعضاء البيت الغربي في السفارة، الذين كانوا يلكمون ويركلون بعضهم بعضًا حتى جاء البوليس ورشَّ الغاز ففقدوا الوعي، إلى أن حملهم خدمُهم إلى سياراتهم. فتن آجوو الغازُ المسيّل للدموع. إذا كان يجعل الناس يفقدون وعيهم، فهو يريد الحصول عليه. يريد أن يستخدمه مع نيسيناتشي حينما يعود إلى بلدته مع مستر ريتشارد من أجل مهرجان أوري-أوكبا. سوف يقودها حتى المنحدر جوار الشلال ويخبرها أن غاز الدموع هو رذاذ سحري سوف يبقيها بصحة جيدة. وسوف تصدقه. وأيضًا سوف يؤثر فيها أن تراه آتيا في سيارة رجل أبيض لدرجة أنها ستصدق أي شيء يقوله.

"صعب جدًّا الحصول على غاز الدموع،" قال هاريسون.

"لماذا؟"

"أنت صغير جدًّا لتعرف لماذا." أومأ هاريسون بغموض. "حينما تغدو رجلاً ناضجًا سوف أخبرك."

حار آجوو في البدء، قبل أن يدرك أن هاريسون لم يكن يعرف ما هو غاز الدموع أيضًا لكنه لم يكن يعترف بذلك أبدًا. خاب أمله. كان يجب أن يسأل جومو.

كان جومو يعرف ما هو غاز الدموع وضحك طويلاً وبقوة حينما أخبره آجوو لماذا كان يريده. أخذ جومو يصفق بيديه وهو يضحك. "أنت خروف، *أتورو*،" قال جومو أخيرًا. "لماذا تريد أن تستخدم غاز الدموع مع بنت صغيرة؟ انظرْ، اذهب إلى قريتك، وإذا ما كان الوقت مناسبًا والبنت تحبك، سوف تتبعك. أنت لا تحتاج إلى غاز دموع."

أبقى آجوو كلمات جومو في عقله بينما يقود مستر ريتشارد سيارته نحو بلدته في اليوم التالي.

ركضت آنيوليكا إلى الطريق لما رأتهما وصافحت مستر ريتشارد بجرأة. احتضنت آجوو وأخبرته وهم سائرون أن أبويها في الحقل، ابنة عمهم ولدت بالأمس، وأن نيسيناتشي سافرت للشمال الأسبوع الماضي—

توقف آجوو وحملق فيها.

"هل حدث شيء؟" سأل مستر ريتشارد. "لم يُلغَ المهرجان، أليس كذلك؟"

تمنى آجوو لو كان قد حدث. "لا يا صاح."

تقدم في الطريق حتى ميدان القرية المزدحم بالرجال والنساء والأطفال، وجلس تحت شجرة أوجي مع مستر ريتشارد. وسرعان ما أحاط بهما الأطفال ينشدون "*أوني أوشا*، رجل أبيض،" وهم يمدون أياديهم ليلمسوا شعر مستر ريتشارد. قال: "كيدو؟ هاللو، ما اسمك؟ فحملقوا فيه، وهم يقهقهون ويلكزون بعضهم بعضًا. اتكأ آجوو إلى الشجرة وحزن على الوقت الذي قضاه يفكر في نيسيناتشي. الآن قد غادرت وسيفوز تاجر ما في الشمال بجائزته. لم يكد يلحظ مميو: أشخاص ذكور مغطون بالعشب، وجوههم مشبوكة بأقنعة خشبية، سياطهم الطويلة مدلاة من أياديهم. التقط مستر ريتشارد صورًا، وكتب في مفكرته، وسأل أسئلةً، واحدًا إثر واحد-- ماذا يدعى هذا وماذا يقولون ومن هؤلاء الرجال الذين ربطوا مميو بحبل وماذا يعني ذلك— حتى شعر آجوو بالتوتر من الحرارة والأسئلة والصخب والكم الهائل من خيبة الرجاء لعدم رؤيته نيسيناتشي.

كان صامتًا في رحلة العودة، ينظر خارج نافذة السيارة.

"لقد بدأت تشعر بالحنين للوطن، أليس كذلك؟" سأل مستر ريتشارد.

"نعم يا صاح،" قال آجوو. كان يريد أن يسكت مستر ريتشارد. أراد أن يكون وحيدًا. وتمنى أن يكون السيد ما يزال في النادي حتى يأخذ جريدة الرينيسانس من غرفة المعيشة ويتكور على سريره في نُزل الأولاد ويقرأ. أو ربما يشاهد التليفزيون الجديد. لو كان محظوظًا، سيكون هناك فيلم هندي. جمال النساء واسعُ العينين، الغناء، الزهور، الألوان البراقة، والبكاء، هو كل ما يحتاجه الآن.

حينما ترك نفسه يدخل عبر الباب الخلفيّ، صدمه أن يجد والدة السيد جوار الموقد. آمالا كانت واقفة جوار الباب. حتى السيد لم يكن يعلم أنهما آتيتان، وإلا لكان طلب أن تُنظف غرفة الضيوف.

"أوه،" قال. "مرحبًا ماما. مرحبا خالة آمالا." الزيارة الماضية كانت واضحة في ذاكرته: الماما تتحرك بأولانا، تناديها بالساحرة، صياح، والأسوأ هو التهديد باستشارة ديبيا القرية.

"كيف حالك يا آجوو؟" تعدّل الماما عباءتها قبل أن تربت على ظهره. "ابني قال إنك ذهبت لتُري الرجل الأبيض الأرواحَ في قريتك."

"نعم ماما."

كان يسمع صوت السيد العالي من قاعة المعيشة. ربما سيأتي زائر فقرر السيد ألا يذهب إلى النادي.

"بوسعك أن تذهب وتستريح، *آي نوجو*،" قال الماما. "أنا سأجهز غداء ابني."

آخر ما كان يريده الآن هو أن تستعمر الماما مطبخ أولانا أو أن تستعمل صحنها المفضل في حسائها ذي الرائحة النفاذة. تمنى لو أنها ترحل وحسب. "سوف أبقى حال أن رغبتِ في المساعدة يا ماما،" قال.

هزت كتفيها دون اكتراث وعاودت تفريغ ثمرات الفلفل من قرونها. "هل تطهو *أوفي نسالا* جيدًا؟"

"لم أطهها أبدًا."

"لماذا؟ ابني يحبها."

"لم تسألني سيدتي أن أطهوها."

"هي ليست سيدتك يا طفلي. إنها مجرد امرأة تعيش مع رجل لم يدفع مال عرسها."

"نعم يا ماما."

ابتسمت، كأنما كانت مسرورة أنه أخيرًا قد فهم شيئًا مهمًّا، وأومأت إلى وعاءين خزفيين في الركن. "أحضرتُ لابني نبيذ نخيل طازجًا. جلبه لي هذا الصباح أفضل الساقين لدينا."

نزعت أوراق الشجر الخضراء المحشورة في عنق أحد الوعاءين فأرغى النبيذُ عاليًا، أبيضَ وطازجًا وله رائحة جميلة. صبّت بعضه في فنجان وأعطته لآجوو.

"تذوقْه."

كان لاذعًا على لسانه، نوع من نبيذ النخيل المركّز قُطِّر في موسم الجفاف ذاك الذي يجعل رجال قريته يترنحون فورًا. "شكرًا يا ماما، جميل جدًّا."

"هل يصنع أهل قريتك النبيذ جيدًا؟"

"نعم يا ماما."

"لكن ليس مثل أهل قريتنا. في آبا لدينا أفضل الساقين في كل أرض الإيبو. أليس كذلك يا آمالا؟"

"نعم صحيح يا ماما."

"اغسلي لي هذه الطاسة."

"حاضر يا ماما." بدأت آمالا تغسل الطاسة. كتفاها وذراعاها تهتز وهي تجلو. لم يكن آجوو قد نظر إليها والآن لاحظ أن ذراعيها النحيلتين السمراوين كانتا تلمعان بالرطوبة، كأنما قد استحمت في زيت الجوز.

جاء صوت السيد عاليًا وحاسمًا من قاعة المعيشة. "حكومتنا الحمقاء يجب أن تكسر الامتيازات عن بريطانيا أيضًا. يجب أن يكون لنا وقفة! لماذا لا تصنع بريطانيا المزيد في روديسيا؟ أي فرق سوف تصنع عقوبات الاقتصاد المترهل؟"

مشى آجوو ناحية الباب لينصت؛ كان مفتونًا بـــ روديسيا، وبما سوف يحدث في جنوب أفريقيا. لم يفهم أن الناس الذين يشبهون مستر ريتشارد يأخذون أشياء الناس الذين يشبهونه هو، دون سبب على الإطلاق.

"أحضرْ لي صينية يا آجوو،" قالت الماما.

أحضرَ آجوو صينية من الخزانة وحاول أن يساعدها في تجهيز طعام السيد، لكنها أبعدته. "أنا هنا ولذا بوسعك أن ترتاح قليلا يا ولدي المسكين. سوف تجهدك المرأةُ بالعمل من جديد بعدما تعود من الخارج، كأنما لستَ أنت ألا طفلا وحسب." فضّت كيسًا صغيرًا يشع بشيء ما ووضعته في طاسة الحساء. واشتعل الشكُّ في عقل آجوو؛ تذكّر القطة السوداء التي ظهرت في الفناء الخلفي بعد زيارتها الأخيرة. والكيس كان أسود أيضًا، مثل القطة.

"ما هذا يا ماما؟ الشيء الذي وضعته في حساء سيدي؟" سأل.

"هذه توابل من خصوصيات أهل آبا." استدارت لتبتسم باقتضاب. "هي جيدة جدًّا."

"نعم يا ماما." ربما كان مخطئا ليفكر أنها تضع دواء من ديبيا في طعام السيد. ربما أولانا كانت محقّة وأن القطة لا تعني شيئا سوى أنها قطة الجيران، رغم أنه لا يعرف أي جار له قطة مثل تلك، بعينين تشعان بالأحمر والأصفر.

لم يفكر آجوو ثانية في التوابل الغريبة ولا في القطة لأنه، وبينما كان السيد يتناول غداءه، اختلس كأسًا من وعاء نبيذ النخيل ثم كأسًا آخر، لأنه كان شهيًّا جدًّا، وبعدها شعر كأنما تجويف رأسه مغلّفٌ بصوف ناعم. كان بالكاد يمشي. ومن غرفة المعيشة، سمع السيد يقول بصوت غير منتظم: "نخب مستقبل أفريقيا العظيمة! نخب أخوتنا المستقلين في جامبيا نخب أشقائنا في زامبيا الذين غادروا روديسيا!" تبع ذلك انفجارات ضحك متوحشة. نبيذ النخيل كان قد فعل فعله بالسيد أيضًا. ضحك آجوو بدوره، رغم أنه كان وحيدًا بالمطبخ ولم يعرف ما هو الشيء المضحك. وفي الأخير سقط نائمًا على المقعد القصير، رأسه على المائدة التي تفوح برائحة السمك المقدد.

صحا بمفاصله متخشبة. فمه ممرور، رأسه يؤلمه، وتمنى لو لم تكن الشمس ساطعة مبهرة هكذا، ولو أن السيد لا يتكلم عاليًا عن الجريدة على الفطور. *كيف يمكن للمزيد من السياسيين أن يتحولوا إلى غير معارضين أكثر منهم منتخبين؟ هراء تام! تلك تجهيزات لأسوأ نظام!* كل حرف ارتجّ داخل دماغ آجوو.

بعدما غادر السيد إلى عمله، قالت الماما: "ألن تذهب إلى المدرسة، جبو، آجوو؟"

"نحن في أجازة ماما."

"أوه." بدت محبطة.
فيما بعد، رآها تدهن شيئًا في ظهر آمالا، كلتاهما كانتا واقفتين أمام الحمّام. عادت شكوكه. ثمة شيء خطأ في طريقة دوران يد الماما في حركات دائرية، ببطء، كأنما مطابقٌ لشعيرة ما، وكذا في طريقة وقوف آمالا ساكنةً، بظهرها منتصب وعباءتها مسدلة إلى خصرها وحدود ثدييها ظاهرة من جانبيها. ربما كانت الماما تدهن آمالا بدواء ما. لكن هذا لا يعني شيئًا لأن الماما لو كانت ذهبت إلى ديبيا، فإن الدواء لابد أن يكون لأولانا وليس لآمالا. لكن ربما هذا الدواء يعمل على النساء والماما كانت تريد أن تحمي نفسها وآمالا لكي تستوثق أن أولانا وحدها التي سوف تموت أو تصبح عاقرًا أو تصاب بالجنون. ربما الماما تجري الآن الوقاية الأولية لأن أولانا كانت في لندن وسوف تدفن الدواء في الفناء لكي تحافظ على قوته حتى تعود أولانا.
ارتجف آجوو. وحوّمت الظلال فوق البيت. أقلقه ابتهاج الماما، وتمتماتها الخافتة، إصرارها أن تجهز كل وجبات السيد، كلماتها المبهمة لآمالا. كان يراقبها جيدًا كلما خرجت إلى الخارج، ليرى ما إذا كانت ستدفن أيَّ شيء، لكي يُخرجه بمجرد دخولها. لكنها لم تدفن شيئًا. وحينما أخبر جومو أنه يشك أن الماما ذهبت إلى ديبيا لتجد وسيلة لقتل أولانا، قال جومو: "المرأة العجوز ببساطة سعيدة لأنها تنفرد بابنها وحدها، ولهذا تطهو وتغني طوال اليوم. هل تدري كم تكون أمي سعيدة حينما أذهب لزيارتها دون زوجتي؟"
"لكنني شاهدت قطة سوداء بعد زيارتها الماضية،" قال آجوو.
"خادمة بروفيسور أوزومبا في نهاية الشارع ساحرة. إنها تطير إلى قمة شجرة المانجو في الليل لكي تلتقي برفقائها السحرة، لأنني دائمًا أرى أوراق الشجر التي يسقطونها. إنها هي من كانت تبحث عنها القطةُ السوداء."
حاول آجوو أن يصدق جومو، في أنه كان يقرأ ما لا داعي له في أفعال الماما، حتى خطا داخل المطبخ في المساء التالي، بعدما نقَّى حديقة الأعشاب، ثم رأى الذبابات في كتلة الرغوة جوار الحوض. النافذة كانت شبه مفتوحة. لم ير كم كثافة الذباب، أكثر من مائة ذبابة خضراء سمينة، استطاعت أن تدخل عبر هذا الشق النحيل لكي تطنَّ معًا في غيمة كثيفة هائجة. هذه إشارة لشيء فظيع. أسرع آجوو لغرفة المكتب لينادي السيد.
"غريب جدًّا،" قال السيد؛ خلع نظارته ثم وضعها ثانية. "أنا واثق أن بروفيسور إيزيكا لديه تفسير، هو لون من سلوك الهجرة. لا تغلق النافذة لكي لا تحبسها."
"لكن يا صاح،" قال آجوو بمجرد أن دخلت والدة السيد المطبخ.
"الذباب يفعل ذلك أحيانًا،" قالت. "هذا طبيعي. "سوف يمضي لحاله بنفس الطريقة التي دخل بها." كانت متكئة إلى الباب وبصوتها نبرة نصر واضحة.
"نعم، نعم." استدار السيد ليعود إلى مكتبه. "شاي، يا رجلي الطيب."

"حاضر يا صاح." لم يفهم آجوو كيف استطاع السيد أن يكون رابط الجأش هكذا، كيف لم ير الذباب شيئًا غير طبيعي إطلاقًا. قال وهو يدخل غرفة المكتب حاملاً صينية الشاي: "صاح، تلك الذبابات تخبرنا عن شيء."

أومأ السيد للمائدة. "لا تصب. اتركه هناك."

"تلك الذبابات في المطبخ يا صاح، هي علامة على دواء شرير من ديبيا. أحدهم صنع دواء شريرًا." أراد آجوو أن يضيف أنه يعرف من هو، لكنه لم يكن واثقًا كيف سيتقبل السيدُ الكلام.

"ماذا؟" ضاقت عينا السيد وراء النظارة.

"الذباب يا صاح. يعني أن أحدهم صنع دواء سيئًا للبيت."

"أغلقْ الباب واتركني أؤدي بعض العمل يا رجلي الطيب."

"حاضر يا صاح."

حينما عاد آجوو للمطبخ، كان الذباب قد مضى. النافذة كانت كما هي، مفتوحة قليلاً جدًّا، وضوء الشمس الشاحب كان يضيء نصل سكين التخريط على المائدة. كان مترددًا من مس أي شيء؛ الأساطير من حوله كانت قد طلت الأواني والطاسات. لوهلة كان مسرورًا أنه ترك الماما تطهو، لكنه لم يأكل وجبة والسمك المقلي الذي طهته للغداء، لم يأخذ كثيرًا سوى رشفة من نبيذ النخيل الذي تبقى مما قدمه للسيد وضيوفه، ولم ينم جيدًا تلك الليلة. ظل يقظًا مرتجفًا بعينين ملتهبتين دامعتين، متمنيًا أن يتحدث إلى أي شخص بوسعه أن يفهم: جومو، عمته، آنيوليكا. وأخيرًا نهض ودخل المنزل الرئيسي لينفض الغبار عن الأثاث، ليفعل شيئًا خفيفًا بلا تفكير يجعله مشغولاً. اللون ملأ لون الفجر الأرجواني الرمادي المطبخَ بالظلال. أضاء النور بخوف، متوقعًا أن يجد شيئًا. عقارب ربما؛ مثل تلك التي أرسلها أحدهم مرة لكوخ عمه، ليظل عمه يصحو كل يوم لأسابيع فيجد عقارب سوداء غاضبة تزحف نحو التوأم الصغير حديث الولادة. أحد الطفلين قد لُدغ وكاد يموت.

نظف آجوو رفوف الكتب أولاً. أزال الأوراق من على طاولة المنتصف وكان ينحني لينفض عنها التراب حينما فُتح باب غرفة نوم السيد. ألقى نظرة على الممر، مندهشًا من أن السيد قد صحا مبكرًا هكذا. لكنها كانت آمالا التي خرجت من الغرفة. كان الممر معتمًا والتقت عيناها الفزعتان بعيني آجوو الأكثر فزعًا فتوقفت للحظة قبل أن تسرع نحو غرفة الضيوف. كانت عباءتها محلولة على صدرها. لملمتها بيد واندفعت داخلة باب غرفة الضيوف تدفعه كأنما نسيت كيف يُفتح. آمالا، آمالا الهادئة العادية الشائعة، نامت في غرفة السيد! وقف آجوو ساكنًا محاوِلاً أن يسترد عقله الذي يدور بعنف حتى يقدر أن يفكر. دواء الماما قد فعل هذا، كان واثقًا، لكن قلقه لم يكن حول ماذا حدث بين السيد وبين آمالا. قلقه كان حول ماذا سيحدث إذا ما اكتشفت أولانا ذلك.

(20)

جلست أولانا مقابل أمها في غرفة المعيشة بالدور العلوي. تسميها أمُّها قاعة السيدات، لأنها حيث تتسلي صديقاتها، حيث يضحكن وتنادي كل منهن الأخرى بلقبها— فن! ذهب! يوجوديا!—ويتكلمن عن التي ابنها يثير مشاكل مع النساء في لندن بينما رفقاؤه يبنون بيوتًا في وطن آبائهم، وعن مَن اشترت دانتيلا محلية وحاولت أن تمررها بوصفها آخر صيحة في أوروبا، وعمن حاولت أن تخطف زوج فلانة، وعمن استوردت أثاثًا فاخرًا من ميلانو. والآن، رغم كل هذا، كانت الغرفة بكماء. حملت أمها كأس ماء تونيك بيد ومنديلا بالأخرى. كانت تبكي. كانت تحكي لأولانا عن عشيقة أبيها.

"لقد اشتري لها منزلا في إيكيجا،" قال أمها. "صديقتي تسكن في نفس الشارع."

لاحظت أولانا الحركة الرقيقة ليد أمها وهي تجفف عينيها. كان مثل الحرير، المنديل؛ ربما لا يمكن أن يمتص الدمع جيدًا.

"هل تكلمتِ معه؟" سألت أولانا.

"ماذا أقول له؟ *جوا يا جيني*؟" وضعت أمها الكأس. لم ترشف منه منذ أن جلبته لها إحدى الخادمات في صينية من الفضة. "ليس هناك ما أقوله له. فقط أريدك أن تعرفي ماذا يحدث حتى لا يقولوا إنني لم أخبر أحدًا."

"سوف أتكلم معه،" قالت أولانا. هذا ما كانت تريده أمها. كانت قد عادت من لندن منذ يوم، وكان البريق المحتمل بعدما رأت طبيب النساء من كينجستون قد خمد بالفعل. بالفعل لم تستطع أن تتذكر الأمر الذي ملأها بعد قال إنه لا شيء بها وأن عليها فقط— كان يغمزها— أن تعمل بجد. بالفعل كانت قد تمنت أن تعود إلى نسوكا.

"أسوأ ما في الأمر هو أن المرأة من الرعاع الدهماء،" قال أمها، وهي تلوي المنديل. "تعجة من يوروبا من منطقة الغابات لها طفلان من رجلين مختلفين. سمعت أنها عجوز ودميمة."

نهضت أولانا. كأنما شكل المرأة يهم. كأنما "عجوز" و"دميم" لا يصفان أباها أيضًا. ما أزعج أمها ليس العشيقة في ذاتها، كانت تعلم، لكن المغزى من وراء ما فعل أبوها: شراء منزل للعشيقة في مجاورة سكنية حيث يسكن صفوة لاجوس.

"ربما علينا أن ننتظر زيارة كاينين حتى تتكلم مع أبيك بدلا منكِ، نني؟" قالت أمها، وهي تجفف عينيها ثانيةً.

"قلتُ سأكلمه يا ماما،" قالت أولانا.

لكن في ذلك المساء، وهي تدخل غرفة أبيها، اكتشفت أن أمها كانت على حق. كاينين كانت أفضل مَن يفعل ذلك. تعرف كاينين بالضبط ماذا تقول ولن تشعر بالحمق الغريب الذي تشعر به الآن، أما كاينين بزواياها الحادة ولسانها اللاذع وثقتها المهولة بالنفس.

"بابا،" قالت وهي تغلق الباب وراءها. كان على مكتبه، جالسًا بظهر مستقيم على مقعده المصنوع من الخشب الأسود. لم تقدر أن تسأله ما إذا كان الكلام صحيحًا، لأنه يعلم أن أمها تعلم أنها حقيقة وبالتالي فهي تعلم. تساءلت، للحظة، عن تلك المرأة الأخرى، كيف تبدو، فيم تتكلم هي وأبوها.

"بابا،" قالت من جديد. سوف تتكلم بالإنجليزية غالبًا. من الأسهل بالإنجليزية أن تكون رسمية وباردة. "أتمنى أن تبدي بعض الاحترام لأمي." لم يكن هذا ما نويتْ أن تقوله. *أمي*، بدلا من *ماما*، بدا هذا كأنما كانت قد قررت أن تُقصيه، كأنما أصبح غريبًا يمكن أيضًا مناداته على النحو نفسه: *أبي*.

انحني في مقعده إلى الخلف.

"ليس من الاحترام أن يكون لك علاقة مع هذه المرأة وأنك قد ابتعت لها منزلاً حيث تسكن صديقات أمي،" قالت أولانا. "تذهب إلى هناك من عملك وسائقك يصف السيارة بالخارج وأنت لا تعبأ بهؤلاء اللواتي يرونك. هذه صفعةٌ على وجه أمي."

كانت عينا والدها مسدلتين الآن، عينا رجل يلملم شتات عقله.

"لن أخبرك عما تفعل إزاء ذلك، لكنك يجب أن تفعل شيئًا. أمي ليست سعيدة." ركزت أولانا على "يجب"، وأكسبتها نبرة توكيد مبالغًا فيها. لم تتكلم مع أبيها هكذا من قبل، هي نادرًا ما تتكلم معه على كل حال. وقفت هناك تحملق فيه، ويحملق فيها، وكان الصمت بينهما خاويًا.

"*أنيوجو م*، لقد استمعتُ إليكِ،" قال. لهجته الإيبو كانت منخفضة، متآمرةً، كأنما قد سألته أن يستمر في خداع أمها لكن أن يفعل ذلك ببعض مراعاة الشعور. أغضبها هذا. ربما كان هذا، بالفعل، ما سألته أن يفعله لكنها مع ذلك ظلت منزعجة. نظرت في أرجاء غرفته وفكرت كم يبدو سريره العريض غير مألوف؛ لم تكن قد رأت من قبل ظلال بريق الذهب ذاك في ملاءة سرير أو لاحظت كم تعقيد التواءات المقابض المعدنية في دولاب أدراجه. هو ذاته بدا غريبًا عنها، رجل بدين لم تكن تعرفه.

"هل هذا هو كل ما يجب أن تقوله، أنكَ قد سمعتني؟" سألت أولانا رافعةً صوتها.

"ماذا تريدينني أن أقول؟"

شعرت أولانا فجأة بالشفقة عليه، وعلى أمها، وعلى نفسها وعلى كاينين. ودت أن تسأله لماذا كانوا جميعهم غرباء يتشاركون اسم اللقب ذاته.

"سوف أفعل شيئًا حيالَ ذلك،" أضاف. نهض ومشى نحوها. "شكرا *أوللا م*،" قال.

لم تدرِ ماذا تفعل بشكره لها، ولا بندائه إياها بـــ يا ذهبي[1]، الشيء الذي لم يفعله منذ كانت طفلة والذي بدت به الآن قداسة مفتعلة. استدارات وغادرت الغرفة.

1- My gold

حينما سمعت أولانا صوت أمها العالي في الصباح التالي—"لا يصلح لشيء! رجل غبي!"—أسرعت تنزل الدرج. تخيلتهما يتشاجران، أمها تقبض على مقدمة قميص أبيها في قبضة محكمة كما تفعل النساء عادة للأزواج الخائنين. كانت الأصوات قادمة من المطبخ. وقفت أولانا عند الباب كان رجل يركع أمام أمها ويداه مرفوعتان لأعلى، راحتا كفيه لأعلى في ضراعة.

"مدام، من فضلك يا سيدتي من فضلك."

استدارت أمها للخادم ماكسويل الذي كان واقفًا ينظر. "آي فوجو؟ هل يظن أننا استخدمناه لكي يسرقنا يا ماكسويل؟"

"لا يا ماه،" قال ماكسويل.

استدارت الأمُّ مجددًا إلى الرجل الراكع على الأرض. "وإذًا هذا ما كنت تفعله منذ جئت هنا، أيها الرجل عديم الفائدة؟ أجئت هنا لتسرقني؟"

"سيدتي من فضلك؛ مدام، رجاء. أستعين بالله لأتوسل إليكِ."

"ماما، ما هذا؟" سألت أولانا.

استدارت أمها. "أوه، نني، لم أكن أعرف أنكِ استيقظت."

"ما هذا؟"

"إنه هذا الحيوان المتوحش. لقد استخدمناه الشهر الماضي فقط، ويريد أن يسرق كل شيء في بيتي." استدارت مجددًا للرجل الراكع. "هكذا ترد الجميل للناس الذين منحوك وظيفة؟ رجل غبي!"

"ماذا فعل؟" سألت أولانا.

"تعالي وانظري." قادتها أمها للخارج إلى الفناء الخلفي حيث دراجة متكئة إلى شجرة المانجو. وجوال قماشيّ ساقطٌ من المقعد الخلفي، والأرز منسكب على الأرض.

"سرق أرزي وكان على وشك الذهاب إلى بيته. برحمة الله فقط سقط الجوال. من يدري ماذا سرق مني أيضًا في الماضي؟ لا عجب أنني كنت أبحث عن بعض عقودي." كانت أمها تتنفس بسرعة.

حملقت أولانا في حبوب الأرز على الأرض وتساءلت كيف أجهدت أمها نفسها هكذا من أجل بعض الأرز كأنما بالفعل صدقت أمها نفسها بأنها انتُهكت.

"يا خالة، أرجوكِ توسلي لسيدتي. إنه الشيطان هو الذي جعلني أفعل ذلك." كانت يدا السائق الضارعتان في مواجهة أولانا الآن. "أرجوكِ اشفعي لي عند السيدة."

أشاحت أولانا عن وجه الرجل ذي العينين الصفراوين؛ كان أكبر سنًا مما ظنت من قبل، قطعًا فوق الستين. "انهضْ،" قالت.

بدا غير مصدق وهو يسترق النظر إلى الأم.
"قلتُ انهض!" لم تنوِ أولانا أن ترفع صوتها، لكن صوتها خرج حادًّا. وقف الرجل على نحو أخرق، وعيناه مسدلتان.
"ماما، إذا كنت ستصرفينه من الخدمة، فاصرفيه ودعيه يمضي فورًا،" قالت أولانا.
راح الرجل يلهث، كأنما غير متوقع أن تقول ذلك. بدت الأم مندهشة أيضًا ونظرت إلى أولانا، ثم إلى الرجل، ثم إلى ماكسويل، قبل أن تُنزل يدها الموضوعة على مؤخرتها.
"سأعطيك فرصة أخرى، لكن إياك أن تلمس أي شيء آخر في هذا البيت إلا إذا سُمح لك. هل تسمعني؟"
"نعم يا مدام شكرًا لكِ يا سيدتي. بارك الله فيك يا مدام."
كان الرجل ما يزال ينشد تشكراته حينما تناولت أولانا ثمرة موز من على الطاولة وغادرت المطبخ.
حكت لأودينيبو القصة في الهاتف، وكيف أحبطها أن ترى رجلا عجوزًا يهين نفسه هكذا، وكيف أنها واثقة أن أمها سوف تطرده لكن فقط بعد ساعة من استمتاعها بزحفه وبتشفيها الذي تراه مشروعًا. "لم تكن أكثر من أربعة فناجين من الأرز،" قالت.
"لكنها تظل سرقة يا نكيم."
"أبي وأصدقاؤه السياسيون يسرقون المال في عقودهم، لكن لا أحد يجعلهم يركعون للتوسل من أجل المغفرة. ويبتنون المنازل بأموالهم المسروقة ويؤجرونها للناس من أمثال هذا الرجل ويتقاضون أجورًا باهظة ما يجعل من المستحيل أن يشتروا الطعام."
"لا تستطيعين أن تبرري السرقة بالسرقة." بدا أودينيبو مكتئبًا على نحو غريب؛ كانت تتوقع أن ينفجر لهذا الظلم.
"هل عدم التكافؤ يعني انعدام الكرامة؟" سألت.
"غالبًا يعني ذلك."
"هل أنت بخير؟"
"أمي هنا. لم يكن لدي فكرة بمجيئها."
لا عجب أن يبدو هكذا. "هل ستغادر قبل الثلاثاء؟"
"لا أعرف. كنت أتمنى أن تكوني هنا."
"أنا سعيدة أنني لست هناك. هل تكلمتما بشأن كسر تعويذة الساحرة المثقفة."
"سوف أخبرها قبل أن تقول أي شيء أنه ليس هناك ما يُناقش."
"ربما تهدئها لو أخبرتها أننا نحاول أن ننجب طفلاً. أمْ سوف تفزعُ هي من فكرة أن أنجب لكَ طفلاً؟ بعض جينات السحر قد تنتقل إلى حفيدها على كل حال."
تمنت أن يضحك أودينيبو، لكنه لم يفعل. "لا أستطيع أن أنتظر إلى الثلاثاء،" قال بعد برهة.

"لا أستطيع أن أنتظر أيضًا،" قالت. "اخبرْ آجوو أن يهوِّي سجادة غرفة النوم."
تلك الليلة، حينما دخلت أمها غرفتها، استنشقت أولانا عطر زهرة كلوي، شذا طيب، لكنها لم تفهم أن على المرء أن يضع عطرًا وهو ذاهب إلى الفراش. لدى أمها العديد من قوارير العطور؛ مصطفةً على تسريحتها مثل رف محل: قوارير ملفتة للنظر، متناقضة، قوارير مستديرة. تضعها حتى وهي ذاهبة للنوم كل ليلة، لا تقدر أمها على استهلاكها في خمسين سنة.
"شكرًا لك يا ننـي،" قالت. "أبوك يحاول الآن أن يصنع ترضيات."
"حسنًا." لم تشأ أولانا أن تعرف ماذا فعل أبوها لكي يقدم ترضيات لكنها شعرت بإحساس شاذ بأنه إنجازٌ أن تتحدث إلى والدها مثل كاينين، أن تجعله يفعل شيئًا، أن تكون مفيدةً.
"مسز نويزو سوف تتوقف عن مهاتفتي لتخبرني أنها رأته هناك،" قالت أمها. "قالت أشياء خبيثة ذلك اليوم عن الناس الذين رفضت بناتهم الزواج. أظنها كانت تقذفني بالكلام لترى ما إذا كنت سأرد إليها كلماتها. ابنتها تزوجت العام الماضي ولم يقدروا أن يتحملوا الأعباء المادية لاستيراد أي شيء لزفافها. حتى فستان العرس صُنع هنا في لاجوس!" جلست الأم. "بالمناسبة، هناك من يريد لقاءكِ. تعرفين عائلة إيجوي أونوتشي؟ ابنهم مهندس. أظن أنه رآك في مكان ما، وهو مهتم جدًّا."
تثاءبت أولانا ومالت للوراء لتستمع إلى أمها.

عادت إلى نسوكا في منتصف ما بعد الظهر، في تلك الساعة الساكنة حيث الشمس لم تَلِن بعد والنحلات تحطُّ في هدوء بعد طول إجهاد. سيارة أودينيبو كانت في الجراج. فتح آجوو الباب قبل أن تطرقه، قميصه غير مزرر، وبقعُ عرق تحت ذراعيه. "مرحبًا يا ماه،" قال.
"آجوو."افتقدتْ ابتسامةَ وجهه الوفيّ. "*أنو آنوكوا أوفيوما*؟ هل أنت بخير؟"
"نعم يا ماه،" قال، وخرج لإحضار حقائبها من التاكسي.
دخلت أولانا. افتقدت رائحة المنظف الخفيفة التي تشع من غرفة المعيشة بعدما ينظف آجوو النوافذ.
لأنها كانت قد تخيلت أن والدة أودينيبو بالفعل قد غادرت، أحبطت حين رأتها على الأريكة، مرتدية ثيابها، تجاهد مع حقيبة. في حين تقف آمالا قريبة تحمل صندوقًا معدنيًّا صغيرًا.
"نكيم!" قال أدوينيجو مسرعًا نحوها. "جميل أن عدتِ! جميل جدًّا!"
حينما تعانقا، لم يرتخ جسده الملتصق بجسدها والضغطة المقتضبة من شفتيه على شفتيها كانت هشة. "ماما وآمالا كانتا على وشك الرحيل. سوف أوصلهما إلى موقف السيارات." قال.
"مساء الخير ماما،" قالت أولانا، لكنها لم تأت أية محاولة أن تتقدم.

"أولانا، كيدو؟" قالت الماما. كانت الماما من بادرت بالعناق؛ كانت الماما من ابتسمت بدفء. ارتبكت أولانا لكن شعرت بالسرور. ربما تكلم معها أودينيبو حول كم أن علاقتهما جادة، وعن تخطيطهما أن ينجبا طفلاً وهو ما جعلهما أخيرًا يكسبان الماما في صفهما.

"آمالا، كيف حالك؟" قالت أولانا. "لم أكن أعرف أنك أتيت أيضًا."

"مرحبًا خالة،" تمتمت آمالا وهي مُطرقة.

"هل أحضرت كل شيء؟" سأل أودينيبو أمه.

"هيا نمضي. هيا."

"هل أكلتِ يا ماما." سألت أولانا.

"مازالت وجبة الصباح ثقيلة في معدتي،" قالت الماما. كانت لها نظرة متأملة مبتهجة في وجهها.

"يجب أن نذهب الآن،" قال أودينيبو. لدي مباراة في جدول يومي فيما بعد.

"وماذا عنكِ يا آمالا؟" سألت أولانا. وجه الماما المبتسم جعلها فجأة تريدهما أن تمكثا أكثر.

"أرجو أن تكوني قد أكلتِ شيئًا."

"نعم يا خالة شكرًا لك،" قالت آمالا، وعيناها مركزتان على الأرض.

"اعطِ آمالا المفتاح لتضع الأشياء في السيارة،" قالت الماما لأودينيبو.

تحرك أودينيبو نحو آمالا، لكن وقف بعيدًا قليلا حتى أنه اضطر لمد يده ويطيل ذراعه ليعطيها المفتاح. أخذت المفتاح من بين أصابعه بعناية؛ لم يلمس أحدهما الآخر. كانت لحظة موجزة، مارقةً وهاربة، لكن أولانا لاحظت مقدار حرصهما في تجنب أي تماس، أي اتصال بشْرة، كأنما كانا متوحدين بمعرفةٍ مشتركة أبدية حتى أنهما قرّرا ألا يتحدا بأي شيء آخر.

"كونا بخير،" قالت. شاهدت السيارة وهي تخطو خارج المجاورة السكنية وتقف هناك، وراحت تقول لنفسها إنها أخطأت؛ لم يكن هناك ما يقلق في تلك الإيماءة. لكنها أزعجتها. شعرت بشيء مماثل لما كانت قد شعرت به وهي تنتظر أخصائي النساء والتوليد؛ مقتنعة أن شيئًا ما خطأ بجسمها لكنها تود أن يخبرها أن كل شيء على ما يرام.

"ماه، هل ستأكلين؟ هل أدفئ الأرز؟" سأل آجوو.

"ليس الآن." للحظة ودت أن تسأل آجوو إذا كان أيضًا قد لاحظ الحركة، إن كان قد لاحظ أي شيء.

"اذهبْ وانظرْ إذا كان الأفوكادو قد نضج."

"حاضر يا ماه." تردد آجوو قليلاً قبل أن يذهب.

وقفت على الباب الأمامي حتى عاد أودينيبو. لم تكن واثقة ما الذي يعنيه هذا الطحنُ في معدتها، والتسارع في صدرها. فتحت الباب وراحت تفتش في وجهه.

"هل حدث أي شيء؟" سألت.

"ماذا تعنين؟ كان يحمل بعض الجرائد في يده. "أحد تلاميذي فاته الامتحان الأخير، ، فجاءني هذا الصباح وعرض على بعض المال لكي أجعله ينجح، الجاهل."

"لم أكن أعلم أن آمالا جاءت. مع الماما،" قالت.

"نعم،" بدأ يرتب الجرائد، متجنبًا عينيها. وببطء جثمت الصدمة على أولانا.. لقد عرفت. عرفت من الحركات الصاخبة التي صنعها، من الفزع في وجهه، من طريقته المتلهفة أن يبدو طبيعيًّا من جديد، عرفت أن شيئًا لم يكن يجب أن يحدث قد حدث.

"لقد لمستَ آمالا،" قالت أولانا. لم يكن سؤالاً، على أنها انتظرته أن يجيب كأنما كان سؤالاً؛ كانت تريده أن يقول "لا" ويُحبَط منها لأنها فكرت هكذا. لكن أودينيبو لم يقل شيئًا. جلس على مقعده ذي المتكئين ونظر إليها.

"أنتَ لمستَ أولانا،" كررت أولانا. سوف تتذكر دائمًا تعبيره، وهو ينظر إليها كأنما لم يكن يتخيل مطلقًا هذا المشهد ومن ثم لا يعرف كيف يفكر في التفكير في ماذا يقول أو ماذا يفعل.

استدارات نحو المطبخ وكادت تسقط جوار طاولة الغداء لأن الثقل في صدرها كان عظيمًا، لا يناسب حجمها.

"أولانا،" قال.

تجاهلته. لم يكن ليذهب وراءها لأنه كان مرتعبًا. ممتلئا بالخوف والشعور بالذنب. لم يركب سيارتها فورًا وتذهب إلى شقتها. بدلا من ذلك، خرجت وجلست على درجات الفناء الخلفي وراحت تراقب دجاجة جوار شجرة الليمون، ترعى ستة كتاكيت، تلكزهم نحو فتات على الأرض. كان آجوو يقطف الأفوكادو من الشجرة التي جوار مأوى الأولاد. لم تكن واثقة كم مضت من الوقت جالسةً هناك قبل أن بدأت الدجاجة تصيح عاليًا وتبسط جناحيها لكي تحمي صغارها، لكن الكتاكيت لم تهرب نحو الحظيرة بسرعة كافية. انقضّت حداءةٌ واختطفت واحدًا منها، كتكوتًا أبيض في بُني. كانت سريعة للغاية، هبوط الحداءة ثم انزلاقها بعيدًا بالكتكوت المقبوض عليه بين مخالبها المعقوفة، حتى أن أولانا فكرت أنها ربما تخيلت المشهد. لكن لا يمكنها أن تكون قد تخيلت الأمر، لأن الدجاجة ظلت تجري في دوائر، وهي تصيح، وتثير عواصف من التراب. وبدت الكتاكيت الأخرى مذهولة. نظرت إليهم أولانا وتساءلت ما إذا كانت الكتاكيت تفهم رقصة أمهم الجنائزية. ثم، أخيرًا، بدأت في البكاء.

راحت الأيام المشوشة تزحف داخل بعضها. أولانا سجينةُ الأفكار والمهام. حينما زارها أودينيبو في شقتها لم تعرف هل تدعه يدخل أم لا. لكنه طرق الباب وطرق ثم قال: "نكيم، من فضلك افتحي، بيكو، أرجوك افتحي،" حتى فتحت. جلست ترشف بعض الماء وهو يحكي لها أنه كان ثملاً، حينما أقحمت آمالا نفسها عليه، وأنها لم تكن سوى رغبة طائشة عابرة. بعد ذلك سألته أن يخرج. كان مُزعجًا أن يظل واثقًا من نفسه بما يكفي ليسمي ما فعله رغبة

طائشة عابرة. كرهت هذا التعبير وكرهت صلابة نبرة صوته في المرة التالية حين جاء ليقول لها: "هذا لا يعني شيئًا نكيم، لا شيء." الذي يهمها ليس ما يعنيه الحدث بل الذي حدث: نومه مع خادمة أمه القروية بعد ثلاثة أسابيع فقط بعيدًا عنها. بدا الأمر سهلاً جدًّا، الطريقة التي كسر بها ثقتها فيه. قررت أن تذهب إلى كانو لأنها، إذا ما كان هناك مكان تقدر أن تفكر فيه بهدوء، سيكون المكان هو كانو.

رحلتها توقفت في لاجوس أولا، وبينما تجلس تنتظر في صالون المطار أسرعت للداخل امرأة نحيلة طويلة. نهضت وكادت تنادي كاينين! ثم اكتشفت أنها لا يمكن أن تكون هي. كانت كاينين أغمق بشرة من هذه المرأة ولا يمكن أن ترتدي قميصًا أخضر مع بلوزة حمراء. تمنت جدًّا أن تكون كاينين. كانتا ستجلسان جوار بعضهما وتحكي لها أولانا عن أودينيبو وكاينين سوف تقول شيئًا ذكيًّا وساخرًا ومريحًا في آن.

في كانو كانت آريزي غاضبة مهتاجة.

"حيوان متوحش من آبا. قضيبه المتعفن سوف يقع قريبًا. أليس يعلم أن عليه أن يستيقظ كل صباح ليركع ويشكر الرب أنكِ أصلاً نظرتِ إليه؟" قالت، وهي تعرض على أولانا رسومات لعباءات عرس. تقدم نناكوانزي أخيرًا لطلب الزواج. نظرت أولانا إلى الرسومات. وفكرت أن جميعها قبيحة ومعقدة التصميم، لكنها كانت مسرورة جدًّا بالغضب الذي اشتعل بالنيابة عنها حتى أنها أشارت إلى أحد التصميمات وتمتمت: "*أوو مالا*. هذا جميل."

لم تقل الخالة إيفيكا شيئًا عن أودينيبو حتى مرت بضعة أيام. كانت أولانا جالسة معها في الفيراندا؛ الشمس قاسية والمظلة الزنك تطقطق كأنما تعترض. لكن الجو كان ألطف هنا عنه في المطبخ الممتلئ دخانًا، حيث كانت ثلاث جارات يطبخن في الوقت نفسه. كانت أولانا تهوي على نفسها بورقة شجرة منبسطة. وامرأتان واقفتان جوار البوابة، واحدة تصرخ بالإيبو—"قلتُ اعطيني نقودي اليوم! *تاتا*! اليوم، وليس غدًا! لقد سمعتني أقول ذلك لأنني لا أتكلم وفي فمي ماء!"— بينما الأخرى تومئ إيماءات دفاع بيديها وتنظر صوب السماء.

"كيف حالك؟" سألت الخالةُ إيفيكا. كانت تعجن في هاون خليطًا من الطحين والماء مع مسحوق الفول.

"أنا بخير يا خالة. أنا أفضل لأنني هنا."

مدت الخالة إيفيكا يدها لتلتقط من العجين حشرة سوداء. حركت أولانا مروحتها أسرع. صمت الخالة جعلها تريد أن تقول المزيد.

"أظن أنني سأؤجل برنامجي في نسوكا وأبقى هنا في كانو،" قالت. "بوسعي أن أدرّس لبعض الوقت في المعهد."

"لا." وضعت الخالة إيفيكا العجين جانبًا. "*مبا*. سوف تعودين إلى نسوكا. أليس لديك هناك شقتك الخاصة ووظيفتك الخاصة؟ لقد فعل أودينيبو ما يفعله كل الرجال فأدخل قضيبه في أول ثقب وجده حينما كنتِ بعيدة. هل هذا يعني أن شخصًا ما قد مات؟"

أوقفت أولانا المروحة وشعرت ببلل العرق على فروة رأسها.

"حينما تزوجني خالك، كنت قلقة لأنني ظننت أن أولئك النسوة بالخارج سوف يأتون ويأخذون مكاني بالبيت. الآن أعرف أن لا شيء يفعله سوف يغير حياتي. حياتي ستتبدل فقط إذا ما أردت أنا أن أبدلها."

"ماذا تقولين يا خالة؟"

"هو الآن حريصٌ جدًّا، حينما أدرك أنني لم أعد خائفة. لقد أخبرته أنه إذا جلب الخزي لي على أي نحو، سوف أقطع ذلك الثعبان بين فخذيه."

عاودت الخالة إيفيكا تقليبها، وبدأت صورة زواجهما في عقل أولانا تتشظى.

"يجب أبدًا ألا تسلكي كأن حياتك تنتمي إلى رجل. هل تسمعينني؟" قالت الخالة إيفيكا. "حياتك تنتمي إليكِ إليك وحدك، سوسو جي. سوف تعودين يوم السبت. دعيني أسرع وأعد لك بعض *آباشا* لتأخذيها معك."

تذوقت قليلاً من العجين ثم بصقته.

غادرت أولانا يوم السبت. الرجل الجالس جوارها في الطائرة، عبر الممشى، كان له أكثر البشرات الأبنوسية سطوعًا وسوادًا مما رأته في حياتها. كانت قد لحظته مبكرًا في بذلته الصوفية ذات القطع الثلاث ، ينظر إليها وهم ينتظرون في قاعة المطار. عرض أن يساعدها في حمل الحقيبة، وفيما بعد سأل المضيفة إذا كان بوسعه أن يأخذ المقعد المجاور لها بما أنه كان شاغرًا. والآن قدم لها جريدة "النيجيري الجديد" وسألها: "هل تودين قراءتها؟" كان يضع خاتمًا ضخما من الأوبال في إصبعه الوسطى.

"نعم، شكرًا لك." أخذت أولانا الجريدة. مرت على الصفحات وهي مدركة أنه يراقبها وأن جريدته كانت طريقته لبدء الحديث. وفجأة تمنت لو أنها قد انجذبت إليه، لو أن شيئًا مجنونًا وسحريًّا يحدث لكليهما، وحينما تهبط الطائرة، تمشي ويدها في يده، على جسر جديد من الحياة.

"أخيرا أزالوا نائب رئيس الجامعة الإيبو من جامعة لاجوس." قال.

"أوه."

"الخبر مكتوب في الصفحة الأخيرة."

قلبت أولانا الجريدة. "نعم."

"لماذا يجب أن يكون رجل من الإيبو نائبًا لرئيس الجامعة في لاجوس؟" سأل، وفيما أولانا لم تقل شيئًا، فقط نصف ابتسامة لتظهر أنها تنصت، أضاف: "المشكلة مع الإيبو هي أنهم يريدون أن يسيطروا على كل شيء في هذه البلد. كل شيء. لماذا لا يمكثون في شرقهم؟ إنهم يمتلكون كل المحال؛ يسيطرون على الخدمات المدنية، حتى البوليس. إذا تم القبض عليك لأية جريمة، طالما تقدرين أن تقولي *كيدا* سوف يطلقون سراحك."

"نحن نقول كيدو، وليس *كيدا*،" قالت أولانا بهدوء. "وهي تعني: كيف حالك؟"

حدّق الرجلُ فيها وهي حدّقت فيه وراحت تفكر كيف سيكون جميلاً لو أنه كان امرأة، بتلك البشرة اللامعة السوداء المتقنة.

"هل أنتِ إيبو؟" سألها.

"نعم."

"لكن لك وجه شعب فلواني." بدا كأنه يتهمها.

هزت أولانا رأسها. "إيبو."

تمتم الرجل بشيء يشبه *آسف* قبل أن يستدير بعيدًا لينظر في حقيبة أوراقه. حينما ناولته الجريدة، بدا مترددًا في أخذها، وبالرغم من أنها كانت ترمقه بنظرة بين الحين والآخر، إلا أن عينيه لم تلتقيا بعينيها بعد ذلك حتى هبطا في لاجوس. لو أنه فقط يعرف أن تحيّزه قد ملأها بالاحتمالات. ليس عليها أن تكون امرأة مجروحة نام رجلُها مع فتاة قروية. كان بوسعها أن تكون امرأة من فلواني في طائرة تستهزئ بالإيبو مع غريب حسن المظهر. كان بوسعها أن تكون امرأة تدير شؤون حياتها الخاصة. بوسعها أن تكون أي شيء.

بينما يسيرون ليغادروا، نظرت إليه وابتسمت لكن منعت نفسها من أن تقول شكرًا لك لأنها أرادت أن تتركه وهو محتفظ بدهشته وندمه البكر.

استأجرت أولانا شاحنةً صغيرة وسائقًا وذهبت إلى منزل أودينيبو. تبعها آجوو وهي تجمع الكتب وتشير إلى أشياء لكي يأخذها السائق إلى الشاحنة.

"إن السيد يبدو مثل شخص ظل يبكي نهارًا كاملاً يا ماه،" قال آجوو بالإنجليزية.

"ضع خلاطي في صندوق،" قالت. بدت كلمة "خلاطي" غريبة؛ كان دائمًا يدعى "الخلاط"، غير معرّف بملكيتها له.

"حاضر يا ماه." ذهب آجوو إلى المطبخ وعاد بكرتونة صغيرة. أمسكها في تردد. "ماه، أرجوكي سامحي السيد."

نظرت إليه أولانا. كان يعلم؛ لقد رأى تلك المرأة تشارك سيده الفراش؛ هو أيضًا خانها.

"*أوزيزو*! ضع خلاطي في السيارة!"

"حاضر يا ماه." استدار آجوو للباب.

"هل مازال الضيوف يأتون في الأمسيات؟" سألت أولانا.

"ليس مثل فيما مضى حينما كنتِ هنا يا ماه."

"لكنهم مازالوا يأتون."

"نعم."

"وسيدك مازال يلعب التنس ويذهب إلى نادي هيئة التدريس؟"

"نعم."

"جيد." لم تكن تعني ذلك. كانت تود أن تسمع أن أودينيبو لم يقدر أن يعيش الحياة التي كانت لهما معًا.

حينما زارها حاولت ألا تشعر بخيبة الرجاء لأنه كان يبدو عاديًّا. وقفت عند الباب وأعطت إجابات مبهمة ممتعضة على طلاقة لسانه السهلة، حول كيف قال عرضًا: "تعرفين أنني لن أحب أبدًا امرأة أخرى يا نكيم،" كأنما كان واثقًا أنه، مع الوقت، سيعود كل شيء كما كان. امتعضت أيضًا من الاهتمام الرومانتيكي من الرجال الآخرين. الرجال العُزّاب الذين يتوقفون ببابها، والمتزوجون الذين يصطدمون بها وهي خارج شقتها. تحرشهم بها كان يحبطها لأنهم يفترضون أن علاقتها بأودينيبو قد انتهت نهائيًّا. "لستُ أبحث عن علاقة،" كانت تقول لهم، وحتى حين تقولها، كانت ترجو ألا يصل الأمر لأودينيبو لأنها لم ترد أن يظن أنها تتوق. وهي لا تتوق: لقد أضافت مواد جديدة لمحاضراتها، طبخت وجبات معقدة، قرأت كتبًا جديدة، اشترت اسطوانات جديدة. أصبحت سكرتيرة لرابطة القديس فينسينت باول، وبعدما تبرعوا بالطعام للقرية كتبت اجتماعاتهم في كراستها. زرعت نبات الزنيا في فنائها الأمامي، وأخيرًا، زرعت صداقة مع جارتها الأمريكية السوداء، إيدنا وولر.

كان لإيدنا ضحكة هادئة. تُدرّس الموسيقى وتلعب الجاز قليلاً وتطهو رقائق لحم الخنزير وتتكلم كثيرًا عن الرجل الذي تركها قبل أسبوع من زفافهما في مونتجمري وعن خالها الذي أُعدم دون محاكمة وهي طفلة. "هل تعرفين ما الذي يدهشني دائمًا؟" كانت تسأل أولانا، كأنما لم تكن أخبرت أولانا قبل ذلك بيوم. "هؤلاء المتحضرون البيض الأنيقون ذوو القبعات الذين تجمعوا ليشاهدوا رجلاً أبيض يشنق رجلاً أسود على شجرة."

ثم تضحك ضحكتها الهادئة وتمسح على شعرها، ذي البريق الدُّهني اللامع. أول الأمر لم تتكلما عن أودينيبو. كان منعشًا لأولانا أن تكون مع شخص ما بعيد كل البعد عن دائرة الأصدقاء الذين تشاركت فيهم مع أودينيبو. ثم، مرةً، وبينما إيدنا تغني أغنية بيلي هوليداي "رجلي،" سألت: "لماذا تحبينه؟"

نظرت أولانا إلى أعلى. عقلها كان لوحًا فارغًا. "لماذا أحبه؟"

رفعت إيدنا حاجبيها، وفتحت فمها لكن ليس لتغني كلمات بيلي هولداياي.

"لا أظن أن الحب له سبب،" قالت أولانا.

"بالطبع له سبب."

"أظن أن الحب يأتي أولا ثم تأتي الأسباب. حينما أكون معه، أشعر أنني لا أحتاج أي شيء آخر." أدهشتها كلمات أولانا، لكن الحقيقة المفزعة جلبت الرغبة في البكاء.

كانت إيدنا تراقبها. "لا يمكن أن تظلي تكذبين على نفسك أنكِ بخير."

"أنا لا أكذب على نفسي،" قالت أولانا. صوت بيلي هولداي الخادش بدأ يزعجها. لم تكن تعلم مدى شفافيتها. ظنت أن ضحكتها المتكررة بدت حقيقية وأن إيدنا لا تعلم أنها تبكي حينما تكون وحيدة في شقتها.

"أنا لست أفضل من يتكلم عن الرجال، لكنك تحتاجين أن تتكلمي حول ذلك مع شخص ما،" قالت إيدنا. "ربما القس، كمقابل لكل الرحلات الخيرية التي تؤدينها لكنيسة القديس فينسينت باول؟"

ضحكت إيدنا وضحكت أيضًا أولانا، لكنها بالفعل كانت تفكر أنها ربما تحتاج أن تتكلم مع شخص ما، شخص ما طبيعي يساعدها أن تعود إلى صوابها، تتعامل مع الغريبة التي أصبحتها. قررت أن تذهب إلى القديس بيتر عدة مرات في الأيام القليلة التالية لكنها كانت تتوقف وتغير رأيها. وأخيرًا، في أصيل يوم اثنين، ذهبت، وهي تقود سيارتها بسرعة، متجاهلة مطبات السرعة، حتى لا تعطي نفسها أية فرصة للتوقف. جلست على مقعد خشبي في مكتب الأب ديمين سيئة التهوية وظلت عيناها، وهي تتكلم عن أودينيبو، مركزتين على خزانة الملفات المكتوب عليه "جمهور المؤمنين".

"لا أذهب إلى نادي الهيئة لأنني لا أريد أن أراه. فقدت اهتمامي بالتنس. لقد خانني وجرحني، لكن يبدو كأنه يدير حياتي."

شد الأب دامين ياقته، وعدّل نظارته، وحكّ أنفه، وتساءلت إن كان يفكر في شيء ما، أي شيء، يفعله بما أنه ليس لديه إجابة لها.

"لم أرك في الكنيسة الأحد الماضي،" قال أخيرًا.

خاب أمل أولانا، لكنه كان قسًّا في النهاية وهذه كانت حلوله: البحث عن الله. كانت تريده أن يجعلها تشعر بأنها أُنصفت، أن يقوّي حقها في الشعور بالأسف على النفس، أن يشجعها أن تحتل قدرًا أكبر من أرض الأخلاق العليا. أرادت أن يدين أودينيبو.

"هل تعتقد أنني يجب أن أذهب للكنيسة أكثر؟" سألت.

"نعم."

أومأت أولانا واحتضنت حقيبتها، استعدادًا لتنهض وتغادر. لم يكن عليها أن تأتي. لم يكن عليها أن تتوقع من متطوع مَخْصي بوجه مستدير في روب أبيض أن يكون في وضع يمكنه من فهم شعورها. كان ينظر إليها، عيناه واسعتان وراء عدستي النظارة.

"أظن أيضًا أنك يجب أن تسامحي أودينيبو،" قال، ثم جذب ياقته كأنما كانت تزعجه. لوهلة شعرت أولانا بازدرائه. ما يقوله كان سهلاً جدًّا، ومعروف مسبقًا. لم تكن تحتاج أن تجيء لكي تسمعه.

"أوكي." نهضت. "شكرًا لك."

"ليس من أجله، تعرفين، بل من أجلك أنت."

"ماذا؟" كان ما يزال جالسًا، لذلك نظرت إلى الأسفل كي تلتقي عيناها بعينيه.

"لا تنظري إلى هذا كغفران له. بل انظري إليه كتمكينك أنتِ من أن تكوني سعيدة. ماذا ستفعلين مع التعاسة التي اخترتها؟ هل ستأكلين التعاسة؟"

نظرت أولانا إلى الصليب فوق النافذة، إلى وجه المسيح الساكن في الوجع، ولم تقل شيئًا.

وصل أودينيبو مبكرًا جدًّا، قبل أن تتناول فطورها. كانت تعلم أن ثمة مشكلة ما حتى قبل أن تفتح الباب وترى وجهه المكتئب.

"ماذا هناك؟" سألت، وشعرت برعب حادٍّ من لأمل الذي تسرب داخل عقلها: أنه أمه قد ماتت.

"آمالا حامل،" قال. كانت نبرة صوته ذاتية وقاسية، مثل شخص ينقل أنباء سيئة لأناس آخرين لكنه باق قويًّا بالنيابة عنهم.

قبضت أولانا على مقبض الباب. "ماذا؟"

"جاءت ماما الآن لتخبرني أن آمالا حامل بطفلي."

بدأت أولانا تضحك. ضحكت وضحكت وضحكت لأن المشهد الحاضر، الأسابيع الماضية، بدت فجأة خيالية.

"دعيني أدخل،" قال أودينيبو. "أرجوكِ."

تحركت للوراء. "ادخل."

جلس على حافة المقعد، وشعرت كأنها كانت تلصق من جديد قطعة الخزف الصيني المشظاة فقط لكي تشظيها من جديد؛ الألم لم يكن في التشظي الثاني لكن في إدراك أن محاولة وضع القطع المكسورة معًا كان دون طائل منذ البداية.

"نكيم أرجوك، دعينا نعالج الأمر معًا،" قال. "سوف نفعل ما تريدينه. أرجوكِ دعينا نفعله سويًّا."

ذهبت أولانا إلى المطبخ لكي تُطفئ الموقد عن براد الشاي. عادت وجلست قبالته. "قلتَ أنه حدث مرة واحدة. مرة واحدة وغدتْ حبلى؟ مرةً واحدة؟" تمنت لو لم ترفع صوتها. لكنه كان قويًّا، مهدِّدًا، أن ينام مرة واحدة مع امرأة وهو مخمور ويجعلها حاملاً.

"كانت مرة واحدة،" قال. "مرة واحدة فقط."

"أتفهّم." لكنها لم تكن متفهمة أبدًا. داهمتها الرغبة في صفعه على وجهه، بسبب تلك الذاتية التي شدّد بها كلمة "مرة واحدة" التي جعلت الأمر يبدو حتميًا، كأنما القضية كم مرة حدث هذا بدلاً من أنه لم يكن يجب أن يحدث أبدًا.

"أخبرتُ ماما أنني سأرسل آمالا إلى د. أوكنكوا في إينجو، وقالت إن هذا سيتم فوق جثتها. قالت إن آمالا سوف تنجب الطفل وإنها ستربيه بنفسها. هناك شابٌّ يعمل حطابًا في أوندو سوف تتزوجه آمالا." وقف أودينيبو. "ماما كانت تخطط ذلك من البداية. فهمت الآن أنها تأكدت من أنني كنت مغرقَ الثمل قبل أن ترسل آمالا لي. أشعر أنني كنت أقع في شيء لم أفهمه أبدًا."

نظرت إليه أولانا، من قمة رأسه إلى أخمص قدميه في الصندل الجلدي، وهي مرتعبة من أنها قدرت أن تشعر بكل انفجار الكراهية هذا لشخص أحبته. "لم يوقعك أحد في أي شيء." قالت.

حاول أن يمسكها لكنها أزاحته بعيدًا وطلبت إليه أن يغادر. وفيما بعد، في الحمام، وقفت أمام المرآة وعصرت بوحشية بطنها بكلتا يديها. الألم يذكرها بكم هي عديمة النفع؛ يذكرها بأن جنينها الآن اتخذ له عُشًا في بطن غريبة بدلاً من بطنها.

طرقت إيدنا طويلاً حتى اضطرت أولانا أن تنهض وتفتح الباب.

"ماذا حدث؟" سألت إيدنا.

"اعتاد جدي أن يقول إن الناس عادة يطلقون الريح لكن إطلاق الريح لديه يطلق البراز دائمًا." قالت أولانا. ودت أن تكون ظريفة، لكن صوتها كان خشنا، مثقلاً بالدمع.

"ماذا حدث؟"

"الفتاةُ التي نام معها حُبلى."

"ماذا دهاكِ؟"

نظرت أولانا بطرف عينها؛ ماذا دهاها؟

"انتبهي لحالك!" قالت إيدنا. "تظنين أنه يقضي اليوم يبكي مثلك؟ حينما تركني ذلك الوغدُ في مونتجمري، حاولتُ قتل نفسي وتعرفين ماذا كان يفعل؟ كان يعزفُ مع فرقة في لويزيانا!" مسحت إيدنا على شعرها بعصبية. "انظري إلى نفسك. أنت أطيب إنسان قابلته. انظري كم جميلة أنت. لماذا تحتاجين ما هو خارج ذاتك؟ لماذا ليس كافيًا ما هو أنت بالفعل؟ أنت ضعيفة للغاية!"

عادت أولانا للوراء؛ الزحف المضطرب للألم والأفكار والغضب الذي كان يضرب بها جعل الكلمات تخرج من فمها بدقة عالية. "ليس ذنبي أن رَجُلك تخلى عنك يا إيدنا."

بدت إدينا مندهشة أول الأمر، ثم مشمئزة، قبل أن تستدير وتغادر الشقة. راقبتها أولانا وهي تمضي، وهي نادمة على قول ما قالت. لكنها مع هذا لن تعتذر. سوف تعطي إيدنا يومًا أو

اثنين. شعرت فجأة بالجوع، الجوع القارس؛ كان داخلها قد أُفرِغ من فرط البكاء. لم تترك ما تبقى من أرز جولوف يتدفأ جيدًا بل أكلته كلَّه من الوعاء، ثم شربت زجاجتين بيرة باردتين، ومع هذا لم تشعر بالشبع. أكلت البسكويت في الخزانة وبعض برتقالات من الثلاجة، ثم قررت الذهاب إلى المحل الشرقي لجلب بعض النبيذ.

ابتسمت الامرأتان الواقفتان على مدخل المحل، الهندية في كلية العلوم والمرأة الكليبرية التي تدرس الأنثروبولوجي، وقالتا مساء الخير، فتساءلت ما إذا كانت نظرتاهما الخفيتان تخفيان الشفقة، وإذا ما كانتا تفكران أنها تتساقط مفككة وضعيفة.

كانت تختبر قناني النبيذ حينما جاء ريتشارد إليها.

"ظننتُ أنها أنت،" قال.

"أهلا ريتشارد." لمحت سلَّته. "لم أكن أعرف أنك تتسوق بنفسك."

"ذهب هاريسون إلى بلدته لأيام قليلة،" قال. "كيف حالك؟ هل أنتِ بخير؟"

كرهت الشفقة في عينيه. "أنا بخير جدًّا. لا أقدر أن أقرر أي هاتين أشتري." أومأت إلى قنينتي النبيذ. "لماذا لا أشتري الاثنين وإذا ما شاركتني فيهما نستطيع أن نحدد أيهما أفضل. هل لديك ساعة فراغ؟ أم عليك أن تجري سريعًا لكتابتك؟"

بدا ريتشارد مأخوذًا بتشجيعها. "لا أحب أن أفرض نفسي في الحقيقة."

"بالطبع لن تكون فارضًا نفسك. إضافةً إلى أنك لم تزرني من قبل"— توقفت— "في شقتي."

سوف تستعيد لطفها كالعادة وسوف يحتسيان النبيذ ويتحدثان عن كتابه وعن نباتاتها الزينيا وفن إيبو-أوكوا وإخفاقات الانتخابات المنطقة الغربية. وهو سوف يعود ويخبر أودينيبو أنها كانت بخير. هي *كانت* بخير.

حينما وصلا شقتها، جلس ريتشارد معتدلاً على الأريكة، وتمنت أن يجلس مسترخيًا، نصف ممدد كما كان يفعل في بيت أودينيبو؛ حتى طريقته في حمل كأس النبيذ كانت متخشبة. جلست على السجادة. شربا نخب استقلال كينيا.

"بالفعل يجب أن تكتب عن الفظائع التي ارتكبها الإنجليز في كينيا،" قالت أولانا. "ألم يقطعوا خصيات الرجال."

تمتم ريتشارد بشيء ونظر بعيدًا، كأنما كلمة "خصيات" أخجلته. ابتسمت أولانا ونظرت إليه.

"ألم يفعلوا؟"

"نعم."

"إذن يجب أن تكتب عن هذا." شربت كأسها الثاني ببطء، رافعةً رأسها لكي تستمتع بالسائل البارد وهو ينزل في حلقها. "هل لديك عنوان للكتاب؟"

"سلةٌ من الأيادي."

"سلةٌ من الأيادي." أمالت أولانا كأسها ثم أنهت شرابها. "يبدو مرعبًا."

"إنه عن العمل. الأشياء الجيدة التي أُنجزت-- خطوط السكك الحديدية، على سبيل المثال-- ولكن أيضًا عن كيف تم استغلال العمال بينما مشاريع المستعمر تمضي قُدمًا."

"أوه." نهضت أولانا وفتحت القنينة الثانية. انحنت لتملأ كأسها أولاً. شعرت بنفسها خفيفة، كأنما من السهل جدًّا حمل ثقلها الخاص، لكنها كانت صافية الذهن؛ كانت تعلم ما تود أن تفعله وماذا كانت تفعله. رائحة ريتشارد شبه الرطبة ملأت أنفها وهي تقف أمامه بالقنينة.

"كأسي ليس فارغًا تمامًا،" قال.

"لا، ليس فارغًا." وضعت القنينة على الأرض وجلست جواره ولمست الشعر الساقط على بشرته وفكرت كم ناعمًا وجميلاً هو، ليس خشنًا وأجعد مثل شعر أودينيبو، لا شيء مثل أودينيبو على الإطلاق. كان ينظر إليها وتساءلتْ إذا ما كانت عيناه قد تحولتا إلى الرمادي أم أنها تتخيل هذا. لمست وجهه، وتركت يدها تستريح على وجنته.

"تعال اجلسْ على الأرض معي،" قالت أخيرًا.

جلسا جنبًا إلى جنب، ظهراهما مستندان إلى الأريكة. قال ريتشارد في دمدمة: "لابد أن أمضي،" أو شيئًا يشبه هذا. لكنها كانت تعلم أنه لن يغادر وأنها لما تمددت على السجادة الخشنة سوف يتمدد جوارها. قبّلت شفتيه. جذبها قويًّا تجاهه، وبعد ذلك، وبنفس السرعة، تركها وأشاح بوجهه بعيدًا. كان بوسعها أن تسمع تنفسه المتسارع. فكت بنطاله وتحركت للوراء لتجذبه للأسفل وضحكت لأن البنطال كان معلّقًا في الحذاء. خلعت فستانها. كان فوقها والسجادة الخشنة تخز ظهرها العاري وشعرت بفمه يمس حلمتها برقة. لا يشبه هذا عض أودينيبو ومصه، ليس مثل تلك الصدمات من المتعة. ريتشارد لا يلعق جسدها بلسانه بتلك الطريقة المشتعلة التي تجعلها تنسى كل شيء؛ سيما حينما يقبل بطنها، كانت واعية أنه يقبل بطنها.

كل شيء تبدل حينما دخلها. رفعت مؤخرتها، وتحركت معه، متناغمة مع دفعاته، وكأنما كانت تدفع عن معصميها الأصفاد، ترفع دبابيس عن جسدها، تحرر نفسها بصرخات عالية، عالية كانت تنفجر من فمها. وفيما بعد، ملأها شعور بأنها أفضل، شعور بشيء قريب من العفو.

(21)

ارتاح ريتشارد تقريبًا لسماع خبر موت السير وينستون تشرشل. أعطاه ذلك فرصة أن يتجنب الذهاب إلى بورت هاركورت في عطلة نهاية الأسبوع. لم يستطع أن يواجه كاينين بعد.

"سوف تضطر أن تطرح عنك نكتتك البشعة عن تشرتشل الآن، أليس كذلك؟" قالت كاينين في التليفون، حينما أخبرها أنه سوف يذهب إلى لاجوس من أجل حفل التأبين في الهيئة البريطانية العليا. ضحك ثم فكر كيف سيكون الحال إذا ما اكتشفتْ الأمر وتركته فلا يعود يسمع هذا الصوت الساخر في التليفون أبدًا.

كان ذلك منذ أيام قليلة فقط، لكن ذكرى شقة أولانا كانت غائمة: غرق في النوم بعد ذلك، في غرفة معيشتها على الأرض، وصحا بصداع عنيف وشعور حادٍّ بعدم الارتياح بسبب عُرْيه. كانت جالسة على الأريكة، مرتدية ثيابها وصامتة. شعر بحيرة هل المفترض أن يتكلما عمّا حدث أم لا. وأخيرًا استدار ليغادر دون أن يقول كلمة لأنه لم يشأ أن يتحول ما ظنه ندمًا على وجهها إلى كراهية. هو لم يُختر؛ كان من الممكن أن يكون أيَّ رجل. كان يشعر بذلك حتى وهو يحتضنها عاريةً، لكن ذلك لم يحُل دون استمتاعه بجسدها البض، حركاتها معه، أخذها بقدر ما أعطت. لم يكن صلبًا أبدًا هكذا، لم يصمد طويلاً أبدًا مثلما حدث معها.

والآن، رغم ذلك، كان مُستلبًا. إعجابه كان مزدهرًا بكونها بعيدة المنال، معبودةً عن البعد، لكن الآن وقد تذوق النبيذ فوق لسانها، وقد التصق جسده بجسدها حتى أنه استنشق رائحة جوز الهند، شعر بخسارة ضخمة. لقد فقد خياله ووهمه. لكن ما كان يقلقه أكثر هو فقدان كاينين. قرر ألا تعرف كيانين أبدًا.

جلست سوزان جواره في طقس التأبين، وحينما ألقيت مقاطع من خطب السير ونستون تشرشل، صفقت بكفيها الموضوعتين في قفازين، بقوة، ومالت نحوه. أحس ريتشارد بالدموع في عينيه. ربما كان هذا هو الشيء الوحيد الذي تشاركا فيه، إعجابهما بتشرشل. بعد ذلك، سألته أن يتناول معها شرابًا في نادي بولو. كانت قد أخذته مرة من قبل وقالت، وهما يجلسان على امتداد المرج الأخضر: "سُمح للأفارقة بالدخول منذ سنوات قليلة فقط، لكنك لن تصدق كم عدد الذين يأتون الآن، ويبدون القليل من الامتنان بالفعل."

كانا يجلسان في نفس المكان الآن، جوار الدرابزين الأبيض، جوار جرسون نيجيري في زي أسود ضيق. كان النادي فارغًا تقريبًا، رغم أن مباراة بولو كانت في الناحية الأخرى. أصوات ثمانية رجال يصرخون بألفاظ نابية ويركضون بسرعتهم القصوى وراء كرة مملوءة بالهواء. كانت سوزان تتكلم بهدوء، ممتلئة بحزن كئيب على فقد رجل لم تعرفه أبدًا. قالت كم هو مثير

أن تكون آخر جنازة رسمية لرجل من عامة الشعب لدوق ويلنجتون، كأنما كان هذا خبرًا جديدًا بالنسبة له، وكم أنه شيء محزن أن بعض الناس ما زالوا لا يعرفون كم فعل تشرشل من أجل بريطانيا، وكم هو فظيع أن أحدهم في الجنازة قد اقترح أن أمه كان بها دمٌّ هندي أحمر. بدت بشرتها ملوّحة أكثر قليلاً مما كان يذكرها؛ لم يرها منذ غادر إلى نسوكا. غدت نشطة بعد كؤوس قليلة من الجين وتكلمت عن الفيلم الرائع حول العائلة المالكة الذي أذيع في القنصلية البريطانية.

"أنت لا تُلق كثير اهتمام، أليس كذلك؟" سألت بعد برهة. كانت أذناها حمراوين.

"بالطبع أهتم."

"سمعتُ عن السيدة حبيبتك، ابنة الشيخ أوزوبيا،" قالت سوزان "السيدة حبيبتك" بطريقة كوميدية كاريكاتورية حاولت ألا تبدو نبرة مهذبة.

"اسمها كاينين."

"هل ستتأكد دائمًا من استخدام ممحاة؟ فالمرء يجب أن يكون حريصًا، حتى مع أكثرهم تعلمًا من هؤلاء الناس."

نظر ريتشارد للخارج نحو الخضرة الهادئة التي لا نهاية لها. لم يكن أبدًا سعيدًا معها— حياة مثل نسيج العنكبوت، كل أيامه تنتهي إلى نسيج شفاف فسيح من اللا شيء.

"لدي علاقة مع جون بلاك،" قالت.

"صحيح؟"

ضحكت سوزان. كانت تلعب بكأسها، تُجريه على المائدة، وتمسح بقع الماء التي تكونت عليه.

"تبدو مندهشًا."

"لستُ مندهشًا،" قال، رغم أنه كان مندهشًا. ليس لأن لديها علاقة لكن لأنها مع جون، الذي كان متزوجًا من صديقتها الحميمة كارولين. لكن هذه كانت حياة المغتربين. كل ما كانوا يفعلونه، هو ممارسة الجنس مع زوجات الآخرين وأزواج الأخريات، العلاقات المحرمة التي كانت طريقةً لتمضية الوقت في الجو المَداريِّ الحار أكثر منه تعبيرًا أصيلاً عن العاطفة.

"هذا لا يعني شيئًا، لا شيء على الإطلاق،" قالت سوزان. "لكنني أردتُ لك أن تعرف أنني سوف أبقى مشغولة بينما أنتظرك حتى تُنهي علاقتك المعتمة تلك."

أرد ريتشارد أن يقول شيئًا عن خيانتها لصديقتها ثم أدرك كم سيبدو ذلك منافقًا، حتى ولو لنفسه فقط.

5. الكتاب: كان العالم صامتا حينما كنّا نموت

يكتب عن الموت جوعًا. الموتُ جوعًا كان سلاح نيجيريا في الحرب. الموت جوعًا كسر بيافرا وجلب شهرة بيافرا وجعل بيافرا تبقى طويلاً كما فعلت. الموت جوعًا جعل شعوب العالم تنتبه وتشعل الاحتجاجات والبيانات في لندن وموسكو وتشيكوزلوفاكيا. الموت جوعًا جعل زامبيا وتنزانيا وساحل العاج والجابون تعترف ببيافرا، الموت جوعًا جلب أفريقيا في حملات نيكسون الأمريكية الدعائية وجعل الآباء يخبرون أطفالهم أن يأكلوا. الموت جوعًا دفع منظمات المعونة أن تسرّب الطعام الطائر إلى بيافرا في الليل طالما الجانبان لا يكفان عن الشجار ولا يتّفقان. والموت جوعًا جعل الصليب الأحمر العالميّ يدعوا بيافرا بـــ "الحالة الحرجة الأصعب" منذ الحرب العالمية الثانية.

كان إسهال آجوو مصحوبًا بتقلصات مؤلمة. لم يتحسن بعدما مضغ الأقراص المُرَّة من خزانة السيد ولا الأوراق اللاذعة التي أعطاه إياها جومو، ولم يكن للأمر علاقة بالطعام لأن تلك الاندفاعات إلى نُزل الأولاد كانت تحدث مع أي نوع من الأطعمة كان يتناولها. كان ذلك بسبب قلقه. خوفُ السيد أقلقه.

منذ جاءت الماما بخبر حمل آمالا، ظل السيد يتعثر كأنما نظارته مزغللة، يطلب الشاي بصوت خامد، ويطلب إلى آجوو أن يخبر الضيوف أنه خرج، رغم أن سيارته بالجراج. كان يشخص في الفراغ معظم الوقت. يستمع إلى "الحياة العليا" معظم الوقت. يتكلم عن أولانا معظم الوقت. "سنترك هذا حتى تعود سيدتك" أو "سيدتك سوف تفضل أن تكون هذه في الممر،" كان يقول، وكان يرد آجوو: "نعم يا صاح،" رغم أنه يعرف أن السيد لن يهتم أن يقول أيًّا من هذه الأشياء لو أن أولانا عادت بالفعل.

أصبح إسهال آجوو أسوأ حينما جاءت الماما مع آمالا. كان يراقب آمالا جيدًا؛ لم يبدُ أنها حامل، مازالت نحيلة وبطنها مستوٍ، فتمنى ألا ينجح الدواء أبدًا. لكن الماما أخبرته، وهو يقشر جوز الكوكو: "حينما يولد هذا الطفل سوف أنال أحدًا يحفظ نسلي، ولن تدعوني النساء مجددًا الأم ذات الابن العقيم."

جلست آمالا في غرفة المعيشة. حملُها رفع قدرها، لذا أصبح بوسعها أن تجلس بكسل تنصت إلى الراديو، لم تعد مساعدةَ الماما الآن هي المرأةُ التي ستلد حفيد الماما. كان آجوو يراقبها من باب المطبخ. جيدٌ أن لم تختر مقعد السيد ذا المتكأين أو وسادة أولانا المفضلة لأنه كان سيطلب إليها أن تنهض عنهما. جلست وركبتاها ملتصقتان، وعيناها مثبتتان على كومة الجرائد على طاولة المنتصف، ووجها جامد. كان خطأ جسيمًا لشخص في ملابس غير مميزة ووشاح قطني حول جبهتها أن تكون في مكان مثل هذا. لم تكن جميلة ولا قبيحة؛ كانت تشبه العديد من النساء اللواتي كان يراهن يذهبن إلى النهر في قريته كلَّ صباح. لا شيء يميزها. وهو يراقبها، شعر آجوو فجأة بالغضب. لم يكن غضبه موجها لآمالا مع ذلك بالتحديد، لكن إلى أولانا. لم يكن عليها أن تهرب من بيتها الخاص لأن دواء الماما دفع السيد بين ذراعي هذه المرأة الشعبية. كان يجب أن تمكث وتبدي للماما وآمالا من هي السيدة هنا حقًّا.

كانت الأيام خانقة ومتشابهة، الماما تطهو حساءات قوية الرائحة تأكلها وحدها إذ أن السيد مقيم بالخارج وآمالا تشعر بالغثيان وآجوو مريض بالإسهال. لكن الماما لم يبد أنها مهتمة؛ كانت نشطة تطهو وتنظف وتبارك نفسها حينما نجحت أخيرًا في إشعال الموقد. "يومًا ما سيكون لي موقدي الخاص؛ أحفادي سيشترونه لي،" تقول وتضحك.

أخيرا قررتِ العودة إلى القرية بعد أكثر من أسبوع وقالت إنها سوف تترك آمالا. "أنت ترى كم هي متعبة." قالت للسيد. "أعدائي يودون إيذاء الحمل، لا يريدون أن يحمل أحد اسم عائلتنا، لكننا سوف نهزمهم."

"لابد أن تأخذيها معك،" قال السيد. كان ذلك بعد منتصف الليل. ظلت الماما يقظة حتى عاد السيد البيت وكان آجوو في المطبخ، نصف نعسان، ينتظر أن يغلق الأبواب.

"ألم تسمعني أقول إنها مريضة؟: قالت الماما. "من الأفضل لها أن تبقى هنا."

"سوف تعود الطبيب، لكن يجب أن تأخذيها معك."

"أنت ترفض الطفل وليس آمالا،" قالت الماما.

"يجب أن تأخذيها معك،" كرر السيد. "ربما تعود أولانا قريبًا، والأمور لن تستقيم في وجود آمالا هنا."

"هو طفلك،" قالت الماما وهي تهز رأسها بحزن، لكنها لم تجادل. "سوف أغادر غدًا لأنني يجب أن أحضر اجتماع أوميوادا. ثم أعود في نهاية الأسبوع لأطمئن عليها."

غادرت الماما بعد الظهر، وجد آجوو آمالا في حديقة الخضر، كانت جاثمة على الأرض وركبتاها مرفوعتان لأعلى، وذراعاها حول ساقيها. تمضغ فلفل.

"هل هو طيب؟" سأل آجوو. ربما كانت المرأة شخصًا روحيًّا وجاءت هنا لكي تمارس طقوسًا مع أوجبانجي.

لم تقل آمالا شيئًا لبرهة؛ تكلمت بالكاد حتى أن صوتها أدهش آجوو بكم هو طفوليٌّ وعال.

"الفلفل يمكن أن يزيل الحمل،" قالت.

"ماذا؟"

"لو أكلت كمية كبيرة من الفلفل الحار، يذهب الحمل." كانت جاثمة في الطمي مثل حيوان مثير للشفقة، تمضغ ببطء، والدموع تسيل على وجهها.

"قد لا يفعل الفلفل ذلك،" قال آجوو. لكنه تمنى أن تكون على حق، وأن يقدر الفلفل بالفعل أن يسقط الحمل وتعود حياته سيرتها الأولى: أولانا والسيد معًا بأمان.

"لو أكلتُ ما يكفي، يفعل،" قالت بإصرار، ومدت يدها لتتناول واحدة أخرى.

لم يشأ آجوو أن تأتي على الفلفل الذي زرعه بعناية من أجل حساء الخضر، لكن لو كانت على حق حول ماذا يصنع الفلفل، ربما كان يستحق الأمر أن يتركها تفعل. وجهها كان مصقولاً برذاذ الدمع والمخاط، وبين الحين والآخر تفتح فمها وتزج به قرنَ فلفل لتلهث مثل كلب. كان يود أن يسألها لماذا مضت في هذا مادامت لم ترد طفلاً. لقد ذهبت إلى غرفة السيد بنفسها، مع هذا، وبالتأكيد كانت تعرف خُطّة الماما؛ لكنه لم يكن يطلب صداقتها. فاستدار ورجع للداخل.

بعدما غادرت آمالا بأيام، جاءت أولانا. جلست على الأريكة منتصبة، ساقاها متقاطعتان كأنها ضيفةٌ غريبة، ورفضت تشين-تشين الذي أحضره لها آجوو في صحن.

"عدْ بها إلى المطبخ،" قالت لآجوو، في نفس الوقت الذي قال السيد، "اتركها على المائدة."

وقف آجوو حائرًا، حاملاً الصحن.

"خذه للمطبخ إذًا!" زعق السيد، كأنما كان آجوو مسؤولا عن التوتر الحادث في الغرفة. لم يغلق آجوو باب المطبخ، حتى يقف جواره وينصت، لكنه أيضًا كان يمكن أن يغلقه لأن صوت أولانا العالي كان مسموعًا بما يكفي. "إنه *أنتَ* وليس أمك. هذا حدث لأنك *أنتَ* سمحت له أن يحدث! لابد أن تتحمل المسؤولية."

أجفل آجوو، أن يتحول صوتٌ ناعم إلى شيء حادٍ هكذا.

"لستُ رجلاً مغازلاً عابثًا، وأنت تعلمين ذلك. لم يكن لهذا أن يحدث لولا تدخلت أمي!" كان على السيد أن يُخفض صوته؛ هو يعلم جيدًا أن المتسول لا يصرخ.

"هل أمك أخرجت قضيبك وأدخلته في آمالا أيضًا؟" سألت أولانا.

شعر آجوو بقرقرة مفاجئة سريعة في معدته وجرى إلى التواليت في مأوى الأولاد. حينما عاد، رأى أولانا واقفة جوار شجرة الليمون. بحث في وجهها ليعرف كيف انتهت المحادثة، لو كانت قد انتهت؛ ولماذا هي بالخارج هنا. لكنه لم يستنتج شيئًا من وجهها. كانت هنا خطوط حادة حول فمها وثقة ملساء في طريقة وقوفها، معتمرة باروكة جديدة جعلتها تبدو أكثر طولاً.

"تريدين أي شيء يا ماه؟" سأل.

مشت حتى تنظر إلى نبات آنارا. "تبدو هذه جيدة جدًا. هل تستخدم سمادًا؟"

"نعم يا ماه، من جومو."

"وفي الفلفل؟"

"نعم يا ماه."

استدارت لتغادر. كان مشجعًا أن يراها هناك بحذائها الأسود وفستان بطول الركبة. هي التي كانت دائمًا في عباءة وملابس بيت حينما تكون في الحديقة.

"ماه؟"

استدارت.

"لدي عمٌّ يتاجر في الشمال. كان الناس يغارون منه لأنه يؤدي عمله جيدًا. يومًا ما غسل ثيابه، وحينما جلبها من الشمس بعد جفافها، اكتشف أن أحدهم قد قص قطعة من كم القميص."

كانت أولانا تنظر إليه؛ شيءٌ ما بتعبيرها جعله يدرك أنها لن تكون صبورًا لتسمع أكثر.

"الشخص الذي قص القميص استخدمه ليعمل دواء مُضرًّا، لكنه لم ينجح لأن عمي أحرق القميص فورًا. في ذلك اليوم كان هناك ذباب كثير بالقرب من كوخه."

"عم تتحدث، بحق السماء؟" سألت أولانا بالإنجليزية. ولأنها نادرًا ما تتحدث معه بالإنجليزية بدا صوتها باردًا، بلا مشاعر.

"استخدمت الماما دواءً سيئًا مع سيدي يا ماه. شاهدتُ ذبابًا في المطبخ. شاهدتها تضع شيئًا في طعامه. ثم رأيتها تدهن شيئًا على جسد آمالا، أعرف أنه دواء استخدمته لكي تُغري سيدي."

"هراء،" قالت أولانا. خرجت الكلمة مثل الهسيس، هراء، وتقلصت معدة آجوو. كانت مختلفة؛ بشرتها وثيابها أكثر هشاشة. انحنت ونقرت بإصبعها حشرة نبات خضراء كانت قد علقت بفستانها قبل أن تمضي بعيدًا. لكنها لم تذهب حول المنزل، حيث جراج السيد الذي تركن فيه سيارتها. بدل من ذلك دخلت المنزل. تبعها داخلاً المطبخ، سمع صوتها من المكتب، تصرخ بسيل من الكلمات لم يستطع تبينها ولم يرد أن يتبينها. ثم ساد الصمت. ثم انفتاح وانغلاق غرفة النوم. انتظر قليلاً قبل أن يمشي على أطراف أصابعه عبر الممر ثم يلصق أذنيه على الباب. بدت مختلفة. كان معتادًا على أنينها الحنجري لكن ما يسمعه الآن كان لهاثًا آه-آه-آه، كأنما كانت تتهيأ لتنفجر، كأنما السيد كان يمتعها ويغضبها في نفس الوقت وهي تنتظر لترى أي قدر من المتعة سوف تأخذ قبل أن تثور. لكن، الأمل كان يتدفق داخل آجوو. سوف يطبخ أرز جولوف ممتازًا لوجبة صُلْحِهما.

فيما بعد، حينما سمع سيارتها تدور ورأى الأضواء الأمامية المبهرة جوار الشجيرات ذات الزهور البيضاء، فكر أنها ذاهبة لتجمع أشياءها من شقتها. جهز مقعدين للغداء لكنه لم يملأ الأطباق لأنه أراد الطعام دافئًا في الوعاء.

دخل السيد المطبخ. "هل تنوي أن تأكل وحدك اليوم يا رجلي الطيب؟"

"أنا أنتظر السيدة."

"جَهِّزْ طعامَي، *أوزيزو*!"

"حاضر يا صاح،" قال آجوو. "هل ستعود السيدةُ سريعًا من جديد يا صاح؟"

"جَهِّزْ طعامي!" كرر السيد.

وقفت أولانا في غرفة المعيشة الخاصة بريتشارد. خواءُ الغرفة البسيط جعلها عصبيةً؛ تمنت لو أن لديه لوحاتٍ أو كتبًا أو عرائسَ روسيةً لكي تنشغل بالنظر إليها. ليس سوى صورة صغيرة على الحائط لإناء ذي حبال من فن أيبو-أوكوا، كانت تحدّق فيها حينما جاء ريتشارد. نصف الابتسامة غير الواثقة على شفتيه ألانت وجهَه. كانت أحيانًا تنسى كم هو رجل وسيم، بشعره الناعم وعينيه الزرقاوين.

تكلمت فورًا. "مرحبًا ريتشارد." ودون أن تنتظر إجابته أو ذلك الهدوءَ المصاحبَ التحايا، أضافت: "هل رأيت كاينين في إجازة الأسبوع الماضي؟"

"لا، لا، لم أرها." عيناه تتجنبان عينيها، مثبتتان على باروكتها المصقولة. "كنتُ في لاجوس، مات السير وينستون تشرشل كما تعلمين."

"ما حدث كان شيئًا غبيًّا لكلينا،" قالت أولانا ولاحظت أن يديه ترتجفان.

أومأ ريتشارد. "نعم، نعم."

"كاينين لا تسامح بسهولة. يجب ألا تخبرها مطلقًا."

"طبعًا." توقف ريتشارد. "كانت لديك مشاكل عاطفية، ولم يكن يجب أن---"

"ما حدث كان خطأنا كلينا يا ريتشارد،" قالت أولانا، وفجأة شعرت بازدراء ليديه المرتعشتين وخجله الشاحب وتلك الرخاوة التي يضعها دون إحكام على حنجرته مثل رابطة العنق.

دخل هاريسون بصينية. "أحضرتُ الشراب يا صاح."

"شراب؟" استدار ريتشارد سريعًا، برعونة، فارتاحت أولانا أن لم يكن ثمة أشياء مزدحمة وإلا لتعثَّر بها. "أوه، لا، بالفعل. هل تريدين شيئًا؟"

"سأغادر،" قالت أولانا. "كيف حالك يا هاريسون؟"

"بخير يا سيدتي."

تبعها ريتشارد حتى الباب.

"أظن أننا يجب أن نُبقي الأمورَ طبيعيةً،" قالت، قبل أن تُسرع إلى سيارتها.

تساءلت إن كان يجب أن تكون أقلَّ تكلفًا وأن تعطي الفرصة لكليهما لحديث هادئ حول ما حدث. لكن هذا كان سيسفر عن لا شيء، وينقّب عن قذارة الأمس. كلاهما أراد لذلك أن يحدث وكلاهما تمنى لو لم يكن قد حدث؛ ما يهم الآن هو أن أحدًا لا يجب أبدًا أن يعرف.

أدهشت نفسها إذًا، حينما أخبرتْ أودينيبو. كانت راقدةً بينما هو جالس جوارها على السرير— راحت تفكر في غرفة النوم ذاتها الآن بوصفها غرفته بدلا من غرفتهما— وكانت المرة الثانية التي يناما فيها معًا منذ غادرت. كان يرجوها أن تعود للبيت.

"هيا نتزوج،" قال. "وقتها سوف تتركنا الماما لحالنا."
ربما نبرته المتأنقة تلك أو طريقته الفاضحة ليتجنب المسؤولية ليلوم أمه هي التي جعلت أولانا تقول: "نمتُ مع ريتشارد."
"لا." بدا أوديniبو متشكِّكا، يهز رأسه.
"بلا."
نهض وخطا نحو خزانة الملابس ونظر إليها، كأنما لا يقدر أن يظل جانبها تلك اللحظة لأنه خائف مما قد يفعله. خلع نظارته ومسح على الجسر فوق أنفه. جلست وأدركت أن انعدام الثقة سوف ينام دائمًا بينهما، وأن عدم التصديق سوف يبقى دائمًا مقترَحًا لديهما.
"هل لديكِ مشاعر نحو الرجل؟" سأل.
"لا،" قالت.
عاد وجلس جوارها. بدا ممزقًا بين أن يدفعها من على السرير وبين أن يجذبها نحوه، ثم نهض بحدة وفظاظة وغادر الغرفة. حينما طرقت فيما بعد غرفة المكتب لتخبره أنها مغادرة، لم يجبها.
عادت إلى شقتها وراحت تخطو هنا وهناك. لم يكن يجب أن تخبره عن ريتشارد. أو كان يجب أن تخبره أكثر: أنها ندمت على خيانتها كاينين وهو لكنها لم تندم على الفعل نفسه. كان يجب أن تقول إنه لم يكن انتقامًا خشنًا، أو تسجيلَ أهداف، إنما ردّ اعتبار معنوي انعتاقيّ لنفسها. كان يجب أن تقول إن الأنانية حرّرتها.
الطرق الصاخب على بابها في الصباح التالي ملأها بالراحة. هي وأودينيبو سوف يجلسان معًا ويتحدثان بهدوء، وهذه المرة سوف تتأكد أنهما لا يحاوران بعضهما دون نقاط التقاء. لكنه لم يكن أودينيبو بل إيدنا دخلت باكية، عينانها حمراوان متورمتان، لتخبرها أن البيض قد فجروا الكنيسة القبطية السوداء في بلدتها. وماتت أربع بنات. إحداهن كانت زميلة المدرسة لابنة أختها. "رأيتها حينما عدتُ إلى البلدة قبل ستة أشهر،" قالت إيدنا. "فقط قبل ستة أشهر رأيتها."
عملت أولانا الشاي وجلست جوارها، كتفاهما متماستان، بينما إيدنا تبكي بلهاث عنيف بدا مثل القهقهة. شعرها لم يكن مثل طبيعته مصقولاً بلمعان الزيت؛ بل بدا مثل رأس متلبد في مقشة قديمة.
"آه يا ربي،" كانت تقول بين نشيجها. "آه يا إلهي."
مدت أولانا يدها لتعصر ذراعها. عنفُ حزن إيدنا جعلها مسلوبة الإرادة، أجج رغبتها في أن تمدّ يدها داخل الماضي لتبدّل التاريخ. وفي الأخير، سقطت إيدنا في النوم. فوضعت أولانا بهدوء وسادة تحت رأسها وجلست تفكر في كيف أن حدثًا واحدًا يمكن أن يظلَّ يدوّي عبر الزمان والمكان ليترك لُطَخًا لا يمكن أن تتمحي. فكرت كيف أن الحياة سريعةُ الزوال، وفي أن التعاسةَ لا تُختار. يجب أن تنتقل إلى منزل أودينيبو.

- - - - - - - - -

تناولا الغذاء معًا صامتين في الليلة الأولى. كان مضْغُ أوديನيبو يوترها، وجنتاه المنتفختان وعملية الطحن بفكيّه. أكلت قليلاً ونظرت كثيرًا إلى صندوق كتبها في غرفة المعيشة. كان أودينيبو مستغرقا في تفصيص دجاجته من العظام، ثم أكل مرة واحدة كلَّ أرزه حتى صار صحنه نظيفًا. وحينما تكلم أخيرًا تحدث عن الفوضى في المنطقة الغربية.

"ما كان يجب أبدًا أن يعيدوا تنصيب رئيس الوزراء. لماذا هم مندهشون الآن لأن قُطّاع الطرق يحرقون السيارات ويقتلون الخصوم باسم الانتخابات؟ الوحشيون الفاسدون سوف يسلكون دائمًا كوحشيين فاسدين،" قال.

"كان وراءه رئيس الوزراء،" قالت أولانا.

"ساردونا هو المسؤول بالفعل. الرجل يحكم الدولة كأنها ضمن ممتلكاته الإسلامية الخاصة."

"هل سنستأنف محاولة إنجاب طفل؟"

من وراء عدستيه، بدا فزِعًا. "بالطبع،" قال. "أم لا؟"

لم تقل أولانا شيئًا. غمرها حزنٌ ضبابي، راحت تفكر في كيف سمحا لما يحدث بينهما أن يحدث. لكن ثمة إثارةً طازجة، في علاقة تقوم على أسس مختلفة. لن تكون وحيدة بعد الآن في كفاحها للحفاظ على ما يتشاركان فيه؛ سوف يشاركها. ثقته أصبحت مزعزعة.

دخل آجوو ليرفع المائدة.

"آتني ببعض البراندي يا رجلي الطيب،" قال أودينيبو.

"حاضر يا صاح."

انتظر أودينيبو آجوو حتى أحضر البراندي ثم غادر قبل أن يقول: "سألت ريتشارد أن يتوقف عن زيارتنا."

"ماذا حدث."

"رأيته في الطريق جوار مبني الكلية، وكان على وجهه تعبير بالفعل أزعجني، لذا تبعته حتى شارع إيموك وأخبرته بذلك."

"ماذا قلت له؟"

"لا أذكر."

"لا تريد أن تخبرني."

"لا أذكر."

"ألم يكن هناك شخص آخر؟"

"جاء خادمه."

جلسا على الأريكة في غرفة المعيشة. لم يكن لديه حق التحرش بريتشارد، أن يوجه غضبه إلى ريتشارد، لكنها تفهم لماذا فعل ذلك.

"أنا أبدًا لم أعاتب آمالا،" قالت. "إنه أنتَ من أعطيتُه ثقتي والطريق الوحيد التي يمكن لشخص غريب أن يعبث بهذه الثقة سيكون بموافقتك. لذلك عاتبتُك أنتَ فقط."

وضع أودينيبو يده على فخذه.

"يجب أن تكون غاضبًا مني، لا من ريتشارد،" قالت.

كان صامتًا لفترة طويلة حتى ظنت أنه لن يرد ثم قال: "أريد أن أكون غاضبًا منك."

مسّها عدم دفاعه. ركعت أمامه وفكت أزرار قميصه لترضع لحم بطنه المتماسك الناعم. شعرت بشهيق تنفسه حينما لمست سوستة بنطاله. في فمها، كان منتصبًا وجامدًا. أثارَها الوجعُ الخافت في فكِّها السفلي، وضغْطُ كفيه المبسوطتين على رأسها، وبعد ذلك قالت: "يا إلهي، لابد أن آجوو قد رآنا."

أخذها إلى غرفة النوم. خلعا ملابسهما صامتين ثم أخذا دشًّا معًا، ملتصقين معا في الحمام الضيق ثم تشبثا ببعضهما البعض في الفراش، جسداهما ما يزالان مبتلين وحركتهما بطيئة. أعجبتها الراحة في ضغط جسده فوق جسدها. نَفَسه له رائحة البراندي فأرادت أن تخبره كيف أن لقاءهما كان مثل الأيام القديمة من جديد، لكنها لم تقل لأنها كانت واثقة أنه يشعر بالمثل ولم تشأ أن تهدم الصمت الذي يوحدهما.

انتظرت حتى نام، ذراعه سقط من عليها، شخيره عال عبر شفتيه المفتوحتين، قبل أن تقوم لتحدث كاينين. لابد أن تتأكد أن ريتشارد لم يخبرها بشيء. هي بالطبع لا تظن أن زعيق أودينيبو قد يدفعه للاعتراف لكنها لم تكن واثقة تمام الثقة.

"كاينين، إنها أنا،" قالت حينما رفعت كاينين السماعة.

"*إيجيما م*،" قالت كاينين. لم تعد أولانا تذكر المرة الأخيرة التي نادتها فيها كاينين بـــ توأمتي. أشعرَها هذا بالدفء، كما أدفئها عدمُ تغير صوت كاينين، النبرة الجافة المؤكِدة على الحروف التي تحدثت بها مع أولانا كانت الأقل إزعاجًا.

"أردت أن أقول كيدو،" قالت أولانا.

"أنا بخير. هل تعرفين كم الوقت الآن؟"

"لم أنتبه أنه متأخر جدًّا."

"هل عدتِ لحبيبك الثوريّ؟"

"نعم."

"كان يجب أن تستمعي للماما وهي تتحدث عنه. لقد أعطاها الذخيرة التامة هذه المرة."

"لقد ارتكب خطأ،" قالت أولانا، ثم تمنت لو لم تقل لأنها لم تشأ أن تفكر كاينين أنها تعذر أودينيبو.

"أليس هذا ضدَّ عقيدة الشيوعية، تسبيب الحمل للنساء من الطبقات الأقل؟" سألت كاينين.
"سأحاول أن أنام."
كان هناك توقف طفيف، قبل أن تقول كاينين، بنبرة لطيفة: "*نجوانو*. تصبحين على خير."
وضعت أولانا سماعة الهاتف. كان يجب أن تعرف أن ريتشارد لن يخبر كاينين؛ علاقته بها يمكن ألا تنجو. وربما من الأفضل بالفعل ألا يزورهم في الأمسيات.
أنجبت آمالا طفلةً. كان يوم السبت وبينما أولانا تصنع فطيرة الموز مع آجوو في المطبخ، دق جرسُ الباب فعرفت على الفور أن رسالةً قد وصلت من الماما.
جاء أودينيبو إلى باب المطبخ، يداه خلف ظهره. "*أو مو نوانيا*،" قال بسرعة. "لقد أنجبتْ بالأمس طفلة."
لم ترفع أولانا بصرها عن الوعاء المملوء برقائق الموز لأنها لم ترد أن يرى وجهها. لم تكن تعرف كيف يبدو، وإذا ما كان بوسعه أن يقبض على الخلطة القاسية من المشاعر التي تلبستها، الرغبة في البكاء وفي أن تصفعه وفي أن تقوّي نفسها كلها في آن.
"يجب أن نذهب إلى إينجو هذا الأصيل لنتأكد أن كل شيء على ما يرام،" قالت بسرعة، ووقفت. "آجوو، من فضلك انهِ الطهو."
"حاضر يا ماه." كان آجوو يراقبها؛ شعرت بمسؤوليةِ مُمَثِّلةٍ تتوقع أسرتُها منها الأداءَ الأفضل.
"شكرًا يا نكيم،" قال أودينيبو. وضع ذراعيه حولها، لكنها أزاحته عنها.
"دعني آخذ حمامًا سريعًا."
في السيارة كانا صامتين. كان ينظر إليها كثيرًا، كأنما يود أن يقول شيئًا لكنه لا يعرف كيف يبدأ. أبقت عينيها صوب الأمام ورمقته مرة واحدة فقط، في اللحظة التي أدار فيها عجلة القيادة. كانت تشعر أنها متفوقة عليه روحيًّا. ربما كان زائفًا ودون قيمة أن تفكر أنها أفضل منه، لكنه كان السبيل الوحيد لكي تتزن أحاسيسها المتباينة، الآن وطفلته قد ولدت مع سيدة غريبة.
تكلم أخيرًا وهو يصفُّ السيارةَ أمام المستشفى.
"فيم تفكرين؟" سألها.
فتحت أولانا باب السيارة. "في ابنة خالي آريزي. إنها متزوجة من عام فقط وفقدت الأمل في الحمل."
لم يقل أودينيبو شيئًا. استقبلتهما الماما في مدخل العناية بالأمهات. كانت أولانا تتوقع أن ترقص الماما وتنظر إليها بعينين ساخرتين، لكن الوجه المجعد كان جامدًا، والابتسامة فيما تحتضن أودينيبو كانت مشدودة. روائحُ المستشفى الكيمائية كثيفةٌ في الهواء.
"ماما كيدو؟" سألت أولانا. أرادت أن تبدو متماسكة، لكي تقرر كيف ستسير الأمور.
"أنا بخير،" قالت الماما.

"أين الطفلة؟"

بدت الأم مندهشة من نشاطها. "في حضّانة الأطفال."

"هيا نرى آمالا أولاً،" قالت أولانا.

قادتهما الماما عبر عنبر المستشفى. كان السرير مغطىً بملاءة صفراء وآمالا ترقد وجهها إلى الحائط. جذبت أولانا عينيها بعيدًا عن الانتفاخ الصغير في بطنها؛ كان غير محتمل، فكرة أن طفلةَ أودينيبو كانت في هذا الجسد. ركزت بصرها على البسكويت، أنبوبة الجلوكوز، قارورة الماء على المائدة المجاورة.

"آمالا، لقد جاءا،" قالت الماما.

"مساء الخير، ننو،" قالت آمالا دون أن تدير وجهها لهم.

"كيف حالك؟" قال أودينيبو وأولانا تقريبًا في نفس الوقت.

همهمت آمالا بإجابة. وجهها ما يزال إلى الحائط. وفي الصمت الذي تلا ذلك، سمعت أولانا خطو أقدام في الردهة بالخارج. كانت تعرف أن هذا سوف يحدث من شهور، لكن نظرتها إلى آمالا جعلتها تشعر بخواء رمادي. جزء منها كان يرجو ألا يأتي ذلك اليوم أبدًا.

"هيا نرى الطفلة،" قالت. وبينما استدارت هي وأودينيبو ليغادرا، لاحظت أن آمالا لم تستدر، لم تتحرك، لم تفعل أي شيء يبدي أنها سمعت.

في حضّانة حديثي الولادة سألتهم ممرضةٌ أن ينتظروا على إحدى الأرائك المصفوفة جوار الحائط. استطاعت أولانا أن ترى عبر الحواجز الزجاجية الكثير من الأسرّة والكثير من الأطفال الباكين، فتصورت أن الممرضة لابد أن ترتبك وتحضر الطفلة الخطأ. لكنها كانت الطفلة الصحيحة؛ الرأس الممتلئ ذو الشعر الأسود نصف المموج والبشرة السوداء والعينان المتباعدتان لم تكن ليُخطأ بها. عمرها يومان فقط، وكانت تشبه أودينيبو.

همّت الممرضة أن تعطي الطفلة لأولانا، ملفوفة في بطانية صوفية بيضاء، لكنها أومأت لأودينيبو. "دعي أباها يحملها."

"تعلمين أن أمها رفضت أن تمسّها،" قالت الممرضة، وهي تناول الطفلة لأودينيبو.

"ماذا؟" سألت أولانا.

"لم تُرِد أن تمسها على الإطلاق. استخدمنا ممرضةً لإرضاعها."

رمقت أولانا أودينيبو، وهو يحمل الطفلة بين ذراعيه الممدودتين بعيدًا كأنما يخلقً بعض المسافة. كانت الممرضة على وشك أن تقول شيئًا آخر حينما جاء زوجان شابان فأسرعت إليهما.

"أخبرتني ماما قد توًّا،" قال أودينيبو. "قالت إن آمالا لن تحمل الطفلة."

لم تقل أولانا شيئًا.

"لابد أن أذهب لأرى الفاتورة،" قال. بدا كمن يعتذر.

مدت ذراعيها وبمجرد أن ناولها الطفلة، علت صرخةٌ عاليةُ النبرة. من عبر الغرفة، كانت الممرضة والزوجان ينظران فتأكدت أولانا أنهم يخمنون أنها لا تعرف ماذا تفعل بتلك الطفلة التي تعوي بين ذراعيها، لأنها لا تقدر أن تكون حاملاً.

"شش، شش، *أو* زوجو،" قالت وهي تشعر ببعض التهديد. لكن الفمَّ الصغير ظلَّ مفتوحًا وملويًّا، وكان الصراخ حادًّا جدًّا فتساءلت إن كانت قد آلمت الجسد الضئيل. وضعت أولانا إصبعها في قبضة الطفلة. وتوقف الصراخ بالتدريج لكن الفم الصغير ظلَّ مفتوحًا، يُظهر لثةً وردية، والعينان المستديرتان تنظران إليها. ضحكت أولانا. وجاءت الممرضة.

"حان الوقت لأخذها للداخل،" قالت. "كمْ طفلاً لديك؟"

"ليس لدي أطفال،" قالت أولانا، وهي مسرورة أن الممرضة افترضت أن لها أطفالاً.

عاد أودينيبو ومشيا إلى عنبر آمالا، حيث تجلس الماما على جانب السرير حاملة طاسة خزفية. "رفضت آمالا أن تأكل." قالت. "*جواكوا يا*. قل لها أن تأكل."

شعرت أولانا بعدم راحة أودينيبو قبل أن يتكلم في صوت عال جدًّا. "يجب أن تأكلي يا آمالا."

تمتمت آمالا بشيء. وأخيرًا أدارت وجهها نحوهم فنظرت إليها أولانا: فتاة قروية عادية مقوسة على السرير كأنما مرعوبة بأكثر ما في الحياة من رعب. لم تنظر إلى أودينيبو ولا مرة. لابد أن ما تشعر به تجاهه كان الخوف. سواء أمرتْها الماما أو لم تأمرها أن تذهب إلى غرفته، فإنها لم تقل لا لأودينيبو لأنها حتى لا تدرك أن بوسعها أن تقول لا. كان أودينيبو مخمورًا وهي استسلمت طواعية وبسرعة: كان هو السيد، هو يتكلم الإنجليزية، ولديه سيارة. هكذا كان يجب أن يكون.

"هل سمعتِ ماذا قال ابني؟" قالت الماما. "قال يجب أن تأكلي."

"لقد سمعت يا ماما." جلست آمالا وتناولت الصحن، وعيناها مركزتان على الأرض. كانت أولانا تراقبها. ربما كانت تشعر آمالا بالكراهية تجاه أودينيبو. كيف لنا أن نعرف المشاعر الحقيقية لدى أولئك الذين لا صوت لهم؟ مشت أولانا جوار آمالا، لكنها لم تعرف ماذا تريد أن تقول لذا التقطت قارورة الجلوكوز وفحصتها ثم وضعتها مكانها. مشت الماما وأودينيبو للخارج.

"سوف نغادر،" قالت أولانا.

"كوني بخير،" قالت آمالا.

أرادت أولانا أن تقول لها شيئًا لكنها لم تجد الكلمات، لذلك ربتت على كتف آمالا وغادرت العنبر. كان أودينيبو والماما يتحدثان جوار تانك المياه، لمدة طويلة حتى أن البعوض بدأ يلدغ أولانا وهي واقفة تنتظر، لذلك ركبت السيارة وضغطت على النفير.

"آسف،" قال أودينيبو، حينما دخل السيارة. لم يقل أي شيء عما تحدث بشأنه مع أمه حتى جاوزا بوابات حرم الجامعة في نسوكا، بعد ساعة.

"ماما لا تريد أن تُبقي الطفلة."

"هي لا تريد أن تُبقي الطفلة؟"

"لا."

كانت أولانا تعلم السبب. "كانت تريد ولدًا."

"نعم." رفع أودينيبو يدًا من على عجلة القيادة لكي يفتح النافذة المجاورة له. شعرت بسرور مُذنب لذلك التواضع الذي اعتمره منذ أنجبت آمالا. "اتفقنا أن تبقى الطفلة مع أهل آمالا. سوف أذهب إلى آبا الأسبوع القادم لأراهم ونناقش هذا ----"

"سوف نُبقيها،" قال أولانا. هي نفسها فزعت من كمّ الوضوح الذي أفصحت به عن رغبتها في الاحتفاظ بالطفلة وكيف شعرت بأنها على صواب. بدا كأنما ذلك هو ما أرادت أن تفعله دائمًا.

استدار إليها أودينيبو بعين واسعتين من وراء النظارة. كان يقود ببطء على مطب السرعة حتى أنها خافت أن تتعطل السيارة. "علاقتنا هي الأكثر أهمية بالنسبة لي يا نكيم،" قال بهدوء. "لابد أن نصنع القرار الأصح بالنسبة لنا."

"أنتَ لم تكن تفكر في صالحنا حينما جعلتها حاملاً." قالت أولانا، قبل أن تتمكن من منع نفسها؛ كرهت الخبثَ في نبرة صوتها، والامتعاضَ المتجدد الذي شعرت به.

صفّ أودينيبو السيارة في الجراج. وبدا متعبًا. "دعينا نفكر في هذا."

"سوف نربيها،" قالت أولانا بحزم.

هي قادرة على تربية طفل، طفله. سوف تشتري كتبًا عن الأمومة وتجلب مُرْضِعةً وتزيّن غرفة النوم. تقلبت على يمينها ويسارها تلك الليلة. لم تشعر بالأسف على الطفلة. بدلاً من ذلك، وهي تحمل ذلك الجسد الدافئ الضئيل، شعرت بلذة اكتشاف الأشياء النفسية الخبيئة، شيء لم يكن أبدًا مُخططًا له أن يحدث، في الدقيقة التي كان يجب أن يحدث فيها. لم تفكر أمها هكذا؛ صوتُ أمها عبر الهاتف في اليوم التالي كان غاضبًا، النبرة الجليلة التي يجب أن يُتحدث بها عن شخص ما كانت قد ماتت.

"نني، سوف تنجبين قريبًا طفلك الخاص. ليس صائبًا أن تربي طفلته من فتاة قروية حبَّلها بمجرد سفرك. الاضطلاعُ بتنشئة طفل عمليةٌ خطير جدًّا يا ابنتي، لكن في هذه الحال فهو شيء غير سليم."

أمسكت أولانا السماعة وشخصت في الزهور على مائدة المنتصف. سقطت زهرة؛ من المدهش أن آجوو قد نسي أن يزيلها. ثمة حقيقة في كلمات أمها، هي تعلم، لكن أيضًا تلك الطفلة تبدو ملامحها تمامًا كما تخيلت أن طفلتها من أودينيبو سوف تكون، بشعرها الكثيف والمسافة الواسعة بين العينين واللثة الوردية.

"أهلها سوف يسببون لك المتاعب،" قالت أمها. "المرأة نفسها سوف تسبب لك المتاعب."

"هي لا تريد الطفلة."

"إذن اتركيها مع أهلها. أرسلي لهم مصاريفها لكن اتركي الطفلة هناك."

تنهدت أولانا. "*آنيوجو م*، سوف أفكر في الأمر أكثر."

وضعت سماعة الهاتف ثم رفعتها ثانية وأعطت الموظفة رقم كاينين في بورت هاركورت.

بدت المرأة كسولا ــ جعلتها تعيد الرقم مرات عديدة وقهقهت قبل أن توصلها.

"يالكِ من نبيلة،" قالت كاينين حينما أخبرتها أولانا.

"أنا لا أسعى لأكون نبيلة."

"هل ستتبنينها رسميًّا؟"

"نعم، أظن ذلك."

"ماذا ستخبرينها؟"

"ماذا سأخبرها؟"

"نعم، حينما تكبر."

"الحقيقة: أن آمالا هي أمها. وسوف أجعلها تناديني ماما أولانا أو شيئًا كهذا، حتى إذا جاءت آمالا، سوف تكون مامي."

"أنت تفعلين ذلك لتسعدي حبيبك الثوريّ."

"لا."

"أنت دائمًا تسعدين الآخرين."

"أنا لا أفعل ذلك من أجله. هي ليست فكرته."

"لماذا تفعلين ذلك إذًا؟"

"لقد كانت لا حول لها. أعرف ذلك كأنما أعرفها."

لم تقل كاينين شيئًا لبرهة.

جذبت أولانا سلك الهاتف.

"أظن أن هذا قرار جسور جدًّا،" قالت كاينين أخيرًا.

ورغم أن أولانا سمعتها جيدًا، إلا أنها سألت: "ماذا تقولين؟"

"إنها جسارة منك أن تفعلي هذا."

مالت أولانا في مقعدها للوراء. استحسان كاينين، وهو الشيء الذي لم تشعره أبدًا من قبل، كان عذبًا على لسانها، كان دفقًا من الإمكانية، بشرى طيبة. وفجأة صار قرارها نهائيًّا؛ سوف تُحضر الطفلة إلى البيت.

"هل ستحضرين تعميدها؟" سألت أولانا.

"لم أزر الجحيم الغباريّ حتى الآن، لذلك، نعم، ربما أحضر."

وضعت أولانا السماعة وهي تبتسم.

أحضرت الماما الطفلة، ملفولة في شال بني له رائحة أوجيري غير الجميلة. جلست في غرفة المعيشة وراحت تهدهد الطفلة حتى جاءت أولانا. نهضت الماما وناولتها الطفلة.

"*نجوانا*. سوف أزوركم قريبًا،" قالت. بدت في عجلة غير مريحة، كأنما هي المنوط بها إنهاء كل مشاغل العالم.

بعدما غادرت، فحص آجوو الطفلة، كان تعبيره قلقًا قليلاً. "الماما تقول إن الطفلة تشبه أمها. إن أمها قد عادت."

"الناس متشابهون يا آجوو، هذا لا يعني أنهم يُستنسخون."

لكنهم يُستنسخون يا ماه. كلنا، سوف نعود من جديد."

لوَّحت له أولانا ليمضي. "اذهبْ والقِ بالشال في سلة المهملات. رائحته فظيعة."

كانت الطفلة تصرخ. هدأتها أولانا وحممتها في حوض صغير ورمقت الساعة وانتابها القلق من تأخر المرضعة، امرأة ضخمة وجدتها عمة آجوو. فيما بعد جاءت المرضعة ورضَّعت الطفلة من ثديها فنامت، نظر إليها أودينيبو وأولانا، وهي ترقد ووجهها لأعلى في سريرها الصغير جوار سريرهما. بشرتها كانت بنية مشعّة.

"لديها شعر غزير، مثلك،" قالت أولانا.

"سوف تنظرين إليها أحيانًا وتكرهينني."

هزت أولانا كتفيها. لم تشأ أن يفكر أنها تفعل ذلك من أجله، كأنما معروف له، لأن الأمر كان من أجلها هي أكثر منه من أجله.

"قال آجوو إن أمك ذهبت إلى ديبيا،" قالت.

"ماذا؟"

"يظن آجوو أن كل هذا قد حدث لأن أمك ذهبت إلى ديبيا فأغواك دواؤه للنوم مع آمالا."

ظلَّ أودينيبو صامتًا للحظة. "أظن أنها الطريقة الوحيدة التي يستطيع بها أن يدرك ما حدث."

"الدواء لابد أخرج رغبتك الذكورية، أليس كذلك؟" قالت. "هذا كله غير منطقي أبدًا."

"ليس أكثر انعدامًا للمنطق من إيمانكِ بالرب المسيح وأنت لم تريه."

كانت معتادة على سخريته المهذبة من خدماتها العامة في الكنيسة وكانت تقول له إنها حتى غير واثقة من إيمانها بالرب المسيح الذي لا يُمكن أن يُرى. لكن الآن، مع كائن بشريّ لا حيلة له يرقد في المهد، كائن معتمد على الآخرين كليًّا حيث وجودها يجب أن يكون دليلاً على قوة علوية، فالأمر قد تغير.

"أنا أؤمن،" قالت. "أؤمن برب طيب."

"أنا لا أؤمن بأي رب على الإطلاق."

"أعرف. أنت لا تؤمن بأي شيء."

"الحب،" قال، وهو ينظر إليها. "أؤمن بالحب."

"لم تكن تقصد أن تضحك، لكن ضحكتها انطلقت رغم ذلك. ودت أن تقول إن الحب أيضا غير منطقي. "لابد أن نفكر في اسم،" قالت.

"ماما أسمتها أوبياجلي."

"لا يمكن أن ندعوها هكذا." لا يمكن للماما أن تسمي طفلة رفضتها. "سوف ندعوها "بيبي" مؤقتًا حتى نجد لها اسما مناسبا. اقترحت كاينين "تشيمانكا". دائمًا ما أحببت هذا الاسم: الربُّ جميل. كاينين سوف تكون أمها الروحية في التعميد. يجب أن أذهب وأرى الأب داميان من أجل تعميدها." كانت ستذهب للتسوق في كينجزواي. وسوف تطلب باروكة جديدة من لندن. شعرت بدوار.

اهتاجت بيبي وشعرت أولانا بموجة من الخوف. نظرت إلى الشعر المتلألئ بقطرات زيت بيرلز وفكرت ما إذا كانت ستقدر بالفعل أن تفعلها، إذا كانت ستقدر أن ترفع الطفلة. كانت تعلم أن هذا طبيعي، الطريقة التي تتنفس بها الطفلة كانت متسارعة، كأنما تلهث في نومها، ولكن حتى ذلك أقلقها. المرات الأولى القليلة التي هاتفت فيها كاينين هذا المساء، لم يكن هناك رد. ربما كانت كاينين في لاجوس. اتصلت مرة أخرى في الليل ولما قالت كاينين: "هاللو،" بدت فظة.

"*إيجيما م*،: قالت أولانا. "هل لديك برد؟"

"ضاجعتِ ريتشارد."

نهضت أولانا.

"أنت محترمة جدًّا." صوت كاينين كان مسيطرًا عليه. "المحترمة لا تضاجع حبيب شقيقتها."

سقطت أولانا وغرقت في الوسادة وأدركت أن ما شعرت به كان راحةً. كاينين قد عرفت. ولم يعد عليها بعد ذلك القلق من أن تعرف. هي الآن حرة لتشعر بندم حقيقي.

"كان يجب أن أخبرك يا كاينين." قالت. "هذا لم يكن يعني أي شيء."

"بالطبع لا يعني شيئًا. كانت وحسب مضاجعة حبيبي في النهاية."

"لم تكن تعني ذلك." شعرت أولانا بالدموع في عينيها. "كاينين، أنا آسفة."

"لماذا فعلتِ ذلك؟" بدت كاينين هادئة على نحو مخيف. "أنت الفاضلةُ والمُفضّلةُ والجميلةُ والثوريةُ الأفريقية التي لا تحب الرجالَ البيض، وأنت ببساطة لا تحتاجين أن تضاجعيه. لذا لماذا فعلتِ ذلك؟"

راحت أولانا تتنفس ببطء. "لا أعرف يا كاينين، كان شيئًا لم أخطط له. أنا آسفة جدًّا. هذا لا يمكن غفرانه."

"هذا لا يمكن غفرانه،" قالت كاينين وأغلقت الخط.

وضعت أولانا السماعة وشعرت بتصدّع حاد داخلها. هي تعرف توأمتها جيدًا، تعرف كم هي كاينين حادة في جرحها.

أراد ريتشارد أن يضرب هاريسون بالعصا. كانت هذه الفكرة ترعبه دائمًا، فكرة أن رجالاً استعماريين بيضًا يجلدون خدمًا كبارًا سودًا. والآن، رغم ذلك، شعر برغبة في أن يفعل كما كانوا يفعلون. تاق إلى أن يجعل هاريسون يرقد على بطنه ويجلده، يجلده، يجلده حتى يتعلم الرجل أن يُبقى فمه مغلقًا. لو فقط لم يحضر هاريسون معه إلى بورت هاركورت. لكنه كان سيقضي الأسبوع كله ولم يشأ أن يتركه وحيدًا في نسوكا. في اليوم الأول لوصولهما، طبخ هاريسون، كأنما ليعدل زيارته، وجبة معقدة: بازلاء وحساء مشروم، وخليط بوبو، ودجاجة بصوص الكريمة مرشوشة بالخضر، وكعكة ليمون مثل البودينج.

"هذا ممتاز يا هاريسون،" قالت كاينين، ونظرة غيظ في عينيها. كانت في مزاج جيد؛ كانت قد جذبت ريتشارد بين ذراعيها بعد وصوله ورقصت معه فوق أرضية غرفة المعيشة المصقولة.

"شكرًا يا سيدتي." انحنى هاريسون.

"وهل تطهو هذا في بيتك؟"

بدا هاريسون مجروحًا. "أنا لا أطهو في بيتي يا سيدتي. زوجتي تطهو أكلات شعبية."

"بالطبع."

"أنا أطهو أي صنف من الأطعمة الأوروبية، أي شيء يأكله سيدي في بلاده."

"لابد أنك تجد صعوبة في أكل الطعام الشعبي حينما تعود إلى بلدتك إذًا." أكدت كاينين على كلمة شعبي، وكتم ريتشارد ضحكته.

"نعم يا سيدتي." انحنى ريتشارد ثانية. "لكن يجب أن أساير."

"هذه التورتة أفضل من تلك التي كانت المرة الماضية حينما كنتُ في لندن."

"شكرًا يا سيدتي." ابتسم هاريسون. "سيدي يخبرني أن كل من بمنزل مستر أودينيبو يقولون نفس الشيء. اعتدت أن أصنعها لسيدي ليأخذها معه هناك، لكنني لم أعد أصنع أي شيء بعد ذلك لمنزل مستر أودينيبو منذ ذلك الوقت التي صرخ فيه في وجه سيدي. كان يصرخ مثل رجل مجنون وكل الشارع كان يستمع. رأس الرجل ليست سليمة."

استدارت كاينين إلى ريتشارد ورفعت حاجبيها. صَدم ريتشارد كأس الماء وقلبه.

"سأحضر خرقة يا صاح،" قال هاريسون، وكبح ريتشارد نفسه من أن يثب عليه ويخنقه.

"ما الذي يتحدث عنه هاريسون؟" سألت كاينين، بعدما تم تنظيف الماء. "صرخ الثوريّ في وجهك؟"

كان بوسعه أن يكذب. حتى هاريسون نفسه لم يكن يعرف لماذا اقتحم أودينيبو البيت ذلك المساء وصرخ فيه. لكنه لم يكذب، لأنه خاف أن يخفق في الكذب وفي الأخير يضطر أن

يقول الحقيقة وبهذه الطريقة تتضاعف الخسائر. لذا أخبرها بكل شيء. أخبرها عن الخمر الذي شربه هو وأولانا وكيف أنه بعد ذلك غمره الندم.

دفعت كاينين صحنها بعيدًا وجلست ومرفقاها على المائدة، ذقنها مسنودٌ بقوة على كفيها المقبوضتين. لم تقل شيئًا لدقائق طويلة عديدة. وهو لم يقدر أن يقرأ التعبير في وجهها.

"آمل ألا تقول لي سامحيني،" قالت أخيرًا. "فلا شيء أكثر ابتذالاً من ذلك."

"أرجوكِ ألا تطلبي مني أن أغادر."

بدت مندهشة. "تغادر؟ هذا سيكون سهلاً جدًّا، أليس كذلك؟"

"أنا آسف يا كاينين."

شعر ريتشارد بأنه شفاف؛ كانت تنظر إليه لكنه شعر أن بوسعها أن ترى اللوحة النحتية الخشبية المعلقة وراءه. "إذًا كنتَ تشتهي شقيقتي. كم هذا وقح،" قالت.

"كاينين،" قال.

نهضت. "إيكيجيدي!" نادت. "تعال ونظف هذا المكان."

كانا يغادران غرفة الطعام حينما رن الهاتف. تجاهلته. رن ثانيةً وثانيةً وأخيرًا ذهبت إليه.

عادت إلى غرفة النوم وقالت: "كانت أولانا."

نظر إليها ريتشارد، عيناه تُقرّان بالذنب.

"كان يمكن أن أسامح لو كانت أية امرأة أخرى. ليس شقيقتي،" قالت.

"أنا آسف."

"عليك أن تنام في غرفة الضيوف."

"حاضر، حاضر بالطبع."

لم يكن يعرف فيما تفكر. أكثر ما كان يرعبه أنه لم يكن يعرف فيما تفكر. ربت على وسادته ورتب بطانيته وجلس في السرير يحاول أن يقرأ. لكن ذهنه كان نشطا جدًّا لكي يُبقى جسده ساكنًا. خاف أن تكلم كاينين مادو وتخبره بما حدث، سوف يضحك مادو ويقول: "كان خطأ منذ البداية، اتركيه، اتركيه، اتركيه،" وأخيرًا، قبل أن يسقط في النوم، جاءته كلمات موليير، على نحو غريب ومريح: "*السعادةُ غير المكسورة هي ضجرٌ؛ لابد أن يكون بها مرتفعات ومنخفضات*.

في الصباح حيته كاينين بوجه الرواقيين الذي يتحمل الألم دون إفصاح.

كان المطر غزيرًا على السطح والسماء الملبدة كست غرفة الطعام بلون الشحوب. جلست كاينين تحتسي كوبًا من الشاي وتقرأ الجريدة والضوء مضاء.

"يصنع هاريسون بعض الفطائر،" قالت، واستدارات من جديد للجريدة. جلس ريتشارد قبالتها، لا يعرف ماذا يفعل، شاعرٌ جدًّا بالذنب حتى لأن يصب لنفسه بعض الشاي. صمتُها والصخبُ والروائحُ الآتيةُ من المطبخ جعلته يشعر بالعزلة.

"كاينين،" قال. "هل يمكن أن نتكلم من فضلك؟"

نظرت إليه، ولاحظ، أولا، أن عينيها منتفختان وفجّتان، وبعد ذلك رأى فيهما غضب الجرح.

"سوف نتكلم حينما أود الكلام يا ريتشارد."

أطرق برأسه، مثل طفل وُبِّخ، وشعر من جديد بالخوف من أن تقول له أن يخرج من حياتها للأبد.

دق جرس الباب قبل الظهر، وحينما جاء إيكيدجيدي ليقول إن شقيقة سيدته على الباب، ظن ريتشارد أن كاينين ستطلب إليه أن يغلق الباب في وجهها. لكنها لم تفعل. بل سألته أن يقدم المشروبات ويذهب للأسفل إلى غرفة المعيشة ومن مكانه بالدور العلوي حيث يقف، حاول ريتشارد أن يستمع لما يُقال. سمع صوت أولانا الباكي لكنه لم يقدر أن يفهم ماذا كانت تقول. تكلم أودينيبو باقتضاب، بصوت كان على غير العادة هادئ. ثم سمع ريتشارد صوت كاينين، واضحًا، وحادًّا. "من الغباء انتظار أن أصفح."

صمت قليل ثم صوت الباب يُفتح. أسرع ريتشارد إلى النافذة ليرى سيارة أودينيبو مصفوفة أمام البيت، نفس الأوبل الزرقاء التي اصطفت أمام بيته في شارع إيموك قبل انفجار أودينيبو فيه، انفجار رجل ضخم في ملابس جيدة الكيّ: "أريدك أن تبقى بعيدًا عن بيتي! هل تفهمني؟ ابقَ بعيدًا! لا تأتِ إلى بيتي مرةً أخرى!" كان يقف أمام الفيراندا وتساءل ما إذا كان أودينيبو سوف يلكمه. فيما بعد أدرك أن أودينيبو لم ينوِ أن يلكمه، ربما لم يره يستحق أن يُلكم، وأحبطته الفكرة.

"هل كنت تسترق السمع؟" سألت كاينين، وهي تدخل الغرفة. استدار ريتشارد بعيدًا عن النافذة، لكنها لم تنتظر رده قبل أن تضيف بهدوء: "لقد نسيتُ كم كان يبدو الثوريُّ كمصارع، بالفعل— بل رجل ذو صفاء."

"سوف لن أغفر لنفسي أبدًا لو فقدتك يا كاينين."

كان وجهها دون تعبير. "أخذتُ مخطوطتَك من غرفة المكتب هذا الصباح وأحرقتُها،" قالت.

شعر ريتشارد بمرارة في صدره جراء مشاعر لم يستطع تسميتها. "سلالُ الأيدي،" مجموعة الأوراق التي أخيرًا كان واثقًا في أنها ستصبح كتابًا، قد ذهبت. لم يستطع أبدًا أن يستنسخ الطاقة الجَموح التي جاءت مع الكلمات. لكن هذا لا يهم. الذي يهم أنه مع حرق مخطوطته قد أظهرت له أنها لن تُنهي العلاقة؛ هي لم تكن لتعبأ أن تسبب له ألمًا لو لم تكن تنوي الاستمرار. ربما لم يكن كاتبًا حقيقيًّا في النهاية. كان قد قرأ ذلك في مكان ما، بالنسبة للكتّاب الحقيقيين لم يكن هناك شيء أهم من فنهم، حتى الحب.

6. الكتاب: كان العالمُ صامتًا حينما كُنّا نموت

يكتبُ عن العالم الذي ظلَّ ساكنًا بينما يموت البيافريون. يجادل أن بريطانيا كانت مُلهمةَ هذا الصمت. السلاح والنصيحة التي أعطتها بريطانيا لنيجيريا وجّهتِ البلدانَ الأخرى. في الولايات المتحدة، كانت بيافرا "تحت دائرة الاهتمام البريطانية". في كندا، قال رئيس الوزراء نكتة "أين تقع بيافرا؟" الاتحاد السوفيتي أرسل التقنيين والخطط إلى نيجيريا، مدفوعة برغبة النفوذ في أفريقيا دون إيذاء أمريكا أو بريطانيا. وعبر موقعهم العنصري الأبيض، كان جنوب أفريقيا وروديسيا ينظران بفرح إلى الدليل الوشيك على أن الحكومات السوداء الحالية تسقط في هوّة الفشل.

الصين الشيوعية كانت تنتقد علانية الاستعمار الأنجلو-أمريكي-سوفيتي لكنها قدمت أقل الدعم لبيافرا. فرنسا باعت لبيافرا بعض الأسلحة لكنها لم تمنحها الاعتراف الذي هو أكثر ما تحتاجه بيافرا. والعديد من الدول الأفريقية السوداء كانت تخشى أن بيافرا قد تقدح زناد الحرب ضد أجزاء أخرى ولذا ساندت نيجيريا.

الجزء الرابع

أواخرُ الستينيات

كانت أولانا تقفز في كل مرة تسمع فيها الرعد. تتخيّله غارةً جوية أخرى، قنابلَ تتدحرج من الطائرة وتفجّرُ البنايةَ أمامها وأمام أودينيبو وبيبي وآجوو قبل أن يتمكنوا من الوصول إلى المخبأ في الشارع. أحيانًا تتصور المخبأ نفسه ينهدم، ويسحقهم جميعًا داخل الطمي. بناه أودينيبو وبعض رجال الجيرة في أسبوع؛ بعدما حفروا حفرةً، باتساع قاعة، وبعدما سقّفوه بطبقات الطمي وجذوع النخيل، أخبرها: "نحن الآن في أمان يا نكيم. نحن آمنون." ولكن المرة الأولى التي علَّمها فيها كيف تنزل درجات السلم المتعرج، رأت أولانا ثعبانًا ملتفًّا في الركن. جلدُه أسود مبقَّع بعلامات فضية وشواربُ صغيرةٌ تتحرك هنا وهناك، في صمت ما تحت الأرض الرطب الذي جعلها تفكر في القبر، فصرخت.

ضرب أودينيبو رأسَ الثعبان بعصا وأخبرها أنه سيتأكد أن لوح الزنك في مدخل المخبأ أكثر إحكامًا. أثارها هدوؤه. نبرته الهادئة التي استخدمها ليواجه عالمهم الجديد، وظروفهم المتغيرة، أهاجتها. حينما غيّر النيجيريون عُملتهم وأعلن بسرعة راديو بيافرا العمل الجديدة أيضًا، وقفت أولانا ساعات في طابور البنك، تتفادى الرجال المزاحمين وتدفع النساء، حتى غيرت نقودها النيجيرية إلى جنيهات بيافرية أجمل. فيما بعد، أثناء الفطور، أمسكت بالمظروف متوسط الحجم من أوراق البنكنوت وقالت: "هذا كل ما نملك من سيولة."

بدا أودينيبو مسرورًا. "كلانا يكسبُ مالاً يا نكيم."

"هذا هو الشهر الثاني الذي تؤخر فيه المديريةُ راتبَك،" قالت، ووضعت كيس الشاي في صحن فنجانها. "ولا تقدر أن تسمي ما يعطونه لي في أكواكوما كسبًا للمال."

"سوف نسترد حياتَنا قريبًا، في بيافرا الحرة،" قال، وكلماته المعتادة تصطفُّ في تأكيده الحاسم، ثم ارتشف شايه.

وضعت أولانا فنجانها جوار وجنتها لتدفئه، ولكي تؤجل أول رشفة من الشاي الخفيف المصنوع من كيس شاي مستعمل. حينما نهض وقبَّلها قبلةَ الخروج، تساءلت كيف أنه غير مرتعب من قِلّة ما يملكون. ربما لأنه لا يذهب إلى السوق بنفسه. لم يكن يعرف كيف تزيد علبة الملح شلنًا كلَّ أسبوع وكيف أن الدجاجة المقطعة شرائح رقيقة تتكلف كثيرًا جدًّا وكيف أن لا أحد عاد يبيع الأرز في أكياس كبيرة لأن لا أحد بوسعه أن يشتريها. تلك الليلة كانت صامتة وهو يواصل قواه الدافعة التي تزداد اطرادًا. كانت المرة الأولى التي تشعر فيها بانفصالها عن أودينيبو، حينما كان يتمتم في أذنها كانت تتفجع على مالها في بنك لاجوس.

"نكيم؟ هل أنت بخير؟" سألها، رفع نفسه لينظر إليها.

"نعم."

مصَّ شفتها السفلى قبل أن يتدحرج عنها ويغرق في النوم. لم تجد من قبل أبدًا شخيره مزعجًا. كان متعبًا. المشي الطويل إلى مديرية مانباور، أجهده العمل الممل البلا عقل في تجميع الأسماء والعناوين يومًا بعد يوم، كانت تعرف، لكنه كان يعود البيت كل يوم بعينين مشرقتين. كان قد انضم إلى هيئة الدعاة للفكر العام؛ بعد العمل، حيث يقومون بتعليم الناس. كانت تتخيله دائمًا واقفًا في منتصف حشد من القرويين، يتكلم في ذلك الصوت الأجش عن أمة بيافرا العظيمة وشيكة القيام. عيناه تريان المستقبل. ولذلك لم تخبره أنها تتأسى على الماضي، أشياء مختلفة في أيام مختلفة، مفارش الطاولة المطرزة بالفضة، سيارتها، بسكويت كريمة الفراولة الخاصة بببيي. لم تخبره أنها أحيانًا وهي تنظر إلى ببيي فيما تركض هنا وهناك مع أطفال الجيران، لا حول لها ولا قوة وسعيدة، تود أن تضم ببيي إلى حضنها وتعتذر. لكن ببيي لن تفهم.

منذ أخبرها مستر موكيلو، الذي يدرّس في المدرسة الابتدائية في أكواكوما، عن الأطفال الذين يزّج بهم الجنود بالقوة في الشاحنة ويعودون في الليل بأكفهم مخدوشةَ الجلد نازفةً من طحن الحبوب، كانت تسأل آجوو ألا يدع ببيي أبدًا بعيدًا عن ناظريه. لم تظن أبدًا أن الجنود يمكن أن يستفيدوا بطفلة صغيرة مثل ببيي. لكنها كانت تقلق من الغارات الجوية. كان لديها حلم متكرر: أنها نسيت ببيي وجرت إلى المخبأ وبعدما سقطت القنابل، تعثرت بجثة طفلة محروقة مسوّدة حتى أنها لم تحدد أكانت ملامح ببيي أم لا. اقتنصها الحلم. فكانت تمرّن ببيي على الركض إلى المخبأ. وطلبت إلى آجوو أن يتمرن على حمل ببيي والركض بها. ثم علمت ببيي كيف تتخذ حمايةً لها إذا لم يكن هناك وقت للركض— أن ترقد مستقيمة على بطنها، ويداها معقودتان على رأسها.

مع هذا مازالت قلقة بأنها لم تفعل ما يكفي وأن الحلم يشهد بأنها أهملتها بما قد يؤذي ببيي. حينما بدأ ينحسر موسم المطر، وبدأت ببيي تسعل، شعرت أولانا بالراحة. شيء ما قد حدث لببيي. إذا ما كانت السماء عادلةً، فإن كوارث وقت الحرب يجب أن تكون حصرية؛ وبما أن ببيي مريضة، لا يمكن أن تُؤذى بغارة جوية. السعال كان شيئًا تقدر أولانا أن تعامل معه، الغارة الجوية لا.

أخذت ببيي إلى مستشفى ألباتروس. أزاح آجوو سعف النخيل المتكوم على سيارة أوديناببو، لكن كل مرة تحاول إدارة المفتاح، يزأر المحرك ثم يخمد. وفي الأخير دفعها آجوو حتى دار المحرك. سارت ببطء وضغطت على الفرامل حين بدأت ببيي في السعال. وعند نقطة التفتيش، حيث جزع شجرة ضخم موضوع بعرض الطريق، أخبرت الدفاع المدني أن طفلتها مريضة جدًّا فقالوا آسفين ولم يفتشوا السيارة ولا حقيبة يدها. ممر المستشفى المعتم كان يفوح برائحة البول والبنسلين. تجلس النساء وأطفالهن على حجورهن، أو واقفات وأطفالهن على مؤخراتهن، وتختلط ثرثرتهن مع بكاء الأطفال. تذكرت أولانا د. نوالا في

حفل الزفاف. بالكاد لاحظته عندما بعد القصف حيث قال لها: "الطمي سوف يبقع فستانك،" ثم ساعدها أن تقف، بينما قميص أوكيوما ملفوف حولها.

أخبرت الممرضات أنها زميلة قديمة له.

"إنه أمر عاجل للغاية،" قالت، وحافظت على لكنتها الإنجليزية حادةً ورأسها مرفوعًا. دلتها الممرضة في الحال على مكتبه. فلعنت إحدى النساء الجالسات في الردهة. "*توفياكوا!* نحن ننتظر من الفجر! هل لأننا لا نتكلم من أنوفنا مثل الناس البيض؟"

رفع دكتور نوالا جسده الرشيق من مقعده وجاء ليصافح يدها. "أولانا،" قال وهو ينظر داخل عينيها.

"كيف حالك يا دكتور؟"

"نحاول،" قال، وربت على كتف بيبي. "كيف حالك؟"

"جيدة جدًّا. زارنا أوكيوما الأسبوع الماضي."

"نعم، مكث معي يومًا." كان يحدثها، لكنها شعرت أنه لا ينصت، كأنما لم يكن هناك. بدا تائها.

"بيبي تسعل منذ عدة أيام،" قالت أولانا بصوت مرتفع.

"أوه." استدار إلى بيبي. وضع السماعة على صدرها وتمتم وهي تسعل. حينما مشى إلى الخزانة ليبحث بين قوارير الدواء شعرت أولانا بالأسف عليه ولم تعرف لماذا. استغرق وقتًا طويلاً جدًّا في النظر إلى أشياء قليلة جدًّا.

"سأعطيك شرابًا للسعال، لكنها تحتاج كذلك إلى مضاد حيوي لكنه للأسف نفد من عندنا." قال وهو يشخص فيها من جديد، بهذه الطريقة الغريبة التي تربط عينيه بعينيها. تعبير وجهه كان مليئًا بالتعب الحزين. وتساءلت أولانا إن كان قد فقدَ مؤخرًا شخصًا يحبه.

"سأكتب لها دواء حاولي أن تجديه عند هؤلاء التجار، لكن عليك بالطبع أن تجدي شخصًا يُعتمد عليه."

"بالطبع،" كررت أولانا. "لدي صديقة، مسز موكيلو، بوسعها أن تساعد."

"حسن جدًّا."

"لابد أن تأتي لزيارتنا عندما يتوفر لك الوقت،" قالت أولانا وهي تنهض.

"حاضر." أخذ يدها في يده لبرهة طويلة بعض الشيء.

"شكرًا يا دكتور."

"على ماذا؟ لم أقدر أن أفعل الكثير." أومأ إلى الباب، وفهمت أولانا أنه يقصد النسوة الجالسات بالخارج. وهي تغادر، رمقتْ خزانة الدواء شبه الخاوية.

في الصباح مرّت أولانا على ميدان البلدة في طريقها إلى مدرسة أكواكوما الابتدائية. دائمًا ما كانت تفعل ذلك في الأماكن المفتوحة، تجري حتى تصل إلى الظلال الكثيفة للشجر التي تؤمِّن غطاء جيدًا حال غارة جوية. بعض الأطفال كانوا واقفين تحت شجرة مانجو في حرم المدرسة، يقذفون الأحجار إلى الثمار. صرخت فيهم: "اذهبوا إلى فصولكم، *أوزيزو*!" فتفرقوا لبرهة قبل أن يعودوا من جديد ليتصيدوا المانجو. سمعت هتافًا حينما سقطت واحدة، ثم علتِ الأصواتُ وهم يتعاركون حول مَن الذي قذف الثمرة التي سقطت.

كانت مسز موكيلو أمام فصلها تدق الجرس. الشعر الأسود الكثيف في ذراعيها وساقيها، الزغب في شفتها العليا، الخطوط المجعدة في ذقنها، أطرافها القصيرة الذكورية، عادة ما تجعل أولانا تتساءل ما إذا كان من الأفضل لمسز موكيلو أن تولد ذكرًا.

"هل تعرفين من أين أقدر أن أشتري مضادًّا حيويًّا؟" سألت أولانا، بعد العناق. "بيبي تسعل، وفي المستشفى ليس لديهم مضاد حيوي."

تمتمت مسز موكيلو لبرهة لتُظهر أنها تفكر. كان وجه سعادته يسطع على نسيج كوفيتها التي ترتديها كل يوم؛ وكانت عادة ما تعلن أنها لن تلبس شيئًا آخر حتى تستقر حال بيافرا تمامًا.

"أي أحد يقدر أن يبيع دواء، لكنك لا تعرفين مَن يمزج الطباشير في فنائه الخلفي ويسميه نيافاكوين،" قالت. "أعطيني النقود وسوف أذهب إلى الماما أونيستاشا. هي شخص موثوق به. سوف تبيعك بنطال جوون القذر إذا دفعت السعر المناسب."

"دعيها تحتفظ بالبنطال وتعطيني الدواء وحسب." كانت أولانا تضحك.

ابتسمت مسز موكيلو والتقطت الجرس. "رأيت رؤيا بالأمس،" قالت. كوفيتها كانت طويلة جدًّا على جسدها القصير؛ كانت تهبط حتى الأرض وخشت أولانا أن تتكعبل بها وتسقط.

"ماذا كانت الرؤية؟" سألت أولانا. دائمًا لدى مسز موكيلو رؤى. في الأخيرة، كانت قد رأت أوجوكوا شخصيًّا يقود المعركة في قطاع أوجوجا، ما يعني أن العدو كان قد سُحق هناك على بكرة أبيه.

"المقاتلون التقليديون من آبيريبا مانوا يستخدمون السهام والأقواس فيأتون على الهمجيين في قطاع كالابار. *آي ماكوا*، كان الأطفال يسيرون فوق عظامهم ليذهبوا إلى النهر."

"حقًّا،" قالت أولانا، وحافظت على وجهها جادًّا.

"هذا يعني أن كالابار لن تسقط أبدًا،" قالت مسز موكيلو، وراحت تدق الجرس. لاحظت أولانا الحركة السريعة للذراع الذكوري. بالفعل كلتاهما لا تشتركان في شيء، هي وهذه المتعلمة بالكاد، المعلِّمة في مدرسة ابتدائية من إيزويل وتؤمن بالرؤيا. لكن مسز موكيلو كانت دائمًا تبدو مألوفة. ليس لأنها تضفر شعرها وتذهب معها إلى اجتماعات الخدمة

التطوعية النسائية وتعلّم كيفية الحفاظ على الخضروات، بل لأن مسز موكليو كانت تتضح بعدم الخوف، عدم الخوف الذي ذكّر أولانا بكاينين.

في هذا المساء، حينما أحضرت مسز موكيلو أقراص المضاد الحيوي ملفوفة في ورقة جريدة، سألتها أولانا أن تدخل وأرتها صورة لكاينين، جالسةً جوار حوض السباحة وسيجارة بين شفتيها.

"هذه شقيقتي التوأم. تعيش في بورت هاركورت."

"توأمتك!" استفسرت مسز موكيلو، وهي تداعب بأصابعها نصف الشمس الصفراء البلاستيكية التي تعلقها حول رقبتها بحبل. "العجائب لن تتوقف أبدًا. لم أكن أعرف أن لك توأما، و، نيكين، هي لا تشبهك أبدًا."

"لنا نفس الفم،" قالت أولانا.

رمقت مسز موكيلو الصورة من جديد وهزت رأسها.

"هي لا تشبهك على الإطلاق،" كررت.

المضاد الحيوي صفّر عيني بيبي. تحسنّ سعالها، أمسى أقلَّ خروجًا من الصدر وأقلَّ صفيرًا، لكن شهيتها للطعام اختفت. راحت تترك *جاري* في صحنها وتترك حساءها كما هو حتى يغدو عجينة شمعية. أنفقت أولانا معظم الكاش في المظروف واشترت بسكويت وطوفي في أغلفة براقة من امرأة تبيع وراء خطوط العدو، لكن بيبي لاكتها فقط. أجلست بيبي فوق حجرها ودفعت بالقوة في فمها قطعًا من البطاطا المهروسة، وحينما غصت بيبي وبدأت في البكاء، غالبت أولانا الدموع. كان هلعها الأكبر أن تموت بيبي. كان دائمًا هناك، الخوف المريع، تحت كل شيء تفكر فيه أو تفعله. ترك أودينيبو نشاطات هيئة التوعية العامة واندفع إلى البيت مبكرًا، فعرفت أولانا أنه يشاركها خوفها. لكنهما لم يتكلما بشأنه، كأنما الكلام عنه سوف يجعل موت بيبي مؤكدًا، حتى الصباح جلست تراقب بيبي وهي نائمة فارتدى أودينيبو ملابس العمل. ملأ صوت ردايو بيافرا العميق الغرف.

سقطت الولايات الإفريقية تلك فريسة مؤامرة الاستعمار البريطاني-الأمريكي لكي تستخدم توصيات اللجنة ذريعةً لمساندة الجيوش العظمى من أجل نظام سياسي استعماري صوري في نيجيريا...

"هذا صحيح!" قال أودينيبو، وهو يزرر قميصه بحركات سريعة.

على السرير، تحركت بيبي. فقد وجهها سمنته وبدا عجوزًا على نحو غريب، مشفوطًا ونحيف الجلد. كانت أولانا تراقبها.

"لن تهزم بيبي المرض،" قالت بهدوء.

توقف أودينيبو ونظر لها. أغلق الراديو وجاءها ومسك رأسها يضمها إلى بطنه. ولأنه لم يقل شيئًا في البدء، بدا صمته تأكيدًا على أن بيبي سوف تموت. استدارت أولانا بعيدًا.

"هذا طبيعي جدًّا أن شهيتها للطعام هاربة،" قال أخيرًا. لكن نبرته افتقرت للتأكيد الذي اعتادت عليه.

"انظرْ كم فقدت من وزن!" قالت أولانا.

"نكيم، سعالها يتحسن وسوف تعود شهيتها." بدأ يمشط شعره. كانت غاضبة لأنه لم يقل ما تود سماعه، عدم افتراض قوة القدر وإخبارها أن بيبي سرعان ما ستتحسن، أن يكون طبيعيًّا بما يكفي ليكمل ارتداء ملابسه ليذهب إلى العمل. قبلتُه لها قبل أن يغادر كانت سريعة، ليست كالمعتاد تضغط ببطء على شفتيها، وهذا أيضًا حملته ضده. ملأت الدموع عينيها. وفكرت في آمالا. لم تتصل بهم آمالا منذ ذلك اليوم في المستشفى لكنها تساءلت اليوم إذا ما كانت تتوقع أن تخبر آمالا لو ماتت بيبي.

تثاءبت بيبي ونهضت. "صباح الخير مامي أوللا." حتى صوتها كان نحيلاً.

"بيبي، *إيزيبو*، كيف حالك؟" حملتها أولانا وحضنتها، ونفخت في عنقها، وقاومت دموعها. بدت بيبي شاحبة جدًّا، خفيفة جدًّا. "هل تأكلين بعض الحساء يا صغيرتي؟ أم بعض الخبز؟ ماذا تفضلين؟"

هزت بيبي رأسها. كانت أولانا تحاول إغراء بيبي لشرب بعض العصير حينما وصلت مسز موكيلو بحقيبة من أوراق الرافيا المعقودة وابتسامة الرضا عن النفس.

"افتتحوا مركزًا للإغاثة في شارع بيشوب وذهبتُ مبكرًا جدًّا هذا الصباح،" قالت. "اسألي آجوو أن يحضر لي وعاء."

صبّت بعض المسحوق الأصفر في الوعاء الذي أحضره آجوو.

"ما هذا؟" سألت أولانا.

"صفار بيض مجفف." استدارت مسز موكيلو إلى آجوو. "حمّرْها من أجل بيبي."

"أحمِّرُها؟"

"هل أصاب شيء أذنيك؟ امزجْها ببعض الماء وحمّرها، *أوزيزو*! يقولون إن الأطفال يحبون طعم هذا الشيء."

رمقها آجوو بنظرة بطيئة قبل أن يذهب إلى المطبخ. صفار البيض المجفف، المحمر في زيت النخيل الأحمر، بدا مثل الفطيرة وبدت ساطعة الألوان في الصحن. أكلتها بيبي كلها.

مركز الإغاثة كان في الأصل مدرسة بنات ثانوية. تخيلت أولانا الحرم المدرسي ذا الحوائط التي عليها العشب قبل الحرب، فتيات يهرعن إلى فصولهن في الصباح ويتسللن من البوابات في المساء ليلتقين بشباب من كلية الحكومة في الطريق. كان الفجر الآن والبوابة مغلقة. وحشد ضخم متجمع بالخارج. وقفت أولانا بصعوبة بين الرجال والنساء والأطفال الذين بدوا معتادين على الوقوف والانتظار حتى تُفتح البوابة الحديدية الصدئة ليقدروا أن يدخلوا وينالوا الطعام المتبرَع به من غرباء أجانب. شعرت بإحراج. شعرت كأنها تفعل شيئًا غير سليم، غير أخلاقي: تتوقع أن تأخذ طعامًا في مقابل لا شيء. داخل الحرم، كان بوسعها أن ترى الناس يتحركون هنا وهناك، موائد مبسوطة عليها أجولة طعام، ولوحة مكتوب عليها "القنصلية العالمية للكنائس". بعض النسوة كن يقبضن على سِلالهن ويحدقن نحو البوابة وهن يدمدمن حول رجال الإغاثة هؤلاء الذين يضيعون الوقت. كان الرجال يتكلمون فيما بينهم؛ الرجل الأكبر يرتدي قبعة شيخ العشيرة الحمراء بريشة مثبتة بها. صوت شاب بينهم كان بارزا بنبرته العالية، يصرخ بكلام غير مفهوم، مثل طفل يتعلم الكلام.

"هو مصاب بصدمة القذيفة[1] على نحو خطير،" قالت مسز موكيلو، كأنما أولانا لم تكن تعرف. كانت المرة الوحيدة التي تكلمت فيها مسز موكيلو. مررت نفسها ببطء حتى مواجهة البوابة، تلكز أولانا لتتبعها كل برهة. شخص ما في الوراء كان قد بدأ قصة حول انتصار بيافرا. "كما أخبركم، كل جنود الهاوسا استداروا للخلف وجروا، كانوا قد رأوا ما هو أكبر منهم..." راح الصوت يتراجع حينما خطا رجلٌ من خارج الحرم نحو البوابة. قميصه مكتوب عليه "أرض الشمس المشرقة" باللون الأسود، كان القميص واسعًا حول جسده النحيل ويحمل حزمة أوراق. مشى مشية المُهمين، كتفاه مرفوعتان لأعلى. كان المشرف.

"نظام! نظام!" قال، وفتح البوابة.

الاندفاع الهائل للناس أدهش أولانا. شعرت بتناكب الزحام عليها؛ فمالت. كأنما كل الناس قد دفعوها في حركة واحدة محسوبة بينما لم تكن واحدة منهم. الكوع الصلب للرجل الكبير جوارها وقع بوجع على جانبها وهو يندفع داخل البوابة. كانت مسز موكيلو في المقدمة، تندفع نحو إحدى الموائد. وقع الرجل العجوز ذو الريشة والقبعة، أوقف نفسه بسرعة وواصل ركضه نحو الطابور. كانت أولانا مندهشة أيضًا من أعضاء الحرس وهم يضربون الناس بالسياط ويصرخون "نظام! نظام!" ومن وجوه النساء القاسية على الموائد، اللواتي كن ينحنين ويغرفن في الحقائب الموضوعة أمامهن ثم يقُلن: "نعم، التالي!"

---

[1]- Shell Shock، مصطلح عُرف بعد الحرب العالمية. وهو صدمة عصبية كانت تصيب الجنود الذي كانوا يتعرضون لانفجار قذيفة على مقربة منهم.

"انضمي إلى تلك!" قالت مسز موكيلو، حينما تحركت أولانا لتقف وراءها. "هذا طابور صفار البيض! انضمي إليه هذا الطابور للسمك."
انضمت أولانا للطابور وأمسكت نفسها من دفع المرأة في ظهرها التي حاولت لكزها بعيدًا. تركت المرأة التي تقف أمامها. عدم اقتناعها بالوقوف في طابور من أجل تسوّل الطعام جعلها غير مرتاحة، تشعر بالعيب. عقدت ذراعيها ثم تركتهما تنزلان إلى جانبيها، ثم عقدتهما من جديد. كانت قد اقتربت من المقدمة حينما لاحظت أن المسحوق الذي يُغرف في الحقائب والأوعية لم يكن أصفر بل أبيض. لم يكن صفار بيض بل مسحوق ذرة. طابور مسحوق البيض كان المجاور. أسرعت أولانا لتنضم إليه، لكن المرأة التي تغرف وقفت وقالت: "صفار البيض انتهى! *أو جوالا*!"
ارتفع الرعب داخل صدر أولانا. جرت خلف المرأة. "أرجوكِ،" قالت.
"ما هذا؟" سألت المرأة. المشرف، واقفًا في القريب، استدار وحدّق في أولانا.
"طفلتي الصغيرة مريضة—" قالت أولانا.
قاطعتها المرأة. "انضمي لطابور الحليب."
"لا، لا، لم تعد تأكل أي شيء، لكنها أكلت صفار البيض." أمسكت أولانا بذراع المرأة. "بيكو، أرجوك؛ أحتاج صفار البيض."
جذبت المرأة ذراعها وأسرعت داخل البناية وصفقت الباب وراءها. وقفت أولانا هناك. ما يزال المشرف يحدّق، يهوّي على نفسه بورقة ثم قال: "*إيهي*! أنا أعرفك."
رأسه الأصلع ووجهه الملتحي لم يبدوا مألوفين على الإطلاق. استدارت أولانا لتغادر لأنها كانت واثقة أنه من أولئك الرجال الذين يزعمون أنهم قابلوا من قبل فقط ليأخذوا فرصة للحديث.
"لقد رأيتك من قبل،" قال. اقترب منها، مبتسمًا الآن، لكن من دون نظرة الخبث كما توقعت؛ كان وجهه صادقًا وحنونًا. "قبل عدة سنوات في مطار إينجو حينما ذهبت لألتقي شقيقي العائد من الخارج. لقد تكلمتِ مع أمي. *آي كيسيري يا أوبي*. هدأتِها حينما هبطت الطائرةُ ولم تقف فورًا."
عاد ذلك اليومُ في المطار إلى عقل أولانا بغتةً. لابد أن هذا كان منذ سبعة أعوام. تذكرتْ لكنتَه الرعوية وإثارته العصبية وأنه كان يبدو الآن أكبر مما هو.
"أهذا أنت؟" سألت. "لكن كيف تعرفت عليّ؟"
"كيف لأي أحد أن ينسى وجهًا كوجهك؟ كانت أمي دائمًا تحكي القصة عن سيدة جميلة أمسكت بيدها. كل أفراد عائلتي يعرفون القصة. كلما تكلموا عن عودة شقيقي، تحكيها."
"وكيف حال شقيقك؟"
أضاء الفخر وجهه. "رجل بارز في المديرية. هو الذي أعطاني الوظيفة في الإغاثة."

تساءلت أولانا فورًا إن كان بوسعه مساعدتها في الحصول على بعض صفار البيض. لكن ما سألته كان: "ووالدتك بخير؟"

"بخير جدًّا. إنها في أورلو في بيت شقيقي. كانت مريضة جدًّا حينما لم تعد شقيقتي من زاريا في البدء؛ كلنا فكرنا أن هؤلاء الحيوانات قد فعلوا معها ما فعلوه مع الأخريات، لكن شقيقتي عادت— كان لها أصدقاء من الهاوسا ساعدوها— لذلك تحسنت والدتي. سوف تسعد حين أخبرها أنني رأيتك."

توقف لينظر إلى إحدى الموائد حيث امرأتان شابتان تتعاركان، واحدة تقول: "أخبركِ أن هذا الفسيخ لي،" وتقول الأخرى: *"نجوانو*، كلتانا سوف تموت اليوم."

استدار لها من جديد. "سأذهب وأرى ماذا يحدث هناك. لكن انتظري عند البوابة. سأرسل لك أحدًا بصفار البيض."

"شكرًا لك." ارتاحت أولانا أنه قد عرض عليها لكنها كانت قلقة من المقابل. وعند البوابة، توارت عن العيون؛ كانت تشعر مثل لص.

"أرسلني اوكورومادو إليك،" قالت امرأة شابة جوارها، فوثبت أولانا تقريبًا. دست المرأة حقيبة في يدها وعادت إلى الحرم. "اشكريه عني،" قالت أولانا بصوت عال. إذا سمعت المرأة، فأنها لم تعد. وزن الحقيبة كان مطمئنًا. وهي تقف تنتظر مسز موكيلو؛ وهي تشاهد بيبي تأكل حتى لا يبقى إلا زيت النخيل وحسب في الصحن، كانت تتساءل كيف كانت بيبي تتحمل الطعم البشع البلاستيكي لصفار البيض المجفف.

المرة التالية التي ذهبت فيها أولانا لمركز الإغاثة، كان أوكورومادو يتحدث إلى الحشد عند البوابة. بعض النسوة كن يحملن سجاجيد ملفوفة تحت أذرعهن؛ كن قد قضين الليل أمام البوابة.

"ليس لدينا شيء من أجلكم اليوم. الشاحنة التي تحمل موادنا من آوماما قد سُرقت بالإكراه في الطريق،" قال، في نبرة محسوبة لسياسي يخطب في مؤيديه. راقبته أولانا. كان يستمتع بذلك، بتلك السلطة التي تأتي من معرفة ما إذا كان مجموعة من الناس سوف يأكلون أو لا يأكلون. "لدينا حماية عسكرية، لكنهم الجنود هم الذين نهبوا الشاحنة. وضعوا عوائق في الطريق وأخذوا كل شيء منها؛ وضربوا السائقين أيضا. تعالوا يوم الاثنين، ربما نكون فاتحين."

ذهبت امرأة في عصبية إليه ودفعت بطفلها الرضيع بين ذراعيه. "إذًا خذه! أطعمْه حتى تفتح ثانيةً!" وبدأت تمشي بعيدًا. كان الرضيعُ نحيلاً، ومصابًا بالصفراء، ويصرخ.

"*بيا نواني*! عودي هنا يا امرأة!" كان أوكورومادو يحمل الرضيع بذراعين قاسيتين، بعيدًا عن جسمه.

راحت بقية النسوة في الحشد توبّخ الأم— هل تلقين طفلك؟ *أوجو أناجي آتو* جي؟ هل تمشين في وجه الله؟-- لكنها كانت مسز موكيلو التي ذهبت وأخذت الرضيع من أوكورومادو وأعادته لذراعي الأم.

"خذي طفلك،" قالت. "ليس ذنبه أن لا طعام اليوم."

اختفى الزحام. ومشت أولانا مع مسز موكيلو ببطء.

"من يدري إن كان الجنود حقًّا قد نهبوا الشاحنة؟" قالت مسز موكيلو. "من يدري كم يحفظون لأنفسهم من طعام لكي يبيعوه؟ لا نجد مِلحًا هنا أبدًا لأنهم يحفظون الملح للتجارة."

فكرت أولانا في الطريقة التي أرجعت فيها مسز موكيلو الرضيع لأمه. "ذكرتِني بشقيقتي،" قالت.

"كيف؟"

"هي قوية جدًّا. لا تخاف."

"كانت تدخن في الصورة التي أريتنيها. مثل عاهرة مشاع."

توقفت أولانا وشخصت في وجه مسز موكيلو.

"أنا لم أقل إنها عاهرة،" قالت مسز موكيلو بعجلة. "أنا فقط أقول إنه ليس جيدًا لها أن تدخن لأن النساء اللواتي يدخن هن العاهرات."

نظرت إليها أولانا فوجدت حقدًا في الذقن والذراعين المشعرتين. مشت أسرع صامتة أمام مسز موكيلو، ولم تقل لها إلى اللقاء قبل أن تستدير إلى شارعها. كانت بيبي جالسة في الخارج مع آجوو.

"مامي أوللا!"

احتضنتها أولانا، مسحت على شعرها. بيبي كانت تمسك بيدها، وتنظر لأعلى إليها. "هل أحضرتِ صفار البيض مامي أوللا؟"

"لا يا طفلتي. لكن سأجلب بعضه قريبًا،" قالت.

"مساء الخير يا ماه. ألم تحضري أي شيء؟" سأل آجوو.

"ألا ترى سلتي خاوية؟" قالت بغضب. "هل أنت أعمى؟"

يوم الاثنين، ذهبت وحدها إلى مركز الإغاثة. لم تأت مسز موكيلو لتناديها قبل الفجر ولم تكن هناك وسط الجمع. البوابة مغلقة، التجمع خاوٍ فانتظرت هناك نحو الساعة حتى بدأ الحشد يتوزع. في يوم الثلاثاء كانت البوابة مغلقة. يوم الأربعاء، كان هناك قفلٌ على البوابة. ليس قبل يوم السبت حينما بدأت البوابة تتأرجح منفتحة وفاجأت أولانا نفسها بكيف انضمت بسهولة للحشد المندفع للداخل، وكيف انتقلت برشاقة من طابور إلى طابور،

متفاديةً السياط المتأرجحة للحراس، تدفع من يدفعها. كانت على وشك المغادرة بأكياس صغيرة من وجبات الذُّرة وصفار البيض وقطعتين من الفسيخ، حينما وصل أوكورومادو.

لوّح لها. "أيتها السيدة الجميلة. *نواني أوما*!" قال. مازال لا يعرف اسمها. جاء ودسَّ علبة بيف بقري بالذرة في سلتها ثم جرى بعيدًا كأنما لم يفعل شيئًا. نظرت أولانا لأسفل حيث علبة القصدير الطويلة الحمراء وانفجرت تقريبًا بالضحك من فرط السعادة الحادة غير المتوقعة. أخرجتها، فحصتها، مررت يدها على المعدن البارد، ثم نظرت لأعلى لتجد جنديًّا مصابًا بصدمة القذيفة يحدّق فيها. كانت تحديقته فظة؛ تحديقةٌ لم تعبأ بأن تتخفى. أعادت علبة اللحم البقري إلى سلّتها وغطّتها بحقيبة. كانت مسرورة أن مسز موكيلو لم تكن معها وإلا اضطرت إلى تقسيمها بينهما. سوف تطلب إلى آجوو أن يطهو عليها بعض الخضر. وسوف تحفظ بعضها لتعمل سندوتشات وسوف تتناول هي وأودينيبو وبيبي شايًا إنجليزيًّا مع شطائر اللحم البقري.

تبعها الجندي ذو صدمة القذيفة حتى خارج البوابة. أسرعت بخطوتها عبر الطريق المُتْرِب المؤدي إلى الطريق الرئيسي، لكن خمسة منهم، جميعهم في زي عسكري رثٍّ، سرعان ما أحاطوا بها. كانوا يهمهمون بكلام غير مفهوم ويومئون إلى السلة، حركاتهم مرتبكة، ونبرتهم تعلو، واستطاعت أولانا تمييز بعض الكلمات: "يا خالة!" "يا أختاه!" هاتيها الآن!" "الجوع سوف يقتلنا جميعًا!"

قبضت أولانا على السلة بقوة. وملأتها رغبةٌ طفولية في البكاء. "امشوا بعيدًا! هيا امشوا بعيدًا!"

نظروا باندهاش إلى ثورتها وللحظة ظلّوا ساكنين. ثم بدأوا يقتربون، جميعُهم، كأنما صوتٌ داخلي كان يوجههم. تحركوا بإصرار نحوها. بوسعهم أن يفعلوا أي شيء؛ ثمة شيء مستهتِر بالجريمة بهم نظرًا لعقولهم المختلّة؟ بلغ غضبُ أولانا ذروته، غضبٌ عارم وجسارة غير مبالية، وفكرت في معاركتهم، صراعهم، قتلهم. اللحم البقري كان يخصها. يخصها هي. تراجعت عدة خطوات للوراء. في لمح البصر، وبسرعة خاطفة حتى أنها لم تدرك ما يحدث إلا فيما بعد، أمسك الجندي اللابس قبعة زرقاء سلتها، أخذ صفيحة اللحم، وركض بعيدًا. تبعه الآخرون. وظل الأخير هناك يراقبها لحظةً، فمه الرخو مدلى مفتوح، قبل أن يستدير ليجري أيضًا، لكن في الاتجاه المعاكس، بعيدًا عن الآخرين. وقعت السلة على الأرض. وقفت أولانا هناك وبكت في صمت لأن علبة اللحم البقري لم تعد لها. بعد ذلك التقطت السلة، نفضت بعض التراب عن كيس الذرة، ومشت إلى البيت.

أصبحت أولانا ومسز موكيلو تتجنبان بعضهما في المدرسة لأسبوعين تقريبًا لذلك حينما عادت أولانا البيت في ذلك الأصيل ووجدت مسز موكيلو جالسة بالخارج مع دلو معدني مليء برماد الخشب، اندهشت.

نهضت مسز موكيلو. "أتيتُ لأعلّمك كيف تصنعين الصابون. هل تعرفين بكم يبيعون قطعة الصابون العادية الآن؟"

نظرت أولانا إلى الكوفية القطنية الرثة المرسوم عليها وجه فخامته المحملق فأدركت أن هذا الدرس كان بمثابة اعتذار. أخذت دلو الرماد. وصحبتها إلى الفناء الخلفي، وبعدما شرحت مسز موكيلو كيف تصنع الصابون خزنت الرماد جوار كومة من كتل الأسمنت.

فيما بعد، هز أودينيبو رأسه حينما أخبرته عن ذلك. كانا تحت السقيفة القش في الشرفة، جالسين على الأريكة الخشبية الموضوعة إلى الحائط.

"لم يكن عليها أن تعلمك كيف تصنعين الصابون. لم أرك تصنعين الصابون على كل حال."

"أتظن أنني لا أقدر؟"

"كانت يجب أن تعتذر ببساطة."

"أظن أنني بالغتُ في رد الفعل لأن الكلام كان عن كاينين." انزاحت أولانا. "أتساءل إن كانت خطاباتي وصلت كاينين."

لم يقل أودينيبو شيئًا فشعرت بالامتنان أن هناك أشياء ليست مضطرة أن تشرحها له.

"ما كمّ الشَّعر الذي لدى مسز موكيلو في صدرها؟" سألها. "تعرفين؟"

لم تكن أولانا واثقة هل هو الذي بدأ بالضحك أم هي، لكنهما فجأة كانا يضحكان بجنون. قال أودينيبو أن السماء كانت بلا غيوم تماما فأخبرته أولانا أن هذا طقس مناسب جدًّا لقنابل الطائرات، فضحكا. مر ولدٌ صغير يلبس شورتًا قصيرًا بثقوب واسعة تُظهر ردفيه النحيلتين، حياهما وبالكاد ردا تحية مساء الخير قبل أن ينفجرا في مزيد من الضحك. لم يكن الضحك قد مات على وجهيهما ويداهما مازالتا قابضتين على المقعد حينما خطا الضابط جوليوس إلى داخل المجمع. رداؤه يلمع بقطع الذهب.

"أحضرتُ أفضل نبيذ نخيل في أومياهيا! اطلبا إلى آجوو أن يحضر بعض الكؤوس،" قال، ووضع قنينة صغيرة. كان ثمة وفرة تبعث التفاؤل به وبملابسه متوهجة الألوان، كأنما ليس من مشاكل هناك لا يقدر على حلها. بعدما أحضر آجوو الكؤوس، قال جوليوس: "هل سمعتما أن هارولد وينستون في لاجوس؟ إنه يجهز الجيش البريطاني ليقضي علينا. يقولون إنه جاء بكتيبتين."

"اجلسْ يا صديقي، وتوقفْ عن قول الهراء،" قال أودينيبو.

ضحك جوليوس ورشف شرابه بصوت عال. "أنا أتحدث بالهراء، *أوكوا يا*؟ أين الراديو؟ ربما لاجوس لن تخبر العالم أن رئيس الوزراء البريطاني قد جاء ليساعدها في قتلنا، لكن ربما فعل هؤلاء المجانين في كادو."

جاءت بيبي. "الخال جولويس، مساء الخير."

"بيبي-بيبي: كيف حال سعالك؟ هل تحسن؟" غمس إصبعه في كأس نبيذه ووضعه في فمها. "هذا سوف يساعد سعالك."

لعقت بيبي إصبعه، وبدت مسرورة.

"جوليوس!" قال أولانا.

لوّح جوليوس بتكبّر. "لا تقللي من قوة الكحول."

"تعالي واجلسي معي يا بيبي،" قالت أولانا. فستان بيبي كان مهترئًا، ممزقًا في أماكن عديدة. وضعتها أولانا على حجرها وحضنتها بقوة. على الأقل لم تعد بيبي تسعل كثيرًا الآن؛ على الأقل كانت بيبي تأكل.

التقط أودينيبو الراديو من تحت الأريكة. اخترق الهواءَ صوتٌ حاد، أول الأمر ظنت أولانا أنه قادم من الراديو قبل أن تدرك أنه كان إنذارًا لغارة جوية. كانت لا تزال جالسة. صرخ أحد ما من منزل مجاور: "طائرة العدو!" وفي نفس الوقت كان جوليوس يصرخ: "اتخذوا غطاءً!" ثم انبطح عبر الشرفة، وهو يقلب نبيذ النخيل. كان الجيران يركضون، يصرخون بكلمات لم تميزها أولانا لأن الصوتَ المؤلم العنيد كان قد وجد طريقه عميقًا داخل رأسها. زلّت في النبيذ ووقعت على ركبتيها. رفعها أودينيبو قبل أن يحضن بيبي ويجري. بدأ القصف— الرصاصات تمطر من أعلى— أودينيبو يحمل لوح الزنك مشرعًا بينما الجميع يزحف تحته صوب المخبأ. ثم صعد أودينيبو في الأخير. كان أودينيبو يقبض على ملعقة ملطخة بالحساء. كانت أولانا تصد الصراصير؛ أجسامها الهشة الرطبة كانت لزجة على أصابعها، وحتى بعدما كفت الصراصير عن ملاحقتها، ظلت أولانا تضرب الهواء بذراعيها وساقيها. الانفجار الأول كان بعيدًا. وتوالت الانفجارات الأخرى، أكثر قربًا، وصخبًا، فاهتزت الأرض. الأصوات حولها كانت تصرخ: "الرب يسوع! الرب يسوع!" بدأت مثانتها تؤلمها، امتلأت عن آخرها، كأنما سوف تنفجر وتطلق ليس وحسب البول بل الدعوات المشوشة التي كانت تمتم بها. امرأةٌ متكومة جوارها، تحمل طفلا، ولدًا أصغر من بيبي. كان المخبأ معتمًا لكن بوسع أولانا أن ترى المرض الجلدي بقشوره البيضاء على كامل جسد الولد. رجَّ الأرضَ انفجارٌ آخر. ثم توقفت الأصوات. الهواء ساكن جدًّا، حتى أنهم فيما يزحفون خارج المخبأ، كان بوسعهم سماع صوت كو-كو-كو لبعض الطيور البعيدة. رائحة الحريق تملأ الجو.

"مضادات الغارات الجوية خاصتنا كانت رائعة! *أو دي إيرجو*!" قال أحدهم.

"بيافرا انتصرت في الحرب!" بدأ جوليوس الأغنية وسرعان ما انضم معظم من بالشارع ليشاركوه الغناء.

بيافرا انتصرت في الحرب
العربات المصفّحة، ماكينات التروس
المقاتل وقاذف القنابل
ها إينويجي إيكي إميري بيافرا!

كانت أولانا تراقب بينما أودينيبو يغني بنشاط، وهي حاولت الغناء أيضًا، لكن الكلمات كانت بليدة على لسانها. كان هناك ألم فظيع بركبتها، أخذت يد بيبي ودخلت.
كانت تحمم بيبي حمام المساء حينما اندلع سرين الإنذار من جديد فحضنت بيبي وهي عارية وركضت خارج البيت. كادت بيبي أن تنزلق من قبضتها. الزئير النشط للطائرات وال كا-كا-كا والطلقات الحادة لمضادة للطائرات كانت تأتي من أعلى ومن أسفل ومن الجوانب فجعلت أسنانها تصطك. سقطت في المخبأ وتجاهلت الصراصير.
"أين أودينيبو؟" سألت، بعد برهة، وهي تقبض على ذراع آجوو. "أين سيدك؟"
"إنه هنا يا ماه،" قال آجوو وهو ينظر حوله.
"أودينيبو!" نادت أولانا. لكنه لم يجب. لم تتذكر أنها رأته يدخل المخبأ. كان ما يزال بالأعلى في مكان ما. هز الانفجار التالي طبلة أذنها بقوة؛ كانت واثقة أنها لو أمالت رأسها للجانب، فإن غضروفًا صلبًا وناعمًا سوف يسقط منها. تحركت نحو مدخل المخبأ. من وراءها سمعت آجوو يقول: "ماه؟ ماه؟" امرأة من الشارع قالت: "عودي! أين أنت ذاهبة؟" *إيبي كا آي نا-إيجي*؟" لكنها تجاهلتهما وزحفت خارج المخبأ.
كان ضوء الشمس مفزعًا؛ جعلها تشعر بالإغماء. جرت، وقلبها يؤلم صدرها: "أودينيبو! أودينيبو!" حتى رأته منحنيًا فوق شخص على الأرض. نظرت إلى صدره المشعر العاري ولحيته الجديدة وخفه الممزق، وفجأة إلى موته— موتهما— ضربها بقبضة في حلقها، خنقها الإنذار. حملته بقوة. بيت أسفل الطريق كان يحترق.
"نكيم، كل شيء على ما يرام،" قال أودينيبو. "ضربته رصاصة لكنه يبدو جرحًا سطحيًّا." دفعها عنه وعاد للرجل، الذي كانت ذراعه مضمدة بقميص أودينيبو.

في الصباح، كانت السماء مثل بحر هادئ. طلبت أولانا من أودينيبو ألا يذهب إلى المديرية وقالت إنها لن تدرّس؛ سوف يقضيان النهار في المخبأ.

ضحك. "لا تكوني سخيفة."
"لا أحد سوف يرسل أبناءه إلى المدرسة،" قالت.
"وماذا ستعملين إذًا؟" كان صوته طبيعيًّا مثلما كان شخيره طوال الليل طبيعيًّا، بينما رقدت هي مستيقظة، تتخيل صوت القصف.
"لا أعرف."
قبّلها. "فقط توجهي للمخبأ لو جاء صوت الإنذار. لا شيء سوف يحدث. ربما أتأخر قليلاً إذا ذهبنا للتعليم اليوم في مبايسي."
في البدء كانت منزعجة من هدوئه وبعد ذلك شعرت بالارتياح من هذا الهدوء. صدقت كلماته، مدام كان هناك. بعدما يغادر، كانت تشعر بأنه غير محصنة، مكشوفة. لم تأخذ حمّامًا. وكانت خائفة أن تخرج إلى حفرة المرحاض بالخارج. كانت تخاف أن تجلس لئلا تنعس وتغدو غير مستعدة حينما تنطلق صفارة الإنذار. تشرب كوبا بعد كوب من الماء حتى تنتفخ بطنها، لكن تشعر أن كل لعابها كان يُمتص لخارج فمها وأنها على وشك أن تلفظ كتلاً من الهواء الجاف.
"سوف نذهب لنمكث في المخبأ اليوم،" أخبرت آجوو.
"المخبأ يا ماه؟"
"نعم، المخبأ. لقد سمعتني."
"لكننا لا نقدر أن نمكث في المخبأ يا ماه."
"هل أتكلم وماءٌ في فمي؟ قلتُ سوف نمكث في المخبأ."
"هزّ آجوو كتفيه. "حاضر يا ماه. هل أحضر طعام بيبي؟"
لم ترد. كان يمكن أن تصفعه إن ابتسم، لأنها استطاعت أن ترى الابتسامة الخرساء على وجهه لفكرة أخذ صحن من حساء بيبي ثم الزحف به داخل حفرة معتمة في الأرض لقضاء اليوم.
"جهّز بيبي،" قالت وأدارت الراديو.
"حاضر يا ماه،" قال آجوو. "*أو مويري إيجو*. وجدتُ بيض قمل في شعرها هذا الصباح."
"ماذا؟"
"بيض قمل. لكن كان هناك اثنتان فقط ولم أجد أخرى."
"قمل؟ ماذا تقول؟ كيف لبيبي أن يكون لديها قمل؟ أنا أحافظ عليها نظيفة. بيبي! بيبي!"
جذبت أولانا بيبي وبدأت تفك جدَّائلها وتفتش في شعرها الكثيف. "لابد أنهم هؤلاء الجيران القذرون الذين تلعبين معهم، أولئك الجيران الوسخون." كانت يداها ترتعشان وتشد بعنف خصلة شعر لتحفظ قبضتها. بدأت بيبي في البكاء.
"ابقي ساكنةً!" قالت أولانا.

تلوّت بيبي لتتملّص، ثم جرت نحو آجوو، ووقفت هناك تنظر إلى أولانا بعينين حائرتين كأنما لم تعد تعرفها. ومن الراديو، صدح عاليًا النشيد القومي البيافاري فشقّ السكون.

أرض الشمس المشرقة، نحبُّها ونرعاها
وطننا الحبيب أرض أبطالنا الشجعان
لابد أن ندافع عن أرواحنا وإلا سوف نفنى
سوف نحمي قلوبنا من أعدائنا
لكن إذا كان الثمن هو موت كل ما نملك يا وطننا الحبيب
فدعنا نموت دون لمحة خوف

استمعوا حتى انتهى النشيد.
"خذها إلى الخارج وقِفا في الشرفة وكونا على أتم استعداد،" قالت أولانا لآجوو أخيرًا، بضجر.
"ألن نمكث في المخبأ ثانية."
"فقط خذها للخارج في الفيراندا.
"حاضر يا ماه."
استدارت أولانا إلى الراديو؛ كان الوقت مبكرًا جدًّا على نشرة الحرب، على تلك النشرات الحماسية حول عظمة بيافرا وهو ما كانت تحتاج بقوى لسماعه. في ال بي بي سي كان هناك خبر جديد عن الحرب— مبعوثون من الكنيسة الكاثوليكية، من منظمة الوحدة الإفريقية، من الكومنولث، سوف يأتون إلى نيجيريا ليرسوا السلام. أنصتت بفتور ثم أغلقت الراديو حينما سمعت آجوو يتحدث إلى شخص ما. خرجت لترى من هو. كانت مسز موكيلو واقفةً وراء بيبي، تعيد تضفير الجدائل التي حلّتها أولانا. شعر ذراعيها يسطع لامعًا، كأنما قد استخدمت الكثير جدًّا من زيت النخيل.
"لم تذهبي إلى المدرسة أنتِ أيضا؟" سألت أولانا.
"عرفت أن الآباء سوف يبقون أولادهم بالبيوت."
"وكيف لا؟ أي نوع من القصف الذي لا ينتهي هذا؟"
"هذا لأن هارولد ويلسون قد جاء." شخرت مسز موكيلو. "يريدون أن يؤثرون عليه كي يحضر الجيش البريطاني."
"جولويس قال هذا أيضًا، لكن هذا مستحيل."
"مستحيل؟" ابتسمت مسز موكيلو كأنما أولانا لا تعرف شيئًا حول ما تتكلم عنه. "هذا الجولويس بالمناسبة يبيع الإعفاءات المزورة؟"

"هو مقاول عسكري."

"أنا لم أقل إنه لا يعمل عقودًا صغيرة مع الجيش، لكنه يبيع إعفاءات مزورة. شقيقه قائد ويعملانها معا. بسببهما يسعى هنا وهناك كل أنواع اللصوص بجوازات مزورة." انهت مسز موكيلو ضفيرة وربتت على بيبي. "شقيقه هذا مجرم. يقال إنه أعطى إعفاء من الجيش لكل أقاربه الرجال، كل واحد في بلدته اوميونا. أنت بحاجة لأن تسمعي ماذا فعل مع أولئك الفتيات الصغيرات اللواتي يتسكعن ليبحثن عن رجال أثرياء. يقولون إنه أخذ خمسًا منهن معا إلى غرفة نومه. *توفيا*! إنهم الرجال من أمثاله هم الذين يجب أن يُعدموا حينما تقوم دولة بيافرا."

قفزت أولانا. "هل كانت هذه طائرة؟ هل تلك طائرة؟"

"طائرة؟ *كوا*؟" ضحكت مسز موكيلو. "شخص ما يغلق بابه في البيت المجاور وأنت تقولين طائرة؟"

جلست أولانا على الأرض ومدت ساقيها. كانت مرهقة من الخوف.

"هل سمعت أننا قصفنا قاذف قنابلهم حول إيكو-إيكيبينا؟" سألت مسز موكيلو.

"لم أسمع."

"وتم هذا بوساطة مدني عادي ببندقية صيد! تعرفين، هذا كأن النيجيريين أغبياء جدًّا حتى أن من يعمل معهم يصبح غبيًّا أيضًا. إنهم شديدو الغباء حتى يطيّروا الطائرات التي أعطاها لهم الروس والبريطانيون، لذلك جاءوا برجال بيض، وحتى هؤلاء البيض لم يقدروا أن يضربوا هدفًا واحدًا. *ها*! نصف قنابلهم لم تنفجر حتى."

"النصف الذي انفجر كاف ليقتلنا،" قالت أولانا.

استمرت مسز موكيلو في الحديث كأنما لم تسمع أولانا. "سمعت أن أوبيونجوي خاصتنا يضع خوف الله في قلوبهم. في أفيكبو، قتلت عدة مئات من الرجال فقط، لكن بقية النيجيريين انسحبوا من الخوف. لم يروا من قبل سلاحًا مثل هذا. لا يعرفون ماذا نخبئ لهم أيضًا."

ضحكت وهزت رأسها ومسّت بقوة نصف الشمس الصفراء حول عنقها. "أرسلهم جاوون ليقصفوا سوق آوجو في منتصف النهار بينما كانت النساء يشترين ويبعن. رفض أن يسمح للصليب الأحمر بجلب الطعام، رفض كبام-كبام، لذلك سوف نومت جوعًا. لكنه لن ينجح. لو كان لدينا ناس يضعون البنادق والطائرات في أيادينا مثلما يضعونها في يد نيجيريا، لكان هذا الأمر قد انتهى من زمن ولكان كل إنسان في بيته الآن. لكننا سوف نهزمهم. هل الربُّ نائم؟ لا!" ضحكت مسز موكيلو. اندلعت صفارة الإنذار. كانت أولانا تنتظر الصوت الأجش لمدة طويلة حتى أن رعشة استباقية تسربت في جسدها قبل أن تسمعها. استدارت إلى بيبي لكن آجوو كان قد التقطها بالفعل وشرع في الركض نحو المخبأ. كان بوسع أولانا

أن تسمع صوت الطائرات من بعيد، مثل رعد شامل، ثم الصوت المتشظي الحاد لمضادات الطائرات. قبل أن تتسلل داخل المخبأ، نظرت إلى أعلى ورأت الطائرة القاصفة، مثل النسر، تطير باستقامة نحو الأسفل، بكرات دخان رمادي حولها.
وهم يخرجون فيما بعد من المخبأ، قال شخص ما: "لقد استهدفوا المدرسة الابتدائية!"
"هؤلاء الحاقدون قصفوا مدرستنا،" قالت مسز موكيلو.
"انظروا! قنبلة أخرى!" قال شاب، وهو يضحك، وهو ينظر إلى نسر يطير فوق الرؤوس. انضموا للحشد وهرعوا نحو المدرسة الابتدائية. مر رجلان آتيان من الجهة المعاكسة، حاملين جثامين متفحمة. حفرة مقصوفة واسعة لتضم شاحنة ضخمة، قسمت الطريق المؤدي للمدرسة إلى قسمين. سقف الفصل كان مهشمًا في كتلة من الخشب والحديد والغبار. لم تتعرف أولانا على غرفتها. كل النوافذ كانت قد طارت، لكن الحوائط مازالت منتصبة. في الخارج، هنا حيث كان تلاميذها يلعبون في الرمال، قطعة من شظية حفرت هوة جميلة الشكل في الأرض. وبينما انضمت لتحمل بعض المقاعد القليلة السليمة، كانت هي الهوّة التي فكرت بشأنها: كيف لقطعة حديد بشعة ضارة أن ترسم هذه الدائرة الجميلة في التربة.

لم تنطلق الصفارة مبكرًا في النهار، ولذلك حينما ظهرت الأصوات الحادة باو-باو-باو للقذائف من هنا، حينما كانت أولانا تعد دقيق القمح لتصنع حساء بيبي، عرفت أنها هي. شخص ما سوف يموت. ربما يموتون جميعًا. كان الموت هو الشيء الوحيد المنطقي وهي محدودبة داخل المخبأ تحت الأرض، وهي تقبض على بعض التربة، تفركها بين أصابعها، منتظرة أن ينفجر المخبأ. كان القصف أعلى صخبًا وأشد قربًا. خفقت الأرض. ولم تشعر بشيء. كانت تطفو بعيدًا في داخلها. جاء انفجار ثان واهتزت الأرض، وزحف طفل عار وراء صرصار وهو يضحك. ثم توقف الانفجار وبدأ الناس حولها يتحركون. لو كانت قد ماتت، لو كان أودينيبو وبيبي وآجوو قد ماتوا، لظلّ المخبأ يشع رائحة حقل محروث حديثًا ولظلت الشمس تشرق والصراصير ستظل تقفز هنا وهناك. الحرب سوف تستمر دونهم. زفرت أولانا، ممتلئة بغضب حانق. كان هذا الشعور المتطرف بأنها غير موجودة هو ما دفعها من حال الخوف الحاد إلى حال الغضب الحاد. كان يجب أن تكون ذات أهمية. لن تبقى بعد ذلك باقيةً منهكة، تنتظر الموت. حتى تنتصر بيافرا، لن يملي عليها الهمجيون بنود حياتها.
كانت الأولى التي تخرج من المخبأ. رمت امرأة نفسها جوار جثة طفل وراحت تتدحرج في التراب، وهي تصرخ. "جاوون، ماذا فعلتُ لك؟ جاوون، *أوليي إيهي م ميري جي*؟"

تجمعت بعض النسوة وساعدنها أن تنهض. "توقفي عن الصراخ، كفى،" قالوا لها. "ماذا تريدين أن يفعل أطفالنا الآخرون؟"

ذهبت أولانا إلى الفناء الخلفي وبدأت تنبش في دلو الرماد. سعلت حينما بدأت تشعل النار، وكان لدخان الخشب رائحة لاذعة.

كان آجوو يراقبها. "ماه؟ هل تودين أن أعملها أنا؟"

"لا," نخلت الرماد في حوض من الماء البارد، حركته بقوة حتى طرطش الماء على ساقيها. وضعت الخليط على الماء وتجاهلت آجوو. لابد أنه لاحظ الغضب المتصاعد في جسدها وبدا في وجهها لذلك دخل البيت في صمت. من الشارع، ارتفع صوت صراخ المرأة من جديد، أكثر عنفًا وحِدّةً من المرة الماضية. جاوون، ماذا فعلتُ لك؟ جاوون، *أوليي ايهي م ميري جي*؟ سكبت أولانا بعض زيت النخيل في الخليط البارد وقلّبت وقلّبت حتى تخشبت ذراعاها من التعب. كان ثمة شيء لذيذ في عَرقها المتكون تحت ذراعيها، في سكّر النشاط الذي جعل قلبها يخفق، في العجين غريب الرائحة الذي تكوّن بعد التبريد. تكونت رغاو. لقد صنعت صابون.

لم تجرِ أولانا عبر الميدان في طريقها للمدرسة باليوم التالي. الحذر كان قد غدا، بالنسبة إليها، واهنًا وضعيفًا ولا إيمان وراءه. كانت خطواتها قوية وتنظر لأعلى كثيرًا نحو السماء الصافية لتبحث عن طائرات القصف، لأنها كانت ستقف وترشقها بالحجارة والكلمات النابية. قبل ربع ساعة من موعد الفصل كانت قد وصلت. علمتهم عن علم بيافرا. جلسوا فوق ألواح خشبية وتسللت الشمس الخافتة داخل الفصل غير المسقوف بسطت علم أودينيبو وأخبرتهم ماذا يعني الرمز. الأحمر يعني دم أخواتنا الذين ذُبّحوا في الشمال، الأسود يعني الحداد عليهم، الأخضر يعني ازدهار بيافرا الذي سوف يأتي، وأخيرا، نصف الشمس الصفراء تنتصب مشرعة للمستقبل المجيد. علمتهم أن يرفعوا أياديهم في التحية مثلما يفعل فخامته وسألتهم أن ينقلوا رسومها للقائدين: كان فخامته ضخمًا، مرسومًا بخطوط مزدوجة، بينما جسد جاوون العاجز كان مرسومًا بخط مفرد.

نكيركا، تلميذتها الألمع، ظلّلتِ المساحاتِ في وجهي الرجلين، ببعض ضربات القلم الرصاص، وأعطت جاوون عقدة تشكيرة، وفخامته ابتسامة.

"أريد أن أقتل كل الهمجيين يا ميس،" قالت، حينما نهضت لتسلّم لوحتها. كانت تبتسم ابتسامة طفلة بكر تعرف أنها قالت الشيء الصحيح.

شخصت أولانا فيها ولم تدر ماذا تقول. "نكيركا، اذهبي واجلسي،" قالت أخيرًا.

أول ما أخبرته أودينيبو حينما عاد إلى البيت هو كيف خرجت كلمة "قتل" عادية من فم الطفلة وكم شعرت بالذنب. كانا في غرفة نومهما وكان الراديو مدارًا بصوت منخفض فاستطاعت أن تسمع ضحكة بيبي عالية النبرة من الغرفة المجاورة.

"هي في الواقع لا تريد أن تقتل أي أحد يا نكيم. أنت فقط علمتها الوطنية،" قال أودينيبو وهو يخلع حذاءه.

"لا أعرف." لكن كلماته شجعتها، كما فعل الفخر في وجهه. هو أحب أنها تكلمت بهذه القوة، لمرة، عن السبب؛ كأنما أصبحت أخيرًا مشاركًا مساويًا في جهود الحرب.

"تذكر رجالُ الصليب الأحمر مديريتنا اليوم،" قال وأشار إلى كارتونة صغيرة جلبها معه. فتحتها أولانا ووضعت على السرير علب اللبن المكثف القصيرة وصفيحة أوفالتين النحيلة وكيس الملح. بدت الأشياء فخمة. ومن الراديو، قال الصوت المتذبذب إن جنود بيافرا الشجعان كانوا يكنسون الهمجيين حول أباكاليكي.

"هيا نقيم حفلاً،" قالت.

"حفل؟"

"حفل عشاء صغير؟ كما تعلم، هكذا كنا نفعل عادة في نسوكا."

"سرعان ما سيحدث هذا يا نكيم، لسوف نقيم كل حفلاتنا في بيافرا الحرّة."

أحبت الطريقة التي نطبق بها "بيافرا الحرة"، فقامت وضغطت بشفتيها على شفتيه. "نعم، لكن بوسعنا إقامة حفل وقت الحرب."

"نحن بالكاد لدينا ما يكفينا."

"لدينا أكثر مما يكفينا.: شفتاها كانتا ما تزالان على شفتيه وكلماتها فجأة أخذت معنى آخر. رجعت للوراء جذبت فستانها فوق رأسها في انحناءها سيالة مرنة. فكّت بنطاله. لم تمهله ليخلعه. أدارت ظهرها واتكأت إلى الحائط ووجهته داخلها، مثارة بمفاجئته، بيديه الصلبتين على مؤخرتها. كانت تعلم أنها يجب أن تخفض صوتها لأن آجوو وبيبي بالغرفة المجاورة لكنها مع هذا لم تستطع أن تتحكم في أنينها، بتلك النشوة الخام البدائية التي شعرت بها موجةً إثر موجة تلك التي انتهت بهما ساندين على الحائط، متعانقين ويضحكان.

لم يكن آجوو يحب طعام الإغاثة. الأرز كان منتفخًا ، لا يشبه الحبوب النحيلة في نسوكا، ووجبات الذرة لا تظل ناعمة بعد تقليبها في الماء الساخن، ومسحوق اللبن ينتهي إلى تكتلات عنيدة في قاع فنجان الشاي. كان يشعر بالحرج الآن وهو يقبض على حفنة من مسحوق صفار البيض. من العسير التفكير في المسحوق المستوي الذي ينتج من بيضة تأتي من دجاجة حقيقية. سكب الصفار على خليط الطحين وقلّبه. بالخارج، كان ثمة وعاء ممتلئ للنصف بالرمل الأبيض فوق النار؛ سيعطيه مزيدًا من الوقت حتى يسخن قبل أن يضع الطحين داخله. كان متشككًا أول الأمر حينما علّمت مسز موكيلو أولانا طريقة الخبز هذه؛ كان يعرف ما يكفي عن أفكار مسز موكيلو - صابون أولانا المصنوع بالبيت، هذا المزيج الأسود البني الذي يذكره بإسهال الأطفال، كان قد أتى من خلالها، في كل حال. لكن العجين الأول الذي خبزته أولانا كان جيدًا؛ ضحكت وقالت من الطموح أن نسمي هذه كعكة، هذا الخليط من الطحين وزيت النخيل وصفار البيض المجفف، لكن على الأقل لقد وضعوا الطحين في استخدام جيد.

كان الصليب الأحمر يوتّر آجوو؛ أقل ما يجب أن يفعلون كان سؤال البيافريين ماذا يفضلون من طعام بدل أن يرسلوا الكثير من الطحين البلا طعم. حينما افتتح مركز الإغاثة الجديد، الذي ذهبت إليه أولانا وهي تضع مسبحة حول عنقها لأن مسز موكيلو قالت إن ناس كارتياس يكونون أكثر كرمًا مع الكاثوليك، آمل آجوو أن يكون الطعام أفضل. لكن ما جلبته كان مألوفًا، حتى السمك المجفف كان أكثر ملوحة، وقد غنّت، بتعبير مسلٍّ، الأغنية التي تغنيها النساء في المركز.

كارتياس، شكرًا لك،

كارتياس سي آني تابا أوكبوروكو

نا كواشيوركور جا -آنا

لم تكن تغني في تلك الأيام التي كانت تعود فيها دون طعام. كانت تجلس في الفيراندا وتنظر إلى أعلى حيث السقيفة وتقول: "هل تذكر يا آجوو، كيف اعتدنا أن نلقي بالحساء مع اللحم بعد أكلة يوم واحد."

"نعم يا ماه،" كان يقول. لو استطاع فقط أن يذهب إلى مركز الإغاثة بنفسه. فقد كان يشك في أن أولانا، بحديثها الإنجليزي السليم كانت تنتظر دورها حتى ينتهي كل شيء. لكنه لا

يقدر أن يذهب بعدما لم تعد تسمح له بالخروج أثناء النهار. الحواديت حول الإجبار على الخدمة العسكرية كانت في كل مكان. لم يكن يشك في أن ولدًا في الشارع قد يتم سحبه في الظهر ليؤخذ، برأسه الحليق ودون تدريب، مباشرة إلى الجبهة في المساء. لكنه كان يظن أن أولانا متخوفة أكثر مما ينبغي. بالطبع مازال يقدر أن يذهب إلى السوق. بالطبع لم يكن عليه أن يصحو قبل الفجر ليبحث عن المياه.

سمع أصواتا في غرفة المعيشة. بدا صوت جوليوس تقريبًا عاليًا علّو صوت السيد. سوف يُخرج الكعكة ثم ينظف الخضروات من أوراقها الخضراء الكثيفة، وربما يذهب ليجلس على كتلة الأسمنت وينظر إلى المنزل المقابل ليرى ما إذا كانت إيبيرتشي سوف تخرج وتهتف: "أيها الجار كيف حالك؟" سوف يلوّح لها بالتحية ويتخيل نفسه يقبض على تلك المؤخرة. لقد أدهشه، كم يكون سعيدًا حين تحييه. خرجت الكعكة محمصة من الحواف وطرية من الداخل، فقطّع شرائح رفيعة ووضعها على صحون صغيرة وخرج بها. كانت أولانا وجوليوس جالسين بينما السيد واقف، يومئ، ويتكلم عن القرية الأخيرة التي زارها، كيف ضحى الناس بنعجة قربانًا على ضريح أويي لكي يُبقى الهمجيين بعيدًا.

"نعجة كاملة! كل هذا البروتين الضائع!" قال جوليوس وهو يضحك.

لم يضحك السيد. "لا، لا، يجب ألا تسيء تقدير الأهمية النفسية لتلك الأشياء. نحن لم نسألهم أبدًا أن يأكلوا النعجة بدلا من التضحية بها."

"آه، الكعكة!" قال جوليوس. تجاهل الشوكة ودس قطعة في فمه. "جيدة جدًّا، جيدة جدًّا. آجوو، يجب أن تعلم الناس في بيتي لأن كل ما يفعلونه بالطحين هو تشين-تشين، كل يوم تشين-تشين، وهي ناشفة جدًّا ولا طعم لها! سقطت أسناني."

"آجوو يتساءل حول كل شيء." قال أولانا. "ببساطة وضع المرأة في بار الشمس المشرقة خارج العمل."

طرق بروفيسور إيكوينجو على الباب المفتوح ودخل. يداه كانتا مربوطتين بضمادتين بلون البيج.

"*دياني*، ماذا أصابك؟" سأله السيد.

"حرق صغير." حدق بروفيسور أيكوينجو في الضمادتين كأنما اكتشف أنهما تعنيان أنه لم يعد لديه أظفر طويل ليلمس به. "نحن نصنع معًا شيئًا ضخما جدًّا."

"هل هي طائرتنا البيافرية الأولى قاذفة القنابل؟" سألت أولانا.

"شيء بالغ الضخامة وسوف يطور نفسه مع الوقت،" قال بروفيسور إيكوينجو، بابتسامة غامضة. راح يأكل بطريقة خرقاء؛ فتات الكعك تسقط قبل الوصول إلى فمه.

"لابد أنها آلة لكشف المخربين،" قال السيد.

"نعم هي كشّاف لعين." عمل جوليوس صوت بصاق. "لقد باعوا إينجو. كيف تترك المدنيين يدافعون عن العاصمة بسكاكين مجرّدة؟ بنفس هذه الطريقة فقدوا نسوكا، بالانسحاب دون سبب. أليس لأحد قادة الضباط زوجة من الهاوسا؟ لقد وضعت له الدواء في الطعام."

"لو نستعيد إينجو،" قال بروفيسور إيكوينجو.

"كيف نستردها وقد احتلَّها الهمجيون؟" قال جوليوس. "لقد نهبوا حتى مقاعد المراحيض! مقاعد المراحيض! الرجل الذي فرّ من أودي أخبرني بذلك. وهم يختارون أفضل المنازل ثم يجبرون نساء وبنات الناس أن يمددوا سيقانهم لهم ويطهون لهم."

صورة أمه وآنكيولا ونNيسيناتشي منبطحات تحت جندي قذر من الهاوسا ملوّح بالشمس ارتسمت في عقل آجوو واضحة جدًّا حتى أنه اقشعر. خرج وجلس على كتل الأسمنت وتمنى، بيأس، أن يعود إلى بيته، ولو لدقيقة، لكي يتأكد أن لا شيء قد حدث لهما. ربما كان الهمجيون بالفعل هناك وقد استولوا على كوخ العمة بسقفه الحديدي المتعرج. وربما أسرته قد هربت بنعاجها ودجاجاتها، مثل كل الناس المتوافدين على أوميوهيا. اللاجئون: رآهم آجوو، أكثر وأكثر كل يوم، وجوه جديدة في الطرقات، في الحفرة العامة التي يختبئون فيها، في السوق. نساء يدققن الباب كثيرًا ليسألن عن عمل يؤدينه مقابل الطعام. يجئن مع أطفالهن العراة النحيلين جدًّا. أحيانًا تعطيهن أولانا *جاري* منقوعًا في ماء بارد قبل أن تخبرهن أن لا عمل لديها. استضافت مسز موكيلو أسرةً مكونة من تسعة أفراد. كانت تحضر الأطفال ليلعبوا مع بيبي، وبعدما يمضون كانت أولانا تطلب من آجوو أن يفتش جيدًا في شعر بيبي عن القمل. الجيران استضافوا أقاربهم. أبناء عم السيد جاءوا لأسابيع قليلة وناموا في غرفة الضيوف قبل أن يغادروا لينضموا إلى الجيش. كان هناك العديد من الناس المشردين، الهاربين، المتعبين، حتى أن آجوو لم يندهش حينما عادت أولانا يومًا وقالت إن مدرسة أكواكوما الابتدائية سوف تتحول إلى معسكر لاجئين.

"لقد أحضروا الأسرّة الخيزران وأدوات الطهو بالفعل. ومدير التعبئة الجديد سيصل الأسبوع القادم." بدت مرهقة. كشفت وعاء على الموقد وحدّقت في شرائح البطاطا المسلوقة.

"ماذا عن الأطفال يا ماه؟"

"كنتُ أسأل المديرة إذا ما كان يمكن أن ننتقل إلى مكان آخر، فنظرت إليّ وبدأت تضحك. نحن الأخيرون. كل المدارس في أوميواهيا أصبحت معسكرات لاجئين أو معسكرات تدريب عسكري." غطت الوعاء. "سوف أنظم فصولاً هنا في الفناء."

"مع مسز موكيلو؟"

"نعم، وأنت أيضًا يا آجوو. سوف تدرّس لأحد الفصول."

"حاضر يا ماه." أثارته الفكرة وأغوته. "ماه؟"

"نعم؟"
"هل تظنين أن الهمج راحوا إلى بلدتي؟"
"بالطبع لا،" قالت أولانا بحدة. "بلدتك صغيرة جدًّا. لو كانوا يمكثون في مكان ما، سوف يكون الجامعة."
"لكن لو أخذوا طريق أوبي في نسوكا—"
"قلتُ إن بلدتك صغيرة جدًّا! لن يهتموا بأن يمكثوا هناك. ليس هناك ما يمكثون من أجله، كما ترى. ليست إلا غابة صغيرة."
نظر إليها ونظرت إليه. كان الصمت كثيفًا ومفعمًا بالاتهام.
"سوف أبيع حذائي البني إلى ماما أونتشا، ثم أصنع فستانًا جميلاً لبيبي،" قالت أولانا أخيرًا ففكرت أولانا أن صوتها كان متكلفًا.
بدأ يغسل الصحون.

شاهد آجوو المرسيدس-بينز السوداء تمرق على الطريق؛ كلمة "المدير" المكتوبة على لوحة أرقامها المعدنية تلمع في الشمس. جوار منزل إيبيرتشي، أبطأت، ساطعةً وهائلة، وتمنى آجوو أن يقفوا ويسألوه أين المدرسة الابتدائية حتى يتمكن من رؤية لوحة العدادات جيدًا. لكنهم لم يقفوا مع هذا؛ تجاوزوه واخترقوا المجاورة. قفز ضابط في زي صارم، ليفتح الباب الخلفي قبل أن تتوقف السيارة تمامًا. أدى التحية فيما يخرج المدير من السيارة. كان البروفيسور إيزيكا. لم ينظر على الإطلاق بينما آجوو يتذكر؛ أنه ازداد بعض الوزن وامتلأ عنقه النحيل. حدّق آجوو. كان ثمة شيء مصقول وجديد به، في تصميم بدلته الأنيق، لكن تعبيره المتغطرس كان كما هو، كما هو صوته الأجش: "أيها الشاب، هل سيدك بالداخل؟"
"لا، يا صاح،" قال آجوو. في نسوكا، كان بروفيسور إيزيكا يناديه آجوو؛ الآن بدا كأنه لا يعرفه. "لقد ذهب إلى العمل يا صاح."
"وسيدتك؟"
"ذهبت إلى مركز الإغاثة يا صاح."
أومأ بروفيسور إيزيكا للضابط أن يحضر قطعة ورق وكتب كلمة ثم أعطاها لآجوو. كان قمه الفضي يسطع. "أخبرهما أن مدير التعبئة قد وصل."
"حاضر يا صاح." تذكّر آجوو تحديقه غير الراضي في الكؤوس في نسوكا، وساقيه المعقودتين دائمًا، واختلافه مع السيد. بعدما غادرت السيارة نحو الطريق ببطء شديد، كأنما يعرف السائق كم واحدًا يشاهدون، جاءت إيبيرتشي. كانت ترتدي تلك التنورة الضيقة التي تبين مؤخرتها واستداراتها المحكمة.

"يا جاري، كيف حالك؟" سألت.

"أنا بخير. كيف حالك؟"

هزت كتفيها وقالت نصف-نصف. هل كان مدير التعبئة بنفسه هو الذي غادر للتو؟"

"بروفيسور إيزيكا؟" سأل بخيلاء. "نعم، نحن نعرفه جيدًا من نسوكا. اعتاد أن يأتي إلى بيتنا كل يوم ليأكل من حسائي بالفلفل."

"إيه!" ضحكت، مفتوحة العينين. "هو رجل مهم. *إيهيوكوارا* موتو؟ هل شاهدت تلك السيارة؟"

"سيارة مستوردة بالكامل."

كانا صامتين لبرهة. لم يتحدث معها حديثًا بهذا الطول من قبل ولم يرها بهذا القرب. كان من الصعب أن يحفظ عينيه من التجول لأسفل إلى حيث هذا الوهج في المؤخرة. كافح من أجل التركيز في وجهها، في عينيها الكبيرتين، في سلاسل البثور في جبهتها، في شعرها المضفور جدًّائل على عيدان مغطاة بالخيوط. كانت تنظر إليه، أيضًا، وتمنى لو لم يكن لابسًا بنطلونًا بثقب عند الركبة.

"كيف البنت الصغيرة؟" سألت."بيبي بخير. نائمة."

"هل ستأتي لتصنع سقف المدرسة الابتدائية؟"

كان آجوو يعلم أن مقاول الجيش تبرع ببعض الألواح المعدنية لاستبدال السقف المحطم وأن المتطوعين كانوا يخفونها بسعف النخيل. لكنه لم يخطط للانضمام لهم.

"نعم، سوف آتي،" قال.

"أراك وقتها إذًا."

باي- باي." انتظرها آجوو حتى تستدير لكي يحدق في ظهرها الرجراج.

حينما عادت أولانا، بسلتها خاوية، قرأت ورقة بروفيسور إيزيكا بنصف ابتسامة على وجهها. "نعم، لقد سمعنا أمس أنه هو المدير الجديد. وكيف لمثله أن يكتب شيئًا كهذا؟"

كان آجوو قد قرأ الورقة- *أودينيبو وأولانا، مررتُ لأقول هاللو. سوف أمرّ ثانية الأسبوع القادم، إذا ما سمحت هذه المهنة المضجرة بذلك. إيزيكا*— لكنه سأل: "كيف حال السيدة؟"

"أوه، هو دائمًا يشعر أنه أفضل قليلاً من كل شخص آخر. وضعت أولانا الورقة على المنضدة. "سوف يساعدنا بروفيسور أتشارا في الحصول على بعض الكتب والمقاعد والسبورات. كثير من النساء أخبرنني أنهن سوف يرسلن أطفالهن الأسبوع القادم." بدت متحمسة.

"هذا جيد يا ماه." تزحزح آجوو على قدميه. "سأذهب لأساعد في بناء سقف المدرسة. سوف أعود لأجهز طعام بيبي."

"أوه،" قالت أولانا.

كان آجوو يعلم أن أولانا تفكر في الخدمة العسكرية. "أظن أنه من الضروري المساعدة في شيء كهذا يا ماه،" قال.

"بالطبع. نعم، يجب أن تساعد. لكن من فضلك خذ حذرك."

شاهد آجوو إيبيرتشي فورًا؛ كانت مع بعض الرجال والنساء محنيين فوق كومة من سعف النخيل، يقطّعون، ييسطون، ثم يمررونها إلى رجل فوق سلم خشبي.

"أيها الجار!" قالت. "لقد أخبرت كل الناس أن ناسك يعرفون المدير شخصيًّا."

ابتسم آجوو وقال *مساء الخير* عامة. تمتم الرجال والنساء مساء الخير و *ايهي*، كيدو، و ننو باحترام وتقدير ناتج من معرفتهم مَن يعرف هو. شعر فجأة أنه مهم. أعطاه أحدهم سيفًا. امرأة تجلس على درج السلم تطحن بذور الشمام، وبعض البنات الصغيرات يلعبن الورق تحت شجرة المانجو، ورجل كان يحفر عصا مشي رأسها كانت حَفرًا دقيقا لوجه سعادته الملتحي. وكان بالجو رائحة عطنة.

"تخيل الحياة في مثل هذا المكان." مالت عليه إيبيرتشي وهمست. "والمزيد سوف يأتي الآن لأن أباكاليكي قد سقطت. تعلم أنه منذ سقطت إينيجو، أصبح الإيواء مشكلة ضخمة. بعض الناس الذين يعملون في المديرية ينامون في سياراتهم."

"هذا صحيح،" وافق آجوو، رغم أنه لم يكن يعرف هذا بكل تأكيد. أحبّ أن تتحدث إليه، أحب صداقتها الأليفة. بدأ يشذب بعض سعف النخيل بضربات حادة. من الفصل، أدار أحدهم الراديو: جنود بيافرا الشجعان يتمون عمليات النزح في قطاع لم يسمع به آجوو جيدًا.

"أولادنا ينتصرون عليهم!" قالت المرأة التي تطحن بذور الشمام.

"سوف تكسب بايافرا الحرب، لقد كتب الرب ذلك في السماء،" قال رجل بلحية مضفورة في جديلة واحدة نحيلة.

قهقهت إيبيرتشي وهمست لآجوو: "رجلُ أحراش. إنه لا يعرف أنها بي-افرا وليست با-يافرا."

ضحك آجوو. كانت نملات سوداء سمينة تزحف على طول سعاف النخيل، فصرخت ونظرت إليه بقلة حيلة حينما زحفت واحدة فوق ذراعها. أزاح النملة بعيدًا وشعر بملمس بشرتها الدافئ الرطب. كانت تريده أن يمسحها؛ لأنها لم تبد من ذلك النوع من الناس الذين بالفعل يخافون النمل.

واحدة من النساء تربط طفلها إلى ظهرها. عدلت من وضع الدثار الذي يحمله ثم قال: "كنا في طريق عودتنا من السوق حينما اكتشفنا أن الهمج قد احتلوا مفترق الطرق ويعسكرون داخل القرية. لم نقدر أن نرجع بيتنا. كان علينا أن نستدير ونهرب. ليس لدي إلا هذا الرداء وبلوزة والقليل من النقود من بيع الفلفل خاصتي. لا اعرف أين طفلاي الآخران،

اللذان تركتهما بالبيت لأذهب إلى السوق." بدأت تبكي. مفاجئية دموعها، والطريقة التي كانت تنبثق فيها منها، أذهلت آجوو.
"توقفي عن البكاء يا امرأة،" قال الرجل ذو اللحية بقسوة.
استمرت المرأة في البكاء. طفلها أيضًا بدأ في البكاء.
حينما أخذ آجوو رقعة من السعف إلى السلم، وقف ليسترق النظر في أحد الفصول. آنية الطهو، حصر النوم، صناديق معدنية، أسرّة خيزران مكومة في فوضى تامة حتى لم تعد تبدو الغرفة أي شيء سوى بيت جماعات متباينة من الناس ليس لهم أي مكان آخر يأوون إليه. لافتة كبيرة على الحائط تقول: "في حال الغارة الجوية، لا تخف. إذا رأيت العدو اسحقه فورًا." امرأة أخرى بطفل على ظهرها كانت تغسل درنات البطاطا المقشورة في وعاء بالماء القذر. وجه طفلها كان متغضنًا. غصّ حلق آجوو حينما اقترب وأدرك أن الرائحة العطنة تأتي من مائها: كانت قد استُعمل من قبل لنقع الخضار، ربما لأيام، وكان قد أعيد استعماله. كانت الرائحة بشعة، تزكم الأنف، رائحة مراحيض عفنة وفول منبت فاسد وبيض مسلوق عفن.
مسك نفَسَه وعاد إلى سعف النخيل. المرأة الباكية كانت ترضع طفلها من ثدي متهدل.
"بلدتنا لن تسقط مادامت كشافات القنابل بالقرب منا!" قال الرجل ذو اللحية المضفورة. "لقد كنت مُدافعًا مدنيًا. أعرف كم عدد المتسللين الذين اكتشفناهم، وجميعهم كانوا سكان الأنهار. ما أخبركم به هو أننا لم نعد قادرين على الوثوق بالأقليات الذين لا يتكلمون الإيبو." توقف واستدار حينما سمع صرخة من بعض الأولاد الصغار الذين يلعبون لعبة الحرب في منتصف حرم المدرسة. بدوا في العاشرة أو الحادية عشر من أعمارهم، يضعون أوراق الموز على رؤوسهم، ويحملون نماذج بنادق من الخيزران. أطول البنادق كانت لجانب الضابط البيافري، طفل صلب طويل له عظمتا وجنتين حادتان. "تقدموا!" صرخ.
زحف الأولاد للأمام.
"أطلقوا النار!"
قذفوا الحجارة بطول أذرعتهم ثم قبضوا على بنادقهم، اندفعوا صوب الأولاد الآخرين، الجانب النيجيري، الخاسرين.
بدأ الرجل الملتحي يصفق. "هؤلاء الأولاد رائعون! فقط أعطوهم أسلحةً وسوف يدحرون الهمجيين."
صفق الناس الآخرون وحيوا الأولاد. أُهملَت لبرهة سعافُ النخيل.
"تعرفون أنني حاولت الانضمام للجيش حين بدأت الحرب هذه،" قال الرجل ذو اللحية. "ذهبت إلى كل مكان لكنهم كانوا يرفضونني بسبب ساقي لذلك كان عليّ الانضمام إلى الدفاع المدني."

"ماذا بساقك؟" سألته المرأة التي تطحن البذور.
رفع ساقه. نصف قدمه كانت غير موجودة وما تبقى كان مثل قطعة بطاطا قديمة متآكلة.
"فقدتها في الشمال،" قال.
في الصمت الذي تلا، كان صوت تكسير السعاف عاليًا جدًّا. ثم خرجت امرأة من أحد الفصول وراء طفل صغير، تصفع رأس الطفل مرة ومرة. "إذًا أنتَ كسرت صحنًا واحدًا فقط؟ لا، اذهبْ واكسرْ كل صحوني. اكسرها! *كوا ها*! لدينا الكثير، أليس كذلك؟ لقد أتينا بكل صحوننا، أليس كذلك؟ اكسرها!" قالت. بنت صغيرة ركضت نحو شجرة المانجو. قبل أن تعود الأم إلى الفصل، وقفت هناك وراحت تلعن لبرهة، وتتمتم لئلا تنجح تلك الأرواح الشريرة التي أرسلت الطفل لكي يكسر صحونها القليلة.
"ولماذا على الطفل ألا يكسر الصحن؟ أي طعام كان به ليؤكل على أية حال؟" قال المرأة التي تُرضع بمرارة، وهي ما تزال تنشج. ضحكوا، ومالت إيبيرتشي على آجوو وهمست أن الرجل الملتحي نفسه له رائحة عطنة، وربما كان هذا هو السبب في أنهم لم يأخذوه في الجيش. كان آجوو متحرّق ليضغط على جسدها بجسده.
غادرا معًا ونظر آجوو للخلف ليتأكد أن كل الناس قد لاحظوا أنهما غادرا معًا. مرَّ بهما جندي في زي بيافري عسكري وخوذه، يتكلم إنجليزية مخلوطة مشوهة غير مفهومة، بصوت عال جدًّا. كان يتمايل وهو يمشي، كأنما سيدق جوانب الطريق. له ذراع كاملة، والأخرى مبتورة قبل الكوع. شاهدته إيبيرتشي.
"أهله لا يعرفون،" قالت بهدوء.
"ماذا؟"
"أهله يظنون أنه بخير ويقاتل من أجلنا."
كان الرجل يهتف: "لا تهدروا رصاصاتكم! أنا قلتُ الهمجي الواحد برصاصة واحدة بطلقة فورية!" بينما تجمع الأولاد الصغار حوله، يسخرون منه، يضحكون عليه، يغنون بالأسماء المباركة عليه.
كانت إيبيرتشي تسير أسرع قليلاً. "انضم شقيقي للجيش في البدايات."
"لم أكن أعرف."
"نعم. قد عاد إلى البيت مرة واحدة فقط. جاء كل من بالشارع لتحيته وكان الأطفال يتعاركون لكي يلمسوا زيّه."
لم تقل شيئًا آخر حتى وصلا أمام بيتها فاستدارت بعيدًا. "إلى الغد،" قالت.
"أراكِ غدًا،" قال آجوو. وتمنى لو قال لها أكثر.

- - - - -

جهّز آجوو ثلاثة أرائك خشبية في الفيراندا لفصل أولانا واثنين جوار مدخل البناية لفصل مسز موكيليو؛ ولفصله هو الخاص بأصغر التلاميذ، وضع مقعدين جوار كتل الأسمنت.

"سوف ندرّس حساب، إنجليزي، وتربية وطنية كل يوم،" قالت أولانا لآجوو ومسز موكيليو قبل يوم من بدء الفصول. "يجب أن نتأكد أنه حين تنتهي الحرب، سيكونون جميعًا مؤهلين للعودة بسهولة إلى المدارس النظامية. سوف نعلمهم أن يتكلموا إنجليزية متقنة وإيبو متقنة، مثل فخامته. سوف نعلمهم أن يفخروا بأمتنا العظيمة."

كان آجوو يراقبها ويتساءل ما إذا كانت هناك دموع في عينيها أم هو بريق الشمس. كان يود أن يتعلم كل ما يقدر عليه منها ومن مسز موكيليو، لكي يتفوق في التدريس، لكي يُظهر لها أنه قادر على ذلك. كان يعلق سبورته على شجرة مجدوعة في اليوم الأول حينما أحضرت امرأة، قريبة جولويس، ابنتها. حدّقت في آجوو.

"هل هذا هو المعلِّم؟" سألت المرأةُ أولانا.

"نعم."

"أليس هو خادمك؟" كان صوتها حادًّا. "منذ متى أصبح الخدم يدرّسون، *بيكوكوا*؟"

"إذا لم تريدي لطفلتك أن تتعلم، خذيها البيت،" قالت أولانا.

سحبت المرأة ابنتها من يدها وغادرت. كان آجوو واثقا أن أولانا سوف تنظر إليه بتعاطف سوف يزعجه أكثر مما أزعجته المرأة. لكنها هزت كتفيها وقالت: "خلاصٌ جيد. ابنتها لديها قمل. رأيت البيض في شعرها."

كان الآباء الآخرون مختلفين. ينظرون بكل احترام إلى أولانا، إلى وجهها الجميل، إلى عدم مطالبتها أتعابًا، وإلى إنجليزيتها المتقنة. كانوا يحضرون زيت النخيل والبطاطا وجاري. امرأة كانت تبيع عند خطوط العدو أحضرت كتاكيت. وأحضر مقاول عسكري اثنين من أطفاله وصندوقًا من الكتب— *القراءة المبكرة*، ست نسخ من *تشايك والنهر*، ثمان طبعات مبسّطة من *الغرور والمحاباة*؛ حينما فتحت أولانا الصندوق ومدت ذراعيها وبسطت ذراعيها حول الرجل، امتعض آجوو من نظرة البهجة الخبيثة في وجه الرجل.

بعد الأسبوع الأول، أصبح آجوو مقتنعًا أن مسز موكليو تعرف القليل جدًّا. كانت تحسب الحسابات البسيطة دون أدنى ثقة، تتكلم بهمهمة منخفضة حينما تقرأ، كأنما كانت تخاف من الجُمل، وتوبخ تلاميذها حي يخطئون دون أن تخبرهم عن الشيء الصحيح. ولذلك كان يراقب أولانا فقط. "انطقوا! انطقوا!" كانت أولانا تقول لتلاميذها، وصوتها يعلو. "Set-tle> Set-tle. الكلمة ليس بها R!." لأنها كانت تجعل كل واحد من تلاميذها يقرأ بصوت عال كل يوم، جعل آجوو حصته الخاصة لقراءة الكلمات البسيطة بصوت عال. كانت بيبي عادة تذهب أولاً. كانت الأصغر سنًّا، لم تكمل السادسة بعد في فصل السبعة أعوام، لكنها

كانت تقرأ بطلاقة: قطة، إناء، سرير، في لكنة تشبه لكنة أولانا. لم تكن تذكر مع ذلك أن تناديه يا معلّم مثل كل الباقين وكان آجوو يخفي سرورة حينما تقول: "آجوو!"

في نهاية الأسبوع الثاني، بعدما غادر الأطفال، سألت مسز موكيلو أولانا أن تجلس معها في غرفة المعيشة. جذبت معًا نهايتي كوفيتها الطويلة جدًّا ودستهما بين ساقيها.

"لدي اثنا عشر شخصا لأطعمهم،" قالت. "غير أقارب زوجي من أباكاليكي. عاد زوجي من الحرب بساق واحدة. ماذا يقدر أن يعمل؟ سوف أبدأ وأحاول شراء الملح. لن أقدر على التدريس بعد ذلك."

"أنا أفهم،" قالت أولانا. "لكن هل يجب أن تنضمي إليهم في شراء الملح من مقاطعة الأعداء؟"

"ماذا هناك ليُشترى من بيافرا؟ لقد فرضوا علينا الحصار *كبام-كبام*."

"لكن كيف ستذهبين؟"

"هناك امرأة أعرفها. تمد الجيش بالجاري، لذلك منحوها شاحنة من موكب العسكر. سوف تأخذنا الشاحنةُ إلى أوفيوما ثم نمشي إلى حيث الحدود في نكويري- إينيي."

"كم يبلغ طول المشي؟"

"حوالي خمسة عشر أو عشرون ميلاً، لا شيء لا يقدر شخص ذو عزيمة أن يفعله. سوف نحمل عملاتنا النيجيرية لشراء الملح والجاري ثم نمشي عائدين إلى الشاحنة."

"خذي حذرك أرجوكِ يا أختاه."

"الكثيرون يفعلون ذلك ولا شيء حدث لهم." نهضت. "على آجوو أن يدير فصلي. لكنني أعلم أنه قادر على ذلك."

من طاولة الغداء حيث كان يطعم بيبي الجاري والحساء، تظاهر آجوو أنه لم يسمعهما.

باشر فصلها في اليوم التالي. أحبّ نور المعرفة في عيون الأطفال الأكبر سنًّا حينما كان يشرح معنى كلمة، أحب الطريقة العالية الصوت التي كان يقول بها السيد لجوليوس: "زوجتي وآجوو يغيران وجه الجيل القادم للبيافريين عن طريق أصول التعليم السقراطي!" وأحب، أكثر من أي شيء، الطريقة المداعبة التي تناديه بها إيبيرتشي "يا مُعلّم". كانت متأثرة. حينما رآها واقفة جوار بيتها تراقبه وهو يدرّس، كان يرفع صوته وينطق كلماته بدقة أكبر. كانت تأتي أكثر بعد الحصص. تجلس في الفناء الخلفي معه، أو تلاعب بيبي، أو تراقبه وهو ينظف حقل الخضروات من الأعشاب. كانت أولانا أحيانًا تسألها أن تأخذ بعض الذرة لمحطة الطحين أسفل الطريق.

سرق آجوو بعض الحليب والسكر التي أحضرها السيد إلى البيت من المديرية ووضعها في صفيحة قديمة ثم أعطاها لها. قالت "شكرًا لك" لكنها بدت غير مبسوطة، وهكذا في منتصف مساء مؤلم، تسلل إلى غرفة أولانا وسكب بعض البوردة المعطرة في قطعة ورقة مطوية.

كان عليه أن يسعدها. استنشقتها إيبيرتشي ورشت بعضًا منها على عنقها قبل أن تقول: "أنا لم أسألك بودرة."

ضحك آجوو. شعر، لأول مرة، براحة كبرى في وجودها. أخبرته عن إرغام والديها لها لكي تدخل غرفة ضابط الجيش، وأنصت لها كأنما لم يسمع ذلك من قبل.

"كان له بطن كبير،" قالت في نبرة متكسرة. "كان يفعلها سريعًا ثم يطلب مني أن أرقد فوقه. ثم يسقط في النوم فأريد أن أتحرك فيصحو ويطلب مني أن أمكث هناك. لم أكن أقدر أن أنام طوال الليل وأنا أنظر إلى اللعاب الذي يسيل إلى جانب فمه." توقفت. "لقد ساعدنا. وظَّف شقيقي في مكان ثابت بالجيش."

نظر آجوو بعيدًا. كان يشعر بالغضب أنها مرّت بما مرّت به، يشعر بالغضب من نفسه لأن الحكاية ورطته في تخيلها عارية وهو ما أثاره. راح يفكر، في الأيام التالية، في نفسه وفي إيبيرتشي في الفراش، كم سيكون الأمر مختلفًا عن تجربتها مع اللواء. سوف يعاملها بالاحترام الذي تستحقه ويفعل فقط ما تريد هي، فقط ما تريده أن يفعل. سوف يريها الأوضاع التي رآها في كتاب السيد الأزواج الوجيز في نسوكا. الكتاب النحيل الذي أُلقي به في ركن مترب من رف المكتبة، والمرة الأولى التي رآه فيها آجوو، بينما كان ينظف، طالعه بعجالة، ومرّ على الاسكتشات المرسومة بالقلم الرصاص التي غدت بشكل ما أكثر إثارة لأنها غير حقيقية. فيما بعد، أدرك أن السيد ربما لا يذكر أن الكتاب كان هناك لذلك أخذه إلى نُزُل الأولاد ليدرسه على مدى عدة ليال. كان قد فكر في تجربة بعض هذه الوضعيات مع تشينير لكنه أبدًا لم يفعل: كان ثمة شيء حول الصمت الميكانيكي لزياراتها الليلية يجعل التجديد مستحيلاً. تمنى جدًّا لو كان قد أحضر الكتاب معه من نسوكا. كان يود أن يتذكر بعض التفاصيل الدقيقة، ماذا تفعل المرأة بيديها على جانبي الوضعية، على سبيل المثال. فتّش في غرفة نوم السيد وشعر بالحمق لأنه كان يعلم أنه لا سبيل ليجد كتاب الأزواج الموجز هناك. ثم شعر بحزن عميق لقلّة الكتب الموجودة على الطاولة في البيت بأسره.

كان آجوو يعدّ فطور بيبي والسيد يأخذ حمّاما حينما بدأت أولانا تصرخ من غرفة المعيشة. كان الراديو مدارًا عاليًا جدًّا. جرت خارجة إلى الخلف، خارج البيت تحمله في يدها. "أودينيبو! أودينيبو! لقد اعترفت بنا تنزانيا!"

خرج السيد بالكاد يغطيه رداء الحمام مربوطًا حول خصره، صدره مغطًى بالشعر المبتل اللامع. وجهه الباسم من دون نظارته السميكة بدا مضحكًا. "جيني؟ ماذا؟"

"اعترفتْ بنا تنزانيا!" قالت أولانا.

"إيه؟" قال السيد وتعانقا وضغطا شفاهما، وجهاهما متلاصقان معًا، كأنما يتنفسان هواء بعضهما البعض.

ثم أخذ السيد الراديو وضبطه. "هيا نتأكد. لنسمعها من محطات أخرى."

إذاعة صوت أمريكا كانت تذيع الخبر، كذلك راديو فرنسا، التي ترجمتها أولانا: كانت تنزانيا الدولة الأولى التي اعترفت بوجود دولة بيافرا المستقلة. وأخيرًا وجدت بيافرا. دغدغ آجوو بيبي فضحكت.

"سوف يدخل نيرير التاريخ بوصفه رجلَ الحقيقة،" قال السيد. "بالطبع، ثمة بلدان كثيرة تود أن تعترف بنا لكنها لا تفعل بسبب أمريكا. أمريكا هي الحجرة العثرة!"

لم يفهم آجوو كيف تُلام أمريكا لعدم اعتراف الدول الأخرى ببيافرا— كان يظن أن بريطانيا هي الملامة— لكنه أعاد كلمات السيد على إيبيرتشي ذلك الأصيل، بحس مسؤول كأنما كانت كلماته هو. كان الجو حارًّا ووجدها نائمة على الحصيرة في ظل شرفتهم.

"إيبيرتشي، إيبيرتشي،" قال.

نهضت بعينين حمراوين، ونظرة جريحة لشخص انتزِع من نومه. لكنها ابتسمت حينما رأته. "يا مُعلّم، هل أنهيت مهام يومك؟"

"هل سمعت أن تنزانيا قد اعترفت بنا؟"

"نعم، نعم." مسحت عينيها وضحكت، بصوت فرِح جعل آجوو أكثر سعادة.

"أمريكا هي السبب في أن بلدانًا كثيرة أخرى لم تعترف بنا؛ أمريكا هي الحجرة العثرة،" قال.

"نعم،" قالت. كانا جالسين جنبًا إلى جنب على درج السلم. "لدينا خبران جميلان اليوم. عمتي هي الآن الممثل الإقليمي لكاريتاس. قالت إنها سوف تمنحني وظيفة في مركز الإغاثة في سان جون. وهذا يعني أنني سوف أنال المزيد من الفسيخ!"

مدت يدها وداعبت عنقه، بضغطة خفيفة بأصابعها. نظر إليها. هو لم يكن يريد فقط أن يعتصر مؤخرتها العارية، إنما كان يريد أن يستيقظ جوارها وهو يعلم أنه سوف ينام إلى جوارها كل يوم، يود أن يتحدث إليها وينصت إلى ضحكتها. لم تكن تشبه تشينير، هذا يقيني، لكنها تشبه نيسيناتشي الواقعية أكثر، حدث أن اهتم بها أول مرة بسبب ما تقول وما تفعل، وليس لما يتخيل هو أن تقول أو تفعل. كان منفعلاً جدًّا بجيشانِ إدراكه وأراد أن يقول، كثيرًا وكثيرًا، إنه قد أحبها. لقد أحبها. لكنه لم يقل. جلسا وراحا يمجدًّان تنزانيا ويحلمان بالفسيخ وكانا مازالا يتحدثان حينما مرقت سيارة بيجو 405 عبر الشارع. ثم عكست اتجاهها، في صوت عال، كأنما السائق يود أن يصنع أكبر تعبير ممكن، ثم وقفت أمام البيت، وكانت عبارة "الجيش البيافري" مكتوبة عليها بخشونة بالأحمر وبخط اليد.

خرج جندي، حاملاً بندقية، مرتديًا زيه بأناقة حتى أن خطوط المكواة كانت واضحة عليه.
نهضت إيبيرتشي ومشت نحوهم.
"مساء الخير،" قالت.
"هل أنت إيبيرتشي؟"
أومأت. "هل هذا بسبب أخي؟ هل حدث شيء لشقيقي؟"
"لا، لا." كانت هناك معرفة خبيثة على وجهه كرهها آجوو لحظيًّا. "اللواء نوجوا يطلبك. هو في البار عند نهاية الشارع."
"أوه!" تركت إيبيرتشي فمها مفتوحًا، ويدها على صدرها. "أنا آتية، آتية." استدارت ودخلت. شعر آجوو أنها قد خانته بحماسها. كان الجندي يحدّق به.
"مساء الخير،" قال آجوو.
"من أنت؟" سأل الجندي. "هل أنت مدنيٌّ عاطل عن العمل؟"
"أنا مُعلّم."
"معلّم؟ *أونـي نكوزي*؟" لوّح ببندقيته للأمام والخلف.
"نعم،" أجاب آجوو بالإنجليزية. "نحن ننظم فصولاً في هذه المجاورة السكنية ونعلِّم الصغار مثاليات بيافرا." كان يأمل أن تبدو إنجليزيته مثل إنجليزية أولانا؛ وآمل أيضا أن يخيف تأثيرُه الجنديَّ لئلا يسأله المزيد من الأسئلة.
"أية فصول؟" سأل الجندي، فيما يشبه الهمهمة. بدا مهتمًا وغير واثق.
"نحن نركّز على التربية الوطنية والرياضيات والإنجليزية. مدير التعبئة يرعى جهودنا."
حدّق الجندي.
هرعت إيبيرتشي للخارج؛ حمل وجهُها طبقة من البودرة البيضاء، وحاجباها سُوِّدا، وشفتاها حُمّرتا.
"هيا نذهب،" قالت للجندي. ثم انحنت وهمست لآجوو: "سوف أعود. إذا سألوا عني من فضلك قل إنني ذهبت لأُحضر شيئًا ما من منزل نجوزي"
"أوكي سيدي المعلّم! أراك لاحقًا!" قال الجندي ففكر آجوو أنه رأى بريق انتصار في عينيه، حمق الجاهل. لم يتحمل آجوو أن يراهما يرحلان؛ راح ينظر إلى أظافره. أضعفه مزيجٌ من الألم والحيرة والخجل. لم يقدر أن يصدق أنها سألته حالا أن يكذب من أجلها بينما هي تركض لتقابل رجلاً لم تذكره أبدًا أمامه من قبل. ساقاه كانتا بليدتين وهو يمشي عبر الطريق. كل شيء فعله بقية اليوم كان ملوّنًا بالمرارة، وفكّر أكثر، أكثر من مرة، في أن يمضي إلى نهاية الطريق نحو البار ليرى ماذا يحدث هناك.
كان الظلام حينما طرقت الباب الخلفي.

"هل تعلم أنهم غيروا اسم بار الشمس المشرقة؟" سألت وهي تضحك. "اسمه الآن بار تنزانيا!"

نظر إليها ولم يقل شيئًا.

"كانوا يعزفون الموسيقى التنزانية ويرقصون، وجاء أحد رجال الأعمال وطلب للجميع دجاجًا وبيرة." قالت.

غيرتُه كانت تمزق أحشاءه؛ صعدت إلى حلقه وحاولت خنقه.

"أين الخالة أولانا؟" سألت.

"تقرأ مع بيبي،" نجح آجوو أن يقول. كان يريد أن يرجّها حتى تخبره بالحقيقة كاملة حول تلك الأمسية، ماذا فعلت مع الرجل، لماذا ذهب أحمر الشفاة من على شفتيها.

تنهدت إيبيرتشي. "هل لديك بعض الماء؟ أنا ظمأى. شربت اليوم بيرة."

لم يصدق آجوو كيف هي عادية ومرتاحة هكذا. صب بعض الماء في كوب فشربته في بطء.

"قابلت اللواء قبل عدة أسابيع؛ أوصلني حينما كنت ذاهبة إلى أورلو، لكنني لم أعتقد أنه حتى سيذكرني. هو رجل لطيف حقًّا." توقفت إيبيرتشي. "أخبرته أنك شقيقي. قال إنه سيعمل على ألا يأتي أحد ليجندك." بدت فخورة بما قدمت، وشعر آجوو أنها تنزع أسنانه ببطء، واحدة فواحدة.

أشاح بعيدًا. لا يحتاج فضائل من حبيبها. "عليّ أن أنظّف،" قال بجفاء.

شربت كوبًا آخر من الماء قبل أن تقول: "*نجوانا*؛ دعِ الفجرَ يأتي،" ثم غادرت.

توقف آجوو عن الذهاب إلى منزل إيبيرتشي. تجاهل تحاياها، كان غاضبًا من نظرتها واسعة العينين وسؤالها: "ما هذا يا آجوو؟ ماذا فعلت لأغضبك؟" وأخيرًا، توقفت عن سؤاله أو الحديث معه. وهو لم يعبأ. على أنه حين سمع صوت سيارة تمر، ركض ليرى ما إذا كانت سيارة الجيش البيافري البيجو 405. كان يراها تغادر في الصباحات وفكر أنها ربما هي واللواء قد رتبا مكانًا ثابتًا للقاء حتى جاءت ذات يوم لتعطي أولانا بعض الفسيخ. فتح الباب وأخذ لفّة صغيرة دونما كلمة واحدة.

"يا لها من فتاة لطيفة، *إيزيبو نوا*،" قالت أولانا. لابد أنها عملت جيدًا في مركز الإغاثة."

لم يقل آجوو شيئًا. أحبطه تأثُّر أولانا، مثلما أحبطته الطريقة التي سألت بها بيبي متى تأتي الخالة إيبيرتشي لتلعب معها. كان يريدهما أن يشعرا تجاهها بنفس الغضب من الخيانة مثله. ود أن يخبر أولانا بما حدث. صحيح أنه لم يتحدث معها في هذه الأشياء الخاصة من قبل لكنه شعر أن بوسعه ذلك. خطط للأمر بعناية ليوم الجمعة، اليوم الذي ذهب فيه السيد إلى بار تنزانيا مع جوليوس بعد العمل. أخذت أولانا بيبي لزيارة مسز موكيلو، وبينما كان ينتظر عودتهما راح آجوو ينقّي الحديقةَ من الأعشاب الضارة وكان قلقًا من أن تكون

حكايته وهمية. سوف تضحك أولانا عليه بهذه الطريقة الصبور التي تضحك بها على السيد حينما يقول شيئًا سخيفًا. لم تحدثه إيبيرتشي أبدًا عن مشاعرها نحوه، في الأخير. لكنها حتمًا لن تقدر أن تزعم أنها لا تعرف شعوره تجاهها. كان من القسوة أن تقذف بحبيبها ضابط الجيش هكذا في وجهه، حتى ولو كانت لا تشعر تجاهه بنفس مشاعره.

شدّ أذر نفسه ودخل حينما سمع أولانا. كانتا في غرفة المعيشة، بيبي جالسة على الأرض تفض شيئًا ملفوفًا في جريدة قديمة.

"مرحبًا يا ماه،" قال آجوو.

استدارت أولانا لتنظر إليه، وأفزعه الحياد في عينيها. شيء ما كان خطأ. ربما اكتشفت أنه أعطى بعض الحليب المجفف لإيبيرتشي. لكن عينيها كانتا خاويتين جدًّا، مسطحتين جدًّا، بشكل أكبر من مجرد غضبها لسرقته الحليب من أسابيع مضت. شيء ما كان خطأ جدًّا. هل بيبي مريضة من جديد؟ رمق آجوو بيبي، التي كانت مشغولة بلفة الجريدة. تقلصت معدته من احتمالية أخبار سيئة.

"ماه؟ هل حدث شيء؟"

"ماتت والدة سيدك."

اقترب آجوو لأن كلمتها قد تجمدت، تحولت إلى أشياء معلّقة تحوّم فوقه لا يقدر أن يصلها. استغرق دقيقة ليفهم.

"ابن عمه أرسل رسالة،" قالت أولانا. "أطلقوا عليها النار في آبا."

"هيي!" وضع آجوو يده على رأسه وجاهد ليتذكر كيف كان شكل الماما في آخر مرة رآها فيها، واقفةً جوار شجرة جوز الكولا، رافضةً أن تترك البيت. لكنه لم يقدر أن يرسم لها صورة. بدل ذلك استدعى صورة مهزوزة لها في المطبخ في نسوكا، تفتح وعاء ذرة الفلفل. امتلأت عيناه بالدموع. وتساءل أية فجائع جديدة سوف يعرف. ربما الهمج الهاوسا قد احتلوا بلدته؛ ربما قتلوا أمه أيضًا.

حينما عاد السيد إلى البيت ودخل غرفة النوم، لم يدر آجوو أيذهب إليه في غرفة النوم أم ينتظر خروجه. قرر الانتظار. أشعل موقد الكيروسين ومزج حساء بيبي. تمنى لو كان أقل امتعاضًا من رائحة حساء الماما القوية.

دخلت أولانا المطبخ.

"لماذا تستخدم موقد الكيروسين؟" صرخت. "*آي نايزوزو إزوزو*؟ هل أنت غبي؟ ألم أخبرك أن توفر في الكيروسين؟"

فزع آجوو. "لكن يا ماه، لقد قلتِ إنني يجب أن أطهو طعام بيبي على الموقد."

"لم أقل ذلك! اذهب للخارج وأشعلْ نارًا!"

"آسف يا ماه." لكنها بالفعل قد قالت ذلك؛ بيبي تأكل ثلاث مرات في اليوم الآن— بقيتهم يأكلون مرتين— وأولانا قد طلبت إليه أن يطهو طعامها على موقد الكيروسين لأن رائحة الخشب في النار يجعل بيبي تسعل.

"هل تعرف كم يكلف الكيروسين؟ فقط لأنك لا تدفع ثمن الأشياء التي تستخدمها تظن أن بوسعك أن تتصرف فيها كما تشاء؟ إذا لم تكن نار الخشب نفسها رفاهية، من أين أتيت أنت؟"

"آسف يا ماه."

جلست أولانا على كتلة الأسمنت بالفناء الخلفي. أشعل آجوو نارًا وأنهى طهو غداء بيبي. كان مدركًا أن عينيها عليه.

"سيدك لن يتكلم معي،" قالت.

وقفة الصمت الطويلة ملأت آجوو بشعور عميق بحميمة غير مريحة؛ لم تكلمه من قبل أبدًا عن السيد هكذا.

"أسف يا ماه،" قال وجلس جوارها؛ أراد أن يضع يده على ظهرها ليطمئنها لكنه لم يقدر وبذا ترك يده معلّقة، على بعد عدة بوصات من لمسها، إلى أن تنهدت ونهضت ودخلت.

جاء السيد ليخرج خارج البيت.

"سيدتي أخبرتني بما حدث يا صاح،" قال آجوو. "ندو. آسف."

"نعم، نعم،" قال السيد ومشى بسرعة.

كان هذا غير كاف بالنسبة لآجوو، تغيرهما، شعر كأنما موت الماما يحتاج كلمات أكثر، إيماءات أكثر، وقتًا مشتركًا أكثر فيما بينهما. لكن السيد بالكاد رمقه. وحينما جاء جوليوس فيما بعد ليقول ندو، كان ردُّ السيد سريعًا ومقتضبًا.

"بالطبع على المرء أن يتوقع قتلى. الموت هو ثمن تحررنا،" قال، باقتضاب ونهض إلى غرفة النوم تاركًا أولانا تهز رأسها لجوليوس، وعيناها مليئتان بالدمع.

ظن آجوو أن السيد سيبقى في البيت من العمل في اليوم التالي، لكنه أخذ حمّامًا مبكرًا عن الموعد المعتاد. لم يشرب شايه ولا مسّ شرائح البطاطا الذي دفأها آجوو من الليلة السابقة. لم يزرر قميصه.

"لن تقدر أن تعبر إلى بيافرا-2 يا أوديتيبو،" قالت أولانا، وهي تتبعه للخارج حيث السيارة. أزاح السيد سعف النخيل المكوم عليها. ظلت أولانا تقول شيئًا لم يقدر أن يسمعه آجوو بينما انحنى السيد في صمت وفتح السيارة ودخل. قاد السيارة بعيدًا بتلويحة طفيفة. ركضت أولانا عبر الطريق. فكر آجوو، في لحظة عبث، أنها تطارد سيارة السيد لكنها عادت وقالت إنها طلبت إلى جوليوس أن يتبعه ويعود به.

"قال إنه يجب أن يذهب ويدفنها. لكن الطرق محتلة. الطرق محتلّة،" قالت. عيناها كانتا مركزتين على مدخل المجاورة. مع كل صوت تسمعه— زمجرة شاحنة تمر، زقزقة طائر، صرخة طفل— كانت تجري من أريكة الشرفة وتنظر للطريق. مرت جماعة من الناس مسلحين بالسكاكين يغنون. قائدهم بذراع واحدة.

"أيها المعلمة! حسنٌ ما تفعلين!" نادى أحدهم، حينما رأى أولانا. "إننا ذاهبون لتمشيط المنطقة! ذاهبون لتعقّب المتسللين!"

كانوا قد مروا تقريبًا حينما وثبت أولانا وهتفت: "أرجوكم ابحثوا عن زوجي في سيارة أوبل زرقاء!"

استدار أحدهم ولوّح لها بنظرة غامضة.

كان بوسع آجوو الشعور بحرارة شمس الأصيل الساطعة حتى تحت السقيفة القش. بيبي تلعب حافية القدمين في الفناء الأمامي. دخلت سيارة جوليس الأمريكانية الطويلة فقفزت أولانا.

"ألم يعد؟" سأل جوليوس من السيارة.

"أنت لم تره،" قالت أولانا.

بدا جوليوس قلقًا. "لكن مَن أخبر أودينيبو أنه قادر على اختراق الطرق المحتلَّة؟ من أخبره؟"

تمنى آجوو أن يخرس الرجل. ليس له الحق أن ينتقد السيد، وبدلاً من الجلوس هناك في ردائه الطويل القبيح الأفضل أن يستدير ويذهب للبحث جيدًا عن السيد.

بعدما غادر جوليوس، جلست أولانا ومالت إلى الأمام ووضعت رأسها فوق يديها.

"هل تريدين بعض الماء يا ماه؟" سأل آجوو.

هزت رأسها. شاهد آجوو الشمس تغيب. وهجم الظلام سريعًا، بوحشية؛ لم يكن هناك تدرج من النور إلى العتمة.

"ماذا سأفعل؟" سألت أولانا. "ماذا سوف أفعل؟"

"سوف يعود السيد يا ماه،"

لكن السيد لم يعد. جلست أولانا في الشرفة حتى مرّ منتصف الليلة، ساندةً رأسها إلى الحائط.

(27)

كان ريتشارد على طاولة الطعام حينما رنّ جرسُ الباب. خفّض صوت الراديو ورتّب أوراق الكتابة قبل أن يفتح الباب. كان هاريسون واقفًا هناك: جبهته، عنقه، ذراعاه، وساقاه تحت الشورت الكاكي جميعها كانت مربوطةً بالضمادات المدمّاة.

البللُ الأحمر جعل ريتشارد يشعر بالإغماء. "هاريسون، يا إلهي الطيب. ماذا حدث لك؟"

"مساء الخير يا مستر."

"هل هوجمت؟" سأل ريتشارد.

دخل ريتشارد ووضع حقيبته الممزقة ثم بدأ في الضحك. حدّق فيه ريتشارد. حينما رفع هاريسون يديه ليفك ضمادات الدم من على رأسه، قال ريتشارد: "لا، لا، لا داعي لأن تفعل ذلك. لا داعي على الإطلاق. سأطلب السائق حالاً. سوف نأخذك إلى المستشفى."

شد هاريسون الضمادة فجأة. كانت رأسه ناعمة؛ ليس من أثر لجرح، ولا علامة واحدة تظهر أي أثر للدماء.

"إنه شمندر يا صاح،" قال هاريسون، ثم ضحك من جديد.

"شمندر؟"

"نعم يا صاح."

"أليس دمًا إذًا، أنت تعني؟"

"لا يا صاح." دخل هاريسون أكثر في غرفة المعيشة وتعمد الوقوف في الركن، لكن ريتشارد سأله أن يجلس. جثم على حافة المقعد. غادرت الابتسامة وجهه حين بدأ الكلام.

"أنا آتٍ من بلدتي، يا صاح. لن أخبر أي مخلوق أن بلدتنا سوف تسقط قريبًا حتى لا يقولوا إنني مخرّب. لكن الجميع يعلم أن الهمج قريبون جدًّا. سمعنا القصف منذ يومين حتى، لكن القنصل يقول إن قواتنا تتمرن. لذلك أخذت أسرتي ونعجاتنا داخل عمق الحقل. ثم شرعت في المجيء إلى بورت هاركورت لأنني لا أعلم ماذا حدث لسيدي. حتى أنني أرسلت رسالة مع السائق إلى بروفيسور بليدن منذ عدة أسابيع."

"لم تأتني أية رسالة."

"رجل أحمق،" تمتم هاريسون، قبل أن يستأنف. "نقعت قطع قماش في ماء الشمندر الطازج وربطتها كضمادات وقلت أنني ناجٍ من غارة جوية. لذلك فقط سمح لي الحراس أن أدخل الشاحنة. الرجال المجروحون فقط يتبعون النساء والأطفال."

"وإذًا ماذا حدث في نسوكا؟ كيف غادرت؟"

"إنها عدة شهور الآن يا صاح. حينما سمعت القصف جمعت أغراضك ودفنت المخطوطة داخل صندوق في الحديقة، جوار شجرة الورد التي زرعها جومو آخر مرة."

"دفنت المخطوطة؟"

نعم يا صاح، لكيلا يأخذوها مني في الطريق."

"نعم، بالطبع،" قال ريتشارد. كان أملاً غير منطقي أن يُحضر هاريسون معه "في زمن الأواني الحَبْيلة". "وإذًا كيف سارت أمورك؟"

هز هاريسون رأسه. "الجوع كافر يا صاح. أهلي يراقبون النعاج."

"يراقبون النعاج؟"

"ليروا ماذا تأكل، وبعدما يرون يسلقون نفس أوراق الشجر ويعطونها لأطفالهم ليشربوا. هذا يوقف سوء التغذية الحاد."

"مفهوم،" قال ريتشارد. "اذهبْ الآن إلى نُزُل الأولاد وخذْ حمّامًا."

"حاضر يا صاح." نهض هاريسون.

"وما هي خططك الآن؟"

"صاح؟"

"هل تخطط أن تعود لبلدتك؟"

راح هاريسون يعبث بضمادة الذراع، الكثيفة بالدم الزائف.

"لا يا صاح. سأنتظر حتى تنتهي الحرب لذلك سأطهو لسيدي."

"بالطبع،" قال ريتشارد. كان من الجيد أن اثنين من خدم كاينين قد غادرا لينضما إلى الجيش ولم يبق إلا إيكيدجي.

"لكن يا صاح، يقولون إن بورت هاركورت سوف تسقط قريبًا. سيأتي الهمج بسفن كثيرة من بريطانيا. إنهم يقصفون بورت هاركورت الآن."

"اذهبْ وخذْ حمّامك يا هاريسون."

"حاضر يا صاح."

بعدما غادر هاريسون رفع ريتشارد صوت الراديو. راق له الإيقاع المنتشي العربي للصوت في رادوي كادونا، لكنه لم يحب اليقين الطَرِب الذي قال به: "لقد تحررت بورت هاركورت! لقد تحررت بورت هاركورت!" ظلوا يتكلمون عن سقوط بورت هاركورت على مدى اليومين السابقين. كذلك راديو لاجوس، لكن بطرب أقل وطأة. كذلك راديو بي بي سي أعلن أن سقوط بورت هاركورت الوشيك هو سقوط بيافرا؛ فبيافرا سوف تفقد ميناءها البحري الحيوي، ميناءها الجوي، وسيطرتها على النفط.

نزع ريتشارد السدادة الخيزران من القنينة وصب لنفسه بعض الشراب. انسكب السائل الوردي بدفء محبب داخل جسمه. وتماوجت المشاعر في رأسه— الراحة لأن هاريسون

حيّ، الإحباط لأن مخطوطته مدفونة في نسوكا، الترقب بشأن مصير بورت هاركورت.
قبل أن يصب كأسا آخر، قرأ العلامة على القنينة: جمهورية بيافرا، مديرية الإنتاج والأبحاث، نني شيري 45%. ارتشف ببطء. كان مادو قد أحضر صندوقين في آخر زيارة له، ممازحًا بأن الشراب المصنوع محليًّا في قناني البيرة القديمة كان جزءًا من جهود النصر-في-الحرب.
"بعض الناس يقولون إن أوجيوكوا يشرب هذا، لكنني أشك في ذلك،" قال. "أنا شخصيًّا أشرب الأنواع الصافية لأنني لا أثق في تلك الألوان."
انعدام اللياقة لدى مادو، في أن يسمّي فخامته باسمه المجرد "أوجيوكوا"، كان دائمًا ما يزعج ريتشارد لكنه لم يكن يقول شيئًا لأنه لم يكن يريد أن يرى ابتسامة مادو المسرورة المتكلّفة، نفس التكلّف حينما أخبر كاينين: "نحن ندير سيارتنا بخليط من الكيروسين وزيت النخيل" أو "نحن قد أتقنا الأوبنجوي الطائرة" أو "نحن صنعنا من المخلّفات سيارة مُصفّحة."
كانت "نحن" التي يقولها حادة بالإقصاء واستبعاد الآخر. ذلك التوكيد المدروس جيدًا، الصوت المُعمَّق، كان يعني أن ريتشارد ليس جزءًا من "نحن"؛ ذاك أن الزائر لا يأخذ مكانة أصحاب البيت.
وهكذا، ومنذ أسابيع مضت، أصاب ريتشارد الارتباك حينما أخبرته كاينين: "مادو يود أن تكتب لمديرية الإعلان. سوف يحصل لك على بطاقة مرور وبنزين لسيارتك حتى تستطيع التحرك. سوف يرسلون مقالاتك إلى العلاقات العامة لدى أهالينا بالخارج."
"لماذا أنا؟"
هزّت كاينين كتفيها. "ولمَ لا؟"
"الرجل يكرهني."
"لا تكن مسرحيًّا. أظن أنهم يريدون خبراء من الداخل ليكتبوا وقائع عما يدور أكثر من مجرد أعداد موتى في بيافرا."
في البدء أرعشت كلمة "الداخل" ريتشارد. لكن الشك بدأ يزحف للخارج؛ "الداخل" كانت كلمة كاينين في النهاية، وليست كلمة مادو. كان مادو يراه كأجنبي، ما جعله ربما يراه مناسبًا لذلك. حينما هاتفه مادو وسأله إن كان بوسعه أن يفعل ذلك، قال ريتشارد: لا.
"هل فكرت بالأمر؟" سأل ريتشارد.
"علّك لم تكن لتطلب مني ذلك لو لم أكن من البيض."
"بالطبع طلبت منك ذلك لأنك أبيض. سوف يأخذون ما تكتبه بجدية أكبر لأنك أبيض. اسمعْ، الحقيقة هي أن تلك ليست معركتك. ليست قضيتك. حكومتك سوف تجليك عن المنطقة في لحظة لو أنك طلبت منها ذلك. لذلك ليس كافيًا أن تحمل أغصانًا رخوة وتهتف "القوة، القوة" لكي تظهر تأييدك لبيافرا. إذا بالفعل كنتَ تود المساهمة، فتلك هي الطريقة

التي يمكنك فعلها. العالم لابد أن يعرف حقيقة ما يحدث، لأنه ببساطة لا يمكنه أن يظل ساكنًا بينما نحن نموت. سوف يصدقون رجلاً أبيض يعيش في بيافرا وليس صحافيًّا محترفًا. بوسعك أن تخبرهم كيف أننا مستمرون في الصمود منتصرين برغم الميج ال17 النيجيرية، وال 28، ول 29، التي يقودها طيارون روس ومصريون وتقذفنا بالقنابل كل يوم، وكيف أن بعضهم يستخدم طائرات ركاب يدحرجون منها القنابل بخشونة ليقتلوا النساء والأطفال، وكيف أن البريطانيين والسوفيت في زواج غير مقدس يعطون المزيد والمزيد من السلاح لنيجيريا، وكيف رفض الأمريكان مساعدتنا، وكيف أن طائرات الإغاثة تأتينا في الليل دون أنوار لأن النيجيريين سوف يطلقون عليها النار أثناء النهار...."

توقف مادو ليلتقط أنفاسه، فقال ريتشارد: "حاضر، سوف أقوم بالمهمة." ظلت عبارة "*لا يمكن أن يظلوا ساكنين بينما نموت نحن*" ترنّ في رأسه.

مقالته الأولى كانت عن سقوط أونيتشا. كتب أن النيجيريين كانوا قد حاولوا عدة مرات أن ينالوا هذه البلدة العريقة لكن البيافريين قاتلوا ببسالة، وأن المئات من الروايات الشعبية قد صدرت هنا قبل الحرب، وأن الدخان الكثيف الحزين الصاعد من جسر النيجر المحترق كان يعلو مثل قصيدة رثاء باذخة متحدية. وصف الكنيسةَ الكاثوليكية المقدسة، التي تغوّط الجنود النيجيريون فيها قبل أن يقتلوا مائة من المدنيين. ونقل كلمة هادئة لشاهد عيان: "الهمجيون هم إناس يتغوطون على الرب. سوف ينتقم منهم."

بينما يكتب المقال، كان يشعر أنه صبي في المدرسة من جديد، يكتب خطابات للعمة إليزابيث بينما المدير يراقبهم. كان ريتشارد يذكره جيدًا، ببشرته الرقطاء، وكيف كان يسمي مادة العلوم "قذارة"، وكيف كان يأكل عصيدته وهو يتجول في قاعة الطعام لأنه كان يقول إن هذا ما كان يفعله النبلاء. مازال ريتشارد غير قادر على تحديد أيهما يكره أكثر في ذلك الوقت، أن يُرغم على كتابة الرسائل بالبيت أم أن تكون حصة كتابة الخطابات مراقَبة. كما أنه لم يستطع أن يحدد أيهما لا يحب الآن، تخيُّل مادو وهو يراقبه أم إدراكُه أنه يهتم جدًّا بما يفكر فيه مادو. جاءت ورقة من مادو بعد عدة أيام. "*كان هذا عملاً جيدًا جدًّا (ربما أقل تأنقًا قليلاً المرة القادمة؟) وقد أرسلوه إلى أوربا.*" كان خط مادو صعب القراءة، وعلى ورقة الكتابة كانت عبارة ***نيجيريون من جيش نيجيريا*** مشطوبةً بقلم حبر ومكتوب بدلاً منها ***بيافريون*** بخط سريع وحروف كبيرة. لكن كلمات مادو أقنعت ريتشارد أنه اتخذ القرار الصواب. راح يتخيل نفسه وينستون تشرشل شابًّا يتابع معركة كيتشنر في أم درمان، معركة الأسلحة الكبرى مقابل جيوش الأسلحة الصغرى، ماعدا ذلك، على عكس تشرشل، كان هو منحازًا للنصر الأخلاقي.

والآن، وبعد مرور أسابيع، وبعد المزيد من المقالات، شعر أنه جزء من الأمور. بدأ يجد المتعة في الاحترام في عيني السائق، وهو يقفز ليفتح الباب رغم أن ريتشارد كان أخبره

ألا يفعل ذلك. شعر بالسعادة في سرعة تحول نظرات الشك في رمقات الدفاع المدني لبطاقة مروره التي سرعان ما تحولت إلى ابتسامة عريضة وهو يحييهم بالإيبو، في كيف أن الناس بدأوا يسارعون بإجابة أسئلته. شعر بالسعادة من علو المكانة التي ارتقاها مع الصحافيين الأجانب، وهو يتكلم بغموض عن خلفيات الحرب- المعانى المضمونية في الذريات القومية وتعداد السكان وفوضى المنطقة الغربية- وهو يعلم طيلة الوقت أنهم لا يعلمون عما يتكلم.

لكن سعادته القصوى جاءت من لقائه بفخامته[1]. كان هذا في بداية خشبة مسرحية أويري. كانت غارة جوية قد أطاحت بزجاج نوافذ المسرح وهبت نسائم المساء حاملةً بعض كلمات الممثلين للخارج. كان ريتشارد يجلس وراء فخامته بعدة صفوف، وبعد العرض، تقدم رجل مهم في مديرية التعبئة وقدمه له. المصافحةُ الصلبة، ال "شكرًا لك على عملك الجيد الذي تؤديه" بتلك اللكنة الأكسفوردية الناعمة، ملأت ريتشارد بالاتزان. رغم ذلك فقد وجد أن تلك اللعبة السياسية شديدة الوضوح، لكنه لم يقل ذلك. لقد وافق مع فخامته: هذا كان رائعًا، رائعًا جدًّا.

كان بوسع ريتشارد أن يسمع هاريسون في المطبخ. ضبط الراديو على إذاعة بيافرا، على نهاية الإعلان عن تطويق العدو في أوبا، قبل أن يغلق الراديو. صب كمية أقل من الشراب وأعاد قراءة الجملة الأخيرة. كان يكتب عن قوات الجنود الخاصة الكوماندوز، كم كانوا شعبيين ومحبوبين من قِبل المدنيين، لكن كراهته قائدهم، الرجل الارتزاقي الألماني، جعلت كلامه حادًّا. كانت الكتابة مصطنعة متكلفة. الخمر الأسبانية زادت من حدّة حماسته بدل أن تميتها. نهض والتقط الهاتف وخابر مادو.

"ريتشارد،" قال مادو. "يا للحظ. لقد دخلتُ البيت لتوّي."

"هل هناك أخبار من بورت هاركورت؟"

"أخبار؟"

"هل هي مهددَة؟ لقد كان هناك قصفٌ في أوميوكيورسو، أليس كذلك؟"

"أوه، لدينا معلومات موثقة أن بعض المخربين لديهم بعض القنابل. هل تظن أن الهمج لو كانوا قريبين جدًّا هكذا سيعملون ذلك القصف خائر القلب؟"

النغمة المسرورة في صوت مادو جعلته يشعر لحظيًّا بالحمق. "أعتذر عن الإزعاج. فقط أنا ظننت..." ترك صوته يتقهقر خفوتًا.

"لا عليك. أبلغ تحيتي لكاينين حينما تعود،" قال مادو قبل أن يغلق الخط.

أنهى ريتشارد شرابه وهمَّ بأن يصبَّ لنفسه كأسًا آخر لكن عدل عن قراره. دسّ السدادة ثانية في فم القارورة وخرج إلى الشرفة. كان البحر ساكنًا. تمطّى ومرّر يده سريعًا عبر

---

[1] - His Excellency- يقصد بها فخامة الرئيس

شعره، كأنما لا يبالي برفضه الأمر. لو كانت بورت هاركورت قد سقطت، فلسوف يخسر البلدة التي أحبّها، البلدة التي أحبّ فيها؛ سوف يفقد جزءًا من ذاته. لكن مادو يجب أن يكون على حق. مادو لم يكن لينكر بلدة على وشك السقوط، وليس بالتأكيد البلدة التي تعيش بها كاينين. حينما يقول إن بورت هاركورت ليست تحت التهديد، فهي بالتأكيد كذلك.

نظر ريتشارد إلى صورته الغائمة في زجاج الباب. بشرته مُلوّحة وشعره غدا أكثر غزارة، أشعث قليلا، ففكر في كلمات رامبو: *هذا شخصٌ آخر*.

ضحكت كاينين حينما أخبرها ريتشارد عن شمندر هاريسون. لمست ذراعه وقال: "لا تقلق، إذا وضع المخطوطة في صندوق، فسوف تكون آمنةً من النمل الأبيض." خلعت ملابس العمل وتمطّت بكسل، فأعجب ريتشارد بالحسن النحيل لظهرها المقوّس. اشتعلت الرغبة داخله، لكن كان عليه الانتظار للمساء، بعد العشاء، بعدما يكونان قد استقبلا أي ضيوف، بعدما استقال إيكيدجي. سيدخلان الشرفة وسوف يزيح المائدة جانبًا ويبسط السجادة الناعمة ويرقد على ظهره العاري. وحينما تعتليه منفرجة الساقين سوف يقبض على مؤخرتها ويشخص عاليًا نحو سماء الليل، ثم، خلال تلك اللحظات، سيكون واثقًا من معنى النشوة والسعادة. كان هذا هو طقسهما منذ بدأت الحرب، السبب الأوحد الذي جعله ممتنًا للحرب.

"كولن ويليسون مرّ على مكتبي اليوم،" قالت كاينين.

"لم أكن أعرف أنه عاد،" قال ريتشارد، وقد لاح بعقله وجه كولن المحترق بالشمس، ووميض أسنانه ذات اللون الفاسد فيما يتكلم، غالبًا، حول كيف ترك ال BBC لأن محرريها كانوا مناصرين نيجيريا.

"جلب خطابًا من أمي،" قالت كاينين.

"من أمك!"

"قرأت حكايته في الأوبزرفر[1] فاتصلت به لتسأله ما إذا كان سيعود إلى بيافرا وإن كان بوسعه أن يسلم خطابها لابنتها في بورت هاركورت. واندهشت حينما قال إنه يعرفنا نحن."

أحب ريتشارد الطريقة التي قالت بها "نحن". "هل هم بخير؟"

"بالطبع؛ لا أحد يقصف لندن. تقول إن الكوابيس تنتابها حول موت أولانا وموتي، فتظل تتلو الصلوات، وأنهم ضالعون في معسكر إنقاذ بيافرا في لندن- وهو ما يعني بالتأكيد أنهم أرسلوا بعض التبرعات الصغيرة." توقفت كاينين وناولته المظروف. ""لقد ألصقت بمهارة بعض الجنيهات البريطانية في بطانة الكارت الداخلية. شيء مؤثر تمامًا. وأرسلت خطابًا مماثلاً لأولانا أيضًا."

---

[1] - the Observer جريدة بريطانية

قرأ الخطاب سريعًا. تحياتٌ *إلى ريتشارد* كانت الإشارة الوحيدة إليه، في أسفل الورقة الزرقاء. ودّ أن يسأل كاينين عمّ خطّطت لتوصيل خطاب أولانا، لكنه لن يفعل. كان الصمتُ يخيم على موضوع أولانا مع كل شهر، كل عام، ذلك الموضوع الذي مرّ دون أن يتحدثا فيه. حينما استلمت كاينين الخطابات الثلاثة التي أرسلتها أولانا منذ بدء الحرب، لم تقل شيئًا عدا إنها استلمتهم. ولم ترد عليهم.

"سوف أرسل أحدًا الأسبوع القادم إلى أوميوهيا لتسليم خطاب أولانا." قالت كاينين.

ناولها الخطاب مجددًا. أصبح الصمتُ عميقًا.

"النيجيريون لن يتوقفوا عن الكلام حول بورت هاركورت،" قال.

"لن يأخذوا بورت هاركورت. أفضل مقاتلينا هنا." بدت كاينين تلقائية بما يكفي، لكن ثمة قلقًا جديدًا كان بعينيها، ذات القلق الذي كان لديها حينما أخبرته، قبل شهور، أنها تود شراء بيت غير مكتمل في أورلو. قالت إنه من الأفضل اقتناء الممتلكات عن النقود السائلة لكنه شكّ في هذا، بالنسبة لها، كان شبكة أمان في حال سقوط بورت هاركورت. بالنسبة له، باعتبار سقوط بورت هاركورت كان لعنة تجديفية. في كل نهاية أسبوع، وبينما كانا يتفقدان البيت ليتأكدا أن البناءين لا يسرقون المواد، لم يكن يتكلم أبدًا عن عيشهما هناك كأنما ليُنجي نفسه من اللعنة.

ولم يعد يرغب في السفر. كان يود أن يحرس بورت هاركورت بوجوده؛ طالما بقي هناك، كان يشعر، لن يحدث شيء. لكن العلاقات العامة في أوروبا سألت عن مقال حول مهبط الطائرات في أولي، لذلك غادر، غير راغب، في الصباح الباكر، حتى يتمكن من العودة قبل منتصف النهار حيث تقصف الطائراتُ النيجيرية السياراتِ في الطرق العامة. كانت هناك حفرة ضخمة تبدو في رأس طريق أوكيجوي جراء قنبلة. انحرف السائق ليتجنبها فشعر ريتشارد بنذير مألوف، لكن أفكاره هدأت بينما يقتربون من أولي. كانت هذه هي زيارته الأولى للرابط الوحيد الذي يربط بيافرا بالعالم الخارجي، هذه العجيبة في مهبط الطيران حيث الطعام والأسلحة التي تقاوم القصف النيجيري. نزل من السيارة ونظر إلى شريط ممر الطائرات المحاط على الجانبين بالشجر الكثيف وفكر في الناس الذين صنعوا كل هذا الكثير بالقليل الذي لديهم. كانت طائرة نفاثة ضئيلة تصطف في النهاية البعيدة. شمس النهار حارّة؛ ورجالٌ ثلاثة كانوا يدسون سعاف النخيل في مهبط الطائرات، يعملون بسرعة ويعرقون، يدفعون للأمام عربات محملة بأكوام من السعف. مشى إليهم ريتشارد ليقول: "سلمت أياديكم، جيسينو *إيكي*."

جاء موظف من مبنى المطار غير المكتمل وصافح ريتشارد. "لا تكتب كثيرًا، أوه! لا تذع أسرارنا،" قال ممازحًا.

"بالطبع لا،" قال ريتشارد. "هل يمكن أن أجري معك مقابلة؟"

أشرق وجه الرجل وضمّ كتفيه، ثم قال: "حسن، أنا مسؤول عن الجمارك والهجرة." أخفى ريتشارد ابتسامته؛ دائمًا ما يشعر الناس بأهميتهم حينما يُسألون عن إجراء مقابلة. تكلما واقفين حول مدرجات المطار، وبمجرد أن عاد الرجل للمبنى، خرج رجل بشعر طويل ناعم. عرفه ريتشارد: الكونت[1] فون روزن. كان يبدو أكبر عمرًا من الصورة التي رآها ريتشارد، يقترب من السبعين أكثر من الستين، لكنه كان أنيقًا؛ وخطاه واسعة وذقنه صلبًا.

"أخبروني أنك هنا بالخارج ففكرت أن أقول هاللو،" قال، مصافحته كانت ثابتة تمامًا مثل عينيه الخضراوين. "للتو قد قرأت مقالك الممتاز في صحيفة أبناء بيافرا العسكريين."

"سعادةٌ أن ألتقي بك، أيها الكونت فون روزن،" قال ريتشارد. وقد كانت بالفعل سعادة. منذ قرأ عن هذا الأرستقراطي السويديّ الذي قصف الأهداف النيجيرية بالقنابل بطائرته الصغيرة، وقد تمنى أن يلتقي به.

"رجالٌ مميزون،" قال الكونت، وهو يرمق العمال الذين كانوا يستوثقون، من أعلى، أن البساط الأسود للمهبط قد تغطى تمامًا وبدا مثل منطقة غابة مشجرة. "دولة مميزة."

"نعم،" قال ريتشارد.

"هل تحب الجبن؟" سأل الكونت.

"الجبن؟ نعم، نعم بالطبع."

دس الكونت يده في جيبه وأخرج لفّة صغيرة. "شيدر ممتازة."

أخذها ريتشارد وحاول أن يخفي دهشته. "شكرًا لك."

تحسس الكونت جيبه ثانيةً وشعر ريتشارد بالقلق من أن يُخرج الكونت مزيدًا من الجبن. لكنه أخرج نظارة شمس ووضعها على عينيه. "قيل لي إن زوجتك إيبو ثرية، أحد أولئك الذين مكثوا ليحاربوا من اجل القضية."

لم يكن ريتشارد قد فكر في الأمر على هذا النحو من قبل، أن كاينين تمكث هنا لتحارب في القضية، لكنه كان مسرورًا أن الكونت قد أُخبر بذلك وأنه أُخبر أيضًا أنه وكاينين متزوجان. شعر فجأة بفخر قوي بكاينين. "نعم. إنها امرأة استثنائية."

كانت هناك وقفة عن الكلام. حميمية حضور قطعة الجبن تطلبت لمحةً عاطفية ما، لذلك أخرج ريتشارد دفتر مذكراته وعرض على الكونت أولا صورة كاينين، التقطت جوار حوض سباحة وسيجارة بين شفتيها، وبعد ذلك صورة للإناء ذي الحبال.

"وقعت في غرام فن الإيبو-أكوا ثم بعد ذلك وقت في غرامها،" قال.

"كلاهما جميل،" قال الكونت قبل أن يخلع نظارته لكي يفحص الصورتين.

"هل لديك مهمة عمل اليوم؟" سأل ريتشارد.

"نعم."

---

[1]- Count- لقب شرفيّ

"لماذا تفعل ذلك يا سيدي؟"
وضع الكونت نظارته من جديد على عينيه. "كنت أعمل مع مقاتلين الحرية في إثيوبيا وقبل ذلك كنتُ أطير مع رحلات الإغاثة إلى ورسوجيتو،" قال بابتسامة طفيفة، كأنما قد أجاب السؤال. "والآن عليّ أن أستأنف. حافظْ على العمل الجيد."
راقبه ريتشارد وهو يمضي بعيدًا، كأنه أحدُ طاقم الحاشية الملكية بظهره المنتصب، وفكر كم هو مختلف عن المرتزقة. "أنا أحب البيافريين،" كان يقول الألماني ذو الوجه الأحمر. "لا شيء مثل الكفيريين[1] الملاعين في الكونغو." كان يتحدث مع ريتشارد في منزله وسط الغابة، يحتسي كأسًا كبيرًا من الويسكي، ويراقب طفله المتبنَى -- طفل بيافري جميل في عامه الثاني— وهو يلعب على الأرض بمجموعة من شظايا قنبلة قديمة. شعر ريتشارد بالانزعاج من أسلوب معاملة الرجل للطفل الذي يجمع بين الاستصغار والتعاطف وكذا بالاستثناء الذي جعله للبيافريين. بدا كأنما عميل سياسي شعر أخير بوجود بشر سود يقدر أن يحبهم. كان الكونت مختلفًا. رمق ريتشارد الطائرة الضئيلة من جديد قبل أن يدخل السيارة.
في طريق العودة، تمامًا خارج بورت هاركورت، سمع صليل طلقات النار. سرعان ما توقفت. لكنها أقلقته. وحينما اقترحت كاينين أن يذهبا إلى أورلو في اليوم التالي ليبحثا عن نجار للبيت الجديد، تمنى ريتشارد ألا يكون عليهما أن يذهبا. يومان متتاليان بعيدًا عن بورت هاركورت كفيلان بأن يقلقاه.

كان البيتُ الجديد محاطًا بأشجار الجوز. تذكّر ريتشارد كم كان يبدو كئيبًا حينما اشترته كاينين— نصف مكتمل بطبقات من المونة الخضراء على الحوائط غير المطلية— وكيف كان النحل والذباب المتكتل فوق الجوز المتساقط يثير غثيانه. كان المالك رئيس مركز المدرسة الثانوية في نهاية الطريق. والآن وقد غدت المدرسة معسكر إيواء، والآن وقد ماتت زوجته، كان ذاهبًا لداخل البلاد مع نعجاته وأطفاله. راح يردد: "هذا البيتُ بعيد عن مجال القصف، بعيد تمامًا عن مرمى القصف،" حتى تساءل ريتشارد كيف له أن يعلم من أين يقصف النيجيريون. كان ثمة سحر خفيّ في البيت ذي الطابق الواحد، أقرّ ريتشارد بذلك، وهما يتجولان داخل الغرف الجديدة المطلية الخاوية. استأجرت كاينين اثنين من النجارين من معسكر الإيواء، ورسمت اسكتشات على ورقة، وحينما عادت للسيارة، أخبرت ريتشارد: "لا أثق في مقدرتهما أن يصنعا طاولة أنيقة."
عصف صوتٌ حادٌّ وهم في طريقهم خارج أورلو. أوقف السائق السيارة برجّة عنيفة، في منتصف الطريق، وقفزوا منها في دغل كثيف الشجر. بعض النسوة اللواتي كن يمشين في

[1]- kaffirs الكفيري، عضو من جنوب أفريقيا. (ت)

الطريق جرين أيضًا، ينظرن إلى أعلى ويلوين أعناقهن. كانت المرة الأولى التي يختبئ فيها ريتشارد مع كاينين؛ رقدت مستقيمة وصلبة على الأرض جواره. كتفاهما متلاصقان. والسائق وراءهما بقليل. كان السكون عميقًا ومطلقًا. خشخشة عالية في الجوار جعلت ريتشارد متوترًا إلى أن زحفت للخارج سحليةٌ برأس حمراء. انتظروا وانتظروا ثم نهضوا في الأخير حينما سمعوا محرك سيارة وأصوات تعالية في الجوار: "نقودي راحت! ذهبت نقودي!" كان هناك سوق على بعد ياردات قليلة. أحدهم سرق أحد التاجرات بينما كانت مختبئة. كان بوسع ريتشارد أن يراها مع بعض النسوة الأخريات داخل الأكشاك المفتوحة، يصرخن ويلوّحن. كان من العسير تصديق كم كان الصمت مخيّمًا فقط منذ لحظة، وكيف انتعشت الأسواق البيافرية الآن بسهولة في الأدغال منذ قصفت القوات الجوية النيجيرية سوق أوجو.

"الإنذار الكاذب أسوأ من الحقيقي،" قال السائق.

نفضت كاينين عن نفسها الغبار بعناية، لكن الأرض كانت رطبة فالتصق الطمي بثوبها؛ بدا فستانها الأزرق كأنما ملطخ ببقع الشوكولاتة. ركبوا السيارة واستأنفوا الرحلة. شعر ريتشارد أن كاينين كانت غاضبة.

"انظري إلى الشجرة،" قال لها، مشيرًا بيده. كانت مشقوقة نصفين تمامًا، من الغصون وحتى الساق. أحد النصفين مازال منتصبًا، مائلاً بعض الشيء، بينما الآخر مسجًّى على الأرض.

"تبدو حديثة الانشقاق،" قالت كاينين.

"عمي قاد طائرة في الحرب. قصف ألمانيا. من العسير التفكير في أنه فعل شيئًا كهذا."

"أنت لا تتكلم عنه."

"مات. أطلقوا عليه النار." توقف ريتشارد. "سوف أكتب عن أسواق الغابات الجديدة."

توقف السائق عند نقطة تفتيش. ثمة شاحنة محمّلة بالأرائك والأرفف والطاولات كانت مصفوفة على جانب الطريق، ورجل واقف جوارها يتحدث مع امرأة شابة من الدفاع المدني ترتدي الجينز الكاكي وحذاء من القماش. تركته وجاءت ثم نظرت إلى ريتشارد وكاينين. سألت السائق أن يفتح صندوق السيارة، نظرت في الداخل، ثم مدت يدها نحو حقيبة يد كاينين.

"لو كان لدي قنبلة، فلن أخفيها في حقيبة يدي،" تمتمت كاينين.

"ماذا قلتِ يا مدام؟" سألت المرأة الشابة.

"لم تقل كاينين شيئًا. نظرت المرأة داخل الحقيبة بدقة. أخرجت راديو صغيرًا. "ما هذا؟ هل هو جهاز إرسال؟"

"هذا ليس جهاز إرسال. إنما هو را-د-يو،" قالت كاينين، ببطء ساخر. فحصت المرأة جوازاتهم، ابتسمت، ثم عدلت وضع بيريه رأسها. "معذرة سيدتي. لكنك تعلمين أن هناك العديد من المخربين الذين يستخدمون أدوات غريبة ليراسلوا نيجيريا. اليقظة والحذر هما كلمة السر لدينا."

"لماذا أوقفتم ذلك الرجل في الشاحنة؟" سألت كاينين.

"نحن نُرجع الناس الذين ينقلون الأثاث."

"لماذا؟"

"تفريغ الأثاث مثل هذا يسبب الهلع لدى المواطنين المدنيين." بدت كأنما تعيد كلمات سمعتها. "ليس من سبب لذلك."

"لكن ماذا لو أن بلدته على وشك السقوط؟ هل تعرفين من أين أتى؟"

تصلّبت المرأة. "نهارك سعيد يا سيدتي."

بمجرد أن أدار السائق السيارة، قالت كاينين: "هذه ليست إلا نكتة بشعة، أليس كذلك؟"

"ماذا؟" سأل ريتشارد، رغم أنه يعلم ماذا تقصد.

"هذا الرعب الذي نثيره في نفوس الناس؟ قنابل في سوتيانات النساء! قنابل في علب حليب الأطفال! مخربون في كل مكان! راقبوا أطفالكم فربما يعملون مع نيجيريا!"

"هذا طبيعي في أوقات الحروب." أحيانًا تمنى لو لم تكن بهذه الحدة في تناول الأمور. "من المهم للناس أن يكونوا واعين أن بينهم مخربين."

"المخربون لدينا هم وحسب الرجال الذين دعاهم أوجيوكوا لكي يغلق الباب على خصومه والرجال الذي يريد زوجاتهم. هل أخبرتك من قبل عن الرجل من أونيستشا الذي اشترى كل الأسمنت الذي كان لدينا في المصنع بعد قليل من عودة اللاجئين؟ أوجيوكوا كانت له علاقة غرامية مع زوجة الرجل وجعل الرجل يُقبَض عليه دون تهمة."

كانت تدق أرضية السيارة بقدمها. تبدو مثل مادو حينما تتحدث عن فخامته. نبرتها المترفعة لم تقنع ريتشارد؛ بدأت حينما اشتكى مادو أن فخامته قد حوّله وجعل مرؤوسه مديرًا. لو لم يكن فخامته قد حوله، ربما كانت كاينين أقل انتقادًا.

"هل تعرف كم موظفًا قد أوقفهم؟ هو متشكك جدًّا فيما يخص موظفيه حتى أنه يجعل المدنيين يشترون السلاح. قال مادو إنهم للتو قد اشتروا بندقيات تعسة في أوروبا، حينما استقرت بيافرا، سوف يكون علينا أن نزيل أوجيوكوا."

"ونستبدل به مَن؟ مادو؟"

ضحكت كاينين، وأسرّه وأدهشه أن سخريته قد أضحكتها. عادت هواجسه، ارتباك مفاجئ في معدته، وهم يقتربون من بورت هاركورت.

"قف حتى نشتري أكارا وسمك مقلي،" قالت كاينين للسائق، وحتى تباطؤ السائق فيما يفرمل جعل ريتشارد عصبيًّا.

حينما عادا البيت، قال إيكيدجي إن الكولونيل مادو قد اتصل أربع مرات.

"أرجو ألا يكون حدث شيء ما،" قالت كاينين، وهي تفتح لفّة السمك المقلي وكعكة الفول.

أخذ ريتشارد قطعة أكارا ساخنة ونفخ فيها وهو يقول لنفسه إن بورت هاركورت آمنة. لا شيء حدث. رن الهاتف فالتقطه وشعر بقلبه يتسارع حينما سمع صوت مادو.

"كيف حالك؟ أية مشاكل؟" سأل مادو.

"لا. لماذا؟"

"هناك إشاعة تقول إن بريطانيا قد أمدت نيجيريا بخمس سفن حربية، لذلك أضرم الشباب النار في محالٍّ وبيوت بريطانية في كافة أنحاء بورت هاركورت اليوم. وددت أن أتأكد أن لا شيء أزعجكم. بوسعي أن أرسل واحدًا أو اثنين من رجالي."

في البدء، أزعجت ريتشارد فكرة أنه مازال أجنبيًّا يمكن أن يُهاجَم، ثم ما لبث أن شعر بالامتنان لاهتمام مادو.

"نحن بخير،" قال. "عدنا للتو من رؤية البيت في أورلو."

"أوه، حسن. دعوني أعرف إذا ما حدث تطور ما." توقف مادو وتكلم مع شخص ما في نبرة مكبوتة قبل أن يعود إلى الخط. "يجب أن تكتب عما قاله السفير الفرنسي بالأمس."

"نعم، بالطبع."

"*أخبروني أن البيافريين يقاتلون مثل الجياد، لكن الآن أرى أن الجياد تقاتل مثل البيافريين*،" نغّم مادو صوته بفخر، كأنما الإطراء كان له هو شخصيًّا ويريد أن يتأكد أن ريتشارد يعرف ذلك.

"نعم، بالطبع،" قال ريتشارد ثانيةً. "بورت هاركورت آمنة، أليس كذلك؟"

كانت هناك وقفة في نهاية كلام مادو. "تم اعتقال بعض المخربين وجميعهم من أقليّات من غير الإيبو. لا أعلم لماذا يصر هؤلاء على مساندة العدو. لكننا سنتغلب عليهم. هل كاينين هناك؟"

ناول ريتشارد كاينين السماعةَ. هذا تدنيسُ مقدسات، أن يقدر بعض الأشخاص على خيانة بيافرا. تذكر رجال إجاو وإيفيك الذين تحدث إليهم في بنك بأويري، الذين قالوا إن الإيبو سوف يتحكمون فيهم حينما تستقر بيافرا. كان ريتشارد قد أخبرهم أن دولة ولدت من رماد عدم العدالة لسوف تحدد ممارساتها من عدم العادلة. وحينما نظروا إليه في شك، ذكر لواء الجيش الذي كان من إيفيك، والمدير الذي كان إيجاو، وجنود الأقليات الذين كانوا يقاتلون بكل حماس من أجل القضية. على أنهم بدوا غير مقتنعين.

مكث ريتشارد بالبيت في الأيام التالية. كتب عن أسواق الغابة ووقف كثيرًا في الشرفة، ينظر لأسفل امتداد الشارع، نصف متوقّعٍ لحشد من الشباب يندفعون نحو البيت بمشاعل ملتهبة في أياديهم. كانت كاينين قد شاهدت منازل محترقة في طريقها للعمل. جهد طفيف، أسمته هكذا؛ لقد سوّدوا الحوائط فقط. أراد ريتشارد أن يراها أيضًا، لكي يكتب عنها وربما يصل ذلك بإحراق تمثالَي ويلسون وكوسين اللذين قد رآهما مؤخرًا في حقل الحكومة، لكنه انتظر أسبوعًا حتى يتأكد أن الوضع صار آمنًا لأن يتواجد رجل بريطاني في الطريق قبل أن يغادر مبكرًا جدًّا في الصباح لعمل جولة في المدينة.

أدهشه أن يرى نقاط تفتيش في طريق آجيري وأدهشه أكثر أنها محروسة بالجنود. ربما ذلك بسبب المنازل المحترقة. كان الطريق خاويًا، كل البائعين الجائلين بثمار جوزهم وجرائدهم وسمكهم المقلي كانوا قد ذهبوا. وقف جندي في منتصف الطريق، يؤرجح بندقيته وهم يقتربون، مقترحًا عليهم أن يعودوا أدراجهم. توقف السائق وأمسك ريتشارد بجواز مروره في يده. تجاهل الجندي الجواز وظل يؤرجح البندقية. "استدرْ للخلف! استدرْ للخلف!"

"صباح الخير،" بادر ريتشارد. "أنا ريتشارد تشرشل وأنا---"

"استدر للخلف وإلا سأطلق النار! لا أحد يغادر بورت هاركورت! لا مدعاةَ للخوف!"

أصابع الرجل كانت متشبثة بالبندقية. دار السائق للخلف. هواجس ريتشارد غدت حصوات في منخاريه، لكنه جعل نفسه يبدو طبيعيًّا حينما عاد للبيت وأخبر كاينين بما حدث.

"أنا واثق أنه لا شيء هناك،" قال. "هناك العديد من الشائعات تطير هنا وهناك، ربما أراد الجيش أن يضع حدًّا للخوف."

"بالقطع طريقة لطيفة لفعل هذا،" قالت كاينين، ثم عاد تعبيرها الحذر مجددًا. كانت ترتب بعض الأوراق في ملف. "لابد أن نهاتف مادو ونعرف ماذا يجري."

"نعم،" قال ريتشارد. "حسن، سأذهب وأحلق ذقني. لم يكن لدي وقت للحلاقة قبل أن أغادر."

سمع الدويّ الأول من الحمّام. ظل يمرر معجون الحلاقة على ذقنه. جاءت ثانيةً: بووم، بووم، بووم. تحطم زجاج النافذة ورنّت شظايا الزجاج وهي تسقط على الأرضية. بعضها وقع على مقربة من قدميه.

فتحت كاينين باب الحمام. "سألت هاريسون وإيكيدجي أن يضعا أشياء قليلة في السيارة،" قالت. "سنترك الفورد ونأخذ البيجو."

استدار ريتشارد وشخص فيها وشعر بالرغبة في الصراخ. تمنى لو كان هادئًا مثلها، لو أن يديه لا ترتعشان وهو يغلسهما. أخذ كريم الحلاقة، صابونها، ثم بعض الإسفنج وألقاها في حقيبة.

"ريتشارد، يجب أن نسرع، يبدو القصف قريبًا جدًّا،" قالت كاينين، ومن جديد كان هناك دويّ خطير: بووم، بووم، بووم. كانت تضع أغراضها وأغراضه في حقيبة. كانت الأدراج التي تضم قمصانه وملابسه الداخلية مشدودة للخارج، وكانت طريقتها في التعبئة سريعة ومنهجية. مرر يده على كتبه المرصوصة فوق الرف ثم بدأ يبحث عن الأوراق التي دوّن فيها ملاحظاته حول أوبانجوي، المناجم يدوية الصنع البيافرية البديعة. كان قد تركها فوق الطاولة، هو واثق. نظر داخل الأدراج.

"هل رأيت أوراقي؟" سأل.

"يجب أن نتجاوز الطريق الرئيسي قبل أن يتقدموا، يا ريتشارد،" قالت كاينين. دسّت مظروفين سمينين في حقيبتها.

"ما هذان المظروفان؟" سألها.

"كاش للطوارئ."

دخل هاريسون وإيكيدجي وشرعا يسحبان الحقيبتين المُحملتين للخارج. سمع ريتشارد زئير الطائرات بالأعلى. لم يكن هذا ممكنًا. لم يكن هناك أبدًا غارات جوية في بورت هاركورت ولم يكن من المعقول أن يكون هناك واحدة الآن، حينما تكون بورت هاركورت على وشك السقوط ويكون الهمجيون يقصفون بهذا القرب. لكن الصوت لم يكن ليُخطأ به، وحينما صرخ هاريسون: "طائرات العدو يا صاح!" سقطت كلماته وافرة غزيرة.

ركض ريتشارد صوب كاينين، لكنها كانت بالفعل تركض خارج الغرفة، فتبعها. قالت: "اخرجْ إلى الحديقة!" حينما جرت وتجاوزت هاريسون وإيكيدجي سقطت تحت طاولة المطبخ.

بالخارج، كان الجو رطبًا. نظر ريتشارد إلى أعلى ورآهما، طائرتين تحلقان على مقربة، بكفاءة انسيابية مشئومة بالنسبة لشكلهما، تتدلى منهما خيوط بيضاء فضية في السماء. انبثق الخوف والعجز من كافة أرجاء جسده. كانوا يرقدون تحت أشجار البرتقال، هو وكاينين، جنبًا إلى جنب. هاريسون وإيكيدجي كان قد جريا خارج المنزل؛ ألقى هاريسون بنفسه مستقيمًا على الأرض بينما ظل إيكيدجي يجري، مقوّسًا جسده بعض الشيء للأمام، وذراعاه تطيران حوله، ورأسه تصعد وتهبط. ثم ملأت الجوَّ صفارةٌ باردة لمدفع فيما التحطم يهبط والدويّ ينفجر. ضغط ريتشارد كاينين إليه. شظية في حجم قبضة اليد، مرقت ودوّت. كان إيكيدجي ما يزال يركض، وفي اللحظة التي تحول فيها نظر ريتشارد بعيدًا ثم عاد، كانت رأس إيكيدجي قد راحت. كان الجسد يجري، مائلا للأمام قليلا، والذراعان تطيران جواره، لكن الرأس لم يكن هناك. سقط الجسد للأسفل جوار سيارتها الأمريكية، ثم تقهقرت الطائرتان واختفتا في البعيد، فظل الجميع ساكنًا لدقائق طويلة، حتى نهض هاريسون قائلا: "سأحضر حقيبة."

عاد ومعه حقيبة رافيا. لم ينظر ريتشارد إلى هاريسون وهو يمضي ليحمل رأس إيكيدجي ثم يضعها داخل الحقيبة. فيما بعد، وهو يقبض على الكاحلين الدافئين ما يزالان ويمشي، جوار هاريسون القابض على المعصمين، إلى القبر الضحل في قاع البستان، لم ينظر ولو مرة إلى الجثمان.

جلست كاينين على الأرض تراقبهما.

"هل أنتِ بخير؟" سألها ريتشارد. لكنها لم تجب. كان ثمة خواءٌ مخيف في عينيها. لم يدر ريتشارد ماذا يفعل. هزّها برفق لكن الخواء ظل كما هو، لذلك ذهب إلى الصنبور ونثر عليها دلوًا من الماء البارد.

"أوقفْ هذا بحق السماء،" قالت ونهضت. "لقد بلّلت فستاني."

جذبت فستانًا آخر من حقيبة وبدلت فستانها في المطبخ قبل أن يغادروا إلى أورلو. لم تعد تسرع؛ ببطء، فردت ياقة الفستان، سوّت صدره بيديها. خليط الأصوات أزعج ريتشارد وهو يقود— ال بووم-بووم-بووم للمدفع، صليل طلقات البنادق— فتوقع أن يرى جنودًا نيجيريين يوقفونهم أو يهاجمونهم أو يقذفونهم بقنابل يدوية في أية لحظة. لا شيء حدث. كانت الطرق مزدحمة. ونقاط التفتيش اختفت. ومن المقعد الخلفي، قال هاريسون في همس خائف: "إنهم يستخدمون كل شيء يملكونه لكي يأخذوا بورت هاركورت."

لم تقل كاينين سوى القليل حينما وصلوا إلى أورلو ولم تجد النجارين ولا الأثاث؛ اختفى الرجلان بمقدمة النقود. ببساطة مضت إلى معسكر اللاجئين أسفل الطريق ووجدت نجارًا آخر، رجلاً ذا بشرة شاحبة أراد أن يتقاضى أجرته طعامًا. في الأيام التالية، كانت صامتة معظم الوقت، ومنسحبة، وهما يجلسان بالخارج يراقبان النجار يقطع، يدق، ينعّم.

"لماذا لا تريد نقودا؟" سألته كاينين.

"ماذا سأشتري بالنقود؟" سألها.

"لابد أنك رجل أحمق،" قالت كاينين. "ثمة الكثير يمكنك شراؤه بالنقود."

"ليس في بيافرا." هزّ الرجل كتفيه. "فقط أعطيني جاري وأرز."

لم تجب كاينين. سقط إخراج طائر على أرضية الشرفة فالتقطه ريتشارد بورقة جوز ولفه.

"هل تعرف أن أولانا رأت أمًّا تحمل رأس طفلتها،" قالت كاينين.

"نعم،" قال ريتشارد، رغم أنه لا يعرف. فهي لم تحك له أبدا عن تجربة أولانا أثناء المجازر.

"أودُّ أن أراها."

"يجب أن تذهبي." أخذ ريتشارد نفسًا عميقًا ليزن نفسه وشخص في أحد الكراسي المنتهية. كان ذا زوايا حادة وقبيح الشكل.

"كيف أمكن لشظية أن تجتث رأس إيكيدجي على نحو كامل هكذا؟" سألت كاينين، كأنما أرادته أن يخبرها أنها كانت مخطئة في الأمر كله. تمنى لو يفعل. كانت تصرخ في الليل. أخبرته أنها كانت تريد أن تحلم بإيكيدجي لكنها كانت تستيقظ كل صباح وهي تستدعي بكل وضوح مشهد ركضه جسدًا بلا رأس، بينما، في المنطقة الغائمة الآمنة من أحلامها، كانت ترى نفسها تدخن سيجارة في مبسم ذهبي أنيق.

أحضرت شاحنة عبوات من الجاري إلى البيت، وطلبت كاينين من هاريسون ألا يمسها لأنها من أجل معسكر اللاجئين. كانت هي الممول الجديد للطعام.

"سوف أوزع الطعام على اللاجئين بنفسي وسوف أسأل مركز الأبحاث الزراعي عن بعض الخراء،" أخبرت ريتشارد.

"خراء؟"

"سماد. بوسعنا أن نبدأ في الزراعة في المعسكر. سوف نزرع بروتيننا الخاص، الصويا، والأكيدي."

"أوه."

"هناك رجل من إنيوجو لديه موهبة مدهشة في عمل السلال والمصابيح. سوف أجعله يعلِّم الآخرين. بوسعنا أن نحقق دخلاً هنا. بوسعنا عمل اختلاف! وسوف أسأل الصليب الأحمر أن يرسل لنا طبيبًا كل أسبوع."

كان ثمة نشاط جنوني بها، في طريقتها للذهاب إلى معسكر الإيواء كل يوم، في الإرهاق الذي يظلل عينيها حينما تعود في الأماسي. لم تعد تتكلم عن إيكيدجي. بدلاً من ذلك، كانت تتكلم عن عشرين شخصًا يعيشون في فراغ مخصص لشخص واحد وعن أطفال يلعبون لعبة "الحرب" وعن نساء يُرضعن أطفالاً وعن القديسين الطيبين ذوي الروح المقدسة الأب مارسيل والأب جودي. لكنه كان إناتيمي الذي كانت تتحدث عنه أكثر. كان في منظمة بيافرا للمقاتلين الأحرار، فقدَ أسرتَه كلها في المذابح، وكان عادة ما يتسلل إلى معسكرات العدو. كان يأتي ليعلّم اللاجئين.

"هو يرى أنه من المهم لشعبنا أن يعرف أن سببنا عادلٌ وأن يفهم لماذا هذا حق. وأنا أخبرته ألا يشغل باله بتعليمهم الفيدرالية واتفاقية آبيوري والكتب. لن يفهموا ذلك أبدًا. بعضهم لم يذهب حتى للمدرسة الابتدائية. لكنه تجاهلني وذهب يمضي الوقت مع جماعات صغيرة من الناس." بدت كاينين معجبة به، كأنما في تجاهلها دليل أبعد على بطولته. كان ريتشارد ممتعضًا من إناتيمي. في عقله، أصبح إناتيمي كاملاً، جسورًا وناشطًا، يصنع البسالة من الخسارة. وحينما التقى أخيرًا بإناتيمي تقريبًا ضحك في وجه هذا الرجل الضئيل ذي البثور والأنف الأفطس. لكن كان بوسعه أن يرى فورًا أن إله إناتيمي كان بيافرا. ثمة إيمان متوقّد بقضيته.

"حينما فقدت عائلتي كلها، كل فرد فيها، كان كأنما ولدت من جديد على نحو كامل،" أخبر إناتيمي ريتشارد بطريقته الهادئة. "غدوت شخصًا جديدًا لأنْ لم تعد لي عائلة تذكّرني بما كنت عليه من قبل."

كان القديسان أيضًا كما لم يتوقع ريتشارد. كان مندهشًا من هتافهما الهادئ. حينما اخبراه: "نحن مسروران من الأعمال الطيبة التي يصنعها الربُّ هنا،" ود ريتشارد أن يسال لماذا سمح الربُّ بالحرب أن تحدث أولاً. لكن إيمانهما مسّه. إذا ما استطاع الربُّ أن يجعلهما معنيين جدًّا بالناس على هذا النحو النبيل، فإن الربَّ بالفعل قيمةٌ تستحق التأمل.

كان ريتشارد يتحدث إلى الأب مارسيل عن الرب في الصباح الذي وصلت فيه الطبيبة. الكارت المغبّر المكتوب عليه "أقليّة موريس" كان مطبوعًا عليه شارة الصليب الأحمر. وحتى قبل أن تقول: "أنا د. إينيانج،" بمصافحة يسيرة، عرف ريتشارد أنها من إحدى قبائل الأقليّات. هنأ نفسه على مقدرته على التعرف على شخص إيبو. ليس للأمر علاقة بكيف يبدون؛ بل كان، بدل ذلك، شعور المرء وحدسه.

قادت كاينين د. إنيانج مباشرة إلى غرفة المرضى، الفصل في نهاية البناية. تبعهما ريتشارد؛ وشاهد كاينين تحكي عن اللاجئين الراقدين على ألواح البامبو. نهضت امرأة شابة حبلى وأمسكت صدرها وبدأت تسعل، صدرٌ يسعل دون توقف كان مؤلمًا سماعه.

انحنت د. إنيانج بسماعتها على المرأة وقالت في إنجليزية بلكنة لطيفة: "كيف حالك؟ كيف حالك يا دي؟"

في البدء تراجعت المرأة ثم بصقت مخاطًا لزجًا كثيفًا جعل جبهتها تتغضن. وقع اللعاب السائل ولطخ ذقن الطبيبة.

"المخربون!" قالت المرأة الحبلى. "إنه أنتم يا من لستم إيبو مَن أريتم العدو الطريق! *هابو م*! أنتم أيها الناس الذين أريتموهم الطريق إلى بلدتنا!"

وضعت د. إنيانج يدها فوق ذقنها، مذهلة عن أن تمسح ما علق بها من لُعاب. تكاثف الصمت مع عدم الوضوح. تحركت كاينين بسرعة وصفعت المرأة الحامل، صفعتين قويتين على وجنتيها.

"جميعنا بيافريون! *آنينشا با بيافرا*!" قالت كاينين. "هل تفهمينني؟ جميعنا بيافريون!"

سقطت المرأة في السرير.

كان ريتشارد مصعوقًا من عنف كاينين. ثمة شيء هشٌ فيها، حتى خشي أن تتهشم من لمسة طفيفة؛ كانت قد ألقت بنفسها بقسوة في هذا، محو الذاكرة، الذي قد يدمرها.

زار أولانا حلمٌ جميل. لم تتذكر عمّا كان، لكنها تذكر أنه كان سعيدًا، حتى أنها صحت مدفِّئةً نفسها بفكرة أن بوسعها ما تزال أن تحلم أحلامًا سعيدة. تمنت لو لم يكن أودينيبو قد ذهب إلى العمل حتى تحكي له عن ذلك وتتبّع ابتسامته المتسامحةَ وهو ينصت إليها، تلك الابتسامة التي تقول إنه ليس بحاجة لأن يوافقها حتى يصدقها. لكنها لم تر تلك الابتسامة منذ ماتت أمه، منذ حاول أن يذهب إلى آبا وعاد قابضًا على الظلال، منذ بدأ يغادر للعمل مبكرًا جدًّا ويتوقف عند بار تنزانيا في طريق عودته للبيت. لو أنه فقط لم يحاول أن يعبر الطرق المحتلَّة، ما كان الآن مكتئبًا جدًّا ومنسحبًا؛ لم يكن حزنه ليُدفن بالفشل. ما كان عليها أن تتركه يذهب. لكن تصميمه كان حاسمًا جدًّا، كأنما كان يشعر أن لا حقَّ لها في أن توقفه. كلماتُه— "لابد أن أدفن ما تركه الهمجيون"—حفرت أخدودًا بينهما حتى أنها لم تعرف كيف تعبرُه. قبل أن يركب السيارة ويبتعد، كانت قد أخبرته: "أحدهم لابدَّ قد دفنها."

وفيما بعد، وفيما تجلس في الشرفة تنتظره، اشمأزت من نفسها لأنها لم تجد كلمات أفضل. "أحدهم لابد قد دفنها." بدت كلماتٍ شديدةَ الابتذال. ما قصدته هو التأكيد على أن ابن خاله آنيكوينا قد دفنها. رسالة آنيكوينا، التي أُرسلت مع الجندي، كانت مقتضبة: آبا قد احتُلَّت ثم تسلل عائدًا ليحاول أن يأخذ بعض الأغراض ليجد الماما راقدة ميتة برصاصة بندقيةٍ ملقاة جوار حائط التجمّع السكنيّ. لم يقل شيئًا أكثر، لكن أولانا افترضت أنه حفر قبرًا. لم يكن ليتركها ملقاة هناك، حتى تتحلّل.

لم تعد أولانا تتذكَّر كم ساعةً ظلت تنتظر عودة أودينيبو، لكنها تذكر شعورها بالعماء، بغمامات البرد تنسحب فوق عينيها. كانت تقلق بين الحين والحين على بيبي وكاينين وآجوو أن يموتوا، تتلمس بغموض احتمالات الحزن القادم، لكنها أبدًا لم تقتنع بموت أودينيبو. أبدًا. كان هو الثابت في حياتها. حينما عاد، بعد منتصف الليل بكثير، بحذائه مغطًى بالوحل، عرفت أنه لن يعود كما كان ثانيةً. طلب من آجوو كأسَ ماء وأخبرها بصوت هادئ: "ظلّوا يسألونني أن أعود، لذلك أوقفت السيارة وخبأتها وبدأت أمشي. أخيرًا، صوّب جنديٌّ بيافري بندقيته وقال إنه سيطلق النار ويحمي الهمج ليثيروا المتاعب لو لم أستدر وأعود."

ضمته إليها وتنهدت. كانت راحتها ملطخةً بالحزن.

"أنا بخير يا نكيم،" قال. لكنه لم يعد يذهب إلى هيئة الموجهين، لم يعد يرجع البيت بعينين مشرقتين، بل، اعتاد الذهاب إلى بار تنزانيا كلَّ يوم ويعود بفم صموت. وحينما كان يتكلم، يحكي عن أوراق أبحاثه غير المطبوعة التي خلّفها في نسوكا، وكيف أنها كانت تكفي أن تجعله بروفيسورًا مهمًّا، وحدها السماء تعلم ماذا فعل الهمج بها. كانت تريده أن يتكلم معها

حقًّا، يساعدها أن تساعده ليخرج من أحزانه، لكن في كل مرة كانت تخبره، كان يقول: "فات الأوان يا نكيم." ولم تكن تدري ماذا يقصد. كانت تشعر بطبقات حزنه— لن يعرف أبدًا كيف ماتت الماما وسوف يكافح دائمًا الإساءات القديمة— لكنها لم تستطع أن تشعر بالتواصل مع أحزانه. بعض الأحيان كانت تتساءل إن كان ذلك هو إخفاقها هي أكثر من كونه إخفاقه هو، لو كانت بالفعل تعوزها القوة الواثقة التي تجبره على احتوائها في آلامه.

- - - - - - - - - -

جاء أوكيوما ليقدم واجب العزاء.

"سمعتُ بما جرى،" قال، حينما فتحت أولانا الباب. عانقته ونظرت إلى الجرح العميق المتورم الساري بين ذقنه ورقبته ففكرت كيف تنتشر أخبار الموت بسرعة.

"لم يتكلم معي في الحقيقة،" قالت. "ما قاله لي لا يعني شيئًا."

"لم يعرف أودينيبو أبدًا كيف يكون ضعيفًا. اصبري عليه." قال أوكيوما همسًا لأن أودينيبو كان قادمًا. بعدما تعانقا وربتا على ظهر بعضهما بعضًا، نظر إليه أوكيوما.

"ندو،" قال. "أنا آسف."

""لابد أنها اندهشت حينما أطلقوا عليها النار،" قال أودينيبو. "ماما لم تصدق أبدًا أننا في حال حرب وأن حياتها في خطر."

شخصت فيه أولانا.

"ما حدث قد حدث،" قال أوكيوما. "لابد أن تكون قويًّا."

سكون قصير رديء جثم عبر الغرفة.

"أحضر جوليوس بعض نبيذ النخيل الطازج،" قال أودينيبو أخيرًا. "كما تعلم، إنهم يخلطون الكثير من الماء الآن، لكن هذا النوع ممتاز جدًّا."

"سوف أحتسي ذلك فيما بعد. أين ويسكي البلاك هورس الذي تدخره للمناسبات الخاصة؟"

"نفد تقريبًا."

"إذًا سوف أنهيه أنا،" قال أوكيوما.

أحضر أودينيبو القنينة وجلسوا في غرفة المعيشة، كان صوت الراديو منخفضًا ورائحة حساء آجوو تملأ الهواء.

"قائدي يشرب هذا مثل الماء،" قال أوكيوما، ورج القنينة ليرى كم تبقى بها.

"وكيف هو، قائدك، ذلك المرتزقة الأبيض؟" سأل أودينيبو.

رمق أوكيوما أولانا بنظرة اعتذار قبل أن يقول: "إنه يلقي البنات على ظهورهن في العراء حيث يمكن للرجال أن يروه وهو يفعل بهن، وطوال الوقت يحمل حقيبة مال في إحدى يديه." احتسى أوكيوما من القنينة وغضّن وجهه لبرهة. "كان بوسعنا أن نسترد إينيوجو لو

أن الرجل فقط أنصت، لكنه يظن أنه يعرف عن أرضنا أكثر منا. شغّل سيارات إغاثة القيادة. وهدد فخامته الأسبوع الماضي بأنه سيغادر لو لم يأخذ ميزانيته."

أخذ أوكيوما رشفة أخرى من القنينة.

"قبل يومين، ذهبت إلى المفتي فأوقفني حارس في الطريق واتهمني بالهروب من الخدمة العسكرية. حذرته ألا يحاول ذلك ثانيةً وإلا لأرينّه لماذا نحن القادة مختلفون عن الجنود العاديين. سمعته يضحك وأنا أمشي بعيدًا. أتصور ذلك! فيما قبل، لم يكن ليجرؤ أن يضحك على قائد. إذا لم ننتبه سريعًا سوف نفقد مكانتنا."

"لماذا على الرجال البيض أن يتقاضوا أموالاً ليقاتلوا في حربنا على كل حال؟" مال أودينيبو للوراء في مقعده. "يوجد الكثير منّا ممن يقدر على أن يقاتل بجد لأننا مستعدون أن نضحي بأنفسنا من أجل بيافرا."

نهضت أولانا. "هيا نأكل،" قالت. "أعتذر لأن حساءنا بدون لحم يا أوكيوما."

"*أعتذر لأن حساءنا بدون لحم يا أوكيوما*." قلّدها أوكيوما. "هل يبدو هذا المكان محلاً للحوم؟ لم آت بحثًا عن لحم."

صفّ آجوو صحون الجاري على المائدة.

"من فضلك أزل قنبلتك اليدوية ونحن نأكل يا أوكيوما،" قالت أولانا.

حررها من خصره ووضعها في الركن. تناولوا الطعام في صمت لبرهة، يعجنون الجاري في كرات، ثم يغطسونها في الحساء، ثم يبتلعون.

"ما هذا الجرح؟" سألت أولانا.

"أوه، لا شيء،" قال أوكيوما، ومر بيده خفيفًا فوقه. "إنه يبدو أخطر مما هو في الواقع."

"لابد أن تنضم إلى عُصبة الكتّاب البيافريين،" قالت. "لابد أن تكون واحدًا من أولئك الذين يسافرون لينشروا قضيتنا."

بدأ أوكيوما يهز رأسه بينما أولانا مازالت تتكلم. "أنا جندي،" قال.

"أمازلتَ تكتب؟" سألت أولانا.

هزّ رأسه مجددًا.

"هل لديك قصيدة من أجلنا؟ من رأسك؟" سألت، وبدت يائسةً حتى من نفسها.

ازدرد أوكيوما كرة جاري، تفاحة آدم خاصته ظلت تتدحرج لأعلى ولأسفل. "لا،" قال. استدار لأودينيبو. "هل سمعتَ بما فعلت سرايا مدفعيتنا الساحلية مع المخربين في قطاع أونتشا؟"

بعد الغداء، دخل أودينيبو غرفة النوم. أنهى أوكيوما الويسكي ثم شرب كأسًا بعد كأس من نبيذ النخيل وسقط في النوم على كرسي في غرفة المعيشة. تنفسه كان مُجهَدًا؛ تمتم وجدّف بذراعية مرتين كأنما ليُبعد مهاجمين غير مرئيين. ربتت أولانا على كتفيه لكي توقظه.

"كيونـي. تعال ونمْ بالداخل،" قالت.
فتح عينين محمرتين مجهدتين. "لا، لا، أنا لست نائمًا في الواقع."
"انظرْ إلى نفسك. لقد غفوت."
"مطلقًا." كبح أوكيوما تثاؤبةً. "لديّ قصيدة في دماغي." نهض جالسا ونصب ظهره وبدأ يقرأ الشعر. بدا مختلفًا. في نسوكا، كان يقرأ أشعاره بدراماتيكية، كأنما كان مقتنعًا بأن فنه أهم من أي شيء آخر. الآن لديه نبرة يشوبها بعض المزاح، لكنها مازحة.

"بُنيّةٌ
ببريق حورية الماء ولمعانها
تظهر،
تحمل الفجرَ الفضيَّ
والشمسُ تلازمُها
عروس البحر
التي أبدًا
لن تكون لي.

"كان أودينيبو سيقول: "صوت الجيل!" " قالت أولانا.
"وماذا ستقولين أنتِ؟"
"صوت رجل."
ابتسم أوكيوما بحياء، فتذكرت كيف كان يمازحها أودينيبو بأنه مغرم بها. القصيدة كانت عنها، وكان يريدها أن تعرف ذلك. جلسا في سكون حتى بدأت عيناه تنغلقان وسرعان ما أصبح شخيره منتظمًا. تأملته وتساءلت عما كان يحلم به. كان نائمًا في سكون، يتمتم كثيرًا، ويدير رأسه من جانب إلى جانب، حتى وصل البروفيسور آتشارا في المساء.
"أوه، صديقكم القائد هنا،" قال. "من فضلك نادي أودينيبو. وهيا نذهب إلى الشرفة."
جلسوا على مقعد في الشرفة. ظل البروفيسور آتشارا ينظر لأسفل، يقبض يديه ويفردهما.
"جئتُ في أمر صعب،" قال.
ضرب الخوف صدر أولانا: شيء ما حدث لكاينين وقد أرسلوا البروفيسور آتشارا ليخبرها. ودت لو يغادر البروفيسور آتشارا فورًا دون أن يخبرها، لأنها لم تشأ أن تسمع ما يؤلمها.
"ما هو؟" سأل أودينيبو بحدّة.

"حاولتُ أن أجعل مالك منزلك يغير رأيه. فعلت كل ما بوسعي. لكنه رفض. يريدك أن تجمع أغراضك خلال أسبوعين."

"لستُ واثقًا أنني فهمت،" قال أودينيبو.

لكن أولانا كانت واثقة أنه فهم. كانا قد سُئلا أن يخرجا من البيت لأن المالك قد وجد شخصًا آخر سوف يدفع ربما ضِعف أو ثلاثة أضعاف قيمة الإيجار.

"آسف يا أودينيبو. هو غالبًا رجل منطقيّ للغاية، لكنني أظن أن الزمن انتقص بعضًا من منطقه."

تنهّد أودينيبو.

"سوف أساعد في إيجاد مكان آخر،" قال بروفيسور آتشارا.

كانوا محظوظين أن وجدا غرفة واحدة، كانت أوميوهيا مزدحمةً باللاجئين. شريط البنايات الطويل كان به تسع غرف، متجاورة، بأبواب تؤدي للخارج إلى شرفة ضيقة. المطبخ في إحدى النهايتين والحمام في الأخرى، جوار بستان من أشجار الموز. غرفتهم كانت مجاورة للحمّام، وفي اليوم الأول، تأملت أولانا الغرفة وتساءلت كيف يمكنها أن تعيش هنا مع أودينيبو وبيبي وآجوو، أكلٌ وارتداءُ ملابس وممارسةُ حبٍّ في غرفة واحدة. شرع أودينيبو في تخصيص أماكن النوم وفصلها بستارة خفيفة، وفيما بعد، نظرت أولانا إلى الحبل المرتخي الذي ربطه أودينيبو بمسامير على الحائط، وتذكرت غرفة آنكل مبيزي والخالة إيفيكا في كانو، فشرعت في البكاء.

الماما أوجي تعيش في الغرفة المجاورة. لها وجه جامد وترمش نادرًا جدًّا حتى أن أولانا انزعجت من تحديقة عينيها الواسعتين أول مرة تكلمتا فيها.

"مرحبًا ننو،" قالت. "زوجك ليس هنا؟"

"في العمل،" قالت أولانا.

"أود أن أراه قبل الآخرين؛ الأمر يخص أطفالي."

"أطفالك؟"

"المالك يناديه بـــ دكتور."

"أوه، لا. إن معه درجة دكتوراه."

عينا الماما أوجي الباردتان غير الفاهمتان صنعتا ثقوبًا داخل أولانا.

"هو دكتور في الكتب،" قالت أولانا، "ليس طبيبًا للمرضى."

"أوه،" لم يتغير تعبير الماما أوجي. "أطفالي لديهم ربو. ثلاثة منهم ماتوا منذ بدء الحرب. وثمة باقون."

"آسفة. ندو،" قالت أولانا.

هزت ماما أوجي كتفيها ثم أخبرتها أن كل الجيران قد رتبوا أمرهم. إذا ما تركت وعاء كيروسين في المطبخ، سيكون فارغًا حينما تعود إليه. إذا تركت صابونتها في الحمام سوف تمشي. إذا نشرت ملابسها ولم تحرسها، سوف تطير من الحبال.

"كوني حذرة جدًّا،" قالت. "وأغلقي بابك حتى ولو كنتِ ذاهبة للتبوّل."

شكرتها أولانا وتمنّت، لأجل خاطرها، لو أن أودينيبو كان بالفعل طبيبًا. وشكرت الجيران الآخرين الذين جاءوا بابها للتحية والنميمة. كان هناك أناس كثيرون في الفناء؛ أسرة من ستة عشر نفرًا يعيشون في الغرفة المجاورة لغرفة ماما أوجي. كانت أرضية الحمام لزجة بالقاذورات الكثيرة النازحة من أجساد كثيرة، والتواليت كان كثيفًا بروائح الغرباء. في الأمسيات الرطبة حينما تجثم الروائح كثيفةً في رطوبة الهواء، كانت أولانا تتوق إلى وجود مروحة، تتوق للكهرباء. منزلهم الآخر في الجهة الأخرى من البلدة كان به كهرباء حتى الثامنة مساء، لكن هنا بالداخل لم تكن هناك أية كهرباء. اشترت مصابيح زيتية مصنوعةً من علب الحليب. حينما يشعلها آجوو، كانت بيبي تصرخ وتجري بعيدًا عن وثبة اللهب العاري. كانت أولانا ترقبها وتمتنُّ للسماء أن بيبي لم تنظر إلى تلك النُقلة المعيشية الغريبة، إلى تلك الحياة الجديدة، بأي ارتباك على الإطلاق؛ بدلا من ذلك كانت تلعب مع صديقتها آدانّا كل يوم، تصرخ "اختبئي!" وتضحك وتختبئ داخل أوراق الموز لكي تتفادى طائرات متخيلة. كانت أولانا قلقة، رغم ذلك، من أن تلتقط بيبي لكنة آدانّا الرعوية أو بعض الأمراض من الدمامل المائية على ذراعي آدانّا أو براغيث من كلبها الهزيل بينجو.

في أول يوم طبخت فيه أولانا مع آجوو في المطبخ، دخلت أم آدانّا وحملت الوعاء الخزفي وقالت: "من فضلك أعطيني بعض الحساء."

"لا، ليس لدينا ما يكفي،" قالت أولانا. ثم فكرت في فستان آدانّا الوحيد الذي كان مصنوعًا من جوال مخصّص لتعبئة طعام الإغاثة حتى أن الورقة كانت ملتصقة بظهره، فصبّت بعضًا من الحساء الخفيف الخالي من اللحم في وعاء الخزف. في اليوم التالي جاءت ماما آدانّا وسالت بعض الجاري، فأعطتها أولانا نصف فنجان. في اليوم الثالث دخلت بينما المطبخ ممتلئ بنساء أخريات ومن جديد سألت أولانا بعض الحساء.

"توقفي عن إعطائها طعامك!" صرخت ماما أوجي. "هذا ما تفعله مع كل نزيلة جديدة. عليها أن تذهب وتزرع الكاسافا لتُطعم أسرتها وتتوقف عن إزعاج الناس! وفي الأخير، هي من أهل أوميوهيا! ليست لاجئة مثلنا! كيف تتسول طعامها من لاجئ؟" استهجنت ماما أوجي بصوت عال ثم استأنفت تسحق ثمر النخيل في هاونها. بشرةُ وجهها النحيل فتنت أولانا. لم تكن قد رأت من قبل الماما أوجي تبتسم.

"لكن ألستم أنتم أيها اللاجئون من أنهى طعامنا؟" قالت ماما آدانّا.

"اخرسي فمك العفن!" قالت ماما أوجي. فصمتت ماما آدانّا من فورها، كأنما تعرف أن لا سبيل لديها أمام انفجار ماما أوجي، بقسوتها الحادة، بالطريقة التي لا تعوزها الكلمات ولا السرعة في قذفها.

في المساءات، حينما كانت الماما أوجي تتعارك مع زوجها، كان صوتها يمزّق أرجاء الفناء. "أنت أيها الخروف المخصيّ! هل تسمي نفسك رجلاً، وقد فررت من الخدمة العسكرية! دعني فقط أسمع أنك أخبرت مخلوقًا مرة أخرى أنكَ جُرحت في معركة! فقط افتح ذلك الفم القذر مرة أخرى، وسوف أذهب وأنادي الجنود لأريهم أين كنت تختبئ!"

خطبتها المسهبة كانت عرضَ الفناء الرئيسي. وكذلك كانت صلوات القس آمبروز الطويلة وهو ينهض ويسجد. وأيضًا كان عزف البيانو من الغرفة الملاصقة للمطبخ. فزعت أولانا حينما سمعت لأول مرة النغمات الحزينة، الموسيقى الصافية جدًّا والواثقة جدًّا حتى أنها كانت تشحن الهواء وتمسك بأغصان أشجار النخيل المتأرجحة ساكنةً.

"هذه آليس،" قالت ماما أوجي. "جاءت هنا حينما سقطت إنيوجو. لم تكن تكلم أي مخلوق قبل ذلك. على الأقل هي الآن ترد على التحايا. تعيش وحدها في تلك الغرفة. لا تخرج مطلقًا ولا تطبخ أبدًا. لا أحد يعرف ماذا تأكل. حينما خرجنا مرة لننقب، بدت أكبر من أن تشاركنا. كل الآخرين دخلوا الأحراش ليفتشوا عن الهمج المختبئين هناك، لكنها لم تخرج. بعض النسوة قلن إنهم قد يسجلون عليها أنها من المليشيات."

ظلت الموسيقى تصدح. بدت مثل بيتهوفن، لكن أولانا لم تكن واثقة. ربما يعرف أودينيبو. ثم تغيرت النغمة إلى شيء أسرع، بحث غاضب زأر أعلى وأعلى حتى توقف. خرجت آليس من الغرفة. كانت صغيرة العظام، ضئيلة، وشعرت أولانا بأنها امرأة غير ناضجة بمجرد أن نظرت إليها، ثمة شيء طفولي ببشرتها الفاتحة، تقريبًا بشرة نصف شفافة ويدان دقيقتان.

"مساء الخير،" قالت أولانا. "أنا أولانا. انتقلنا لتلك الغرفة توًّا."

"مرحبًا. رأيت ابنتك." مصافحة آليس كانت قبضة ضعيفة، كأنما تصافح نفسها بعناية زائدة، كأنما لا تود أن تخدش نفسها.

"أنت تعزفين ببراعة،" قالت أولانا.

"أوه، لا، لست بارعة." هزت آليس رأسها. "من أين أتيتِ؟"

"جامعة نسوكا. وأنت؟"

ترددت آليس. "جئت من إنجيوا."

"لدينا أصدقاء هناك. هل تعرفين أي أحد في كلية الآداب النيجيرية؟"

"أوه، الحمّام خال." استدارت وأسرعت بعيدًا. أدهشت فظاظتُها أولانا. حينما خرجت، مرت جوارها بإيماءة غامضة ودخلت غرفتها. وسرعان ما سمعت أولانا البيانو، نغمة مطولّة وبطيئة، فشعرت برغبة في المشي نحوها وفتح باب آليس ورؤيتها تعزف.

كثيرًا ما كانت تفكر في آليس، الطبيعة الرقيقة لضآلتها وجمالها، قوة عزفها البيانو التي لا تُصدَّق. حينما جمّعت بيبي وآدانّا وقلّة أخرى من أطفال التجمع لتقرأ لهم، تمنت أن تخرج آليس وتنضم إليهم. وتساءلت ما إذا كانت آليس تحب مقطوعة الحياة العليا. ودت لو تتكلم مع آليس حول الموسيقى والفن والسياسة. لكن آليس خرجت مسرعة من غرفتها فقط لتذهب إلى الحمّام ولم تجب أولانا حين طرقت بابها. "ربما كنت نائمة،" أجابت فيما بعد، لكنها لم تقل لأولانا أن تأتي في وقت لاحق.

وأخيرًا التقتا ثانية في السوق. كان ذلك بعد الفجر بقليل و الجو مثقل بالندى فتجولت أولانا في البرد الرطب، تحت أوراق شجر الغابة الخضراء، وهي تتجنب الجذور السميكة. ساومت بائعًا جائلاً بهدوء، وبثبات، قبل أن تشتري درنات كاسافا بقشرة زهرية لأنها مرة فيما مضى كانت قد ظنت أنها سامة، لأن لون الزهر كان برّاقًا جدًّا، حتى أكدت لها مسز موكليو أنها ليست سامة. نعق طائر من شجرة في الأعلى. وفجأة، رفرفت ورقة شجرة ووقعت. وقفت أمام طاولة عليها قطع رمادية من الدجاج النيئ وتخيلت أنها تجمعها كلها وتجري بها بأسرع ما يمكنها. إذا ما اشترت دجاجة، فسوف تكون كل ما يمكنها شراؤها. لذلك اشترت أربع بزّاقات متوسطة الحجم بدلا منها. قواقع البزّاقات الحلزونية الصغيرة كانت أرخص، مكومة في تلال في سلال، لكنها لن تشتريها، لا تقدر أن تفكر فيها كطعام؛ كانت بالنسبة لها ألعابًا لأطفال القرية. وكانت تتأهب لمغادرة السوق حينما شاهدت آليس.

"صباح الخير يا آليس،" قالت.

"صباح الخير،" قالت آليس.

همّت أولانا لتعانقها، تلك التحية المقتضبة المعتادة، لكن آليس مدّت يدها لمصافحة رسمية كأنما لم تكونا جارتين.

"لم أستطع أن أجد ملحًا في أي مكان، لا مِلح على الإطلاق،" قالت آليس. "والناس الذي وضعونا في هذا الشيء لديهم كل ما يحتاجون من ملح."

اندهشت أولانا؛ بالطبع لن تجد الملح هنا؛ لا يكاد يوجد ملح في أي مكان. بدت آليس دقيقة الحجم وضئيلة في فستانها الصوفي ذي الإزار حتى تخيلته أولانا معلقا في أحد محال لندن. لا شيء يشبه امرأة بيافرية في سوق الغابة عند الفجر.

"يقولون إن النيجيريين يقصفون ويقصفون أولي وليس من طائرة إغاثة قادرة على الهبوط في أسبوع،" قالت آليس.

"نعم، سمعت،" قالت أولانا. "هل ستذهبين للبيت؟"

نظرت آليس بعيدًا، صوب الغابة الكثيفة. "ليس فورًا."

"سوف أنتظرك حتى نعود معًا."

"لا، لا تشغلي بالك،" قالت آليس. "باي باي."

استدارت آليس ومضت نحو الأكشاك المتراصة، مشيتها أنيقة ومفتعلة، كأنما شخص مُضلِّل قد علمها كيف تمشي "مثل سيدة". وقفت أولانا تراقبها، متسائلة ماذا يقبع تحت سطحها، قبل أن تتوجه للبيت. توقفت عند مركز إغاثة لترى إن كان هناك أي طعام، ما إذا كانت طائرة قد نجحت في الهبوط. كان التجمع مهجورًا ووقفت لبرهة تسترق النظر عبر البوابة المقفلة. كانت لوحة نصف ممزقة معلقة بمسامير على الحائط. شخص ما قد مر بالطباشير فوق WCC [1]: "القنصلية العالمية للكنائس"، وكتب جوارها "الحرب بوسعها أن تستمر".

كانت جوار محطة طحن الذرة حنينما خرجت امرأة ركضًا من منزل على جانب الطريق، تصرخ، وتتبع جنديين يسحبان ولدًا طويلاً معهما. "قلتُ لكما يجب أن تأخذوني!" صرخت. "خذوني بدلا منه! ألم نُضحِّ لكم بالفعل بأبيوتشي أيها الناس؟" تجاهلها الجنديان وأبقى الولد ظهره منتصبًا، كأنما لا يثق بنفسه لينظر للخلف إلى أمه.

تنحّت أولانا جانبًا حتى مرّوا، وفي طريقها للبيت هاجت لرؤية آجوو واقفًا أمام الفناء، يتحدث إلى بعض الجيران الكبار. بوسع أي جندي في جولة تفتيش أن يراه هناك.

"*بيا نووك م*، هل حدث شيء لعقلك؟ ألم أخبرك ألا تكون هنا؟" قالت له باستهجان.

أخذ آجوو سلّتها وتمتم: "آسف يا ماه."

"أين بيبي؟"

"في غرفة آدانّا."

"أعطني المفتاح."

"السيد بالداخل يا ماه."

رمقت أولانا ساعتها رغم أنها لم تكن بحاجة إلى ذلك. كان الوقت مبكرًا جدًّا ليكون أودينيبو بالبيت. كان جالسًا على سريرهما، ظهره مقوّس، وكتفاه مثقلان ساكنان.

"*أوه جيني*. ماذا حدث؟" سألت.

"لم يحدث شيء."

ذهبت إليه. "*إيبيزي نا*، توقفْ عن البكاء،" تمتمت. لكنها لم تكن تريده أن يتوقف. كانت تريده أن يبكي ويبكي حتى يُخرج كلَّ ألمه الذي يخنق حلقه، حتى يغسل عنه حزنه العميق

---

[1]- العبارتان تبدآن بنفس الحروف WWC:
World **C**ouncil of **C**hurched
War **C**an **C**ontinue (المترجمة)

الموغل. حضنته، وهي تطوقه بذراعيها، وببطء استرخى أمامها. طوقتها ذراعاه. وأصبح نشيجه مسموعًا. مع كل شهقة تنفس، ذكّرها ذلك بيبيي؛ إنه يبكي مثل ابنته.

"لم أفعل ما يجب لماما،" قال أخيرًا.

"لا عليك،" تمتمت. تمنت بقوة لو كانت قد حاولت أكثر مع أمه قبل أن تستلم للاستياء السهل. كان ثمة الكثير الذي كان يمكن أن تسترده لو كان بوسعها أن تفعل.

"نحن أبدًا لا نتذكر الموت بحق،" قال أودينيبو. "السبب في أننا نحيا كما نحيا هو أننا لا نتذكر أننا سوف نموت. سوف نموت كلنا."

"نعم،" قالت أولانا؛ كان ثمة تهدل في كتفيه.

"لكن ربما تلك هي الفكرة في بقائنا أحياء؟ الحياة هي مرحلة من نكران الموت؟" سأل.

طوّقته أولانا أكثر.

"كنتُ أفكر في الجيش يا نكيم،" قال. "ربما يجب عليّ ان أنضم لجسر فخامته الجديد."

لم تقل أولانا شيئا لبرهة. شعرت برغبة مُلحّة بأن تشد ذقنه الجديدة وتنزع شعرةً منها وترى دماءه. "ربما كذلك عليك أن تجد شجرة ميتة وحبلاً يا أودينيبو، لأن هذا هي الطريقة السهلة للانتحار،" قالت.

تراجع للخلف لينظر إليها، لكنها تجنّبت النظر إليه ونهضت لتدير الراديو وعلّت الصوت، وملأت الغرفة بأغنية البيتلز؛ هي لن تناقش بعد الآن الرغبة في الانضمام للجيش.

"يجب أن نبتني مخبأ،" قال، ومضى نحو الباب.

"نعم بالطبع نحتاج إلى مخبأ هنا."

أقلقتها النظرة الزجاجية المسحطة في عينيه، وتهدُّل كتفيه. إذا كان عليه أن يفعل شيئًا، فمن الأفضل أن يبني مخبأ عن أن ينضم للجيش.

بالخارج، كان يتحدث إلى بابا أوجي وبعض الرجال الآخرين الواقفين عند بوابة التجمع.

"ألا ترى أشجار الموز تلك؟" سأل بابا أوجي. "كل الغارات الجوية التي داهمتنا، كنا نذهب هناك، ولا شيء حدث لنا. لا نحتاج إلى مخبأ. أشجار الموز تمتص الرصاصات والقذائف."

كانت عينا أودينيبو باردتين مثل ردّه. "وماذا يعرف متسللٌ من الخدمة العسكرية عن المخابئ؟"

ترك الرجال، وبعد دقائق، بدأ هو وآجوو يرسمان على الأرض ويحفران المساحة خلف البنايات. وسرعان ما انضم الشباب إلى العمل وحينما غربت الشمس انضم إليهم الرجال الأكبر سنًّا بما فيهم بابا أوجي. شاهدتهم أولانا يعملون وتساءلت كيف يفكرون في أودينيبو. وحينما أطلق بعض الرجال النكات وضحكوا، لم يشاركهم الضحك. كان يتكلم فقط عن العمل. لا، *مبا*، حركها أكثر للأسفل. نعم، هيا نحملها هناك. لا، أزحها قليلاً. التصق قميصه التحتاني العرقان بجسده فلاحظت، لأول مرة، كم فقدَ الكثيرَ من الوزن، وكم انكمش صدره.

في تلك الليلة، رقدت وخدها ملاصقٌ لخده. لم يكن قد أخبرها ما الذي جعله يمكث في البيت ليبكي أمه. تمنت، رغم ذلك، كيفما كان السبب، أن يفكك ذلك البكاء الأنشوطة التي تكبّل داخله. قبّلت عنقه، أذنه، بالطريقة التي كانت تجعله يجذبها إليه في الليالي التي كان آجوو ينام فيها بالخارج في الشرفة. لكنه أزاح يدها بعيدًا وقال: "نكيم، أنا متعب." لم تسمعه من قبل يقول ذلك. كان يفوح برائحة عرق معتق، وشعرت بحنين مفاجئي لعطر أولد سبايس[1] الذي تركوه في نسوكا.

حتى معجزة آباجانا لم تفكك الأنشوطات. فيما قبل، كانوا ليحتفلون بها كأنما كان نصرًا شخصيًّا. كانا يعانقان ويقبلان بعضهما بعضًا وكانت تشكشك وجنتيها بذقنه الجديدة. على أنهما حينما سمعا الإعلان الأول بالراديو قال ببساطة: "ممتاز، ممتاز،" وفيما بعد راح يشاهد بتعبير خاوٍ الجيران الراقصين.

بدأت ماما أوجي الأغنية، *"أوني جا-إنوي مميري؟"* وردت النسوة الأخريات "بيافرا جا-إنوي مميري، إيبا!" ثم شكّلن دائرةً وتمايلن بحركات مبتهجة وكنّ يدققن الأرض بقوة وهن يقلن *"إيبا!"* فكانت موجات من الغبار تعلو وتهبط. انضمت إليهن أولانا، وقد شجّعتها الكلمات— مَن سوف ينتصر؟ بيافرا سوف تنتصر، *إيبا*!- وتمنت لو لم يجلس أودينيبو هناك وفقط بذلك التعبير الخاوي.
"أولانا ترقص مثل الناس البيض!" قالت ماما أوجي وهي تضحك. الرجال كانوا يحكون القصة ويعيدونها— البعض يقول إن القوات البيافرية صنعت كمائن وأشعلت النار في صف من مائة شاحنة، بينما يقول آخرون إنه هناك في الحقيقة ألفًا من السيارات المصفّحة المحطمة والشاحنات- لكنهم اتفقوا جميعًا على أن قافلة السيارات لو كانت قد وصلت بغيتها، لكانت بيافرا قد انتهت. كانت أجهزة الراديو مُدارة عاليًا، موضوعة في الشرفة أمام غرفهم. والأخبار كانت تُذاع مرارًا وتكرارًا، وكلما انتهت كان العديد من الجيران يقولون مع الصوت: "إنقاذ بيافرا للعالم الحر هي المهمة التي يجب أن تتم! حتى بيبي كانت تعرف الكلمات. كانت ترددها بينما تربت على رأس بينجو. كانت آليس هي الجارة الوحيدة التي لم تخرج، وتساءلت أولانا عم كانت تفعل.
"تظن آليس أنها أفضل مننا جميعا في هذا الفناء،" قالت ماما أوجي. "انظري إليكِ أنت؟ ألم يقولوا إنك ابنة رجل مهم؟ لكنك تعاملين الناس كما يجب. ماذا تظن نفسها؟"
ربما كانت نائمة."

---

[1] عطر رجالي شهير Old Spice (ت).

"نائمة بالفعل. تلك الآليس مُخرِّبة. واضح على وجهها. إنها تعمل مع الهمجيين."
"منذ متى كان المخربون مكتوب على وجوههم؟" سألت أولانا مسرورة.
هزت ماما أوجي كتفيها استهجانًا، كأنما لم تكن تهتم بأن تقنع أولانا بشيء هي واثقة منه.
وصل سائق البروفيسور إيزيكا بعد ساعات حينما كان الفناء أكثر فراغًا وهدوءًا. أعطى أولانا ورقة ثم استدار وفتح صندوق السيارة الخلفي وأخرج كارتونتين. أسرع آجوو بهما للداخل.
"شكرًا لك،" قالت أولانا. "أبلغ سيدك التحية."
"حاضر يا ماه." وقف هناك ساكنًا.
"هل هناك شيء آخر؟"
"من فضلك يا ماه، عليّ أن أنتظر حتى تتأكدي أن كل شيء كامل."
"أوه." خط إيزيكا الملخبط كان قد كتب قائمة بكل ما أرسله في مقدمة الورقة. *من فضلك تأكدي أن السائق لم يختلس أي شيء من المكتوب في الخلف*. دخلت أولانا لكي تحصي عبوات اللبن المجفف، الشاي، البسكويت، التونة، السردين، كراتين السكر، عبوات الملح- ولم تقاوم اللهاث حينما رأت ورق التواليت. أخيرًا لن تضطر بيبي إلى استخدام ورق الجرائد القديمة ولو لمدة. كتبت شكرًا عميقًا سريعًا على ورقة وأعطتها للسائق؛ إن كان إيزيكا قد فعل ذلك لكي يُظهر كم هو ذو سلطة، لما أنقص ذلك من بهجتها. سعادة آجوو بدت أكبر كثيرًا من سعادتها.
"هذا مثل نسوكا يا ماه!" قال. "انظري إلى السردين!"
"من فضلك ضع بعض الملح في كيس. ربع العبوة."
"ماه؟ لمن؟" بدا آجوو شاكًا.
"من أجل آليس. ولا تخبر الجيران بما لدينا. لو سألوك، قل إن صديقًا قديمًا أرسل بعض الكتب لسيدك."
"حاضر يا ماه."
شعرت أولانا بعيني آجوو غير الموافقتين تتبعانها وهي تأخذ كيس الملح إلى غرفة آليس. لم تكن من إجابة لطرقها على الباب. كانت قد استدارت لتعود حينما فتحت آليس الباب.
"صديق لنا أحضر لنا بعض التموين،" قالت أولانا، وهي تمد يدها بكيس الملح.
"هاي!" لا أقدر أن آخذ كل هذا،" قالت آليس، وهي تمد يدها وتتناوله. "شكرًا لك. أوه، شكرًا كثيرًا لك!"
"لم نره منذ مدة. جاء مثل مفاجأة."

"وأنت منزعجة مني. لا يجب أن تنزعجي مني." كانت آليس قابضة على كيس الملح إلى صدرها. عيناها كانت بهما ظلال قاتمة، آثار من العروق الخضراء كانت تزحف تحت بشرتها الشاحبة، وتساءلت أولانا إن كانت مريضة.

لكن آليس، بدت مختلفة، ببشرتها النضرة، حينما خرجت، في المساء، وجلست على الأرض في الشرفة جوار أولانا ومدت ساقيها للأمام. ربما وضعت بعض البودرة. قدماها كانتا دقيقتان. وفاحت منها رائحة كريم بشرة. مرّت ماما آدانّا وقالت: "إيه آليس، لم نرك من قبل تجلسين بالخارج!" فتحركت شفتا آليس خفيفًا في ابتسامة. كان القس آمبروز يصلي جوار شجرة موز. ثوبه الأحمر ذو الأكمام الطويلة كان يضيء تحت الشمس الماحقة. "يا يهوه المقدس دمّرْ الهمجَ بنار الروح المقدسة! أيها المقدس يهوه قاتلْ من أجلنا!"

"الربُّ يقاتل من أجل نيجيريا،" قالت آليس. "الرب دائما يقاتل مع الجانب ذي الأسلحة الأكثر عددًا."

"الربُّ في جانبنا!" فاجأت أولانا نفسها بكم كان صوتها حادًّا. بدت آليس مأخوذة، ومن مكان ما وراء البيت، نبح بينجو.

"أنا فقط أعني أن الربَّ يقاتل مع الجانب العادل،" أضافت أولانا برقة.

ضربت آليس بعوضة. "آمبروز يزعم أنه قسيس لكي يتهرب من الجيش."

"نعم هو كذلك," ابتسمت أولانا. "هل تعرفين تلك الكنيسة الغريبة في طريق أوجي في إنيوجو؟ هو يبدو مثل واحد من أولئك القساوسة."

"أنا لست بالفعل من إنيوجو." سحبت آليس ركبتيها. "أنا من آسابا. غادرت بعدما أنهيت كلية تدريب المعلمين هناك ثم ذهبت إلى لاجوس. كنت أعمل في لاجوس قبل الحرب. قابلت لواء عسكريًّا وفي غضون شهور قليلة سألني الزواج، لكنه لم يخبرني أنه بالفعل متزوج وأن زوجته مسافرة. حملت. وظل يؤجل ذهابه إلى آسابا لكي يقيم الطقوس التقليدية. لكنني صدقته حينما قال إنه كان مشغولاً وتحت ضغوط من كل العسكريين، هربَ وجئتُ أنا إلى إنيوجو معه. ووضعت طفلي في إنيوجو. وكنت معه في إنيوجو حينما عادت زوجته قبيل بدء الحرب ثم تركني. ثم مات طفلي. وسقطت إنيوجو. لذلك أنا هنا."

"أنا آسفة جدًّا."

"أنا امرأة غبية. أنا التي صدقت كل أكاذيبه."

"لا تقولي هذا."

"أنت محظوظة. لديك زوجك وابنتك. لا أدري كيف عملت هذا، تحافظين على كل شيء وتعلمين الأطفال وكل هذا. كنت أتمنى أن أكون مثلك."

أشعرها إعجابُ آليس بالدفء وأدهشها. "لا شيء خاصًّا بي،" قالت أولانا.

القس آمبروز ضربه الجنون. "أيها الشيطان، سوف أطلق عليك النار! يا إبليس، سوف ألقي عليك قنبلة!"

"كيف نجحتِ في الخروج من نسوكا؟" سألت آليس. "هل فقدتم الكثير؟"

"كل شيء. غادرنا في عجالة."

"كان الأمر نفسه معي في إنيوجو. لا أعرف لماذا لم يخبرونا بالحقيقة حتى نرتب حالنا. الناس في وزارة الإعلام أطلقوا شاحنتهم في أرجاء المدينة يخبروننا أن كل شيء على ما يرام، فقط أولادنا الذين يمارسون القتال. لو كانوا هم أخبرونا بالحقيقة، لكان الكثير منا قد رتب حاله وما كنا لنفقد الكثير جدًّا."

"لكنك أحضرتِ البيانو خاصتك." لم تحب أولانا الطريقة التي نطقت بها آليس "هم"، كأنما لم تكن في جانبهم.

"هو الشيء الوحيد الذي أخذته من إنيوجو. أرسل لي نقودًا وشاحنة في نفس يوم سقوط إنيوجو. ضميره المعذب كان يعمل طيلة الوقت. أخبرني السائق لاحقًا أنه هو وزوجته قد نقلا أشياءهما الخاصة إلى بلدتهم قبل أسابيع من ذلك اليوم. تخيلي!"

"هل تعرفين أين هو الآن؟"

"لا أريد أن أعرف. إذا شاهدت ذلك الرجل مرة أخرى، *إيزي أووا* م، سوف أقتله بيدي." رفعت آليس يديها النحيلتين. كانت تتحدث الإيبو للمرة الأولى، بلهجة آسابا، حرف "ف" كان يبدو مثل "و". "حينما أفكر فيما حصل لي بسبب ذلك الرجل. تركت وظيفتي في لاجوس، ظللت أقول أكاذيب لعائلتي، وقاطعت أصدقائي الذين كانوا يخبرونني أنه ليس جادًّا." مالت لتلتقط شيئًا من الرمال. "وهو حتى لم يستطع أن يفعل."

"ماذا؟"

"كان يقفز فوقي، يئن ويولول اوه-اوه-اوه مثل النعجة، وكان هكذا." رفعت آليس إصبعها. "بشيء في هذا الصغر. وفيما بعد كان يبتسم بسعادة دون أن يتساءل ما إذا كنت أنا قد فهمت متى بدأ ومتى انتهى. الرجال! الرجال لا أمل فيهم!"

"لا، ليسوا جميعًا. زوجي يعرف كيف يفعل، وبشيء مثل هذا." رفعت أولانا قبضة مضمومة. ضحكتا، فشعرت أن بينهما رابطة نسوية سوقية ولذيذة.

انتظرت أولانا أن يعود أودينيبو للبيت حتى تخبره بصداقتها الجديدة مع آليس، وعما أخبرته لآليس. ودت أن يعود للبيت لكي يجذبها بقوة إليه بالطريقة التي لم يفعلها منذ مدة طويلة. على إنه لمّا عاد من بار تنزانيا، كانت معه بندقية. بندقية مزدوجة الطلقات، طويلة وسوداء وبليدة، كانت راقدة فوق السرير.

"جيني بو *إيفا* آ؟ ما هذا؟" سألت أولانا.

"أعطاها لي شخص ما في المديرية. هي قديمة جدًّا. لكنها جيدة للاستعمال عند الحاجة."
"لا أريد بندقية هنا."
"نحن في حال حرب. ثمة بنادق في كل مكان." نزع بنطاله وربط رداءه حول خصره قبل أن يخلع قميصه.
"تكلمت مع آليس اليوم."
"آليس؟"
"الجارة التي تعزف البيانو."
"أوه، نعم." كان يحدق في الستارة المفتوحة.
"تبدو متعبًا،" قالت. ما أرادت قوله هو: تبدو حزينًا. فقط لو كان مشغولاً بشيء، فقط لو كان لديه ما يفعله في لحظات الحزن العميق قبل أن يبتلعه.
"أنا بخير،" قال.
"أظن أنك يجب أن تزور إيزيكا. اسألْه أن يساعدك أن تنتقل إلى مكان آخر. حتى ولو لم يكن في المديرية، لابد أن لديه نفوذًا ما مع المدراء الآخرين."
علّق أودينيبو بنطاله على مسمار في الحائط.
"هل تسمعني؟" سألت أولانا.
"لن أكلم إيزيكا."
تعرفت على تعبيره: كان محبطًا. كانت قد نسيت أن لديهما مثاليات عُليا. هما من أشخاص المبادئ؛ إنهما لا يطلبان خدمات من الأصدقاء ذوي المراكز العليا.
"بوسعك أن تخدم بيافرا أكثر إذا ما عملت في مكان آخر حيث يمكنك استخدام عقلك وموهبتك،" قالت.
"أنا أخدم بيافرا بما يكفي في مديرية القوى العاملة."
تأملت أولانا كومة الفوضى التي كانت غرفتهما وبيتهما- السرير، المرتبة التي تتكئ إلى الحائط القذر الملطخ، درنتان من البطاطا، الكراتين والحقائب المكومة في الركن، موقد الكيروسين الذي تأخذه إلى المطبخ عند الاستعمال فقط- فانتباها جيشان من الرفض، رغبة مُلّحة في الركض والركض والركض حتى تغدو بعيدة جدًّا عن كل هذا.
ناما وظهراهما إلى بعضهما. كان قد ذهب حينما استيقظت. مسّت جانبه من السرير ومررت يدها عليه، مستمتعة بالدفء الأشعث المتبقي على الملاءة. سوف تذهب وتزور إيزيكا بنفسها. سوف تسأله أن يفعل شيئًا من أجل أودينيبو. خرجت للحمام قائلة: "صباح الخير" و "هل أنت بخير اليوم؟" لبعض النسوة وهي تمشي. كانت بيبي مع الأطفال الأصغر، محتشدين عند أشجار الموز، ينصتون إلى بابا أوجي يحكي لهم قصة كيف أطلق

النار من مسدسه على طائرة العدو في كالابار. الأطفال الأكبر عمرًا كانوا ينظفون الفناء ويغنون.

بيافرا، كويني، بوسو نيجيريا آجها،
آني إيميلي ندي آوسوا،
ندي نا - آماروا شوكو،
تيجبو فا، زجوبو فا،
نويلو ناودو جوون.

حينما توقف غناؤهم، بدت صلاة القس آمبروز الصباحية أعلى صوتًا. "الربُّ يبارك فخامته! الربُّ فليعطِ تنزانيا والجابون القوة! فليدمر الربُّ نيجيريا وبريطانيا ومصر والجزائر وروسيا! باسم المسيح المقدس!"
هتف بعض الناس من غرفهم "آمين!". حمل القس آمبروز إنجيله عاليًا، كأنما معجزة سوف تسقط عليه من السماء، وهتف بكلمات لا معنى لها: *شي بابا شي بابا شي بابا*.
;"كفى هذيانًا أيها القس آمبروز، واذهبْ وانضمّ إلى الجيش !بم يفيد قضيتَنا كلامُك الذي من اللسان؟" قالت ماما أوجي. كانت عند باب غرفتها مع ابنها، رأسه المغطى بالقماش كان منحنيًا فوق وعاء بخار. حينما رفع رأسه ليستنشق الهواء، شاهدت أولانا مزيج البول والزيوت والأعشاب ويعلم الله ماذا أيضًا مما قررت ماما أوجي أنه علاج للربو.
"هل كانت الليلة سيئة عليه؟" سألت أولانا ماما أوجي.
هزت ماما أوجي كتفيها. "كانت سيئة لكن ليس جدًّا." استدارت لتساعد ابنها. "هل تريدني أن أصفعك قبل أن تستنشقها؟ لماذا تترك المزيج يتبخر ويضيع؟"
أحنى رأسه فوق الوعاء من جديد.
"يهوه فليدمر جوون وأديكيونيل!" صرخ القس آمبروز.
"كن هادئًا وانضم إلى الجيش!" قالت ماما أوجي.
هتفت إحداهن من إحدى الغرف. "ماما أوجي، اتركي القس في حاله! في الأول اجعلي زوجك يعود إلى الجيش الذي فرّ منه!"
"على الأقل لقد ذهب!" جاء رد ماما أوجي سريعًا. "بينما زوجك أنتِ يعيش حياة الجبان المرتعد في غابة أوهافيا حتى لا يراه الجند."
جاءت بيبي من وراء البيت؛ والكلب يتبعها. "مامي أوللا! بينجو يقدر أن يرى الأرواح. حينما ينبح في الليل فهذا يعني أنه شاهد أرواحًا."
"لا يوجد شيء اسمه أرواح يا بيبي،" قالت أولانا.

"بلى هناك أرواح."

أربك هذا أولانا، تلك الأشياء التي تلتقطها بيبي هنا. "هل أخبرتك آدانّا بذلك."

"لا، أخبرتني تشوكودي."

"أين آدانّا؟"

"نائمة. مريضة،" قالت بيبي، ثم بدأت تهشّ الذباب الذي تحلّق حول رأس بينجو.

تمتمت ماما أوجي: "ظللت أخبر ماما آدانّا أن مرض الطفلة ليس ملاريا. لكنها ظلت تعطيها دواء نييم الذي لم يشفها. إذا لم يخبرها أحدٌ ما فها أنا قد أفعل: ما لدى آدانّا هو متلازمة هارولد ويلسن، هو-*ها*."

" متلازمة هارولد ويلسن؟"

"سوء التغذية الحاد. الطفلة لديها سوء تغذية حاد."

انفجرت أولانا بالضحك. لم تكن تعرف أنهم سمّوا سوء التغذية الحاد على اسم رئيس الوزراء البريطاني، لكن سرورها تلاشى حينما ذهبت إلى غرفة آدانّا. كانت راقدةً على سجادة، عيناها نصف مغمضتين. مسّت أولانا وجهها بظهر كفها، لكي تختبر وجود حمّى، رغم أنها تعرف أنه لا حمى هناك. كان يجب أن تدرك ذلك مبكرًا؛ كانت بطن آدانّا منتفخة ولبشرتها لون شاحب، أكثر شحوبا عما كانته قبل أسابيع ماضية.

"هذه الملاريا عنيدة جدًّا،" قالت ماما آدانّا.

"لديها سوء تغذية حاد،" قالت أولانا بهدوء.

"سوء تغذية،" رددت ماما آدانّا وهي تنظر إلى أولانا والخوف بعينيها.

"عليك أن تجدي جمبري أو حليب."

"حليب، كوا؟ من أين؟" سألت ماما آدانّا. "لكن لدينا في الجوار مضاد لسوء التغذية. ماما أوبيك كانت قد أخبرتني قبل أيام. سأذهب وأجلب بعضًا منه."

"ماذا؟"

أوراق شجر مضادة لسوء التغذية،" قالت ماما آدانّا، وهي في طريقها للخارج.

اندهشت أولانا من سرعة شدها عباءتها ثم خطوها داخل الغابة في الجانب الآخر من الطريق. عادت بعد دقيقة حاملة باقة من الأوراق الخضراء النحيلة. "سوف أطهو حساء الآن،" قالت.

"آدانّا تحتاج إلى حليب،" قالت أولانا. "هذا لن يشفي سوء التغذية."

"اتركي ماما آدانّا في حالها. سوف تنفع أوراق مضاد سوء التغذية مادامت لن تغليها كثيرًا،" قالت ماما أوجي. "إضافةً إلى ذلك، فمركز الإغاثة لا شيء لديه. وهل سمعت أن كل الأطفال في ننيوي قد ماتوا بعد شربهم حليب الإغاثة؟ الهمج قد وضعوا به السم."

نادت أولانا على بيبي وأخذتها للداخل وخلعت ملابسها.

"حمّمني آجوو بالفعل،" قالت بيبي وهي تبدو حائرة.
"نعم، نعم، يا بيبتي،" قالت أولانا وهي تفحصها بدقة. بشرتها كانت ما تزال قاتمة اللون مثل الماهوجني وشعرها ما يزال أسود، رغم أنها بدت أكثر نحولاً، بطنها لم تكن منتفخة. تمنت أولانا جدًّا لو كان مركز الإغاثة مفتوحًا وأن يكون أوكورومادو ما زال هناك، لكنه كان قد انتقل إلى أورلو بعدما أعطت القنصلية العالمية للكنائس وظيفتَه لأحد القساوسة الكثيرين الذين لم يعد لديهم أبرشيات.
كانت ماما آدانّا تطهو الأوراق في المطبخ. أخذت اولانا علبة سردين وبعض اللبن المجفف من الكرتونة التي أرسلها إيزيكا وأعطتهما لها. "لا تخبري أي أحد أنني أعطيتك هذا. أعطيهما لآدانّا قليلاً فقليلاً."
احتضنت ماما آدانّا أولانا. "شكرًا لك، شكرًا لك، شكرًا لك. لن أخبر أحدًا."
لكنها أخبرت، لأن ما أن ذهبت أولانا إلى بروفيسور إيزيكا فيما بعد، هتفت ماما أوجي: "ابني لديه ربو والحليب لن يقتله!"
تجاهلتها أولانا.

- - - - - - - -

مشت نحو الطريق الرئيسي ووقفت تحت شجرة. كلما مرت سيارة كانت تحاول أن تشير لها. توقف جندي في سيارة نقل صدئة. رأت النظرة الخبيثة في عينيه قبل أن تركب جواره، لذلك بالغت في لكنتها الإنجليزية، واثقةً من أنه لم يفهم كل ما قالته، وتكلمت خلال الطريق عن الحالة وذكرت أن سيارتها وسائقها كانا عند الميكانيكي. تكلم قليلاً جدًّا حتى أنزلها عند مبنى المديرية. لم يعرف مَن هي أو مَن تعرف.

سكرتيرة بروفيسور إيزيكا ذات وجه الصقر نظرت ببطء إلى أولانا، من باروكتها المصففة بعناية وحتى حذائها، ثم قال: "هو ليس هنا!"
"إذًا اطلبيه الآن فورًا وقولي له إنني أنتظره. اسمي أولانا أوزوبيا."
بدت السكرتيرة مندهشة. "ماذا؟"
"هل أحتاج أن أقول ثانيةً؟" سألت أولانا. "أنا واثقة من أن البروفيسور سوف يريد أن يسمع عن هذا. أين سأجلس ريثما تتصلين له؟"
شخصت السكرتيرة فيها فشخصت أولانا بدورها بثبات. ثم أومأت بصمت إلى كرسي والتقطت الهاتف. بعد نصف ساعة، وصل سائق البروفيسور إيزيكا ليأخذها إلى بيته، المندس في طريق ترابيّ.
"ظننت أن رجلاً مهمًّا مثلك لابد يسكن في منطقة محمية الحكومة يا بروفيسور،" قالت أولانا بعدما حيته.

"أوه، بالقطع لا. تلك المساحة واضحة جدًّا للقصف." لم يتغير. شعوره بالتميز الذي صعبٌ إرضاؤه كان يحدد صوته وهو يلوح لها ويسألها أن تنتظره حتى ينهي دراسته.

كانت أولانا قد رأت القليل من مسز إيزيكا في نسوكا؛ كانت رعديدة ومتعلمة بالكاد، نوع الزوجة التي وجدتها له قريتُه، هكذا قال أودينيبو مرة. وكافحت أولانا لتُخفي دهشتها، فيما بعد، حينما خرجت مسز إيزيكا وحضنتها مرتين في غرفة المعيشة الواسعة.

"لطيف جدًّا أن نلتقي أصدقاءنا القدامى! مجتمعنا هذه الأيام عسكريون جدًّا، هذا البيت أصبح بيت حكومة اليوم وغدًا." قلادة مسز إيزيكا الذهبية مدلاة لأسفل في سلسلة حول عنقها. "بيميل! تعالي وحيي الخالة."

الطفلة التي خرجت تحمل عروستها كانت أكبر من بيبي، في حوالي الثامنة من عمرها. لها وجه أمها ذو الوجنتين المسطحتين، وكانت الشريطة الوردية في شعرها تتأرجح.

"مساء الخير،" قالت. كانت تخلع ملابس دُميتها، تفصل بقوة التنورة عن الجسد البلاستيكي.

"كيف حالك؟" سألت أولانا.

"بخير، شكرًا لك."

غطست أولانا في الأريكة الحمراء الفاخرة الناعمة. بيت الدمية، بصحون الدمية الدقيقة وفناجين الشاي كانت مرصوصة فوق طاولة المنتصف.

"ماذا ستشربين؟" سألت مسز إيزيكا بحبور. "أذكر أن أودينيبو يحب البراندي. لدينا بعض البراندي الجيد."

نظرت أولانا إلى مسز إيزيكا. لا يمكن أن تكون متذكرة ماذا يشرب أودينيبو لأنها أبدًا لم تأت مع زوجها في زيارات الأمسيات.

"أفضّل بعض الماء البارد من فضلك،" قالت أولانا.

"فقط ماء بارد؟" سألت مسز إيزيكا. "على أية حال، يمكن أن نتناول شيئًا آخر بعد الغداء. أيها الخادم."

ظهر الخادم فورًا، كأنما كان يقف على الباب. "احضرْ ماء باردًا وكوك،" قالت مسز إيزيكا.

بدأت باميلا تئن، مازالت تنزع ملابس الدمية.

"تعالي، تعالي، دعيني أعمل هذا لك،" قالت مسز إيزيكا. استدارت لأولانا. "أصبحت ضجرة جدًّا الآن. كما ترين، كان يجب أن نسافر الأسبوع الماضي. الاثنان الأكبر سنًّا ذهبا. أعطانا فخامته تصريحًا منذ مدة. كان من المفروض أن نسافر على طائرة إغاثة، لكن ولا واحدة هبطت. يقولون إنه يوجد الكثير من القاصفات النيجيرية. هل تتخيلين؟ بالأمس، انتظرنا في أوللي، في تلك البناية غير المكتملة التي يسمونها مطارًا، لأكثر من ساعتين ولا طائرة هبطت. لكننا نأمل أن نغادر يوم الأحد. سوف نطير إلى الجابون ومنها

إلى إنجلترا- بجوازات سفرنا النيجيرية بالطبع! فالبريطانيون يرفضون أن يعترفوا ببيافرا!" ضحكتها ملأت أولانا بامتعاض في خفّةٍ ووجع وخزة دبوس جديد.

أحضر الخادم الماء على صينية فضية.

"هل أنت واثق أن هذا الماء باردٌ بما يكفي؟" سألت مسز إيزيكا.

"هل كانت في الفريزر الجديد أم القديم؟"

"الجديد، ماه، كما أخبرتني."

"هل ستأكلين الكعك يا أولانا؟" سألت مسز إيزيكا، بعدما غادر الخادم. "صنعناها اليوم."

"لا، شكرًا لك."

جاء بروفيسور إيزيكا حاملاً بعض الملفات. "هل هذا هو كل ما تشربين؟ الماء؟"

"بيتك سوريالي،" قالت أولانا.

"يا له من اختيار للكلمات، سوريالي،" قال بروفيسور إيزيكا.

"أودينيبو غير سعيد أبدًا في المديرية. هل بوسعك أن تساعد في نقله إلى مكان آخر؟" خرجت الكلمات بطيئة من فم أولانا واكتشفت كم تكره أن تطلب، وكم ودت أن ينتهي الأمر كله وتغادر هذا البيت بسجادته الحمراء وأرائكه الحمراء وتليفزيونه ورائحة الفواكه التي تنبعث من مسز إيزيكا.

"كل شيء ضيّق الآن، بالفعل شديد الضيق،" قال بروفيسور إيزيكا. "الطلبات تنهمر من كل مكان." جلس، ووضع الملفات على ركبتيه، وعقد ساقيه. "لكن سأرى ماذا بوسعي أن أفعل."

"شكرًا لك،" قالت أولانا. "وشكرًا مرة أخرى على التموين."

"هل لك في بعض الكعك؟" قالت مسز إيزيكا.

"لا، لا أريد أي كعك."

"ربما بعد الغداء."

نهضت أولانا. "لا أقدر أن أنتظر للغداء. يجب أن أمضي. أعلّم بعض الأطفال في الفناء وقد أخبرتهم أنني سأعود خلال ساعة."

"أوه، كم هو لطيف،" قالت مسز إيزيكا وهي توصلها للباب. "لو لم أكن فقط مسافرة، لكان بوسعنا أن نفعل شيئًا معًا أيضًا من أجل مجهودات الانتصار -في-الحرب."

جاهدت أولانا شفتيها لرسم ابتسامة.

"سوف يأخذك السائق للبيت،" قال بروفيسور إيزيكا.

"شكرًا لك،" قالت أولانا.

قبل أن تستقل السيارة طلبت إليها مسز إيزيكا أن تأتي خلف البيت وترى المخبأ الذي بناه زوجها؛ كان من الخرسانة المسلحة، شديد المتانة.

"تخيلي إلام جعلنا أولئك الهمج نهبط إليه. باميلا وأنا أحيانًا ننام هنا عندما يقصفوننا،" قالت مسز إيزيكا. "لكننا سوف نحيا."

"نعم،" قالت أولانا وشخصت إلى الأرضية الناعمة والسريرين، حجرة مؤثثة تحت الأرض.

حينما عادت إلى الفناء، كانت بيبي تبكي. والمخاط يجري من أنفها.

"أكلوا بينجو،" قالت بيبي.

"ماذا؟"

والدة آدانّا أكلت بينجو."

"آجوو، ماذا حدث؟" سألت أولانا وهي تأخذ بيبي بين ذراعيها.

هز آجوو كتفيه. "هذا ما يقوله الناس في الفناء. ماما آدانّا أخذت الكلب منذ بعض الوقت ولم تجب حينما سألوها أين هو. وقد طبخت للتو حساء باللحم."

هدأت أولانا من روع بيبي، جففت عينيها وأنفها، وفكرت لبرهة في الكلب برأسه المليئة بالقروح.

جاءت كاينين في منتصف ظهيرة حارة. كانت أولانا في المطبخ تنقع بعض الكاسافا في الماء حينما نادتها ماما أوجي: "هناك امرأة في سيارة تسأل عنك!"

أسرعت أولانا وتوقفت حينما رأت شقيقتها تقف جوار شجرة موز. تبدو أنيقة في فستان بطول الركبة.

"كاينين!" بسطت أولانا ذراعيها برهافة، وبعدم ثقة، وتقدمت كاينين للأمام؛ وكان عناقها مقتضبًا، بالكاد التصق جسداهما قبل أن تعود كاينين للوراء.

"ذهبت إلى بيتك القديم وأخبرني أحدهم أن آتي إلى هنا."

"طردنا المالك، لم نكن كعملاء جيدين بالنسبة له." ضحكت أولانا على نكتتها التعسة، رغم أن كاينين لم تضحك. كانت كاينين تسترق النظر للغرفة. تمنت أولانا جدًّا أن تأتي كاينين حينما كانوا مازالوا في البيت، تمنت ألا تشعر بمرارة الإحساس بالذات.

"ادخلي واجلسي."

جذبت أولانا المقعد من الشرفة فنظرت إليه كاينين بحذر قبل أن تجلس ووضعت يدها على حقيبتها الجلدية البنية بلون الطمي بنفس لون باروكتها. رفعت أولانا الستارة الفاصلة وجلست على السرير وحررت رداءها. لم تنظر إحداهما للأخرى. كان الصمت مفعمًا بكثير مما لا يُقال.

"وإذًا كيف حالك؟" سألت أولانا أخيرًا.

"كانت الأمور عادية حتى سقطت بورت هاركورت. كنتُ مقاولة للجيش، ولدي تصاريح لاستيراد الفسيخ. أنا في أورلو الآن. أعمل مع معسكر اللاجئين هناك.

"أوه."

"هل تدينينني في صمتٍ لأنني أتربّح من الحرب؟ لابد لأحد ما أن يستورد الفسيخ كما تعلمين." رفعت كاينين حاجبيها؛ كانا محددين بالقلم، قوسان ناعمان رفيعان."

"لا، لا، لم أفكر هكذا على الإطلاق."

"بل فكرتِ."

نظرت أولانا بعيدًا. كانت ثمة أمور كثيرة تمور في رأسها. "كنت شديدة القلق حينما سقطت بورت هاركورت. أرسل رسائل."

"وصلني الخطاب الذي أرسلتِه إلى مادو." نظمت كاينين الشرائح المدلاة من حقيبتها. "قلتِ إنك تدرّسين. أمازلتِ؟ جهدك النبيل في الانتصار-في-الحرب؟"

"المدرسة غدت مركز إيواء الآن. أحيانًا أدرّس لأطفال الفناء."

"وكيف حال الزوج الثائر؟"

"مازال مع مديرية القوى العاملة."

"ليس لديك صورة زفاف."

"كانت هناك غارة جوية يوم الحفل. ألقى المصوّر كاميراه على الأرض."

أومأت كاينين، كأنما لا حاجة للشعور بالتعاطف لتلك الأخبار. فتحت حقيبتها. "جئتُ لأعطيكِ هذا. أرسلته ماما عبر صحفي بريطاني."

حملت أولانا المظروف، لا تعرف أتفتحه أمام كاينين أم لا.

"كذلك أحضرت فستانين لبيبي،" قالت كاينين، وأومأت إلى حقيبة وضعتها على الأرض. "امرأة عائدة من صاو تومي كان لديها ملابس أطفال جيدة للبيع."

"أحضرت ملابس لبيبي؟"

"يا له من أمر صادم بالفعل. وفي الوقت الذي بدأت فيه الطفلة تُنادى تشيماكا. أمور هذه البيبي متعبة."

ضحكت أولانا.

التفكير في أن شقيقتها جالسة أمامها، وأن شقيقتها جاءت لزيارتها، وأن شقيقتها أحضرت ثيابًا لطفلتها. "هل تشربين بعض الماء؟ هو كل ما لدينا."

"لا، أنا على ما يرام." نهضت كاينين ومشت صوب الحائط، حيث المرتبة متكئة، ثم عادت وجلست. "لا تعرفين خادمي إيكيدجي، أليس كذلك؟"

أليس هو من جلبه ماكسويل من بلدته."

"نعم،" نهضت كاينين ثانيةً. "لقد قُتل في بورت هاركورت. كانوا يقصفوننا بالقنابل، وقطعت شظية رأسه بالكامل، وظل جسده يجري. جسده ظل يركض بلا رأس."

"أوه، ربّاه."

"لقد رأيته."

نهضت أولانا وجلست جوار كاينين على المقعد ووضعت ذراعها حول كاينين. كانت رائحة البيت تفوح من كاينين. لم تقولا شيئًا لدقائق طويلة.

"فكرتُ في تحويل النقود لك،" قالت كاينين. "لكن بوسعك أن تفعلي ذلك في البنك ثم تودعيها بعد ذلك، ألا تقدرين على ذلك؟"

"ألم تري قاذفات القنابل حول البنك؟ نقودي تكمن تحت سريري."

تأكدي أن الصراصير لن تنالها. فالحياة قاسية عليها هذه الأيام." مالت كاينين إلى أولانا، وبعد ذلك، وكأنما تذكرت شيئًا فجأة، نهضت وسوّت فستانها؛ شعرت أولانا بالحزن البطيء لفقدها شخصًا ما يزال هناك.

"ربّاه. لم أشعر بأن وقتًا طويلاً قد مرَّ،" قالت كاينين.

"هل ستزورينني ثانيةً؟"

كانت هناك برهة صمت ثم قالت كاينين: "أمضي معظم النهار في معسكر اللاجئين. ربما تتمكنين من الحضور لرؤيته." تحسست ورقة في حقيبتها ثم رسمت عليها الاتجاه إلى بيتها.

"نعم، سوف آتي. سآتي الأربعاء القادم."

"هل تقودين؟"

لا، بسبب الجنود. وليس لدينا بنزين."

"أبلغي الثائر تحيتي." ركبت كاينين سيارتها وأدارتها.

"لوحة أرقامك مختلفة،" قالت أولانا، وهي تنظر إلى VIG[1] المطبوعة جوار الأرقام.

"دفعتُ رسومًا أكثر لأوطّن سيارتي. لجنة أهلية!" رفعت كاينين حاجبيها ويدها قبل أن تقود مبتعدة. وقفت أولانا تراقب البيجو 404 فيما تختفي في البعيد ووقفت هناك لبرهة، تشعر كأنما تجرعت كتلة ضوء فضية مُشعّة.

يوم الأربعاء، وصلت أولانا مبكرًا. فتح هاريسون الباب وحملق، مندهشًا جدًّا بدا أنه نسى انحناءته المعتادة. "مدام، صباح الخير! وقتٌ طويل!"

"كيف حالك يا هاريسون؟"

"بخير سيدتي،" قال، ثم انحنى أخيرًا.

جلست أولانا على إحدى الأريكتين في غرفة المعيشة البراقة الخاوية بنوافذها نصف المفتوحة. كان الراديو مدارًا عاليًا في مكان ما بالداخل، وحينما سمعت وقع خطى قادمة، أرغمت فمها على الاسترخاء، لا تعرف ماذا ستقول لريتشارد. لكنها كانت كاينين، في رداء أسود مجعد، تحمل باروكتها في يدها.

---

[1]- Vigilance – لجنة أهلية. (ت)

"إيجيما م،" قالت، وهي تعانق أولانا. كان عناقهما حميمًا، تلاصق جسداهما في دفء. "كنت أرجو أن تأتي في الميعاد حتى نذهب سويًّا إلى مركز الأبحاث أولاً قبل معسكر اللاجئين. هل لك في بعض الأرز؟ لم أكتشف كم مر من وقت طويل لم آكل فيه الأرز حتى أعطاني ناس من الإغاثة جوالاً منه الأسبوع الماضي."

"لا، ليس الآن." كانت أولانا تود أن تحتضن شقيقتها لمدة أطول، لكي تشم رائحة البيت المألوفة تلك.

"كنت أستمع إلى راديو نيجيريا. تقول لاجوس إن الجنود الصينيين يقاتلون من أجلنا وتقول كادونا إن كل امرأة إيبو تستحق أن تُغتصب،" قالت كاينين. "خيالهم يؤثر فيّ."

"لا أستمع إليهم مطلقًا."

"أوه، أنا أستمع إلى لاجوس وكادونا أكثر مما أستمع إلى راديو بيافرا. يجب أن تُبقي العدو قريبًا منك."

دخل هاريسون وانحني. "سيدتي؟ أجهز المشروبات؟"

"الطريقة التي يؤدي بها ستجعلك تظنين أن لدينا قبوًا كبيرًا في هذا البيت نصف المبني الذي في منتصف اللا مكان،" تمتمت كاينين، وهي تمشط باروكتها بأصابعها.

"سيدتي؟"

"لا يا هاريسون، لا تحضر مشروبات. سوف نغادر الآن. تذكر، الغداء لشخصين."

"نعم، يا سيدتي."

تساءلت أولانا أين ريتشارد.

"هاريسون هو أكبر قروي مدّعٍ رأيته في حياتي،" قالت كاينين، وهي تدير سيارتها. "أعلم أنك لا تحبين كلمة "قرويّ"."

"لا."

"لكنه كذلك، كما تعلمين."

"كلنا قرويون."

"هل نحن قرويون؟ هذا هو نفس ما يقوله ريتشارد."

شعرت أولانا بحلقها جافًا.

رمقتها كاينين. "غادر ريتشارد مبكرًا جدًّا هذا الصباح. ذاهبًا إلى الجابون لزيارة مركز سوء التغذية الأسبوع القادم وقال إنه يحتاج أن يرى الترتيبات. لكنني أظن أنه غادر مبكرًا جدًّا لأنه شعر أنه من الصعب رؤيتك."

"أوه." زمّت أولانا شفتيها.

قادت كاينين السيارة بثقة أقل، متجاوزة فجوات في الطريق، متجاوزة سعف نخيل، متجاوزةً جنديًّا نحيلاً يجر نعجة نحيلة.

"هل حلمتِ أبدًا برأس الطفلة تلك في كالاباش؟" سألت.
نظرت أولانا من النافذة وتذكرت الخطوط المتشابكة المائلة التي تحدد كالاباش، والخواء الأبيض في عيني الطفلة. "أنا لا أتذكر أحلامي."
"اعتاد جدي أن يقول، عن الصعوبات التي مر بها: "إنها لم تقتلني، لكنها أعطتني المعرفة."
"أتذكر."
"ثمة أشياء لا يمكن غفرانها حتى أنها تجعل أشياء أخرى من السهل غفرانها." قالت كاينين.
كانت هناك لحظة صمت. داخل أولانا، بدأ شيء ما متكلس يستعيد حيويته.
"هل تعرفين ماذا أعني؟" سألت كاينين.
"نعم."
في مركز الأبحاث، صفّت كاينين السيارة تحت شجرة وانتظرتها أولانا في السيارة. هرعت عائدة بعد دقائق. "الرجل الذي أريد ليس موجودًا،" قالت وأدارت السيارة. لم تقل أولانا كلمة حتى وصلتا إلى معسكر اللاجئين. كانت مدرسة ابتدائية قبل الحرب. بدت البناية خابية، معظم الطلاء الذي كان أبيض قد تقشّر وسقط. بعض اللاجئين الذين كانوا يقفون بالخارج أسرعوا ليحملقوا في أولانا وليقولوا لكاينين: "نو." جاء قسٌّ نحيل في ثوب كاهنٍ لا لون لا واقترب من السيارة.
"الأب مارسيل، شقيقتي التوأم أولانا،" قالت كاينين.
"بدا الكاهن مندهشًا: "مرحبًا،" قال، ثم أضاف: "لستما متطابقتين."
وقفوا تحت شجرة مورقة بينما أخبر كاينين أن حقيبة السمك قو وصلت، وأن الصليب الأحمر بالفعل قد علّق رحلات الإغاثة، وإن إناتيمي قد جاء مبكرًا مع شخص من المنظمة البيافرية للمقاتلين الأحرار وقال إن سيعود لاحقًا. شاهدت أولانا كاينين تتحدث. لم تسمع كثيرًا مما قالته، لأنها كانت تفكر في كيف أن ثقة كاينين بنفسها صارمة لا تلين.
"هيا نعمل جولة لك،" قالت كاينين لأولانا بعدما غادر الأب مارسيل. "دائمًا ما أبدا بالمخبأ، أرت كاينين أولانا المخبأ، فجوة محفورة بلا انتظام مغطاة بألواح الخشب، قبل أن تمضي للبناية في نهاية المعسكر البعيدة. "والآن إلى نقطة اللا عودة."
تبعتها أولانا. ضربتها الرائحةُ عند الباب الأول. دخلت مباشرة من أنفها إلى معدتها، لتثيرها، لتتمخّض البطاطا المسلوقة التي أكلتها في الفطور.
كانت كاينين تراقبها. "ألا تحبين أن نكمل."
"أريد أن أكمل،" قالت أولانا، لأنها شعرت أنه يجب أن تفعل. لكنها لم تكن تريد. هي لم تعرف ما هي طبيعة الرائحة لكنها كانت تزيد لدرجة أنها كادت أن تراها، سحابة بُنيّة ملوثة. شعرت أنها على وشك الإغماء. دخلتا الفصل الأول. حوالي اثنا عشر شخصًا كانوا راقدين على أسرّة البامبو، على حُصْر، على الأرض. ولا واحد منهم يمد يده ليهش

الذبابات السمينة. الحركة الوحيدة التي رأتها أولانا كانت لطفل يجلس جوار الباب: يعقد ذراعيه ويبسطهما. كانت عظامه واضحة جدًّا الكُمّان على ذراعيه كانا مسطحين على النحو الذي من المستحيل أن يبدوا هكذا لو أن بعض اللحم كان تحت جلده. مسحت كاينين سريعًا الغرفة بعينيها ثم استدارت إلى الباب. بالخارج، كانت أولانا تبتلع الهواء. في الفصل الثاني، بدأت تشعر أنه حتى الهواء داخلها بدأ يمتلئ بالغبار وشعرت برغبة في الضغط على أنفها لتوقف اندماج الهواء الخارجي بالهواء داخلها. هناك أم كانت جالسة على الأرض مع طفلين راقدين جوارها. لم تقدر أولانا أن تحدد كم عمراهما. كانا عاريين؛ الكُرتان المشدودتان اللتان كانتا بطنيهما لم تكونا لتدخلا في أي قميص. مؤخرتاهما ووجنتاهما كانت مُهدّمة في بشرة مجعدة منثنية. وفي رأسيهما كانت خصلات من شعر مائل للحمرة. التقت عينا أولانا بعيني الأم الشاخصتين بثبات فنظرت أولانا بعيدًا بسرعة. هشت ذبابة عن وجهها وفكرت كم هي الذبابات بصحة جيدة، وكم تمتلئ حيوية، ونشاطًا.

"هذه المرأة ميتة. علينا أن ننقلها بعيدًا،" قالت كاينين.

"لا!" انفجرت الكلمة من أولانا، لأن هذه المرأة بنظرتها الثابتة لا يمكن أن تكون ميتة. لكن كاينين كانت تعني امرأة أخرى، كانت ترقد ووجهها إلى الأرض وطفل نحيل متعلق بظهرها. مشت كاينين وجذبت الطفل بعيدًا. خرجت ونادت: "أيها الأب! أيها الأب! نريد مدفنًا لواحد،" ثم جلست على الدرجات بالخارج وحملت الطفل. كان يجب أن يبكي الطفل. كانت كاينين تحاول أن تدسَّ في فمه قرص خميرة ناعمًا ملوّنًا.

"ما هذا؟" سألت أولانا.

"قرص بروتين. سوف أعطيك بعضًا من أجل تشياماكا. طعمه فظيع. أخيرًا تمكنتُ من أن أجعل الصليب الأحمر يعطيني بعضها الأسبوع الماضي. ليس لدينا ما يكفي بالطبع، لذلك أوفرها للأطفال فقط. لو أعطيتها لمعظم الناس هنا لن تعمل فرقًا. لكن ربما تفيد مع هذا الطفل."

"كم شخصًا يموت كل يوم؟" سألت أولانا.

نظرت كاينين لأسفل للطفل. "جاءت أمه من مكان ما سقط مبكرًا جدًّا. مروا على خمسة معسكرات إغاثة قبل أن يصلوا إلى هنا."

"كم شخصًا يموت في اليوم؟" سألت أولانا ثانيةً. لكن كاينين لم ترد. أطلق الطفل أخيرًا صرخة نحيلة فدفعت كاينين القرص المسحوق في فمه الصغير المفتوح. شاهدت أولانا الأب مارسيل ورجلاً آخر يحملان جثة المرأة، من رسغيها وكاحليها، إلى خارج الفصل إلى حيث خلفية البناية.

"أحيانًا أكرههم،" قالت كاينين.

"الهمج."

"لا، هم." أشارت كاينين إلى الغرفة. "أكرههم لأنهم يموتون."

أخذت كاينين الطفل إلى الداخل وأعطته لامرأة أخرى، إحدى قريبات المرأة الميتة كان جسدها المعظّم يرتعش؛ لأن عينيها كانتا جافتين، استغرق الأمر أولانا دقيقة لتكتشف أنها كانت تبكي، كان الطفل ملتصقًا بثدييها الجافتين المسطحتين.

فيما بعد، فيما تمضيان إلى السيارة، أدخلت كاينين يدها في يد أولانا.

عرف آجوو القصة التي لا تُصدق من القسِّ آمبروز، أن مؤسسةً أجنبية قد مدَّت وليمة عند نهاية شارع سانت جون وتعطي البيض المسلوق وقناني الماء المثلج لكل العابرين. عرف أيضًا أنه يجب ألا يترك التجمّع، تحذيرات أولانا كانت ترن في رأسه. لكنه كان ضجرًا. الجو حارٌّ ورطبٌ وكان يكره طعم الماء المغبَّر المعبأ في الأواني الطينية وراء البيت. تاقَ إلى الماء، إلى أي شيء مبرّد بالثلاجة الكهربائية. والقصة يمكن أن تكون حقيقية فعلاً، كل شيء جائز. كانت بيبي تلعب مع آدانّا ويمكنه أن يأخذ الطريق المختصر ويعود قبل حتى أن تلحظ غيابه.

كان قد دار فقط حول الزاوية متجاوزًا كنيسة القديس جون حينما شاهد الأب في الطريق، ومجموعة من الرجال يقفون في طابور مفرد وأياديهم موضوعة على رؤوسهم. الجنديان اللذان معهم كانا طويلين جدًّا وأحدهما يحمل بندقيته مصوبة للأمام. توقف آجوو. بدأ الجندي يزعق بشيء ما ويجري نحوه. قفز قلب آجوو في صدره؛ نظر إلى الغابة على جانب الطريق لكنها كانت أفقرَ شجرًا من أن تخبئه. نظر للوراء وكان الطريق واضحًا وبلا نهاية؛ لم يكن ثمة ما يخفيه عن رصاصة الجندي. استدار وأسرع إلى حرم الكنيسة. كان قسٌّ كهل في عباءة بيضاء يقف أعلى الدرج جوار البوابة الرئيسية. ارتقى آجوو الدرج، وشعر بالراحة، لأن الجندي لن يدخل الكنيسة ليأخذه. صارع آجوو الباب لكنه كان مغلقًا.

"بيكو، أيها الأب، دعني أدخل،" قال.

هز القس رأسه. "هؤلاء بالخارج اللذين تم تجنيدهم، هم أطفال الله أيضًا."

"من فضلك، أرجوك." تعلق آجوو بالباب.

"بركاتُ الربِّ سوف تصحبك،" قال القس.

"افتحْ الباب!" صرخ آجوو.

هز القس رأسه واستدار للخلف وابتعد.

ركض الجنديان إلى حرم الكنيسة. "توقفْ وإلا أطلقتُ النار!"

وقف آجوو يحملق، وعقله خاو.

"هل تعرف ماذا يسمونني؟" صرخ الجندي. "اقتلْ وامضِ!" كان أطول كثيرًا من البنطال البالي الذي انتهى بعيدًا جدًّا عن حذائه الأسود الطويل. بصق على الأرض وجذب ذراع آجوو. "أيها المواطن اللعين! اتبعني!"

تعثر آجوو وراءهما، فقال القس: "يا رب باركْ بيافرا."

لم ينظر آجوو إلى وجوه الرجال الآخرين وهو ينضم إلى الطابور رافعًا يديه فوق رأسه. كان يحلم؛ كان لابد يحلم. ثمة كلب ينبح من مكان قريب. صرخ "اقتلْ وامضِ" في أحد الرجال، وهو يلوح ببندقيته، ويطلق النار في الهواء. بعض النسوة كن قد تجمعن عن بُعد وإحداهن تتحدث إلى زميل "اقتلْ وامضِ". في البدء تحدثت بصوت منخفض، في نبرة متوسلة، ثم رفعت صوتها ولوّحت بوحشية. "ألا ترى أنه لا يقدر أن يمشي جيدًا؟ إنه معتوه! كيف سيحمل بندقية؟"

ربط "اقتلْ وامضِ" الرجال كل اثنين معًا، أياديهم وراء ظهورهم والحبل يمر بينهم. كان الرجل المربوط مع آجوو يهز الحبل كأنما ليختبر مدى قوته ففقد آجوو توازنه تقريبًا.

"آجوو!"

جاء الصوت من جماعة النساء. استدار. كانت مسز موكيليو تنظر إليه بعينين مصدومتين. أومأ لها، على نحو أمِلَ أن يكون محترمًا، لأنه خاف أن يغامر بالكلام. بدأت تمشي نصف مشية، نصف ركضة، صوب الطريق ورآها تمضي، خاب أمله، دون أن يعرف ماذا توقع منها أن تفعل.

"استعدوا للتحرك!" زعق "اقتلْ وامضِ". نظر فشاهد صبيًّا في نهاية الطريق فجري وراءه. صوّب رفيقه بندقيته إلى الطابور. "أي واحد يهرب سوف أطلق النار."

عاد "اقتلْ وامضِ" ومعه الصبي يمشي أمامه.

"اخرسْ!" قال، وهو يربط يدي الصبي وراء ظهره. "الكل يتحرك! شاحنتنا في الطريق المجاور!"

كانوا قد بدأوا الحركة في خطوة حزينة، فيما يزعق "اقتلْ وامضِ": "*ليب! آي!*"، حينما شاهد آجوو أولانا. كانت تسرع في رعب، وهي تضع باروكتها، التي بالكاد تلبسها هذه الأيام، لابد وضعتها على عجالة لأنها كانت مائلة على وجهها. ابتسمت وأومأت إلى "اقتلْ وامضِ"، فزعق: "توقفوا!" قبل أن يمشي إليها. تكلما وظهره إلى الرجال، وبعد دقائق، استدار حوله وضرب الحبل الذي يربط يدي آجوو.

"هو بالفعل يخدم بلدنا. نحن وحسب مهتمون بالمواطنين الخاملين،" قال بصوت عال إلى الجندي الآخر، الذي أومأ برأسه.

إطلاق أسر آجوو جعله مذهولاً. دعَكَ رُسغيه. لم تقل أولانا له كلمة واحدة في طريقهما إلى البيت، وشعر بأن صمتها غضبٌ فقط من عنف فتحها وإغلاقها الباب.

"أنا آسف يا ماه،" قال.

"أنت غبي جدًّا ولا تستحق الحظ الذي واتاك اليوم،" قالت. "لقد رشوت ذلك الجندي بكل المال الذي معي. والآن عليك أن تنتج ما أطعم به طفلتي، هل تفهم؟"

"أنا آسف يا ماه،" قال مجددًا.

لم تقل إلا القليل له في الأيام التالية. كانت تطهو حساء بيبي بنفسها كأنما لم تعد تثق به. ردودها على تحاياه كانت إيماءات باردة. وكان يصحو مبكرًا ليجلب الماء وينظف الحجرة أكثر منتظرًا أن يستعيد صداقتها.

وأخيرًا ظفر بها من جديد بمساعدة سحلية محمصة. كان الصباح وكانت هي وبيبي تتأهبان للذهاب إلى أولو لزيارة كاينين. بائع جائل كان يمشي في التجمع ومعه صينية خزفية مغطاة بالجرائد، بها سحالي بنية على عصا، وينشد: "ممي ممي *سويا*! ممي ممي *سويا!*"

"أريد بعضًا منها مامي أوللا، من فضلك،" قالت بيبي.

تجاهلتها أولانا واستمرت في تمشيط شعرها. خرج القس آمبروز من حجرته وراح يساوم بائع السحالي.

"أريد بعضها مامي أوللا،" قالت بيبي.

"هذه الأشياء ليست جيدة لك،" قالت أولانا.

عاد القس آمبروز إلى غرفته ومعه صحيفة ملفوفة.

"القس اشتري منها،" قالت بيبي.

"لكننا لن نشتري."

شرعت بيبي في البكاء. استدارت أولانا لآجوو في استياء وفجأة كان كلاهما يبتسم على الموقف: وبيبي تبكي ليُسمح لها بأن تأكل سحلية.

"ماذا تأكل السحلية يا بيبي؟" سأل آجوو.

تمتمت بيبي: "النمل."

"إذا أكلتِ واحدة، فإن كلَّ النمل الذي أكلتْه السحليةُ سوف يزحف حول معدتك ويعضّك،" قال آجوو بهدوء.

أغمضت بيبي عينيها. نظرت إليه برهة، كأنما تقرر هل تصدقه أم لا، قبل أن تمسح دموعها.

يومًا ما، غادرت أولانا وبيبي لقضاء أسبوع مع كاينين في أورلو، عاد السيد البيت مبكرًا عن المعتاد ولم يذهب إلى بار تنزانيا؛ تمنى آجوو أن يسحب غيابهما السيد من الهوّة العميقة التي غرق فيها منذ موت أمه. جلس في الفيراندا يستمع إلى الراديو. اندهش آجوو حين رأى آليس قد توقفت وهي في طريقها للحمام. افترض أن السيد سوف يعطيها إجابات نعم-ولا البعيدة لكي تعود إلى البيانو بعد ذلك. لكنهما تحدثا في صوت منخفض، فلم يستمع آجوو لكل ما قيل؛ وبين الحين والحين كان يسمع ضحكتها المجلجلة. في اليوم التالي، كانت جالسة على المسطبة جوار السيد. ومكثت هناك حتى نام كل من بالفناء. ثم جاء

آجوو من الفناء الخلفي، بعد ذلك بأيام، ووجد الفيراندا خاوية وباب الغرفة مغلق بإحكام. توترت معدته؛ فذكريات تلك الأيام الخاصة بآمالا تركت صعوبة في البلع في حلقه. كانت آليس مختلفة. ثمة حسٌّ طفولي حذر بها جعل آجوو غير واثق منها. كان يرى لماذا هي لن تحتاج أي دواء من ديبيا لكي تُغوي السيد؛ سوف تنجح في ذلك بتلك البشرة الشاحبة وطريقتها الضعيفة. مشى آجوو نحو أشجار الموز ثم عاد ثم مشى إلى الباب وطرق بعنف. صمّم أن يوقفهما. سمع أصواتًا بالداخل. طرق ثانيةً. وثانيةً.

"نعم؟" جاء صوتُ السيد أخنفَ.

"هذا أنا يا صاح. وددتُ أن أسأل ما إذا كان بوسعي أن آخذ موقد الكيروسين يا صاح." بعدما يأخذ الموقد، كان سيزعم أنه نسي فنجان الجاري، ثم آخر قطعة من البطاطا، ثم المغرفة. كان قد أعد نفسه أن يزيّف حالة مَرَضية، حالة صرع، أي شيء يجعل السيد غير قادر على إتمام ما يفعله مع هذه المرأة. مرّت دقائق طويلة قبل أن يفتح السيد الباب. لم يكن يضع نظارته وبدت عيناه منتفختين.

"صاح؟" سأل آجوو، وهو ينظر وراء السيد. كانت الغرفة خالية. "هل الأمور على ما يرام يا صاح؟"

"بالطبع ليست على ما يرام أيها الجاهل،" قال السيد وهو يحدق في الشبشب على الأرض. بدا فاقدًا عقله. انتظر آجوو. وتنهد السيد. "بروفيسور إكوينيوجو كان في طريقه ليضع مناجم مع جماعة العلوم حينما تعثروا ببعض الأخاديد وضاعت المناجم."

"ضاعت المناجم؟"

"انفجر إكوينيوجو. مات."

رنّت "*انفجر*" في أذن آجوو."

تحرك السيد للخلف. "خذ الموقد إذًا."

دخل آجوو وتناول موقد الكيروسين الذي لا يحتاج إليه وفكر في ظفر بروفيسور إكوينيوجو الفتيلي الطويل. انفجر. كان بروفيسور إكوينيوجو هو دليله على أن بيافرا سوف تنتصر، بحكايات الصواريخ والعربات المصفّحة والوقود المصنوع من لا شيء. هل تفحمت جثة بروفيسور إكوينيوجو مثل قطع من الخشب، أو هل يمكن أن يُدرك ماذا كانت؟ هل من الممكن أن تكون هناك قطع مجففة مثل أوراق الشجر الجافة؟ *انفجر*.

بعد دقائق غادر السيد إلى بار تنزانيا. لبس آجوو بنطاله الجيد وأسرع إلى بيت إيبيرتشي. بدا ذلك الشيء الأكثر طبيعيةً، الشيء الوحيد، الذي يُفعل. رفض أن يفكر في كيف ستغدو أولانا محبطة حينما تخبرها ماما أوجي أنه خرج، أو كيف سيكون انطباع إيبيرتشي، وما إذا كانت ستتجاهله أم سترحب به أو تصرخ فيه. هو احتاج أن يراها وحسب.

كانت جالسة وحدها في الشرفة، ترتدي تلك التنورة الشيقة عند المؤخرة التي يتذكرها جيدًا، لكن شعرها كان مختلفًا، مقصوصًا بشكل قصير ودائري بدلاً من أن يكون مضفورًا بالحبال.

"آجوو!" قالت، مندهشة ونهضت واقفة.

"قصصتِ شعرك."

"هل توجد حبال في أي مكان، فضلاً عن النقود التي تشتريها بها؟"

"إنه يناسبك." قال.

هزت كتفيها دون اكتراث.

"كان يجب أن آتي،" قال. ما كان يجب أن يتوقف عن الكلام معها بسبب أي ضابط عسكري لا يعرفه. *جباجالو*."

نظر كل منهما إلى الآخر، مدت يدها وقرصت عنقه. أبعدَ يدها بعيدًا، بمداعبة، ثم أمسك بها. لن يتركها حينما يجلسان معا على الدرج، وأخبرته كيف أن العائلة التي استأجرت بيت السيد السابق كانت شريرة، وكيف أن الأولاد في الشوارع يختبئون في الأسقف حينما يمر الجنود، وكيف أن الغارة الجوية الأخيرة صنعت حفرة في حائطهم تدخل من الفئران.

وأخيرًا قال آجوو إن بروفيسور إكوينيوجو قد مات. "هل تذكرين لقد أخبرتك عنه؟ الرجل في جماعة العلوم، الرجل الذي يصنع الأشياء العظيمة،" قال.

"أذكر،" قالت. "الرجل ذو الظفر الطويل."

"لقد انكسر," قال آجوو وبدأ يبكي؛ كانت دموعه متناثرة وحارقة. وضعت يدها على كتفه فجلس ساكنًا جدًّا كيلا يحرك يدها، كي يبقيها حيثما كانت. ثمة جِدّة بها، وربما استقبالها للأشياء هو الذي صار جديدًا. أصبح الآن يؤمن في نفاستها.

"قلتَ إنه قص ظفره الطويل؟" سألت.

"قصّه،" قال آجوو. كان فجأة شيئًا جميلاً أن يقص ظفره؛ لم يتحمل آجوو فكرة أن هذا الظفر قد انفجر.

"يجب أن أمضي،" قال. "قبل أن يعود سيدي إلى البيت."

"سوف آتي وأزورك غدًا،" قالت. "أعرف طريقًا مختصرًا لمكانك."

لم يكن السيد قد عاد حينما عاد آجوو البيت. ماما أوجي كانت تصرخ: "عليك العار! العار عليك!"، في زوجها، والقس آمبروز يدعو أن يقطّع الرب بريطانيا بديناميت الروح المقدسة، وطفل يبكي. ببطء، واحدًا تلو الآخر اختفت الأصوات. وهبط الظلام. وانطفأت مصابيح الزيت. جلس آجوو خارج الغرفة وانتظر حتى دخل السيد أخيرًا بابتسامة صغيرة على وجهه وعيناه تبرقان حمراوان.

"رجلي الطيب،" قال.

"مرحبًا يا صاح. ننو." نهض آجوو واقفًا. لم يكن السيد ثابتًا على قدميه، يتأرجح بخفة لليسار. أسرع آجوو للأمام ووضع ذراعه حوله وسنده. كانا قد دخلا الغرفة حينما انفلتت من السيد حركة حادة مفاجئة وتقيأ. تناثر القيء الرغوي على الأرض. وملأت الغرفة رائحةٌ مُرّة. جلس السيد على السرير. وأحضر آجوو خرقة وبعض الماء وبينما كان ينظف، سمع تنفس السيد غير المنتظم.

"لا تخبرْ سيدتك عن أيّ من هذا،" قال السيد.د"حاضر يا صاح."

كانت إيبيرنتشي تزوره كثيرًا، وغدت ابتسامتُها، مسحةُ يدها، قرصتُها رقبته هي ألعابَها الممتعة التي تختارها بعناية. في الظهيرة التي قبّلها فيها للمرة الأولى، كانت بيبي نائمة. كانا بالداخل، يجلسان على المصطبة يلعبان لعبة الورق البيافرية "هوت" وكانت قد قالت توًّا "افحصْ ورقك" ووضعت آخر أوراقها حتى مال نحوها وراح يتذوّق الوسخ اللاذع وراء أذنها. ثم قبّل عنقها، فكيها، شفتيها؛ وتحت ضغط لسانه فتحت فمها فغمره تفجر الدفء داخله. تحركت يده إلى صدرها وحررت نهدها الصغير. فأزاحت يده بعيدًا. فأنزلها إلى بطنها ثم قبّل فمها ثانيةً قبل أن يدس يده بسرعة تحت تنورتها.

"فقط دعيني أرى،" قال، قبل أن تتمكن من إيقافه. "أرى وحسب."

نهضت واقفةً. ولم تمنعه حين رفع تنورتها وأنزل عنها الكيلوت القطنيّ ذا المزقة الصغيرة عند زناره لينظر إلى الشحمتين الضخمتين لردفيها. أرجع الكيلوت مكانه وترك تنورتها. لقد أحبها. وود أن يخبرها أنه أحبها.

"سأذهب،" قالت، وأصلحت وضع بلوزتها.

"ماذا عن صديقك ضابط الجيش؟"

"هو في قسم آخر."

"ماذا فعلت معه؟"

مررت ظهر يدها على شفتيها كأنما لتمسح شيئًا ما.

"هل فعلتِ أي شيء معه؟" سأل آجوو.

مشت إلى الباب، وما تزال صامتة.

"أنت تحبينه،" قال آجوو، وهو فاقد الأمل الآن.

"أحبك أكثر."

لا يهم إن كانت ما تزال ترى الضابط. ما يهم هو ال "أكثر"، مَن تفضّل. جذبها إليه لكنها مضت بعيدًا.

"سوف تقتلني،" قالت وضحكت. "دعني أمضي."

"سأرافقك حتى منتصف الطريق،" قال.

"لا حاجة لذلك. بيبي ستكون وحيدة."

"سأعود قبل أن تصحو."

ود أن يمسك يدها؛ لكن بدلاً من ذلك مشى حذاءها ملتصقًا بها، حتى فجأة احتكَّ جسداهما معًا. لم يذهب بعيدًا حتى قفل راجعًا. كان قريبًا من البيت حينما شاهد جنديين واقفين جوار شاحنة يمسكان بنادقهما.

"أنتَ! قفْ عندك!" هتف أحدهما.

بدأ آجوو يركض حتى سمع صوت طلقة نار، صامّةً للآذان جدًّا، منذرةً جدًّا، قريبةً جدًّا حتى أنه سقط على الأرض وانتظر الألم أن يسري داخل جسده، وهو واثق أنه أصيب. لكن لا ألم كان هناك. وحينما جرى الجندي إليه، كان أول ما رآه آجوو هو حذاؤه القماشي، قبل أن ينظر لأعلى إلى الجسد النحيل والوجه العبوس. سلسلة معلقة حول رقبته. ورائحة بارود محترق تخرج من فوهة بندقيته.

"تعال، انهض، أيها المواطن اللعين! انضم إليهم هناك!"

نهض آجوو فضرب الجندي مؤخرة رأسه والشرر يتطاير من عينيه؛ دق قدميه في الرمال الناعمة لكي يثبِّت نفسه للحظة قبل أن يمشي لينضم إلى الرجلين الواقفين وأذرعهما مرفوعة لأعلى. أحدهما كان مسنًّا، في الخامسة والستين على الأقل، بينما كان الآخر مراهقًا في الخامسة عشرة ربما. تمتم آجوو بـــ "مساء الخير" للرجل الكبير ووقف جواره، ذراعاه مُشهرتان لأعلى.

"ادخلوا الشاحنة،" قال الجندي الآخر. ذقنه تغطي معظم وجنتيه.

"إذا ما وصل الأمر إلى ذلك، أن تجندوا من هو في مثل عمري، فإذًا سوف تموت بيافرا،" قال الرجل المسنُّ بهدوء.

كان الجندي الآخر يراقبه.

زعق الجندي الأول، "اخرسْ وأغلقْ فمك اللزج، *آجادي*!" ثم صفع الرجل العجوز.

"توقفْ عن ذلك!" قال الجندي الآخر. ثم استدار للعجوز وقال: "بابا، اذهبْ."

"إيه؟" بدا العجوز غير مصدق.

"اذهبْ، *جاوا*."

بدأ الرجل العجوز يتحرك مبتعدًا، بطيئًا في البدء وغير واثق، تدعكُ يدُه وجهَه حيث صُفع؛ ثم انخرط في ركض غير منتظم. شاهده آجوو حتى اختفي في نهاية الطريق وتمنى لو استطاع أن يقفز إليه ويقبض على يده ليركضا معا نحو الحرية.

"ادخلا الشاحنة!" قال الجندي الأول. كان كأنما مغادرة العجوز قد أحنقته وكأنما لا يحمّل الجندي الآخر المسؤولية بل يحملها للمجنّدين الجديدين. دفع الصبي المراهق وآجوو. سقط المراهق فزحف على قدميه قبل أن يركبا في ظهر الشاحنة. لم تكن هناك مقاعد؛ أجولة

قديمة وجلد غير مدبوغ ومصاصة قصب وقناني فارغة كانت ترقد مبعثرة على الأرضية الصدئة. فزع آجوو لمرأى صبي يجلس هناك، يدندن بأغنية ويشرب من قنينة البيرة القديمة. اشتمَّ آجوو رائحة جين محلي قاسية وهو ينحني ليجلس جوار الصبي وفكر أنه ربما يكون رجل سيرك وليس صبيًّا.

"أنا هاي-تيك،" قال، ففاحت رائحة الجين المحلي أكثر.

"أنا آجوو." رمق آجوو القميص الواسع، والشورت البالي، والبوت، والبيريه. كان بالفعل صبيًّا. ليس أكثر من الثالثة عشرة. لكن النظرة العدمية في عينيه جعلته يبدو أكبر عمرًا من ذلك المراهق المتكوم أمامهما.

"جي *كوانو*؟ ما اسمك؟" سأل هاي-تيك الفتى المراهق.

كان المراهق ينشج. بدا مألوفًا؛ ربما كان أحد صبيان الجيران ممن يبحثون عن الماء في الحفرة العميقة قبل الفجر. شعر آجوو بالشفقة عليه لكن بالغضب أيضًا؛ لأن بكاء المراهق جعل موقفهم العاجز صارمًا قاطعًا ونهائيًّا. تم تجنيدهم بالفعل. بالفعل سوف يتم إرسالهم إلى جبهة الحرب دون أي تدريبات.

"ألستَ رجلاً؟" سأل هاي-تيك المراهقَ. "*آي بو نواني*؟ لماذا تتصرف مثل امرأة؟"

المراهقُ يضغط بيديه على عينيه وهو يبكي. تحولت سخرية هاي-تيك إلى ضحكة متهكمة. "هذا الشخص لا يريد أن يحارب من أجل قضيتنا!"

لم يقل آجوو شيئًا؛ ضحكة هاي-تيك ورائحة الجين أصابتاه بالغثيان.

"I do rayconzar meechon،" أعلن هاي-تيك متكلمًا الإنجليزية لأول مرة. أراد آجوو أن يصحح له نطقه الجملة بالإنجليزية "*أنا أعمل بعثة استكشاف*" "I do reconnaissance mission"؛ بالتأكيد استفاد الولد من حصص أولانا.

"كتيبتنا مكونة من حقل مهندسين ونحن نستخدم فقط أوبيونجوي رهيبة." توقف هاي-تيك وتجشأ، كأنما توقع استحسانًا من مستمعيه. بقى المراهق يبكي. وأنصت آجوو دون تعبير. شك أن من الأهمية اكتساب احترام هاي-تيك، وسوف ينجح فقط عن طريق ألا يظهر شيئًا من الخوف مما يزحف عليهم جميعًا.

"أنا الشخص الذي حدد مكان العدو. تحركت قريبًا وتسلّقت الأشجار واكتشفت الموقع المحدد وبعد ذلك سوف يستخدم قائدنا معلوماتي ليقرر من أين يبدأ عمليتنا." نظر هاي-تيك إلى آجوو وأبقى آجوو وجهه كما هو. "مع كتيبتنا الأخيرة اعتدتُ أن أدّعي أنني يتيم ثم أتسلل إلى معسكر العدو. يسمونني هاي-تيك لأن قائدي الأول قال إنني أفضل من أي أداة تجسس عالية التكنولوجية." بدا حريصًا على التأثير في آجوو. مدد آجوو ساقيه للأمام.

"تلك الكلمة التي نطقتَها ري-كون-زار تُنطق ريكونسانس،" قال.

نظر إليه هاي-تيك لبرهة ثم ضحك وقدّم إليه القنينة، لكن آجوو هز رأسه. هزّ هاي-تيك كتفيه وشرب وتمتم: "بيافرا ستكسب الحرب،" وهو يدق بقدميه على أرضية الشاحنة. وبقى الولد المراهق يبكي. كان الجندي الأول على عجلة القيادة، يدخن أوراق شجر مجففة ملفوفة في ورق وكان الدخان لاذعًا والرحلة طويلة جدًّا حتى أن آجوو لم يستطع أن يكبح رغبته في التبوّل.

"من فضلك أريد أن أتبوّل!" نادى بصوت عال.

توقف الجندي بالشاحنة وصوب بندقيته. "انزل وتبوّل. اركض، وسأطلق النار."

كان الجندي نفسه الذي، حينما وصلوا إلى معسكر التدريب، الذي كان مدرسة ابتدائية سابقة ببنايات مكسوة بسعف النخيل، هو الذي حلق شعر آجوو بقطعة زجاج مكسورة. الكحت الخشن ترك فروة رأسه واهنةً، مليئةً بالجروح. الحُصْرُ والمراتب المرتبة في الفصول تزحف عليها جيوش من بق السرير المفزعة. والجنود النحيلون- الحفاة دون بوت، دون زيّ عسكري، دون نصف شمس صفراء على أكمامهم- يركلون ويصفعون ويسخرون من آجوو أثناء التمارين الرياضية. جعلت المواكب ذراعيّ آجوو يابستين. التمارين الشاقة جعلت شرايينه تنبض بقوة. وتسلُّق الحبال جعل راحتيه تدميان. وحزمة الجاري التي يقف في طابور لينالها، والحساء الخفيف المغروف من أحواض معدنية كل يوم، كانت تتركه جائعًا. القسوة الطبيعية الخاصة بعالمه الجديد الذي لا يقدر أن ينطق فيه بحرف خثّرتِ الخوفَ داخله.

عشّشت عائلة من العصافير على سطح الفصل. في الصباحات تُقاطَع زقزقاتُها بصراخ صفارة القائد مصحوبة بزعيق حاد: "انزلوا، انزلوا!"، ثم الركض والتزاحم المتعثر من الرجال والصبية. وبعد الظهيرة، توهِنُ الشمسُ الطاقةَ والعزيمة فيتعارك الجنود في لعبة هوت البيافرية فيتحدثون عن الهمجيين الذين فجَّروهم في العمليات الأخيرة. حينما قال أحدهم: "عمليتنا القادمة ستكون قريبة جدًّا!" امتزج خوف آجوو بالحماس والإثارة من كونه أصبح جنديًّا مقاتلاً لبيافرا. لو أنه فقط كان مع كتيبة حقيقية، يعارك ببندقية. تذكر بروفيسور إكوينيوجو وهو يصف الأوبيبونجوي: "لغمٌ أرضيّ قويّ الهجوم." كم بدت العبارة فاتنةً، لغمٌ بيافاريّ الصنع، هذا أوجوكو بكيت، هذا اللغز الذي غدا مُربكًا للهمج حتى قيل إنهم يرسلون أسرابًا من الماشية ليفهموا كيف تقتل الأوبيبونجوي كثيرًا منها. لكنه ما أن انضم إلى أول درس تدريبي، بدأ مع ما كان أمامه: وعاء معدني بليد مليء بشرائح معدنية.

تمنى لو يقدر أن يخبر إيبيرتشي عن خيبة أمله. ود لو أخبرها أيضا عن القائد، الرجل الوحيد بالزي الكامل، مكويّ بعناية، كيف أنه ينبح فيهم، وكيف أن المراهق حاول الهرب

من دروس التمرين، فراح يضربه بيديه المجردتين حتى يسيل الدم من أنف المراهق ثم يصرخ: "احبسوه في غرفة الحراسة!" كان آجوو يفكر كثيرًا في إيبيرتشي حينما تأتي نسوة القرية بحزم الجاري، والحساء الخفيف، ومرة كل حين، بأرز "النصر-في-الحرب" مطبوخ ببعض زيت النخيل. أحيانًا تأتي نساء شابات ويذهبن إلى حرم القائد ويخرجن بابتسامات خجول. كان حراس البوابات دائمًا يرفعون الحواجز لتدخل النسوة، رغم أنهم لا يحتاجون إلى ذلك، لأن النسوة يستطعن بسهولة أن يدخلن من جانبها. مرَةً شاهد آجوو امرأة بمؤخرة مستديرة مترجرجة تغادر التجمع فأراد أن ينادي/ إيبيرتشي! رغم أنه يعرف أنها ليست هي. كان ذلك أثناء بحثه عن قصاصات ورق ليكتب عليها ماذا فعل يومًا بعد يوم، لربما قابل إيبيرتشي من جديد، فوجد كتاب "حكايا الحياة" لفريدريك دوجلاس، و"العبد الأمريكي": مكتوبًا بواسطته هو، منزلقيْن في ركن ضيق وراء السبورة. في الصفحة الأولى كان مطبوعًا بالأزرق الغامق: "مقتنيات الجامعة الحكومية". جلس على الأرض وراح يقرأ. أنهاه في يومين وبدأ قراءته من جديد، يحرك الكلمات على لسانه، ويحفظ بعض الجمل.

العبيد يصبح خوفهم من القطران مثل خوفهم من السوط. يجدون صعوبة أقل في احتياجهم السرير من احتياجهم وقتًا للنوم.

كان هاي-تيك يحب الجلوس إلى جواره وهو يقرأ. أحيانًا يدندن بأغان بيافريين في نغمة أحادية مزعجة، وفي أحيان أخرى يثرثر حول هذا الأمر أو ذاك. وكان آجوو يتجاهله. لكن في أصيل يوم لم تُحضر النسوة أي طعام، ومر اليوم كله بين تزمر الرجال. لكز هاي-تيك آجوو في الليل وهو يحمل علبة سردين. قبض آجوو عليها. فضحك هاي-تيك. "علينا أن نتشارك فيها،" قال. وتساءل آجوو كيف نجح في الحصول عليها، كيف لطفل صغير جدًّا يبدو سهل القيادة. ذهبا إلى ما وراء البناية وتشاركا في السمك بالزيت.

"الهمج يأكلون جيدًا، أوه!" قال هاي-تيك. "في المعسكر الأخير الذي حضرته، حينما كنت مع الكتيبة في نيتجي، كانت نساؤهم يطبخن الحساء بقطع كبيرة من اللحم. كانوا حتى يعطون بعضها لرجالنا حينما يتوقفون عن القتال لأسبوع أو حين يحتفلون بعيد الفصح."

"يتوقفون عن الحرب ليحتفلوا بعيد الفصح؟" سأل آجوو.

بدا هاي-تيك مسرورًا لأنه نجح أخيرًا أن يشد انتباهه. "نعم. هم حتى يلعبون الورق معًا ويشربون الويسكي. أحيانًا يتّفقون ألا يحاربوا حتى يرتاح الجميع." رمق هاي-تيك آجوو ثم ضحك. "حلاقةُ شعرك قبيحةٌ جدًّا."

تحسّسَ آجوو رأسَه، ومسَّ الخصلاتِ المتنافرةَ من شعره التي جزّتها كِسَرُ الزجاج فشعر بافتقاده لها. وقال: "نعم."

"هذا لأنهم حلقوه وهو جاف،" قال هاي-تيك. "بوسعي أن أفعل ذلك أفضل بالموس والصابون."

أعدّ هاي-تيك قطعة صابون خضراء ودعك رأس آجوو وحلقها بشفرة الموسى حتى غدت ناعمة ملساء. فيما بعد، حينما أخبره هاي-تيك همسًا: "العملية خلال يومين"، فكر آجوو في الناس الذين يحلقون رءوسهم كفعل يوميّ. الحلاقة كتذكرة بالموت. رقد على المرتبة ووجهه إلى أعلى مُنصتًا للأصوات القبيحة التي تزأر من حوله. كان قد أثبت نفسه أمام الرجال الآخرين بحسن أدائه في التمرينات، كان يحسب العوائق وتذبذب الحبل الخشن، لكنه مع ذلك لم يكوّن أصدقاء. كان يتكلم قليلاً جدًّا. لم يكن يريد أن يعرف حكاياتهم. كان من الأفضل ترك حمولة كل رجل منهم في ذهنه الخاص دون الخوض فيها، دون العبث بها. راح يفكر في العملية الوشيكة، في قصف الهمجيين *بأوبيونجويه* الخاص، راح يفكر في تفجير جسد بروفيسور إكوينيوجو. يتصور نفسه يصحو مع ضوء الليل بهدوء، يزحف للخارج، يركض حتى يصل إلى الفناء في أوميوهيا ويحيّي السيد وألاونا ويحتضن بيبي. لكنه حتى لم يحاول، كان يعرف أن السبب هو أن جزءًا منه كان يريد أن يكون هنا.

في الخندق، كانت الأرض مثل الخبز المنقوع. رقد آجوو ساكنًا. زحف عنكبوت على ذراعه، لكنه لم يهشه بعيدًا. كانت العتمة سوداء، وتامة، فراح آجوو يتخيل أرجل العنكبوت المزغبة، في دهشة العنكبوت ألا يجد بردًا في تربة تحت الأرض، بل دفء الجسد البشري. كان القمر، بين الحين والآخر، يطفو خارجًا من الغيوم، وتغدو الأشجار الكثيفة في المدى محددة خطوطها الخارجية بالعتمة. الهمج في مكان ما هناك. أمل آجوو في مزيد من الضوء؛ كان القمر أكثر كرمًا قبل قليل حينما دفن *أوبيونجويه* على مسافة ثلاثين ياردة للأمام. على أن الظلام الآن غدا تام الاحتضان. كان الكابل باردًا في يده. وثمة جندي يرتل صلواته في صوت ناعم، ناعم جدًّا حتى شعر آجوو أنه يهمس في أذنه. "يا أمَّ الربّ صلّي من أجلنا نحن الخطّاءين الآن في لحظة موتنا." هشَّ عنكبوته بعيدًا ونهض واقفًا حينما بدأ الهمج يطلقون النار. صليل الطلقات كان متناثرًا، عاليًا، ثم بدأ يخبو؛ المشاة يبادلونهم النار من اتجاهات مختلفة وكان الهمج، أولئك القذرون ذوو مؤخرات النعاج، يرتبكون ولا يعرفون أن الألغام تنتظرهم.

فكر آجوو في أصابع إيبيرتشي تجذب بشرةَ عنقه، وفي رطوبة لسانها في فمه. بدأ الهمج يقصفون. في البدء كان صفير المدفع في الجو وبعد ذلك أسقط قصف المدفع شظايا ساخنة تطايرت هنا وهناك. التقطت كتلة من العشب النيران، اشتعلت، فشاهد آجوو فأرًا قارضًا عند

كتلة الأشجار أمامه، متقوسًا مثل سلحفاة عملاقة. ثم رآهم: مظلات تجثم وتتحرك للأمام، سربًا من الرجال. كانوا في مجال قصفه الوشيك، فتوقع المزيد ليحدث قبل أن يسلموا أنفسهم له، قبل أن يفجّر *أوبيونجويه* فتندفع للأمام على شكل رذاذِ حمم من الحديد المصهور. أخذ نفسًا عميقًا. وفي دقّة، وحسم، أوصل الكابل بالفيشة في يديه فأفزعه الانفجار القويّ الفوريّ، رغم أنه كان يتوقعه. للحظة وجيزة قلّص الخوفُ أمعاءه. ربما لم يحسب الأمر بدقة كافية. ربما أخطأهم. لكنه سمع شخصًا ما يصرخ جواره: "هدف!" ظلت الكلمة تتردد في دماغه لدقائق طويلة قبل أن يسحبوا أنفسهم خارج الخندق ويسرعوا إلى جثث الهمج المتناثرة.

"عَرّوهم! اخلعوا عنهم البناطيل والقمصان!" هتف شخص ما.

"الأحذية البوت والبنادق فقط!" هتف صوت آخر. "لا وقت. لا وقت. نجوا-نجوا! حلفاؤهم في الطريق!"

انحنى آجوو على جثة مائلة. سحب الحذاء البوت. وفي الجيوب، تحسس ثمرة باردة يابسة من جوز الكولا ودماء كثيفة دافئة. الجثة المجاورة، اختلجت حينما مسّها آجوو فتحرك للخلف. كان ثمة تنفس عسير محتضر قبل أن يسكن. ارتعد آجوو. جواره، كان هناك جندي يحمل بعض البنادق ويزعق.

"هيا نذهب!" نادى آجوو، وهو يجفف يديه المدمّاتين في بنطاله.

ضربه الباقون على ظهره ونادوه: "مدمِّر الهدف!" وهم يحتشدون في مركز القيادة ليسلموا كابلاتهم. "هل تعلمت ذلك من الكتاب الذي قرأته؟" مازحوه. جعله النجاحُ يطير فوق الأرض. كان يطفو خلال الأيام التالية وهم يلعبون الأوراق البيافرية *الهوت* ويحتسون الجين منتظرين العملية القادمة. يرقد على الأرض وجهه لأعلى بينما هاي-تيك يلف بعض أوراق وي-وي الهشة المجففة في ورقة قديمة دخّناها معًا. كان يفض سجائر مارس؛ وي-وي تجعله غير متماسك، وتصنع مسافة فراغ بين ساقيه وبين مؤخرته. لم يعبأ بإخفاء الدخان لأن القائد كان سعيدًا والأخبار كانت مليئة بالأمل الآن أن بيافرا استعادت أويري من الهمج. غدت الأوامر أكثر استرخاء؛ فكان بوسعهم الذهاب إلى البار القريب من طريق النقل السريع.

"هذا طريق طويل،" قال أحدهم، فضحك هاي-تيك وقال: "سنستولي على سيارة، بالطبع."

حينما ضحك هاي-تيك، تذكر آجوو أنه طفل، فقط في الثالثة عشرة. بدا بين الرجال التسعة ضئيلاً جدًّا، هكذا كان يفكر آجوو وهم يمشون. كانت أصوات الشباشب المطاطية تطرقع على الطريق الساكن. اثنان منهم كانا حافيين. انتظروا برهة أمام سيارة بيتل فولكس واجن تمر أمامهم ثم انتشروا في الطريق وسدّوه. توقفت السيارة، فقبض بعضهم على مقدمة السيارة.

""اخرجوا أيها المدنيّون الملاعين!"

بدا الرجل الذي يقود السيارة قاسيًا، كأنما كان مصممًا أن يُظهر أن لا سبيل لإخافته. جواره كانت زوجته التي شرعت في البكاء والعويل. "من فضلكم نحن ذاهبان للبحث عن ابننا."

كان جندي يضرب مقدمة السيارة بعنف. "تحتاج هذه لعملية عسكرية!"

"من فضلكم، أرجوكم، نحن ذاهبان للبحث عن ابننا. أخبرونا أنهم رأوه في معسكر اللاجئين." حدقت المرأة في هاي-تيك لبرهة، قطّبت حاجبيها. ربما ظنت أنه ابنها.

"نحن نموت من أجلكم وأنتما هنا تقودان سيارة باستمتاع؟" سأل جندي، وهو يجذبها خارج السيارة. خرج زوجها بنفسه، لكنه ظل واقفًا جوار السيارة. قبضة يده قابضة على المفتاح.

"هذا خطأ أيها الجنود. ليس لكم الحق في أخذ هذه السيارة. لديّ جوازٌ مروريّ. أنا أعمل مع الحكومة."

صفعه أحدُ الجنود. ترنح الرجل فصفعه الجندي ثانيةً وثانيةً وثانيةً حتى وقع على الأرض وانزلق المفتاحُ من يده.

"هذا يكفي!" قال آجوو.

تحسس جنديٌّ آخرُ عنقَ الرجل ورسغه ليتأكد أن يتنفس. كانت الزوجة منحنية على زوجها فيما الجنود يدخلون السيارة ويتوجهون نحو البار.

حيتهم عاملةُ البار وأخبرتهم أنه لا توجد بيرة.

"أأنت واثقة أن لا بيرة لديك؟ هل تخفينها لأنك تظنين أننا لن ندفع؟" قال لها أحد الجنود.

"لا، لا يوجد بيرة." كانت نحيلةً وحادةَ الملامح وغير مبتسمة.

"لقد دمرنا العدو،" قال. "أعطينا بيرة!"

"قالت إنه لا يوجد بيرة،" هتف آجوو. أزعجه علوُّ صوت الجندي؛ كان هذا هو الرجل الذي منع *أوبيونجويه* وجرى قبل أن يصبح الهمج قريبين. "دعها تحضر لنا كاي-كاي."

وفيما تضع الفتاة الجين المحليَّ والكؤوس المعدنية الصغيرة، تكلم الجنود عن الضباط النيجيريين، وعن كيف سيعلقون دانجوما، وإيديكيونيل، وجوون من أرجلهم بعد نصر بيافرا. بدأ هاي-تيك يلف بعض سجائر وي-وي. فكر آجوو أنه رأى شيئًا مألوفًا على قطعة الورق غير الملفوفة، كلمة "حكاية"، لكن هذا غير ممكن. نظر ثانية. "ما هذه الورقة؟" سأل.

"هي فقط الصفحة الأولى من كتابك." ابتسم هاي-تيك وقدم إلى آجوو نصيبه.

لم يأخذها آجوو. "مزقتَ كتابي؟"

"إنها فقط الصفحة الأولى. نفدت أوراقي."

اشتعل الغضبُ في آجوو. كانت صفعته خاطفةً، قوية، مخيفة، لكن هاي-تيك تفادى الهجوم لأنه تراجع للوراء في اللحظة الأخيرة فاحتكت يد آجوو بخده فقط، رفع آجوو يده من جديد لكن الجنود الآخرين أمسكوا به، وجذبوه بعيدًا، قائلين إنه في النهاية مجرد كتاب، وأخبروه أن يشرب المزيد من الجين.

"آسف،" تمتم هاي-تيك.

شعر آجوو بالصداع. كل شيء كان يتحرك بسرعة كبيرة. لم يكن يعيش حياته؛ كانت الحياة تعيشه. راح يشرب بثبات ويراقب الآخرين، أفواههم تنفتح وتنغلق. سخرياتٌ وقحة وتباهيات كريهة وذكريات ومبالغات تخرج منها. وسرعان ما أصبح البارُ ذاته، المقاعدُ حول الطاولة، زغللةً كريهةَ الرائحة. كانت فتاة البار تبدل الزجاجات واحدة بعد أخرى. فكر آجوو أن الجين كان يُخمَّر في فنائهم الخلفي أسفل الطريق. نهض ليتبول بالخارج، وفيما بعد اتكأ إلى شجرة وراح يتنفس هواء منعشًا. كان ذلك مثل الجلوس في نسوكا في الفناء الخلفي، وهو ينظر إلى شجرة الليمون وحديقة أعشابه بينما جومو يرعى النباتات. مكث هناك برهة حتى سمع صيحاتٍ عاليةً من البار. ربما شخصٌ ما قد كسب رهانًا ما أو آخر. لقد أضجروه. والحرب أضجرته. وحينما دخل أخيرًا، توقف عند الباب. كانت الفتاة راقدة على الأرض على ظهرها، ثوبها مرفوعٌ حتى خصرها، وكتفاها ممسوكتان لأسفل بيدي جندي، ساقاها مفتوحتان، مفتوحتان جزئيًا. كانت تنشج: "أرجوك، أرجوك، بيكو." كانت بلوزتها مازالت عليها. بين ساقيها كان هاي-تيك يتحرك. اندفاعه كان متقطعًا، مؤخرته الصغيرة أغمق لونًا من ساقيه, وكان الجنود يشجعونه.

"هاي-تيك، كفى، أفرغْ وتنحَ عنها!"

تأوّه هاي-تيك قبل أن ينهار فوقها. جذبه جندي بعيدًا عنها وكان يفك بنطلونه حينما قال شخصٌ ما: "لا! مدمِّر الهدفِ هو التالي!"

تخفَّى آجوو خلف عن الباب.

"*أوجو آبيالا* او! مدمر الهدف خائف!"

هز آجوو كتفيه ومشى للأمام. "مَن هو الخائف؟" قال بازدراء. "أنا فقط أحب أن آكل قبل الآخرين، هذا كل ما في الأمر."

"هذا الطعام مازال طازجًا!"

"يا مدمِّرَ الهدف، ألستَ رجلاً؟ *آي بوكوا نوكوي*؟"

على الأرض، كانت الفتاة ساكنة. أنزل آجوو بنطاله، وكان مندهشًا من صلابة انتصابه. كانت الفتاةُ جافة ومتوترة حينما دخلها. لم ينظر إلى وجهها، ولا إلى الرجل الذي يصلبها لأسفل، ولا إلى أي شيء آخر على الإطلاق وراح يتحرك بسرعة حتى شعر بذروة

شهوته، ثم اندفاع سائله إلى أطرافه: ثم ارتخائه المصحوب بالاشمئزاز. زرر بنطاله بينما بعض الجنود يصفقون. وأخيرًا نظر إلى الفتاة. فنظرت إليه في كراهية باردة.

كان هناك المزيد من العمليات. وكان خوف آجوو يغمره أحيانا، يجمده.؟ حرر عقله من جسده، فصلَ بين الاثنين، وهو راقد في الخندق، ضاغطًا نفسه داخل الطمي، مُنعّمًا في مدى التصاقه واتصاله بالطمي. صرخات كا-كا-كا، صرخات الرجال، رائحة الموت، قرقعة الانفجارات فوقه وحوله كانت كلها بعيدة. لكن حينما عاد إلى المعسكر كان ذاكرته قد غدت أصفى؛ تذكر الرجل الذي وضع يديه على بطنه المفتوحة كأنما ليضم أحشاءه المتفجرة من جديد، الرجل الذي تمتم بشيء عن ابنه قبل أن يتصلّب. وبعد كل عملية، كان كل شيء يغدو جديدًا. كان آجوو ينظر إلى حزمة الجاري اليومية في دهشة. كان يقرأ في كتابه مرارًا وتكرارًا. كان يمس جلده ويظن أنه يتحلل.
بعد ظهيرة أحد الأيام، دخلت السيارة الجيب الخاصة بالقائد وعليها نعجة مريضة راقدة على جانبها، سيقانها مربوطة. تم الاستيلاء عليها من مواطن كسول. كانت تثغو في وهن فتجمع الجنود، مثارين بفكرة اللحم. اثنان منهم ذبحاها وأشعلوا نارًا وحينما نضجت قطعُ اللحم الكبيرة، طلب القائد أن يأتوا بها كلها إلى مكانه. أمضى دقائق عديدة يفحص ما بداخل الصحن ليتأكد أن النعجة كاملة: الأرجل، الرأس، الأحشاء. فيما بعد، جاءت امرأتان قرويتان وأُخِذتا إلى غرفة القائد؛ وبعد ذلك بكثير، قذف الجنود عليهما الحجارة وهما تغادران. حلم آجوو أن يعطي القائد نصف النعجة للجنود وأنهم يمضغون كل شيء ويمتصون العظام.
حينما استيقظ، كان جهاز راديو مُدارًا بصوت عال وكان هاي-تيك ينتحب. سقطت أومياهيا. ضاعت عاصمة بيافرا. رفع جندي يديه وقال: "تلك النعجة، تلك النعجة كانت فألاً سيئًا وتعويذة شر! كل شيء ضاع! علينا أن نستسلم!" كان بقية الجنود خامدين. حتى قول القائد بأنه كان عالِمًا بخطة الهجمات المعاكسة من أجل تغطية أومياهيا لم ترفع أرواحهم. لكن الخبر بأن فخامته سوف يزورهم فعل ذلك. كنس الجنود المعسكر، غسلوا ملابسهم، صفّوا أنفسهم طابورًا ليرحبوا به. وحينما دخلت قوافل سيارات الجيب والبونتياك المعسكر، وقف الجميع وقدموا التحية.
كانت تحية آجوو رخوة، لأنه كان قلقًا على أولانا والسيد وبيبي في أومياهيا، لأنه لم يكن مهتمًا بفخامته، لأنه لم يكن يعبأ بالقائد. لم يكن يعبأ بأي من الضباط، بسخرياتهم المتعالية والأسلوب الذي يعاملون به جنودهم كأنما خراف. لكن كان هناك رئيس فرقة أعجب به آجوو، رجل متفرد ومهندم يدعى أوهايتو. وبهذا عندما وجد آجوو نفسه يومًا ما في الخندق

جوار كابتن أوهايتو، صمم أن يكسب إعجابه. لم يكن الخندق رطبًا؛ وكان هناك المزيد من النمل والعناكب.

كان بوسع آجوو أن يخمن أن الهمج قريبون، من جلبة طلقات النيران، وقصف المدافع. لكن لم يكن ما يكفي من الضوء ليستوثق. كان بالفعل يود أن يؤثر في كابتن أوهايتو، فقط لو لم يكن الضوء شحيحًا جدًّا. كان على وشك أن يوصل الكابل بالفيشة حينما صَفَّر شيء في أذنه، وبعد ذلك مباشرة، أحرقت ظهره لسعةٌ موجعة. جواره، كان كابتن أوهايتو كتلةً مشوّهة مدمّاة. بعد ذلك وجد آجوو نفسه يُرفع من الخندق، بلا حيلة، سيء الحظ. وحينما هبط، كان ذلك بفعل ثقل جسده، أكثر مما كان بسبب الألم الذي يشتعل في كامل جسده، حتى أنه خمد في سكون.

انزاح ريتشارد بعيدًا بقدر ما يمكنه عن الصحفييْن الأمريكييْن في السيارة، ضاغطًا نفسه في باب السيارة البيجو. كان عليه بالفعل الجلوس في الأمام على أن يطلب من الجندي أن يجلس في المؤخرة معهما. لكنه لم يكن يتخيل أن رائحتهما بكل هذا القبح، تشارلز السمين الذي يلبس قبعة فطساء وتشارلز ذو الشعر الأحمر بلحيته المغطاة بشعر زنجبيليّ.

"أحدنا من الغرب الأوسط والآخر صحفي من نيويورك جئنا لبيافرا، وكلانا اسمه ريتشارد. ما هي الاختلافات؟" قال البدين وهو يضحك، بعدما قدَّمَا نفسيهما. "وأمُّ كلٍّ منا تسميانا تشاك!"

لم يكن ريتشارد يعرف كم من الوقت انتظرا قبل أن يستقلا رحلة طيرانهما في ليسبون، لكن انتظار رحلة إغاثة من ساو طومي إلى بيافرا امتد سبع عشرة ساعة. كانا يحتاجان إلى أن يستحمَّا. حينما بدأ السمين، الجالس جوار ريتشارد، يتكلم عن زيارته الأولى لبيافرا في بداية الحرب، فكر ريتشارد أن فمه أيضًا يحتاج أن يستحم.

"جئتُ في طائرة حقيقية وهبطنا في مطار بورت هاركورت،" قال. "لكن هذه المرة كنت جالسًا على أرضية طائرة تطير بلا ضوء، جوار عشرين طنًّا من اللبن المجفف. كنا نطير على مسافة منخفضة جدًّا، نظرتُ للخارج وكان بوسعي رؤية الانفجارات البرتقالية للمناطيد النيجيرية المضادة للطائرات. كنتُ مرعوبًا بشكل مهول." ضحك، وغمر وجهَ السمين سرورٌ واسع.

لم يضحك ذو الشعر الأحمر. "لم نكن نعرف على وجه الدقة أنها نيران نيجيرية. يمكن للبيافريين أن يكونوا قد صنعوها."

"أوه، يا رجل!" رمق البدين ريتشارد، لكن ريتشارد أبقى وجهه للأمام. "بالقطع كانت نيران نيجيرية."

"البيافريون يجاورون في طائراتهم بين الطعام والبنادق، على أية حال،" قال ذو الشعر الأحمر. استدار لريتشارد. "أليس كذلك؟"

لم يحبّه ريتشارد. لم يحبّ عينيه الخضراوين الباهتتين ووجهه الأحمر ذا النمش. حينما التقى بهما في المطار وسلَّم لهما جوازي سفرهما وأخبرهما أنه يمكن أن يكون دليلهما وأن حكومة بيافرا ترحب بهما، كان قد كره التعبير المسرور الهازئ للرجل ذي الرأس الأحمر. بدا كأنما كان يقول: أتتكلم بالنيابة عن البيافريين؟

"طائرات إغاثتنا تحمل مؤن الطعام فقط،" قال ريتشارد.

اتكأ البدين على ريتشارد لينظر من النافذة. "لا أصدق أن الناس تقود السيارات وتتجول هنا وهناك. كأنما لا حرب تدور."

"حتى تحدث غارة جوية،" قال ريتشارد. كان قد حرَّك وجهه للوراء وحبس أنفاسه.
"هل من الممكن أن نرى أين أطلق الجنود البيافريون النار على عامل النفط الإيطالي؟" سأل ذو الرأس الأحمر. "كتبنا شيئًا حول ذلك في جريدة ترايبون، لكنني أود أن أعمل تغطية أطول."
"لا، غير ممكن،" قال ريتشارد بحدّة.
كان ذو الوجه الأحمر يرقبه. "أوكي. لكن هل بوسعك أن تخبرني بأي جديد؟"
زفر ريتشارد. كان كأنما شخصٌ ينثر الفلفلَ على جرحه: آلاف البيافريين ماتوا، ويريد هذا الرجل أن يعرف إذا كان هناك شيء جديد عن موت رجل أبيض واحد. سوف يكتب ريتشارد حول هذا، قانون الصحافة الغربية: مائة قتيل أسود يساوون قتيلاً أبيضَ واحدًا.
"لا شيء جديدًا أخبرك به،" قال. "المنطقة محاصرة الآن."
عند نقطة التفتيش، تكلم ريتشارد بالإيبو مع موظفة الدفاع المدني. فحصت جوازاتهم وابتسمت على نحوٍ موحٍ فردَّ لها ريتشارد الابتسامة؛ جسدها الطويل النحيل ذو الصدر الضئيل ذكَّره بكاينين.
"تبدو كأنما تبحث عن رجل بالفعل،" قال السمين. "سمعتُ أن ثمة حرية جنسية كبيرة هنا. لكن الفتيات لديهن نوع من الأمراض الجنسية المعدية؟ مرض بوني؟ على الرجال أن يكونوا حريصين حتى لا يأخذوا معهم الأمراض إلى الوطن."
أزعجت وقاحتُه ريتشارد. "معسكر اللاجئين الذي نحن ذاهبون إليه تديره زوجتي."
"حقًّا؟ هل هي هنا من زمن؟"
"هي بيافرية."
كان ذو الرأس الأحمر يحدق للخارج من النافذة؛ استدار الآن نحو ريتشارد. "كان لديَّ صديقٌ إنجليزيٌّ في الجامعة كان يسعى وراء الفتيات الملوَّنات."
بدا البدين مكسوفًا. تكلم بسرعة. "أنت تتكلم الإيبو جيدًا جدًّا؟"
"نعم،" قال ريتشارد. ود أن يريهما صور كاينين والأواني ذات الحبال، لكنه عدل عن رأيه.
"أود أن ألتقي بها،" قال السمين.
"هي ليست هنا اليوم. تحاول أن تجد المزيد من التموين للمعسكر."
نزل من السيارة أولاً وشاهد المترجميْن منتظريْن. أزعجه وجودهما. صحيح أن المصطلحات والفروق اللغوية الدقيقة واللهجات دائمًا ما تهرب منه في الإيبو، لكن المديرية كانت سريعة جدًّا في إرسال المترجمين. نظر إليهم اللاجئون الجالسون بالخارج في فضول غامض. وكان ثمة رجل مهزول يتجول، في خصره خنجر مربوط، يتكلم إلى نفسه. ورائحة العفونة كثيفة عالقة بالهواء. وكانت مجموعة من الأطفال يشوون فأرين في النار.
"أوه، يا إلهي." أزاح البدين قبعته عن رأسه وحدّق.

"الزنوج لا يختارون مطلقًا ما يأكلون،" تمتم ذو الشعر الأحمر.
"ماذا قلتَ؟" سأل ريتشارد.
لكن ذا الشعر الأحمر تظاهر بأنه لم يسمع وأسرع الخطو مع أحد المترجمين، لكي يتحدث إلى مجموعة من الرجال يلعبون الدومينو.
قال الرجل البدين: "تعلم أن أكوامًا من الطعام في صاو طومي تزحف عليها الصراصير لأنه لا يوجد طريقة لتوصيلها هنا."
"نعم." توقف ريتشارد. "هل أعطيك بعض الخطابات؟ إنها لوالديْ زوجتي في لندن."
"بالطبع، سوف أرسلها بالبريد بمجرد وصولي."
أخرج البدين قطعة شوكولاتة من حقيبة ظهره، فضَّ غلافها، وأخذ قضمتين. "اسمعْ، أتمنى أن أفعل المزيد."
مشى صوب الأطفال وأعطاهم بعض الحلوى وأخذ بعض الصور لهم فتحلّقوا حوله يتسولون المزيد. قال مرّة: "هذه ابتسامة رائعة!" وبعدما غادرهم، عاد الأطفال إلى فئرانهم المشوية.
مرّ ذو الشعر الأحمر سريعًا، الكاميرا حول عنقه تتأرجح فيما يتحرك. "أود أن أشاهد البيافريين الحقيقيين." قال.
"البيافريون الحقيقيون؟" سأل ريتشارد.
"أقصد، أنظرْ إليهم. لا يمكن أن يكونوا قد أكلوا وجبة خلال عامين. لا أرى كيف بوسعهم الكلام عن الحرب وبيافرا وأوجوكو."
"هل عادة تقرر أية إجابات سوف تصدقها قبل أن تُجري لقاء؟" سأل ريتشارد بهدوء.
"أود الذهاب إلى معسكر إيواء آخر."
"بالطبع، سوف آخذك لمعسكر آخر."
معسكر اللاجئين الآخر، في عمق البلدة، كان أصغر، ورائحته أفضل، وكان فيما قبل قاعة البلدة. امرأة بذراع واحدة كانت تجلس على الدرج تحكي حكاية لمجموعة من الناس. أمسك ريتشارد بنهاية الحكاية- "لكن روح الرجل خرجت وتكلمت مع الهمج بالهاوسا فتركوا بيته وحيدًا"- فحسد ريتشارد إيمانها بالأرواح.
مال ذو الشعر الأحمر على الدَّرج جوارها وبدأ يتحدث عبر المترجم.
هل أنت جائعة؟ بالطبع، كلنا جوعى.
هل تفهمين سبب الحرب. نعم، الهمج الهاوسا يريدون قتلنا جميعًا، لكن الرب ليس نائمًا.
هل تودين أن تنتهي الحرب؟ نعم، بيافرا سرعان ما ستنتصر.
وماذا لو لم تنتصر بيافرا؟

بصقت المرأة على الأرض ونظرت إلى المترجم أولاً ثم إلى ذي الشعر الأحمر، نظرة إشفاق طويلة. نهضت ودخلت.

"شيء لا يُصدق،" قال ذو الشعر الأحمر. "الآلة الإعلامية البيافرية عظيمة بالفعل."

كان ريتشارد يعرف نوعه. إنه مثل الباحثين عن الحقيقة لدى الرئيس نيكسون في واشنطون أو أعضاء مفوضية رئيس الوزراء ويلسون في لندن الذين يصلون بموائد البروتين الحاسمة واستنتاجاتهم الأكثر حسمًا: أن نيجيريا لا تقصف المدنيين، أن الموت جوعًا قد تمت السيطرة عليه، وأن كل شيء على ما يرام كما ينبغي لحال الحرب.

"لا توجد آلة إعلامية،" قال ريتشارد. "كلما زاد عدد من تقصفهم، كلما زادت المقاومة."

"هل هذا من راديو بيافرا؟" سأل ذو الشعر الأحمر. "يبدو هذا مثل شيء من الراديو."

لم يجب ريتشارد.

"إنهم يأكلون كل شيء،" قال البدين، وهو يهز رأسه. "كل ورقة شجر خضراء غدت طعامًا."

"لو أراد أوجوكيو أن يوقف الجوع، لكنه قال ببساطة نعم لممرات الطعام. أولئك الأطفال لم يكن عليهم أن يأكلوا القوارض،" قال ذو الشعر الأحمر.

كان البدين قد التقط صورًا. "لكن الأمر ليس بهذه البساطة" قال. "كان عليه أن يفكر في الأمن أيضًا. إنه يحارب حربًا شرسة."

"سوف يكون على أوجوكيو أن يستسلم. هذه هجمة نيجيريا الأخيرة، وليس من سبيل أمام بيافرا لتغطي كل المقاطعات الضائعة،" قال ذو الشعر الأحمر.

أخرج البدين من جيبه قطعةً نصفَ مأكولة من الشوكولاتة.

"وإذاً ماذا يفعل البيافرون الآن في النفط وقد فقدوا الميناء؟" سأل ذو الشعر الأحمر.

"مازلنا نستخرج بعضه من الحقول التي نسيطر عليها في إيباما،" قال ريتشارد غير عابئ بشرح أين تقع إيباما. "نحن ننقل النفط الخام إلى المقطرات في الليل، في شاحنات دون مصابيح أمامية، تحاشيًا للقصف."

"تظل تقول "نحن"،" قال ذو الشعر الأحمر.

"نعم، أظل أقول "نحن"،" رمقه ريتشارد. "هل زرت أفريقيا من قبل؟"

"لا، هذه هي الأولى. لماذا؟"

"فقط كنت أتساءل."

"هل عليَّ أن أفترض أنني غير خبير في طرق الأحراش؟ غطيت آسيا لثلاث سنوات،" قال ذو الشعر الأحمر وابتسم.

تحسس البدين حقيبة ظهره وأخرج قنينة براندي. أعطاها لريتشارد. "أحضرتها من صاو طومي. نوع ممتاز."

أخذ ريتشارد القنينة.

قبل أن يقودهما إلى أوللي ليستقلا طائرتهما للمغادرة، ذهبوا إلى بيت ضيافة ليتناول الصحفيان غداءً من الأرز والدجاج والخضار؛ كره ريتشارد أن يفكر في أن الحكومة البيافرية قد دفعت ثمن وجبة من أجل ذي الشعر الأحمر. كانت بعض السيارات تصل وتغادر بناية المطار؛ وفي الأمام بعيدًا، كان مهبط الطيران أسود بلون القار. جاء مدير المطار في حلّته الكاكي المحبوكة وصافحهم قائلاً: "الطائرة جاهزة الآن."
"من السخف أنهم مازالوا يتّبعون البروتوكول في هذه البقعة العفنة،" قال ذو الشعر الأحمر. "لقد ختموا جواز سفري حينما جئت هنا وسألوا إن كان لدي أي شيء لأبرزه."
مزّق الجوَّ انفجارٌ هائل. وصرخ مدير المطار: "هذا الطريق!" فجروا وراءه إلى البناية غير المكتملة. رقدوا على الأرض. تحطمت ألواح النوافذ الزجاجية. واهتزت الأرض. توقفت الانفجارات وتبعتها طلقات النار، فنهض المدير ونفض ملابسه. "لا مزيد من المشاكل، هيا نذهب."
"هل أنت مجنون؟" صرخ ذو الشعر الأحمر.
"هم يبدؤون في إطلاق النار فقط حينما تنفد القنابل، لا شيء مقلقًا الآن،" قال مدير المطار بتعالٍ، وهو في طريقة بالفعل إلى الخارج.
في مهبط الطائرات كانت ثمة شاحنة تُصلح الحفرة التي صنعتها القنبلة، ملأوها بالحصى. مصابيح المهبط تضيء وتنطفئ ثم عمَّ الظلام تمامًا من جديد، على نحو مطلق؛ وفي العتمة الزرقاء شعر ريتشارد أن رأسه يسبح. أنار الضوءُ لبرهة أطول قليلاً ثم انطفأ. أنار وانطفأ. وكانت طائرة تهبط، وثمة صوت متعرج متأرجح في المهبط.
"هل هي تهبط؟" سأل البدين.
"نعم،" قال ريتشارد.
ومضت الأضواء ثم انطفأت. هبطت ثلاث طائرات فأبهج ريتشارد مدى سرعة الشاحنات، دون مصابيح أمامية، في وصولها إليها. كان بعض الرجال يفرغون الطائرات من الحقائب. والأضواء تومض. والطيارون يصرخون. "أسرعوا، أيها الأولاد الكسالى! أخرجوا الحقائب! لا نريد أن نُقصف هنا! تحركوا أيها الأولاد! أسرعوا، اللعنة!" كانت ثمة لكنة أميركية، ولكنة أفريقية، ولكنة أيرلندية.
"بوسع الأوغاد أن يكونوا مهذبين أكثر قليلاً،" قال البدين. "إنهم يتقاضون آلاف الدولارات ليطيروا بالإغاثة هنا."
"لكن حياتهم في خطر،" قال ذو الشعر الأحمر.
"وكذا حياة الرجال الذين يفرغون الطائرات."

شخص ما أضاء مصباحًا كهربائيًّا فتساءل ريتشارد ما إذا استطاعت القاصفات النيجيرية المحلقة بالأعلى أن تراه، وتساءل كم عدد قاذفي القنابل النيجيريين يحلقون بالأعلى.

"بعض رجالنا يمشون في مجال المروحات في الظلام،" قال ريتشارد بهدوء. ولم يعرف لماذا قال هذا، ربما ليصدم ذا الشعر الأحمر في تعاليه وثقته الزائدة بنفسه.

"وماذا يحدث لهم؟" سأل البدين.

"ماذا تظن يحدث لهم؟"

كانت سيارة تتقدم نحوهم، ببطء، من دون إضاءة أمامية. ركنت في الجوار، انفتحت الأبواب وانغلقت، وسرعان ما انضم إليهم خمسة أطفال مهزولون وراهبةٌ في رداء بالأبيض والأزرق. حياها ريتشارد. "مساء الخير. *كي كا آي مي*؟"

ابتسمت. "أوه، أنت الوحيد الذي يتحدث الإيبو. أنت الشخص الذي يكتب المقالات الرائعة عن قضيتنا. أحسنتَ صنعًا."

"هل أنت ذاهبة إلى الجابون؟"

"نعم." طلبتْ إلى الأطفال أن يجلسوا على البلاطات الخشبية. اقترب منهم ريتشارد لكي ينظر إليهم. في الضوء الخافت، كانت الرغوة الحليبية الممخطة في عيونهم كثيفة. نادت الراهبة أصغرهم، كانت دميةً مرتعدة بسيقان عصوية وبطن كالحبلى. لم يستطع ريتشارد أن يميز أكان ولدًا أم بنتًا وفجأة جعله هذا غاضبًا، غاضبًا جدًّا، حتى حين سأل ذو الشعر الأحمر: "كيف سنعرف متى سندخل الطائرة؟" تجاهله ريتشارد.

حاولت إحدى الطفلات النهوض. ترنحت وسقطت وجهها إلى الأرض دون حراك. وضعت الراهبة أصغرهم على الأرض والتقطت الطفلة الساقطة. "اجلسي هنا. إذا ذهبتم إلى أي مكان سوف أضربكم،" قالت للآخرين قبل أن تسرع مبتعدة.

سأل البدين: "الطفلة سقطت نائمة أم ماذا؟"

أيضًا تجاهله ريتشارد.

وأخيرًا، تمتم الرجل البدين: "اللعنة على السياسة الأميركية."

"لا شيء خطأ بسياستنا،" قال ذو الشعر الأحمر.

"القوة تصحبها المسؤولية. حكومتك تعرف أن الناس يموتون!" قال ريتشارد، وصوته يعلو.

"بالطبع حكومتي تعلم أن الناس يموتون،" قال ذو الرأس الأحمر. "الناس يموتون في السودان وفلسطين وفيتنام. الناس يموتون في كل مكان." جلس على الأرض. "لقد أعادوا جثمان شقيقي الشاب من فيتنام الشهر الماضي، من أجل خاطر الرب."

لم يقل ريتشارد ولا البدين أي شيء. وتلا ذلك سكون معتم، حتى الطيارون وأصوت التفريغ كانت قد تلاشت. فيما بعد، بعدما تم توصيلهم بسرعة إلى المهبط فأسرعا داخل الطائرة وأقلعت الطائرة مع أضواء تومض وتختفي، جاء ريتشارد عنوانُ الكتاب: "العالم

كان صامتًا حينما كنّا نموت." سوف يكتبه بعد الحرب، حكاية انتصار بيافرا العسير، كرسالة اتهام للعالم. في عودته إلى أورلو، حكي لكاينين عن الصحفيين وكيف أنه شعر بالغضب والأسف للرجل أحمر الشعر وكيف أنه شعر بوحدة غير معقولة في وجودهما وكيف جاءه عنوان الكتاب.

قوست حاجبيها. "نحن؟ العالم كان صامتًا حينما كنا "نحن" نموت؟"

"سوف أتأكد أن أذكر أن قذائف نيجيريا كانت تتجنب بدقة كل مَن معه جوازُ سفر بريطانيّ،" قال.

ضحكت كاينين. كانت تضحك كثيرًا هذه الأيام. ضحكت حين أخبرته عن الأطفال بدون أمهات الذين ما يزالون متمسكين بالحياة، وعن الفتاة الصغيرة التي وقع إناتيمي في هواها، وعن النسوة اللواتي يغنين في المساءات. ضحكت أيضًا في الصباح الذي رأى فيه هو وأولانا بعضهما البعض أخيرًا. تكلمت أولانا أولاً. "هاللو ريتشارد،" قالت، وهو قال: "أولانا هاللو،" فضحكت كاينين وقالت: "ريتشارد لم يعد قادرًا على اختراع أية رحلات أخرى."

راقب وجه كاينين بدقة، لتحوّله للانسحاب، لتبدله إلى الغضب، لأي شيء. لكن لم يكن شيء هناك؛ خففت ضحكتُها الزوايا الحادةَ في ذقنها. أما التوتر الذي توقعه، ثقل الذكريات والندم الذي سوف يصاحب رؤيته أولانا من جديد في وجودها، فكانت غائبة.

7. الكتاب: العالم كان صامتًا حينما كنّا نموت

للخاتمة، كتب قصيدةً، على نسق نموذج إحدى قصائد أوكيوما. أسماها:

"هل كنتم صامتين حينما كنا نموت؟"

هل شاهدتم الصور عام 68
صور الأطفال الذين اعتلى شعرَهم الصدأ:
بقع المرض تسكن تلك الرؤوس الصغيرة
ثم يسقطون، مثلما تسقط أوراق الشجر الذابلة في الغبار؟

تخيلوا أطفالاً بأذرع مثل سواك الأسنان،
ببطون مثل الكرة وجلود نحيلة مشدودة

أنه سوء التغذية المميت- كلمة عسيرة
الكلمة التي ليست قبيحة بما يكفي، إنها الخطيئة

لا تحتاجون أن تتخيلوا. ثمة صورة ها هنا
على ورق لامع مصقول مثل حياتكم
هل رأيتم؟ هل تشعرون بالأسف ولو باقتضاب
ثم تستديرون لكي تعانقوا حبيباتكم أو زوجاتكم؟

بشرتهم قد اتخذت اللون الأسمر المصفر مثل الشاي الخفيف
تُظهر الشرايين النحيلة كخيط العنكبوت والعظام الهشة؛
الأطفال العراة يضحكون،
كأنما الرجل لن يلتقط الصورة
ثم بعد ذلك
يتركهم وحدهم لمصيرهم.

(31)

شاهدتْ أولانا أربعةَ جنود منهكين يحملون جثمانًا على أكتافهم. أصابها الرعبُ الوحشيُّ بالغثيان. توقفت، وهي واثقة أنها جثة آجوو، حتى مشى الجنود بسرعة، تجاوزوها ثم اكتشفت أن الرجل الميت كان طويلاً جدًّا لأن يكون آجوو. قدماه كانتا مشققتين وملطختين بالوحل؛ لقد حارب وهو حاف. حدقت أولانا في ظهور الجنود المتقهقرة وحاولت أن تهدئ تساؤلاتها، حاولت ألا تعبأ بالنذير الذي خيَّم على عقلها لأيام.

فيما بعد أخبرت كاينين كم هي خائفة على آجوو، وكيف أنها تشعر وكأنها على شفا هاوية مأساوية. وضعت كاينين ذراعها حولها وقالت لها ألا تقلق. كان مادو قد أرسل إلى كل قادة العمليات بالبحث عن آجوو؛ سوف يكتشفون أين هو. لكن حينما سألت بيبي: "هل سيعود آجوو اليوم يا مامي أوللا؟" تخيلت أولانا أن ذلك لأن بيبي أيضًا باغتها النذير المشئوم ذاته. حينما عادت إلى أومياهيا وأعطتها ماما أوجي لفة تركها له شخص، تساءلت فورًا إذا ما كانت تحمل رسالة عن آجوو. ارتعشت يداها وهي تفض غلاف الكارتون البُني المطويّ طيات كثيرة. ثم لاحظت خط محمد، معنون إليها على جامعة بيافرا. بالداخل، فضت مناديل ورقية، ملابس داخلية بيضاء، قوالب صابون فاخر، وشوكولاتة، فشعرت بأنها أعجوبة أن تصلها هذه الأشياء، حتى ولو أرسلت عبر الصليب الأحمر. خطابه كان مكتوبًا منذ ثلاثة أشهر لكنه مع ذلك ما يزال يفوح برائحة المسك الطيبة. الجمل المقتضبة علقت بذهنها.

لقد أرسلتُ العديد من الخطابات ولستُ واثقًا من أنها وصلتك. شقيقتي هاديزا تزوجت في يونيو. أفكر فيكِ دائمًا. تقدمت كثيرًا في لعبة البولو. أنا بخير وأعرف أنك وأودينيبو لابد بخير أيضًا. حاولي أن ترسلي كلمة رد.

أدارت قطعة شوكولاتة في يدها، وحدقت في عبارة "مصنوع في سويسرا"، عبثت بورقتها المفضضة. ثم قذفت القطعة عبر الغرفة. خطاب محمد أغضبها؛ لقد أهان واقعها. لكن من غير المحتمل أن يعرف أنهم حتى لا ملح لديهم وأن أودينيبو يشتري كاي-كاي كل يوم وأن آجوو قد جُنِّد وأنها قد باعت باروكتها. لا يمكن أن يعرف كل ذلك. لكنها شعرت بالغضب لأن نسق حياته القديمة بقي كما هو، دون أي منغصات أو تساؤلات حتى أنه استطاع أن يكتب لها عن لعبة البولو.

طرقت ماما أوجي الباب؛ أخذت أولانا نفسًا عميقًا هادئًا قبل أن تفتح الباب وأعطتها قطعة صابون.

"شكرًا لك." أمسكت ماما أوجي قطعة الصابون بكلتا يديها ورفعتها إلى أنفها واستنشقت. "لكن اللفافة كانت كبيرة. هل هذه فقط ما سوف تعطيني؟ ألا يوجد طعام معلب؟ أم أنك سوف تحفظينها لصديقتك المخربة آليس؟"

"*نجوا*، أعيدي إلى الصابونة،" قالت أولانا. "ماما آدانا تعرف كيف تكون شاكرة."

بسرعة رفعت ماما أوجي بلوزتها ودست الصابونة في سوتيانها. "تعرفين أنني ممنونة."

جاءت أصوات عالية من الطريق، فخرجتا معًا. مجموعة من أعضاء المليشيات تحمل السكاكين كانت تدفع أمامها امرأتين. كانتا تبكيان وهما تُدفعان عبر الطريق؛ كان ثوباهما مشقوقين وعيونهما حمراء. "ماذا فعلنا؟ لسنا مخربتين! نحن لاجئتان من ندوني! لم نفعل شيئًا!؟"

هرع القس آمبروز إلى الطريق وراح يصلي.

"أيها الآب الربُّ، دمرْ المخربين الذين يدلّون العدو على الطريق! يا نار الروح المقدسة!"

أسرع بعض الجيران لكي يبصقوا ويقذفون الأحجار والسخريات على ظهري المرأتين. "*سابو*! الرب ليعاقبكما! *سابو*!"

"كان لابد أن يضعوا إطارات السيارات حول عنقيهما ويحرقوهما،" قالت ماما أوجي. "لابد أن يحرقوا كل مخرب."

طوت أولانا خطاب محمد، وفكرت في بطني المرأتين المرتخيتين نصف العاريتين ولم تقل شيئًا.

"لابد أن تكوني حذرة مع هذه الآليس،" قالت ماما أوجي.

"دعي آليس في حالها. هي ليست مُخَرِّبَة."

"هي نوع من النساء سوف تسرق زوج إحداهن."

"ماذا؟"

"كل مرة تذهبين فيها إلى أولو، تخرج وتجلس مع زوجك."

حدقت أولانا في ماما أوجي، مندهشة، ذاك أن هذا كان آخر ما تتوقع سماعه لأن أودينيبو أبدًا لم يذكر لها أن آليس قضت معه وقتًا حينما كانت مسافرة. إنها حتى لم ترهما يتحدثان معًا أبدًا.

كانت ماما أوجي تراقبها. "أقول فقط إنك يجب أن تكوني حذرة منها. حتى لو لم تكن مُخَرِّبَة، فإنها ليست امرأة جيدة."

لم تقدر أولانا أن تفكر فيما تقول. هي تعلم أن أودينيبو لن يلمس امرأة أخرى، هي أقنعت نفسها بذلك، وتعلم أيضا أن ماما أوجي تُكِّن استياء عميقًا نحو آليس. لكن عدم توقع كلمات ماما أوجي أحنقها.

"سوف أكون حذرة،" قالت أخيرًا، مع ابتسامة.

نظرت ماما أوجي كأنما تودُّ أن تقول شيئًا آخر لكن غيرت رأيها واستدارت لتزعق في ابنها.

"ابعدْ عن هذا المكان! هل أنت غبي؟ *أيو اويوزا!* ألا تدري أنكَ سوف تبدأ السعال من جديد؟"

فيما بعد، أخذت أولانا قالب صابون وطرقت باب آليس، ثلاث دقات خاطفة حادة لكي تعرف آليس أنها هي. بدت عينا آليس ناعستين، أكثر ظلالاً عن المعتاد. "هل عدتِ،" قالت. "كيف حال شقيقتك؟"

"بخير جدًّا."

"هل رأيت المرأتين التعستين الذين كانوا يزجرونهما ويدعونهما بالمُخَرِّبتين؟" سألت، وقبل أن تجيب أولانا، استأنفت: "بالأمس كان رجلٌ من أوجوجا. هذا هراء. لا نقدر أن نظل نضرب الناس لأن نيجيريا تضربنا. شخص مثلي، أنا لم آكل طعامًا مناسبًا لعامين. لم أذق السكر. لم أشرب ماء باردًا. كيف سأجد الطاقة لأساند العدو؟" أشارت آليس بيديها النحيلتين، وما ظنّته أولانا أول الأمر هشاشةً أنيقة فجأة بدا الآن غرورًا، أنانية فخمة؛ تكلمت آليس كأنما وحدها من يعاني من الحرب.

أعطتها أولانا الصابونة. "أحدهم أرسل لي بعض القطع."

"أوه! وإذًا سوف أنضم إلى أولئك الذين يستخدمون صابون لوكس في بيافرا. شكرا لك." بدلت ابتسامةُ آليس وجهها، أضاءت عينيها، وتساءلت أولانا ما إذا كان أودينيبو يراها جميلة. نظرت إلى وجه آليس ذي البشرة الصفراء وخصرها الدقيق وأدركت أن ما كان يومًا قد أعجبها أصبح اليوم يهددها.

"*نجوانا*، سأذهب لأجهز عشاء بيبي،" قال واستدارت لتغادر.

هذا المساء، زارت مسز موكيلو بقطعة صابون.

"هل هذه أنتِ؟ *آنيا* جي! مرَّ وقتٌ طويل!" قالت مسز موكيلو. ثمة ثقب قد شطر وجهَ فخامته على كمِّ قميصها.

"تبدين بخير،" جلست أولانا. بدت مسز موكيلو هزيلة؛ جسدها كان مبنيًّا للمتانة، ومع كل هذه الخسارة في الوزن، تهدلت، كأنما لم تعد قادرة على الانتصاب واقفةً. حتى الشعر في ذراعيها سقط.

"أنت دائمًا جميلة،" قالت مسز موكيلو، وعانقت أولانا من جديد.

أعطتها أولانا الصابون، ولأنها تعرف أن مسز موكيلو لن تمس أي شيء أُرسل من نيجيريا، قالت لها: "أرسلتها أمي من إنجلترا."

"يباركك الله،" قالت مسز موكيلو. "زوجك وبيبي، كوانو؟"

"بخير."

"وآجوو؟"

"تمَّ تجنيده."

"بعد هذه المرة الأولى؟"

"نعم."

توقفت مسز موكيلو عن الكلام ومست بأصابعها نصف الشمس الصفراء البلاستيكي حول عنقها. "سيكون بخير. سوف يعود. لابد أن يحارب من أجل قضيتنا شخصٌ ما."

كانتا تريان بعضهما البعض قليلاً جدًّا هذه الآونة منذ بدأت مسز موكيلو تجارتها. جلست أولانا وأنصتت لحكاياتها وعن رؤياها التي تذهب إلى أن المخرب المسؤول عن سقوط بورت هاركورت هو قائد الجيش البيافري؛ وعن رؤيا أخرى رأت فيها ديبيا من أوكيجا يعطى فخامته دواء قويًّا يمكنه من استعادة كل المدن الساقطة.

"كانوا قد بدؤوا إشاعات حول أن أومياهيا مهددَة، *أوكوا يا*؟" سألت مسز موكيلو، وهي تحدق في عيني أولانا.

"نعم."

"لكن أومياهيا لن تسقط. لا مدعاةَ لفزع الناس واستعدادهم للرحيل."

هزت أولانا كتفيها؛ لم تكن تعلم لماذا تحدق مسز موكيلو فيها بقصدية.

"يقولون إن الناس ذوي السيارات بدأوا يبحثون عن الوقود." كانت عينا مسز موكيلو لا تغمضان. "عليهم أن يحذروا، يحذروا جدًّا، قبل أن يسألهم شخص ما كيف عرفوا أن أومياهيا سوف تسقط إذا لم يكونوا مُخربين."

أدركت أولانا، مسز موكيلو تحذّرها إذًا، تنبؤها أن تستعد.

"نعم عليهم أن يكونوا حذرين،" قالت.

حكَّت مسز موكيلو يديها معًا. شيء ما تغير بها؛ لقد سمحت لإيمانها أن يتسرب من بين أصابعها. بيافرا سوف تنتصر، كانت أولانا تعلم، لأن بيافرا كان عليها أن تنتصر، لكن مسز موكيلو تلك من بين كل الناس وقد آمنت بأن سقوط العاصمة بات وشيكًا أحبطها. حينما عانقت مسز موكيلو عناق الوداع، كان ذلك بمشاعر خاوية كأنما لن تراها ثانية. أمعنت النظر بجدية، لأول مرة، في مسألة سقوط أومياهيا وهي تسير في طريقها إلى البيت. سوف يعني هذا نصرًا مؤجلاً، اعتصارًا خانقًا لمقاطعة بيافرا، لكنه سوف يعني أيضًا أن عليهم الانتقال والعيش في بيت كاينين في أورلو حتى تنتهي الحرب.

توقفت في محطة البنزين جوار المستشفى ولم تندهش لرؤية اليافطة الطباشيرية: لا يوجد بنزين. لقد توقفوا عن بيع النفط بيافري التصنيع منذ بدأ الكلام حول سقوط أومياهيا، حتى لا

يفزع الناس. تلك الليلة، أخبرت أولانا أودينيبو: "نحتاج إلى أن نحصل على بعض البنزين من السوق السوداء؛ ليس لدينا ما يكفي في حال حدوث أي شيء." أومأ بغموض وتمتم بشيء حول الضابط جوليوس. كان قد عاد لتوه من بار تنزانيا ورقد على السرير مع الراديو على صوت منخفض. عبر الستارة، كانت بيبي ناعسة على المرتبة.

"ماذا قلتَ؟" سألت.

"لا نقدر أن نتحمل ثمن البنزين في الوقت الحالي. إنه جنيه للجالون."

"لقد دفعوا لكَ الأسبوع الماضي. لابد أن نتأكد أن السيارة ستتحرك."

"لقد سألت الضابط جوليوس من أجل تحويل شيك. لكنه لم يأت بالنقود."

عرفت أولانا على الفور إنها كذبة. إنهم يجرون تحويلات الشيكات لجوليوس في الحال؛ لا تأخذ أبدًا أكثر من يوم ليعطي جوليوس أودينيبو كاش التحويل للشيكات.

"وكيف سنشتري البنزين إذًا؟" سألت.

لم يرد.

مشت متجاوزة إياه للخارج. كان القمر وراء غيمة، وكان بوسعها وهي جالسة في عتمة الفناء أن تشم الرائحة الكثيفة لرذاذ الجين الرخيص. الرائحة تتجرجر منه، تعبق الطرق التي يمشي بها. شرابه في نسوكا- البراندي المقطر الأحمر- كان يجعل ذهنه حادًّا، يُقطّر أفكارَه وثقته بنفسه حتى أنه كان يجلس في قاعة المعيشة ويتكلم ويتكلم فينصت الجميع. هذا الشراب هنا أصمته. يجعله يتقوقع داخل نفسه وينظر للعالم الخارجي بعينين متعبتين زائغتين. وهذا كان يثير غضبها.

حوّلت أولانا ما تبقى لديها من الجنيهات البريطانية واشترت بنزينًا من رجل قادها إلى بيت صغير رطب تزحف على أرضيته ديدانٌ سمينة. صبَّ بعناية من وعائه المعدنيّ داخل وعائها. أخذت الوعاءَ إلى البيت ملفوفًا في جوال كان فيما قبل مخصصًا لحبوب الذرة وكانت قد خبأته في صندوق السيارة الأوبل حينما دخلت سيارة عسكرية جيب مكشوفة. خرجت كاينين من السيارة يتبعها جنديٌّ يعتمر خوذةً. فعرفت أولانا على الفور وشعورها يغرق في عويل عميق أن الأمر خاص بآجوو. كان من أجل آجوو. الشمس تحرق بقسوة والسوائل بدأت تنزلق في رأسها فنظرت حولها بحثًا عن بيبي لكنها لم تجدها. صعدت كاينين وضمتها بقوة. أمسكت كتفيها وقالت: "*إيجيما* م، امسكي قلبك، كوني قوية. مات آجوو،" ولم يكن الخبر، لكنها القبضة القوية من أصابع كاينين العظمية هي ما أدركته أولانا.

"لا،" قالت بهدوء. كان الجو مشبّعًا بالشك، كأنما سوف تصحو من النوم حالاً. "لا،" قالت ثانية وهي تهز رأسها.

"أرسل مادو مراسله العسكري برسالة. كان آجوو مع قطاع المهندسين، وقد عانوا من جراح بالغة في عملية الأسبوع الماضي. قليلون مَن عادوا منهم ولم يكن آجوو من بينهم. لم يستطيعوا أن يجدوا جثته، لكنهم لم يجدوا العديد من الجثث أيضًا." توقفت كاينين. "لم يكن هناك الكثير ليجدوه."

ظلت أولانا تهز رأسها، تنتظر أن تصحو.

"تعالي معي. أحضري تشياماكا. تعالوا وامكثوا في أورلو." كانت كاينين تمسك بها، وبيبي تقول شيئًا، وكفّنت غمامةٌ معتمة كلَّ شيء حتى نظرت إلى أعلى وشاهدت السماء. زرقاء وصافية. جعلت الحاضر واقعًا، السماءُ، لأنها أبدًا لم تر السماء في أحلامها. استدارت ومشت على طول الطريق إلى بار تنزانيا. تجاوزت ستارةَ الباب القذرة ودفعت كأس أودينيبو من على الطاولة؛ اندلق سائل باهتٌ على أسمنت الأرضية.

"هل شربت ما يكفي، *ايه*؟" سألته بهدوء. "آجوو *أنووجو*. هل سمعتني؟ آجوو مات."

نهض أودينيبو ونظر إليها. حدود عينيه كانت منتفخة.

"استمرْ في الشرب،" قالت أولانا. "اشربْ واشربْ ولا تتوقفْ. آجوو مات."

جاءت مالكة البار وقالت: "أوه! يا عزيزتي، ندو،" وهمّت بعناقها لكن أولانا دفعتها بعيدًا. "اتركيني وشأني!" اكتشفتْ الآن فقط أن كاينين قد تبعتها وأنها كانت تمسكها وهي تصرخ: "اتركيني وشأني! اتركيني وشأني!" لمالكة البار، التي تراجعت للخلف.

في الأيام التالية، الأيام المليئة بثقوب الوقت السوداء، لم يذهب أودينيبو إلى بار تنزانيا. حمَّم بيبي، طبخ لهم *جاري*، وبدأ يعود من عمله مبكرًا. حاول مرة أن يضم أولانا، أن يقبّلها، لكن لمسته جعلت جلدها يغصُّ فتستدير بعيدًا عنه وتخرج لتنام على حصيرة في الشرفة، حيث كان آجوو ينام أحيانًا. لم تبك. المرة الوحيدة التي بكت فيها كانت حينما ذهبت إلى بيت إيبيرتشي لتخبرها أن آجوو قد مات فصرخت إيبيرتشي ونعتتها بالكاذبة؛ في الليل كانت تلك الصرخات تدوي في رأس أولانا.

أرسل أودينيبو كلمة إلى أهل آجوو مع ثلاث نساء مختلفات ممن يذهبن عبر خطوط العدو للتجارة. ونظم في الفناء حفلاً غنائيًا جنائزيًا. بعض الجيران ساعدوا آليس لتُخرج البيانو ووضعوه جوار أشجار الموز. "سوف أعزف بينما أنتن تغنين." قالت آليس للنسوة المحتشدات. لكن وما أن تهمَّ إحداهن بالغناء حتى تصفق ماما أوجي، في تزامن، وبصوت عال، ثم سرعان ما تنضم بقية النسوة الجارات في التصفيق فلا تقدر آليس أن تكمل العزف. جلست بلا حيلة جوار البيانو وبيبي فوق حجرها.

كانت الأغاني الأولى قوية، ثم انطلق صوت ماما آدانّا قويًا ورثائيًا.

نابا نا ندوكوا،

آجوو، نابا نا ندوكوا،

أو جا -آديلي جي مما،

نابا نا ندوموا.

تسلل أودينيبو خارجًا من الفناء قبل أن ينتهوا من الغناء، في عينيه غيوم زرقاء، كأنما لا يقدر أن يصدق كلمات الأغنية: "*اذهبْ في سلام، كل شيء معك سيكون على ما يرام.*" شاهدته أولانا يغادر. لم تفهم أبدًا الامتعاض الذي شعرت به. لم يكن لديه ما يفعله ليوقف موت آجوو، لكنه يشرب، إسرافه في الشراب جعله على نحو ما مشاركًا في الجريمة. لم تكن تريد أن تتكلم معه، أو تنام جواره. كانت تنام بالخارج على الحصيرة، حتى لسع الناموس غدا مريحًا. كانت تقول أقل القليل له. يتكلمان فقط حول الضرورات، ماذا سوف تأكل بيبي، ماذا سيفعلون إذا ما سقطت أومياهيا.

"سوف نمكث في بيت كاينين حتى نجد مكانًا،" قال، كأنما كان لديهم بدائل كثيرة، كأنما كان قد نسي ذلك، فيما قبل كان يقول إن أومياهيا لن تسقط؛ ولم تكن تجيبه.

أخبرتْ بيبي أن آجوو قد ذهب إلى السماء.

"لكنه سيعود قريبا، مامي أوللا؟" سألت بيبي.

وقالت أولانا نعم. لم تكن هذه هي الطريقة التي ودت أن تهدئ بها بيبي. بعد يوم، وجدت نفسها ترفض فكرة موت آجوو. أخبرت نفسها أنه لم يمت؛ ربما كان قريبًا من الموت، لكنه لم يمت. مازالت تأمل في رسالة تصلها حول مكانه. كانت تستحم في الخارج الآن- الحمام كان زلقًا ومتعفنًا ومليئًا بالبول، لذلك كانت تستيقظ مبكرًا جدًّا وتأخذ دلوا ثم تذهب وراء البناية- ويومًا ما التقطت حركةً في الركن وشاهدت القس آمبروز يراقبها. "القس آمبروز!" هتفت، فأسرع مبتعدًا. "ألا تخجل من نفسك؟ لو أنك فقط تُمضّي وقتك في الصلاة من أجل أن يأتي أحد ليخبرني ماذا حدث لآجوو بدلاً من التجسس على النساء المتزوجات وهن يتحممن."

زارت بيت مسز موكيلو، آملةً في رؤيا حول أمان آجوو، لكن جارة أخبرتها أن عائلة مسز موكيلو كلها قد مضت. غادروا دون أن يخبروا أحدًا. راحت تنصت بعناية أكبر إلى تقارير الحرب من راديو بيافرا، كأنما ستجد دليلاً حول آجوو في صوت المذيع وهو يحكي عن أخبار الهمج، وعن بسالة جنود بيافرا الشجعان. عصر يوم الأحد دخل الفناءَ رجلٌ يلبس قفطانًا أبيض مبقّعًا، فأسرعت إليه أولانا، وهي واثقة أنه يحمل أخبارًا حول آجوو.

"أخبرني،" قالت. "خبّرني أين آجوو."

بدا الرجل مرتبكا. "*دالوا*. أنا أبحث عن آليس نجوكاما من أسابا."

"آليس؟" شخصت أولانا في الرجل، كأنما لتعطيه فرصة أن يتراجع ويسأل عنها بدلا من ذلك.

"آليس؟"

"نعم، آليس من أسابا. أنا قريبها. مسكن أسرتي جوار مسكن أسرتها."
أشارت أولانا إلى باب آليس. ذهب وطرق الباب وطرق.
"هل هي بالداخل؟" سأل.
أومأت أولانا، وهي مستاءه من أنه لم يأت بأخبار عن آجوو.
طرق الرجل الباب ثانيةً ونادى: "أنا من عائلة إزيوما في أسابا."
فتحت آليس الباب فدخل. وبعد دقائق، اندفعت آليس للخارج وقذفت بنفسها إلى الأرض، تتدحرج يمينًا ويسارًا؛ في ضوء الغسق، كانت بشرتها المعفّرة بالتراب تتألق مثل الذهب.
"أو جيني ميري؟ ماذا حدث." سأل الجيران، الذين تجمعوا حول آليس.
"أنا من أسابا وجاءني خبر عن بلدتنا هذا الصباح،" قال الرجل. كانت لكنته أثقل من لكنة آليس، وفهمت أولانا الإيبو الخاصة به بعد لحظة من حديثه. "استولى الهمجُ على بلدتنا منذ عدة أسابيع وأعلنوا أن الأهالي جميعهم لابد أن يخرجوا ويقولوا "نيجيريا واحدة" وسوف يعطونهم أرز. لذلك خرج الناس من المخابئ وقالوا "نيجيريا واحدة" فأطلق الهمج عليهم النار، رجالاً ونساءً وأطفالاً. كل الناس." توقف الرجل. "لم يبق أحد من عائلة نجوكاما. لم يبق أي أحد."
كانت آليس راقدة على ظهرها، تحك رأسها بعنف في الأرض، وتئنّ. كتل الرمال تعلق بشعرها. نهضت وركضت صوب الطريق لكن القس آمبروز لحق بها وأعادها. أفلتت نفسها وألقت بنفسها على الأرض من جديد، انفرجت شفتاها وبدت أسنانها. "لماذا أظل حية؟ لابد أن يأتوا ويقتلوني الآن! قلتُ إنهم لابد يأتوا ويقتلوني!"
كان جسدها مشدودًا، متشجعةً بقوة جنونها وحزنها فحاربت أي إنسان حاول أن يمسك بها. كانت تتدحرج على الأرض بعنف أدى إلى أن الحصوات جرحت جلدها جروحًا عميقة صغيرة وحمراء. قال الجيران أوه وهزوا رؤوسهم. خرج أودينيبو من الغرفة ثم مشى نحوها وجذب آليس وأمسكها، فمكثت ساكنة وشرعت في البكاء، ورأسها مرتاح على كتفه. شاهدتهما أولانا. كان ثمة تجانسٌ مألوف في انحناءة ذراعي أودينيبو حول آليس. كان يحضنها بسهولةِ من حضنها من قبل.

أخيرًا جلست آليس على المصطبة، خاويةً وحزينة. ومن وقت لآخر، كانت تصرخ: "هيي!" وتنهض وتضع يديها على رأسها. جلس أودينيبو جوارها وحثها على شرب بعض الماء. تكلم هو والرجل من أسابا بصوت منخفض كأنما كانا وحدهما مسؤولين عنها، وفيما بعد جاء إلى حيث كانت أولانا جالسة في الشرفة.
"هل ستجمعين بعض أشيائها يا نكيم؟" سأل. "يقول الرجل إن هناك بعض الأشخاص من أسابا في بيته وسوف يأخذها لتمكث معهم بعض الوقت."

نظرت إليه أولانا، بوجه جامدًا، وقالت: "لا،".
"لا؟"
"لا،" قالت ثانيةً، بصوت عال الآن. "لا." ثم نهضت ودخلت الغرفة. هي لن تجمع ملابس أي أحد. هل لا تعرف مَن كان يجمع ملابس آليس وأشياءها فيما قبل، ربما فعل ذلك أودينيبو، لكنها سمعت "الله معك،" من بعض الجيران بينما آليس والرجل يغادران في المساء. نامت أولانا بالخارج وحلمت بآليس وأودينيبو على الفراش في نسوكا، عرقهما كان يغمر ملاءتها الجديدة؛ استيقظت على شك موجع في قلبها وصوت قذائف في أذنيها.
"الهمج قريبون!" هتف القس آمبروز، وكان أول من جرى من التجمع، وفي يده حقيبة قماشية محشوة.
احتشد الفناء بالنشاط والهتاف وتعبئة الحقائب والمغادرة. لم يتوقف القصفُ، انفجارٌ في إثر انفجار عنيف عال مثل سعال مقزز. ولم تعمل السيارة. حاول أودينيبو وحاول وكان الطريق مكتظًا باللاجئين وانفجارات المدافع كانت قريبة تأتي من شارع القديس جون. كانت ماما أوجي تصرخ في زوجها. وماما آدانا تتوسل إلى أولانا أن تأخذها في سيارتها مع بعض أطفالها فقالت أولانا: "لا، خذي أطفالك واذهبي."
أدار أودينيبو المحرك فأنَّ ثم توقف. كان التجمع خاليًا تقريبًا. ثمة امرأة في الطريق تجر شاةً عنيدة وفي الأخير تركتها وركضت للأمام. أدار أودينيبو مفتاح المحرك من جديد فتعطلت السيارة. كان بوسع أولانا أن تشعر بالأرض ترتجُّ تحتها مع كل قذيفة.
أدار أودينيبو المفتاح مرّة ومرة ولم تُدَر السيارة.
"ابدأي في المشي مع بيبي،" قال. وحبات العرق معلقة على حاجبيه.
"ماذا؟"
"سوف ألتقطكما حينما تدور السيارة."
"إذا كنا سنمشي، سوف نمشي جميعنا."
حاول أودينيبو أن يدير السيارة ثانية. استدارت أولانا، واندهشت لفرط هدوء بيبي وهي تجلس في الخلف جوار المرتبة الملفوفة. كانت بيبي تراقب أودينيبو بدقة، كأنما كانت تحثُّ أودينيبو والسيارة بعينيها.
نزل أودينيبو وفتح غطاء المحرك فخرجت أولانا أيضًا وأخرجت بيبي وفكرت ماذا سوف تأخذ وماذا سوف تترك وراءها. كان التجمع خاويًا وفقط إنسان واحد أو إنسانان يعبران الطريق الآن. كان صوت رصاص في القريب. أصابها الرعب. كانت يداها ترتجفان.
"هيا نمشي،" قالت أولانا. "لم يعد أحد متبقيًا في أومياهيا!"
دخل أودينيبو السيارة وأخذ نفسًا عميقًا وأدار المفتاح فدار المحرك. قاد بسرعة، وعلى حدود أومياهيا سألت أولانا: "هل فعلت أي شيء مع آليس؟"

لم يجب أودينيبو، وظل ينظر أمامه.
"لقد سألتك سؤالاً يا أودينيبو."
"مبا، لم أفعل أي شيء مع آليس." رمقها بطرف عينه قم عاد للنظر إلى الأمام.
لم يقولا أي شيء آخر حتى وصلوا إلى أورلو، فخرجت كاينين وهاريسون من البيت. بدأ هاريسون في تفريغ الأغراض من السيارة.
احتضنت كاينين أولانا، وحملت بيبي، ثم استدارت لأودينيبو. "يا لها من لِحية مثيرة،" قالت. "هل تحاول محاكاة فخامته؟"
"أنا لا أحاول أن أحاكي أي أحد."
"بالطبع. لقد نسيت كم أنت أصليّ."
كان صوت كاينين غليظًا مشحونًا بتوتر أحاط بهم جميعًا. لم تقدر أولانا أن تشعر به. رطوبة كثيفة معلقة في أرجاء الغرفة. عاد ريتشارد وصافح أودينيبو بصرامة. وفيما بعد، جلسوا على المائدة يأكلون شرائح البطاطا. كان هاريسون يقدم الطعام في أطباق خزفية.
"نحن هنا حتى نجد بيتًا نستأجره،" قال أودينيبو، وهو ينظر إلى كاينين.
حدقت فيه كاينين، رفعت حاجبيها، وقالت: "هاريسون! هات مزيدًا من زيت النخيل لتشيماكا."
جاء هاريسون ووضع صحن الزيت أمام بيبي. بعدما غادر، قالت كاينين: "شوى لنا الأسبوع الماضي فأر غابة مدهش. لكنك قد تظنين أنه فخذ حمَل من الطريقة التي قدمه بها."
ضحكت أولانا. ضحكة ريتشارد كانت مقتضبة. ضحكت بيبي أيضا كأنما فهمت. وركز أودينيبو نظرته غير الباسمة على صحنه. وفي الراديو كانت إعادة لإذاعة إلان أهيارا، صوت فخامته واسع ومحدد.

لن تخون بيافرا الرجالَ السود. بصرف النظر عن الخلافات، سوف نحارب بكل طاقتنا حتى يشير كل السود في كل مكان بفخر إلى جمهوريتنا، الواقفة بكبرياء وتحدٍّ، كنموذج للقومية الأفريقية.

استأذن ريتشارد وعاد بقنينة براندي وأومأ إلى أودينيبو. "أحضرها لي صحفيٌّ أمريكي."
حدق أودينيبو في القنينة.
"هذا براندي،" قال ريتشارد، وهو يبسط بها ذراعه كأنما لم يعرف أودينيبو. لم يتحدثا منذ ذهب إليه أودينيبو منذ أعوام وصرخ فيه. ولم يتحدثا حتى بعدما تصافحا اليوم.
لم يمد أودينيبو يده ليتناول القنينة.
"بوسعك أن تتناول شيري بيافري بدلاً منه،" قالت كاينين. "ربما هو مناسب أكثر لكبدك الثوري الجامد."

نظر إلى كاينين بابتسامة ساخرة صغيرة على وجهه، كأنما كان مسرورًا ومنزعجًا في آن.

نهض. "لا أريد براندي، شكرًا. لابد أن أذهب للنوم. أمامي مشوار طويل، انتقلتْ الآن القوى العاملة إلى الغابة."

راقبته أولانا وهو يدخل. لم تنظر إلى ريتشارد.

"وقت النوم يا بيبي،" قالت.

"لا،" قالت بيبي، وتظاهرت بالنظر إلى صحنها الفارغ.

"تعالي حالاً،" قالت أولانا. فنهضت بيبي.

في الغرفة، كان أودينيبو يزمُّ حزامَ روبه حول خصره. "كنتُ توًّا سآتي لآخذ بيبي للنوم،" قال.

تجاهلته أولانا.

"نامي جيدًا يا بيبي، *كا تشي فو*،" قال.

"تصبح على خير بابا."

وضعت أولانا بيبي على المرتبة، وغطتها بروب، قبَّلت جبينها، وشعرت برغبة مفاجئة في البكاء حينما داهمتها صورةُ آجوو. كان سوف ينام على حصيرة في غرفة المعيشة.

جاء أودينيبو ووقف جوارها فأرادت أن تعود إلى الوراء، وهي لا تعلم ماذا تحاول أن تفعل. لمس عظمة عنقها. "انظري كيف صرتِ نحيلة."

أطرقت برأسها، منزعجة من لمسته، مندهشة من مدى ما أصبحت ناتئة العظام، لم تكن تعرف أنها فقدت الكثير من الوزن. لم تقل شيئًا وخرجت عائدة إلى غرفة المعيشة. لم يكن ريتشارد هناك.

كانت كاينين ما تزال إلى المائدة.

"وإذًا قررتِ أنت وأودينيبو البحث عن مكان؟" سألت. "بيتي المتواضع ليس جيدًا بما يكفي؟"

"هل تتصتين إليه؟ لم نقرر أي شيء. لو كان يريد أن يجد مكانًا بوسعه أن يذهب وحده ويعيش هناك وحيدًا،" قالت أولانا.

نظرت إليها كاينين. "ماذا هناك؟"

هزت أولانا رأسها.

دست كاينين إصبعها في صحن الزيت وأخرجته إلى فمها. "*إيجيما م*، ماذا حدث؟ سألت ثانية.

"لا شيء فعلاً. لا شيء أقدر أن أشير إليه،" قالت أولانا، وهي تنظر إلى قنينة البراندي على الطاولة. "أريد أن تنتهي هذه الحرب حتى يقدر أن يعود. لقد أصبح شخصًا آخر."

"نحن جميعًا في هذه الحرب، ويعود إلينا نحن ما إذا كنا نريد أن نكون شخوصًا آخرين أم لا،" قالت كاينين.

"إنه فقط يشرب ويشرب كاي-كاي الرخيص. في المرات القليلة التي دفعوا له فيها تبخرت النقود سريعًا. أظن أنه نام مع آليس، تلك المرأة في الفناء من أسابا. لا أستطيع الاحتفاظ به. لا أستطيع الاحتفاظ به قريبًا مني."

"جيد،" قالت كاينين.

"جيد؟"

"نعم، جيد. ثمة شيء كسول جدًّا في الطريقة التي أحببته به بعماء لمدة طويلة دون أن تنتقديه. أنت حتى لم تري أن الرجل دميم،" قالت كاينين. كانت ثمة ابتسامة صغيرة على وجهها ثم بدأت تضحك، ولم تقدر أولانا أن تتمالك ذاتها فانخرطت في الضحك أيضًا، لأن هذا هو ما لم تكن تريد أن تسمعه ولأن سماعه جعلها تشعر بتحسن.

في الصباح عرضت كاينين على أولانا قارورة على شكل لؤلؤة بها كريم وجه. "انظري إلى هذا. أحدهم سافر وأحضره لي. نفدت كريمات وجهي منذ شهور وكنت أستعمل الزيوت البشعة صناعة بيافرا."

فحصت أولانا القارورة الوردية. أخذتا تتناوبان دعك الكريم على وجهيهما، ببطء، وبشكل حسي، وفيما بعد نزلتا إلى معسكر اللاجئين. كانتا تذهبان كل صباح. الرياح كانت تثير الغبار في كل مكان، وانضمت بيبي إلى الأطفال النحيلين وركضت معهم ببطونهم البنية العارية المجعدة. كثير من الأطفال جمعوا قطعًا من الشظايا، ليلعبوا بها، ويتاجرون فيها. وحينما عادت بيبي بقطعتين من المعدن المكسور، زعقت فيها أولانا وشدت أذنها وأخذتهما منها. كرهت أن تفكر في أن بيبي تلعب بمخلفات باردة قد قتلت الناس. لكن كاينين طلبت إليها أن تعيدهما لبيبي. ثم أعطت كاينين بيبي علبة لتخزن فيها الشظايا. وطلبت من بيبي أن تنضم إلى الأطفال الأكبر سنًّا ليصنعوا فخاخًا للسحالي، وأن تتعلم كيف تجدل سعاف النخيل وتضع الشرانق المليئة بالنمل داخلها. جعلت كاينين بيبي تحمل خنجر الرجل النحيل الذي يجوب التجمع ويتمتم: "*نجوا*، دعوا الهمج يأتون، دعوهم يأتون الآن،" جعلت كاينين بيبي تأكل أرجل السحالي.

يجب على تشيماكا أن ترى الحياة كما هي، *إيجيما* م،" قالت كاينين، وهما ترطِّبان وجهيهما.

"أنت تحمينها من الحياة أكثر مما ينبغي."

"أنا فقط أود أن أُبقي طفلتي آمنة،" قالت أولانا. أخذت مِسحةً صغيرة من الكريم وبدأت تدعك وجهها بأطراف أصابعها.

"كانا يحميانا جيدًا جدًّا،" قالت كاينين.

"بابا وماما؟" سألت أولانا، رغم أنها تعرف.

"نعم." وزعّت كاينين الكريم على وجهها براحتيها. "شيء طيب تركته ماما. هل تتصورينها وهي تعيش دون هذا؟ أو وهي تستخدم زيت النخيل؟"

ضحكت أولانا. وتمنت مع هذا ألا تأخذ كاينين كثيرًا من الكريم، حتى يبقى أطول مدة ممكنة.

"لماذا كنتِ حريصة جدًّا على إسعاد بابا وماما؟" سألت كاينين.

أبقت أولانا يديها على وجهها، وظلت صامتة لبرهة. "لا أعرف. أظن أنني تركت لهما الأسف عليّ."

"أنت دائمًا تتركين الأسف لدى أناس لا تحتاجين أن تتأسفي عليهم."

لم تقل أولانا شيئا لأنها لم تدر ماذا تقول. كان هذا نوع من الكلام يجب أن تتكلم بشأنه مع أودينيبو، حمل صوت كاينين لأول مرة بعض الامتعاض لأبويها ولها، لكنها هي وأودينيبو بالكاد يتكلمان. كان قد وجد بارًا بالجوار الأسبوع الماضي فقط، وجاء مالك البار البيت ليسأل عنه لأنه لم يدفع حسابه. لم تقل شيئًا لأودينيبو بعدما غادر صاحب البار. لم تعد تعرف متى يذهب إلى مديرية القوى العاملة ومتى يذهب إلى البار. كانت ترفض أن تقلق بشأنه.

كانت تقلق بشأن أشياء أخرى: كيف غدت دورتها الشهرية ضئيلة ولم تعد حمراء بل بنية، كيف بدأ شعر بيبي يسقط، كيف يسرق الجوعُ الذاكرةَ من الأطفال. كانت مصممة أن تُبقي عقولهم يقظة؛ فهُم مستقبل بيافرا رغم كل شيء. لذلك كانت تعلِّمهم كل يوم تحت الشجرة، بعيدًا عن الروائح البشعة في خلفيات البنايات. تجعلهم يحفظون سطرًا واحدًا من قصيدة، وفي اليوم التالي يكونون قد نسوها. كانوا يطاردون السحالي. ويأكلون *الجاري* بالماء مرة واحدة في اليوم الآن بدلاً من مرتين لأن مموِّلي كاينين لم يستطيعوا العبور من مبوسي لشراء *الجاري*؛ كل الطرق كانت محتلَّة. أطلقت كاينين حركة "لنزرعْ طعامَنا"، وحينما جمعت الرجال والنساء والأطفال ليحفروا الأرض تساءلت أولانا كيف تعلمتْ أن تحمل المجراف. لكن التربة كانت جافة. شقّقتِ الرياحُ الشفاهَ والأقدام. ثلاثةُ أطفال ماتوا في يوم. تلا الأبُ مارسيل القداسَ دون عشاء رباني. بدأت بطنُ بنتٍ اسمُها أورينوا تكبر ولم تكن كاينين واثقة إذا ما كان هذا سوء تغذية أم حملاً إلى أن صفعتها أمُّها وسألتها: "مَن؟ مَن فعل بك هذا؟ أين قابلتِ الرجلَ الذي فعل بك هذا؟" لم يعد الطبيب يأتي لأنه لم يعد هناك أي بنزين وكان ثمة جنود كثيرون يحتضرون فيعالجهم. والبئر جفت. كانت كاينين تذهب بين الحين والحين إلى المديرية لتحصل على صهريج مياه، لكنها كانت تعود كل مرة بوعد غامض من المدير. الرائحة الكثيفة البشعة للأجساد غير المغسولة واللحم البشري المتعفن من الأضرحة الضحلة وراء البنايات غدت أقوى. الذباب يحوِّم حول أجساد الأطفال المتقيحة. بقُّ الأسِرّة يزحف بشراسة؛ فكانت النساء يحللن عباءاتهن ليخففن من وطأة التقرحات الحمراء القبيحة ومن لسعاتها حول خصورهن، مثل الخلايا المنقوعة في الدماء. كان موسم البرتقال فطلبت إليهم

كاينين أن يأكلوا البرتقال من الشجر رغم أنه يسبب لهم الإسهال، ثم تعصر القشور على أجسادهن لأن رائحة الحامض كانت تغلف رائحة الوسخ.

في المساء، كانت أولانا وكاينين تعودان معًا إلى البيت. تتحدثان حول الناس في المعسكر، وعن أيام المدرسة في هيثجروف، وعن أبويهما، وعن أودينيبو.

"هل سألتِه ثانية عن تلك المرأة من أسابا؟" سألت كاينين.

"ليس بعد."

"قبل أن تسأليه، اذهبي إليه واصفعيه. وإذا تجاسر وصفعك بالمقابل، سوف آتي إليه بسكين المطبخ الخاصة بهاريسون. لكن الصفعة سوف تُخرج منه الحقيقة."

ضحكت أولانا ولاحظت أن كلتيهما كانتا تسيران بخُطى متمهلة وأن خطواتهما كانت متناغمة، وأن شبشبيهما كانا مغطيين بالغبار البُنيّ.

"اعتاد جدي أن يقول إنها تضيق جدًّا ثم تتحسن الأمور. *أو ديكاتا نجو، أو ديكوا مما*،" قالت كاينين.

"أتذكر."

"سوف يتبدل العالم قريبًا، وسوف تتوقف نيجيريا عن هذا،" قالت كاينين بهدوء. "سوف ننتصر."

"نعم." كانت أولانا تصدق ذلك أكثر بما أن كاينين قد قالت هذا.

كان ذلك في المساءات حينما كانت كاينين بعيدة، غارقة في نفسها. قالت مرة: "لم أكن ألحظ أبدًا أيكيدجي،" فتضع أولانا ذراعها حول كتف شقيقتها ولا تقول شيئًا. وفي معظم الأحيان تكون كاينين رغم ذلك في روح معنوية عالية فتجلسان بالخارج وتتحدثان وتسمعان الراديو وتنصتان إلى الخفافيش التي تخفق حول أشجار الجوز. وكان ريتشارد ينضم إليهما في بعض الأحيان. لكن أودينيبو لم يفعل أبدًا.

فيما بعد، في إحدى الأمسيات، كانت السماء تمطر، مطرًا عاصفًا وهادرًا. شلال غريب على موسم الجفاف، وربما لهذا لم يذهب أودينيبو إلى البار. كان هو المساء الذي فيه قبِلَ أخيرًا براندي ريتشارد. رفعه قريبًا من أنفه واستنشق عميقًا قبل أن يشرب، ما زال هو وريتشارد يتحدثان بأقل الكلمات. كان ذلك المساء الذي جاء فيه د. نوالا ليخبرهم أن أوكيوما قد قُتل. ومضَ البرقُ في السماء وقصف الرعدُ فقالت كاينين وهي تضحك: "يبدو مثل قصف القنابل."

"أنا قلقة لأنهم لم يقصفونا منذ زمن،" قالت أولانا. "أتساءل ماذا يخططون."

"ربما قنبلة نووية." قالت كاينين.

سمعوا سيارة تقترب فنهضت كاينين. "مَن الذي يأتي في هذا الطقس وفي الليل؟"

فتحت الباب فدخل د. نوالا، والماء يقطر من وجهه. تذكرت أولانا كيف بسط يده ليساعدها بعد الغارة الجوية يوم زفافها، وكيف قال إن فستانها سوف يتسخ- كأنما لم يكن قد اتّسخ

بالفعل بعد رقادها على الأرض. كان أكثر نحافة وهُزالاً عما تتذكره وبدا كأنما سينقسم نصفين إذا ما جلس بعنف. لم يجلس. لم يُضع الوقت في التحايا. كان قد خلع قميصه الواسع، ونفضه بقوة ليسقط منه الماء حينما قال: "رحل أوكيوما، *أو* جيبيجو. كانوا في مهمة لاستعادة أومياهيا حينما حدث ذلك. رأيته الشهر الماضي، وأخبرني أنه كان يكتب بعض القصائد وأن أولانا كانت ملهمته، وإذا حدث له أي شيء فلابد أن أتأكد أن القصائد سوف تصل إليها. لكنني لم أجد القصائد. الناس الذين حملوا الرسالة قالوا إنهم لم يروه يكتب أي شيء أبدًا. لذلك قلتُ لابد أن آتي وأخبركم أنه مات لكنني لم أجد القصائد."

كانت أولانا تومئ بعدم فهم تام لأن د. نوالا كان يقول كلمات عديدة بسرعة كبيرة. ثم توقف.

إنه يعني أن أوكيوما قد مات. كانت تمطر بعنف وأوكيوما قد مات.

"أوكيوما؟" تكلم أودينيبو في همس متكسر. "*أوني*؟ هل تتكلم عن أوكيوما؟"

مدت أولانا يدها واحتضنت ذراع أودينيبو وخرجت منها صرخة، صرخات زعر ولوعة، لأن شيءٌ ما داخل رأسها غدا مشدودًا ومتوترًا. شعرت أنها هوجمت، أنها تُلطَم بقسوة بالفقد والخسارة. لم تترك ذراع أودينيبو حتى توارى د. نوالا متعثرًا في المطر، وحتى ذهبا إلى مرتبتهما على الأرض. حينما انزلق داخلها، شعرت بمدى ما أصبح هو فوقها أكثر خفّة ونحافة. كان ساكنًا، لذلك كانت تتحرك هي بقوة وتجذب مؤخرته. لكنه لم يتحرك. ثم بدأ يدفع نفسه فتضاعفت متعتها، أصبحت أقلُّ بارقةٍ حيوية ضئيلة منه سعادةً كبرى بالنسبة لها. سمعت نفسها تبكي، وعلا نشيجُها أكثرَ وأكثر حتى استدارت بيبي فوضع يده على فمها. كان يبكي أيضًا؛ شعرت بدموعه تسقط على جسدها قبل أن تراها على وجهه.

فيما بعد، أسقط نفسَه متكئا على كوعه وراح ينظر إليها.

"أنت قوية جدًّا يا نكيم."

تلك الكلمات لم تكن قد سمعتها منه من قبل. بدا هَرِمًا؛ كان بعينيه ضعفٌ، وانهزامٌ في ملامح وجهه، جعلاه يبدو أكبر عمرًا. ودّت أن تسأله لماذا قال ذلك، وماذا يعني، لكنها لم تفعل، ولم تعرف من سقط في النوم أولاً. في الصباح التالي، نهضت مبكرة جدًّا، اشتمت رائحتها رائحة تنفسها الرديئة وشعرت بسلام حزين وغير مستقر.

في بادئ الأمر، ودَّ آجوو أن يموت. لم يكن ذلك بسبب الوخز الساخن في رأسه، ولا لزوجة الدماء في ظهره ولا الوجع في مؤخرته ولا الطريقة العسيرة التي يلتقط بها الهواء ليتنفس، بل بسبب ظمأه. كان حلقه متشقِّقًا. الرجال الذين كانوا يحملونه كانوا يتكلمون حول كيف أن إنقاذه أعطاهم سببًا للفرار، وكيف أن رصاصاتهم قد نفدت وأرسلوا لطلب الدعم لكن لا شيء جاء بينما الهمج يتقدمون. لكن ظمأ آجوو أصمَّ أذنيه ولخبط كلماتهم. كان فوق أكتافهم، مضمَّدًا بقمصانهم، والألم يصرخ في كافة أنحاء جسده فيما يسيرون. كان يتلقف الهواء، ولكنه لم يحصل أبدا على ما يكفيه من أكسجين. أصابه الظمأ بالغثيان.

"ماء، أرجوكم،" قال وهو يعوي. لكنهم لم يعطوه أيَّ ماء؛ لو كان يمتلك بعض الطاقة، لصبَّ عليهم كل ما يعرف من لعنات. لو كان معه بندقية لأطلق عليهم النار جميعهم ثم أطلق على نفسه.

الآن، في المستشفى حيث تركوه، لم يعد يرجو الموت، بل بات يخشاه، كانت هناك العديد من الجثث متناثرة حوله، على الحُصْر، والمراتب وعلى الأرض العارية. والكثير من الدماء في كل مكان. يسمع الصرخات الحادة من الرجال حينما يفحصهم الطبيب فيعلم أنه ليس الحالة الأسوأ، حتى وهو يشعر بان الدم ينزف منه غزيرًا، دافئًا في البدء ثم باردًا حول خصريه. أجهدته الدماء تمامًا، كان أكثر إرهاقًا من أن يفعل أي شيء وحينما أسرعت الممرضات وتجاوزنه تاركات الضمادات دون تغيير لم ينادهن. لم يقل شيئًا، حتى حينما أتين ودفعنه على جانبه وأعطينه حقنًا. في لحظات هياجه كان يرى إيبيرتشي لابسةً تنورتها الضيقة وتشير إليه بما لا يفهم. حاول أن يرسم بخياله صورة للسماء، والرب جالس على عرشه، لكنه لم يقدر. لكن الرؤى المتباينة، حول أن الموت لم يكن إلا صمتًا لا نهائيًّا، بدت غير متشابهة. ثمة جزء منه كان يحلم، ولم يكن يعرف ما إذا كان هذا الجزء سوف يتحول أبدًا إلى سكون لا متناه. الموتُ سوف يكون المعرفةَ التامة، لكن ما كان يخيفه هو ذلك: ألا يعرف سلفًا ما كان سوف يعرفه.

في المساءات، في الضوء نصف المعتم، كان الناس من كاريتساس يأتون، قسٌّ ومساعدان يحملان مصابيح الكيروسين، يقدمون الحليب والسكر إلى الجنود، يسألون عن أسمائهم ومن أين جاءوا.

"نسوكا،" قال آجوو حينما سُئل. خُيِّل لآجوو أن صوت القس مألوف على نحو غامض، لكن فيما بعد أصبح كل شيء هنا مألوفًا على نحو غامض: دماء الرجل المجاور له لها رائحة دمائه، الممرضة التي تضع صحنًا من الحساء الخفيف جواره تشبه إيبيرتشي.

"نسوكا؟ ما اسمك؟" سأل القس.
جاهد آجوو لكي يركز في الوجه المستدير، النظارات، العنق البني. كان هو الأب دامين. "أنا آجوو. اعتدت أن أحضر مع سيدتي أولانا إلى كنيسة سانت فينسينت دي بول."
"آه!" عصر الأب دامين يده ففزع آجوو. "إذًا حاربتَ من أجل قضيتنا؟ أين جُرحت. ماذا فعلوا بك؟"
هز آجوو رأسه. أحد جانبي مؤخرته كان به ألمٌ أحمرُ مشتعل، استهلكه الجرح. وضع الأب بعض مسحوق الحليب بالملعقة في فمه ثم وضع جواره كيس سكر وكيس حليب.
"أعلم أن أودينيبو مع القوى العاملة. سوف أرسل لهم خبرًا،" قال الأب دامين. وقبل أن يغادر، دس صليبًا خشبيًّا على معصم آجوو.
كان الصليب هناك، باردًا ضاغطًا على جلده، حينما جاء مستر ريتشارد بعد عدة أيام.
"آجوو، أجوو." من فوقه يسبح الشعر الناعم والعينان غريبتا اللون، ولم يكن آجوو متأكدا مَن يكون.
"هل تقدر أن تسمعني يا آجوو؟ جئتُ لآخذك." كان هو ذات الصوت الذي كان يسأل آجوو أسئلة حول مهرجانات قريته قبل سنوات. عرف آجوو إذًا مَن يكون. حاول مستر ريتشارد مساعدته لينهض فصرخ الألم من جانبه ومؤخرته وصعد إلى رأسه وعينيه. صرخ آجوو، وضغط أسنانه وعض شفتيه وامتص دماءه.
"اهدأ الآن، اهدأ الآن،" قال مستر ريتشارد.
الطريق الوعر وهو راقد في المقعد الخلفي للسيارة البيجو 404 والشمس الحارقة التي تسطع من النوافذ جعلت آجوو يتساءل ما إذا كان قد مات وأن هذا هو ما يحدث في الموت: رحلة لا نهاية لها في سيارة. وأخيرًا توقفا عند مستشفى لا تشعُّ منها رائحة الدم بل رائحة المطهرات. فقط بعدما رقد آجوو على سرير حقيقي فكر أنه ربما لن يموت.
"هذا المكان كان قد قُصف تمامًا الأسبوع الماضي، وسوف نغادر بعدما يراك الطبيب. هو في الواقع ليس طبيبًا - كان في العام الرابع من الكلية حينما بدأت الحرب - لكنه يؤدي العمل على نحو جيد جدًّا،" قال مستر ريتشارد. "أولانا وأودينيبو وبيبي معنا منذ سقطت أومياهيا، وبالطبع هاريسون هناك أيضًا. كاينين تحتاج المساعدة في معسكر اللاجئين، لذلك من المفيد أن تتعافى سريعًا."
شعر آجوو أن مستر ريتشارد يتحدث كثيرًا، من أجل إفاقته، ربما ليجعله يقظًا حتى يأتي الطبيب. لكنه كان ممتنًا لضحكة مستر ريتشارد، أسلوبها العادي، الطريقة التي تعود به للذاكرة فتجعله يستعيد الزمن الذي كتب فيه مستر ريتشارد إجاباته على الغلاف الجلديّ للكتاب.

"صُدمنا جميعًا حين سمعنا أنك حي في مستشفى إيميموكو - نوع طيب من الصدمات بالطبع. شكرًا للسماء أن لم يكن هناك مراسمُ دفن رمزي، رغم أنهم أقاموا لك نوعًا من طقس الوادع قبل سقوط أومياهيا."

ارتجفت جفنا آجوو. "قالوا إنني متُّ يا صاح؟"

"أوه، نعم قالوا. يبدو أن كتيبتك ظنت أنك مت أثناء العملية."

كانت عينا آجوو مغمضتين ولا تمكثان مفتوحتين حين يجبرهما على ذلك. وأخيرًا فتحهما وكان مستر ريتشارد ينظر إليه. "من تكون إيبيرتشي؟"

"صاح؟"

"ظللتَ تقول إيبيرتشي."

"إنها شخصٌ أعرفه يا صاح."

"في أومياهيا؟"

نعم يا صاح."

ترققت عينا مستر ريتشارد. "وأنت لا تعرف أين تكون الآن؟"

"لا يا صاح."

"هل تلبس هذه الثياب منذ جُرحت؟"

"نعم يا صاح. جنود المشاة أعطوني البنطال والقميص."

"تحتاج أن تتحمم."

ابتسم آجوو. "نعم يا صاح."

"هل كنت خائفًا." سأل مستر ريتشارد بعد برهة.

تزحزح؛ الألم كان في كل مكان ولم يكن ثمة وضع مريح. "خائف يا صاح؟"

"نعم."

"أحيانًا يا صاح،" توقف عن الكلام. "وجدت كتابًا في معسكرنا. كنتُ حزينا جدًّا وغاضبًا من الكاتب."

"ماذا كان الكتاب؟"

"السيرة الذاتية لأمريكي أسود اسمه فريدريش دوجلاس."

كتب مستر ريتشارد شيئًا. "سأستخدم هذه المعلومة في كتابي."

"تكتب كتابًا."

"نعم."

"عمَّ يدور يا صاح؟"

"عن الحرب، وما حدث قبلها، وماذا كان يجب ألا يحدث. سوف يكون عنوانه "العالم كان صامتًا حينما كنا نموت."

فيما بعد، تمتم آجوو العنوان لنفسه: "العالم كان صامتًا حينما كنا نموت." اقتنصه العنوان، ملأه بالعار. جعله يفكر في فتاة البار، وجهها اللاسع، والكراهية في عينيها وهي راقدة على ظهرها فوق الأرض القذرة.

لفَّ السيدُ وأولانا أذرعهم حول آجوو، لكن في رقّة، دون ضغط، حتى لا يسببا له ألمًا. كان يشعر بعدم ارتياح تام؛ لم يعانقاه أبدًا من قبل.
"آجوو،" قال السيد وهو يهز رأسه. "آجوو."
تعلقت بيبي بيده ورفضت أن تتركها فتجمعت كل حياة آجوو فجأة كتلة في حلقه، فكان ينشج فتؤلم الدموع عينيه. كان غاضبًا من نفسه لبكائه، وفيما بعد، وهو يحكي ما حدث له، كان يتكلم في صوت متقطع. كذب بشأن كيف تم تجنيده؛ قال إن القس آمبروز قد توسل إليه لكي يساعده في حمل شقيقته المريضة إلى خبير الأعشاب وكان في طريق عودته للبيت حينما امسكه الجنود. استخدم كلمات من نوع: *نار العدو*، هجوم *القيادة العليا في الجيش*، ببرود عَرَضي كأنما ليعوض بكاءه.
"أخبرونا أنكَ لقيتَ حتفك،" قالت أولانا، وهي ترقبه. "ربما أوكيوما حيٌّ أيضًا."
حدق فيها آجوو.
"قالوا إنه قُتل في عملية،" قالت أولانا. "وتلقيتُ خبرًا أن سوء التغذية قد أودى أخيرا بأدانّا. بيبي لا تعرف ذلك بالطبع."
نظر آجوو بعيدًا. أخبارها أغضبته. شعر بالغضب منها لأنها قالت ما لم يود أن يسمعه.
"كثير من الناس يموتون." قال.
"هذا ما يحدث في الحرب، كثير من الناس يموتون،" قالت أولانا. "لكننا سوف ننتصر في هذا الشيء. هل وسادتُك في وضع جيد؟"
"نعم يا ماه."
لم يكن قادرًا على الجلوس على جزء من مؤخرته، ولذلك في أثناء الأسابيع القليلة الأولى في أورلو، كان يرقد على جانبه. وكانت أولانا جواره دائما، ترغمه على الأكل وتحثه على الحياة. وعقله كان دائمًا في تساؤل. لم يكن بحاجة إلى صدى الألم في جانبه وفي مؤخرته وفي ظهره ليتذكر انفجار أوبيونيجو الخاصة به، أو ضحكة هاي-تيك، ولا كراهية الموت في عيني الفتاة. لم يكن قادرًا على تذكر ملامحها، لكن نظرة عينيها ظلّت باقية داخله، مثلما الجفاف المتوتر بين ساقيها، والطريقة التي فعل بها ما لم يرغب في فعله. في تلك المساحة الرمادية بين الحلم وحلم اليقظة، حينما كان يتحكم في معظم ما يتخيله، كان يرى البار، ويشم الخمر، ويسمع الجنود يقولون: "مُدمِّر الهدف،" لكنها لم تكن تلك الفتاة الراقدة على ظهرها على الأرض، بل كانت إيبيرتشي. يستيقظ كارها الصورة وكارها نفسه. عليه أن يعطي نفسه

الوقت ليعوض ما فعله. ثم يذهب ويبحث عن إيبيرتشي. ربما هي وأسرتها قد ذهبوا إلى بلدتهم في مباسي وربما يكونون هنا في أورلو في مكان ما. كان عليها أن تنتظره، لأن انتظاره كان دليلاً على خلاصه من الخطيئة، وسوف يعطيه هذا الراحة وهو يتعافى. كان مدهشًا له أن جسده كان قادرًا على العودة لما كان عليه فيما قبل وأن عقله استعاد وظائفه بصفاء.

أثناء النهار كان يساعد في معسكر اللاجئين، وفي المساء يكتب. يجلس تحت الشجرة ويكتب في حروف دقيقة صغيرة على جانب صحيفة قديمة، في صفحة ما دونت كاينين حسابات التموين، على ظهر رزنامة قديمة. كتب قصيدة حول رجال أصيبوا برصاصات طائشة في مؤخراتهم بعد التغوط في دلاء مستوردة، لكنها لم تبد غنائية مثل قصيدة أوكيوما فمزقها؛ ثم كتب عن امرأة شابة لها مؤخرة متقنة كانت تقرص عنق شاب ثم مزقها أيضًا. وأخيرًا، شرع في الكتابة حول موت الخالة آريزي على يد مجهول في كانو وعن فقد أولانا استخدام ساقيها، وعن الزي العسكري الأنيق الخاص بأوكيوما وعن اليد المضمدة لبروفيسور إكوينيوجو. كتب عن الأطفال في معسكر اللاجئين، كيف يجتهدون في صيد السحالي، كيف أن أربعة منهم قد صادوا سحلية سريعة فوق شجرة مانجو فتسلق أحدهم الشجرة خلفها فقفزت السحلية من الشجرة وسقطت في يد مبسوطة لأحد الأطفال الآخرين المتحلقين حول الشجرة.

"صارت السحالي أكثر نحافة. تركض الآن أسرع وتتخفى تحت كتل الأسمنت،" أخبر الولدُ الذي تسلق الشجرة آجوو. قاموا بشواء السحلية وتشاركوا فيها، بعدما طردوا الأطفال الآخرين بعيدًا. فيما بعد، عرض الولد على آجوو قطعة ضئيلة من نصيبه من اللحم المتليف. شكره آجوو وهز رأسه واكتشف أنه لن يقدر أبدًا على القبض على الولد في أوراقه، لن يقدر أبدًا أن يصف جيدًا الخوفَ الذي يغيّم عيون الأمهات في معسكر اللاجئين حينما تزخر السماء بالطائرات القاصفة. لن يقدر أبدًا أن يرسم الوحشية الموغلة التي تقصف بشرًا جوعى. لكنه حاول، وكلما كتب أكثر قلَّت أحلامه.

كانت أولانا تعلِّم بعض الأطفال أن يتلوا جدول الضرب في الصباح الذي أسرعت فيه كاينين نحو الشجرة.

"هل تصدقين من هو المسؤول عن حمل تلك الفتاة الصغيرة يورنوا؟" سألت كاينين، وتقريبًا لم يتعرف آجوو عليها. كانت عيناها تجحظان من وجهها النحيل، مليئة بالغضب والدموع. "هل تصدقين إنه الأب مارسيل؟"

انتفضت أولانا واقفةً. "جيني؟ ماذا تقولين؟"

من الواضح أنني كنت عمياء؛ فهي ليست الوحيدة،" قالت كاينين. "لقد كان يضاجع معظمهن قبل أن يعطيهن روبيان البحر الذي أتذلل لأجلبه إلى هنا!"

فيما بعد، شاهد آجوو كاينين تندفع نحو صدر الأب مارسيل بكلتا يديها، تصرخ في وجهه، تلكمه بعنف حتى خشي آجوو أن يسقط الرجل. "*أموسو*! أيها الشيطان!" ثم استدارت للأب جودي. "كيف يمكنك أن تبقى هنا وتتركه يفتح سيقان بنات يتضورن جوعًا؟ كيف ستبرر هذا لربك؟ أنتما الاثنان ارحلا فورًا من هنا، حالاً. سوف أنقل هذا لأوجوكو بنفسي لو اضطررت لذلك!"

كانت الدموع تجري على وجهها. ثمة شيء ساحر في غضبها. شعر آجوو أنه ملوث وغير مستحق وهو يمارس مهامه الجديدة بعد رحيل القسيسين- يوزع *الجاري*، يوقف المعارك، يشرف على الحقول البور المشققة. وتساءل ماذا عساها كاينين تقول، ماذا ستفعل معه، وتشعر نحوه، لو أنها عرفت أمر فتاة البار. سوف تشمئز منه. وكذلك أولانا. وكذلك إيبيرتشي.

كان ينصت إلى الأحاديث في الأمسيات، ويكتب في عقله ما سوف ينقله إلى الورق. كانتا كاينين وأولانا المتكلمتين معظم الوقت، كأنما قد خلقتا عالمَهما الخاص الذي لا يمكن أبدًا لريتشارد أو السيد أن يدخلاه. كان هاريسون يأتي أحيانًا ويجلس مع آجوو لكن يتكلم أقل القليل، كأنما كان حائرًا منه ومحترمًا له في الوقت ذاته. آجوو لم يعد مجرد آجوو، بل صار الآن أحد "أولادنا"؛ بما أنه قاتَل من أجل قضيتنا. كان القمر دائما أبيض متألقًا، وبين الحين والحين كانت الرياح تنقل نعيبَ البوم وعلوَّ وانخفاض الأصوات الآتية من معسكر اللاجئين. كانت بيبي تنام على حصيرة مغطاة بروب أولانا لتبعد عنها البعوض. وحينما يسمعون الأزير البعيد لطائرات الإغاثة، الذي لا يشبه الحفيف المنخفض الخاطف للقاذفات، كانت كاينين تقول: "أتمنى أن تنجح هذه في الهبوط." فتجيبها أولانا بضحكة خفيفة. "علينا أن نطهو حساءنا القادم بالفسيخ."

حينما ينصتون إلى راديو بيافرا، كان آجوو ينهض ويبتعد. التقارير المسرحية البائسة عن الحرب، الصوت الذي يزج بنتفة من الأمل المصطنع في حلوق الناس، لم تكن تثير اهتمامه. فيما بعد ظهيرة أحد الأيام، جاء هاريسون إلى الشجرة حاملاً الراديو المدار عاليًا على إذاعة بيافرا.

"أرجوك أغلقْ هذا الشيء،" قال آجوو. كان يراقب بعض الأولاد الصغار يلعبون في الجوار على رقعة من العشب. "أريد سماع الطيور."

"لا توجد طيور تشدو،" قال هاريسون.

"أغلقْه."

"سوف يلقي فخامته خطابًا."

"أغلقْه أو احملْه بعيدًا."

"لا تريد سماع فخامته؟"

"*مبا*، لا."

كان هاريسون يتأمله. "سوف يكون خطابًا عظيمًا."

"لا شيء عظيمًا،" قال آجوو.

مشى هاريسون بعيدًا وهو مجروح ولم يعبأ آجوو بأن يناديه، استأنف مراقبة الأطفال. كانوا يركضون بكسل على العشب الناشف، يحملون العصي كأنها بنادق، يصنعون صوت الرصاص بأفواههم، يثيرون سُحُبًا من الغبار وهم يطاردون بعضهم بعضًا. حتى الغبار بدا كسولا. كانوا يلعبون لعبة الحرب. أربعة أولاد. بالأمس، كانوا خمسة. لم يتذكر آجوو اسم الطفل الخامس- هل كان تشيديبيلي أم تشيديبيوب؟- لكنه يتذكر كيف بدت بطنُ الطفل مؤخرًا متورمةً كأنما ابتلع كرةَ قدم، وكيف أن شعره سقط في خصلات، وكيف شحبت بشرته من لون الماهوجني إلى اللون الأصفر الباهت. كان الأطفال الآخرون يغايظونه دائمًا. *آفو مميلي أكوا*، كانوا ينادونه: ذو البطن البطيخة. مرة، ود آجوو أن يطلب منهم أن يتوقفوا عن ذلك، ثم يقص عليهم ما هو سوء التغذية- ربما يقرأ عليهم كيف وصف مرض سوء التغذية في أوراق كتابته. لكنه عدل عن الفكرة. ليس من ضرورة لإعدادهم لشيء هو واثق أنه سيمر بهم جميعًا. لم يكن آجوو يتذكر لعب الطفل كضابط بيافري أبدًا، مثل فخامته أو أتشوزي؛ كان دائمًا ما يلعب كنيجيري، مثل جوون أو آديكونل، بما يعني أنه دائمًا منهزمٌ وعليه أن يسقط في النهاية ويمثل دور الميت. في بعض الأحيان، كان آجوو يتساءل إذا ما أحب الطفلُ ذلك لأن هذا الدور يعطيه الفرصة للراحة، والرقاد على العشب.

كان الطفل وأسرته قد جاءوا من أوجوتا، إحدى تلك العائلات التي آمنت أن بلدتهم الأم لن تسقط، لذلك بدت أمُّه متحديةً حينما وصلوا أول الأمر، كأنما تتحدى أي شخص ينبؤها أنها لم تكن تحلم وأنها لن تصحو سريعًا جدًّا. في ليلة وصولهم شق الهواءَ صوتُ البنادق المضادة للطائرات عبر معسكر اللاجئين قبل الغسق مباشرة. ركضت المرأة وحضنته، طفلها الوحيد، حضنًا مرتبكًا. هزتها بقية النساء بخشونة، بينما زئير القصف فوق الرءوس والطائرات تقترب. *تعالي إلى المخبأ! هل أنت مجنونة؟ تعالي إلى المخبأ.*

رفضت المرأةُ ووقفت هنالك تحضن ابنها، وترتجف. ما زال آجوو لا يعرف لماذا فعل ما فعل. ربما لأن أولانا بالفعل كانت قد أمسكت بيبي وجرت للأمام فكانت يداه خاويتين. لكنه تقدم وجذب الطفل من أمه وحضنه ثم جرى. كان الطفل ما يزال ثقيلاً وقتها، كان به بعض الوزن ما يزال؛ ولم يكن أمام المرأة خيارٌ إلى أن تتبعه. كانت الطائرات تقصف بعنف، مباشرة أمام آجوو وهو يشق طريقه ليدفع الطفل داخل المخبأ، وطارت رصاصةٌ قريبًا منه؛ كان يشمُّ أكثرَ مما يرى، الرائحةَ اللاذعة للحديد المُذاب.

كان ذلك في المخبأ، بينما يلعب بالتربة الرطبة التي تزحف عليها اليعاسيب والنمل، حين أخبر الطفلُ آجوو اسمه. تشيديبيلي أو تشيديبيوب، ليس واثقًا. لكنه كان تشي- شيء ما. ربما تشيديبيلي، فهو اسم مألوف أكثر. يبدو الاسم مثل نكتة الآن. تشيديبيلي: *الربُّ رحيمٌ*.

فيما بعد، توقف الأولاد الأربعة عن لعبة الحرب وكانوا قد دخلوا حينما سمع آجوو العويلَ الحاد الحارق من داخل الفصل في نهاية البناية. كان يعلم أن خالة الطفل سرعان ما ستخرج وبجسارة سوف تخبر الناس المحيطين، وأن المرأة سوف تقذف بنفسها في التراب وتتدحرج وتصرخ حتى تفقد صوتها، وبعد ذلك سوف تترك رأسها حليقًا عاريًا من الشعر يقطر منه الدم.

لبس قميصه التحتاني وخرج ليساعد في حفر قبر صغير.

كان ريتشارد يجلس جوار كاينين يدلك كتفها وهي تضحك على شيء قالته أولانا. يحب الطريقة التي يبدو عليها عنقها أطول حينما تلقي برأسها إلى الوراء وهي تضحك. كان يحب الأمسيات تلك التي يقضيها معها ومع أولانا وأودينيبو؛ تذكّره تلك الأمسيات بغرفة المعيشة المضاءة بخفوت لدى أودينيبو في نسوكا، بلسعة طعم البيرة على لسانه. مدت كاينين يدها لصحن الخزف المليء بالجراد المشوي، تخصُّص هاريسون الجديد؛ كان يعرف أين يحفر تمامًا ليجدها في التربة الجافة وكيف يكسرها أجزاء بعد الشي، حتى تبقى مدة أطول. وضعت كاينين قطعة في فمها. أخذ ريتشارد قطعتين ومضغهما ببطء. بدأ الليل يزحفُ، وشجر الجوز بدا رماديًّا ساكنًا مظللاً. والغبار معلّقٌ في غيوم فوق رءوسهم.

"ماذا تظن وراء نجاح بعثة الرجال البيض في أفريقيا يا ريتشارد؟" سأل أودينيبو.

"النجاح؟" أخمد أودينيبو عزيمته، الطريقة التي يصمت فيها وقتًا طويلاً ثم يفاجئك بسؤال غير متوقع.

"نعم، النجاح. أنا أفكر بالإنجليزية،" قال أودينيبو.

"ربما أولاً يجب أن تحسب حساب فشل الرجال السود في ردع بعثة الرجال البيض،" قالت كاينين.

"مَن الذي أتى بالعنصرية في العالم؟" سأل أودينيبو.

"البيض أتوا بالعنصرية للعالم. استخدموها كقاعدة للفتوحات. من الأسهل دائمًا أن تغزو بشرًا إنسانيين أكثر."

"ولذلك حينما نغزو النيجر سوف نكون أقل إنسانية." سألت كاينين.

لم يجب أودينيبو. خشخش شيء ما جوار أشجار الجوز، فوثب هاريسون عاليا ليرى إذا ما كان فأر غيط يمكن قنصه.

"أعطاني إناتيمي بعض العُملات النيجيرية،" قالت كاينين أخيرًا. "تعرف أن رجال منظمة المقاتلين لأجل حرية البيافريين لديهم الكثير من النقود النيجيرية. أود الذهاب إلى نينث مايل لأرى ماذا بوسعي أن أشتري، وإذا سار الحال جيدًا سوف أبيع بعض الأشياء التي يصنعها الناس في المعسكر."

"هذه تجارة مع العدو،" قال أودينيبو.

"أنها تجارة مع نساء نيجيريا الجاهلات اللواتي لديهن ما نحتاج إليه."

"هذا خطرٌ يا كاينين،" قال أودينيبو؛ وأدهشت ريتشارد الرقةُ التي في صوته.

"هذا القطاع حرٌّ،" قالت أولانا. "رجالنا يتاجرون هناك بحرية."

"وهل ستذهبين أنت أيضًا؟" ملأت الدهشةُ صوتَ أودينيبو وهو يحدق في أولانا.

"لا. ليس غدًا على الأقل. ربما المرة القادمة التي تذهب فيها كاينين."
"غدًا؟" كان دور ريتشارد ليندهش. كانت كاينين قد ذكرت ذلك توًّا، راغبة في التجارة عبر خطوط العدو، لكنه لم يكن يعرف متى قررت الذهاب.
"نعم، غدًا ستذهب كاينين،" قالت أولانا.
"نعم،" قالت كاينين. "لكن لا تعبأي يا أولانا، هي لن تذهب معي أبدًا. فهي دائما مرتعبة بفزع من المشاريع الحرة الأمينة." ضحكت كاينين فضحكت أولانا وضربت ذراعها؛ شاهد ريتشارد التشابه في انحناءات شفاههما، وفي شكل أسنانهما الأمامية الكبيرة بعض الشيء.
"أليس طريق نينث مايل يتراوح بين الاحتلال والجلاء." سأل أودينيبو. "أظن أنكِ يجب ألا تذهبي."
"حُسِم الأمر. سوف أغادر في الصباح الباكر مع إناتيمي، ونعود في المساء،" قالت كاينين، بنبرتها الناهية الحاسمة التي يعرفها ريتشارد جيدًا. لم يكن معارضًا الرحلة، رغم ذلك؛ فهو يعرف ناسًا كثيرين فعلوا ما تود أن تفعله هي.
تلك الليلة، حَلُمَ بأنه عاد بسلّة مملوءة بالدجاج المسلوق مع الأعشاب، وأرز بتوابل *الجولوف*، والحساء الكثيف بالسمك، وشعر بالتوتر حينما اهتز وارتج بأصوات عالية خارج نافذتهم. كان مترددًا أن يترك الحلم. كاينين كانت قد استيقظت أيضًا وأسرعا إلى الخارج معًا، كاينين بروب مزموم حول صدرها وهو في الشورت. كان الوقت في مطلع الفجر. وحشد صغير من معسكر اللاجئين يضربون ويركلون شابًّا متكومًا على الأرض، يداه موضوعتان على رأسه ليحميه من بعض اللكمات. كان بنطاله ممتلئا بالثقوب وياقته تقريبًا ممزقة على أن نصف الشمس الصفراء كانت ما تزال تتدلى على كمِّه الممزق.
"ما هذا؟" سألت كاينين. "ما هذا؟"
قبل أن يتكلم أي إنسان، عرف ريتشارد. كان الجندي يسرق من الحقل. يحدث هذا في كل مكان الآن، يُغار على الحقول في الليل، تُسرق الذُّرةُ الطرية التي بعد لم تكوّن حبوبها والبطاطا الصغيرة جدًّا التي لا يتعدى حجمها ثمرة البطاطس الصغيرة.
"هل ترون لماذا لا يثمر كل ما نزرع." قالت امرأة كان طفلها مات قبل أسبوع. عباءتها مربوطة من أسفل، فيبين منها ثديان متدليان. "الناس مثل هؤلاء اللصوص يأتون ليحصدوا على شيء حتى نموت جوعًا."
"توقفوا!" قالت كاينين. "توقفوا حالاً! اتركوه لحاله!"
"تقولين أن نترك اللص. لو تركناه اليوم، سيأتي غدًا عشرة."
"هو ليس لصًّا،" قالت كاينين. "هل تسمعونني؟ ليس لصًّا. ما هو إلا جندي جائع."
توقف الحشد لسُلطة صوتها الهادئة. وببطء، تفرقوا بعيدًا، عائدين إلى فصولهم. نهضَ الجندي ونفض عن نفسه الغبار.

"هل جئتَ من الجبهة؟" سألت كاينين.
أومأ موافقًا. بدا في الثامنة عشرة من عمره. كان ثمة لكمتان غاضبتان على جانبي جبهته وخيطان من الدماء ينزفان من فتحتي أنفه.
"هل أنت هارب؟ *آي نا -أبا اوزو*؟ هل تخليتَ عن الخدمة؟" سألت كاينين
لم يجب.
"تعال. تعال وخذ بعض الجاري قبل أن تمضي،" قالت كاينين.
تسللت الدموع من عينيه المتورمتين فوضع راحته على وجهه وهو يتبعها. لم يتكلم بل همهمَ "*دالوا*- شكرًا لكِ" قبل أن يمضي، وهو يقبض على كيس الجاري الصغير. كانت كاينين صامتة وهي ترتدي ثيابها لتذهب لملاقاة إناتيمي في المعسكر.
"سوف تغادر مبكرًا، أليس كذلك يا ريتشارد؟" سألت. "أولئك الرجال البارزون ربما سيكونون اليوم في المكتب لثلاثين دقيقة فقط."
"سأغادر في غضون ساعة." كان ذاهبًا إلى أهيرارا في محاولة للحصول على بعض التموين من مركز الإغاثة.
"قلْ لهم إنني أموت وأننا نحتاج بقوة حليبًا ولحمًا وذُرة لكي نقيم أودنا،" قالت. ثمة مرارة في نبرة صوتها.
"سأفعل،" قال. "وكوني بخير. *آيجي أوما*. عودي بالكثير من الجاري والملح."
قبّلها، ضغطةٌ موجزة على شفتيهما قبل أن تغادر. كان يعلم أم مرأى هذا المشهد للجندي الشاب قد أحبطها، وكان يعرف، أيضًا، أنها ترى أن الجندي الصغير لم يكن السبب في أن المحصول مُخرَّب. هو خَرِبٌ لأن الأرض بورٌ والرياح عاتيةٌ ولا يوجد سماد ولا شيء ليُزرع، وحينما كانت تنجح في الحصول على بعض بذور البطاطا، كان الناس يأكلون نصفها قبل زراعتها. يتمنى لو يمد يدَه ويعتصر السماءَ لكي يمنح النصر لبيافرا الآن فورًا. من أجلها.
لم تكن قد عادت حينما رجع في المساء من أهيارا. تفوح من قاعة المعيشة رائحة زيت النخيل المحمص آتيةً من المطبخ وكانت بيبي راقدة على حصيرة، تنظر في صفحات "إيز تذهب إلى المدرسة".
"احملْني على كتفيك أنكل ريتشارد،" قالت بيبي وهي تركض نحوه. تظاهر ريتشارد أنه يحاول أن يلتقطها وجذبها لأعلى ثم انهار فوق المقعد.
"أنتِ بنتٌ كبيرة الآن يا بيبي. أثقلُ وزنًا من أن تُحملي."
"لا!"

كانت أولانا واقفة جوار المطبخ تراقبهما. "تعرف، بيبي قد كَبُرت عقلاً لكنها لم تكبر طولاً منذ بدأت الحرب."

ابتسم ريتشارد. "الحكمةُ أفضل من الطول،" قال، فابتسمت. اكتشف كم يتحدثان قليلاً مع بعضهما البعض، وكم يتحاشيان أن يتواجدا معًا على انفراد.

"لم يحالفك الحظ في أهيارا؟" سألت أولانا.

"لا. حاولتُ في كل مكان. مراكز الإغاثة فارغة. رأيت رجلاً ناضجًا يجلس على الأرض أمام إحدى البنايات ويمص إبهامه،" قال.

"وماذا عن الناس الذين تعرفهم في المديريات؟"

"قالوا إن لا شيء لديهم وأن ليس أمامنا الآن إلا الاكتفاء الذاتي والزراعة."

"زراعة أي شيء؟ وكيف لنا أن نُطعم ملايين الناس يعيشون في المقاطعة الضئيلة التي نمتلكها الآن؟"

نظر إليها ريتشارد. حتى الانتقاد الطفيف لبيافرا الآن صارت تزعجه. كان القلق يكمن في تلافيف دماغه منذ سقطت أومياهيا، لكنه لا ينطق به.

"هل كاينين في المعسكر؟" سأل.

مسحت أولانا جبهتها. "أظن ذلك. هي وإناتيمي لابد يعودان الآن."

خرج ريتشارد ليلعب مع بيبي. وضعها على كتفيه حتى تقدر أن تمسك ورقة شجر الجوز فوقهما ثم أنزلها، وهو يفكر كيف غدت ضئيلة وخفيفة بالنسبة لطفلة في السادسة. رسم بعض الخطوط على الأرض وطلب إليها أن تلتقط بعض الحصوات وحاول أن يعلمها كيف تلعب نتشوكولو. شاهدها وهي تجلس وترتب القطع المعدنية من علبتها الصفيح: مجموعتها من شظايا المدافع. لم تكن كاينين قد عادت بعد ساعة. أخذ ريتشارد بيبي إلى المعسكر في نهاية الطريق. لم تكن كاينين جالسة على الدرجات الأمامية في نقطة اللارجوع، كما تفعل أحيانًا. ولم تكن في غرفة المرضى. ولم تكن في أيٍّ من الفصول. شاهد ريتشارد آجوو جالسًا تحت الشجرة، يكتب على قطعة من الورق.

"لم تعد العمة كاينين،" قال آجوو قبل أن يسأله ريتشارد.

"هل أنت متأكد أنها لم ترجع ثم ذهبت بعد ذلك إلى مكان آخر؟"

"متأكد يا صاح. لكنني أتوقع أن تعود حالاً."

كان ريتشارد مسرورًا بالدقة الفصحى التي نطق بها آجوو كلمة "أتوقع"؛ كان معجبًا بطموح آجوو وكتابته الحديثة على أي ورقة يقدر أن يجدها. حاول مرة أن يعرف أين يضع آجوو تلك الكتابات حتى يلقي نظرة، لكنه لم يجد أيًّا منها. كانت بالتأكيد مخبأة في بنطاله الخاص.

"ماذا تكتب الآن؟" سأله.

"شيء صغير يا صاح،" قال آجوو.

"سوف أبقى مع آجوو،" قالت بيبي.
"أوكي يا بيبي." كان ريتشارد يعلم أنها سوف تسرع إلى الفصول لتجد بعض الأطفال ثم تشرع في اصطياد السحالي والجراد. أو ربما ستبحث عن رجل الميليشيا ذي المظهر الفريد مع خنجره حول خصره وتسأله إن كان بوسعها أن تمسكه. مشى عائدًا إلى البيت. كان أودينيبو للتو قد عاد من العمل، وفي شمس الأصيل الساطعة، بدا قميصه ممزقًا من الأمام حتى أن ريتشارد كان بوسعه أن يرى شعر صدره المجعد.
"هل عادت كاينين؟" سأل أودينيبو.
"ليس بعد."
أعطاه أودينيبو نظرة اتهام طويلة قبل أن يدخل ليغير ملابسه. خرج بعباءة فضفاضة حول جسده مربوطة خلف عنقه وجلس مع ريتشارد في غرفة المعيشة. في الراديو، أعلن فخامته أنه سيسافر للخارج طلبًا للسلم.

تمشيًا مع تأكيداتي المستمرة بأنني سأذهب شخصيًا إلى أي مكان طلبًا للسلام لتأمين شعبي، أنا الآن مسافرٌ خارج بيافرا لاستكشاف...

كانت الشمس تميل حينما عاد آجوو وبيبي إلى البيت.
"الطفلة الصغيرة ننيكا ماتت وأمها رفضت أن تتركهم يأخذون الجثة لدفنها،" قال آجوو، بعدما حياهم.
"هل كاينين هناك؟" سأل ريتشارد.
"لا،" قال آجوو.
نهض أودينيبو وريتشارد ونزلا إلى معسكر اللاجئين معًا. لم يقل أحدهما شيئًا للآخر. من أحد الفصول كانت امرأة تئن. سألوا أسئلة والجميع أجاب الإجابة نفسها: غادرت كاينين مع إناتيمي في الصباح الباكر. أخبرتهم أنها ذاهبة إلى آفيا أتاك للتجارة عبر خطوط العدو، وأنها سوف تعود في المساء.

مر يوم، ثم اليوم التالي. كل شيء بقي كما هو، الجفاف في الهواء، الرياح الترابية، اللاجئون يفلحون التربة الناشفة، لكن كاينين لم تعد. شعر ريتشارد بنفسه يتخبط في نفق، شعر بالوقت يُمتص منه ساعةً بعد ساعة. أخبره أودينيبو أن كاينين محتمل أن تكون محتجزة في الجانب الآخر، تنتظر أن يتحرك الهمج حتى تعود. وقالت أولانا إن هذا التأخير حدث في نفس الوقت لامرأة تمارس التجارة. لكن كان هناك، في عيني أولانا، خوف من القادم. حتى أودينيبو بدا خائفًا حينما قال إنه لن يذهب معهم للبحث عن كاينين لأنه يعرف إنها ستعود إلى البيت؛ بدا

كأنما كان خائفا مما يمكن أن يكتشفوا. جلست أولانا جوار ريتشارد وهو يقود السيارة إلى نينث مايل. كانا صامتين، لكن حينما توقف ليسأل الناس على جانب الطريق ما إذا كانوا قد رأوا أي أحد يشبه كاينين، كانت تقول: "*أو تولو أوجو، دي إيزيبو أوجي*"، كأنما بإعادتها ما قاله ريتشارد للتو، أن كاينين طويلة وسمراء جدًّا، سوف تحث ذاكرة الناس على نحو أفضل. أراهم ريتشارد صورة كاينين. وأحيانًا في تعجُّله كان يسحب صورة الإناء ذي الحبال بدلاً من صورتها. لم يرها أحد. لم ير أحدٌ سيارةً مثل سيارة إناتيمي. سألا حتى الجنود البيافريين، الذين أخبروهما أنهما لا يقدران أن يبتعدا أكثر من ذلك لأن الطرق مُحتلَّة. كان الجنود يهزون رءوسهم ويقولون إنهم لم يروها. في رحلة العودة، شرع ريتشارد في البكاء.

"لماذا تبكي؟" زعقت فيه أولانا. "كاينين فقط محبوسة في الجانب الآخر لأيام قليلة."

أعمتِ الدموعُ عينيه. انحرفت السيارة وزأرت وهي تندفع في الغابة.

"توقفْ! توقفْ!" قالت أولانا.

توقفَ فأخذت منه المفتاح ودارت وفتحت الباب. وهي تقود في طريق العودة كانت تهمهم بانتظام في سرّها.

أجرت أولانا المشطَ الخشبيَّ في شعر بيبي بمنتهى الرقة الممكنة، وكانت ثمة خصلة ضخمة عالقة بأسنان المشط. وكان آجوو جالسا على المصطبة يكتب. مرَّ أسبوعٌ وكاينين لم تعد. كانت الرياح أهدأ اليوم، لم تجعل شجر الجوز يتأرجح، لكنها نثرت الرمال في كل مكان وكان الجو مليئًا بالحصى وبالشائعات أن فخامته لم يكن قد ذهب بحثًا عن السلام لكنه هرب. كانت أولانا تعلم أن هذا غير ممكن. تؤمن، بنفس الحسم والهدوء اللذين تؤمن بهما أن كاينين سوف تعود سريعًا، أن رحلة فخامته سوف تكون نجاحًا. وأنه سوف يعود بوثيقة موقَّعة تعلن أن الحرب قد انتهت، وهذا سوف يعلن بيافرا الحرة. سوف يعود بالعدالة وبالملح.

مشطت شعر بيبي، وأيضًا سقط بعضُه. حملت أولانا الخصلة النحيلة في يدها، البنية الصفراء الملونة بالشمس التي لا تشبه شعر بيبي الطبيعي فاحم السواد. كانت كاينين قد أخبرتها قبل أسابيع أن هذه إشارة للحكمة القصوى، شعر بيبي بدأ في السقوط وهي بعدُ في السادسة من عمرها، وفيما بعد ذهبت كاينين للبحث عن أقراص بروتين من أجل بيبي.

نظر آجوو إلى أعلى عبر ما يكتب. "ربما عليك ألا تضفري شعرها يا ماه."

"نعم. ربما لهذا السبب يسقط، الضفائر الكثيرة جدًّا."

"شعري لا يسقط!" قالت بيبي، وربتت على شعرها.

وضعت أولانا المشط. "ظللت أفكر في شعر رأس الطفلة التي رأيتها في القطار؛ كان كثيفًا جدًّا. لابد كان عملاً شاقًا على أمها لكي تضفره."

"كيف كان مضفورًا؟" سأل آجوو.

أدهش السؤالُ أولانا أول الأمر، ثم اكتشفت أنها تتذكر بجلاء الآن كيف كان مضفورًا فبدأت تصفُ تسريحةَ الشعر، وكيف أن بعض الضفائر كانت ساقطةً على الجبهة. ثم وصفت الرأس نفسه، العينين المفتوحتين، البشرة الرمادية. كان آجوو يكتب وهي تتكلم، كتابتُه، وجديةُ اهتمامه، فجأة جعلتْ حكايتَها مهمةً، جعلتها كأنما تخدم هدفًا أكبر، ولذلك أخبرته بكل ما تذكر عن القطار المليء بالناس الذين بكوا وصرخوا وبالوا على أنفسهم.

كانت ما تزال تتحدث حينما عاد أودينيبو وريتشارد. كانا يتمشيان؛ بعدما غادرا في البيجو مبكرًا في النهار ليبحثا عن كاينين في مستشفيات أهيارا.

وثبت أولانا. "هل؟"

"لا،" قال ريتشارد ودخل.

"أين السيارة؟ هل أخذها الجنود؟"

"نفد الوقود في الطريق. سوف أجد وقودًا وأعود لآخذها،" قال أودينيبو. عانقها. "رأينا مادو. قال إنه واثق من إنها على الجانب الآخر. لابد أن الهمج أغلقوا الطريق الذي ذهبت عبره وهي ما تزال تنتظر أن ينفتح طريق آخر. هذا يحدث طوال الوقت."

"نعم بالطبع." التقطت أولانا المشط وراحت تفكك شعرها المتلبد. كان أودينيبو يذكرها أنها يجب أن تكون ممتنة لأنهما لم يجدا كاينين في المستشفى. هذا يعني أنها بخير، هي فقط على جانب نيجيريا. وهي لم تكن تود أن يذكِّرها بذلك. بعد أيام، وحينما أصرَّت أن تبحث بنفسها في المشرحة، أخبرها بنفس الأمر، أن كاينين لابد بخير على الجانب الآخر.

"سوف أذهب،" قالت. كان مادو قد أرسل لهم بعض الجاري والسكر والقليل من الوقود. سوف تقود بنفسها.

"ليست فكرة صائبة،" قال أودينيبو.

"ليست فكرة صائبة؟ ليست فكرة أن أبحث عن جثة شقيقتي؟"

"شقيقتك حية. ليس من جثة."

"نعم، يا رب."

استدارت لتغادر.

"حتى ولو كانوا قد أطلقوا عليها النار يا أولانا، فلن يأخذوها إلى مشرحة داخل بيافرا." قال أودينيبو، وكانت تعلم أنه على حق لكنها كرهت أن يقول ذلك وأن يناديها بأولانا بدلا من نكيم فمشت بعيدًا، إلى بناية المشرحة ذات الرائحة العفنة، حيث كانت الجثث من انفجار حديث مكومة فوق بعضها بالخارج، تتحلل في الشمس. وكان حشد من الناس يتوسل ليُسمح لهم بالبحث.

"أرجوك أبي مفقود منذ القصف."

"أرجوك لا أستطيع أن أجد ابنتي."

خطاب أولانا من مادو جعل المشرف يبتسم لها ويسمح لها بالدخول وأصرت على النظر في وجه كل جثة أنثى، حتى أولئك اللواتي قال المشرف إنهن مسنّات جدًّا، وفيما بعد توقفت في الطريق وتقيأت. *إذا ما رفضتِ الشمسُ أن تشرقَ، سوف نجعلها تشرقُ*. باغتها عنوان قصيدة أوكيوما. لا تتذكر بقيتها، شيء ما حول وضع إناء طَفَليّ فوق إناء طفلي ليشكِّل سُلَّما نحو السماء. حينما عادت إلى البيت، كان أودينيبو يتكلم مع بيبي. وجلس ريتشارد يحدق في لا شيء. لم يسألاها إن كانت وجدت جثة كاينين. أخبرها آجوو أن هناك بقعة زيت نخيل ضخمة على فستانها، بصوت منخفض كأنما قد عرف أنها بقايا قيئها. أخبرها هاريسون أن لا شيء هناك للطعام فحدقت فيه بخواء لأنها كاينين مَن كانت مسؤولة عن تلك الأمور، هي التي كانت تعلم ماذا يفعلون.

"يجب أن تستريحي يا نكيم،" قال أودينيبو.

"هل تتذكر كلمات قصيدة أوكيوما عن جعل الشمس تشرق إذا ما رفضت أن تشرق؟" سألت.
"أواني الطمي تُحرَق في الحمية، سوف تُبرّد أقدامَنا فيما نصعد." قال.
"نعم، نعم."
"كان هذا سطري المفضل. بوسعي تذكر البقية."
أسرعت امرأة من معسكر اللاجئين إلى الفناء، تصرخ، وتلوح بغصن أخضر. مثل تلك الخضرة اليانعة. تساءلت أولانا من أين أتت به؛ النباتات والأشجار حولهم كانت يابسة، وعارية عن الأوراق بفعل الرياح الرملية. والأرض شاحبة.
"انتهى كل شيء!" صرخت المرأة. "انتهى!"
أدار أودينيبو الراديو بسرعة، كأنما كان يتوقع مجيء المرأة بتلك الأخبار. كان الصوت الذكري مألوفًا.

عبر التاريخ، كان الجرحى يلجأون إلى الأسلحة في الدفاع عن النفس حينما تخفق مباحثات السلام. ونحن لسنا استثناء. لقد رفعنا السلاح بسبب الشعور بعدم الأمان الذي استشرى بين أهالينا بعد المذابح. لقد حاربنا للدفاع عن قضيتنا.

جلست أولانا. راقت لها الأمانةُ، وحروفُ العلّةِ الحاسمةُ ونبرةُ التأكيد الهادئةُ التي في الصوت الصادر من الراديو، وكانت بيبي تسأل أودينيبو لماذا المرأة من المعسكر تصرخ هكذا. نهض ريتشارد واقترب من الراديو. ورفع أودينيبو الصوت. قالت المرأة من المعسكر: "يقولون إن الهمج سوف يأتون بالعصي ليضربوا المدنيين ويذيقوهم الويل. سوف نذهب إلى الدغل،" ثم استدارت وركضت عائدة للمعسكر.

أنتهزُ الفرصةَ لأهنئ رجال وضباط قواتنا العسكرية على بسالتهم وجسارتهم، التي منحتهم إعجابَ العالم بأسره. كما أشكر الكتلة المدنية على ثباتها وشجاعتها في مواجهة الأزمات الغامرة والجوع. وأنا مقتنع أن معاناة شعبنا لابد أن تنتهي فورًا. لذلك فقد نظّمتُ إجلاء لناقلات الجند، وأدعو اللواء جوون، باسم الإنسانية، أن يأمر ناقلات جنوده بالتوقف حتى يتم الاتفاق على الهدنة.

بعد الإذاعة، شعرت أولانا بالدوار وعدم التصديق. جلست.
"ماذا الآن يا ماه؟" سأل آجوو، دون تعبير.
نظرت بعيدًا، نحو أشجار الجوز المغطاة بالغبار، نحو السماء التي تنحني على الأرض عند خط الأفق الخالي من الغيوم.

"الآن بوسعي أن أذهب لأبحث عن شقيقتي." قالت بهدوء.

مرَّ أسبوع. وصلت شاحنة من الصليب الأحمر إلى معسكر اللاجئين وحملت امرأتان كوبين من الحليب. كثير من العائلات تركت المعسكر، ليبحثوا عن أقاربهم أو ليختبئوا في الأحراش من الجنود النيجيريين الذين كانوا يأتون بالسياط. لكن في المرة الأولى التي رأت فيها أولانا جنودًا نيجيريين في الطريق العام، لم يكونوا يحملون سياطًا. كانوا يمشون هنا وهناك يتكلمون فيما بينهم باليوروبا العالية ويضحكون ويومئون إلى الفتيات القرويات. "تعالي تزوجيني الآن، سوف أعطيك أرزًّا وبقولاً."

انضمت أولانا إلى الحشود الذين يتفرجون عليهم، بزيهم الأنيق المحبوك، وأحذيتهم السوداء اللامعة، وعيونهم الواثقة التي ملأتها بالخواء الذي نشعر به حينما نُسرَق. كانوا قد أغلقوا الطريق وأداروا السيارات للخلف. ليس من تحركات الآن. لا تحركات. أراد أودينيبو أن يذهب إلى آبا، ليرى أين ترقد أمه، فكان كل يوم يذهب إلى الطريق العام ليعرف إن كان الجنود النيجيريين قد سمحوا للسيارات بالمرور.

"يجب أن نجمع أغراضنا،" أخبرَ أولانا. "سوف يُفتح الطريق في يوم أو يومين. وسوف نرحل مبكرًا حتى نتوقف في آبا ثم نذهب إلى نسوكا قبل الظلام."

لم تكن أولانا تريد أن تجمع الأغراض- ولم يكن هناك الكثير ليُجمع على كل حال- ولم تكن تريد الذهاب إلى أي مكان. "ماذا لو أن كاينين عادت؟" سألت.

"تكيم، سوف تجدنا كاينين بسهولة."

راقبته وهو يغادر. كان سهلاً عليه أن يقول إن كاينين سوف تجدهم. كيف لكَ أن تعرف؟ كيف لك أن تعرف أنها لم تُجرح، على سبيل المثال، ولا تقدر أن تسافر مسافة بعيدة؟ سوف تعود مترنحةً وهي تظن أنهم هنا ليعتنوا بها، فتجد البيت خاويًا.

دخل رجل إلى البناية. حدقت فيه أولانا لبرهة قبل أن تكتشف أنه ابن خالتها أودينتشيزو، فصرخت وجرت نحوه وعانقته وتراجعت إلى الخلف لتنظر إليه. رأته آخر مرة في زفافها، هو وشقيقه، في زيهما العسكري.

"ماذا عن إيكيني؟" سألت بخوف. "*إيكيني كوانوا*؟"

"هو في أوموناتشي. أتيت فور عرفت أين أنت. أنا في طريقي إلى أوكيجي. يقولون إن بعض أمهاتنا هناك."

صاحبته أولانا للداخل وأحضرت له كأس ماء. "كيف حالك يا أخي؟"

"لم نَمُت،" قال.

جلست أولانا جواره وأخذت يده؛ كانت هناك ثآليل بيضاء متورمة في راحتيه. "كيف عالجت الأمر في الطريق مع الجنود النيجيريين؟"

"لم يسببوا لي متاعب. تكلمت معهم بالهاوسا. أحدهم أخرج صورة أوجوكو وسألني أن أبول عليها وفعلت." ابتسم أودينتشيزو، ابتسامة رقيقة متعبة وبدا مشابهًا جدًّا للخالة إيفيكا حتى أن الدموع ملأت عيني أولانا.

"لا، لا، يا أولانا،" قال وأمسكها. "سوف تعود كاينين. امرأة من أوميودنوكا ذهبت إلى آفيا أتلك فاحتل الهمج القطاعَ لذلك تم احتجازها لأربعة شهور. عادت إلى أسرتها بالأمس."

هزت رأسها لكنها لم تخبره إنها ليست كاينين، ليس كاينين وحسب، تلك التي كانت تبكي عليها. مسحت عينيها. حضنها لبرهة أطول قبل أن ينهض، ودس في يدها ورقة بخمسة جنيهات. "لأذهبْ،" قال. "الطريق طويل."

حدّقت أولانا في النقود. أفزعتها الورقة المصقولة الحمراء. "أودينتشيزو! هذا كثير!"

"بعضنا في بيافرا-2 كان لديه نقود نيجيرية فتاجرنا معهم رغم أننا من الميليشيات." قال أودينتشيزو، وهز كتفيه. "وأنت ليس لديك نقود نيجيرية، أليس كذلك؟"

هزت رأسها؛ هي حتى لم تكن قد رأت أبدًا النقود النيجيرية الجديدة.

"آمل ألا يكون صحيحًا ما يقولونه، إن الحكومة سوف تصادر كل حسابات البنوك البيافرية."

هزت أولانا كتفيها. هل لا تعرف. الأخبار حول كل شيء كانت ملخبطة ومتضاربة. كانوا قد سمعوا أول الأمر أن هيئة تدريس الجامعة البيافرية يجب أن يسجلوا في التصفية العسكرية في إنيوجو. ثم في لاجوس. ثم أولئك فقط المتورطون في العسكرية البيافرية هم من عليهم التسجيل.

فيما بعد، حينما ذهبت إلى السوق مع بيبي وآجوو، شهقت أمام الأرز والبقول المعروضة أكوامًا في صناديق على شكل جبال، والسمك ذو الرائحة الشهية، واللحوم المدماة التي جذبت الذباب، بدت الأطعمة كأنما سقطت من السماء، بدت كأنما مليئة بالتساؤل الذي كان مخبوءًا. شاهدت امرأةً بيافرية تساوم، تعطي الفكة من الجنيهات النيجيرية كأنها هي العملة التي استخدموها طيلة عمرهم. اشترت القليل من الأرز، والسمك المقدد. لم تهدر الكثير من نقودها؛ فهي لا تعرف ماذا يختبئ في الغد.

عاد أودينيبو البيت ليقول إن الطريق قد فُتح. "سوف نغادر غدًا."

دخلت أولانا غرفة النوم وبدأت تبكي. راحت بيبي إلى المرتبة جوارها وحضنتها.

"مامي أوللا، لا تبكي؛ *إيبيزي نا*،" قالت بيبي، الدفء الصغير لذراعي بيبي حولها جعلها تنشج أكثر وأعلى. مكثت بيبي هناك، تحضنها، حتى توقفت عن البكاء وجففت عينيها.

غادر ريتشارد هذا المساء.

"أنا ذاهب للبحث عن كاينين في المدن خارج نينث مايل." قال.

"انتظرْ حتى الصباح،" قالت أولانا.

هز ريتشارد رأسه.

"لديك وقود؟" سأل أودينيبو.
"ما يكفي لأذهب إلى نينث مايل إذا ما سرتُ على المنحدرات."
أعطته أولانا بعض النقود النيجيرية قبل أن يغادر مع هاريسون. وفي الصباح التالي، وقد وضعوا أغراضهم بالسيارة، كتبت ورقة صغيرة على عجالة ووضعتها في غرفة المعيشة.

أيجيما م، سوف نذهب إلى آبا ونسوكا. سوف نعود خلال أسبوع لنتفقد البيت. أ.

كانت تود أن تضيف "افتقدتُك" أو "أرجو أنكِ بخير" لكنها قررت ألا تفعل. سوف تضحك كاينين وتقول شيئًا مثل: "لم أذهب إلى نزهة، من أجل عيون السماء، أنا تم احتجازي في مقاطعة العدو."
دخلت السيارة وحدقت في أشجار الجوز.
"هل سوف تأتي الخالة كاينين إلى نسوكا؟" سألت بيبي.
استدارت أولانا ونظرت بتمعن في وجه بيبي لتبحث عن حدسها واستشرافها الغيب، عن إشارة تقول إن بيبي تعرف أن كاينين سوف تعود. في البدء ظنت أنها رأت ذلك، لكن بعد برهة لم تكن واثقة أنها رأت.
"نعم، يا بيبتي." قالت. "الخالة كاينين سوف تأتي إلى نسوكا."
"هل مازالت تتاجر في آفيا أتاك؟"
"نعم."
أدار أودينيبو السيارة. خلع نظارته وغطاها بقطعة قماش. الجنود النيجيريين، كانوا قد سمعوا أنهم لا يحبون الناس الذين يبدون كمثقفين.
"هل ترى جيدًا بما يكفي للقيادة؟" سألت أولانا.
"نعم." رمق الخلف حيث آجوو وبيبي قبل أن تتحرك السيارة من التجمع. تجاوزوا بعض نقاط التفتيش المدججة بالجنود النيجيريين، فتمتم أودينيبو بشيء ما في سره في كل مرة كان يمر فيها. عند أباجانا، تجاوزوا الأسطول النيجيري المحطم، عمود طويل طويل من السيارات المحترقة المتفحمة. حدقت أولانا. نحن فعلنا ذلك. مدت يدها وأمسكت يد أودينيبو.
"هم انتصروا لكننا فعلنا ذلك،" قالت، ثم أدركت كم هو شاذ أن تقول "هم انتصروا"، أن تعلن الهزيمة التي لم تصدقها. لم يكن شعورها بأنهم قد هُزموا، بل كان شعورًا بأنهم خُدعوا. عصرَ أودينيبو يدَها. شعرت بعصبيته في توتر فكَّيه وهما يقتربان من آبا.
"أتساءلُ ما إذا كان منزلي ما يزال قائمًا،" قال.
انبثقت الأحراش في كل مكان، الأكواخ الصغيرة كانت قد ابتُلِعَت تمامًا بالحشائش البنية. ثمة شجيرةٌ قد نمت أمام بوابة بيتهم فصفَّ سيارته جوارها، وصدره يعلو وينخفض، وصوت

تنفسه عال. كان المنزل ما يزال واقفًا. التفوا حول العشب الكثيف الجاف ليدخلوا ونظرت أولانا حولها، نصف خائفة من أن ترى الهيكل العظمي للماما راقدًا في مكان ما. لكن ابن خالته كان قد دفنها؛ جوار شجرة الجوافة كان ثمة ارتفاع طفيف بالتربة وصليب مصنوع على عجل من غصنين متعامدين. ركع أودينيبو هناك ونزع خصلة من العشب وقبض عليها بيده.

قادوا السيارة إلى نسوكا عبر طرق مخرمة بالرصاصات وتجاويف القذائف؛ كان أودينيبو ينحرف كثيرًا. البنايات مسودة، والسطوح ساقطة، والحوائط نصف مهدمة. هنا وهناك كانت هياكل سوداء لسيارات محترقة. كأنما مملكةٌ موحشة ساكنة. صقورٌ طائرةٌ تملأ الأفق. وصلوا إلى نقطة تفتيش. كان بعض الرجال يقطعون الحشائش الطويلة على جانب الطريق، مناجلهم تعلو وتهبط؛ وآخرون كانوا يحملون كتلاً خشبية غليظة إلى منزل بحوائط بدا مثل قطعة جبن سويسرية، مزركشة بثقوب الرصاصات، بعضها واسع وبعضها دقيق.

وقف أودينيبو جوار ضابط نيجيري. توكة حزامه تلمع وانحني لينظر داخل السيارة، وجه قاتم السواد بأسنان بيضاء.

"لماذا مازلتم بلوحة أرقام بيافرية؟ هل أنتم مساندين للثوّار المنهزمين؟" كان صوته عاليًا، مفتعلاً، بدا كأنه يمثِّل ومنتبهًا كل الانتباه لنفسه في دور الطاغية. وراءه، كان أحد جنوده يصرخ في العمّال. وجثة ذكر ملقاة في الدغل.

"سوف نغيرها حينما نصل نسوكا،" قال أودينيبو.

"نسوكا؟" انتصب الضابط واقفًا ثم ضحك. "آه، جامعة نسوكا. أنتم الذين خططوا للثورة مع أوجوكو، أنتم يا أهل الكتب."

لم يرد أودينيبو، ونظر أمامه. فتح الضابط الباب بحركة مباغتة. "*أويا*! اخرجْ واحملْ بعض الأخشاب لنا. دعنا نرى كيف يمكنك مساعدة نيجيريا المتحدة."

نظر إليه أودينيبو. "لأي شيء هذه؟"

"أنتَ تسألني؟ أنا قلتُ إنكَ يجب أن تخرج!"

وقف جندي وراء الضابط وصوب بندقيته.

"هذه نكتة،" تمتم أودينيبو. "*أو نا-إنجو إنجو*."

"اخرجْ!" قال الضابط.

فتحت أولانا الباب. "اخرجْ يا أودينيبو وأنتَ يا آجوو. بيبي، انتظري في السيارة."

حينما خرج أودينيبو، صفعَ الضابطُ وجهَه، بعنف بالغ، ودون توقُّع أبدًا، حتى أن أودينيبو سقط على السيارة. وكانت بيبي تبكي.

"ألستَ ممتنًا لأننا لم نقتلكم جميعًا؟ هيا احملْ كتل الأخشاب تلك بسرعة، اثنان في كل مرة!"

"دعْ زوجتي تجلس مع ابنتي، أرجوك،" قال أودينيبو.

صوت الصفعة الثانية من الضابط لم تكن عالية مثل الأولى. لم تنظر أولانا إلى أودينيبو، ركزت بدقة على أحد الرجال الذين يحملون كومة من كتل الأسمنت، كان ظهره النحيل الأسود مغطًى بالعرق. ثم ذهبت إلى كومة من كتل الأخشاب والتقطت اثنتين معًا. في بادئ الأمر ترنحت تحت الثقل- لم تكن تتوقع أنها بهذا الوزن- ثم شدت نفسها وبدأت تمشي نحو البيت. كانت تعرق حينما بدأت الهبوط. تذكرت العينين القاسيتين للجندي الذي يتبعها، تحرقان ملابسها. في رحلتها الثانية لأعلى، كان قد اقترب أكثر ووقف جوار الكومة.

نظرت إليه أولانا ثم نادت: "أيها الضابط!"

كان الضابط قد سمح لسيارة بالمرور. استدار. "ماذا هناك؟"

"من الأفضل أن تخبر جنديك أنه من الأفضل له ألا يفكر حتى في لمسي،" قالت أولانا.

كان آجوو وراءها، وكانت تشعر بصوت تنفسه، وخوفه من جسارتها. لكن الضابط كان يضحك؛ بدا مندهشًا ومعجبًا في آن: "لن يمسّكِ أحدٌ،" قال. "جنودي مدربون جيدًا. نحن لسنا مثل أولئك الثوار القذرين الذين تسمونهم جيشًا."

أوقف سيارةً أخرى، بيجو 403. "انزلْ فورًا!" خرج الرجل الضئيل ووقف جوار السيارة. مد الضابط يده ونزع النظارة من وجهه وقذف بها في الدغل. "آه، والآن لا تقدر أن ترى؟ لكنك ترى بما يكفي لكتابة إعلان لأوجيوكوا؟ أليس هذا هو كل ما تفعلوه أيها الخدم المدنيون؟"

أجفلت عينا الرجل فدعكهما.

"انبطحْ أرضًا،" قال الضابط. رقد الرجل على القار الفحميّ. أخذ الضابط عصا طويلة وبدأ يجلد الرجل على ظهره ومؤخرته، *تا-واي، تا-واي*، فصرخ الرجل بشيء لم تفهمه أولانا.

"قلْ شكرًا يا صاح!" قال الضابط.

"قال الرجل: "شكرا يا سيدي!"

"قلها ثانية!"

"شكرًا يا سيدي!"

توقف الضابط وأومأ إلى أودينيبو. "*أويا*، يا أهل الكتب، اذهبوا. وتأكدْ أن تغيّرَ لوحاتِ الأرقام تلك."

أسرعوا صامتين إلى السيارة. كفّا أولانا تؤلمانها. وهم يقودون أسفل الطريق، كان الضابط ما يزال يجلد الرجل.

وقف آجوو جوار الدغل النامي بالزهور البيضاء على نحو وحشيٍّ وراح يحدق في كومة الكتب المحترقة. كان قد تم تكديسها معًا قبل إشعال النار، فراح ينقِّب فيها بيديه، ليرى ما إذا كانت النيرانُ قد أخطأت أيَّ شيء بالأسفل. استخلص كتابين كاملين فمسح غلافيهما بقميصه. في الكتب نصف المحروقة كان ما يزال بوسعه أن يميز الكلمات والأشكال.

"لماذا قاموا بحرقها." سألت أولانا بهدوء. "أفكر فقط في الجهد."

قرفص السيد جواره وراح يفتش في الأوراق المتفحمة، وهو يتمتم: "أوراقُ بحثي كلُّها هنا، يا نكيم، هذه واحدة من اختبارات الدرجة العلمية..." بعد برهة، جلس على الأرض العارية، وساقاه مفرودتان أمامه، فتمنى آجوو لو لم يفعل؛ ثمة شيء بلا كرامة، شيء ضدٌّ للسيادة، لم يحبه آجوو. كانت أولانا تمسك يد بيبي تنظران إلى الصنوبرة وشجيرات الإكزورا والزنابق، كلها بلا شكل ومرتبكة. شارع أودين نفسه كان بلا شكل ومرتبكًا، بجانبيه المعقدين بالأدغال الكثيفة. حتى العربات النيجيرية المدرَّعة، تُركت مهجورة في نهاية الشارع، والأعشاب تنمو من إطاراتها.

كان آجوو أول من دخل البيت. وتبعته أولانا وبيبي. كان نسيج العنكبوت مدلى من غرفة المعيشة. نظر لأعلى فرأى عنكبوتًا أسود ضخمًا يتحرك ببطء في شبكته، كأنما غير مهتم بوجودهم ومازال آمنا أن هذا بيته. الأرائك والستائر والسجاجيد والأرفف كانت قد اختفت. حتى ألواح النوافذ أيضًا انتزعَت وتُركت النوافذُ مفتوحةً فعصفت الرياحُ الرملية وأدخلت الكثير جدًّا من الغبار حتى أن الحوائط غدت الآن بُنيّة. وراحت ذرّات الغبار تسبح في فضاء الغرفة مثل الأشباح. وفي المطبخ، لم يُترك سوى الهاون الخشبي الثقيل. وفي الردهة، التقط آجوو قارورةً مغلَّفة بالغبار، عندما قرّبها إلى أنفه، كانت ما تزال تنضح برائحة الجوز. قارورة عطر أولانا.

كانت بيبي قد بدأت في البكاء حينما دخلوا الحمّام. أكوامُ البراز في التواليت كانت جافة، كتلٌ ناشفة كالأحجار الفاحشة. صفحات مجلة درام كانت ممزقة ومستعملة كورق تواليت، اللُطخ الناشفة بقعت الرسومات. انتثروا جالسين على الأرضية. أولانا تهدئ من روع بيبي وآجوو راح يتذكر لعبَها بالبطّة البلاستيكية الصفراء في مياه البانيو. أدار الصنبور، فأحدثت صريرًا لكن الماء لم يجر. العشب في الفناء الخلفي جرح كتفيه، كان أعلى وأكثف من أن يُمشى خلاله، لذلك وجد عصا ليشقَّ لنفسه طريقًا عبره. خلية النحل في شجرة الجوز كانت قد راحت. باب نُزُل الأولاد كان معلقًا نصف مفتوح من مفصلاته المهشمة فدفعه فتذكر القميصَ الذي كان قد تركه معلقًا على مسمار على الحائط. يعلم أنه قد ذهب بالطبع، على أنه نظر إلى الحائط بحثًا عنه. كانت آنيوليكا معجبةً بهذا القميص. كان يهدده ويرعبه أنه ربما سوف يرى

آنيوليكا خلال ساعات قليلة، لأنه في الأخير لابد يذهب إلى بلدته. لم يكن ليسمح لنفسه أن يفكر مَن تبقى ومَن لم يبق. التقط الأشياء من الأرض الرثّة، بندقية صدئة ونسخة نصف متآكلة من البيان الشيوعي، وشيئًا ما، ربما فأر، عبر سريعًا.

أراد أن ينظِّف. ود أن يكشط الأرض بعنف. كان خائفًا، لأن هذا لن يغير شيئًا. فالمنزل ربما ملطخٌ حتى أساساته العميقة وتلك الرائحة التي تفوح من شيء مات وجفَّ منذ زمن ستظل عالقة بالغرف وخشخشة الفئران سوف تظل تأتي من السقف. وجد السيدُ مقشةً فراح يكنس غرفة المكتب بنفسه وترك أكوامَ مخلفات السحالي والغبار خارج باب الغرفة. نظر آجوو داخل غرفة المكتب فرآه جالسا على الكرسي الوحيد المتبقي، بساق مكسورة، حتى أنه سقط لعدم الاتزان، واقعًا فوق كومة نصف محترقة من الأوراق والملفات.

راح آجوو يسلّك الغائط في التواليت بعصا، وهو يتمتم باللعنات على الهمج وكل ذريتهم، وكان قد نظف الحوض عندما سألته أولانا أن يترك التنظيف حتى يعود من زيارة أهله.

وقف آجوو ساكنًا بينما تشيوكي، زوجة أبية الثانية، تنثر عليه الرمل. "هل أنت حقيقيّ؟" سألته. "هل أنت حقيقي؟"

انحنت وقبضت على حفنة رمال، تقذفها في حركات سريعة، فسقط الرمل على كتفيه وذراعيه وبطنه. وأخيرًا وقفت واحتضنته. لم يختف؛ فهو إذًا ليس شبحًا. جاء الآخرون لمعانقته، والمسح على جسده غير مصدقين رغم الرمل المتساقط منه كأنما ليس دليلاً على أنه ليس شبحًا. بعض النسوة كن يبكين. وتفحص آجوو الوجوه من حوله، جميعهم غدوا أكثر نحولاً، جميعهم كان عميق الإجهاد ومبثورة جلودهم، حتى الأطفال. لكنها كانت آنيوليكا مَن تحوَّلت التحوُّلَ الأكبر. كان وجهها مغطى بالرؤوس السوداء والبثور ولم تكن تنظر إلى عينيه حينما قالت عبر دموعها: "أنت لم تمت." أصابه الفزع حينما اكتشف أن شقيقته التي كان يحمل لها في ذاكرته صورة فتاة جميلة لم تعد كذلك. كانت كائنًا غريبًا دميمًا بعين واحدة.

"أخبروني أن ابني قد مات،" قال أبوه، وهو يقبض على كتفيه.

"أين الماما؟" سأل.

قبل أن يتكلم أبوه، عرف آجوو. كان قد عرف منذ اللحظة التي ركضت تشيوكي إليه. كان يجب أن تكون أمه؛ كان لابد أن تشعر بوجوده وتقابله عند منحدر أشجار الأوبي.

"أمُّك لم تعد معنا،" قال أبوه.

غطت الدموع الحارة عيني آجوو. " لن يسامحهم الربُّ أبدًا."

"انتبه لما تقول!" نظر الأب حوله في فزع، رغم أنه وآجوو كانا وحيدين. "لم يكونوا الهمج. لقد ماتت من السعال. دعني أُريك أين ترقد."

لمخ يكن على القبر شاهد. نبات البطاطا الأخضر كان ينمو عليه.

"متى؟" سأل آجوو. "متى ماتت؟"

بدا السؤال سورياليًا، أن يسأل "متى ماتت؟" بينما لم يكن مهمًّا متى ماتت. وبينما كان أبوه يتكلم كلامًا لا معنى له، ركع آجوو على ركبتيه، ووضع جبهته على الأرض، ثم غطى رأسه بيديه، كأنما ليحمي نفسه من شيء ما سيسقط من أعلى، كأنما كان هذا هو الوضع الوحيد الذي يؤهله لاستيعاب موت أمه. تركه أبوه ومشى إلى داخل الكوخ. فيما بعد، جلس آجوو مع آنيوليكا تحت شجرة الخبز.

"كيف ماتت الماما؟"

"من السعال."

لم تجب أيًّا من أسئلته الأخرى بالطريقة التي توقعها، لم تكن هناك لمحات حيّة، ليس من فطنة حادة في إجاباتها: نعم، لقد أقاموا طقس حمل النبيذ قبيل غزو الهمج القرية. أونيكا كان جيدًا؛ كان يذهب إلى الحقل. لم يُرزقا بأطفال بعد. كانت غالبًا تنظر بعيدًا، كأنما لا تشعر بالراحة في الجلوس معه، وتساءل آجوو ما إذا كان يتوهم الرباط اليسر الذي كان يجمعهما. شعرت بالراحة حينما نادت عليها تشيوكي، فنهضت سريعًا ومضت.

كان آجوو يراقب الأطفال يجرون حول شجرة الخبز، يسخرون ويزعقون ويصرخون، حينما وصلت نيسيناتشي مع طفل على فخذها وبريق في عينيها. بدت كما هي دون تغيير؛ عكس الآخرين، لم تكن أنحف عما يتذكرها. ثدياها كانتا أكبر حجما قليلاً، رغم حبكة قماش بلوزتها. ضغطته في عناق حار. فصرخ الطفل.

"علمت أنك لم تمت،" قالت. "كنت أعلم أن روحك يقظة جدًّا."

مسَّ آجوو وجنة الطفل. "تزوجتِ أثناء الحرب؟"

"لم أتزوج." نقلت الطفلَ إلى الفخذ الآخر. "كنت أحيا مع جندي من الهاوسا."

"همجيّ؟" كان هذا غير مقنع بالنسبة له.

أومأت نيسيناتشي. "كانوا يعيشون في بلدتنا وكان طيبًا معي، رجل طيب جدًّا. لو كنتُ هنا في الوقت المناسب، ما كان حدث أبدًا ما حدث لآنيوليكا. لكنني كنت قد سافرت إلى إنيوجو معه لشراء بعض الأشياء."

"ما الذي حدث لآنيوليكا؟"

"لم تعرف؟"

"ماذا؟"

"لقد تناوبوا عليها بالقوة. خمسة منهم." جلست نيسيناتشي ووضعت الطفل على حجرها.

حدق آجوو في السماء البعيدة. "أين حدث ذلك؟"

"كان هذا قبل عام."

"سألتُ أين؟"

"أوه." تهدج صوت نيسيناتشي. "جوار الشلال."

"بالخارج؟"

"نعم."

انحنى آجوو والتقطت حصاة.

"قالوا إن أول واحد رقد فوقها، عضته في ذراعه وسحبت منه الدماء. ضربوها حتى الموت تقريبًا. إحدى عينيها لا تنفتح من وقتها."

فيما بعد، قام آجوو بجولة حول القرية، وحينما وصل إلى الشلال تذكر طابور النساء اللواتي يذهبن لجلب الماء في الصباح، فجلس على صخرة وانخرط في النشيج.

حينما عاد إلى نسوكا، لم يخبر آجوو أولانا عن اغتصاب شقيقته. كانت بالخارج معظم الوقت. كانت تتسلم رسالةً بعد رسالة حول نساء يشبهن كاينين كنّ قد شوهدن، ولذلك ذهبت إلى أنيجو، أونيتشا، وبنين ثم عادت وهي تترنم في سرها. "سوف أجد شقيقتي،" كانت تقول هذا حينما يسألها آجوو كيف سارت الأمور.

نظّف البيت. ذهب إلى السوق. ذهب إلى ميدان الحرية ليرى كومة الكتب المسودّة التي فرّغ الهمج المكتبات منها وأضرموا فيها النار. لعب مع بيبي. جلس بالخارج فوق الدرجات التي تؤدي إلى الفناء الخلفي وكتب على قصاصات من الورق. كانت الدجاجات تصيح في البيت المجاور. نظر إلى السياج وتساءل عن تشينير، كيف تفكر فيه، إذا ما كانت ما تزال حيّة. لم يعد د. أوكيكي وأسرته، والآن يسكن هناك رجل مقوس الساقين، بروفيسور في الكيمياء يطهو طعامه على نار الأخشاب ولديه قفص دجاجات. في أحد الأيام، وبينما ضوء الغسق يهبط، نظر آجوو لأعلى فوجد ثلاثة جنود اقتحموا التجمع ثم غادروا بعد دقائق، يسحبون البروفيسور.

كان آجوو قد سمع أن الجنود النيجيريين قد وعدوا بقتل خمسة بالمائة من الأكاديميين في نسوكا، لم يسمع أحد عن البروفيسور إيزيكا منذ اعتقاله في إنيوجو، لكنها كانت حقيقة مفاجئة أمامه وهو يرى البروفيسور في المنزل الملاصق وهو يُجَرُّ. لذلك، وبعد أيام، حينما سمع الخبط العالي على الباب الرئيسي، فكر أنهم جاءوا من أجل السيد. كان سيخبرهم أن السيد غير موجود، كان سيخبرهم حتى أن السيد قد مات. أسرع أولاً إلى غرفة المكتب، وهو يهمس: "اختبئ تحت الطاولة يا صاح!" ثم ركض إلى الباب واعتمر نظرةً غبية بليدة على وجهه. وبدلاً من الزي العسكري الأخضر المهدِّد، ولمعان الحذاء والبندقية، شاهد قفطانًا بُنيًّا وخُفًّا مسطحًا ووجهًا مألوفًا راح ينظر إليه دقيقة ليتعرف عليه: الآنسة آديبايو.

"مساء الخير،" قال آجوو. شعر بشيء يشبه خيبة الأمل.

كانت تنعم النظر إلى الداخل، وعلى وجهها خوفٌ عظيم صارم؛ جعلها هذا تنظر إلى الأسفل نحو لا شيء، مثل جمجمة بثقبين مكان العينين.

"أودينيبو." كانت تهمس. "أودينيبو؟"

فهم آجوو على الفور أن هذا هو كل ما تقدر أن تقول، وأنها ربما حتى لم تتعرف عليه ولم تقدر حتى أن تسأل السؤال كاملاً: هل أودينيبو حيٌّ؟

"سيدي بخير،" قال آجوو. "هو بالداخل."

كانت تحدق فيه. "أوه، آجوو! انظر كيف كبرت." دخلت. "أين هو؟ كيف حاله؟"

"سوف أنادي عليه يا ماه."

كان السيد واقفًا جوار باب غرفة المكتب. "ماذا يحدث هنا، يا رجلي الطيب؟" سأل.

"إنها ميس آديبايو يا صاح."

" طلبتَ مني أن أختبئ تحت الطاولة بسبب ميس آديبايو؟"

"ظننت أنهم الجنود يا صاح."

عانقت ميس آديبايو السيد لفترة طويلة. "أخبروني أنك أنت أو أوكيوما لم تعودا-"

"أوكيوما لم يعد." كرر السيد تعبيرها كأن به شيئًا مستنكَر.

جلست ميس آديبايو وبدأت في النشيج. "تعرف، نحن بالفعل لا نفهم ما الذي كان يحدث في بيافرا. الحياة كانت تمضي قُدمًا، والنساء كنَّ يرتدين أحدث الأحذية في لاجوس. لم يكن إلا بعدما ذهبتُ إلى لندن لحضور مؤتمر وقرأت تقريرًا حول المجاعة." توقفت. "بمجرد أن انتهت، انضممت إلى متطوعي ماي-فير وعبور نهر النيجر بالطعام..."

لم يحبها آجوو. كان يكره نيجيريتها. لكن جزءًا منه كان مستعدًا لمسامحتها لو كان ذلك سوف يعيد تلك الأمسيات القديمة، حينما كانت تجادل السيد في غرفة المعيشة التي تفوح منها رائحة البراندي والبيرة. الآن، لم يعد أحد يزورهم، عدا مستر ريتشارد. وكان ثمة شيء جديد عائلي مألوف في حضوره. كان كأنما هو من العائلة، الطريقة التي يجلس بها يقرأ في غرفة المعيشة بينما تتجول أولانا في أعمالها والسيد في غرفة مكتبه.

أزعج آجوو الطَّرْقُ على الباب بعد عدة ليال، بينما كان مستر ريتشارد موجودًا. وضع أوراقه في المطبخ. ألا تقدر ميس آديبايو أن تفهم أنه من الأفضل أن تعود إلى لاجوس وتتركهم لحالهم؟ عند الباب، رجع خطوة إلى الوراء حينما رأى الجنديين عبر الزجاج. أدارا المقبض واندفعا من الباب المغلق. فتح آجوو الباب. أحدهما كان يرتدي بيريه أخضر والآخر كان له شامة بيضاء في ذقنه مثل بذرة فاكهة.

"كل مَن بالبيت، اخرجوا وانبطحوا أرضًا!"

انبطح السيد وأولانا وآجوو وبيبي ومستر ريتشارد على أرضية غرفة المعيشة حتى فتش الجنود البيت. أغلقت بيبي عينيها ونامت بإتقان ساكنةً على بطنها.

الرجل ذو البيرية الأخضر كانت عيناه تشعّان بالأحمر، وكان يزعق ويمزق الأوراق على الطاولة. ثم ضغط بكعب حذائه على ظهر مستر ريتشارد قائلاً: "رجل أبيض! *أوينيو*! لا تتغوط غائطا حارًا هنا، أوه!" وكان هو أيضًا من وضع بندقيته على رأس السيد قائلا: "هل أنت واثق أنك لا تخفي نقودًا بيافرية هنا؟"

قال الرجل الآخر، ذو الشامة على ذقنه: "نحن نبحث عن أية مواد يمكن أن تهدد وحدة نيجيريا،" ثم ذهب إلى المطبخ وعاد بصحنين مليئين بأرز الجولي. بعدما أكلا، وبعدما شربا بعض الماء وتجشآ بصوت عال، ذهبا إلى الشاحنة ومضيا بعيدًا. تركا الباب مفتوحًا. نهضت أولانا أولاً. دخلت المطبخ وألقت بقية الأرز في سلة المهملات. وأغلق السيد الباب. وساعد آجوو بيبي على النهوض وأخذها للداخل: "وقت الحمام،" قال. رغم أنه كان مبكرًا على ذلك. بوسعي أن أستحم وحدي،" قالت بيبي، ولذلك وقف جانبًا يراقبها وهي تستحم بنفسها لأول مرة. رشّت بعض الماء عليه وضحكت، فعرف أنها لن تحتاج إليه دائمًا.

عاد إلى المطبخ، فوجد مستر ريتشارد يقرأ قصاصات الأوراق التي كان تركها على الطاولة.

"هذا مدهش يا آجوو." بدا مستر ريتشارد مندهشًا.

"هل أخبرتْك أولانا عن المرأة التي تحملُ رأس طفلتها في القطار؟"

"نعم يا صاح. سوف يكون هذا جزءًا من كتاب كبير. سوف يستغرقني الأمرُ بضعة سنوات أخرى حتى أنهيه وسوف أعطيه عنوان "قصة حياة دولة."

"طموحٌ مدهش،" قال مستر ريتشارد.

"كنت أتمنى أن أحصل على كتاب فريديرش دوجلاس."

"لابد أنه أحد الكتب التي حرقوها،" قال مستر ريتشارد وهو يهز رأسه. "حسنٌ، سوف أبحث عنه حينما أذهب إلى لاجوس الأسبوع القادم. سأذهب لأرى والدي كاينين. لكن سأذهب أولاً إلى بورت هاركورت وأومياهيا."

"أومياهيا يا صاح؟"

"نعم."

لم يقل مستر ريتشارد شيئًا آخر؛ لم يتكلم أبدًا عن بحثه عن كاينين.

"لو كان لديك وقتٌ من فضلك ابحثْ لي عن شخص ما يا صاح."

"إيبيرتشي؟"

غزتِ ابتسامةٌ وجهَ آجوو قبل أن يعود سريعًا إلى وقاره. "نعم يا صاح."

"بالتأكيد."

أعطاه آجوو اسم العائلة والعنوان، فدوّنهما مستر ريتشارد، وبعد ذلك غرقا في الصمت، ثم تلعثم آجوو يود قول شيء ما: "هل مازلت تكتب كتابك يا صاح؟"

"لا."

"كان العالم صامتًا ونحن نموت. هذا عنوان جيد."

"نعم هو كذلك. لقد جاء من كلمة قالها الكولونيل مادو مرة." توقف ريتشارد. "في الحقيقة، الحرب ليست قصتي لأحكيها."

أومأ آجوو. لم يفكر أبدًا من قبل أنها قصته.

"هل أقدرُ أن أعطيك خطابًا، في حال رأيت إيبيرتشي يا صاح؟"

"بالطبع."

أخذ آجوو الأوراق من مستر ريتشارد، وهو يستدير ليجهز عشاء بيبي، وكان يغني في سرّه.

مشى ريتشارد في بستان الفاكهة واتجه إلى البقعة التي كان قد جلس فيها يراقب البحر. شجرة البرتقال المفضلة إليه كانت قد اختفت. كثير من الأشجار قُطعَت فتحوَّل البستان إلى مسطحات من العشب. حدّق في النقطة التي دفنت فيها كاينين مخطوطتَه، وتذكر قبل أيام في نسوكا، كيف أنه لم يشعر بشيء، لا شيء مطلقاً، وهو يراقب هاريسون يحفر ويحفر في الحديقة.
"معذرةً يا صاح، معذرة يا صاح. أنا فنت المخطوطة هنا، أعلم أنني دفنتها هنا."
كان منزل كاينين قد طُلي بالأخضر المُطفأ؛ وسقطت من عليه النباتات المتسلقة. استدار ريتشارد نحو الباب الرئيسي ودق الجرس وتخيل أن كاينين سوف تأتي للباب وتخبره أنها بخير، هي وحسب ودت أن تمضي بعض الوقت وحدها. المرأة التي فتحت كان لديها علاماتٌ قِبَلية رفيعة على وجهها، خطّان على كل وجنه. فتحت الباب. "نعم؟"
"مساء الخير،" قال ريتشارد. "اسمي ريتشارد تشرشل. أنا خطيب كاينين أوزوبيا."
"نعم؟"
"كنت أعيش هنا. هذا بيت كاينين."
ضاق وجه المرأة. "كان هذا بيتًا مهجورًا. وهو الآن بيتي." حاولتْ غلق الباب.
"انتظري أرجوكِ،" قال ريتشارد. "أريد صورنا، من فضلك. هل أستطيع الحصول على بعض صور كاينين؟ الألبوم على الرف في المكتبة؟"
صفّرت المرأة. "لدي كلبٌ شرس، فإذا لم تذهب سوف أديره عليك."
"من فضلك، الصور فقط."
صفّرت المرأة من جديد. ومن مكان ما بالداخل سمع ريتشارد زمجرة كلب. استدار ببطء وغادر. وهو يقود سيارته، والنوافذ مشرعة، ورائحة البحر في أنفه، فكر في الأوقات الكثيرة التي أوصلته فيها كاينين بالسيارة في نفس الطريق الوحيد. وفي داخل المدينة، أبطأ السيارة وهو يمرر امرأة طويلة، لكن بشرتها كانت أفتح من بشرة كاينين. كان قد أرجأ زيارته إلى بورت هاركورت لأنه كان يريد أولاً أن يجدها لكي يذهبا معًا إلى البيت، وينظرا معًا إلى الذي فقداه. كانت سوف تحاول أن تسترده، كان واثقًا من ذلك، كانت سوف تكتب تظلمات وتذهب إلى المحكمة وتخبر الجميع أن الحكومة الفيدرالية قد سرقت بيتها، بتلك الطريقة الجسور التي تخصها. بنفس الطريقة التي أوقفت بها ضرب الجندي الشاب. تلك كانت آخر ذاكرة واضحة لها لديه، وقد صححها عقله على طريقته- أحيانًا يكون قميص نومها المحبوك حول خصرها مزدانًا بقشور من الذهب، وأحيانًا بالأحمر.
لم يكن ليذهب إلى المنزل الآن لو لم تطلب منه أمُّها ذلك.

"اذهبْ إلى البيت يا ريتشارد، أرجوك اذهبْ وانظرْ ماذا هناك." كان صوتها صغيرًا في الهاتف. خلال أول محادثة معها، حينما عادا من لندن، كانت تبدو مختلفة جدًّا، ممتلئة باليقين.
"لابد أن كاينين قد جُرحت في مكان ما. لابد أن نحصل على خبر سريع. لابد أن نفعل ذلك سريعًا حتى ننقلها إلى مستشفى أفضل. حينما تتعافى، سوف أسألها ماذا بوسعنا أن نفعل مع هذا الخروف اليوروبي الذي ظننا أنه صديقنا. تصوّرْ أن رجلاً يريدنا أن نشتري منزلنا الخاص. تصوّرْ تزويره أوراق الملكية وكل شيء ثم قوله إننا يجب أن نكون مسرورين لأنه لم يطلب المزيد؛ وفوق ذلك أخذ الأثاث. والد كاينين خائفٌ جدًّا لأن يقول أي شيء. هو ممتنٌّ أنهم تركوه يحتفظ ببيت هو بالأساس ملكٌ له. لن تسامح كاينين في ذلك أبدًا."
أصبحت مختلفة الآن. كأنما كلما مر الوقت، كلما زاد تسرُّب منها الإيمان. "اذهبْ وحسبْ وانظر إلى البيت،" قالت هذا. اذهب فقط وانظر. لم تعد تتكلم عن التخصيص، وعن المحددات. كان مادو مقيم معهم في لاجوس، الآن وقد أُطلق سراحه من احتجازه الطويل في حصار الجابون؛ الآن وقد تم فصله من الجيش النيجيري؛ الآن وقد تم إعطاؤه عشرين جنيها مقابل كل الأموال التي كان يأخذها من قبل أثناء الحرب. كان مادو مَن تسلم خبرًا حول امرأة نحيلة طويلة مثقفة قدو وجدَت تتجوّل في أونيتشا. ذهب ريتشارد مع أولانا إلى أونيتشا وقابلتهما أمها هناك، لكن المرأة لم تكن كاينين. كان ريتشارد واثقًا جدًّا من أنها كاينين- لديها فقدان في الذاكرة، نسيت نفسها، كل هذا له معنى- وحينما نظر في عيني الغريبة، شعر لأول مرة بكراهية لشخص لا يعرفه.
كان يفكر في ذلك الآن وهو يقود السيارة إلى أومياهيا، إلى مركز الأشخاص المُرحّلين. كانت البناية خالية. وبالقرب، ثمة حفرة خاوية صنعتها قنبلة. قاد السيارة حول المكان لبرهة قبل أن يجد العنوان الذي أعطاه له آجوو. بدت المرأةُ المسنة التي حياها طبيعية تمامًا، كأنما من العادي دائمًا أن يأتي رجلٌ أبيض يتحدث الإيبو ويسألها عن قريبتها. أدهش هذا ريتشارد؛ كان معتادًا على أن يكون حديثة بالإيبو محطَّ ملاحظة الآخرين، كأنه أعجوبة. أحضرت له مقعدًا. أخبرته أنها شقيقة والد إيبيرتشي، وبمجرد أن أخبرته بم حدث لإيبيرتشي، قرر ريتشارد أنه لن يخبر آجوو. لن يخبر آجوو مطلقًا. عمة إيبيرتشي لها طرحة بيضاء ملفوفة حول رأسها وعباءة بلون الطمي حول صدرها وكانت تتكلم بخفوت شديد حتى أن ريتشارد كان يسألها أن تعيد الكلام. نظرت إليه لبرهة قبل أن تخبره من جديد أن إيبيرتشي قُتلت بقنبلة، وأن ذلك حدث يوم سقوط أومياهيا، وأنه بعد أيام قليلة، عاد شقيق إيبيرتشي من الجيش حيًّا ومعافى. لم يعرف ريتشارد لماذا فعل ذلك، لكنه جلس وحكى لها عن كاينين.
"ذهبت زوجتي إلى آفيا أتاك قبل أيام قليلة من نهاية الحرب، ولم نرها منذ تلك اللحظة."
هزت المرأة كتفيها. "يومًا ما سوف تعرف،" قالت.

فكر الرجل في تلك الكلمات وهو في طريقه إلى لاجوس في اليوم التالي وأصبح مقتنعًا أكثر بأنه لن يخبر آجوو أن إيبيرتشي قد ماتت. يوما ما سوف يعرف آجوو. الآن، لن يكسر حلمه.

كانت تمطر حينما وصل لاجوس. ومن راديو السيارة، كان خطاب جوون يُعاد ثانية: لا نصر ولا هزيمة. بائعو الصحف كانوا يركضون بين المرور مع جرائدهم داخل أكياس بلاستيكية. لم يعد يقرأ الصحف لأن كل جريدة كان يفتحها كانت تحمل الإعلان الذي وضعه والدا كاينين عنها، مع صورتها التي التقطت على حوض السباحة، تحت عنوان "مفقودة". كان هذا ظالمًا، مثلما كانت كلمة الخالة إليزابيث "كن قويًا،" ظالمة، كان صوتها يغرّد عبر الهاتف، كأنما ثمة شيء تعرفه وهو لا يعرفه. هو لا يحتاج أن يكون قويًا أبدًا. وكاينين لم تُفقد؛ هي وحسب ستأخذ وقتها قبل أن تعود.

احتضنته أمه. "هل كنتَ تأكل يا ريتشارد؟" سألت؛ بطريقة أُسرية مُحبّة، الطريقة التي تتكلم بها أمٌّ مع ابنها الذي أغفل أن يعتني بنفسه. حضنته بقوة، وهي تميل فوقه، وهما متجهان إلى غرفة المعيشة، وباغته شعور غير مريح بأنها تظن أنها تهاجم كاينين عن طريق مهاجمته.

كان والد كاينين جالسًا مع مادو ورجلين آخرين من أوموناتشي. صافحهم ريتشارد وانضم إليهم. كانوا يحتسون البيرة ويتحدثون حول حكم القضاء الأهلي، الموظفين المدنيين الذين صاروا بلا عمل. كانت أصواتهم منخفضة، كأنما وجودهم داخل بيت لا يصنع لهم ما يكفي من الأمن. نهض ريتشارد وارتقى الدَّرج إلى حيث غرفة كاينين القديمة، لكن لم يكن هناك أيٌّ من أشيائها. الحوائط كانت مثقوبة بالمسامير؛ ربما المحتلُّ اليوروبي كان يعلق صورًا كثيرة.

الخضار الذي قُدِّم على العشاء كان مليئًا بالسمك؛ لم تكن كاينين لتحب ذلك وكانت سوف تميل عليه وتقول ذلك. بعد العشاء، خرج ريتشارد ومادو للجلوس في الشرفة. كان المطر قد توقف، وكانت أوراق النبات بالأسفل تبدو أكثر اخضرارًا.

"الأجانب يقولون إن مليون شخص قد قُتلوا،" قال مادو. "لا يمكن هذا."

انتظرَ ريتشارد. لم يكن واثقًا من أنه يريد أن يشارك في إحدى تلك المحادثات التي يقيمها البيافريون الآن، يكيلون فيها الاتهامات للآخرين، في مقابل دهن وجوههم بالبسالة التي لم تكن يومًا لديهم. كان يود أن يتذكر كيف كانت كاينين تجلس ها هنا وتنظر للأسفل إلى حيث حوض السباحة الفضيّة مياهُه.

"لا يمكن أن يكونوا مجرد مليون." ارتشف مادو بعض البيرة. "هل ستعود إلى انجلترا؟"

أزعجه السؤال. "لا."

"سوف تبقى في نسوكا؟"

"نعم. سأنضمُّ إلى المعهد الجديد للطلبة الأفارقة."

"هل تكتب شيئًا؟"

لا."

وضع مادو كأس البيرة؛ المغطى بقطرات الماء التي بدت مثل فقاعات شفافة. "لا أفهم لماذا لم نقدر نحن أن نصل إلى شيء عن كاينين، لا أفهم على الإطلاق." قال مادو.

لم يحب ريتشارد كلمة "نحن"، ولم يفهم مَن ضمَّ مادو ضمن "نحن". نهض ومشى عبر الشرفة ونظر للأسفل نحو حوض السباحة المُفرَّغ؛ كانت الأرضية مصنوعة من بلاطات مصقولة بيضاء، يمكن رؤيتها عبر طبقة المطر الخفيفة فوقها. استدار إلى مادو. "أنت تحبها، أليس كذلك؟" سأل.

"بالطبع أحبها."

"هل لمستها؟"

كانت ضحكة مادو قصيرة وخشنة.

"هل لمستها من قبل؟" سأل ريتشارد ثانيةً، وأصبح مادو فجأة المسئول عن اختفاء كاينين. هل لمستها من قبل؟"

نهض مادو. تحرك ريتشارد وأمسك ذراعه. تعال عُدْ، كان يود أن يقول: تعال عُدْ هنا وأخبرني إذا ما سبق ووضعت يدك السوداء القذرة عليها. أزاح مادو يد ريتشارد عنه. صفعه ريتشارد على وجهه وشعر بيده ترتجف.

"أيها الأبله،" قال مادو، مندهشاً وذاهلاً بعض الشيء.

شاهد ريتشارد ذراع مادو تعلو، وشاهد الحركة المهتزة للكمة القادمة. وقعت على أنفه، فانفجر الألم في كافة أرجاء وجهه وشعر بجسده خفيفًا وهو يسقط على الأرض. حينما مس أنفه، غمرت أصابعه الدماء.

"أيها الأحمق،" قال مادو ثانية.

لم يستطع ريتشارد أن ينهض. جذب منديله، يداه ترتعشان وقميصه ملطخ بالدماء. نظر إليه مادو لبرهة ثم انحنى ومسك وجهه بين راحتيه الواسعتين وفحص أنفه بعناية. كان بوسع ريتشارد أن يشم رائحة السمك في تنفسه.

"لم أكسرها،" قال مادو وهو يستقيم واقفًا.

ربت ريتشارد على أنفه. وهبط الظلام عليه، وحينما انقشع عرف أنه لن يرى كاينين ثانية وأن حياته سوف تغدو دائمًا مثل غرفة تضيئها شمعة، سوف يرى فقط ظلال الأشياء، دائمًا نصف مضاءة.

أعقبتْ لحظاتِ الأمل الصلد لدى أولانا، حينما كانت على ثقة أن كاينين سوف تعود، مساحاتٌ شاسعةٌ من الألم، ثم جيشاناتٌ من الإيمان كانت تجعلها تهمهم في سرها، حتى تأتي لحظات الانكسار فتتكفئ على الأرض تبكي وتبكي. زارتها ميس آديبايو وقالت شيئًا حول الحزن، شيئًا حلو المسمع ورشيقًا: الحزن هو احتفالية الحب، أولئك الذين خبروا الحزنَ الحقيقي يكون محظوظًا مَن يحبهم. لكنه لم يكن حزنًا ما شعرت به أولانا، كان شيئًا أعظم من الحزن. أغرب من الحزن. هي لم تكن تعرف أين شقيقتها. هي لا تعرف. كانت غاضبة من نفسها لأنها لم تصحُ مبكرًا ذلك الصباح الذي غادرت فيه كاينين إلى آفا أتاك فلم تعرف ماذا كانت ترتدي كاينين ذلك النهار ولأنها لم تذهب معها ولأنها وثقت أن إناتيمي يعرف إلى أين كان يقودها. كانت غاضبة من العالم حينما ركبت الباصات أو ركبت جوار أودينيبو أو ريتشارد للذهاب إلى المستشفيات والأبنية المغبّرة للبحث عن كاينين ولم تجدها.

حينما رأت والديها لأول مرة، ناداها أبوها بـــ"أوللا م،" يا ذَهَبي، فتمنت ألا يفعل لأنها كانت تحس نفسها ملطخةً دون بريق.

"أنا حتى لم أر كاينين قبل أن تغادر. حينما استيقظتُ كانت قد ذهبت،" قالت لهم.

"*آني جا -اتشوتا يا*، سوف نجدها،" قالت أمُّها.

"سوف نجدها،" كرر أبوها.

"نعم، سوف نجدها،" قالت أولانا أيضًا، وشعرت كأنما كانوا جميعا يخدشون بيأس ودون رجاء حائطًا صلبًا مقروحًا.

حكى كل منهم للآخرين حكايات حول أناس وُجدوا، وعادوا بعد شهور كانوا فيها مفقودين. لم يحكوا لبعضهم البعض الحكايات الأخرى، حول أولئك الذين لا يزالون مفقودين، وعن العائلات التي تدفن قبعات خاوية.

الجنديان اللذان أتيا وأكلا أرز الجولي ملئاها بالغضب. رقدت على أرضية غرفة المعيشة وصلّت لله ألا يجدا جنيهاتها البيافرية. وبعدما غادرا، أخرجت الأوراق المالية المطوية من المظروف المخبأ في حذائها وخرجت وأشعلت عود ثقاب تحت شجرة الليمون. رآها أودينيبو. لم يكن يوافقها، كانت تعلم، لأنه احتفظ بعلَمه مطويًّا داخل جيب بنطاله.

"أنت تحرقين الذاكرة،" أخبرها.

"لا، أنا لا أفعل." هي لا تضع ذاكرتها في الأشياء التي يقدر الغرباءُ أن ينتزعوها منها. "ذاكرتي داخلي."

مرت أسابيع وبدأت الأمطار تجري من جديد والفراشات عادت إلى الفناء الأمامي ونما شعر بيبي أسود مصقولاً. صناديقُ من الكتب كانت تأتي أودينيبو من خارج البلاد. *إلى الزميل الذي*

نهبته *الحرب*، هكذا كانت تقول الورقة المصاحبة، من شخص معجب بديفيد بلاكويل *في محبة الرياضيات*. استغرق أودينيبو أسابيع في قراءتها. "انظري، لديَّ الطبعة الأولى من هذا الكتاب،" كان يقول هذا غالبًا.
أرسلت إدينا كتبًا وثيابًا وشوكولاته. نظرت أولانا إلى الصور المرفقة ووجدت إدينا تبدو أجنبية، امرأة تعيش في بوسطن ولديها شعر ناعم لامع. مر وقت طويل جدًّا منذ كانت إدينا تعيش في الشقة المجاورة لها في شارع إلياس، وبدت كأنها مدة أطول منذ شكَّل هذا الفناء في شارع أوديم خطوط حياتها. حينما كانت تقوم بجولات طويلة في حرم الجامعة، متجاوزة ملاعب التنس وميدان الحرية، فكرت كم كان الرحيل سريعًا وكم هي بطيئة جدًّا العودة.
ضاع حسابها في بنك لاجوس. لم يعد موجودًا. بدا الأمر كأنما انتُزعت ملابسها عنوة؛ كأن شخصًا ما قد نزع عنها ثيابَها وتركها ترتجف عاريةً في البرد. لكنها وجدت علامة طيبة هناك. بما أنها فقدت مدخراتها، فمن غير الممكن أن تفقد شقيقتها أيضًا؛ حارسُ القدر ليس شريرًا هكذا.
"لماذا الخالة كاينين مازالت في آفا أتاك؟" كانت بيبي تسأل كثيرًا، بنظرة شك ثابتة.
"توقفي عن سؤالي يا بنت!" قالت أولانا. لكنها وجدت علامة في سؤال بيبي أيضًا، رغم أنها لم تقدر أن تفكَّ شفرة معناها. أخبرها أودينيبو أن عليها أن تتوقف عن ملاحقة العلامات في كل شيء. كانت غاضبة أن كان بوسعه ألا يوافق علاماتها في عودة كاينين ثم غدت ممتنة أنه بدأ يفعل، لأن هذا معناه أنه لم يصدق أن شيئًا ما قد حدث بوسعه أن يجعل عدم موافقته غير مناسبة.
حينما جاء بعض الأقارب من أومونانتشي واقترحوا أن يستشيروا ديبا، سألت أولانا الخال أوسيتا أن يذهب. أعطته قارورة ويسكي وبعض المال لشراء عنزة من أجل الوحي. قادت السيارة إلى نهر النيجر لتلقي صورة كاينين. وذهبت إلى منزل كاينين في أورلو ومشت حوله ثلاث مرات. وانتظرت الأسبوع الذي حدده ديبا، لكن كاينين لم تعد.
"ربما لم أفعل شيئًا ما على نحوه الصحيح،" أخبرت أودينيبو. كانا في غرفة المكتب. الأرض كانت مليئة ببقايا الأوراق المحترقة من صفحات كتبه المحترقة.
"الحرب انتهت لكن الجوع لم ينته يا نكيم. هذا الديبا فقط كان جائعًا للحم العنزة. لا يمكن أن تؤمني بهذه الأمور."
"أنا أؤمن بها. أؤمن بكل شيء. أؤمن بكل شيء سوف يعيد إليّ شقيقتي." نهضت وذهبت إلى النافذة.
"نحن عدنا،" قالت.
"ماذا؟"
"أهلنا يقولون إننا جميعًا نتجسد ونتقمص، أليس كذلك؟" قالت.

"*أوا م، أوا أوزو*. حينما أعود من جديد في حياتي القادمة، سوف تكون كاينين شقيقتي."
كانت قد شرعت في البكاء بنعومة. فأخذها أودينيبو بين ذراعيه.

8. الكتاب: كان العالمُ صامتًا حينما كنّا نموت

كتبَ آجوو إهداءَه أخيرًا: إلى سيدي، رجُلي الطيب.

***

تمت

عن المؤلفة

استطاعتِ الكاتبةُ النيجيرية الشابّة "تشيماماندا نجوزي آديتشي" في سنواتٍ قليلة أن تحتلَّ مكاناً مرموقًا في ساحة الأدب العالميّ؛ حدَّ أن الأديب النيجيريّ الشهير "شينوا آشيبي" المُلقَّب بـــ"أبي الأدب الأفريقيّ الحديث"، أعلن قائلاً: "عادةً لا نربطُ الحكمةَ بالمبتدئين، ولكن هاهي كاتبةٌ جديدة مُنحتْ موهبةَ رواةِ القصص القُدامى. آديشي أتتْ مكتملةً".

ولدت آديتشي في 15 سبتمبر 1977 في بلدة إينوجو بنيجيريا، لأبوين من قبيلة الإيبو Igbo، هما جريس وجيمس آديتشي. وهما مثقفان أكاديميان يعملان بالجامعة. الأبُ نائب مستشار إحدى الجامعات النيجيرية، والأمُّ محاضِرةٌ بالجامعة نفسها. هي ذاتها الجامعة التي درست فيها تشيماماندا الطبَّ لعامين، قبل أن تغيّر مسار حياتها وتترك الطبَّ لتغادر إلى الولايات المتحدة، بعد حصولها على منحة للدراسة في جامعة دريكسل بفيلادلفيا، ثم انطلاقها للحصول على درجة علمية في الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة إيسترن كونكيتكيوت التي تخرجت فيها عام 2001 ثم لتحصل، فيما بعد، على ماجستير الكتابة الإبداعية من جامعة جونز هوبكنز في بلتيمور.

قدمت روايتها الأولى "الخُبيّزة الارجوانية" في أكتوبر2003 ، فحظيت بتقدير نقديٍّ عال. لتُدرَج من فورها في القائمة الصغرى لجائزة أورانج في عام 2004، وحصلت خُبيزتها الأورجوانية على جائزة "أفضل كتاب أول" في إطار جوائز كتاب الكومنولث في عام 2005.

أصدرت روايتها الثانية "نصفُ شمس صفراء" في أغسطس عام 2006 في المملكة المتحدة, وفي سبتمبر في الولايات المتحدة الاميركية، لتفوز بجائزة "الأورانج" البريطانية الرفيعة عام 2007. وهي الجائزة التي أستحدِثت عام 1996 وتُمنح لافضل رواية كُتِبَت بالإنجليزية خلال العام. وتعدُّ آديشي أصغر الفائزين سِنًّا بهذه الجائزة (29 عامًا)، وكذلك أول أفريقية تحصل عليها. وكان ترتيبها الثانية عشرة في تسلسل الفائزين بهذه الجائز، منذ نشأتها.

لها مسرحية واحدة بعنوان "من أجل حبِّ بيافرا". ومجموعة شعرية "القرارات" صدرت في لندن 1998 عن دار نشر مينيفرا.

تقسم أديتشي وقتها بين نيجيريا، الوطن، وبين الولايات المتحدة، وحصلت على زمالة هودر في جامعة برنستون في العام 2005 ــ 2006، وتتابع حاليًّا دراستها في إطار برنامج الدراسات الإفريقية بجامعة يال الأميركية. وأعلنت في حوار صحافي أنها ستسلط الضوء في أعمالها الادبية القادمة على موضوع هجرة النيجيريين الى أمريكا.

عن المترجمة

فاطمة ناعوت، مواليد القاهرة عام 1964. كاتبةٌ صحفية وشاعرة ومترجمة مصرية. تخرجت في كلية الهندسة قسم العمارة جامعة عين شمس. شاركت في العديد من المحافل الشعرية العالمية. لها، حتى الآن، سبعة عشر كتابًا ما بين الشعر والترجمات والنقد. تكتب أربعة أعمدة أسبوعية ثابتة في صحف مصرية وعربية، هي: "المصري اليوم"/ الاثنين، "اليوم السابع"/ الثلاثاء، "الرؤية" العُمانية/ الأربعاء، "نهضة مصر"/ السبت. عضو اتحاد كتّاب مصر، ونادي القلم الدولي، ومكتبة الشعراء الأسكتلندية، ونقابة المهندسين المصريين.

مجموعات شعرية:

نقرة إصبع-2002، على بعد سنتيمترٍ واحد من الأرض- 2003، قطاع طولي في الذاكرة–2003، فوق كفِّ امرأة– 2004، A Bottle of Glue -بالصينية والإنجليزية-2007، هيكلُ الزهر-2007، قارورة صمغ – 2008، اسمي ليس صعبا- 2009.

ترجمات:

مشجوجٌ بفأس- 2004، المشي بالمقلوب- 2004،جيوب مُثقلة بالحجارة- كتابٌ عن فرجينيا- 2004، قتل الأرانب- 2005. أثرٌ على الحائط- 2009- أبناء الشمس الخامسة 2010

كتب نقدية:

الكتابة بالطباشير-2006، الرسم بالطباشير 2009. المغني والحكّاء 2009

قيد النشر:

الوصمة البشرية. رواية لـــ فيليب روث. ترجمة. الهيئة المصرية العامة للكتابة. سلسلة الجوائز

بريد إلكتروني:

f.naoot@hotmail.com
fatma_naoot@hotmail.com